الفضائيـات الإخبارية العربية
بين عولمتين



د. حياة الحويِّك

جيوبوليتيـك وخطـاب الفضائيـات الإخباريـة العربيـة



منتدى المعارف
alMaaref Forum

A
070.43
A872f

د. حياة الحويِّك

الفضائيات الإخبارية العربية بين عولمتين

جيوبوليتيك وخطاب الفضائيات الإخبارية العربية

منتدى المعارف
alMaaref Forum

Antoine 227950

الفهرسة أثناء النشر - إعداد منتدى المعارف

الحويِّك، حياة

الفضائيات الإخبارية العربية بين عولمتين: جيوبوليتيك وخطاب الفضائيات الإخبارية العربية/ حياة الحويِّك.

٥١٢ ص.

ببليوغرافيا: ص ٥٠١ - ٥١٢.

ISBN 978-614-428-045-4

١. الإعلام العربي. ٢. الصحافة العربية. ٣. تكنولوجيا الاتصال - البلدان العربية. أ. العنوان.

384

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمنتدى

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٣

منتدى المعارف

بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت

ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ - لبنان

بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

المحتويات

قائمة الجداول ٩

مقدمة ١١

القسم الأول

المشهد السمعي - البصري الفضائي في المشرق العربي (١٩٩٠ - ٢٠٠٤)

تمهيد ٢٣

الفصل الأول : نظرة بانورامية: المحطّات والباقات الأكثر أهمية ٢٥

أولاً : تواريخ الإنشاء، الجنسيّة، المقرّ والطبيعة ٢٥

ثانياً : وسائل إعلام حكومية أم خاصة؟ المالكون والتمويل: الحكومات، القطاع الخاص، الإعلان ٣٢

ثالثاً : بين رؤيتين وأربع وقائع: التوطين، إعادة التوطين، والخصخصة ٥٧

الفصل الثاني : المحطّات الأربع: الجزيرة، أبو ظبي، العربية، المنار؛ من هي؟ من يسيطر عليها؟ ٧١

أولاً : كيف تُقدّم القناة نفسها وكيف يراها الآخرون؟ ٧١

ثانياً : الشبكات التي تتحكّم بعمل المحطّات ٨٧

الفصل الثالث : الصحافيون العاملون وتوزيعهم ١٠٥

أولاً : الأعداد، الصحافيّون والمراسلون ١٠٥

ثانياً : المكاتب في الخارج ١٠٧

ثالثاً : من أيّة دول عربيّة جاء العاملون في الفضائيّات؟ ١٢٤

رابعاً : توزيع العاملين بحسب الجنس: رجالاً ونساء ١٣٥

الفصل الرابع : كيف يتوزّع جدول البرامج؟
البرامج: أيّ توازن على الجدول؟ ١٣٧

تمهيد ١٣٧

أوّلاً : البرامج: أيّ توازن على الجدول؟ ١٣٨

ثانياً : توزيع البرامج بحسب الموضوع، المضمون ١٤٥

ثالثاً : توزيع البرامج بحسب أولويات المناطق
والقضايا التي يتمّ تناولها ١٥٠

رابعاً : توزيع البرامج بحسب الإنتاج:
التوازن بين البرامج المنتجة محلياً والمستوردة ١٥٢

خامساً : توزيع البرامج بين مُوقّعة ومجهولة الهويّة ١٥٤

القسم الثاني
جيوبوليتيك نشوء وتطوّر القنوات الإخباريّة الأربع

الفصل الخامس : النظام العالمي الجديد وترجمته الإعلامية ١٥٩

تمهيد ١٥٩

أولاً : خصائص النظام العالمي الجديد وترجمتها الإعلامية ١٦١

ثانياً : تحديات مستقبل الهيمنة الأحادية للقوة العظمى:
ودور العالم العربي في تثبيت السيطرة ١٧٠

ثالثاً : النظام الإقليمي الجديد وترجمته الإعلامية ١٩٠

الفصل السادس : التعقيدات والمنافسات العربية تتقاطع
مع النظام العالمي الجديد: محطّات المنوّعات ١٩٩

تمهيد ١٩٩

أولاً : التطورات الجيوسياسية ١٩٩

ثانياً : مرحلة قنوات المنوّعات ٢١٣

الفصل السابع : مرحلة القنوات الإخبارية في الخليج ٢٣١

أولاً : المحاولة السعودية الأولى تفشل،
قطر والإمارات تتلقّفان الكرة ٢٣١

ثانياً : قطر ـ الجزيرة: الوجود عبر الإعلام ٢٣٦

ثالثاً : قناة أبو ظبي الفضائية:
اللوغو الأزرق الذي تحدّى هيمنة الجزيرة ٢٦٣

رابعاً : العربية: بديل ناجح بعد فشلين سعوديين ٢٨٠

الفصل الثامن : المحطات اللبنانية والتداخل الإقليمي المحلي:
تاريخ من التعقيدات وعدم الثقة:
المنار قناة ذات خصوصية ٢٩٧

تمهيد ٢٩٧

أولاً : صورة بلد قائم على التوزيع الطائفي ٢٩٨

ثانياً : حزب الله ـ المنار: نتاج توازنات محلية وإقليمية ٣١٦

القسم الثالث
بحثاً عن ثقافة ديمقراطية في خطاب الفضائيات موضوع البحث
وفي شبكات السلطة المسيطرة عليها: الفرد، المجموعة،
المجتمع الـ «أنا»، الـ «النحن» الوطنية وما بينهما من تكتلات فئوية

تمهيد ٣٤٩

الفصل التاسع : البرامج الحوارية ظاهرة غير متوافرة في الفضاء
العام، فهل ستساهم في تشكيله؟ ٣٥٣

تمهيد ٣٥٣

أولاً : المسافة بين الشاشة والفضاء العام:
تعبيرات مختلفة عن الحرية ذات تفسيرات متناقضة ٣٥٣

الفصل العاشر : المواضيع المُغيَّبة: التهميش أو الإقصاء ٣٧٧

تمهيد ٣٧٧

أولاً : التهميش ٣٧٩

ثانياً : الإقصاء: المواضيع المغيّبة ٣٩٠

الفصل الحادي عشر : غياب السيادة الوطنية، الانكفاء نحو الهويات الفئوية أو الهرب نحو خيار خارجي ٤٠١

تمهيد ٤٠١

أولاً : عدّة وجوه لغياب السيادة المفروض، المراد والمقبول: على الموارد، الدفاع، الأرض والإرادات ٤٠٣

ثانياً : تناول الموضوع الفلسطيني بين إحياء الأمل وردات الفعل الانتقائية ٤٠٧

ثالثاً : الخطاب المتعلق باحتلال العراق يعمق فقدان الثقة بالدولة، الانكفاء أو الهرب نحو الآخر ٤٢٢

الفصل الثاني عشر : صراع ثلاثي: حضارات، إثنيات ومذاهب، الفرد والمجتمع والدولة هم الضحايا ٤٣٧

تمهيد ٤٣٧

أولاً : صراع الحضارات: عولمتان على حساب الفرد والمجتمع ـ الأمة ٤٤١

ثانياً : صراع الطوائف والمذاهب: محرّكون وجماهير عمياء: تدمير ذاتي وتحويل لاتجاه العداء ٤٦٠

خاتمة ٤٧٣

ثبت المصطلحات ٤٩٣

المراجع ٥٠١

قائمة الجداول

الرقم	الموضوع	الصفحة
١ ـ ١	جدول بانورامي للمشهد التلفزيوني الفضائي في المشرق العربي، ١٩٩١ ـ ٢٠٠٤	٢٦
١ ـ ٢	المصادر والعائدات الإعلانيّة للمحطّات الأربع، ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤	٤٤
١ ـ ٣	عائدات قناة أبو ظبي بين عامي ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	٤٦
١ ـ ٤	العائدات الإعلانية لستّ محطّاتٍ تلفزيونيّة لبنانيّة لعام ٢٠٠١	٥٢
٢ ـ ١	جدول الهوية السياسية والأيديولوجية للمحطّات الأربع	٨٧
٢ ـ ٢	الهيكل الإداري لمجموعة إم بي سي	٩٣
٣ ـ ١	جدول توزيع الموظفين (الفترة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤)	١٠٦
٣ ـ ٢	توزيع الصحافيّين العاملين، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	١٢٥
٣ ـ ٣	توزيع العاملين بحسب الجنس: رجالاً ونساء	١٣٥
٤ ـ ١	توزيع جدول البرامج بحسب الشكل، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	١٣٨
٤ ـ ٢	توزيع البرامج بحسب الموضوع، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	١٤٥
٤ ـ ٣	توزيع البرامج بحسب أولويات المناطق والقضايا، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	١٥١
٤ ـ ٤	نسبة البرامج المحليّة والعربيّة إلى المُستورد	١٥٣
٤ ـ ٥	توزيع البرامج بحسب المصدر (موقّع ـ مجهول الهويّة) بين ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤	١٥٤

مقدمة

«نحن... نعلن إرادتنا وتصميمنا المشتركين في بناء مجتمع إعلام ذي بعد إنساني، يعطي الأفضلية للتنمية. مجتمع يستطيع كل فرد فيه استحداث المعلومات والمعارف والنفاذ إليها واستخدامها وتقاسمها، ويتمكن فيه الأفراد والمجتمعات والشعوب من تسخير كامل إمكاناتهم للنهوض بتنميتهم المستدامة ولتحسين نوعية حياتهم»[(١)].

«بين ١٩٨٩ ـ ١٩٩١، انتهى القرن العشرون قبل نهايته الفعليّة بعشر سنوات، حيث أكدت استقالة غورباتشوف في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، نهاية الشيوعيّة، تلك النهاية التي كان قد أعلنها قبل سنتين سقوط جدار برلين، غيّر العالم اتّجاهه، وكذلك في الوقت نفسه، على ما يبدو، وسائل الإعلام»[(٢)].

«بعد أن ظلّت اليونسكو لوقت طويل تفضّل مُصطلح «مجتمع المعلومات»، اتجهت الآن نحو فكرة استبداله بـ «مجتمع المعرفة»[(٣)].

«لقد دخلت أولى تكنولوجيّات الاتصال إلى دول العالم الثالث بالتوافق مع رؤيةٍ تطوّعيّة سوّقتها الأمم المتّحدة. كانت تتّجه نحو أهدافٍ تربويّة، ثقافيّة واجتماعية. لكنّ استعمالها أخذ يرتبط تدريجياً بأهدافٍ اقتصادية»[(٤)].

---

(١) إعلان مبادئ جنيف غداة المرحلة الأولى من القمّة العالمية لمجتمع الاتصالات <http://www.itu.int/wsis/indexar.html>.

(٢) Francis Balle, *Médias et sociétés*, 11ème éd. (Paris: Montchrestien, 2003), p. 659.

(٣) Armand Mattelart, «Jeter les bases d'une information éthique,» *Le Monde diplomatique*, no. 597 (décembre 2003), p. 33.

(٤) Lefebvre Ivonne Mignot, «Des mutations technologiques, économiques et sociales sans frontières,» in: Transfert des technologies de communication et de développement, revue Tiers-Monde, 1987, pp. 487-51, 1, p. 498.

مجتمع المعلومات، مجتمع الاتصالات، مجتمع المعرفة، تكنولوجيا في خدمة التنمية البشرية أو في خدمة اقتصاد السوق وسياسات العولمة، ترجمة للنظام العالمي الجديد، أيّاً يكُن الأمر «فإنّ وسائل الاتصال قد تقدّمت لتطرح نفسها مقياساً، بامتياز، لتطوّر الإنسانيّة»[٥] في مراحل صعودها وهبوطها، وبخاصة بعد سقوط أيديولوجيات التطور المستمر.

فتاريخ تطوّر وسائل الإعلام، هو في أحد وجوهه تاريخ التطورات والتحولات السياسية الكبرى، منذ العصور القديمة وحتى المرحلة المُعاصرة. كما ترافق تطوّر الوسائل، الوسائط «Medium» مع تطوّر في الخطاب، في الرسالة، في التأثير وبالتالي في نظريات علوم الاتصال. وإذا كانت المرحلة الحديثة قد بدأت بالصحافة المكتوبة وانتقلت إلى الراديو الذي كان وسيلة دعاية الدولة في الحربين العالميتين، ثُمّ تبعه التلفزيون في مرحلة الحرب الباردة لتأتي الفضائيّات مع انهيار جدار برلين وبروز النظام العالمي الجديد. حيث تُمثّل وسائل الإعلام الخاصة، التجاريّة، الليبراليّة، الإخباريّة منها ووسائل المنوّعات تعبيراً عن هذا النظام، في خدمة العولمة واقتصاد السوق.. فإن هذه المعادلة تنطبق تاريخياً على الساحة العربية، مُنذ الجاهليّة، إلى الإسلام ومن ثم مراحله المختلفة، حيث كان كُلّ تغييرٍ يجد دعماً وترجمةً في وسائل اتصال جديدة وخطاب جديد تتوقّف طبيعتهما على طبيعة المرحلة.

«العربيّ في الصحراء،

يعشق ما يسيل من القوافي، كالنجوم، في عباءته، ويعبد ما يقول.

لا بدّ من نثر إذاً،

لا بد من نثر إلهي إذن، لينتصر الرسول»[٦].

تُفسّر أبيات محمود درويش هذه، التحوّل الذي طرأ على الخطاب العربي مع ظهور الإسلام؛ ففي الجاهليّة كانت سوق عُكاظ هي «القناة

(٥) Armand Mattelart et Michèle Mattelart, *Histoire des théories de la communication*, repères; 174, 3ème éd. (Paris: La Découverte, 2004), p. 104.

(٦) انظر قصيدة «قافية لأجل المعلقات،» في: محمود درويش، **لماذا تركت الحصان وحيداً؟** (بيروت: منشورات رياض الريّس، ٢٠٠١).

الإعلامية» الرئيسة. يجتمع فيها الشعراء دوريّاً ليُنشدوا قصائدهم التي لا تنطق فحسب باسم صاحبها بل باسم قبيلته. كان الشاعر صحافيّ عصره والناطق الرسمي باسم قبيلته، يُدافع عن تفوّقها وقيَمها في إطار منظومة القِيَم القبلية السائدة. جاء الإسلام يُحارب الجزء الأكبر من هذه المنظومة فحارب الخطاب الشعريّ والشعراء، ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون**﴾[٧]. لصالح الخطاب النثري والديني (القرآن الكريم، الحديث والخطابة) الحامل لمنظومة القيم الجديدة.

في المرحلة الأُمويّة احتاجت الدولة الفتيّة إلى دعم القبائل العربية لتثبيت حكمها وحماية حُدودها؛ فأعيد الاعتبار إلى الخطاب الشعري بصِيَغِهِ وقِيَمِهِ الأولى بما فيها شعر الفخر القَبَلي.

انتقل الحكم إلى العباسيّين بدعم الفرس وقوميّات أخرى جمعها الإسلام، ضمن شعار «لا فضل لعربي على أعجمي». فإذا بهذا الخليط في الحكم وفي المجتمع ينعكس بتنوّعٍ بين النثر والشعر، بل وبتطوّر انقلابي ثوري في الشعر نفسه، تطوّراً لم يكن في الشكل إلا انعكاساً لثورةٍ في المنظومة القيميّة ما ترافق مع ظهور مُكثَّفٍ في الحركات الاعتراضية والإصلاحيّة.

نقفز إلى المرحلة الحديثة حيث نجد أنّ التطورات في النظام العالمي قد انعكست دائماً إقليمياً وعربياً وفي وسائل الاتصال والإعلام. هنا نُسجّل ثلاثة مفاصل مُهمّة:

الحرب العالمية الأولى وما رافقها من صعود الحسّ القومي العربي بالتوازي مع انحطاط واحتضار الإمبراطوريّة العثمانيّة. ازدهرت الصحافة المكتوبة، وبخاصة في مصر وفي المهجر الأمريكي متأثرة بالتقاء خطّين: النضال القومي لأجل الاستقلال والوحدة، والمفاهيم النهضويّة المرتبطة بالمنجزات والقيم القوميّة التي بُعثت وتغذّت بحداثةٍ حملها الانفتاح على الثقافة الأوروبيّة الذي حمله الطلاب العائدون والذين تحوّلوا إلى كبار مُفكري وفناني وصحافيي عصر النهضة.

بعد الحرب العالمية الثانية، شهدت الحرب الباردة كمّاً من الانقلابات

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة الشعراء،» الآية ٢٢٤.

والثورات العربيّة على رأسها ثورة تموز/ يوليو في مصر. وانقسم العالم العربي إلى خطّين: الثوريّون المؤيدون للمعسكر السوفياتي، وأهل الاعتدال المؤيدون للمعسكر الأطلسي. غير أنّ الخطاب الإعلامي المُختلف مضموناً كان ذا طابع واحد في المعسكرين: خطاب أحادي مضبوط يخضع للرقابة والأقفال المُحكمة التي تحرسها وزارات الإعلام وأجهزة الأمن. أمّا من حيث الوسائط، فقد كان العصر عصر زعامة الراديو الذي ينتمي حصرياً إلى القطاع العام. وعندما ظهر التلفزيون في الستينيات لم يخرج بدوره عن ملكيّة القطاع العام. هذا وإن ظلّت الصحافة المكتوبة حاضرة وبقوّة، ولكن تحت سلطة الرقابة الرسميّة نفسها.

أخيراً جاء النظام العالمي الجديد وترجمته ثورة وسائل الاتصال المرتبطة بالثورة التقنية وبانتصار ليبرالية السوق؛ فوسَمتْ بدايتُه المُتقدّمة العالم، وعلى وجه الخصوص العالم العربي؛ فعام ١٩٨٩، هو عام سقوط جدار برلين وعام نهاية الحرب العراقيّة - الإيرانية؛ أمّا عام ١٩٩١، فهو عام بداية النظام العالمي الجديد وعام الحرب الأولى ضدّ العراق. هذه الحرب التي أقامت نظاماً إقليميّاً جديداً إحدى سماته الثورة التي حصلت في مجال الإعلام الفضائي حيث انطلقت الفضائية العربية الأولى مع الحرب عام ١٩٩١، لينتقل عدد التلفزيونات الفضائية العربيّة إلى ٥٠ ونيّف عام ٢٠٠٣، تاريخ احتلال العراق، إلى ٢٥٠ قناة عام ٢٠٠٥ وأكثر من ٤٠٠ قناة عام ٢٠٠٨؛ فيما يترجم بشكل مثل نظرية فرانسيس بال التي أوردناها أعلاه حول انتهاء القرون قبل نهايتها الفعلية بعشر سنوات، وحول تغيُّر توجه العالم منذ عام ١٩٩٠، ومعه تغيَّر توجه وسائل الإعلام.

أهي ظاهرةٌ ليبراليةٌ إعلاميةٌ اقتصاديّةٌ وسياسيةٌ؟ أهي حريةُ تعبيرٍ حقيقيةٍ؟ هل سيخدمُ عملها عمليةَ التحوّلِ الديمقراطيِّ والحريّات، أم أنّها ستخدم من يسمّيهم سيرج موسكوفيتشي «المحرّكون» (Meneurs)؟ والذي يشكو عالم الاجتماع من تصاعد نفوذهم وهيمنتهم بقوله: «في بداية هذا القرن كُنّا واثقين من انتصار الجماهير؛ في نهايته وجدنا أنفسنا، بالكامل، أسرى للمحركين»(٨).

(٨) Serge Moscovici, *L'âge des foules: Un traité historique de psychologie des masses* (Paris: Fayard, 1981), p. 1.

هؤلاء «المحرّكون» الذين يتحكّمون بالاستراتيجية وتنفيذها، هل هُم القوى العولميّة أم الزعماء وقادة الأنظمة السياسية القائمة الذين عرفوا كيف يتأقلمون مع «الاتجاه الجديد» الذي تحدّث عنه فرانسيس بال؟ أم أنّهم كُلّ ذلك معاً في إطار تواطؤ ضمني؟ هل هُم عناصر شبكات سلطة أكثر تعقيداً وسياقاتٍ متعددةِ المهامّ والوظائف ترتسم وتتقاطع في تداخل معقّد في ما بينها، عالمياً فإقليمياً فمحلياً، جيوسياسياً اقتصادياً ثقافياً واجتماعياً، لترسم كلها معاً ما يُسميه أشكينازي «السياق الكُلي»؟

أهي الولايات المتحدة التي تتزعّم النظام العالمي الجديد، هي من يتزعّم أيضاً هؤلاء «المحرّكين» الذين يقودون ويُوجّهون ظاهرة الفضائيات العربيّة، أم هي الشركات العولميّة المتعددة الجنسيّات والمُتفرّعة محليّاً، أم قوىً أخرى؟

في عام ١٩٨٩، دعا هيربرت أ. تشيلير إلى إعادة تأسيس مفهوم «الإمبريالية الثقافية والإعلامية الأمريكية». مُعتبراً أنّ هذه الإمبرياليّة قد اتّسمت بظاهرتي قطيعة بالنسبة إلى الفترات السابقة:

«قطيعة، لأنّ إعادة توطين المشهد السمعي - البصري الوطني لا يؤدّي إلى تنامي تداول المُنتجات الثقافيّة ذات الماركة الأمريكية فحسب، بل، وفي ما هو أبعد من ذلك تُساعد حركة الخصخصة والتحوّل التجاري إلى احتواء الفضاء الإعلامي والثقافي»، لدول الشمال كما لدول الجنوب بواسطة نظام الشركات العابرة للقارات (Transnational Corporate System). وقطيعة ثانية تتمثّل في «بروز تكتّلات (Trust) ثقافيّة ضخمة مُندمجة في هذا النظام تؤمّن بيئةً ثقافيّةً شاملة لسوقٍ عولمي»(٩).

ويُلاحظ أنّ حركة خصخصة التلفزيونات العربية وتحويلها إلى فضائياتٍ تجارية قد بدأت من لندن عام ١٩٩٠.

في عام ١٩٩٢، عاد تشيلير إلى تناول الموضوع مرّة ثانية: «لم تمت الإمبريالية الأمريكية، لكنّها لم تعد تصف بشكل مُناسب الحالة الثقافية

(٩) Herbert I. Schiller, *Mass Communications and American Empire*, 2nd ed., updated (Boulder, CO: Westview Press, 1992), pp. 14-15.

ورد في: Tristan Mattelart, dir., *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières* ([Bry-sur-Marne]: INA; Bruxelles: De Boeck, cop. 2002), p. 58.

العولميّة، لقد أصبح من المفيد أكثر، اليوم، أن نعتبر أنّ الثقافة العابرة للحدود الوطنيّة هي القوة الرئيسة (Transnational Corporate Culture)». وهي ثقافة أشبه بسَلَطَةٍ مرويّة بـ «صلصة الأسلوب العملي الأمريكي في مجال الميديا. . . حيثُ إنّ وسائل الاتصال العولميّة التي أصبحت مُتعدّدة الجنسيّات، ورأسماليّة عابرة للحدود الوطنيّة، لم تفقد شيئاً من قوّة إشعاعها الأيديولوجي. كما إنّ تأثيرها على المستوى الدولي لم يكن يوماً على هذا القدر من القوة، خاصة مع انتصار الثقافة التجارية والقيم الإعلامية الأمريكية، فيما كان يُشكّل سابقاً دائرة الهيمنة السوفياتيّة»[10].

فهل العالم العربي الذي كان مُنقسماً خلال مرحلة ثُنائيّة القطبين بين دولٍ تدخل في دائرة الهيمنة السوفياتيّة وأخرى في دائرة الهيمنة الأمريكية، قد دخل بعد عام ١٩٩١، وبخاصّة عام ٢٠٠٣، بكليّته في دائرة الهيمنة الأمريكية بما تعنيه سياسياً واقتصاديّاً وعولمياً وثقافياً؟ وهل تصُبُّ ظاهرة الفضائيّات في سياق هذا الالتحاق وكيف؟ غير أنّ هذا الواقع لا يحول دون سؤال آخر عمّا إذا كانت الثورة التلفزيونية العربية، لا تشكّل بالرغم من كونها موسومة بالاحتوائية، انطلاقة انفتاح، حريّة تعبير وتعددية في فضاء إعلامي لم يعرف حتّى التسعينيات إلا الخطاب الرسمي، الدعائي والرقابة؟ وهل هي قادرة على أن تروي التعطّش لحريّة التعبير، للمعلومة، للجدل الحرّ وُصولاً إلى تفعيل حركة تغيير تاريخيّة؟ أم أنّ هذا العطش نفسه سيُشكّل أرضيّةً للتلاعُب بتوجّهات المتلقّي في عمليّة تحوير وتوظيف لصالح الثقافة العولميّة الاستراتيجية الأمريكية، أو لصالح استراتيجيّاتٍ مُتعددة، مُحرّكون مُتعددون، وتيّاراتٍ مُتعدِّدة، باختصار سُلطاتٍ من كل الأنواع تتقاطع أو تفترق؟ هل يُساهم خطاب هذه الفضائيات في توجيه المجتمعات نحو دمقرطة حقيقية تقوم على أساس دولة المواطنة، دولة القانون، وبالتالي دولة احترام الحرّيات والتعدديّة؟ هل من شأن شكل ومضمون هذا الخطاب التلفزيونيّ أن يُطلق الجدل العام على الساحة العامّة، أم أنّه سيخلق حالة افتراضية تُعيقُ هذا التشكّل؟ هل تُقارب جدّيّاً القضايا الحقيقيّة الكامنة في أساس المشاكل الاجتماعية والسياسيّة والثقافيّة أم أنّها ستتوقّف عند تابوهات مُحدّدة؟ أيّة علاقةٍ تُسوّق وتُبنى عبر الخطاب الإعلاميّ بين الفرد والمجموعة والمُجتمع؟ بين المُساواة والمصالح؟

(١٠) المصدر نفسه.

أيّة مُقاربة مُمكنةٍ لكُلّ ذلك في غياب السيادة وفي التعتيم على تناولها؟ هل من تفعيلٍ للانفتاح الفكريّ والثقافيّ أم تعزيزٍ لصراع الحضارات من جهة، وتعميقٍ للفوارق الاجتماعية، الاقتصادية، الإثنيّة، الدينية والمذهبيّة من جهة أخرى؟

أسئلةٌ تضع مُحدّدات البحث في هذا الكتاب. وإن كان البحث الميدانيّ نفسه يفرض تطوّراً في التناول.

كان غودار، يقولُ عن العمل في فيلمٍ جيّد: «يبدأ العمل بالنسبة إليّ في الميدان، فالعمل الميداني هو الذي يطرحُ الأسئلة، والإشكاليّات، ويقود إلى البحث عن نظريّة أو نظريّات، أعود بعدها إلى الميدان من جديد كي أخرج بالنتائج والأجوبة. علماً أنّ ذلك لا يمنع تطوّر الإشكاليّة مع بناءِ البروتوكول التجريبي، فكلاهُما يبني الآخر»[11].

للإجابة لا بُدّ من رسم «السياق الكُليّ» عبر قراءةٍ جغرافيّةٍ وتاريخيّة، جيوبوليتيكيّة، للعالم العربي ولكن بعد رسم السياق العالمي والإقليمي الذي يحكم تطوّراته. آخذين بعين الاعتبار المُشترك والخصوصيّات التي تُميّز مُختلف بيئات هذا الفضاء العربيّ؛ فالوحدة اللغويّة تجعل منه (وحتّى من مهاجريه) فضاءً جيولغويّاً لعمليّة التلقّي، إذن لدراسة تأثيرات الفضائيّات، كما في تركيبةِ فرق العمل داخلها. من جهة أخرى.

تقودنا الأسباب السابقة إلى تحديد البحث زمنيّاً بين تاريخين: ١٩٩١، تاريخ حرب الخليج الأولى وإطلاق الفضائيّة الأولى، المصريّة (ESCS)، و٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤، تاريخ احتلال العراق، إعلان الشرق الأوسط الجديد وما رافقه من تغييرات في المحطّات الفضائيّات.

اختار البحث أن يُركّز على المحطات الإخباريّة «الخاصّة» بنوعيها: الإخبارية المتخصّصة (En Continue)، والمرنة (Flexible)، (صفة المرنة أطلقها مسؤولو قناة أبو ظبي ليُعبّروا بها عن قناة تكون إخباريّة مُتواصلة في أوقات الأزمات ومُنوّعة في الأوقات العاديّة).

أمّا بالنسبة إلى المساحة التي يُغطّيها البحث، فإنّه من المعروف أنّه كُلما

(١١) Pascal Froissard, «Introduction aux méthodes quantitatives en science de l'information et de la communication,» dans: Stéphane Olivesi, dir., *Introduction à la recherche en SIC* (Grenoble: Presses universitaires de Grenoble, 2007), p. 60.

كانت الإشكاليّة دقيقة ومُحدّدة، اقتضت أن تكون المساحة مُحدّدة وضيّقة، لكنّ مساحة تأثير الفضائيّات العربية وعددها يطرحان مُشكلة في ما يتعلّق بدائرة الاختيار، مُشكلةً حاولنا تحديدها بناءً على ثلاثة معايير:

١ ـ الجغرافيا.

٢ ـ العيار المهني: طبيعة القناة.

٣ ـ تمثيليّة القناة وجمهورها.

المعيار الجغرافي يطرح ثلاثة منظورات للتقسيم البحثي: المشرق، المغرب، وجمهور المهاجرين. وقد اخترنا أن نُحدّد البحث بالمشرق للأسباب التالية:

١ ـ **الخصخصة**: هذه الظاهرة الجديدة في المشهد السمعي ـ البصري اقتصرت على المشرق، حيث إنّ الفضائيّات المغاربيّة ظلّت حُكوميّة (حتّى نهاية الفترة المُحدّدة للبحث ٢٠٠٤).

٢ ـ **طبيعة القناة**: بما أنّ البحث يتناول المحطّات الإخباريّة فلا وُجود لهذا النوع من الفضائيّات على الساحة المغاربيّة (نتيجة لذلك فإنّ المغرب العربي، في ما يخُصّ موضوع هذه الرسالة هو متلقٍّ فقط).

٣ ـ **مستوى الأمّيّة**: حيثُ يتفاوت هذا المستوى كثيراً بين المشرق والمغرب ما يُعطي لتأثيرات التلقي آثاراً مُختلفة.

٤ ـ **العلاقة الخاصّة مع اللغة العربيّة** الفُصحى واللهجات العاميّة في مُختلف الدول العربيّة. أمّا دائرة المَهاجر فتطرح إشكاليّات مُختلفةً تماماً.

أخيراً اختار البحث التركيز المُقارن على القنوات الأربع/ الجزيرة، أبو ظبي، المنار والعربيّة، وذلك للأسباب التاليّة:

١ ـ خلفيّة الباحث المهنيّة التي تركّزت عبر ثلاثين سنة في الإعلام الإخباري الجيوبوليتيكي وبدرجة ثانية الثقافي.

٢ ـ القنوات الأربع المذكورة هي حتّى عام ٢٠٠٤، المحطّات الإخباريّة العربيّة الوحيدة.

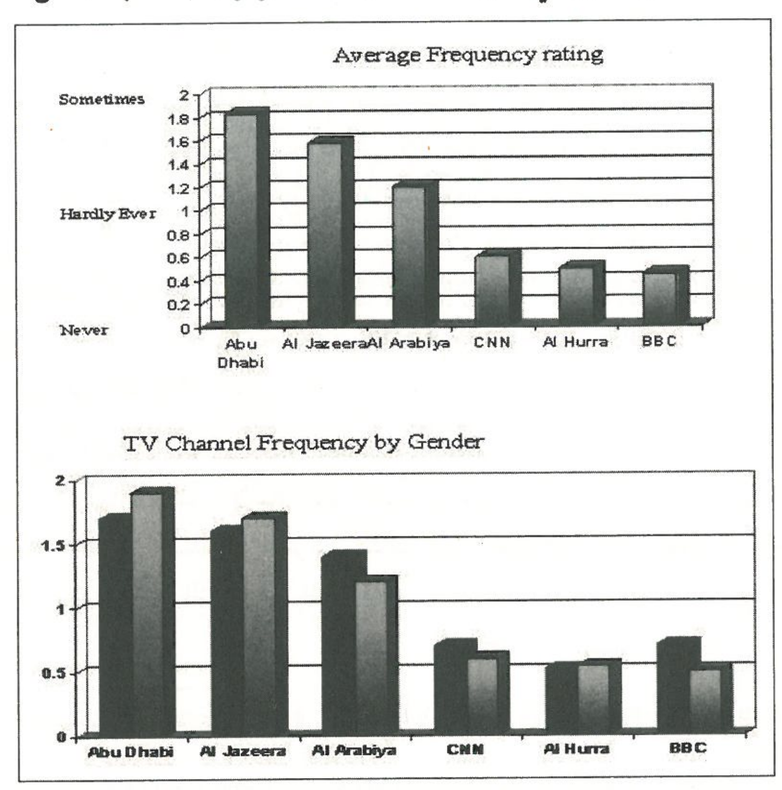
٣ ـ تُمثّل هذه المحطّات القوى السياسيّة والاقتصادية التي تمتلك خُيوط اللعبة في المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط بالتواصل مع القوى الدوليّة.

٤ ـ تحتلّ هذه المحطات، وبخاصّة الخليجيّة الثلاث منها، رأس قائمة قياس المُشاهدة. كما تدُلّ دراسات عديدة نختار منها بعضها (علماً أنّ المنار لم تكُن مطروحة إلا في واحدة من هذه الاستطلاعات فقط).

الأوّل نفّذته السفارة الأمريكية في الإمارات العربية المُتّحدة ويُقيم مُقارنة في مستوى مُشاهدة القنوات الإخبارية بين ثلاث محطّات عربية وثلاث أجنبية (الأجنبيّة لا تدخل في نطاق بحثنا).

الشكل الرقم (م ـ ١)

معدل التردد الإجمالي؛ ترددات القنوات التلفزيونية بحسب الجنس



المصدر: Keith M. Urbahn, *Reporting the Truth: Media Perceptions, Preferences, and Practices among Young UAE Nationals* (Abu Dhabi, United Arab Emirates, 2004), <http://ics-www.leeds.ac.uk/papers/pmt/exhibits/1889/media_report.pdf>.

في استطلاع آخر حول وسائل الاتصال في الشرق الأوسط (المشرق العربي، إيران وتركيا، نظّمه (Spot been communications Ltd.)، ونُشر على

(Telecom web)[١٢]، احتلّت الجزيرة الموقع الأول كرائدة في تطوير البثّ التلفزيوني الفضائي وكرافعةٍ لتغيير وتطوير الإعلام التلفزيوني في العالم العربي. حيث إن البث المُباشر (Direct to Home - (DTH))، تصل إلى كل البيوت من دون تشفير، بعدها جاءت العربية في المركز الثاني والمنار في المركز الثالث.

«إنّ مصطلح الجزيرة، أي اسم القناة الإخبارية، جاء على رأس قائمة المصطلحات الأكثر بحثاً على مُحرّك البحث ليكوس خلال الأسبوع من ٢٤ ـ ٢٩ آذار/ مارس ٢٠٠٣. وبحسب ليكوس فإن البحث عن كلمة الجزيرة شكّل ثلاثة أضعاف البحث عن كلمة (sex) والتي تُشكّل في العادة البطلة المُطلقة لمحركات البحث»[١٣].

كذلك فإنّ استطلاعاً أجراه مركز أبحاث عالم المعرفة وأداره حسن خزندار، الأستاذ في كليّة العلوم السياسية في الجامعة الهاشميّة في الأردن تناول ١٢٥١ أستاذاً جامعياً ينتمون إلى ١٩ بلداً عربيّاً، خرج بما يلي: احتلّت الجزيرة المرتبة الأولى في المُشاهدة بين القنوات الإخباريّة، ٨٩,٤ في المئة يُتابعونها من ٣ ـ ٤ ساعات يوميّاً[١٤]، كذلك فإنّ دراسة أخرى نظّمتها جامعة الملك سعود في الرياض دلّت على أنّ «٥٥ في المئة من أساتذة الجامعات يُفضّلون الجزيرة، وتأتي مجموعة MBC (بما فيها العربيّة) في الموقع الثاني وأبو ظبي في الثالث»[١٥].

أخيراً المنار، القناة ذات الخصوصيّة المميزة ليس على الساحة اللبنانية فحسب، وإنّما العربية الإسلاميّة، حيثُ يُعطيها استطلاع أجرته الهيئة العامة للاستعلامات في فلسطين المرتبة الثالثة في المُشاهدة بعد تلفزيون فلسطين والجزيرة، والمرتبة الثانية في الصدقيّة.

---

(١٢) «Les Moyens de communication au Moyen Orient,» Spot Been Communication Ltd., télécom web.

(١٣) Matthieu Auzanneau, «Chiffre du jour/Moyent Orient/médias, première place pour Al Jazeera qui arrive en tête des recherches via Lycos,» Transfert.net (4 avril 2003), <http://www.transfert.net/1ere-place-pour-Al-Jazeera>.

(١٤) أسعد العزّوني، «إنه يؤكّد مصداقيّتها... الجزيرة القناة الأكثر مشاهدة،» **الرأي** (عمّان)، ٦/ ٧/ ٢٠٠٣.

(١٥) سعود بن فالح الغربي، «مدى اعتماد أساتذة الجامعات السعودية على وسائل الإعلام أثناء الأزمات،» (رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٣).

القسم الأول

المشهد السمعي ـ البصري الفضائي في المشرق العربي (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤)

تمهيد

يقولُ أفلاطون إنّ الديكتاتوريّة معروفةٌ بكونها شكلُ الحُكم الذي يؤمّنُ الفُرصةَ الأكبر لحُصولِ التغيير بِسُهولةٍ وسُرعة[1].

هل يُمكنُ هذه الصيغة أن تُسهِمَ في تفسيرِ ظاهرة الثورة السمعيّة ـ البصريّة الفضائيّة في العالم العربي؟

حتّى عام ١٩٩١، لم يعرف هذا الفضاء إلا المحطّات الأرضيّة الرسميّة التي كان بثُّ كلٍ منها يُغطّي بلادهُ إضافةً إلى أجزاءٍ مِن الدُّول المُجاورة. المُشترَك الوحيد بين جُمهور الدول العربيّة كان المُسلسلات التلفزيونيّة التي تُباعُ لأكثرَ من قناة، وبعضُ البرامجِ التي يتمُّ تبادلها في إطارِ اتّفاقيّاتٍ ثُنائيّة.

١٩٩١ ـ ٢٠٠٤، هي الفترةُ التي اتّسمت بدَعواتٍ أمريكية للتغيير الديمقراطيّ في المنطقة وتسويقِ عصرٍ جديدٍ مِنَ الحُرّيّات، فيما كانت ظاهِرةُ الخصخصةِ تتسارع في كُلِّ المجالات، بما فيها الإعلام.

على الرُغم من ذلك، لم تكُن الليبراليّة الاقتصادية والإعلاميّة الجديدة مُترافِقةً مع ليبرالية ديمقراطيّةٍ سياسيّة في الدول التي هيمنت على الإعلام؛ فالأنظمةُ الشموليّة الأوليغارشيّة، لم تزل في مكانها بالأسرِ نفسها والأسماءِ نفسها. وإذا كان بعضها قد اتخذ بعض التدابير الإصلاحيّة، فإنّ هذه التدابير لم تمسّ العُمق ولم تخرُج عن دائرةِ التأقلُم الذي لا يُهدّدُ السلطةَ المونارشيّة؛ فكيفَ يُمكِنُ إذاً تفسير ثورةِ الإعلام الفضائي في ظِلّ استمرار هذه السلطةِ؟

هل يُمكِنُ هذه الظاهرة أن تُشكّل معبر انفلاتٍ حقيقي من ديكتاتوريّة الأنظمة، بخاصّةٍ أنّها فتحت الطريق أمامَ التعبيرِ عن تعدُّديّةٍ وحرية تعبير غير مسبوقتين؟ ولكن كيف يُمكِنُ ألّا نتساءل عن التناقُضِ بين تحريرِ الإعلام

---

(١) Palton, cite par: Serge Moscovici, *L'ôge des foules: Un traité historique de psychologie des masses* (Paris: Fayard, 1981).

التلفزيونيّ في دول تعيش تحت أنظمةٍ تُقيّدُ الحُريّات السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة؟ عن حقيقة الخصخصة في ضوء البحث عمّن يموّل هذه الفضائيات، عن مدى استقلال هذا التمويل عن السلطات المحلية والعولمية واستراتيجياتها السياسية والاقتصادية في لقاء بين دكتاتوريّة السوق ودكتاتوريّة مراكز قوىً أُخرى؟ فهل الطريق الذي فتحتهُ العولمةُ والثورةُ التقنيّةِ أمامَ خصخصة الإعلامِ قد أدى إلى هيمنة السلُطاتِ المسيطرة على الثروات في العالم العربيّ على الرسالةِ الإعلاميّة في عمليّةٍ تأقلُم، وإخراجٍ جديدٍ لأنظمةٍ تتحكّمُ بالإعلام وتخضعُ بدورها لتحكّمِ أسياد النظام العالميّ الجديد؟ أم أنه فتح الطريق أمام الوصول إلى تشكيل فضاء عامّ ورأي عامٍّ ديمقراطي؟

تتحدّدُ الإجابةُ أوّلاً بتحديدِ القوى السياسيّة، الاقتصادية والدينيّة التي كانت وراءَ إنشاءِ الفضائيّات والتي تتحكّمُ بها. كذلِك القوى والأشخاص الذينَ يُسيّرون آليّةَ عملِها وتحديدِ مضمونِ رسالتها الإعلاميّة؛ فيما يُشكّلُ هدفاً بحثيّاً يقتضي، كي يكونَ صادقاً ومُسنداً، قراءتينِ بانوراميّتين: كمّيّة ونوعيّة لهذا المشهدِ الإعلاميّ الذي رسَمْتهُ الفضائيّات الخاصّة في المشرقِ العربي خلال الفترةِ المُحدّدةِ للبحث؛ تواريخُ وأمكِنةُ الإطلاق، الجنسيّة، المالكون والتمويل، وأخيراً طبيعةُ هذه المحطّات. قراءةٌ ضروريّةٌ كمنصّةِ انطلاق للانتقال إلى التحليل التفصيلي للمحطّات الإخباريّة الأربع التي اختار البحث أن يُركّز عليها: شبكاتها الإداريّة، جدولُ البرامج وجدولُ العاملين.

قبل العبورِ إلى **القسم الثاني**، الذي يتناولُ السياق الجيوبوليتيكي، ومِن ثَمّ **الثالث**، الذي يُحلّلُ المضمونَ والخطاب، في ما يُشكّلُ كُلاً ضروريّاً لفهمِ هذهِ الظاهِرة.

يقولُ ماكلوهان: «إذا كانَ توكفيل قد استطاعَ أن يقرأ القرن التاسع عشر ككتابٍ مفتوح، فذاكَ لأنّهُ قد استوعب تماماً قواعد المطبوع»[٢] لفهم قواعد القرن العشرين كان لا بُدّ من استيعاب قواعد الراديو والتلفزيون. أمّا بالنسبةِ إلى القرنِ الواحدِ والعشرين، فهُناكَ قواعِدُ الفضائيّات، الإنترنت والميديا الجديدة. ولعلّ أفضلَ وسيلةٍ لفهمِ درس القواعد هي البدءُ بالأمثلة، المُلاحظات، وُصولاً إلى القواعد ومن ثَمّ تطبيقها.

(٢) Marshall McLuhan, *Pour comprendre les médias: Les Prolongements technologiques de l'homme* (Paris: Seuil, 1977), p. 32.

الفصل الأول

نظرة بانوراميّة: المحطّات والباقات الأكثر أهمية

أولاً: تواريخ الإنشاء، الجنسيّة، المقرّ والطبيعة

في عام ١٩٩٠، لم يكُن العالم العربي قد عرف بعد مفهوم البثّ الفضائي، وكانت الـ سي إن إن (CNN) أوّل من أدخلهُ إلى المنطقة.

في ١٢ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩٠، أطلق اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري القناة الفضائيّة الأولى إي إس سي (Egyptian Satellite Channel). ثُمّ أعقبتها الـ إم بي سي السعوديّة (Middle East Broadcasting Center). غير أن الاثنتين ظلّتا كظاهرتين نُخبويتين لا يلتقطهما الجمهور العريض. في عام ٢٠٠٣، وصل عدد الفضائيّاتِ إلى ٥٠ قناة مُوزّعة بين المُنوّعات والأخبار. وأصبحت تُشكّل ٧٣ بالمئة من مصدر الأخبار[١]. مُنذئذٍ تسارعَ النمو فشهد عام ٢٠٠٥، إنشاء ٧٥ قناة جديدة ليرتفع العدد عام ٢٠٠٨ إلى ٤٨٢[٢] وعام ٢٠٠٩ إلى ٥٢٠[٣].

وبحسب دراسةٍ نشرها فريق (Arab Advisor Group)، فإن ٩٠ بالمئة من المحطات الفضائيّة التي تبُثّ من العالم العربي تبُث باللغة العربيّة، ٧٣ بالمئة

(١) إبراهيم غرايبة، «الفضائيات العربية.. الواجب والممكن،» الجزيرة نت (٢٤ آب/أغسطس ٢٠٠٣).

(٢) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٩: التغلب على الحواجز، قابلية التنقل البشري والتنمية** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٩).

(٣) **مجلّة اتحاد الإذاعات العربية**، العدد ١ (٢٠٠٨).

منها مُلكيات خاصّة، ٢٥,٩ بالمئة هي محطّات فضائيّة[٤]، تتركّز غالبيّتُها في دول الخليج وبلاد الشام. وتنتمي غالبيّة المحطات الفضائيّة التي أُطلقت بين عامي ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤، إلى باقات، وبخاصةٍ الباقات السعوديّة، إم بي سي؛ أوربت (Orbit Satellite and Radio Television Network)؛ والـ إيه آر تي (Arab Radio and Television Network).

ولا شكّ أنّ هذه القنوات تتفاوت في نسبة انتشارها وتطوّرها. لذا اختار البحث ٢٠ قناةً وباقة أُنشئت خلال الفترةِ المذكورةِ لرسمِ صورةٍ للمشهدِ السمعي البصري الفضائي خلالها. أمّا معاييرُ الاختيار فتتلخّصُ في الخاصّيّةِ التمثيليّة لهذه المحطّات: فهي تُمثّلُ الدول الأكثر انخراطاً في الاستثمار التلفزيوني: مصر، العربيّة السعوديّة، قطر، الإمارات العربيّة المُتّحدة ولبنان. وبمعيارٍ آخر الأردن، لكون عدد من المحطّات بما فيها راديو وتلفزيون العرب، قد اختارت التوطّن في المدينة الحرّة الإعلاميّة الأردنيّة كما هو الحال بالنسبةِ إلى مثيلتيها في دُبي والقاهرة. يكتملُ تنظيمُ هذا الجدول الرقم (١ ـ ١)، بحسبِ معايير تاريخ الانطلاق، مكان الانطلاق، المالكين، الباقات والفُروع، ساعات البث، التمويل بما فيه العائدات الإعلانيّة.

الجدول الرقم (١ ـ ١)

جدول بانورامي للمشهد التلفزيوني الفضائي في المشرق العربي، ١٩٩١ ـ ٢٠٠٤

التمويل	ساعات البث	الفروع	المالك	مكان الانطلاقة	الفضائية	ضبط التاريخ	السنوات
حكومي	٢٤/٢٤		الحكومة المصرية	القاهرة	المصرية	بداية حرب الخليج	١٩٩١
ـ مجموعة أرا ARA ـ الشركة السعودية للأبحاث وللنشر المتخص ـ الحكومة السعودية	٢٤/٢٤	٦	الشيخ وليد الإبراهيم	لندن	MBC	أيلول/ سبتمبر	
Arab Digital Distribution	٢٤/٢٤	٨٧	الشيخ صالح كامل	إيطاليا	ART	-	١٩٩٣

يتبــع

(٤) «Satellite TV 2007 in the Arab World,» Arab Advisor Group, <http://www.babnet.net/rttdetail-11804.asp>.

تابــع

التمويل	ساعات البث	الفروع	المالك	مكان الانطلاقة	الفضائية	ضبط التاريخ	السنوات
ـ مجموعة أرا ARA ـ مجموعة الخليجية ـ شركة تهامة	٢٤/٢٤	-	ـ ١٠+٨+٧ بالمئة عائلة الحريري ـ ٩ بالمئة غالب عبد اللطيف الشماع ـ ١ بالمئة مصطفى رزيان ـ ٠,٨ بالمئة حبيب الصباغ ـ ٠,٤ بالمئة عدنان عراقجي ـ ٠,١ بالمئة عبد اللطيف الشماع	لبنان	المستقبل	تشرين الأول/ أكتوبر	١٩٩٤
مجموعة الموارد	٢٤/٢٤	٣٣	خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز		أوربت	٢٥ أيار/ مايو	
ـ Q Media ـ الوطنيّة للإعلان والنشر	٦ ـ ١٢ ـ ٢٤/٢٤	٥	الحكومة القطرية	قطر	الجزيرة	الأول من نيسان/ أبريل	١٩٩٦
ـ مجموعة شويري ـ شركة تهامة	٢٤/٢٤	٥	ـ ٤٩ بالمئة الأمير الوليد بن طلال ـ ١٨ بالمئة مساهمي ـ ١٠ بالمئة عصام فارس ـ ١٠ بالمئة مارسيل ضاهر ـ ٩ بالمئة بيار ضاهر ـ ٤ بالمئة نبيل بستاني	لبنان	LBC	-	
-	٢٤/٢٤	-	رفعت الأسد	لندن	ANN	-	
Media-Public Management (المنار)	٥ ـ ١٨ ـ ٢٤/٢٤	-	ـ شركة المجموعة اللبنانية للإعلام	لبنان	المنار	-	٢٠٠٠
	٢٤/٢٤	-	ـ آمنة بري ـ سميرة عاصي ـ ياسين جابر ـ عدد من أثرياء الشيعة	لبنان	NBN	أيلول/ سبتمبر	
حكومي	٢٤/٢٤	-	مؤسسة أبو ظبي للإعلام (حكومية).	أبو ظبي	أبو ظبي	١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر	
-	٢٤/٢٤	-	ـ محمد تحسين الخياط ـ محمد عدنان الخياط ـ محمد العويني ـ سعد الله مزرعاني		NEW TV	تشرين الأول/ أكتوبر	٢٠٠١
-	-	٢	د. أحمد بهجت	مصر	دريم	-	
-	-	-	د. حسن راتب	مصر	المحور	-	٢٠٠٢
ـ مجموعة أرا ARA ـ مجموعة الخليجية ـ شركة تهامة	١ ـ ٤ ـ ٢٤/٢٤	مجموعة إم بي سي	الشيخ وليد الإبراهيم	دبي	العربية	٣ آذار/ مارس	٢٠٠٣

يتبــع

تابـــع

	٢٤/٢٤	٩	ـ شركة المجد ـ شركة العلا	السعودية	المجد	٢ أيار/ مايو	
شركة روتانا للخدمات الإعلامية	٢٤/٢٤	٦	الوليد بن طلال		روتانا	ـ	
حكومي	٢٤/٢٤	ـ	إذاعة جمهورية إيران الإسلامية	طهران	العالم	٢١ شباط/ فبراير	٢٠٠٤
	٢٤/٢٤	ـ	سعد البزاز	لندن	الشرقية	ـ	
ـ	١٢ ـ ٢٤/٢٤	ـ	نظمي أوجي	بيروت، لندن	ANB	تشرين الأول/ أكتوبر	
ـ شركة كانتوم للاتصالات (إيلي خوري) ـ أمريكا	٢٤/٢٤		الكونغرس الأمريكي	واشنطن	الحرة	شباط/ فبراير	

المصدر: من إعداد الباحثة بناءً على المصادر التالية: وثائق من أرشيف المحطّات المعنيّة؛ إحصاءات؛ اتحاد إذاعات الدول العربية؛ تقرير **فوربس** في نسخته العربيّة لعام ٢٠٠٥، وتقارير موجودة على مواقع إلكترونيّة.

مواقع الفضائيات: الجزيرة، العربية؛ أرشيف قناة أبو ظبي؛ صحيفة **الوطن** <http://www.watan.com>; <http://www.defenddemocracy.org/index.php?option=com_content&task=view&id=11775969&Itemid=351>, and <http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1179664437359&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FAC>.

يكشفُ الجدول الرقم (١ ـ ١)، عن طبيعةِ الفضائيّةِ الأولى، فهي مصريّةٌ حُكوميّة. أُطلقت في نهاية عام ١٩٩٠، أي بعد عام من سقوطِ جِدارِ برلين وبالتزامنِ مع تحضيرات حرب الخليج الأولى، تحديداً مع نشرِ الوحداتِ المصريّة في حَفْر الباطن في العربيّة السعوديّة في إطار التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المُتّحدة ضدّ العراق. أعلنت مِصر أنّ الهدف من إنشاءِ هذه القناة هو مُقاومةُ دعاية الحرب العراقيّة، في حينِ أنّ مدى البثّ الأرضي للتلفزيون العراقي لم يكُن يبلُغُ الجزيرة العربيّة في حينه. كانت القناة تبثُّ من القاهرة ٢٤/٢٤ ساعة، برامج مُنوّعات مع نشرةٍ إخباريّة على رأسِ كُلِّ ساعة يحتلُّ موضوعُ أزمةِ الخليج الجزءَ الأكبر منها.

بعد تسعةِ أشهر، في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١، جاء الرَّدُّ السعودي سريعاً، حيثُ أُطلقت الـ إم بي سي من لندن. في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤، أُطلقت الباقةُ السعوديّة الثانية أي آر تي من تيليسبازيو «بييرو فانتي» سباس سنتر (Telespazio (Piero Fanti) Space Centre) من فيوتشينو (Fucino)، شرق روما. لتليها بعد خمسةِ أشهر في ٢٥ أيار/ مايو ١٩٩٥، الباقةُ السعوديّةُ الثالثة

أوربت التي تبث من مقرّها في لندن ومن اليونان والبحرين، كما افتتحت مكاتب في كُلّ من روما، قبرص، بيروت، الرياض والمنامة[٥]. تشتركُ الباقات السعوديّة الثلاث في عدّة خصائص: كُلّها باقات تضُمُّ مجموعةً من القنوات المُتخصّصة التي نما عددها بسرعةٍ في السنوات التالية. كُلُّها خاصّة. كُلُّها توطّنت في أوروبّا حتّى عام ٢٠٠٣، عندما عاد بعضها إلى دُولٍ عربيّة غير السعوديّة (الإمارات والأردن).

من جهةٍ ثانية، رسم الاستثمار السعودي الإعلامي دائرتينِ على الساحةِ اللبنانيّة بواسطة رفيق الحريري، صالح كامل، والوليد بن طلال. حيثُ أنشأ الأوّل تلفزيون المستقبل في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، ثُمّ اشترى الثاني ١٢ بالمئة ثُمّ ٢٥ بالمئة من أسهُم الـ إل بي سي آيّ (Lebanese Broadcasting Company International)، قبل أن يشتري الوليد عام ٢٠٠٣ ٤٩ بالمئة من أسهُم هذه القناة، بما فيها أسهُم صالح كامل مُقابل ٩٨ مليون دولار ليصل عام ٢٠٠٨ إلى امتلاك ٨٥ بالمئة من أسهُم القناة[٦]. كذلك اشترى الوليد ١٠ بالمئة من أسهُم الـ إم تي في (Morr Television).

في عام ٢٠٠٣، أنشأت الـ إل بي سي آي شراكةً مع جريدة **الحياة** السعوديّة بهدفِ إطلاقِ قناةٍ إخباريّة، لكنّ التجربةَ فشلت. أمّا لُبنان فقد شهد بين عامي ١٩٩١ ـ ٢٠٠٤، انطلاق ٨ فضائيّات وباقات تبُثُّ كُلُّها من بيروت العاصِمة، منها المنار، تلفزيون حزب الله الذي تحوّل إلى البثّ الفضائيّ عام ٢٠٠٠؛ إن بي إن (NBN)، قناة نبيه بري زعيم حركة أمل؛ تلفزيون الجديد (NTV)، الذي يُمثّل اليسار اللبناني. في عام ٢٠٠٤ انطلقت من لبنان محطّتان غير لبنانيّتين: العالم الإيرانيّة في ٢١ شباط/ فبراير ٢٠٠٤، وهي تبثُّ برامجها من بيروت باستثناء نشرة الأخبار التي تُبثُّ من طهران؛ الـ أي إن بي (ANB) التي أُنشِئت بِرأس مالٍ عراقي ورُخصةٍ لبنانيّة في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤.

خصائِصُ القنوات اللبنانيّة أنّها تبُثُّ كُلّها من بيروت، لا توطين أو إعادة

---

(٥) <http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1179664437359&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FAC>.

(٦) «بعد مُفاوضات طويلة، يتوصّل الوليد إلى امتلاك ٨٥ بالمئة من أسهم «إل بي سي آي» اللبنانيّة،» موقع **إيلاف**، <http://elaph.com>.

توطين، كذلك طبيعةُ المالكين، شخصيّاتٌ سياسية أو أحزابٌ سياسيّةٌ مُعلنة، والقليل من التطوّر على مُستوى الباقات.

عام ١٩٩٦، شهد الأول من نيسان/ أبريل إنشاء الجزيرة القطريّة بمرسوم أميري. مقرُّ القناة في الدوحة، بدأت بثّها بـ ٦ ساعات يوميّاً، ثُمّ ١٢، ثُمّ ٢٤ لتُصبح بذلك الفضائيّة الإخباريّة العربيّة الأولى. أمّا المالِكُ فمُعلن: الحُكومة القطريّة.

في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٠، دخلت الإمارات العربيّة المُتّحدة حلبة الفضائيّات بعدّة محطّات: أبو ظبي، دُبي، ثُمّ سائر الإمارات. غير أنّ التحوّل المُهمّ هو ذاكَ الذي طال قناة أبو ظبي التي تبُثُّ من العاصمة الإماراتيّة لتُصبحَ المُنافسةَ الأولى للجزيرة على الساحةِ العربيّة. وذلكَ تنفيذاً لمرسومٍ رئاسي صدر عن الشيخ زايد وقاد تنفيذهُ وزير الإعلام الشيخ عبد الله ابن زايد، لينطلقَ بثُّها على عربسات، نايلسات، هوتبيرد، أوروبيرد ونحو أمريكا على تيليستار.

بعد عشر سنوات من إنشاء القطاع العام المصري للقناة الفضائيّة الأولى في العالم العربي، تحرّكَ القطاع الخاص في مصر، حيثُ تشكّل فريقٌ من رجال الأعمال لإطلاق قناةٍ باسم «المحور»، لكنّ خلافاً بين المُساهمين جعل أحمد بهجت، ينسحب من الفريق ويُطلق قناةً باسم «دريم» بميزانيّةٍ بلغت ٤٠ مليون دولار عام ٢٠٠١. وقد اعتمدت دريم، لاكتساب الجمهور على اسمين كبيرين: محمد حسنين هيكل، وحمدي قنديل. غير أن الفضائيّات الخليجيّة لم تلبث أن اجتذبتهُما، هيكل إلى الجزيرة وقنديل إلى دُبي. تابع حسن راتب مشروعِ قناة باسم المحور وأطلقها عام ٢٠٠٢، لكنها لم تستطع أن تُحقق نجاحاً كبيراً. المحطّتان تبُثّانِ من القاهرة.

في عام ٢٠٠٢، عادت إم. بي. سي. إلى العالم العربي، ولكن ليس إلى السعوديّة، فاستقرّت في المنطقة الإعلاميّة الحرّة في دبي بـ ١٢٠٠ موظف، وأطلقت ثلاث محطّات جديدة ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤، كانت الأهم من بينها القناة الإخباريّة «العربيّة».

في ٢ أيار/ مايو ٢٠٠٣، أُطلقت الفضائيّة السعوديّة الأولى التي تبُثُّ مِنَ الرياض، المجد «بدأت بثّها التجريبي في رمضان ١٤٢٣ هجرياً، ثُمّ أُطلقت

رسميّاً في ربيع الأول ١٤٢٤ هجرياً»[٧]، كما جاء على موقعها الذي يلتزم التقويم الإسلامي حيثُ إنّ القناة، والباقة تختص حصرياً بالبرامج الدينيّة الإسلاميّة، تتناول القرآن والحديث وبعض البرامج الوثائقيّة والعلميّة وبرامج الأطفال، التي يخضع بعضها للتشفير.

في العام نفسه، أطلق الوليد بن طلال، من بيروت والقاهرة باقة «روتانا» بعد أن كان قد أنشأ شركة روتانا للخدمات، ولم تلبث الباقة أن خصّصت محطّاتها: كليب، موسيقى، طرب، أفلام، زمان.

عراقيّاً، كانت الشركة التي تنشر جريدة **الزمان** في لندن، هي أول من أطلق قناة فضائيّة باسم الشرقيّة عام ٢٠٠٤، ثُمّ لم تلبث أن انطلقت إلى المنطقة الإعلاميّة الحرّة في دبي. في شباط/ فبراير ٢٠٠٤، دخلت المشهد العربي قناةٌ أمريكية تبُثُّ باللغة العربيّة من واشنطن الحُرّة (Middle East Television Network). ويُدلّلُ تاريخُ إطلاقها، مُباشرةً قبل الحربِ على العراق، على أنّ هدفها «هو إقناعُ الجمهور المُعادي بأسبابِ الاجتياح القادم»[٨] في إطارِ حملةٍ يصفها يوسف إبراهيم الخبير في مجلس العلاقات الخارجيّة الأمريكي قائلاً: «لم يسبق أن رأينا حملةً بهذا الانتشار»[٩]. بعد الاحتلال أطلقت الحرّة قناةً جديدة «الحرّة عراق».

في ما تبقّى من عام ٢٠٠٤ وما تلاه، بدأت مرحلةٌ جديدة في المشهد الإعلامي الفضائي العربي: قناة أبو ظبي الإخباريّة المرنة التي كانت تُشكّلُ مُنافساً للجزيرة تتحوّلُ إلى قناةٍ مُنوّعاتٍ للتسلية وتنحسرُ إلى الدائرةِ المحلّية، دبي الاقتصادية تُقفَل وتُستبدَل بقناة مُنوّعات وبعض التقارير الاقتصاديّة، قناة دبي ٣٣ التي كانت تملكها حكومة دبي تأخذ شكل المستقبل اللبنانيّة، حُضورُ العربيّة يتنامى على الساحة. يتمّ إطلاق محطّات جديدة معظمها للمنوّعات والتسليةِ والتسويق وتبرز ظاهرتان: عدد كبير من الفضائيّات العراقيّة، وعددٌ جديدٌ من الفضائيّات الدينيّة المُموّلةُ سعوديّاً، عراقيّاً، وقَطَريّاً. ٩٠ طلب

---

(٧) وليد الحارثي، «الغماس يمتلك الحصة الأكبر لقنوات المجد،» الإسلام اليوم (١١ أيار/ مايو ٢٠٠٩)، <http://islamtoday.net/albasheer/artshow-12-112592.htm>.

(٨) «Ces incendies que la guerre de bush va allumer,» *Marianne* (Paris), no. 18 (février 2003), <http://www.ani.mr/old/mapeci/363/monde.htm>.

(٩) المصدر نفسه.

إجازة تُقدّمُ للمنطقةِ الحرّةِ في دبي في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤ «ساحةُ حرب القاسم المُشتركُ فيها هو الرداءة»[١٠]. ما يُفسّرُ كون الفضائيّات التي استطاعت أن تُحافظ على مكانتها على الساحة هي تلك التي أُنشئت قبل عام ٢٠٠٤، وأنّ الباقات منها قد استطاعت أن تُنمّي عدد محطّاتها باتجاهاتٍ مُتخصّصة مفتوحة أو مُشفّرة، بالعربيّة أو الإنكليزيّة أو حتى الآسيويّة[١١].

ثانياً: وسائل إعلام حكومية أم خاصة؟ المالكون والتمويل: الحكومات، القطاع الخاص، الإعلان

١ ـ المالكون

إلى جانب الحكومات، هناك المالكون التي تُسمّيهم **فوربس**: «أباطرة الإعلام العربي»[١٢]. من هُنا السؤال: من هُم هؤلاء الأباطرة، رجال الأعمال والمستثمرون الذينَ يقفون وراء هذه الثورةِ الإعلاميّة؟ انتماءاتهم، علاقاتهم وروابطهم بالأنظمةِ القائمة، مسيرةُ حياتهم المهنيّة والسياسيّة؟ أهُم فعلاً أباطرة؟ أو كما يصفهم أحد الباحثين «واجهاتٌ تُستعملُ لغسل السياسات الرسميّة، عُملاءَ لحُكّامِهم الذين أصبحوا أكثر قسوةً وإصراراً من أيّ وقتٍ مضى، لكنّهُم يعرفونَ كيف يتأقلمون؟»[١٣] وإذا كان التوصيفان يبدوان مُتطرّفين، فلا بُدّ من قراءةٍ موضوعيّة لتاريخ مالكي ومُلكيّة الباقاتِ والمحطّات التي اخترناها في الجدول الرقم (١ ـ ١).

الفضائيّة المصريّة، هي إحدى محطّات القطاع العام، أمّا الأُخريات فتنقسمُ إلى فئتين: شركاتٌ تملكها وتموّلها السلطات الحاكمة لكنّها تتمتع بوضعٍ قانونيّ مُستقلّ كما هو حالُ الجزيرة وأبو ظبي مثلاً، وشركاتٌ خاصّة يمتلكُها رجالُ أعمال.

مالِكُ شركة الـ إم بي سي، هو رسميّاً الشيخ إبراهيم بن إبراهيم الوليد؛ مالِكُ

(١٠) طارق ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي. . . حقائق وأرقام!،» مجلة **فوربس** (النسخة العربيّة)، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٥، <http://alasr.ws/articles/view/6383>.

(١١) الجزيرة الإنكليزيّة، الجزيرة للأطفال، الجزيرة مُباشر، أوربت فيليبين، إم بي سي ٤، و١١ قناة جديدة لـ إيه آر تي.

(١٢) ديلواني، المصدر نفسه.

(١٣) غرايبة، «الفضائيات العربية. . الواجب والممكن».

شركة إيه آر تي، هو الشيخ صالح كامل، وكان شريكاً للأمير الوليد بن طلال؛ مالك أوربت هو الأمير خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز.

أ ـ ابن إبراهيم، الوليد: إم بي سي؛ العربية

الشيخ الوليد بن إبراهيم الوليد، هو من أهمّ المُستثمرين السعوديّين في الإعلام؛ في بدايةِ الثمانينيات أنشأ في العربيّة السعوديّة، التجمّع الإعلامي آرا (ARA) كشركةِ إنتاجِ تلفزيونيّة[١٤]. انضمّ الشيخ الوليد إلى الشيخ صالح كامل في تأسيس تلفزيون إم بي سي في لندن عام ١٩٩١. ثُمّ استطاعَ الوليدُ التخلّص من شريكهِ ليُحِلّ أخاه الشيخ محمد بن إبراهيم الوليد مكانه. وهُما شقيقا الأميرة جوهرة زوجةُ الملك فهد وأُم الأمير عبد العزيز بن فهد، الذي يحتفظُ عبر أخوالهِ بعلاقةٍ مميّزةٍ مع الباقة تحت رقابةٍ مُباشرة لوالده الملك[١٥] (الذي توفي عام ٢٠٠٢). والملك فهد هو أحد الأشقاء السبعة المعروفين بالسُّديريين نسبةً إلى أُسرةِ أُمّهم، ومنهُم الأُمراء: نايف، سلطان وسلمان (وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثاني).

بواسطة الوليد بن إبراهيم الوليد، دمجت إم بي سي بمجموعة آرا الدوليّة، ومن خلالها أطلقت إذاعة إم بي سي إف إم. أمّا المجموعة الدوليّة (Holding Company) التي تمتلكها إم بي سي فمقّرها الولايات المتّحدة وبريطانيا والمملكة العربية السعوديّة. في عام ١٩٩٢، اشترت هذه الشركة وكالة يونايتد بريس (UPI)، ووسّعت نشاط وكالاتها في المغرب، في الشرق الأوسط وفي آسيا، كذلك فإنّ إم بي سي هي التي أطلقت قناة العربيّة.

ب ـ ابن عبد الله: أوربت

الأمير خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز، الذي ينتمي إلى الجيل الثاني من السُّديريّين، والذي تصفه فوربس بأحد أباطرة الإعلام العربي، هو مالك مجموعة أوربت وشريك الشيخ صالح كامل في مجموعة دلّة أفكو.

(١٤) ديلواني، المصدر نفسه.

(١٥) S. Abdallah Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters,» *TBS Journal*, no.1 (Fall 1998), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall98/Articles1/Pan-Arab_bcasters/pan-arab_bcasters.html>.

يمتلك الأمير خالد عبر أوربت أسهُماً في عدّة شركات تلفزيونيّة غربيّة؛ في عام ١٩٩٣، أطلق الأمير خالد مشروع شراكة بين أوربت والـ بي بي سي لإطلاق بي بي سي العربيّة. غير أنّ هذا المشروع لم يعش إلا ١٨ شهراً فحسب بسبب الخلاف حول سياسات التحرير.

عام ٢٠٠٣، اتّجه نحو الاستثمار في الاتصالات والإنترنت داخل العربيّة السعوديّة بقيمة ٨٠٠ مليون ريال سعودي[١٦]. وذلك بعد أن قلّصت المجموعة استثماراتها في الإنتاج التلفزيوني لصالح البثّ المُشفّر ولكي تشتري ٣٠ بالمئة من القمر الاصطناعي نور سات، الذي بدأ تشغيله عام ٢٠٠٥. وفي عام ٢٠٠٤، دخلت مجموعة الموارد المالكة لـ أوربت في عمليّة تفاوض مع شركة غولف دي إتش تي سي التي تضم شركتي كيبكو (٨٠ بالمئة) وفياكوم (٢٠ بالمئة) والمالكة لمجموعة «شوتايم» بهدف دمج المجموعتين «أوربت» و«شوتايم». واستمرّت المفاوضات حتّى عام ٢٠٠٧، حيث أعلن فيصل العيّار، نائب رئيس مجلس إدارة كيبكو وسمير عبد الهادي، الرئيس التنفيذي لـ أوربت، يوم ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٧، عن دمج شوتايم العربية مع مجموعة أوربت التلفزيونيّة في شركة باسم أو إس إن (OSN). تبلغ مجموعة أصولها المقيّمة ما بين ٩٠٠ ـ ومليار دولار أمريكي، تضُم ٧٠ قناة، وتُدار عمليّاتها الأساسيّة من البحرين ودُبي. وتعيين مارك أنطوان دايلوين، رئيساً تنفيذيّاً للشركة الجديدة، من دون أن يشمَل الاتفاق الشركات الأخرى التابعة لـ أوربت.

ج ـ ابن طلال: إيه آر تي؛ إل بي سي آي؛ روتانا

والدهُ هو الأمير طلال بن عبد العزيز المعروف بتمرّده وحداثته، أمّه هي ابنة رئيس الوزراء اللبناني الراحل رياض الصُّلح. دخل الوليد بن طلال في مجال الاستثمار انطلاقاً من بدايةٍ بسيطة بالنسبة إلى الأمراء الآخرين.

قضى الأمير طلال جزءاً كبيراً من حياته في المنفى في مصر بعد أن قاد حركة تمرّد ضدّ شقيقه الأمير سعود في الخمسينيات، على رأس مجموعةٍ من

(١٦) «شركات أجنبيّة تستثمر في الاتصالات في العربيّة السعوديّة،» **الشرق الأوسط** (لندن)، ٦/ ٣/ ٢٠٠٣.

الأمراء الذين حملوا اسم الأمراء الأحرار تيمّناً بالضبّاط الأحرار الذين قادوا الثورة المصرية. طالب الأمراء الأحرار بملكيّة دستوريّة، بإصلاحاتٍ، وبالاتحاد مع مصر على طريق الوحدة العربيّة الكُبرى. فشلت مُحاولتهم فلجأوا إلى مصر ولم يعُد الأمير طلال إلا في عهد السادات بعد مُصالحةٍ عائلية وعفوٍ ملكي لم يُعِد لهم دوراً سياسيّاً. الأمير طلال هو أخٌ غير شقيق للسُّديريين مثلُهُ مثل الملك عبد الله. ظلّ الأمير طلال مُتمايزاً حتّى بعد عودتهِ؛ ففي عام ٢٠٠٢، على سبيل المثال كانت السلطات السعوديّة تُقاطع قناة الجزيرة وتمنعُ مواطنيها من المشاركةِ في أيّ من برامجها، غير أنّ الأمير طلال أعطى حواراً من خمس حلقات لأحمد منصور في برنامج «شاهد على العصر».

كُلُّ هذا جعل الأمير الوليد بعيداً عن أيّ دورٍ سياسي ولذلكَ عملَ على تأكيد حُضوره عبر استثماراته التي رسمت خطّاً موازياً لاستثماراتِ أبناء عُمومته، خاصّة عبد العزيز بن فهد. ربّما يكون لبنان ساحةً ممكنة لطُموحاته السياسيّة خاصّةً وأنّ استثماراته قد امتدّت ونجحت هُناك. إنّه يمتلك الجنسيّة اللبنانيّة، ويموّل مؤسسة خيريّة معروفة ونشيطة تديرها خالته الوزيرة السابقة ليلى الصُّلح حمادة. ارتبط الوليد بن طلال والشيخ صالح كامل بعلاقة شراكةٍ وتكامل على ساحة الاستثمار الإعلامي الفضائي. أطلقا معاً باقة إيه آر تي، وكان صالح كامل من مهّد للوليد ساحة مصر ولبنان. حيثُ لم تقتصر طُموحات هذا الأخير على المجال التلفزيوني بل تجاوزتهُ إلى الصحافةِ المكتوبة (٤٣ بالمئة من صحيفة **الديار** مثلاً).

في السوق العربي، نجح الوليد في السيطرة على سوق الكاسيت، وعلى مجال المحطّات الموسيقيّة بأن اشترى من الشيخ صالح كامل مكتبة القناة الموسيقيّة في مجموعة إيه آر تي، ووافق صالح كامل على إقفال القناة الأخيرة مقابل حصّة الوليد في الشركة القابضة (Arab Media Company). أصبحت روتانا باقة تضُمّ ستّ محطّات يُساهم الوليد فيها بقيمة ٣٠٠ مليون دولار. تحتكر المجموعة أكثر من ١٠٠ مطرب عربي[١٧].

لا تقتصر استثمارات الوليد على المجال السمعي ـ البصري، فهو يملك على سبيل المثال وحتّى عام ٢٠٠٥ شركة (Kingdom Holding Company)،

(١٧) <http://www.Islamonline.net/arabic/arts/2005/article07b.shtml>.

والتي تُقدّر بـ ١١ مليار دولار، كما يملك أسهماً في أوروديزني، سيتي كور، سلسلة فنادق بلازا، أرابيا أون لاين، وشركات إلكترونيّات الهواتف النقّالة. كذلك يمتلك ١٠ بالمئة من أسهم إمبراطوريّة سيلفيو بيرلسكوني، كما يملك الشركة الموسيقيّة مايكل جاكسون، إضافة إلى أسهمٍ في محطّاتٍ ألمانية، و١٧,٣ بالمئة من ديزني لاند باريس[١٨].

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧، اشترى ١ بالمئة من شركة روبرت ميردوخ نيوز كوربوريشن ليُصبح بذلك المستثمر الثاني فيها بعد أسرة ميردوخ[١٩]، ومن ثَمَّ ارتفعت أسهمه في هذه الإمبراطوريّة إلى ٦ بالمئة[٢٠]. وقد قدّرت فوربس ثروته في عام ٢٠٠٥، بعشرين مليار دولار[٢١].

د ـ صالح كامل: راديو وتلفزيون العرب ـ إيه آر تي

الشيخ صالح كامل، هو رئيس مجلس إدارة مجموعة دلّة البركة، أوّل سعودي استثمر في الإعلام، المكتوب أوّلاً بإنشاءِ دار نشر عُكاظ والمُساهمة في صحيفة **الوطن** السعوديّة. بعدها أنشأ الشركة العربية للإنتاج الإعلامي (SAPT)، وفي عام ١٩٧٧، ساهم في إنشاء الشركة الأردنيّة للإنتاج بنسبة ٢٥ بالمئة.

شارك في تأسيس إم بي سي بـ ٣٠ بالمئة من رأس المال، تركها عام ١٩٩٣، وأسس راديو وتلفزيون العرب الذي بدأ بثّهُ عام ١٩٩٤، من تيليسبازيو «بييرو فانتي» سباس سنتر (Telespazio (Piero Fanti) Space Centre) من فيوتشينو (Fucino)، شرق روما. عام ٢٠٠٤ نقل قسماً من باقة إيه آر تي إلى المنطقة الحُرّة في الأردن. يمتلك صالح كامل ٧٠ بالمئة من أسهُمها التي تبلغ ١,٥ مليار دولار، كما شاركه الوليد بن طلال بنسبة ٣٠ بالمئة[٢٢] قبل أن يبيعه حصّتهُ مُقابل المكتبة الموسيقيّة كما ذكرنا.

---

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) Douglas A. Boyd, «Saudi Arabia's International Media Strategy: Influence through Multinational Ownership,» in: Kai Hafez, ed., *Mass Media, Politics, and Society in the Middle East, Hampton Press Communication Series. Political Communication* (Cresskill, NJ: Hampton Press, 2001), p. 54.

(٢٠) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي... حقائق وأرقام!».

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) المصدر نفسه.

عندما تنافست إيه آر تي مع أوربت على الساحةِ المصريّة، عمل الوليد على ترجيح كفّةِ إيه آر تي بمساهمته في مشروع رّي جنوب مصر، وعليه منعت الحكومة المصريّة استيراد مجموعة من أجهزة الاستقبال الرقمي (Satellite Digital Receivers) من بينها تلك الضروريّة لاستقبال أوربت[٢٣]. كما تقول نعومي صقر. وبواقعٍ أدق، فإنّ الحكومة المصريّة التي كانت قد أنشأت كابل (CNE) قد قامت بإرساء نوع التشفير الذي يلتقي مع شيفرة إيه آر تي، وحجبت التشفير الذي ينسجم مع أوربت.

أمّا في لبنان، فإنّ تبرّع الوليد بإعادةِ إنشاء الشبكة الكهربائيّة التي دمّرها الطيران الإسرائيلي إضافةً إلى المؤسسات الخيريّة، هي ما مهّد الطريق لعدد من الاستثمارات ومنها شراء صالح كامل لـ ٣٠ بالمئة من أسهُم الـ إل بي سي آي التي عاد فباعها إلى الوليد.

أمّا بالنسبةِ إلى الـ إيه آر تي، فإن نجاح صالح كامل في تأمين التوازن في الميزانيّة شجّعه على التوسّع في إنشاءِ قنواتٍ جديدة.

هـ ـ رفيق الحريري: المستقبل

بحسب فوربس، فإنّ اسم رفيق الحريري لم يرد على قائمةِ المُساهمين المالكين لتلفزيون المُستقبل. ورَغم ذلك تعتبرهُ أحد أباطرة الإعلام حيثُ كان يملكُ أيضاً إذاعة الشرق[٢٤] في باريس، وجريدة **المُستقبل** في بيروت[٢٥]. تتشكّل قائمةُ المساهمين من: نازك وبهيّة الحريري (١٠ بالمئة)، بهاء وسعد الحريري (٨ بالمئة)، شفيق الحريري (٧ بالمئة)، إضافةً إلى ثلاثةِ مُساهمين آخرين هُم في الواقع شُركاء رفيق الحريري في استثماراتٍ أخرى: مُصطفى رزيان، رئيس مجلس إدارة بنك المتوسّط الذي يملك الحريري الحصّة الأكبر فيه؛ حبيب صبّاغ، شريك الحريري في شركة سي سي سي للمُستثمرين في الإنشاءات؛ عدنان عرقجي النائب في البرلمان على قائمة الحريري ومستشاره

---

(٢٣) Naomi Sakr, «Contested Blueprints for Egypt's Satellite Channels: Regrouping the Options by Redefining the Debate,» *International Communication Gazette* (London), vol. 63, nos. 2-3 (May 2001), p. 160.

(٢٤) تمّ إغلاقها عام ٢٠١١.

(٢٥) ديلواني، المصدر نفسه.

السابق، ما يُدلّل على الملكيّة الخاصّة للقناة كاستثمارٍ عائلي في البلد العربي الوحيد الذي يغلب فيه القطاع الخاص على القطاع العام.

تُشكّل القناة التي تحوّلت إلى باقة، امتداداً للإمبراطورية الإعلاميّة السعوديّة خاصّةً إم بي سي، أي الخط السديري في المملكة، ذاك أن الحريري مُرتبطٌ مُنذ بدء صُعوده بالملك فهد، وقد أدار مُنذُ عودته إلى لبنان بعد اتّفاق الطائف، البلادَ سياسيّاً خاصّة بعد أن قلّص هذا الاتفاق صلاحيّات رئيس الجمهوريّة. كذلك أدار الاقتصاد والاستثمار تحت عُنوان إعادة الإعمار. وكان في المجالَين حارساً للمصالح السعوديّة في بلاد الأرز. وذاك ما تعكسه محطّته التلفزيونيّة. أمّا أعضاءُ عائلته، باستثناء شقيقته بهيّة، فلم يكن لأيّ منهم دورٌ سياسيٌ في لبنان حتّى الانفجار الذي أودى بحياته عام ٢٠٠٥. حيثُ انتقلت الزعامةُ إلى ابنه سعد، ومعها السيطرة على المستقبل، في ما ذهبت إذاعة الشرق الأوسط إلى أرملته نازك.

و ـ حكومة آل ثاني: الجزيرة

في عام ١٩٩٥ انقلب ولي العهد القطري حمد بن خليفة على أبيه، وبعد أقلّ من سنة، أصدر مرسوماً نصّ على إنشاء القناة الفضائيّة الجزيرة وإلغاء وزارة الإعلام. أوكلت إدارة الجزيرة إلى مجلس إدارة يرأسه الشيخ حمد بن تامر آل ثاني، ابن عمّ الأمير. الذي لم تطله التغييرات التي حصلت في الإدارة في نهاية عام ٢٠٠٣. قال الأمير إنّهُ يُريدُ الجزيرة على صورة ال بي بي سي، قناة تموّلها الدولة من دون أن تكون حُكوميّة، تبث من الدوحة إلى جانب فضائيّة قطر الرسميّة.

ز ـ إمارات ميديا: تلفزيون أبو ظبي

كانت قناة أبو ظبي الأرضيّة، قد بدأت بثّها عام ١٩٦٩، في إطارِ المؤسسةِ الحكوميّة للإذاعةِ والتلفزيون؛ في عام ١٩٩٩، أصدر الشيخ زايد مرسوماً يستند إلى قانون الاتحاد رقم ١٩٩٩/٥ تُنشأ بموجبه إمارات ميديا لترث مؤسسة الإذاعة والتلفزيون المذكورة ومؤسّسة الاتحاد للصحافة المكتوبة والنشر. كان الشيخ عبد الله بن زايد وزير الإعلام، يحلم بقناةٍ تُنافس الجزيرة وأُوكل إليه أمر المؤسّسة الجديدة. في ٣٠ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠، انطلق البث الفضائي من أبو ظبي على ثلاث قنوات: تلفزيون أبو ظبي، تلفزيون الإمارات والقناة

الرياضيّة، وكُلها تابعة لإمارات ميديا التي تمتلكُها الدولة مع كونها ذات وضع مُستقل، كما هو حالُ الجزيرة. غير أن تغييراً جذرياً طرأ على قناة أبو ظبي بعدَ احتلال العراق وموت الشيخ زايد، سنناقشه في الفصول اللاحقة.

ح ـ رفعت الأسد: إي إن إن

هو الأخُ القويّ للرئيس السوري حافظ الأسد، الذي كان في مرحلةٍ ما الذراع اليُمنى للنظام واليد الحديديّة التي تُمسِكُ سوريا عبر جهازه الأمني المعروف بـ سرايا الدفاع. اصطدم بأخيه فنفاهُ إلى أوروبّا، لكنّهُ ظلّ يُحاول أن يُحافظ على نقاطِ قوّة، حُضورٍ ما، حُلم العودة إلى السلطة أو على الأقل الدفاع عن نفسه. هكذا شكّل الإعلام أحد هذه النقاط فأطلق من فرنسا مجلةً أسبوعيّة، ثُمّ من بريطانيا عام ١٩٩٦، قناةً فضائيّة باسم إيه إن إن. لم تستطع هذه القناة أن تُحقّق نجاحاً كبيراً على الرغم من مُحاولاتها إثارة مواضيع تمسُ المشاعر القوميّة العربيّة والقضايا العربيّة الكُبرى. وتعود محدوديّة النجاح هذه إلى عدم الثّقةِ بصاحبِها، وإلى تردُّدِ الأسماء الراسخة من صحافيين ومُشاركين في الظهور على شاشتها.

ط ـ بيار ضاهر ومجموعة من المستثمرين: إل بي سي؛ إل بي سي آي

لم تعرف قناةٌ عربيّة ما عرفته الـ إل بي سي، من تبدُّلٍ في مالِكيها. رسمياً تعودُ ملكيّتُها إلى (Lebanese Broadcasting Corporation International) برأس مال قدره عند التأسيس ٥٦.٥٥ مليار ليرة لبنانيّة مدفوعة (٣٣ مليون دولار)، تتوزّع أسهمها التي تبلغ قيمة كل منها ١٥ ألف ليرة لبنانية على ٢٣ مُساهماً أهمّهم: مارسيل ضاهر ١٠ بالمئة، عصام فارس ١٠ بالمئة، بيار ضاهر ٩ بالمئة، نبيل بُستاني ٤ بالمئة، الشيخ صالح كامل ١٩ بالمئة (عام ٢٠٠٤ بيعت إلى الوليد بن طلال الذي أصبح يمتلك ٤٩ بالمئة). حتى عام ٢٠٠٥، كان بيار ضاهر لا يزال الرجل القوي المسيطر على مجلس الإدارة[٢٦].

حاول الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز، أحد أهم الناشرين العرب أن يخترق الـ إل بي سي آي. وبعد أن قاد القوّات السعوديّة في التحالف الدولي

(٢٦) المصدر نفسه.

LAU Riyad Nassar Library

ضدّ العراق عام ١٩٩١، استقال بنهاية الحرب وتفرّغ لمشاريعهِ الإعلاميّة في لندن حيثُ يُصدر جريدة **الحياة** التي اشتراها من أسرةِ مؤسسها كامل مروّة الذي قُتل في لبنان في السبعينيات. وتبلغ الميزانيّة السنويّة لـ **دار الحياة** في لندن من ١٠ ملايين إلى ١٢ مليون دولار سنوياً. يُعرفُ الأمير خالد برفضهِ للصفقةِ التجاريّةِ للإعلام والإعلان، وهو يحرص على إعطاءِ الأولويّة للتحرير. ينتمي الأمير خالد إلى الجيل الثاني من السديريّين عبر أبيه الأمير سلطان. عام ٢٠٠٣ أبرم شراكةً بين **الحياة** والـ إل بي سي آي، بهدف إنشاءِ قناةٍ إخباريّة تُنافس الجزيرة، وبعد أن نُفّذت جميع المراحل التحضيريّة، أُلغي المشروع لصالحِ إنشاء قناةِ العربيّة. تلقّف الوليد بن طلال الفرصة للهيمنة على إل بي سي، خاصّة وأنّ القناة قد التزمت نهائيّاً خط المنوعات.

ي ـ حركة أمل، نبيه برّي: إن بي إن

في السبعينيات أنشأ الإمام موسى الصدر في لبنان حركة المحرومين، ثم حولها إلى حركةِ أمل، وهو اسمٌ يتشكل من الأحرف الأولى لـ «أفواج المقاومةِ اللبنانيّة». وكان الإمام يُفكر في إطلاق قناة تلفزيونية تُمثل الحركة وروح المقاومة بشكلٍ عام. بعد اختفاء الإمام في ليبيا، استقرّ نبيه بري على رأس الحركة، وأطلق قناة إن بي إن، في أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٠، من بيروت. أمّا المالكون المسجّلون رسميّاً فهم: أمينة بري، سميرة عاصي (شقيقة رندة برّي)، ياسين جابر، وبعض رجال الأعمال المُنتمين للحركة.

ك ـ المجموعة اللبنانية للإعلام: المنار

رسميّاً تعودُ ملكيّة قناة المنار لشركة المجموعة اللبنانيّة للإعلام المرخّصة بموجب قانون ١٩٩٤، الذي نظّم البث التلفزيوني في لبنان، بعد فوضى مرحلة الحرب الأهليّة. والواقع أنّ الشركة المذكورة هي إحدى مؤسّسات حزب الله، ويُشارك فيها عدد من المساهمين من أهمّهم محمد رعد رئيس كتلة الحزب في البرلمان اللبناني.

ل ـ الخيّاط، العويني، المزرعاني: تلفزيون الجديد

تعود ملكيّة تلفزيون الجديد، إلى شخصيّات مدنيّة. أهم المساهمين: تحسين خيّاط ثُمّ عدنان خيّاط، محمد العويني وسعد الله مزرعاني. ينتمون

إلى اليسار اللبناني حيث كان المزرعاني أحد مسؤولي الحزب الشيوعي. بدأت القناة بثّها الفضائي من بيروت في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١[٢٧].

م ـ حسن راتب: المحور

تعود ملكيّة قناة المحور المصرية إلى رجل الأعمال حسن راتب، الذي ينتمي إلى العريش في شمال سيناء. يمتلكُ راتب عدداً من الاستثمارات من بينها أسمنت سينا، سما سيناء، سما، وسما العريش.

ن ـ أحمد بهجت: دريم

أحمد بهجت، هو رجل أعمال مصري ساهم مع أحمد راتب في إنشاء المحور ثُمّ انفصل عنه ليُنشئ دريم تي في التي تحوّلت إلى باقة.

س ـ شركة المجد، شركة العُلا: تلفزيون المجد

تبلغ ميزانيّة المجد ١٢٠ مليون ريال سعودي، وتتوزّعُ أسهمها على مجموعتين من المالكين:

الأولى، مجموعة المجد التي أدارت القناة لمدّة ثماني سنوات، وتسيطر عليها عائلة الشميمري: فهد بن عبد الرحمن رئيس مجلس الإدارة المدير العام، وأخواه نائبا رئيس مجلس الإدارة، عادل الماجد، ربيعان بن فهد ربيعان، والشيخ راشد بن عثمان الزهراني. وكلهُم رجالُ أعمال وأساتذة جامعيّون يُشكّلون مجلس الإدارة.

الثانية، مجموعة من المساهمين الآخرين يرأسها الشيخ حمد بن محمد الغمّاز، وتملك محطّتين من محطّات الباقة منها الهُدى التي تبثُّ بالفرنسيّة والإنكليزيّة[٢٨].

بعد ثماني سنوات من انطلاق المجد، نجحت مجموعة الغمّاز بامتلاك ٥٢ بالمئة من أسهم الباقة، فأصبح الشيخ حمد بن محمد الغمّاز رئيساً لمجلس

---

(٢٧) في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٢، صرّح تحسين خيّاط في مقابلة على شاشة تلفزيون الجديد، أن نسبة من أسهم القناة قد بيعت لجهات قطرية وسعودية وكويتية.

(٢٨) الحارثي، «الغماس يمتلك الحصة الأكبر لقنوات المجد».

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

الإدارة الذي يضُمّ إلى جانبِهِ الشيخ فهد بن حمد المُبارك والشيخ على الدحيّان. ويُديرُ هذا الأخير قناة الإنشاد. وعلى الرغم من أنّ أُسرة الشميمري احتفظوا بجزء من الأسهم، إلا أنّهم فقدوا دورهم في صناعة القرار[٢٩]. يُضاف إلى المجموعتين، بعض المساهمين المستقلين مثل بدر الراجحي ومحمد السيّد.

ع ـ إذاعة طهران: العالم

لم يكتفِ الإيرانيّون بتبنّي المنار وإن بي إن، لسياستهم في الشرق الأوسط فحسب، بل أرادوا نشرةً إخباريّة عربيّة تُبثُّ من طهران؛ قُدّم هذا الاقتراح لإدارة المنار لكنّه لم يحظَ بالموافقة، لذا أطلقت إذاعة الجمهوريّة الإسلامية في طهران تلفزيون العالم في شباط/ فبراير ٢٠٠٤ التابع لها رسمياً.

ف ـ سعد البزّاز: الشرقيّة

كان سعد البزّاز أحد رجال صدّام حُسين. وظلّ حتى عام ١٩٩٢، رئيس تحرير صحيفة **الجمهورية** الناطقة باسم الحكومة العراقيّة. في الثمانينيات كان البزّاز مديراً للمركز الثقافي العراقي في لندن، حيث كُلّف، خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، بتنفيذ فيلم وثائقي حول العلاقات بين نظام الخُميني وإسرائيل في إطارِ دعايةِ الحرب. وقد رُصدت لذلك ميزانيّةٌ مليونيّة لتأمينِ كُلّ العناصر بما في ذلك وسائل التلاعب الإعلامي التي يبرع فيها البريطانيّون الخبراء في دعايةِ الحرب. بعد عام ١٩٩١، وخلال الحصار، كُلّف البزاز بشراء مطبعةٍ خارج العراق للالتفاف على الحصار. لكنّهُ بعد بضعِ رحلاتٍ قرّر ألا يعود إلى البلاد وأعلن مُعارضته لنظام بغداد مُتنقّلاً بين الأردنَ واليمن وقطر، نشر بضعةَ كُتُبٍ ناقدةٍ للتجربةِ البعثيّة. أخيراً استقرّ في لندن حيثُ أطلق عام ١٩٩٨، صحيفة **الزمان**، ثُمّ أطلق من دبي عام ٢٠٠٤ فضائيّة الشرقيّة.

ص ـ نظمي آوجي: إي ان بي

آوجي، هو رجل أعمالٍ عراقي كان قريباً من النظام ثُم واجه عام ١٩٨٠، مشاكل أدّت إلى اعتقاله. بعد خروجه من السجن ترك البلاد وأنشأ في الخارج مجموعة أرابيان بيزنس التي ضمّت ١٢٠ شركة. تُقدّر أعماله بـ ٨,٢ مليار دولار.

(٢٩) المصدر نفسه.

ظلّ الغموض يكتنف علاقته بنظام صدّام حسين، حيثُ أُثيرت في التسعينيات تساؤلاتٌ حول علاقتهِ بمبالغ برنامج النفط مُقابل الغذاء، إذ إن العراق قرّر أن يودع الحصّة العراقيّة من هذا البرنامج الذي تُديره الأمم المتّحدة في مصرف بي إم بي (B.M.B)، الذي يمتلك نظمي آوجي نسبةً عالية من أسهمه. بعد الاحتلال أطلق آوجي من بيروت فضائيّة إي إن بي (Arab News Broadcast).

ق ـ الكونغرس الأمريكي: الحرّة ـ الحرّة عراق

تُحدّدُ ويكيبيديا قناة الحرّة كما يلي: «الحرّة هي قناة تلفزيونيّة باللغةِ العربيّة تموّلها الولايات المتّحدة. أُنشِئت للتقليل من تأثير قناتي الجزيرة والعربية في الدول العربيّة»[٣٠]. وتقول مجلّة **ماريان**: «الحرة مموّلة من الكونغرس الأمريكي وتخضعُ لسلطة (Broadcasting Board of Governors)»[٣١].

بعد احتلال العراق وانتهاء العمليات العسكرية، انتهجت الإدارة الأمريكية دبلوماسيّةَ استيعاب المشاعر المُعادية للولايات المتّحدة في العالم العربي. لا تُهمل وزارة الخارجيّة الأمريكية الرأي العام المسلم؛ فقد كلّفت شارلوت بيرس البارعة في وسائل الاتصال، لتحسين صورةِ المُنتج «أميريكا» على الساحتين الأفريقيّة والشرق أوسطيّة. تشغل بيرس منصب وكيل وزير الخارجيّة للعلاقات العامة وقد رُصدت لها ميزانيّة بقيمة ٥٢٠ مليون دولار لإقناع «الجماهير المُعادية» بصحّةِ مبرّرات الاجتياح القادم للعراق. وسيُحاول تلفزيون ميدل إيست (Middle East Television Network) تحسين السمعة السيئة للولايات المتحدة في هذا الجزء من العالم كما يوضّح ليرد أندرسون المتخصّص في الاتصالات الجماهيرية. وعلى الرغم من وقف أنشطة مكتب التأثير الاستراتيجي بدعوة أنّهُ يُبالغُ في توقّعاته وبأنّهُ دائرةٌ مُقلقة مُتخصّصة بالمعلومات الكاذبة والتلاعُب بالأخبار، فإنّ دونالد رامسفيلد، يُصرّح قائلاً: «سنُغيّر اسم المكتب لكن ذلك لن يمنعنا من الكذب، وهكذا نطمئنُ الرأي العام»[٣٢]. وهكذا أُطلِقت إذاعة سوا (٢٠٠٣)، تلفزيون الحرّة، الإعلان، مواقع الإنترنت من مثل مغربيّة دوت كوم، مجلّة **هي**، **وهاي ماغازين** (*Hi Magazine*) الأسبوعية

(٣٠) «Al Horra,» <http://www.wikipedia.org>.

(٣١) «Ces incendies que la guerre de bush va allumer».

(٣٢) المصدر نفسه.

LAU Riyad Nassar Library

المُخصّصة للشباب[٣٣]، ووُضعت كلها في خدمةِ حملةٍ تهدفُ إلى اجتذاب قُلوب العرب[٣٤]. خصّص الكونغرس ٥٠ مليون يورو للقناة التي انطلقت من فيرجينيا في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٤، لتُغطّي ٢٢ دولة عربيّة عبر عربسات ونايل سات، مُستهدفةً ٣١٠ ملايين مُشاهد. وبتلك المناسبة وعد جورج بوش، بـ «قناةٍ تلفزيونيّةٍ صادقة ومُتوازنة... قادرة على اجتذاب عقول وقلوب العرب»[٣٥]. خطابٌ يندرج ضمن الحملةِ الإعلامية التي أطلقتها وزارة الخارجيّة منذ آذار/ مارس ٢٠٠٢. ويُذكر أنّ الحرّة أول من أعلن إعدام صدّام حسين، في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

الجدول الرقم (١ ـ ٢)

المصادر والعائدات الإعلانيّة للمحطّات الأربع، ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤

موارد أخرى	العائدات		السعر بالثانية	وكالات الإعلان	القناة
(٩٢ بالمئة) تمويل حكومي	٨ بالمئة	إعلان	(٣٠ ثانية X 3100$)	الوطنيّة للإعلان والنشر	الجزيرة
ـ صندوق دعم المقاومة ـ تبرعات المُغتربين		إعلان		الشركة الإداريّة العامّة للمنار	المنار
ـ إم بي سي ـ تمويل غامض	$١٠,٠٠٠,٠٠٠	خدمات إعلانيّة		ـ مجموعة شويري ـ مجموعة أرا ARA ـ مجموعة الخليجية ـ شركة تهامة	العربيّة
تمويل حكومي	٣٧,٥٠٠,٠٠٠ ١٧,٠٠٠,٠٠٠ ١٥,٤٠٠,٠٠٠ ٧٠,٦٠٠,٠٠٠	برامج التسلية (Showtime) عائدات داخليّة المجموع د.ا.		إمارات ميديا	أبو ظبي

المصدر: من إعداد الباحثة بناءً على المصادر التالية: وثائق من أرشيف المحطّات المعنيّة؛ إحصاءات؛ اتحاد إذاعات الدول العربية؛ تقرير **فوربس** في نسخته العربيّة لعام ٢٠٠٥، وتقارير موجودة على مواقع إلكترونيّة.

مواقع الفضائيات: الجزيرة، العربية؛ أرشيف قناة أبو ظبي؛ صحيفة **الوطن** <http://www.watan.com>; <http://www.defenddemocracy.org/index.php?option=com_content&task=view&id=11775969&Itemid=351>, and <http://www.asyeh.com/asyeh_world.php?action=showpost&id=679>.

(٣٣) Nathalie Gathié, «La Télé arabophone américaine creuse le fosse,» <http://www.bladi.net/forum/18229-tele-arabophone-americaine-creuse-fosse>.

(٣٤) Pascal Boniface, «La Chaîne de télévision AL-HURRA: Un Média sous influence,».

(٣٥) «Ces incendies que la guerre de bush va allumer».

٢ ـ التمويل والإعلان: أربعة أنواع من التمويل

يكشفُ البحث عن أربعة أشكالٍ لتمويل المحطّات الفضائيّة: تمويلٌ عام ـ حُكومي؛ تمويلٌ خاصّ ـ حزبي؛ تمويل خاص ـ تجاري؛ وتمويلٌ مُختَلَطٌ غامض.

أ ـ التمويل العام ـ الحكومي

الفضائيّة الأولى، المصريّة إي إس سي إن، وهي تابعةٌ للقطاع العام، وبالتالي فإنّ سياستها الماليّة لا تقومُ على الإعلان حتّى لو وُجِد.

(١) الجزيرة

كان مرسومُ إنشاءِ الجزيرة قد صدر عن الأمير في ٨ شباط/ فبراير ١٩٩٦، وبعد ذلك بستّة أشهر، تمّت المُصالحةُ بين أميرِ قطر الحالي ووالده المخلوع، وبموجبها ألغى الأب تجميد الودائع القطريّة في البنوك الأجنبيّة ما سمح بتمويلِ الكثيرِ من المشاريع ومنها الجزيرة.

مُنذُ عام ١٩٩٦، والاستقلاليّة الماليّة تُشكّلُ هدفاً مُعلناً للجزيرة من دون أن يتحقّق ذلك أبداً. تؤمّن الحكومة ٧٠ بالمئة من تمويلها، فيما يأتي ٣٠ بالمئة من مردود الإعلان. ويدّعي القائمون عليها أن العربية السعوديّة تُمارسُ ضُغوطاً على وكالات الإعلان كي لا تتعامل مع الجزيرة.

حدّدت الحكومة ميزانيّتها بـ ١٥٠ مليون دولار لـ ١٥ عاماً. غير أنّ ميزانيّة التشغيل السنويّة المُعلنة تبلغ ٣٠ مليون دولار، فيما تقدّر فوربس أنّ هذه الميزانيّة تبلغ ١٠٠ مليون دولار يذهب الجزء الأكبر منها إلى المكاتب في الخارج، وبخاصّة واشنطن وباريس وأنقرة[٣٦].

في عام ٢٠٠٥، حاول محمد جاسم العلي، المدير السابق للجزيرة، ومحمود السهلاوي، نائب رئيس مجلس الإدارة السابق، اللّذين أُقيلا عام ٢٠٠٣، أن يُنشآ شركة إعلانٍ قطريّة لكنّ المشروع توقّف بعد أن كان قد حقّق مراحلَ مُتقدّمة.

(٣٦) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي... حقائق وأرقام!».

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

(٢) أبو ظبي

حدّدت وثائق إمارات ميديا أهداف إنشائها عام ١٩٩٩ بـ: «إعلاميّة، اقتصادية، ومهنيّة... تطويرُ مُختلفِ مجالات النشاط الإعلامي لتلبية الحاجات المتنامية للزبائن». ويوضِحُ مصطلح «الزبائن» الأهداف التجاريّة المرجوّة. «مواجهة تحدّيات المستقبل في مجالات الإنتاج والتمويل... تأمين المداخيل الربحيّة والتّكفّل بكُلّ الأنشطة التجارية، الصناعيّة، المالية، واستثمار العائدات التي تُحقّقها القناة وأجهزتُها». «تطوير أنشطة العائدات الثابتة: النشر، التوزيع، الإعلان والتسويق»[٣٧].

تتوزّع هذه العائدات على بيع أشرطة الفيديو، البرامج الإخباريّة، برامج التسلية والرياضة، تأجير الاستوديوهات، القنوات، التجهيزات والمعدّات ومداخيل القنوات المُشفّرة. وقد بلغ مردود ذلك عام ٢٠٠٤، ٧٠٦٠٠٠٠ درهم إماراتي تتوزّع على عائدات برامج التسلية ٥٣ بالمئة؛ فيما تتقاسم برامج الشو تايم والعائدات الداخليّة بقيّة المبلغ بنسبة ٢٥ بالمئة للأولى و٢٢ بالمئة للثانية، ما يُفسّر المُرونة في جدول البرامج الذي يجعلُها قناة إخباريّة خلال الأزمات السياسيّة، وقناة مُنوّعات خلال الفترات الهادئة.

تشكل العائدات الإعلانيّة ٦٠ بالمئة من مجموع دخل القناة من الإعلان والخدمات البالغ ٤٩٦,٩٥٠,٢٧ درهماً إماراتياً[٣٨].

الجدول الرقم (١ ـ ٣)
عائدات قناة أبو ظبي بين عامي ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

المبلغ د.إ.	مصادر	م
٢٠,٠٦٥,٧٦٥	إعلانات تلفزيون أبو ظبي	١
٨٧٢,٠٠٠	عائدات إعلانيّة مُشتركة	٢
٢٧,٣٠٠	عائدات بيع أشرطة فيديو مُصوّر	٣
١٦٤,٤٨٠	عائدات تأجير مواقع	٤
٢١٩,٧٨٥	عائدات تأجير التجهيزات التلفزيونيّة	٥

يتبــع

(٣٧) وثيقة إنشاء القناة الفضائيّة من أرشيف قناة أبو ظبي.

(٣٨) وثيقة حصلت عليها الباحثة من أرشيف قناة أبو ظبي.

تابــع

المبلغ د.إ.	مصادر	م
٥,١٨٩,١٣٩	عائدات تأجير مُختلفة لقنوات التلفزيون	٦
٤٠٦,٢٥٥	عائدات خدمات تسهيلات	٧
١٣,٣٧١,١٨٩	عائدات القنوات المُشفّرة	٨
٣٤,٩٣٥	عائدات بيع برامج القناة الرياضية	٩
٩٤,٩٢٧	إيرادات مبيعات تقارير إخباريّة	١٠
١,٩٠٨,٤٥٠	إيرادات مبيعات برامج التلفزيونية	١١
١,٣٤٠,٠٠٠	عائدات وبيع ساتلايت	١٢
٤٩,٦٩٥,٠٢٧	**المجموع**	

المصدر: جدول حصلت عليه الباحثة من أرشيف قناة أبو ظبي.

غير أنّ هذه العائدات لا تؤمّنُ توازُن ميزانيّة قناة أبو ظبي أو إمارات ميديا، لذلك كانت الحكومة تُغطّي العجز، ما استُعمل عام ٢٠٠٤، تبريراً للتغيير الذي طرأ على القناةِ والشركة. غير أنّ التحليل السياسي سيُقدّم تبريراتٍ أُخرى.

(٣) الحُرّة

«أُنشئت الحرّة بقرار من الكونغرس وبهدفٍ ذكرناه هو «تحسين السمعةِ السيئة للولايات المتّحدة في هذا الجزء من العالم». لذلك كان من الطبيعي أن يُموّلها الكونغرس، حيثُ خصّص لها ميزانيّةً بلغت ٥٢٠ مليون دولار»[٣٩].

ب ـ التمويل التجاري

ـ الباقات السعودية

الباقات السعوديّة الثلاث، هي ذاتُ طبيعةٍ تجاريّة، تقومُ على شبكةٍ قويّة من شركات الإعلان والعلاقات العامّة.

«سجّل تلفزيون إم بي سي عام ١٩٩١، بدايةَ الفضائيّات الخاصّة بعيداً عن التلفزيونات الحكوميّة، وبخاصّةً المصريّة»[٤٠]؛ «فمنذُ إنشائها تميّزت إم بي سي عن سابقاتها بميزتين: البثّ المُباشر، والتمويل بواسطة الإعلان...

(٣٩) «Ces incendies que la guerre de bush va allumer».

(٤٠) ديلواني، المصدر نفسه.

هي نسخةٌ عربيّة لقناةٍ أمريكية أو أوروبية تجاريّة»[٤١] يقولُ رئيس مجلس إدارتها إيان ريتشي في لندن في أوّل أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

إذاً، خصخصة، تجاريّة، واندماجٌ في النظام العولمي. وقد ساعد في تنمية عائداتها الإعلانيّة توسُّعُ أنشطة شركة (International Group Holding Company)، مالكة إم بي سي، في المغرب والشرق الأوسط وآسيا بعد شرائها شركة (United Press International).

كذلكَ فإنّ إيه آر تي، هي استثمارٌ خاص يستندُ إلى الإعلان والعلاقات العامّة وعائدات التشفير. وبخاصّة على شركة آرا التي تُشكّل فرعاً من دلّة البركة في الرياض مُنذُ عام ١٩٨٢[٤٢]. «العربيّة السعوديّة هي المُموّل الأوّل لرأسمال عربسات الذي أُطلق عام ١٩٨٥ حيثُ تملك ثُلُثي رأس المال»[٤٣] «وقد وضعت هذه ميزة في خدمةِ إم بي سي عام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣، ضدّ إي إس سي المصريّة، ثُمّ في خدمة إيه آر تي»[٤٤].

أمّا أوربت، فتبرّر تشفير قنواتها، وطبيعة برامجها بأنّها تستهدفُ الجمهور الذي يمتلك القدرة الشرائيّة ويُمثّلُ السوق الإعلانيّة، وكلاهما في دول الخليج التي يُشكّلُ سوقها ٥٥ بالمئة من السوق العربي. وحيثُ تفرضُ التعقيدات الدينية والتقليديّة مُقاربةً محليّةً أو مدروسةً بعناية وفقَ معرفة للواقع. وتستندُ أوربت إلى إدارةِ مجموعةِ موارد[٤٥]. في عام ٢٠٠٢، بلغ الإنفاق الإعلاني ١,٣ بليون دولار، منها نصف بليون في العربيّة السعوديّة. واستأثرت الفضائيّات بنصف هذا الإنفاق. بحسب تقارير اليونسكو، تحتلّ إم بي سي الموقع الثالث بين القنوات التي يستهدفها المُعلنون، بعد الـ إل بي سي آي والمستقبل. تتوزّعُ الأنشطة الإعلانيّة بين دبي التي تُعتبر المركز الإقليمي لوكالات الإعلان وبخاصّة اللبنانيّة والسعوديّة: شركة شويري اللبنانيّة

(٤١) Boyd, «Saudi Arabia's International Media Strategy: Influence through Multinational Ownership,» p. 114.

(٤٢) Naomi Sakr, «Arab Satellite Channels between State and Private Ownership: Current and Future Implications,» *TBS Archives*, no. 9 (Fall-Winter 2002).

(٤٣) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي... حقائق وأرقام!».

(٤٤) S. Abdallah Schleifer, «Ian Ritchie, CEO, MBC (Middle East Broadcasting Centre),» TBS Archive, no. 1 (Fall 1998).

(٤٥) <http://OrbitNet/corporate/advertise>.

التي تسيطر على قطاعٍ كبير من الصحافة المكتوبةِ والمرئيّة والمسموعة، شركة تهاما السعوديّة التي يملكها الشيخ صالح كامل، مجموعة الخليجيّة السعوديّة التي تسيطر على الشركة السعوديّة للأبحاث والنشر وتُدير إعلانات إم بي سي (إلى جانب مجموعة آرا)، إعلانات تلفزيون المستقبل وتلفزيون لبنان[٤٦].

على الرغم من هذا الدعم الإعلاني المُتماسِك، وعلى الرغم من تخفيض النفقات، فإنّ المحطّات السعوديّة تُعاني خسائر ملحوظة. «إنّ التلفزيون، وخاصّة ذلك الذي يحلم به المسؤولون السعوديّون: رقميّ، مدفوع الخدمة، غنيّ بالمواد الحصريّة، يظلُّ عمليّة مُرادفةً للخسائر الماليّة، ولذلك لا يستطيعُ النجاح في السوق التلفزيوني إلا أولئك الذين يعتمدون على الدعم الحكومي المُباشر»[٤٧]، يكتُبُ جون ألترمان. وعندما يتعلّق هذا الدعم بباقاتٍ مُوَسّعة فإنّهُ يحتاجُ إلى حُكوماتٍ تمتلكُ قُدُراتٍ ماليّةٍ استثنائيّة.

بعد إطلاقِ إم بي سي للقناة الإخباريّة المُكلفة، العربيّة، لجأ القائمون على الشركة الأُم إلى تحالُفاتٍ جديدة. تحالفات كانت قد بدأت بين شركتي تِهاما وشويري مع إطلاقِ مشروع القناة الإخباريّة بين إل بي سي آي وجريدة **الحياة**. وبموجب هذا التحالُف حصل شويري على إعلانات مجلّة لها. وعندما عادت إم بي سي إلى دبي عُقِد تحالُفٌ جديد بين الوليد بن إبراهيم الوليد وشويري عملاق الإعلان اللبناني، ينُصُّ على تأمين مئة مليون دولار سنوياً من الإعلانات لـ إم بي سي. أعلن الرجلان أنّ الهدف هو تصحيح سعر الإعلان وتوسيع السوق لما فيه مصلحة وسائل الإعلام العربية التي تتنافسُ على ما يقلُّ عن ١,٥ مليار دولار، في حينٍ أنّ الرقم المُفترض للسوق الإعلاني في العالم العربي هو ٥ مليارات[٤٨]. غير أنّ الشركات المنافسة اتّهمت التحالف الجديد باحتكار السوق الإعلاني. إلى جانب الإعلان، تلجأ الباقات التلفزيونيّة إلى مصادر أخرى للدخل: البرامج المشفّرة، شركات الإنتاج، بيع وتأجير الخدمات والأجهزة. إيه آر تي، فضّلت الوسيلة الأولى، فيما فضّلت إم بي سي، الوسيلة الثانية. وبذلك استطاعت إيه آر

(٤٦) فرانك مرمييه، مشرف، **الفضاء العربي: الفضائيات والإنترنت والإعلان والنشر**، ترجمة فردريك معتوق (دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣).

(٤٧) Jon B. Alterman, «The Effects of Satellite Television on Arab Domestic Politics,» *TBS Journal*, no. 9 (Fall-Winter 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall02/Alterman.html>.

(٤٨) «أباطرة وسائل الإعلام العربية،» إسلام أون لاين (٢٠٠٥)، <http://www.islamonline.net/arabic/arts/2005/02/article07B.shtml>

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

تي التي يبلغ رأس مالها ٥.١ مليار دولار أن تؤمّن ٢٠٠ مليون دولار من الاستثمار في التشفير خاصةً عندما تحصل مُناسباتٌ مهمة مثل كأس العالم في كرة القدم[٤٩]. وعلى الرغم من أنّ عمليّات القرصنة كادت تُفشِل هذه الاستراتيجية، إلا أنّ التوازن استقرّ منذ عام ٢٠٠٢ مع مليون اشتراك بمتوسط مئة ريال سعودي أي ما يُساوي مئة مليون ريال شهرياً[٥٠].

أمّا أوربت، فإنّ المعلومات عن تمويلها نادرة، بحيث ترى فوربس أنّ البحث عنها هو «مُشاركَةً في الحرب العالميّة الثالثة»[٥١]. كانت في البدء فرعاً للشركة السعوديّة «موارد» والتي لا تقتصر أنشطتها على الإعلام. اعتمدت أوربت على البث المُشفّر وعلى بيع الإنتاج التلفزيوني كمصدرٍ للتمويل.

في عام ٢٠٠٤، قلّصت المجموعة استثماراتها في الإنتاج التلفزيوني لترفعها في مجال البث المُشفّر ولتشتري ٣٠ بالمئة من القمر نورسات الذي تمّ تشغيلُهُ عام ٢٠٠٥. كما وسّعت دائرة مُستهلكيها، وبالتالي مُعلنيها عبر إنشاءِ قناةٍ جديدة باللغات الآسيويّة. وذلك بعد أن أطلقت عام ٢٠٠٣، على أرض العربيّة السعوديّة مشروع خدمات إنترنت بقيمة ٣٠٠ مليون دولار ومشروع تجديدِ شبكةِ الاتّصالات الهاتفيّة بقيمة ٨٠٠ مليون ريال سعودي[٥٢].

ج ـ المحطات اللبنانية: تمويل تجاري وحزبي

يُشكّل الإعلان المصدر الرئيس لتمويل الفضائيّات اللبنانيّة.

تتناقض المعلومات بشأن العائدات الإعلانية لقناة إل بي سي، حيث تُحدّد نعومي صقر الاستثمارات الإعلانيّة للقناة لعام ١٩٩٩ بـ ١٦٦,٥ مليون دولار[٥٣]، في حين يُحدّد بيار ضاهر، رئيس مجلس إدارة القناة، صافي العائدات الإعلانيّة للعام نفسه بـ ٣٠ مليون دولار[٥٤].

---

(٤٩) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي. . . حقائق وأرقام!».

(٥٠) «أباطرة وسائل الإعلام العربية».

(٥١) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي. . . حقائق وأرقام!».

(٥٢) «شركات أجنبية تستثمر في الاتصالات في العربية السعوديّة،» **الشرق الأوسط**، ٦/٣/٢٠٠٣.

(٥٣) Naomi Sakr, «Pan-arab Research Center (PARC),» (UNESCO, 2001), p. 206.

(٥٤) «Les Chaînes de télévision au liban,» <http://www.rdl.com.lb/2000/3748/enquete.html>.

غير أن هذه المُعادلة لا تنطبق على سائر المحطّات. حيثُ يخضعُ السوق الإعلاني لوكالات الإعلان التي تُسيطر على السوق العربي، خاصّة مجموعة شويري ومجموعة الخليجيّة، التي تُزوّدُ تلفزيون المستقبل. وبما أنّ شويري وهو مُقرّبٌ من القوّات اللبنانيّة، وتحديداً سمير جعجع، فإنّ إعلاناته لا تذهب إلى المنار أو تلفزيون الجديد أو إن بي إن. كما إن التحالف بين شويري والخليجيّة قد شدّد هذا الحصار. ما جعل هذه المحطّات تعتمدُ على إعلاناتٍ مؤيّدي خطّها السياسي وعلى نُشطاء أحزابها. وهذا يُفسّر الاختلاف في مصدر وهدف الإعلان: فبالنسبةِ إلى البعض، الهدف هو السوق اللبناني، في حين يستهدف البعض الآخر السوق وبالتالي المُعلن الخليجي؛ فنرى مثلاً رئيس مجلس إدارة إم تي في، يقول عام ٢٠٠٠: «منذ ١٩٩٧ والاقتصاد اللبناني يتراجع. في عام ١٩٩٩ وصلنا الكارثة، والآن نحن في الحضيض»[٥٥] «منذ عام ١٩٩٨، و٩٠ بالمئة من عائداتنا الإعلانية تأتي من خارج لبنان. لذلك فإنّ الأزمة المحليّة لا تؤثّر علينا»[٥٦] ما يُفسّر أيضاً اختيار نوعيّة البرامج إذ إن الجمهور المستهدف هو المُعلِنُ والمستهلِك خارج لبنان أو داخله بالنسبة إلى البعض، وهو المُحازب والمناضل السياسي بالنسبةِ إلى البعض الآخر. أمّا المستفيد الأكبر فهو شركات الإعلان المذكورة «يتراوح صافي عائدات التلفزيونات المحليّة بين ٥٠ ـ ٦٠ مليون دولار»[٥٧] يؤكّد بيار ضاهر عام ٢٠٠٠.

ويُضيف غابرييل المر: «نصيب القناة منها ما معدّله ٦٠ بالمئة، فيما تذهب ٤٠ بالمئة لشركات ووكالات الإعلان. وإذا كان متوسّط الرقم هو ٥٥ مليون دولار، فإنّ نسبة حصّة القنوات المحليّة منها هو ٣٠ مليون دولار. وبما أنّ تكاليف أيّة قناة تزيد على ١٠ ملايين دولار، فإنّ السوق لا يستطيع، في السياق الحالي، أن يؤمّن استمرار أكثر من ثلاث محطّات. والدليل تلفزيون لبنان الذي لم يعُد يحيا إلا بأموال الدولة. إنّه يخسر كل سنة ٣٠ مليون دولار، وهو مبلغٌ يكفي لإحياء ٣ أو ٤ محطّات تلفزيونية»[٥٨].

فيما يمضي ضاهر إلى ما أبعد من ذلك، مُعتبراً أنّ السوق اللبناني لا

---

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

يحتمل، في البعد التجاري، أكثر من محطتين؛ أمّا **فوربس**، فتُشير إلى أنّ الـ إل بي سي والمستقبل هما أكثر من يجتذب الإعلان[٥٩].

الجدول الرقم (١ ـ ٤)

العائدات الإعلانية لستّ محطّاتٍ تلفزيونيّة لبنانيّة لعام ٢٠٠١

(الأرقام بالنسبة المئوية)

التصنيف	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠
تلفزيون لبنان	٥,٩	٩	٥
تلفزيون الجديد	٨	٩	١٠
تلفزيون المستقبل	٥	٥	٥,٤
تلفزيون المنار	١,٥	٥,١	٥,١
إل بي سي آي	٣١	٣٠	٣٣

المصدر: Jean-Claude Boulos, «La Télé: Quelle histoire!,» *Revue Ninar* (2001), pp. 115-119, dans: Derek El Zein, «Le Paysage médiatique libanais,» (Thèse de doctorat à l'université Paris, 2006).

المحطّات الحزبيّة خاصّة إن بي إن والمنار، تعتمد على تمويل حزب الله وحركة أمل وعلى الدعم الإيراني من دون أن يغيب الإعلان عن شاشاتها. وذلك بفضل عاملين: اتّساع نطاق جمهورها الذي يُغري بعض المُعلنين، والتضامن السياسي. حيثُ يؤمّنُ هذا الأخير أيضاً تبرّعاتٍ، خاصّةً من طرف الاغتراب الشيعي في أفريقيا. لقد شكّلت مسألةُ الإعلام موضوعاً أساسياً في النقاشات التي دارت حول قانون ١٩٩٤، المُتعلّق بالبث السمعي ـ البصري في لبنان. «كان النفوذ النشط جداً للوبي السمعي ـ البصري واضحاً في تأجيل ثُمّ إلغاء المادة التي تُحدّدُ الوقت المُعطى للإعلان خلال البرامج»[٦٠]. وربط مالكو القنوات ذلك بحرّيّة التعبير. وقد رأوا أنّ الرهان الاقتصادي هو العامل الحاسم في مصير أيّة وسيلة إعلام: حيث إن البقاء يكون للأكثر كفاءةً وهي من يستفيد أكثر.

كان الطرفان الأكثر حماسةً في هذا النقاش حول ضبط الإعلان هما الصحافة المكتوبة والمثقّفون، من مربين وعلماء اجتماع وعلماء نفس وحتّى

(٥٩) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي. . . حقائق وأرقام!».

(٦٠) Nabil H. Dajani, «The Changing Scene of Lebanese Television,» *TBS Journal*, no. 7 (Fall-Winter 2001).

بعض السياسيين. وعلى الرغم من كُل الوعود الحكوميّة، فإن المحطّات استمرّت بعدم التزام أي حُدودٍ للإعلان سواء خلال النشرات الإخباريّة أو البرامج، بما فيها الموجّهة للأطفال. وعبثاً احتجّت نقابة الصحافة وحاولت الحصول على حصّة للصحافة المكتوبة «يُشكّل التلفزيون خطراً على الصحافةِ المكتوبة على صعيد الجمهور وعلى صعيد الإعلام. حيثُ إن الصحُف، خاصّة المتوسّطة المستوى، تخسرُ أكثر فأكثر من عائداتها الإعلانيّة»[٦١].

لا يُغطّي العديد من المحطّات الخاصة اللبنانيّة ومثلها العراقيّة والسوريّة تكاليفه، ولكنّ أسباباً سياسيّة تؤمّنُ التمويل.

ـ المحطّات المصريّة الخاصة

نتناول هنا وضع القنوات الخاصة، المحور، دريم، مزّيكا، ميلودي.

فشلت المحور، في تحقيق التوازن، سواء على مستوى الجمهور أو على مستوى الميزانيّة، فيما يُعيده البعض إلى غياب الاستراتيجية والهوية[٦٢]، ويعيده البعض الآخر إلى نقصٍ في الكفاءات وفي الأسماء الكبيرة[٦٣].

دريم، حقّقت نجاحاً أفضل سمح لها بالاستمرار؛ أمّا مازّيكا، فحقّقت عائداتٍ إعلانيّة بقيمة ١٢ مليون جنيه شهرياً[٦٤]. ذاكَ أنها راهنت على الفئة العمرية ما بين ١٥ ـ ٢٦ عاماً، ما يُشكّل ٥٥ بالمئة من الجمهور العربي. كما حقّقت عائدات أخرى عن طريق الرسائل الهاتفيّة بقيمة ٧ ملايين جنيه شهرياً[٦٥]. وإذا كانت هذه الأرقام هي المقدّمة إلى الضرائب، فإن المحللون يعتقدون أن الأرباح الحقيقيّة تتجاوزها.

كذلك اعتمدت ميلودي هيتس، على هذين المصدرين إضافة إلى ثالث تمثّل في البحث عن مُغنّين مُبتدئين يدفعون مُقابل ظُهورهم على الشاشة ما حقّق لها ١٠آلاف جنيه يومياً[٦٦].

(٦١) Anis Moussallem, «La Radio et la télévision au Liban,» <http://www.opuslibani.org.lb/liban/dos0026.htm>.

(٦٢) ديلواني، «الإعلام الفضائي العربي. . . حقائق وأرقام!».

(٦٣) المصدر نفسه.

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) المصدر نفسه.

لتُضيف ميلودي أرابيا إلى كُلّ ذلك مصدراً ثالثاً هو الدردشة (Chat) والتعارف (Match Maker).

تجارب من فشلٍ ومن نجاح مالي لم يؤمّن للدولة العربيّة الكُبرى حُضوراً فاعلاً على ساحة الإعلام الإخباري. هذه الساحة التي كانت القاهرة تتزعّمها في المرحلةِ الناصريّة، وحاولت استعادتها عام ١٩٩١. لكنها ربّما تكون في طريقها إلى ذلك في المرحلة الجديدة التي تلت ثورة ٢٥ كانون الثاني/ يناير.

د ـ التمويل المختلط: العربية

العربيّة هي القناة الأكثرُ كُلفةً في مجموعة إم بي سي: ٧٠ مليون دولار عند إنشائها بحسب البعض، ومئة مليون بحسب البعض الآخر؛ في حين أنّ ميزانيّتها عام ٢٠٠٣، كانت ٣٠٠ مليون دولار لخمسِ سنوات.

كان من المُفترض أن يدخُل مُساهمون جُدُد في مشروع العربيّة، كويتيّون والمصري نجيب ساويرس وأسرة الحريري اللبنانيّة. غير أنّ مدير القناة عبد الرحمن الراشد، يؤكّد أن هذه المُشاركات لم تتحقّق ويرفض الحديث عن الأسباب[٦٧]، التي تقولُ مصادر أخرى أنّها تتعلّقُ بخلافاتٍ حول سياسات التحرير؛ فالكويتيّون الذين ساهموا، لدى الإنشاء بـ ٢٠ بالمئة من الأسهم لم يلبثوا أن انسحبوا، كما إن رفيق الحريري، طالبَ بحصّةٍ في الإدارةِ السياسيّة وعندما قوبِل بالرفض انسحب من المشروع وأنشأ المُستقبل الإخباريّة. يقول الراشد: «إن مصاريف القناة تُؤمّن من قِبل الباقةِ الأم إم بي سي وعن طريقِ شركات الإنتاج والخدمات المُلحقة بها مثل (Men News)، التي تبيع خدماتٍ وأخبار لعدّةِ زبائن في مُقدّمتهم، الإخباريّة السعوديّة، تلفزيون البحرين وتلفزيون عُمان.» كما إنّها تتفاوض مع رويترز وما يُسمّيه بـ «مصادر أخرى»[٦٨]. تستفيد العربية من الحصار الإعلاني السعودي على الجزيرة ما كان يوفر لها عام ٢٠٠٤ بين ١٠ ملايين ـ ٢٠ مليون دولار سنوياً[٦٩]. وتؤمّن شركة آرا ٣٠ بالمئة من إعلانات العربيّة مُقابلَ تنفيذها لإنتاج برامج للقناة،

---

(٦٧) لقاء شخصي مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) «أباطرة وسائل الإعلام العربية،» إسلام أون لاين (٢٠٠٥).

ما يجعل من آرا إلى جانب مين نيوز، المنتج الرئيس لبرامج القناة. كذلك يخُصُّ مُستثمرون آخرون العربيّة بإعلاناتهم مثل شركة (راسمالا) التي تدفعُ إعلاناتها نقداً، والأمير محمد بن فهد، الذي يخُصُّها بإعلانات مشاريعِهِ واستثماراته ومنها معهده في الرياض. تُضاف مصادر الدخل هذه إلى ما يؤمّنه الائتلاف مع الشويري. غير أن كل هذه المصادر لا تتمكّن من تأمين التوازن في الميزانيّة. وهنا تبرز وثيقةٌ «خِلافيّة» (كما تصفها جريدة **لوموند**)[٧٠] تكشف النقاب عن دعمٍ ماليٍّ أمريكي. المقصودُ بهذه تقريرٌ لوزارة الخارجيّة الأمريكية لم يكُن مُصنّفاً في قسم «سرّي للغاية»؛ فسرّبه عام ٢٠٠٤ موظّفٌ أمريكي لاتيني، ثُمّ نشرت ترجمتهُ دار نشر ألمانيّة: ميساء للأبحاث والنشر[٧١] وتداولته الصحافة العربيّة والأجنبيّة. ويكشف التقرير عن العلاقة بين إنشاء قناة العربيّة وإدارة جورج دبليو بوش، يتألّف من ثلاثة تقارير طلبتها وزارة الخارجيّة في فترة كولن باول: **الأوّل**، أعدّهُ مركز أبحاثٍ أمريكي. **والثاني**، أعدّته الدائرة المالية في الوزارة. **والثالث**، أعدّه مكتب وكيل وزير الخارجيّة لشؤون الشرق الأوسط. التقرير الأخير رُفِض بسبب طوله (٢٨٠٠ صفحة)، فأعيد تلخيصه وتجديده بـ (١٨٠٠ صفحة) قُدّمت إلى مُستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، في بداية عهدها.

يصفُ التقرير مجموعة إم بي سي بـ «المجموعة الذكيّة» ويُعبّرُ عن نجاح وزارة الخارجيّة الأمريكية في وضع هذه المجموعة في خدمة المصالح الأمريكية: يكمن الفارق بين هذه المجموعة ووسائل الإعلام العربيّة الأخرى ـ بحسب التقرير ـ باستعداد هذه المجموعة للتضحية بمصالحها الماليّة والربحيّة لخدمةِ السياسة الأمريكية، على عكس روتانا أو إيه آر تي، اللتين تعطيان الأولويّة لمصالحهما المالية[٧٢]. ومع اعتراف التقرير أن العربيّة، قد أنشئت

---

(٧٠) بحسب وصف جريدة **لوموند** الفرنسيّة.

(٧١) تداوله العديد من وسائل الإعلام والمواقع والمقالات العربيّة مثل: طارق شفيق حقّي، «تقرير عن قناة العربية والـ «إم بي سي»،» (٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦)، <http://merbad.net/vb/showthread.php/2062>؛ محمد العزّي، «فضيحة قناة «العربية»،» (١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦)، <http://forums.naseej.com/showthread.php?t=87190>؛ محمد مجاهد، «التقرير الأمريكي، المجموعة الذكية (١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦) <http://sabraeng.com/vb/showthread.php?t=4489>، ومحمد إسحق الريفي، «حقائق خطيرة عن قناة العربية وشبكة إم بي سي. . . هام وسري،» <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?32969>.

(٧٢) مجاهد، المصدر نفسه.

لمنافسةِ الجزيرة ونشر دعاية الدولةِ السعوديّة، فإنّ التقرير يعتبر أنّ أهدافها تتجاوزُ ذلك إلى:

ـ تحسين صورة الولايات المتحدة في العالم العربي، وبخاصة عبر برامج تُسوِّق نمط الحياة الأمريكية وتُمجّد منظومة القيم الأمريكية (حتّى ولو احتاج الأمر إلى بعض التقارير التي تبدو مُعارضة لأمريكا في ما يخُصّ بعض الأحداث السياسيّة).

ـ إرساء صيغةٍ خاصّةٍ للإسلام، إسلامٌ ليبرالي في الجانب السياسي، حتّى ولو كان سلفيّاً أصوليّاً في الجانب الاجتماعي والديني[٧٣].

لأجل هذه الأهداف، تُساهم الإدارة الأمريكية في تمويل العربية بـ ٥٠٠ مليون دولار لمدّة خمسِ سنواتٍ، يُسلّم ١٠ بالمئة منها نقداً و٩٠ بالمئة تجهيزات وتقنيّات وإعلانات. كذلك يُعطى مراسلو العربيّة أولويّة الوصول إلى الأخبار وإلى المقابلات مع المسؤولين الأمريكيين ومسؤولي المعسكرات الصديقة. أمّا مدة السنوات الخمس، فتعود إلى تقديرٍ يُحدّدُ صدقية القناة لدى الجمهور العربي، في حين يعتبر أنّ الصحيفة والإذاعة تدومان أكثر. كما تعود إلى الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، خاصة بعد احتلال العراق والاستقرار الأمريكي في الخليج. ما يُفسّر التوجّهات التي برزت عام ٢٠٠٥، بتحويل القناة تدريجيّاً إلى قناةٍ اقتصادية. (غير أنّ التحوّلات السياسيّة التي طرأت على المنطقة عادت فجدّدت الحاجة إلى دور سياسي للإعلام خاصّة بعد حرب ٢٠٠٦، ومن ثَمّ حرب غزّة وأخيراً الحراك الشعبي العربي).

في لقاءٍ شخصيٍ مع الباحثة عام ٢٠٠٧، أثار عبد الرحمن الراشد، موضوع التقرير (من دون أن يُسأل عنه)، فهاجمه بعُنف واصفاً إيّاه بالادعاء وبالكذبة الكُبرى وبالإهانة الكُبرى وبالتلاعب الكبير. مؤكّداً أن وزارة الخارجيّة الأمريكية لم تطّلع يوماً على هذه الوثيقة وعلى أنّهُ لا وُجود لدار نشر ترجمته ونشرته. وعند سؤاله لماذا إذاً لم يصدر أي تكذيب رسمي لا عن الأمريكيين ولا السعوديّين؟ ردّ بهجوم على الجزيرة والصحافة العربية «المُغرِضة». وأكّد أنّ تمويل العربيّة يتوزّعُ كالتالي: ٣٠ بالمئة من الإعلان،

(٧٣) الريفي، المصدر نفسه.

٥٠ بالمئة تؤمّنها إم بي سي من دون أن يوضّح مصدر الـ ٢٠ بالمئة الباقية. هل هُناك عجز؟ وهل يعني ذلك عدم قدرة القناة على الاستمرار؟ لا شكّ أنّها أسئلةٌ لا تُطرح طالما أنّ الأمر يتعلّقُ بالمصالح السعوديّة في العالم العربي. وإذا كان الأمر كذلك فما الحاجةُ إلى تمويلٍ أمريكي؟ أو حتّى إلى مُساهمين غير سعوديّين؟ أم أن الرهان كلّه يدورُ حول السياسة التحريريّة؟

ظواهر تؤشّر إلى تطوّراتٍ لحقت بمحطّاتٍ عربيّةٍ أُخرى: تُنشأُ بتمويل عربي، محلي، حُكومي أو خاص، ثُمّ تتعرّضُ لاضطراباتٍ ماليّةٍ وإداريّة تفتحُ أبوابها للمُساهمين والشركات الأجنبيّة في شبكاتٍ يتداخلُ فيها التحكّمُ بالتوجّه الاقتصادي كما بالتوجّه السياسي.

ثالثاً: بين رؤيتين وأربع وقائع: التوطين، إعادة التوطين، والخصخصة

١ ـ رؤيتان: العربية السعودية ومجتمع الاتصالات، مصر ودور الدولة

رؤيتان مُتناقضتان تطرحانِ نفسيهما: **الأولى**، تعود إلى فلسفةِ الاتصال. أما **الثانية**، فتعود إلى رؤيةٍ مُعيّنةٍ لدور الدولة؛ فيما يصفه أرمان ماتلار بـ «مواجهة حادّة بين السوق والدولة»[٧٤].

الفلسفة المصريّة للاتصال تختلف عن الفلسفة السعوديّة بظاهرتينِ مُتناقضتين:

لم يُميّز المصريّون بين البثّ المُوجّه للجمهور المحليّ والبث المُوجّه للعالم العربي، كما إنّهم لا يُمارسون الرقابة بالنسبة نفسها التي يفعلها السعوديّون. حتّى «خلال الحرب، كان التلفزيون المصري والتلفزيون السعوديّ يُعيدان بثّ أخبار الـ سي. إن. إن. (CNN). غير أن المصريّين كانوا يفعلون ذلك بشكلٍ مُباشر ومن دون أي رقابة، بينما كان السعوديّون يُراقبون المادة ويختارون ما يُريدون بثّه مع فارق بضع ساعات»[٧٥]. كذلك فإنّ الرقابة الاجتماعية والدينيّة على وسائل الإعلام هي أكثر تشدُّداً، نظراً إلى أنّ القراءة

(٧٤) Armand Mattelart, «Jeter les bases d'une information éthique,» *Le Monde diplomatique*, no. 597 (décembre 2003).

(٧٥) Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters».

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

المصريّة للإسلام تُشكّلُ خطورةً على القراءة الوهّابيّة، والذي يُراقب الإنتاج الدرامي المصري مُنذُ بداية القرن، يلحظُ كمَّ الانفتاح والحداثةِ اللذين وسماهُ في البداية وكيف تراجع بشكلٍ كبيرٍ استجابةً لمُتطلّبات السوق السعودي. ـ ولا يستطيع أحد التكهُّن بالتحوّلات التي ستطرأ عليه مع تاريخ وصول هذا البحث إلى أيدي القُرّاء.

والمُفارقة أنّ السعوديّين الذين يُطبّقون أكثر القواعد الرقابيّة على الصعيد الإعلامي الداخلي، هم الذين يسمحون في برامج التسلية التي تبثّها القنوات التابعة لهُم خارجياً بتجاوز الخُطوط الحمر التي تكاد لا تسمح بها أيّةُ فضائيّة عربيّة ليبراليّة.

شيزوفرينيا تسمح بها الخصخصة، ما سمحَ لمحلّل إعلامي غربي أن يلحظ بدورهِ أن الفضائيّات السعوديّة تفوّقت على المصريّة، لأنّ «الفضائيّات المصريّة لا تزالُ تخضعُ لتأثير الأخلاقيّات الإسلاميّة المُحافظة، نسبيّاً إن لم يكن قطعيّاً؛ فليس في بثّها مساحات للبورنو (Porno)»(٧٦) بحسب تعبيره.

أمّا الرؤية الثانية، أي تلك المُتعلّقة بدور الدولة، فإنّها تقع في عُمق مبدأ العولمة، ذاك أنّ هذه الأخيرة إن هي، في واحد من وجوهها، إلا حربٌ ضدّ الدولة. الفضائيّات السعوديّة الخاصّة، تُجسّد ما سمّاه خالد الحروب، في أحد برامجه «عبقريّة الأنظمة السياسيّة العربية، التي عرفت كيف تتكيّف للحفاظ على بقائها مع كُل التغيّرات، حتّى تلك التي تقع في مُستوى العولمة، حيث استطاعت أن تستوعبها وأن تُدوّرَ زواياها الحادة»(٧٧). عبقريّةٌ سلبيّة تُحافظ على الوضع القائم؛ فالفضائيّات السعوديّة كُلها ملكيّة خاصّة، تبثّ من الخارج ويمتلكها أفراد في الأسرة الحاكمة. وهي مؤسّساتٌ مُتكيّفة مع منطق اقتصاد السوق المُتمثّل في الخصخصة التجاريّة؛ في حين أنّ الفضائيّات المصريّة، لا تزال مُلكيّة عامّة وكأنّها لا تُجاري روح العصر، خاصّة العصر الأمريكي في الفضاء العربي. حتّى في الخطّ الجديد الذي انتهجته في تبويب بثّها التلفزيوني على (النايل سات)، فقناة تلفزيون النيل،

(٧٦) Jon B. Alterman, «Transnational Media and Social Change in the Arab World,» *TBS Archives*, no. 2 (Spring 1999).

(٧٧) خالد الحروب، «الفضائيّات العربيّة والعولمة في الشرق الأوسط،» <http://www.aljazeera.net/books/2002/12/12>.

مُتخصّصة بباقة الفُنون الدراميّة (أفلام، مُسلسلات، ومسرح)؛ أمّا النيل للأخبار، النيل للثقافة، والنيل للأطفال، فهي محطّاتٌ إخباريّة أو تربويّة كما أرادها التعاون الإنتاجي بين التلفزيون ووزارة الثقافة في مجلس التخطيط للقناة الجديدة للفُنون في اتحاد الإذاعة والتلفزيون (ERTU).

في عام ١٩٩٦، كتب عبد الله شليفر «أنّ من يُحرّك هذه الفلسفة الإعلاميّة هو وزير الإعلام صفوت الشريف» الذي يدعو إلى «نظريّة السيادة الثقافيّة... التي تجتذب الحس الشعبي المصري»(٧٨).

في عام ٢٠٠٤، اضطر صفوت الشريف إلى الاستقالة قبل تشكيل الحكومة الجديدة؛ وأكّد راديو الشرق في نشرته الإخباريّة، أنّ سبب هذه الاستقالة الإجباريّة يعودُ إلى التناقُض بين سياسة الوزير وخطّ الانفتاح الذي كان يتبنّاهُ جمال مُبارك.

ولا يستطيع التفوّق الكبير للإمبراطوريّة الإعلاميّة السعوديّة أن يحسم المنافسة بين القاهرة والرياض. حيثُ إن الشركات السعوديّة نفسها قد وجدت نفسها مُضطرّةً للعودةِ إلى الساحةِ المصريّة كي تُثبت وجودها. كما إنّه لا يُمكنُ لأيّ قناة عربيّة، خاصّة الفضائيّات السعوديّة، أن تتجاوز المُذيعين، مُقدّمي البرامج والأفلام المصريّة.

أهو التعبير عن وزن مصر في العالم العربي، أم أنّها التبعيّة المُتبادلة؟ أهو الرهان على وزن العاصمة ووزن الديموغرافيا والكفاءات؟

٢ ـ أربع وقائع: مصر، لبنان، الخليج (العربية السعودية ـ سائر الإمارات)

أربع حالاتٍ تتقاسم المنطقة وتُفسّر الاختلافات المُتعلّقة بالتوطين والخصخصة. حالاتٌ ترتبطُ بثلاثة قطاعات جغرافية سياسية: مصر، لبنان، والجزيرة العربيّة التي تُمثّل بدورها حالتين.

أ ـ مصر: عناصر السيادة وتاريخ الإعلام

مصر هي الدولة العربيّة الكبرى التي تتمتّع بكلّ عناصر السيادة: الجغرافيا، الديموغرافيا، التاريخ، والثروة. كما إنها تتمتّعُ بتقاليدَ سياسيّةٍ

(٧٨) Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters».

ثقافيّةٍ فنيّةٍ راسخة، وسياسية، عبر أحزاب سياسية عريقة وتاريخ من الجدل العام على الساحةِ العامّة. تاريخٌ من الثورات التي لم تكُن ثورةُ تشّرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٥٤ الأولى بينها؛ فقد خاضت البلاد نضالاتها لأجل الاستقلال والسيادة والإصلاح مُنذُ الحروب الصليبيّة. وتقاليد ثقافيّة وفنية، «فهي الدولة العربية التي تملك العدد الأكبر من المواهب: كُتّاب وصحافيّون، رسّامون، مُمثّلون، مُطربون، مُلحّنون، راقصون، مُنتجون، مُخرجون ومرتّلو القرآن. كما إنّها تمتلك صناعة السينما الأكثر تطوّراً في العالم العربي والتي استطاعت أن تُثبِتَ نفسها على ساحة المنافسة الدوليّة»(٧٩). إنّه تاريخ مُزدهر من الإنتاج الإعلامي والدرامي الذي غطّى المنطقة العربية وجعل اللهجة المصرية مألوفة على امتدادها؛ في مصر أيضاً تقاليد انفتاحٍ اجتماعي وثقافي تجمع العروبة إلى انفتاح على الغرب منذ الحملة النابليونيّة.

ما ينقصُ الإنتاج الإعلامي والدرامي في مصر هو التمويل فحسب، وهذا ما يُمكن تأمينه عبر الانتشار في السوق العربي، فعائدات الإنتاج تُغذّي شركات الدولة، وهذه تُموّل وسائل الإعلام. بخاصّة وأنّ هذا الانتشار الإعلامي في العالم العربي هو حاجة سياسية واقتصادية لاستمرار مصر في موقع القيادة العربية، والآن الإسلامية، لذلك كُلّه لا يُمكن تحقّق هذا الدور إلا انطلاقاً من الأرض المصريّة وبحُضور الدولة، حتّى وإن احتاج الأمر إلى اجتذاب الاستثمارات الخارجيّة.

ب ـ لبنان: مساحة من الحرية.. من الكفاءة.. ومن مجموعاتٍ لكلٍّ إعلامه

لبنان بلد صغير لكنّه استطاع مُنذ بداية القرن العشرين أن يحتلّ موقعاً أساسيّاً على ساحة الإعلام العربي، بل إن اللبنانيين كانوا هم من أسّس دورة الإعلام الكُبرى في مصر عندما كان القمع العثماني يمنعهم من ذلك في بلادهم(٨٠).

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، ازدهرت في لبنان الصحافةُ المكتوبة،

(٧٩) المصدر نفسه.

(٨٠) مثلاً، أسّس الأخوان تقلا جريدة **الأهرام**؛ جرجي زيدان «دار الهلال»؛ آسيا داغر شركة إنتاج؛ وروز اليوسف المجلّة المعروفة باسمها وغيرهم من الصحافيّين والكتّاب والفنانين.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

ازدهاراً عزّزه جوّ الحريّة السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة، كما عزّزه تزاوج الانفتاح على الغرب مع التجذّر في المحلّي والعربي. غير أن السياسي المتميّز بالحريّة تميّز أيضاً بالتوزيع الطائفي والإقطاعي، الذي أدّى إلى الحرب الأهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٨). يتّفق الجميع على مفهوم السيادة، لكنّ بعضهم يترجمها ضدّ العدوّ الإسرائيلي، والبعض الآخر ضدّ الشقيق السوري، في تعدّديّة جعلت كُلّ فصيل يمتلكُ وسائل إعلامه. كما أعطى لوسائل الإعلام هذه قدرةً على الانتشار في العالم العربي، وبالتالي اجتذاب الإعلان، خاصّةً مع هيمنة اللبنانيّين على هذا السوق. وإذا كانت المحطّات اللبنانيّة تختلف في بحثها أو في إعطائها الأولويّة للإعلان، فإنّها لا تختلف في هدف وجودِها: إثبات نفسها كصوتٍ لفصيلٍ منَ الفصائلِ اللبنانيّة، مُستفيدةً من أجواء الحريّات العامّة في البلاد.

لذلك، فإنّ الأسباب التي دفعت المحطّات السعوديّة إلى التوطين في أوروبا، هي عكس التي تدفع المحطّات اللبنانيّة ـ كما المصريّة ـ إلى التوطّن على أرض بلادها. وإذا كانت تلك المحطّات تبثُّ من الخارج باتجاه جمهورها العربي والمحلّي، فإنّ المحطات اللبنانية وبخاصة المنار والـ إل بي سي الدولية، تحرصان على الوصول إلى الجمهور العربي واللبناني في المغتربات ولا سيما أنّ غالبيّة المغتربين اللبنانيّين هم من الموارنة والشيعة.

ج ـ الخليج: ثروة شاملة ووضعان مُختلفان في ما يتعلّق بعناصر السيادة

في الخليج يختلف الوضع تماماً؛ فهناك الثروات الضخمة وبالتالي القدرة على التمويل. وهناك إرادة إثبات الوجود عبر الميديا والرغبة في الاندماج في مجتمع الاتصالات، وذاك ما توّمنه العولمة. غير أنّ أيّاً من هذه الإمارات لا يتمتّعُ بالعناصر الثقافيّة والسياسية والاجتماعيّة التي تتمتّع بها مصر ولبنان، ولا تمتلكُ الكفاءات والموارد البشريّة التي تحتاجُها مشاريعُ كهذه. ما يعوّضه استقدامُ الكفاءات العربية من لبنانيّة ومصريّة وغيرها.

أمّا في ما يتعلّق بعناصر السيادة، فثمّة فارقٌ بين العربيّة السعوديّة والمشيخات الأخرى. المملكة تمتلك الجغرافيا، التاريخ، الديموغرافيا والثروة. الديموغرافيا تعني الجمهور، وفي هذا العنصر تكمن المشكلة: فهو جمهورٌ مُحافظٌ بغالبيّته ومُعارِضٌ في جزءٍ كبيرٍ منه. تستند مشروعيّة الحكم السعودي إلى المذهبِ الوهّابي، وبالتالي فإنّ كل ما يمكن أن يمسّ تلك

الصورة وتجلّياتها الاجتماعية يُهدّد النظام والعائلة الحاكمة. وما يزيدُ في تعقيدِ الأمر كون شعب المملكة يتشكّلُ من مكوّناتٍ أخرى: شيعةٌ من أصل عراقي، زيديّون من أصل يمني، سنّةٌ حجازيّون غير وهّابيين. وإلى جانب هؤلاء برز في السنوات الأخيرة قطاعاتٌ من الأُصوليّين والمُعارضين الذين يتبنّون العنف. علماً أن هذه المكوّنات هي كُلها مُحافظة، والمعارضون منها يتصيّدون أيّ خطأ للنظام. لذلك فإنّهُ من المستحيل إطلاقُ تلفزيوناتٍ من الساحةِ المحليّة ولو بالحدّ الأدنى الضروري من الحرّيّات. كما إنه من الأفضلِ أن تكون هذه الفضائيّات مُلكاً للقطاع الخاص كي لا تتحمّل الحكومةُ المسؤوليّة المباشرة عنها. من جهةٍ ثانية، جاء إطلاق الباقات السعوديّة مُتوائماً مع نشر القوّات الأجنبيّة (الكُفّار) في البلاد، ما اعتبره الجمهور العربيّ تخلياً عن السيادة وإهانةً للأماكن المُقدّسة، خاصّةً أنّ الغاية من ذلك كانت الانطلاق لاحتلال العراق. إذاً، فالوقتُ لم يكن مُناسباً لكُلّ ما يُذكّر بمبدأ السيادة.

تُعاني سائرُ الإمارات الخليجيّة المشاكلَ ذاتَها، يُضافُ إليها أنّها، لا تمتلك، كالمملكة، عناصر السيادة: لا جغرافيا ولا تاريخ ولا ديموغرافيا، لذلك فهي بحاجةٍ إلى أن تُثبت وجودها، داخل مجلس التعاون الخليجي **أوّلاً**، وفي العالم العربي **ثانياً**، وعلى المستوى الدولي **ثالثاً**. ما يفرضُ أن تبثّ فضائيّاتها من أرضها، وأن تحمل اسم عواصمها: تلفزيون أبو ظبي، تلفزيون دبي، الجزيرة في قطر، وأن تُموَّل مُباشرةً من حكوماتها. وهُنا يُساهمُ ضعف عنصر الديموغرافيا في الإفلات من الضغوط والتمتّع بقدرٍ أكبر من حريّة الحركة. مُعطياتٌ تُفسّر أساسَ الفلسفةِ الإعلاميّة لكُلٍّ من الفئتين خاصّة في مجال الفضائيّات، كما تُفسّر لماذا لم يُفكّر اللبنانيّون أو المصريّون يوماً في تأسيسِ وسائلِ إعلامٍ خارجَ ساحاتهم.

ـ لماذا أُطلقت المحطّات من الخارج؟ ولماذا عادت إلى الأرض العربية؟

أطلق السعوديّون باقاتهم من لندن وإيطاليا، وعندما اضطروا إلى العودة إلى المنطقة، عادوا إلى مصر، الأردن ودبي، فلماذا؟

يبدأ الجواب من مقارنةٍ بين تاريخين: تاريخ الذهاب ١٩٩١، وتاريخ العودة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣.

في عام ١٩٩١، لم يكن العالم العربي يعرف إلا المحطات الرسميّة

العاجزة عن إرواء عطش الجمهور إلى الأخبار والنقاش العام وحتّى التسلية. أمّا وسائلُ الإعلام الغربيّة، «فإنّ تدخّلها في النقاش السياسي القائم في المنطقة يندرجُ في إطارِ علاقةٍ إشكاليّةٍ من الجاذبيّةِ والرفض»[٨١] جاذبيّة تعود إلى المستوى التقني والمهني، ورفض يعود إلى اكتشاف ادعاء الموضوعيّة في ما يخُصّ قضايا المنطقة. ما «أعاد ثقة الجمهور بالصحافيين العرب»[٨٢]. إذاً، فإنّ محطّاتٍ عربيّة جديدة، خاصّة، تبثّ من الخارج، مُتطوّرةً تقنيّاً ومهنيّاً وتتمتّعُ، ظاهريّاً، بقدر من الحريّة، هي أفضلُ من يستطيع اكتساب الجمهور وإيصال رسالتها إليه. خاصّةً وأنّ الجمهور العريض لا يُخضِعُ هذه المعطيات للتحليل. كما إنّه من جهةٍ أخرى يتواطأ لاشعورياً: إذ إن وضعَه المُتعَب، المُرهَق، المُحبط، المكبوت واليائس بسبب الأحداث السياسيّة، إضافةً إلى القمع والوضع الاقتصادي، يجعله بحاجةٍ لأن ينسى أو لأن يُقنع نفسه بشيءٍ آخر.

أخيراً تُشكّلُ الدياسبورا العربيّة مجالاً آخر لنجاح هذه الفضائيّات. وهي جمهورٌ مُستهدَفٌ لتدعيم وضع المملكة على الساحةِ الدوليّة. خاصّة وأنّ الحنين، الحاجةَ إلى إثبات الوجود داخل سياقٍ غريب، يعزّزان ذلك. حيث إن هذا الإثبات يسلُكُ طريق الهويّة الدينيّة حيثُ لا يتمكّن أن يتسلّح بالهويّة الوطنيّة، لأنّ المغترب يعيش شيزوفرينيا الرغبةِ المُطلقة في أن يكونَ مُواطناً لبلد الاغتراب لأسبابٍ نفسيّةٍ وسيكولوجيّة، وفي أن تكون له هويّته الخاصّة المُعترَفِ بها. كُلّ ذلك يدفع بهؤلاء المهاجرين إلى التعلّق بأيّةِ قناة اتّصالٍ مع عالمهم الأُم ومع ثقافتهم. ليأتي انتشار منطق صراع الحضارات، فيُعزّزُ هذا التعلّق، ولا سيما لدى المهاجرين. خاصّة وأنّ المستوى الفنّي لبرامج المنوّعات قادرٌ على اجتذاب هذا الجمهور. أهدافٌ تُفسّرُ الدوافعَ التي تجعلُ النظام السعودي يُغطّي خسارة الميزانيّة.

٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣، يطرأ التحوّل على الوضع العربي والدولي الذي يُفسّر العوامل الثلاثة التي أدّت إلى عودةِ الباقاتِ السعوديّة إلى المنطقة العربيّة:

ـ عامل إعلامي: نجاح الجزيرة، أبو ظبي والمنار.

---

(٨١) Belkacem Mostefaoui, *La Télévision française au Maghreb: Structures, stratégies et enjeux, histoire et perspectives méditerranéennes* (Paris: Ed. L'Harmattan, 1995), p. 225.

(٨٢) Edmond Ghareeb «New Media and the Information Revolution in the Arab World, and Assessment,» *Middle East Journal*, vol. 54, no. 3 (2000), p. 412.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

- ارتفاع المصاريف في الخارج.

- عاملٌ سياسي: الوضع في العالم العربي والشرق الأوسط.

على الساحةِ العربيّة، تُحيي الجزيرة عام ٢٠٠٤، الذكرى الثامنة لتأسيسها بنجاحٍ تجاوز جميع الفضائيّات العربيّة. وعلى شاشتها يتخلّلُ البثّ كُلّ بضعِ دقائقَ شعارها «قناة الجزيرة في قطر»، هي تبثُّ من الدوحة، لكنّ اسم الجَزيرة يُحيلُ إلى الجزيرةِ العربيّةِ كُلّها. شارتُها (Logo) تُمثل الكرة الأرضية تغطس في مياه زرقاء، رمز الخليج: العالم يغطس في الخليج والدوحة هي مركز الجزيرة. لقد نجح هذا اللوغو، وبفعل ما حَوله من برامج، في أن يكون حتّى عام ٢٠٠٤، أيقونة تُمثّلُ حريّة الرأي والتعبير وموقفاً نجح في أن يكتسب صورةً وطنيّة في ما يتعلّق بالقضايا العربيّة. لكنّهُ يُمثّل أيضاً طموح قطر في منافسة العربيّة السعوديّة، وإثبات وُجود قطر على خريطة الجزيرة ثُمّ العالم. هذه المنافسة الثنائيّة اتّسعت عام ٢٠٠٠، إلى دولةٍ خليجيّةٍ أخرى أعطت لمحطّتها الإخبارية اسم عاصمتها، أبو ظبي، واستطاعت أن تُحقّق نجاحاً كاد يُنافس الجزيرة.

خارج المنافسات الخليجيّة، تُمثّل المحطّات اللبنانيّة نموذجاً في النجاح واجتذاب الجمهور، ويأتي تحرير جنوب لبنان ليُبرز مُنافسةً قويّة هي قناة المنار المرتبطة بإيران المنافس الرئيس للعربية السعوديّة في الشرق الأوسط. من جهةٍ أخرى، تقتربُ حرب الخليج الثانية، المفصل التاريخيّ الأهم في تاريخ المنطقة، مرحلةٌ لا يمكن إدارتها عبر وسائل إعلام تبثُّ من لندن أو بيروت، ما يُفسّر فشل المحاولة الأولى لإطلاق قناةٍ إخباريّة منافسة للجزيرة عن طريق الـ بي بي سي، والمُحاولةُ الثانية عن طريق جريدة **الحياة** وإل بي سي، وعودة الـ إم بي سي، إلى دبي وإطلاق العربية.

أمّا العامل المالي، فيتمثّلُ في فوارق التكاليف بين العواصم العربيّة وأوروبا: لندن وروما؛ وفي حين كانت المحطّات السعوديّة تُعاني اختلالاً في الميزانيّة، أخذت تكاليف الإنتاج ترتفع في أوروبا، لذلك كانت العودة إلى التوطّن في الدول العربيّة حلاً منطقيّاً. أما بالنسبة إلى «الاعتبارات المتعلّقة بالرقابة»[٨٣]، فإنّ إنشاء المناطق الإعلامية الحرّة أمّن لوسائل

(٨٣) Mattelart, «Jeter les bases d'une information éthique».

الإعلام الحريّة والاستقلاليّة، مالياً وبرامجياً، كما أمّن لها إعفاءاتٍ جمركيّة.

ثلاث مناطق تنافست على استقبالِ هذه الباقات العائدة، الأردن، مصر ودبي. الأردن، تتميّزُ بتوافر البنى التحتيّة والطاقات البشريّة، لكنّها تُعاني احتمالات عدم الاستقرار السياسي. دُبي، تتميّزُ بالميزانيّة الكبيرة التي خصّصتها حكومتها لمساعدةِ الشركات لكنها تُعاني غلاء تكاليف المعيشة والإنتاج (الأعلى في المنطقة) وغياب البنى التحتيّة الصلبة للإنتاج والبث. أمّا مصر، فتمتلك عدة مزايا: تكاليف الإنتاج المنخفضة، نظام البث وإعادة البث عن طريق نايل سات، الكوادر البشريّة والبنى التحتيّة. هكذا اشتدّت المنافسة بين المناطق الحرة الثلاث، ما أعطى للمستثمرين حريّة الخيار بأفضل شروط، ولتشجيع إم بي سي على اختيار دبي، عرض محمد بن راشد على الوليد بن إبراهيم الوليد، أن تنقل طائرات سلاح الجو الإماراتي معدّات إم بي سي من لندن إلى دبي مجاناً إضافة إلى تسهيلات أخرى منها أستوديو جديد أنشئ خصّيصاً لاستيعاب الشركة. إيه آر تي، اختارت الأردن وكان لها فيه مقرٌّ، كما في القاهرة، منذ عام ١٩٩٦، أمّا أوربت، ففضّلت البقاء في الخارج. ثمّة فصيلة ثالثة من المحطّات التي كانت قد توطّنت في الغرب، عادت إلى العالم العربي وهي التي يملكها معارضون سياسيّون مثل رفعت الأسد وسعد البزّاز الهاربَين من العراق وسوريا. ما يفسّر عودة الشرقيّة تلفزيون سعد البزّاز إلى دبي بعد احتلال العراق مباشرة.

٣ ـ خصخصة أم تأقلم؟

أصبحت الخصخصة مُتطلّباً أساسياً لعالم العولمة، لمجتمع الاتصالات، وللثورةِ التقنيّة. لم تعُد وسائل الإعلام الحكوميّة صالحةً لخدمةِ هذه المرحلة. خاصّةً وأنّ المُتلقّي العربي مسكونٌ برفضٍ تلقائي لهذه الوسائل خاصّةً التلفزيونيّة منها. ذاكَ أنّ العالم العربي قد عرف في بعض الدول الصحافة المكتوبة الخاصة والمتمتعة بقدر من الحريّة، لكنّه لم يعرف التلفزيون إلا حُكوميّاً وخاضعاً للرقابةِ الدائمة (باستثناءِ لبنان). ما يُؤسس لتقبّلِ أفضل لفضائيّاتٍ جديدة بأسماءٍ خاصّة. غير أنّ الخصخصة تطرحُ، نظريّاً، قائمةً من المفروضات المُتناقضة:

- التخلّص من الأنظمةِ الشمولية وغير الديمقراطيّة، لإطلاقِ الدولة

بمفهومها الحديث، أو تدمير الدولة لصالح مراكز قوىً جديدة تكون أحياناً أكثر قسوةً إزاءَ مصالح المواطن ومُستقبل البلد المعنيّ. وكثيراً ما تُصبحُ مراكز القوى هذه أقوى من السلطةِ السياسيّة بل ومُهيمنةً عليها. «لقد أصبحت السلطة الحقيقية في يدِ شبكةٍ من المجموعات الاقتصادية الكونيّة والشركات المُعولمة التي يبدو وزنُها في عالم الأعمال أهم من الحُكومات والدول»(٨٤).

ـ إعادة توزيع مصادر الثروة والثروات، المهام والخدمات على قطاع واسع من المواطنين أو نقل ذلك كلّه من يد الدولة إلى يد نُخبٍ اقتصاديةٍ (وارثةٍ في الغالب) والمُقرّبون منها.

ـ إنّ ارتباط الخصخصة بالعمليّة التجاريّة، بالإعلان، بالعلاقات العامّة، وبالاستهلاك، قد يُشجّعُ حركةَ المُجتمع، لكنّهُ قد يُدمّر من جهةٍ أخرى منظومة القيم الإنتاجيّة، بل والأخلاقيّة، وينشرُ الفساد المالي والإداري ويُوسّع الهوّة بين الفقراء والأغنياء، مُدمّراً الطبقة الوسطى التي تُشكّل مصدر الإنتاج الثقافي، الفكري، وتضمن التوازن الاجتماعي؛ في حالة الفضائيّات العربيّة، يمكن الخصخصة أن تكون طريقةً جيّدة للإفلاتِ من الرقابةِ الحكوميّة ودعايتها، من إخفاء الأخبار والمعلومات أو التلاعب بها، من احتقار ذكاء المُتلقّي، ومن المعايير غير المهنيّة في اختيار العاملين. معاييرٌ كثيراً ما كانت تَشَلّ يد القلّةِ المُستنيرة والمهنيّة من المُدراء. مُعوّقاتٌ قد يكون من حظّ القنوات الخاصّة أن تتخلّص منها، لكنّهُ حظٌّ قلّما تحقق على أرض الواقع، وذلك لثلاثة أسباب:

ـ طبيعة المالكين الذين هم في الغالب أعضاء في الأسر الحاكمة أو مُمثّلين لها.

ـ العلاقة بين هؤلاء المالكين ورأس المال الدولي العولمي المُتعدّد الجنسيّات والذي يهدف بالدرجةِ الأولى إلى كسب الأسواق ما يقتضي قيامَ وسائل الإعلام بنشرِ كُلّ ما يُشجّع الاستهلاك وسائر قِيَم السوق.

ـ غياب الديمقراطيّة ودولةِ القانون ومفهوم المواطنةِ وحُقوقِه، وبالتالي افتقار هذه الطبقة الحاكمة إلى المشروعيّةِ الشعبيّة، ما يجعلها تبحثُ عن

(٨٤) Ignacio Ramonet, «Les Nouveaux maitres du monde,» *Le Monde diplomatique* (janvier 2001).

ضمانة لبقائها في تحالفاتٍ خارجيّة مع القوى المُهيمنة، خاصّة الولايات المتحدة الأمريكية.

تحالفاتٌ ومصالح تفرض الاندراج في العولمة والخصخصة ومُقتضياتهما التي قد تتضمّنُ إصلاحات شكليّة خاصّةً وأنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد جعلت من ادّعاءِ الإصلاح إحدى وسائلها لتبرير احتلال العراق أمام الرأي العام العربي. وإذا كان من المنطقي أن يبدأ أيُّ مشروع إصلاحيّ بتغييرِ السلطة الأوتوقراطيّة، فقد كان من المُفترض أن يبدأ ذلكَ بإلغاءِ حُكم الأُسر. هُنا تجلّت عبقريّةُ الأنظمةِ في دفع أفرادٍ منها للاستثمار الواسع في هذا المجال الجديد. وبذاكَ تمكّنت من أن تُسيطر باللبررة والخصخصة على ما كانت تُسيطر عليه بواسطة وزارات الإعلام، وأن تُبقي الخطاب الإعلامي تحت الرقابة في ما يخُصُّ مصالحها، في حينِ تُطلقُهُ بحُريّةٍ في ما يخُصُّ الآخرين من غير الأصدقاء أو في مجالاتٍ أُخرى لا يمسُّ التجرُؤُ فيها بالمصالح السياسيّة للطرف المُرسِل لكنّهُ ينجحُ في خداع واجتذاب المُتلقّي.

وإذا كان ثمّة تساؤل يُطرحُ الآن، عام ٢٠١٢، عن مصيرِ هذا التحليل بعد الثورات العربيّة، فإن مُجرياتها الإعلاميّة، إنّما جاءت لتُؤكّدهُ، خاصّةً في ما يتعلّقُ بدور الفضائيّات الأقوى، العائدةِ إلى أنظمة ملكيّة أو أميريّة في حماية الأنظمة التي تتبعُ لها، وتدمير من يُخالفها وتسويق البدائل المُتحالفة معها، وبتعبير أكثر دقّة، مع المشروع الأمريكي الذي تكتسبُ منه ضمانة بقائها.

وإذا كان أول من تلقّف ظاهرة الفضائيّات هي الحكومة المصرية، أي القطاع العام، فإنّ الكُرة لم تلبث أن انطلقت إلى القطاع الخاص السعودي لتُشكّل إمبراطوريّةً إعلاميّة، ثُمّ إلى قطر فالإمارات. وفي كُلّ هذه الساحات تظلُّ الحدود بين القطاعين العام والخاص غامضة لأنّها كذلك أيضاً في ما يخصّ الدولة، السلطة السياسيّة، والمصادر الطبيعيّة (النفط والغاز). القرارات والمراسيم هي بيد الأُمراء أو الملك وأُسرهِم. ما يجعل الخبير خالد الحروب يكتب: «تُسيطر الحكومات العربيّة على البرامج، حتّى في القنوات الخاصّة أو التجاريّة أو تلك التي أُعيد توطينها في الخارج. حيثُ إن هذا التوطين يسمحُ للحكومات بوسائل جديدة للرقابة في مجال الأخبار والصورة، وسائل أكثر تطوّراً وذكاءً وأقلّ اضطراباً لاحترام المعايير الرسميّة في مجالي الثقافة

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

والسياسة؛ فالعولمةُ والتسهيلات التي تُقدّمها، تؤمّنُ للسلطات السياسيّة فرصةً إضافيّةً للقمع والتسلُّط»[٨٥].

أمّا المحطّات التي ظلّت على أرضها فلا تختلفُ كثيراً على صعيدِ برامج المُنوّعات، أمّا في ما يتعلّق بالأخبار، فإنّها، باستثناء اللبنانيّة، تنفتحُ في كُلِّ البرامج الإخبارية والحواريّة، بشرطٍ ثابت: عدم المساس بالبلد المُموِّل. ذاك أنّ هدفها الأوّل هو صناعة ورعاية صورة النظام الذي تنتمي إليه. ما يلتقي مع تحليلٍ لـ إغناسيو رامونيه يقول: «لقد كانت الصحافة ووسائلُ الإعلام على امتدادِ عُصورٍ طويلة الوسيلة التي يلجأُ إليها المُواطنون ضدّ استغلال السلطة. والواقع أنّ السلطات التقليديّة الثلاث: التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة، قد تُسيءُ استعمال السُلطة وترتكبُ أخطاءً. غير أنّ ذلك يُصبحُ مألوفاً أكثر في الدول الشموليّة والدكتاتوريّة، حيثُ تظلّ السلطة المركزيّة المسؤول المركزيّ عن كُلّ انتهاكات حُقوق الإنسان وكُلّ رقابةٍ ضِدّ الحُرّيّات»[٨٦].

تحليلٌ عامّ يلتقي مع شهادةٍ ميدانيّة: «لقد كُنّا أشبه بالقنافذ المُحاصرة في بُستانٍ صغير، ثُمّ نقلونا إلى آخر أوسع بكثير، أوسع ممّا نستطيع أن نرى، لكنّه دائماً مُحاصَر. نحنُ ما زلنا مُجبَرينَ دائماً على اتّباعِ خطٍّ مرسومٍ سلفاً. أمّ مُعارضاتُنا، جُرأتنا، فهي بالنسبة إلى مالك الحديقة ولزوّاره، عرضٌ مسرحيٌّ مُسلٍّ يجتذبُ الزوّار ويبيعُ البطاقات، ديكور يساعدنا على إرضاء ضمائرنا وتصديق أنفسنا»[٨٧]. قد تبدو هذه الشهادة مُتشائمة، لكنّها تعكسُ قدراً كبيراً من الحقيقة التي ترتسمُ على مُستوى العالم وبشكلٍ أقوى في الفضاءِ العربي. ربّما مع استثناءاتٍ قليلةٍ جدّاً حيثُ يعودُ رامونيه للتأكيد: «كُلّما تسارعت العولمةُ الليبراليّة أُفرغت السلطةُ الرابعة من معناها، وفقدت تدريجيّاً مُهمّتها الأساسية كسُلطةٍ مُضادّة. حيثُ إنّ نوعاً جديداً من الرأسماليّة قد ازدهر ليس فقط في القطاع الصناعي، بل بقوّةٍ أكثر في القطاع المالي، باختصار، إنّها رأسماليّة المُضاربات»[٨٨].

(٨٥) الحروب، «الفضائيّات العربيّة والعولمة في الشرق الأوسط».

(٨٦) Ramonet, Ibid.

(٨٧) الحروب، المصدر نفسه.

(٨٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

وإذا ما نقلنا ذلك إلى الساحة العربية، نقول إنّ دور السلطةِ المُضادةِ هذه لم يكُن موجوداً كي نقول إنّنا فقدناه، وكذلك حال الرأسماليّة الصناعيّة، لذلك كان من الأسهل على الأنظمة أن تجد في النمط الرأسمالي الجديد وسيلةَ تكيُّفٍ ناجحة تكمنُ في الإفادةِ من الخصخصة إمّا بالاختباء وراءَ أسماء مُستثمرين من القطاع الخاص، أو وراء أسماء شركاتٍ هي في ظاهرها مُستقلّةٌ وخاصّة لكنّها في الواقع تُموَّلُ وتُدارُ من قِبل النظام الحاكم. وهُنا يسقطُ ادّعاء التمثُّلِ بالنموذج البريطاني بشأن بي بي سي: لأنّه حتّى ولو كان تمثُّلاً بالشكل، لكنّه يسقط أمام الفرق الكبير بين الديمقراطيّة البريطانيّة والأنظمة الخليجيّة.

٤ ـ محطّات أو باقات، مُنوّعات أو إخباريّات؟

«تتجمّعُ وسائل الاتصال أكثر فأكثر داخل بُنىً فوّارة لتُشكّل مجموعاتٍ إعلاميّة. . . تجمعُ في داخلها جميع وسائل الإعلام التقليديّة (صحافة مكتوبة، إذاعة وتلفزيون)»[٨٩]. تنطبق هذه المعادلة الدوليّة على معظم الفضائيّات العربية، حيثُ تنتمي معظم المحطات إلى باقاتٍ يختلف تطوّر إحداها عن الأخرى خلال الفترةِ التي حدّدناها للبحث. إم بي سي، الباقةُ الأولى، تضُمّ حتى عام ٢٠٠٤، خمس قنوات، العربيّة واحدةٌ منها وهي قناةٌ إخباريّة في حين أنّ الأربع الأخرى، هي قنوات مُنوّعات شبه مُتخصّصة وغير مُشفّرة. إيه آر تي هي أيضاً باقة كانت تضُمّ عام ٢٠٠٤، قناة (أصبحت الآن ٨٧) وكلها مُشفرة؛ المستقبل بدأت بقناة واحدة للمنوّعات ثُمّ أطلقت عام ٢٠٠٣، المستقبل الإخباريّة ثُمّ زِن، وهي قناة مُوجّهة للشباب وأخرى للأطفال. تضُمّ أوربت، في باقتها ٣٣ قناة مُتخصّصة، كُلها مُشفّرة؛ الجزيرة بدأت بالقناة الإخباريّة المعروفة، ثُمّ تطوّرت إلى باقة تضُمّ خمس قنوات تحمل كُلها اسم الجزيرة: الوثائقية، مباشر، الرياضيّة، الدوليّة والجزيرة للأطفال؛ إل بي سي، هي باقة تضُمّ خمس محطّات: إل بي سي سات، إل بي سي الدوليّة، إل بي سي أوروبا، إل بي سي أستراليا و إل بي سي أميريكا، وكلها للمُنوّعات؛ فضائيّة أبو ظبي هي واحدة من قنوات ثلاث تابعة لإمارات ميديا؛ إيه إن إن، هي قناة واحدة ولا تفكير في باقة، كذلك هو

(٨٩) Tristan Mattelart, dir., *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières* ([Bry-sur-Marne]: INA; Bruxelles: De Boeck, cop. 2002).

حال المحطّات اللبنانيّة: المنار، إن بي إن، الجديد والقناة الإيرانيّة العالم. والعراقيّتين: الشرقيّة وإيه إن بي والمصريّة المحور؛ أمّا دريم فتضُمّ قناتين: دريم ١ ودريم ٢؛ المجد باقة تضُمّ سبع قنوات: المجد العامّة للقرآن والحديث، العلميّة، قناة الطبيعة، خدمات الإعلام، المجد للأطفال وقناة بسمة. الحرّة تضُمّ قناتين: الحرّة والحرّة عراق، وكلتاهما إخباريتان مع قليلٍ من المُنوّعات؛ أخيراً روتانا، وهي باقة، كانت تضم حتّى ٢٠٠٤، ست قنوات، كلها للمنوعات، مُتخصّصة وغير مُشفّرة: موسيقى، سينما، كليب، طرب، زمان وخليجيّة.

باستثناء المحطات المرتبطة مباشرة مع الدولة، ترتبط هذه الباقات بإمبراطوريّات إعلاميّة عالميّة من مثل ارتباط روتانا وإل بي سي بإمبراطوريّتي بيرلوسكوني وروبرت ميردوخ[٩٠] (قد أدّت هذه العلاقة، عام ٢٠١٠، إلى بيع ١٠ بالمئة من أسهُم روتانا وبي سي آي لشركة سكاي نيوز التي يملكها روبرت ميردوخ).

في هذا المشهد المُعقّد، ينقسم تأثيرُ هذه القنوات، المُوزّعة بدورها بين المُنوّعاتِ والأخبار، على الجمهور، إلى خطّين: تأثيرٌ مُباشر، وتأثيرٌ هادئٌ وبطيء غير مُباشر. حيثُ إن محطّات المُنوّعات تُؤثّر في منظومة القيم، في السيكولوجيا، في نمط الحياة، وفي التطلّعات، بهدوءٍ وبطء؛ في حين أنّ المحطّاتُ الإخباريّة، تتّجهُ مُباشرةً إلى العقلِ والمشاعر لتخلق ردّات فعلٍ آنيّة، أمّا المحطّات المرنة فتُمارسُ التأثيرين معاً.

وبما أنّ خيار البحث المُحدّد والذي برّرناه في **المُقدّمة**، يقعُ على المحطّتينِ الإخباريّتين: الجزيرة والعربية، والمحطّتين المرنتين: أبو ظبي والمنار، فإنّنا سنُحاول في الفصول الثلاثة القادمة أن نستكشف تركيب هذه المحطّات على ثلاثة صُعُد: كيف تُحدّدُ نفسها ويُحدّدها الآخرون؛ الموارد البشرية (الشبكة التي تُسيطر، المُذيعون والصحافيّون وتوزيع جدول البرامج).

---

(٩٠) Paul Cochrane, «Al-Waleed Bin Talal et Rupert Murdoch,» <http://twitemail.com/email/18638108/24>.

الفصل الثاني

المحطّات الأربع: الجزيرة، أبو ظبي، العربيّة، المنار؛ من هي؟ من يسيطر عليها؟

أولاً: كيف تُقدّم القناة نفسها وكيف يراها الآخرون؟

١ ـ الجزيرة: الهوية، الطابع، الرسالة، الأهداف والجمهور المستهدَف

في كتاب **روح الجزيرة**، الصادر عام ٢٠٠٧، تُقدّم القناةُ نفسها تحت عنوان: الرؤيا والمُهمّة فتقول: «الجزيرة خدمة إعلاميّة عربيّة الانتماء عالميّة التوجّه شعارها الرأي والرأي الآخر. وهي منبر تعددي ينشد الحقيقة ويلتزم المبادئ المهنيّة في إطارٍ مؤسّسي. وإذ تسعى الجزيرة إلى نشر الوعي العام بالقضايا التي تهمّ الجُمهور، فإنّها تطمح إلى أن تكون جسراً بين الشعوب والثقافات يعزز حق الإنسان في المعرفة وقيم التسامح والديمقراطيّة واحترام الحريات وحقوق الإنسان»[١].

في هذا التقديم يمكن تبيّنُ خمسةِ عناوين: الهويّة، الطابع، الرسالة، الأهداف والجمهور المُستهدَف. عناوينٌ يعودُ إليها الكتابُ نفسه في مُلحقٍ، مجهول الهويّة أيضاً يحملُ عنوان: «شبكة الجزيرة: القنوات والخدمات»، كما تُحدّدها الكثير من المقالات والمُقابلات والتصريحات لمسؤولي القناة وصحافيّيها. تعريفاتٌ تلتقي أو تتناقض مع ما يورده مُحلّلون، صحافيّون وأخصائيّون آخرون. وإذا كانت الفترة الزمنيّة التي يتناولها هذا الكتاب تنتهي

---

(١) انظر «الرؤية والمهمّة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ط ٢ (الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٧)، ص ٢٣٢.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

عند عام ٢٠٠٤، فإنّ مُقارنة ما كانت عليه الحال حتّى ذلك التاريخ بما بلغه تحوّل القناة حتّى تاريخ النشر في ٢٠١٢، يُفسّرُ الكثير.

أ ـ الهوية

الهويّة عربيّة الانتماء عالميّة التوجّه، ما يلتقي مع العولمة التي تُكرّسُ «الحقّ في المعرفة». القناةُ عربيّة «تُمثّل كلّ التناقضات السياسيّة في العالم العربي، الإسلاميّين، الليبراليّين، اليمين، اليسار وسائر التيّارات السياسيّة»(٢). هي دوليّة، وذاك ما يؤكّده مديرها بقوله إنها تحرص على «عدم التقوقع داخل منظومةٍ إقليميّة: قوميّة أو دينيّة»(٣)، ما جعلها تُعتبر برأي أحد الباحثين «فاعلاً دوليّاً مثلُها مثل بي بي سي الدوليّة»(٤)، أو كوسيلةِ إعلامٍ «استطاعت أن تتجاوز حدودها الإقليمية لتصبح ظاهرةً إعلاميّةً دوليّة»(٥).

هي قناةٌ إسلاميّة، مُعتدلة بالنسبةِ إلى البعض، إرهابيّة «وصندوق بريد ابن لادن»(٦) بالنسبةِ إلى البعض الآخر، عمليّة خداع وتلاعب بالنسبةِ «إلى الكثيرين الذين يعتقدون أنّ الـ سي آي إيه هي التي تُديرها»(٧). خدمت صدّام حسين، القوميّ البعثي، في رأي الآخرين(٨). اتهامات كثيرةٌ يُكرّرها مسؤولو القناةِ ساخرينَ للتقليل من شأنها: ««صنيعةٌ صهيونيّة»، «مؤامرةٌ أمريكيّة»، «بوق الإرهاب» و«حليفة البعث الصدّامي». وفوق ذلك، هي «مؤامرة لتمزيق الصفّ العربي»... «شرّيرة تبث الكراهية وتُحرّض على العُنف»»(٩) يكتب مديرها وضّاح خنفر، مُكرّراً ما يقوله رئيسُ مجلس إدارتها حمد بن تامر،

(٢) «Les Moyens de communication au Moyen Orient,» Spot Been Communication Ltd., télécom web.

(٣) وضّاح خنفر، «نظرةٌ من الداخل،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٩.

(٤) S. Abdallah Schleifer and Sarah Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani,» *TBS Journal*, no. 7 (Fall-Winter 2001), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall01/Jazeera_chairman.html>.

(٥) «شبكة الجزيرة: القنوات والخدمات،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٩.

(٦) Sophie Shehab, «Qui se cache derrière Al Jazeera?,» *Le Monde*, 6/11/2001.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) خنفر، «نظرةٌ من الداخل،» ص ١٩.

كما يفعلُ مديرُ مكتبها في بيروت غسّان بن جدّو (حتّى عام ٢٠١٠): «قناةُ الفتنة، الإثارة والتحريض على العنف»(١٠).

في تحليل استراتيجي أعمق، الجزيرةُ هي «عنصرٌ من عناصر الاستراتيجية السياسيّة الأساسيّة لأمير قطر»(١١)... فبما أنّه لا يستطيع أن يفيد من المعطيات التقليديّة التي تُحدّد السيادة الوطنيّة، لجأ الأمير إلى تطوير سياسة الصورة (Brand) الطموحة والمتطوّرة بواسطة ظاهرة قناة الجزيرة(١٢). سياسة اندرجت كُليّاً في خطّ العولمة مُنذُ بداية التسعينيات وجعلت الكثيرين يتساءلون بعد عام ٢٠٠٤، عمّا إذا كانت تتّجه نحو عولمةٍ إضافيّة جديدة، هي العولمة الإسلاميّة. اتجاهٌ يجد جذوره في المرحلة الأولى عندما كانت التيّارات الثلاثة: الإسلامي، القومي والليبرالي، تتعايشُ داخل القناة ولكن في إطار مُنافسةٍ حادّة. ولم يأتِ تغيير المدراء عام ٢٠٠٤، إلا ليُغلّب الخطّ الإسلامي بشكلٍ تصاعد أكثر فأكثر في السنوات اللاحقة. وهذا ما سنناقشه في الفصل المُخصّص للجيوبوليتيك.

لتظلّ وجهة النظر القائلة إن القناة «قد خلقت فضاءً يستطيع فيه الرأي العام العربي أن يُشكّل رؤيته الخاصّة للأمور» قابلاً للمناقشة، على الرغم من الاعتراف بأنّها «استطاعت أن تقلب المشهد الإعلامي العربي»(١٣).

ب ـ الرأي والرأي الآخر

هو الشعار الذي بلوره جميل عازر، وتبنّاه الفريق المؤسّس. حريّة التعبير، التعدّديّة، الصدقية والحرص عن الابتعاد عن دعاية الدولة، هي الخطوط الرئيسة التي أراد هؤلاء المؤسّسون أن تتميّز بها محطّتهم. إلى أيّ حدّ نجحوا في ذلك؟ سؤالٌ قابل للمناقشة. حيثُ إن هذه الميزات المرتبطة بالمهنيّة والمأسسة قد خضعت لتطوّراتٍ مُتعدّدة (وصلت في مراحلها الأخيرة حدّ الانقلاب)؛ فمن «برلمان حيّ، مُباشر» كما يقول جميل عازر، الذي

(١٠) غسان بن جدّو في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلميّة»، إعداد ربى عطيّة (٢٠٠٦).

(١١) Shehab, «Qui se cache derrière Al Jazeera?».

(١٢) Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006), p. 208.

(١٣) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

يعترف بأخطاءٍ «هي في طبيعة الأشياء»[١٤] يُركّز عليها أولئك الذين «لا يتحمّلون وُجهات النظر المُخالفة»[١٥] في «قناةٍ حُرّةٍ وجريئة»[١٦] كما يصفها أحد مُذيعيها. ولا شكّ في أنّ الجرأة والحريّة قد شكّلتا عنصر التأثير الأساسي في جمهورٍ عربيّ مُتعطّشٍ لذلك، حيثُ «نجدُ في إحدى دولِ المغرب أنّ وزارة الداخليّة هي التي تُدير التلفزيون»[١٧]. ميزةٌ يعترف بها الباحثون العرب والأجانب الذين يلتقون على الإشارةِ الضمنيّة إلى مُقارنةٍ تتعلّقُ بخاصّيّتين تحكمان المشهد العربي: «نشرةُ أخبارٍ تُعطي الأولويّة لأخبار العالم، لا لأخبار البلد الذي تبُثُّ منه، لأخبار حُكّامه: ماذا أكلوا وشربوا، وبرامج تُناقش بحريّةٍ أفكاراً وآراء جريئة: الرأي والرأي الآخر»[١٨] «أخبارٌ وآراء حُرّة من دون رقابة، يُقدّمها عرب وموجّهة للمُشاهد العربي»[١٩] ليظل السؤال عن الصمت حول أخبار وسياسات البلد الذي تبثّ منه موضوع نقاشٍ سنعرض له في الفصول اللاحقة مثلهُ مثلُ استغلال تأثير الاتصال العربي ـ العربي في نقل رسالةٍ واستراتيجية مُعيّنة. (سؤال انفتح على إجاباتٍ واضحة وقاطعة مع مرحلة الثورات العربية).

أمّا بالنسبةِ إلى طبيعة القناة، فهي سياسيّة تعطي حيّزاً محدوداً للاقتصاد والدين. حاولت أن تكتسي بُعداً إنسانياً غير منفصل، في العمق، عن الأهداف السياسية ـ الاقتصادية لقطر وللتيّار.

ج ـ الرسالة

ثمّة افتراق كبير بين تحديد الرسالة كما يُقدّمها مسؤولو القناة وبين الواقع. حيثُ يُركّزُ هؤلاء على احترام الحُريّة وجعل محطّتهم «مدرسةً إعلاميّة

(١٤) جميل عازر، «عشر سنواتٍ من الرأي والرأي الآخر،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ - ٢٠٠٦)**، ص ٤٠.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٤١.
(١٦) محمد كريشان، «الوعد الصادق،» في: المصدر نفسه، ص ٦٥.
(١٧) فهمي هويدي، «الجزيرة تُعيد ترتيب أولويّات الأخبار في العالم العربي،» في: المصدر نفسه، ص ١٥٠.
(١٨) أحمد منصور، «بلا حدود: من الصحافة المكتوبة إلى التلفزيون،» في: المصدر نفسه، ص ٥٥.
(١٩) «Les Moyens de communication au Moyen Orient».

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

دفعت وسائل الإعلام العربيّة إلى اعتماد قدرٍ أكبر من الحريّة والاستقلاليّة»[٢٠]. كما على احترام التعدّديّة والاختلاف الذي يأخذ بعين الاعتبار «تنوّع المجتمع العربي»[٢١]. غير أنّ ذلك لا يمنع الكثيرين من انتقاد التحيّز وانعدام العدالةِ في توزيع الأولويّات وفي فرص التعبير عن الرأي في مُعظمِ القضايا. مثلاً: في الموضوع الفلسطينيّ، تُعطى الأولويّة لحماس على حساب فتح والمنظّمات الأخرى ما ينعتُهُ نبيل عمرو، وزير الإعلام الفلسطيني بـ «الانحياز»[٢٢].

أخيراً، يُفسّرُ المسؤولون المساحة المُعطاة للأخبار الدوليّة، وبخاصّة الآسيويّة، بـ «الحوار بين الحضارات، همزةُ وصلٍ بين العالم الغربي، العربي والآسيوي»[٢٣]. غير أنّه من الواضح أنّ التركيز هو على آسيا المسلمة، أو على الإسلام في آسيا.

د ـ الأهداف

«التأثير في الإدراك العام، إذكاء الوعي وترميم الذاكرة»[٢٤] هي مرتكزات أهداف الجزيرة بحسب فهمي هويدي. ولكن، أيّ وعيٍ؟ أيّةُ ذاكرة؟ أيّةُ علاقةٍ بين الوطني، القومي والإسلاميّ؟

التمييز لا يبدو واضحاً بالنسبةِ إلى رسالةِ الجزيرة، بل إن تقديمها للإسلاميّ على القوميّ يبدو واضحاً لأسبابٍ سنفصّلها في الفصول التالية.

إنّ تحقيق هذه الأهداف أيّاً يكُن مضمونها يعني مُلامسة الذاكرة الجمعيّة والتوجّه للجمهور العريض، ما يتطلّب إدارة «الثنائيّات بين الحكومي والشعبي، بين المركزِ والأطراف، بين الهامش والعمق»[٢٥] كما يقول مدير القناة الذي يطرحُ السؤال: «كيف يمكن أن تجعل من الكاميرا منفذاً لتسليط الضوء على كلّ ما عتّمته السلطة؟ كيف يمكن أن تصبح شاشة القناة ساحة فعلٍ للأطراف والهامش، هذا الهامش الذي حرمته السلطة من ساحة الواقع،

(٢٠) Schleifer and Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani».
(٢١) خنفر، «نظرةٌ من الداخل،» ص ١٥.
(٢٢) نبيل عمرو، في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلميّة»، إعداد ربى عطيّة.
(٢٣) خنفر، المصدر نفسه، ص ١٩.
(٢٤) هويدي، «الجزيرة تُعيد ترتيب أولويّات الأخبار في العالم العربي،» ص ١٥٠.
(٢٥) خنفر، المصدر نفسه، ص ١٩.

ولا سيّما أنّ الأبحاث الأنثروبولوجيّة تبيّن أنّ التاريخ الفعلي هو ما يُصنع في عالم الأطراف وأنّ خميرة عالم الغد تنتعش في الهامش. كما إن عالم الأطراف ينفردُ بديناميكيّة ثقافيّة مُتميّزة، تمنحه القدرة على مُقاومة سلطة القوّة ومُناهضةِ قوّة السلطة»[٢٦].

بدورها تطرحُ مسألة الوصول إلى الجمهور العريض إشكال ثُنائيّة النخبويّةِ والشعبويّة. إشكالٌ يرى وضّاح خنفر أنّهُ موسوم «بعقدةٍ في العلاقة بين هذه النخب وجمهور الناس أنتجت ممانعة لدى الشارع وتشاؤماً مزمناً بين النخب السياسية والثقافيّة، وسادت القطيعة بين الطرفين»[٢٧]. وهذا الرفض هو ما حاولت الجزيرة أن تلتفّ عليه بالطابع الشعبوي للبرامج موكلةً إلى صحافيين من أصحاب الكفاءة عمليّةَ «ضبط الجودة»، كما يقول، كي لا تقع لا في الشعبويّة ولا في النخبويّة. توازنٌ صعبٌ يُشكّلُ تحدّياً لأيّةِ وسيلة إعلام.

التحدي الثاني يتمثّلُ في ثُنائيّةِ الموضوعيّةِ والانحياز «فإلى إيّ حدّ يمكن المرء أن يكونَ مُحايداً؟» سؤالٌ أبدي يطرحُهُ الصحافي الأمريكي اللاتيني إنريك سانتوس كالديرون مُضيفاً: «هل ينبغي على قناة عربية في الأساس مثل الجزيرة أن تنفصل عن جذورها عند تغطيتها لتلك الأحداث؟ هل يمكننا أن تكون مُتوازية مئة بالمئة في نقلها أو تُفسيرها للأحداث من دون أن يكون لها منظورها الخاص؟»[٢٨] خاصّة عندما تتناول موضوعاً يخُصّ جمهورها ويتضمّنُ تعقيداتٍ ثقافيّة، وطنيّة ودينيّة ليست في طبيعة الصراعات الأخرى. تساؤلاتٌ يُجيبُ عنها الصحافي الأمريكي اللاتيني بقوله: «المشكلة تكمن في التمييز بين المعلومة والرأي، في طريقة تقديم الحقائق والتعليق عليها، وكيف يتمّ تقديم الطرف الآخر من دون إهمالٍ أو تلاعب مقصود يُظهره بشكلٍ كاريكاتوري أو مؤدلج»[٢٩] غير أنّ باحثاً آخر يعترف أن القناة القطريّة «ليستَ مُحايدة،» لكن الـ بي بي سي، والـ سي إن إن وصحف أخرى مثل **ديلي تيليغراف**، تنحاز كليّاً

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٨.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٧.
(٢٨) كالديرون إنريكي سانتوس، «الجزيرة كما نراها في أمريكا اللاتينيّة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٩٧.
(٢٩) المصدر نفسه.

إلى مواقف محافظة جداً وتتبنّى سياسةً تحريريّة منحازة»[٣٠] وبالمنطق نفسه يتساءل سانتوس: «ماذا نقول عن فوكس نيوز مثلاً؟»[٣١].

غير أنّ من المُلفت تأكيده، أنّه تحدّث «إلى بعض الزملاء وأيضاً إلى مصادر في إسرائيل وأكّدوا له أنّ الجزيرة هي قناةٌ تعدّديّة. . . وهي القناة الوحيدة التي تبثُّ مُقابلاتٍ حيّة وكاملة مع المسؤولين الإسرائيليّين»[٣٢]. من جهةٍ ثانية يُعبّر بحدّةٍ عن مسألةٍ «تُزعجُه» «أعني العلاقة الوثيقة بـ تيليسيور، القناة التي أنشأتها حكومة هيوغو تشافيز الفنزويلية منتصف العام ٢٠٠٥، كمشروع اندماجي بين مجموعةٍ من حكومات أمريكا اللاتينيّة (فنزويلا تملك ٥١ في المئة بينما تملك كل من الأرجنتين، كوبا، الأوروغواي وبوليفيا بين ١٠ ـ ٢٠ في المئة)»[٣٣] أمّا ما يُزعج سانتوس في تيليسيور فهو أنّ «الرئيس تشافيز لم يُخفِ نيّته لاستعمال تيليسيور كرافعةٍ إقليميّة لثورته البوليفاريّة المُعادية لأمريكا»[٣٤] على الرغم من أنّ بيان المُهمّة لهذه المؤسسة يتحدّث عن «مواجهة الرسالة أُحاديّة الاتجاه للشركات الكبرى التي تسلب الناس حقّهُم في الحُصول على المعلومة. وقد جاء على لسان مُديرها أنّ تيليسيور مشروع سياسي واستراتيجي يسعى إلى تشكيل رؤيةٍ حقيقيّة عن التعدّد الثقافي والحضاري لأمريكا اللاتينيّة ونقل ذلك إلى العالم»[٣٥].

باختصار، القناة لا تدعُ مجالاً للّامُبالاة ولا للحياديّة. ويظلّ الأمر الذي لا يقبل النقاش أنّها «ضروريّة لفهم الواقع العربي ولمعرفة كيفيّة التعامل معه»[٣٦].

هـ ـ الجمهور المُستهدف

يُقدّرُ عدد مُشاهدي الجزيرة بـ ٥٥ مليون مُشاهد[٣٧] بحسب البعض،

(٣٠) «Les Moyens de communication au Moyen Orient».
(٣١) سانتوس، «الجزيرة كما نراها في أمريكا اللاتينيّة،» ص ١٩٧.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) المصدر نفسه.
(٣٥) المصدر نفسه.
(٣٦) خنفر، «نظرةٌ من الداخل،» ص ١٥.
(٣٧) Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

و٣٥ مليوناً[٣٨] بحسب البعض الآخر، مّا يُشكّل جمهوراً عريضاً لقناةٍ إخبارية. أمّا بالنسبةِ إلى المجال الذي يستهدفه البثّ، فإنّ التقديرات التي يُقدّمُها مسؤولو القناة والباحثون لا تبدو دقيقة: بحسب مسؤوليها، تستهدف الجزيرة «الجمهور في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وفي المهاجر»[٣٩]، «الجمهور العربي»[٤٠] و«الجمهور عبر العالم»[٤١]، «القناة تجاوزت حدودها الإقليميّة لتصبح ظاهرةً إعلاميّةً عالميّة»[٤٢]. يعتبرها باحثان في الجامعة الأمريكية في القاهرة «فاعلاً دولياً مثل بي بي سي الدوليّة»[٤٣] في حين يحصرها أستاذ في جامعة ميسوري بـ«المشهد الإعلامي في الشرق الأوسط»[٤٤].

تطرحُ هذه التحديدات على اختلافها موضوع التغيير في الاتجاه الواحد لتدفّق المعلومات. هذا الاتجاه الذي كان ينحصر في التدفق من الشمال إلى الجنوب وأخذ يتغيّر ليسمح لصحافيي ومشاهدي العالم الثالث «أن يروا أنفسهم بعيونهم لا بعيون الآخرين»[٤٥] كما يقول مُفكّرٌ مصري وكما يؤكّد أحد صحافيي القناة: «لأول مرّة أصبح بإمكاننا ليس فقط أن نغطي الشأن الدولي بمعايير وخلفية مختلفة عمّا ارتضاه الإعلام الغربي لنفسه وأراد فرضهُ على العالم كُلّه كطريقةِ عملٍ واحدة ومُقدّسة، وإنّما أيضاً، وهذا هو الأهم، أن نقدّم لهذا الغرب تحديداً رؤيتنا الخاصّة لما يجري عندنا وما يجري عندهم»[٤٦]. ملاحظةٌ يتبنّاها أيضاً مُحلّلون غربيّون من مثل ألان غريش الذي يكتب في **لوموند ديبلوماتيك**، تحت عنوان «ما الذي غيّرته الجزيرة؟»: «لقد ظلّ الشمال يحتكر الكلام والتحدّث عن العالم طوال قرنين من الزمن، لم يكن يكتفي بالحديث عمّا يدور داخل حدوده، بل تعدّى ذلك إلى الحديث عن الآخرين وإلى تبنّي أنّه يُمثّل صوتهم... إذ لا يزال تطوّر النظام الإعلامي

(٣٨) Les Moyens de communication au Moyen Orient».

(٣٩) شبكة الجزيرة، «القنوات والخدمات،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٢٤٢.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٤٣) Schleifer and Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani».

(٤٤) جافي روجرز، «تهيئة الجيل القادم،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٢٢٤.

(٤٥) هويدي، «الجزيرة تُعيد ترتيب أولويّات الأخبار في العالم العربي،» ص ١٥٠.

(٤٦) كريشان، «الوعد الصادق،» ص ٦٦.

وهيمنة وكالات الصحافة الغربيّة يؤكّد أنّ تدفّق المعلومات يأتي من الشمال إلى الجنوب... وهكذا بقي الشمال هو الذي يُقرّرُ تراتبيّة الأخبار وبقينا نحنُ نرى الجنوب من خلال منظاره بعد أن تمّ اختزاله إلى كوارث ومجاعات وحُروب»[٤٧] وفي حين «أنّ ميلاد القنوات الفضائية القادرة على نقل الأخبار بشكل مُباشر كان بمثابة ثورةٍ جديدة جعلتنا في لحظة نعتقد أنّها ستضمن تفوّق الشمال»، جاء إنشاءُ «قناة غير غربيّة تلتزم بمعايير المهنيّة والشرف التي تلتزم بها القنوات الغربيّة وتمنح نفسها الحقّ في الترويج لنظرةٍ عن العالم مُغايرةٍ للنظرةِ التي تُقدّمها ال سي إن إن ـ جاء ليُغيّر المعطيات». الصحافي غسّان بن جدّو، الذي أدار مكتب الجزيرة في بيروت، يُحدّدُ ضمناً الجمهور المستهدف بالجمهور العربي والإقليمي، إذ يضع استهداف التأثير في سياقه الإقليمي: «لم تعُد الإشكاليّة قائمة في الخلافات بين الدول العربيّة أو بين الخلافات داخل كُلّ منها، ما أصبح يُميّز قناةً عن أخرى هي طريقتها في التعامل مع المشاريع الأجنبية. هناك مشاريع أجنبيّة على ساحة المنطقة، وكُلّ سياسةٍ تحريريّة تتناولها بطريقةٍ مُختلفة»[٤٨].

ومن المُقارنة بين هاتين الرؤيتين ينبثقُ السؤال حول طريقة تعاطي الجزيرة مع المشاريع الأجنبيّة للمنطقة وبالتالي حول جوهر وجدوى التغيير في اتجاه تدفّق المعلومات والأخبار.

٢ ـ أبو ظبي: تطوير ثقافة الاتصال

تُحدّدُ وثيقةٌ حصلت عليها الباحثة من أرشيف تلفزيون أبو ظبي، تحمل عنوان «أبو ظبي: النشوء والتطور»، قناة تلفزيون أبو ظبي «كواحدةٍ من ثلاثِ قنواتٍ تعملُ تحت إدارةِ إمارات ميديا... وهي مؤسّسةٌ إعلاميّةٌ رائدة، مُستقلّة، قادرةٌ على الاستجابة لمُتطلبات الزبائن ولمواجهةِ تحدّيات المستقبل في مجال الإنتاج والتمويل مع احترامها الالتزامات والقيم المهنيّة وتأمين المردود المادّي... أهدافٌ تفرضُ تطوير ثقافة الاتصال في البلاد وتسويقها عبر الإنتاج والتعاون الإنتاجي... كما تفرضُ دعم الصحافةِ المكتوبة والمرئيّة والمسموعة بتطوير تجهيزاتها التقنيّة ومصادرها البشرية لتأمين الانتشار الأوسع

(٤٧) ألان غريش، «ما الذي غيّرته الجزيرة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٤٥.

(٤٨) غسان بن جدّو في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلميّة» إعداد ربى عطيّة.

داخل البلاد وخارجها... كذلك تفرض المساهمة في التنميةِ المُستدامة وفي دعم مؤسسات الدولة وأنشطتها، المحافظة على المصداقيّة، ونشر الرسالة الإعلاميّة المُلتزمة لدى الجمهور العريض، تشجيع الوعي بالفعاليّات المُربحة وتطوير المصادر خاصّة خدمات النشر والتوزيع والإعلان والتسويق»[49]؛ في وثيقةٍ أخرى، من الأرشيف أيضاً، نجد تحديداً أدق للجمهور المستهدف: «تستهدف القناة كلّ المشاهدين العرب، في كُلّ مكان من العالم... ويُغطّي بثها العالم العربي، الشرق الأوسط، الولايات المتّحدة وشرق آسيا». كذلك نجد تحديداً للفضاء المُستهدف بالتغطية الإعلامية: «تُركّز القناة على باقةٍ من الخدمات والبرامج الإخباريّة التي تُغطّي كُلّ أحداث العالم».

ونجد في النص إشارةً ضمنيّة إلى المنافسة مع الجزيرة: «نجحت القناة في اجتذابِ قطاعٍ كبيرٍ من الجمهور العربي ومنافسةِ المحطّات المُشابهة» أمّا بخُصوص الإنتاجِ فنجد التفصيل التالي: «إنّها تُنتج برامج حِواريّة، سياسيّة، ثقافيّة، اجتماعيّة، وثائقيّات، منوّعات ومسلسلات»[50].

يؤكّد مسؤولو قناة أبو ظبي على هذه المبادئ في مُقابلاتهم وتصريحاتهم حول برامج القناة وجمهورها المُستهدف. وإذ تتنوّع برامجها بين الأخبار والمُنوّعات خلال فترات الهُدوء، ويَطغى عليها الجانب الإخباري خلال فترات الأزمات، فإنّها تُصنَّف كـ «قناةٍ مرنة» ما يُعطيها فرصة اكتساب قطاعٍ أكبر من الجُمهور والمُحافظة على جُمهورها في كُلّ الظروف والتحوّلات.

٣ ـ المنار: التزام اجتماعي، سياسي، ثقافي: الشريعة والمقاومة

على موقعها باللغة الإنكليزيّة، تُعرّف المنار نفسها «مُختلفةً عن وسائل الإعلام السمعيّة ـ البصريّة في لبنان»[51] وتصف تاريخ إنشائها في ٣ حزيران/يونيو ١٩٩١ بـ«يومٍ استثنائي».

«ظهر الكثير من وسائل الإعلام المدمَّرة في المنطقة خاصّةً بعد الحرب الأهليّة المُدمِّرة والاحتلال الإسرائيلي لـ ٢٠ في المئة من الـ ١٠٤٥٢كم

(٤٩) «فضائية أبو ظبي: النشوء والتطور،» (وثيقةٌ داخليّة - فترة التأسيس، حصلت عليها الباحثة من أرشيف القناة عام ٢٠٠٥).

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) <http://www.almanar.com.lb/english/main.php>.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

مربّعاً، التي تُشكّل مساحة لُبنان، لكنّ أيّاً من وسائل الإعلامِ هذه لا يُعير انتباهاً للجزء المُحتل في الجنوب والبقاع، أو لأنشطة المُقاومةَ أو للتضامن مع عذابات المواطنين. إذاً، لم يكن من الغريب أن تشتعل هذه المناطق تحت ضربات المُحتل، بينما لا تُقدّم محطّات التلفزيون إلا الأغاني. من هُنا، ضرورةُ إنشاء تلفزيونٍ مُلتزم يُقدّم صورةً لعذاباتِ شعبنا ضحيّة الغطرسةِ الإسرائيليّة في الأراضي المُحتلة، وعذابات الذين يعيشون حولها ويُعانون الهجمات اليوميّة... إبراز الاعتداءات... التركيز على أنشطة المُقاومة ومأسسةُ دورها... أملاً في تشكيلِ أمّةٍ مُقاتلة في ظلّ العدالةِ والمُساواة... لم يكن الاحتلال يُشكّلُ أولويّةً للمحطات اللبنانيّة رغم تأثيره على كُلّ مواطن. وفي حين كان اللبنانيّون يحتاجون، ككُلّ شعب يخرُج من حربٍ أهليّة، إلى ما يمحو آثارَ هذه الحرب ويُشكّل المواطن، لم تكُن التلفزيونات تُقدّم إلا البرامج المُفسدة للأخلاق وبرامج العُنف والبرامج المُغرّبَة»[52].

في مُقابل هذا العرض النقدي، يُقدّم هذا التعريف المنار كـ: «قناةٍ يستطيع الأهل، بكُلّ ثقة أن يسمحوا لأطفالهم بمشاهدتها... قريبة من انشغالات كُلّ اللبنانيّين:... العذابات... غياب العدالة... المشاكل الاجتماعيّة، الاقتصاديّة والتربويّة... الفساد... تُغطّي الأنشطة الثقافيّة، الفكريّة، وتستقبل المُبدعين والكُتّاب... وتهتمُّ بالشباب والأطفال والأنشطة الرياضيّة»[53]. أمّا المرجعيّة فمُحدّدة بوُضوح: «الشريعة الإسلاميّة... دون إلغاء التسلية التي لا تُغضِبُ الله تعالى» وأخيراً تُشير الوثيقة إلى «الصعوبات الماليّة والتقنيّة التي يتمّ التغلّب عليها بإرادةِ العاملين فيها»[54].

من هذا التعريف الذاتي يُمكن البحث أن يستخلص المُحدّدات الأساسيّة لدراسةِ هذه القناة التلفزيونيّة، من دون أن نُغفل التطوّرات التي طرأت على المفاهيم المذكورة في التطبيق العملي. تطوّراتٌ توازت مع مُتطلّبات العُبور من وضع ميليشيا خاصّة إلى وضع حركةٍ مُقاومة، وبعدَ تحرير عام ٢٠٠٠، إلى وضع حزبٍ سياسي يُشارك في مؤسّسات الدولة مع الحفاظِ على دوره كمُقاومة عسكريّة مُوازية. وتوازت كذلك مع العُبورِ من تمثيلِ جزءٍ من شيعةِ لُبنان إلى

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) المصدر نفسه.

طرح نفسها كمُمثّلٍ للإرادةِ الشعبيّة للبلاد ومن ثَمّ إلى دورٍ عربيٍ وإسلامي. وتوازت أخيراً مع مُتطلّباتِ الوضع القانوني الرسمي الذي يُميّزُ قانونيّاً بين المنار وحزب الله. (تطوّراتٌ عادت فسارت باتّجاهِ ردّةٍ أكثر انغلاقاً بعد حرب عام ٢٠٠٦، وذلك ما يتجاوز المُدّة الزمنيّة المُحدّدة لهذه الدراسة).

أ ـ الالتزام الاجتماعي ـ السياسي ـ الثقافي

تعدُ القناة بالتزامٍ إصلاحي جامع، لا يفصل التربية عن التسلية. التزامٌ بمُحاربة الفساد وتراجعِ الوضع الاقتصادي في البلاد، مما يُمكن أن يمسّ انشغالات كُلّ المواطنين ويجذبهم إلى شاشتها. وهي تدّعي أنّها تتبنّى خِطاباً يتعالى على التمزُّقات الطائفيّة التي تركتها الحرب الأهليّة من دون أن تتخلّى عن هويّتها الشيعيّة. ما يبدو صعب التحقيق واقعيّاً، وإذا كانت تحرص على تغطية الفعاليّات الثقافيّة واستقبال المُبدعين من كل الاتجاهات الفكريّة، وإعطاء المرأةِ والطفل حقّهما على جدول البرامج، فإنّ كُل ذلك يظلُّ خاضعاً لسقف المعايير الإسلاميّة. التي بها تتحدّدُ أيضاً «قراءةُ التاريخِ والمُجتمع»[٥٥]. قراءةٌ إذ تعتبر نفسها مُختلفةً عمّا في وسائل الإعلام الأخرى، فإنّما بهذا الالتزام الثنائي: الديني والسياسي النضالي، وذاك ما تتفرّعُ عنه جميع المُحدّدات الأخرى.

ب ـ الشريعة الإسلاميّة والمُقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي

على موقعٍ آخر للقناة نجد: «قناة تلفزيونٍ لبنانيّة تسعى إلى الحفاظِ على القيمِ الإسلاميّةِ لتفعيل الدور الحضاري للجماعةِ العربيّة والإسلاميّة»[٥٦]. وعلى كُلّ المواقع الأخرى التي تخُصّ حزب الله أو سواه، تُقدّم المنار بصفتها الوسيلة الإعلاميّة لهذا الخطّ «من بين الأسلحةِ الأكثر فاعليّةً في الصراع ضدّ إسرائيل»[٥٧].

التزامٌ إسلاميٌ شيعي حاول أن ينفتح على المجتمع اللبناني والعربي «نجحت الشيعيّةُ الثوريّة في تشكيلِ فكرٍ سياسي ونموذجٍ مؤسّساتيٍ

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) José Alain Fralon, «Les Défis de la télévision du Hezbollah libanais,» *Le Monde*, 20/10/2000.

مُنسجم»[٥٨] مع بقائها أمينةً للأولويّة التي تُشكّل القاسم المشترك لكُلّ ما يظهر على شاشةِ هذه القناة: الالتزام ضدّ الصهيونيّة.

كذلك هو الأمر بالنسبةِ إلى الالتزام السياسي المُناضل: ففي ٦ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٠، أي بعد أشهرٍ من التحرير، صرّح نايف كريّم، المدير العام للقناة ورئيس مجلس إدارة شركة المجموعة اللبنانيّة للإعلام ـ في حينه ـ لصحيفةِ **لوموند** قائلاً: «نحنُ نُحاولُ أن نكونَ مهنيّين في التزامنا، لكنّه من الواضح أنّنا مُلتزمون أولاً بقضيّة: المُقاومة ضدّ المُحتل الإسرائيلي. لذا، فإنّنا لا نُريد المهنيّة إذا كانت تعني الحياديّة، نحن، بوضوح، طرفٌ في حرب»[٥٩] كما يُصرّحُ لصحيفة أخرى قائلاً: «قبل التحرير كان العنوان الرئيسي ينقسمُ إلى ثيمتين: الوحدة الوطنيّة والمُقاومة، بعدُ احتلّ الموقع الثاني عنوانُ تطوير المناطق المُحرّرة المُعدمة في الجنوب وفي البقاع. الآن، الأولويّة التي تفرض نفسها هي القضيّةُ الفلسطينيّة، لقد قرّرت القناة، انسجاماً مع التزامها الأيديولوجي والإنساني، أن تتبنّى جهاد الإخوة في فلسطين، بالانتقال من ٤ ساعات بثّ فضائي إلى ١٨ ساعة، مُخصّصة حصرياً لأحداث الانتفاضة، لمداخلات السياسيين والمحللين، لشهاداتٍ حيّة من الأراضي المُحتلّة، إضافةً إلى فلاشاتٍ وأناشيد كتلك التي كُنّا نبثّها خلالَ معركتنا»[٦٠].

في ٥ آب/أغسطس ٢٠٠٣، يُوضح ناصر أخضر المدير العام المساعد الجديد للقناة، أن المنار مُستقلّة عن حزب الله: «إنّها قناةٌ حُرّة لا تعودُ مُلكيّتُها إلا إلى شركةِ المجموعة اللبنانيّة للإعلام، المُرخّصة رسميّاً من قِبلِ مجلس الوزراء... كان هدفُها دعمُ المُقاومة وتحريرِ جنوبِ لبنان من الاحتلال الإسرائيلي. الآن تحوّل هدفنا إلى استنهاض الأمّةِ الإسلاميّة لمُواجهةِ مشروعِ الهيمنة الصهيوني الأمريكي على العرب ولدعمِ قضايا الأمة العربية، خاصّةً القضيّة الفلسطينيّة... دون أن نُنكر أنّ القناة تتبنّى وجهات نظر حزب الله»[٦١].

(٥٨) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: A. Colin, 2004), p. 342.

(٥٩) *Le Monde*, 6/10/2000.

(٦٠) «من قناة التحرير إلى قناة الانتفاضة،» **المستقبل** (بيروت)، ٦/١٠/٢٠٠٠.

(٦١) «نحن لسنا تابعين لحزب الله، لا أحد يُسيطرُ علينا،» حوار مع ناصر أخضر، **الشرق الأوسط** (لندن)، ٥/٨/٢٠٠٣.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

يتزامن كلّ من هذين التصريحين مع حدثين تاريخيّين: أحداث مانهاتن واحتلال العراق. حدثانِ كانا مفصليّين في مراحل تطوّر القناة التي تُحاولُ جاهدةً أن تحمي نفسها من العواصف مع المحافظة على التزامها المبدئي.

٤ ـ العربيّة: سي إن إن مُقابل فوكس نيوز

العربيّة قناةٌ إخباريّة تابعةٌ لمجموعةِ إم بي سي، انطلق بثُّها في ١٩ شباط/ فبراير ٢٠٠٣، من المنطقةِ الحُرّة في دُبي[٦٢]. في غياب وثيقة مكتوبة تُعرّف القناة نفسها، يعود البحث إلى تصريحات مسؤوليها. الوليد بن إبراهيم الوليد يصفُها بـ «خيارٌ عربي لإنشاءِ بديلٍ أكثر اعتدالاً من الجزيرة وهدفها هو تطوير صوتٍ عربيٍ أكثر اعتدالاً يحتلُّ موقع سي إن إن بالنسبةِ إلى فوكس نيوز»[٦٣] ويُحدّد أنّ سي إن إن، معروفة بتغطياتها الهادئةِ والمهنيّة وليس بـ «الآراء التي يُعبّر عنها بالصراخ»[٦٤]؛ في السياق ذاته يقولُ علي الحُديثي، لوكالة الصحافة الفرنسيّة: «سنُقدّم للمشاهدين العرب بديلاً عاقلاً ومُتوازناً»[٦٥]. لا يعبّر تعريف الذات بالنسبة إلى الآخر عن خيارٍ مهنيّ، بل عن خيارٍ سياسي سنُحلّلُهُ في الفصل الخاص بجيوبوليتيك الفضائيّات الخليجيّة. أمّا انتقاد صراخ الجزيرة وتبنّي وصف عاقل، مُتوازن ومُعتدل فلا يعني، في السياق العربي، الموضوعية المهنيّة، بل خطّاً سياسيّاً؛ فصفةُ الاعتدال في المُصطلح السياسي للعالم العربي أصبحت بمثابةِ صفةٍ واسم علمٍ خاصٍّ بالأنظمة والقوى السياسيّة المنحازة إلى الولايات المُتّحدة والمُعتدِلة إزاءَ إسرائيل. ما يُترجَمُ إعلاميّاً بتسويقِ سياسةِ السعوديّةِ وبشكلٍ أوسع الأمريكية.

في عام ٢٠٠٦، صرّح عبد الرحمن الراشد، لجريدة **البيان** الإماراتيّة قائلاً: «لا يُمكن للعربيّة أن تكون مُحايدة في تغطية الأحداث السياسيّة التي تمسُّ العربيّة السعوديّة، لأنّها مُلكيّةٌ سعوديّة»[٦٦] كذلك يؤكّد لصحيفة

(٦٢) «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazeera,» *Le Monde*, 14/3/2003.

(٦٣) Samantha M. Shapiro, «The War Inside the Arab News Room,» *New York Times*, 2/1/2005.

(٦٤) أمجد العبسي، «أسرار قناة العربيّة،» **السبيل** (عمّان)، ٢٥/ ١/ ٢٠٠٥.

(٦٥) Shapiro, Ibid.

(٦٦) «الراشد للبيان: «لا يمكن للعربية أن تكون محايدة فيما يخص العربيّة السعوديّة»،» **البيان** (دبي)، ١٥/ ٥/ ٢٠٠٦.

المدينة: «المملكة تتعرّضُ للهُجوم ومن الطبيعيّ أن تدعمَ بوسائل إعلام قويّة، الحُكومات تدعمُ مؤسّساتها... مصر تدعم **الأهرام**»[٦٧] مع ذلك يؤكّدُ أنّهُ حُرّ في خياراته وفي تحديد سياسته التحريريّة[٦٨]؛ فيما يؤكّد المدير الذي سبقه، صالح قلاب، أنّ التعليمات كانت ثقيلةً بحيث يصعب تحمّلها. أمّا نبيل الخطيب، المدير التنفيذي، فيرُدّ بأنّ المشكلة ليست في التعليمات بل في نقص المهنيّة[٦٩].

الملمح الثاني يكمن في تسويق السياسة الأمريكية؛ فإذ يعترفُ تقريرٌ أمريكي «المجموعة الذكيّة» بأنّ أحد أهداف القناة هو مُنافسة الجزيرة والثاني تسويق دعاية الدولة السعوديّة، فإنّهُ يُشيرُ إلى هدفين آخرين يتجاوزان المذكورين: الأوّل هو تحسين صورة الولايات المتّحدة في العالم العربي. سواء في الجانب السياسيّ أو عبر برامجَ تُسوّق نمط الحياة الأمريكية وتُمجّد منظومة القيم الأمريكية. ولا بأس لأجْل ذلك من تمرير تقارير تبدو ضدّ السياسة الأمريكية في ما يتعلّق ببعض الأحداث السياسيّة في سبيل التمويه واجتذاب الجمهور. أمّا الهدف الثاني فيتمثّلُ، بحسب التقرير، بـ «إرساءِ صيغةٍ خاصّةٍ للإسلام. إسلامٌ ليبرالي في ما يخُصّ السياسة، وسلفيٌّ أصوليٌّ على المستوى الاجتماعي والديني»[٧٠].

يُحدّد المدير الأوّل للقناة السياسة التحريريّة بقوله: «نحن نتميّزُ في المنافسة بوضوحنا الكامل في ما يخُصّ سياستنا التحريريّة: العربيّة هي ضدّ كُلّ المُتطرّفين. بن لادن هو عدوّ المسلمين بقدر ما هو عدوّ الغرب.» تحديدٌ نجد فيه الـ «ضّد»، ولكنّنا لا نجدُ الـ «مع»؛ فهذه الضد لإسلام بن لادن لا تعني مثلاً خِطاباً قوميّاً شكّل تاريخيّاً البديل المُقابل للإسلام السياسي في

(٦٧) عبد العزيز محمد قاسم، «الراشد وصف السياسة القطرية بـ «حالة الشيزوفرينيا» والازدواجية، مدير «العربية»: هناك دعاية ضدنا هدفها اغتيال الشخصية،» **المدينة**، ٣/ ١١/ ٢٠٠٦.

(٦٨) مُقابلة شخصية مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٦٩) مُقابلة شخصيّة مع نبيل الخطيب، دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٧٠) طارق شفيق حقّي، «تقرير عن قناة العربية والـ «إم بي سي»،» (٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦)، <http://merbad.net/vb/showthread.php/2062>؛ محمد العزّي، «فضيحة قناة «العربية»،» (١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦)، <http://forums.naseej.com/showthread.php?t=87190>، ومحمد مجاهد، «التقرير الأمريكي،» المجموعة الذكية (١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦)، <http://sabraeng.com/vb/showthread.php?t=4489>.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

العالم العربي. ذاك أنّ الحكم السعوديّ، الذي بنى مشروعيّته على الإسلام، لا يسمح في وسائل إعلامه بتسويق المشروعيّة القوميّة العربية، وبخاصّةً أنّها تُحيلُ في وعي الجماهير إلى عبد الناصر أو الأسد أو إلى صدّام حسين.

إذاً لا بُدّ للقناة أن تُحافظ على هويّة قادرة على مُواجهة القوميّين الغاضبين من مُشاركةِ المملكة في ما يُسمّونه بـ «المؤامرة ضدّ الأمّة» وكذلك على مواجهة الإسلاميّين الناقمين على وُجود قواعد الكُفّار قُرب الأماكن الإسلاميّة المُقدّسة، كذلك على مواجهة الناقمين ضدّ هيمنة الأسرة السعوديّة على البلاد والنفط في جوّ انعدام العدالة الاجتماعيّة. إذاً، هو الطابع الليبراليّ، بل والنيوليبراليّ هو ما يُناسب القناة. «إذا كان الإسلاميّون والقوميون يُهاجمونني فذاك، فمعنى ذلك أنّني على حق»[٧١]. ليبراليّةٌ لا تنفصل عن الإسلام، وبالتالي عن مشروعيّة آل سعود، ولكنّها تُرسي صيغةً خاصّة له. صيغةٌ هي في أحد وُجوهها «مُعادية للإرهاب» ولكنّها تُعطي هذا المُصطلح مضموناً يُمكن أن يشمل جميع المُعارضات والمُقاومات، بل والمشاريع السياسيّة التي لا تتناسب مع السياسة السعوديّة والأمريكية في المنطقة بما فيها أيّةُ توجّهاتٍ علمانيّة أو يساريّة هي بطبيعتها مُناقضة للإرهاب. تركيبةٌ مُعقّدة تصلُ حدّ الشيزوفرينيا؛ فبينما نجد أن أحد الشيوخ الذين يُشرفون على البرامج الدينيّة بالقناة يُفتي بعدم الاختلاط بين الرجال والنساء، يكتُبُ المُراسل الخاص لصحيفة **لوموند**: «في ٥ آذار ٢٠٠٣، في مكاتب العربيّة، الواقعة في المدينة الإعلاميّة الجديدة في دبي، تبدو الحربُ التي تُهدّد العراق ونتائجها على المنطقة على بُعدِ سنواتٍ ضوئيّة، فالوقتُ للعيد، المشروبات الكحوليّة تتدفّق بسخاء للاحتفاء بإطلاق القناة... بحُضور رجل دبي القوي، وزير دفاع الإمارات، محمد بن راشد آل مكتوم، والسعودي وليد إبراهيم، شقيق زوجة الملك فهد ورئيس مجلس إدارة إم بي سي. يعبّر مسؤولو القناة الجديدة عن رغبتهم في أن يضعوا في «خدمة جميع العرب» قناةً تُوحّدُهُم وتُخبِرُهم، في إشارةٍ إلى قناة الجزيرة، المُتّهمةُ بنشر الفرقةِ في العالم العربي»[٧٢].

(٧١) Robert F. Worth, «A Voice of Moderation Helps Transform Arab Media,» *New York Times*, 4/1/2008.

(٧٢) «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazeera».

الجدول الرقم (٢ ـ ١)
جدول الهوية السياسية والأيديولوجية للمحطّات الأربع

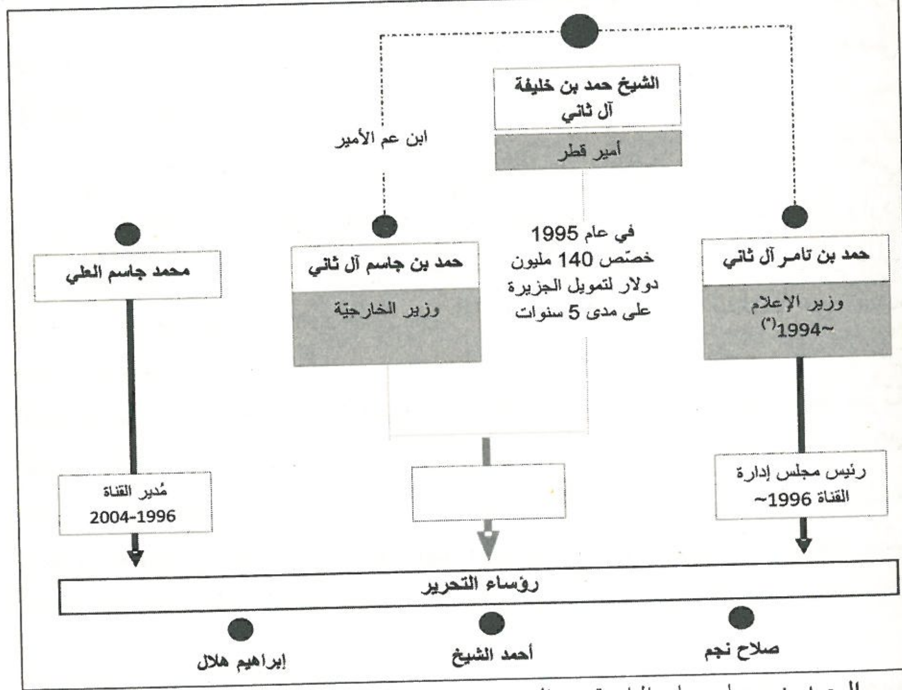
جدول الانتماء السياسي والأيديولوجي				
المنار	أبو ظبي	العربية	الجزيرة	الفضائية
حزب الله	قومية ـ عروبية	ليبرالية	إسلام سياسي	الانتماء السياسي والأيديولوجي
حزب الله	قومية ليبرالية إسلام سياسي	ليبرالية إسلام سياسي إسلام سعودي (وهابية)	إسلام سياسي قومية ليبرالية	الهوية الثقافية ـ السياسية (وفق ترتيب الإعلاميين داخل القناة)

المصدر: جدول أعدّته الباحثة.

ثانياً: الشبكات التي تتحكّم بعمل المحطّات

١ ـ الجزيرة

الشكل الرقم (٢ ـ ١)
الشبكة التي تُدير الجزيرة ١٩٩٦ ـ ٢٠٠٤



المصدر: حصلت عليه الباحثة من الجزيرة.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

أ ـ الإدارة القَطَرية: حمد بن خليفة، حمد بن جاسم، حمد بن تامر

الجزيرة هي المشروع الشخصي للشيخ **حمد بن خليفة** أمير قطر، وهو يحرصُ على مُتابعةِ عملها شخصياً.

حمد بن جاسم، هو رجل قطر القويّ، عام ١٩٩٤، كان مُلحقاً عسكرياً في السفارة القطرية في واشنطن، ونسّق مع الشيخ حمد بن خليفة ولي العهد للانقلاب على الأب. سُمّي وزيراً للخارجيّة ثُم رئيساً للوزراء. وعندما حُلّت وزارة الإعلام عام ١٩٩٦، أنشأ قسم الإعلام الخارجي داخل وزارة الخارجيّة. ومن هذا القسم تُدار جميع العلاقات مع الصحافة الأجنبيّة. يُساهمُ بشكلٍ غير مُباشر في تمويل الجزيرة، فهو مثلاً الذي يملكُ المجمّعات التي يسكُن فيها الموظّفون والضيوف.

تدور مُنافسة صامتة بين حمد بن جاسم وحمد بن تامر رئيس مجلس إدارة الجزيرة.

حمد بن تامر؛ هو ابن عمّ أمير قطر، بدأ حياته المهنيّة عام ١٩٨٧ في دائرةِ النشر والإعلام في وزارة الإعلام القطريّة، ثُمّ في وكالة الاستخبارات الخارجيّة. عُيّن وكيلاً لوزارة الإعلام ثُمّ وزيراً للإعلام، وعندما ألغيت الوزارة عام ١٩٩٤، عُيّن رئيساً لمجلس إدارة الجزيرة الناشئة، «إنّهُ اختيار مجلس الإدارة»[٧٣] يقول لـ تي بي إس.

في عام ٢٠٠٣، عندما حصلت التغييرات التي طالت محمد جاسم العلي ومحمود السهلاوي، توقّع البعض استقالة حمد بن تامر، لأنّ اسمه كان وارداً في فيديو اللقاء مع صدّام حسين، لكنّ دعم الأمير أبقاه في منصبه. وإثر ذلك تحدّث إلى **تي بي إس جورنال**، عن الانتقادات الأمريكية مُدافعاً عن نفسه وعن محطّته بمُرونة: «لقد استمعت إلى انتقادات كولن باول وأعضاء من الكونغرس خلال زيارتي الأخيرة لواشنطن. لقد أوضحت لهُم خطّ حريّة التعبير الذي تتبنّاه الجزيرة؛ في البداية اتُّهمت محطّتنا بأنها مُموّلة من صدّام حسين لأنّها غطّت أحداث العراق. وعندما غطّينا الانتخابات الإسرائيليّة، وأجرينا حوارين على الهواء مع إيهودا باراك وشمعون بيريس، اتُّهمنا بأنّنا نُموَّلُ من الموساد. وعندما نقلنا الأحداث من مكتبنا في واشنطن اتُّهمنا بأن

(٧٣) Schleifer and Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani».

الـ سي آي إيه هي من يُموّلنا»[٧٤]. غير أنّ هذه المُرافعة لا تُغلق الباب أمام مُرونة براغماتيّة: «نحن ندرسُ كُل هذه الاتهامات، ونُصرُّ على سياستنا التحريريّة في تقديم كُل وُجُهات النظر»[٧٥].

بعد إلغاء وزارة الإعلام، ظلّ بن تامر يُديرُ الإذاعة والتلفزيون والفضائيّة القطريّة ووكالة الأنباء القطريّة؛ في عام ٢٠٠٤، قام رئيس الوزراء بتعيين ابن أخيه الشاب الشيخ جبر على رأس وكالة الأنباء ثُمّ الإذاعة والتلفزيون وأخيراً الفضائيّة.

يُشرف على الجزيرة مجلس إدارة من سبعة[٧٦] أعضاء، وهو يُعيّن المدير العام الذي يُدير القناة فعليّاً. منصبٌ شغله حتّى عام ٢٠١٠ ثلاثةُ مُدراء: عدنان الشريف (شباط/ فبراير ١٩٩٦ ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦)؛ محمد جاسم العلي (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦ ـ أيار/ مايو ٢٠٠٣)؛ وضّاح خنفر (٢٠٠٣ ـ ٢٠١١).

ب ـ المدراء: عدنان الشريف، محمد جاسم العلي، وضّاح خنفر

ـ **عدنان الشريف**؛ فلسطيني مولودٌ في قطر، حيث بدأ حياته العملية في الإذاعة عام ١٩٦٨، ثُمّ التحق بالـ بي بي سي في لندن، وعند إنشاء بي بي سي العربيّة انتقل إليها مُذيعاً. مع إنشاء الجزيرة عاد إلى قطر حيثُ عُيّن مديراً بالوكالة مُكلّفاً بالتخطيط للمشروع. دراسته، تصميم مكتب الأخبار، كتابة سيناريو اللوغو وتحضير جدول البرامج، وعند عقد الاتفاقية مع أوتيلسات، كان هو من أضاف لها بنداً يسمح بالعبور إلى الديجيتال، ما وفر على القناة تكاليف قناةٍ جديدة. عندما عُيّن محمد جاسم العلي مديراً، عاد الشريف إلى بي بي سي ليعود فيلتحق بالجزيرة. عند إقالة العلي عام ٢٠٠٣، عُيّنَ مديراً بالوكالة لمدة ثلاثة أشهر[٧٧].

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) المصدر نفسه.

(٧٦) في عام ٢٠٠٣، كان مجلس الإدارة يتشكّل من: حمد بن تامر آل ثاني، رئيساً (قطري)؛ خلف بن حمد المنّاعي (قطري)؛ عبد الله الخليفي (قطري)؛ أحمد عبد الله الخليفي (قطري)؛ وضّاح خنفر (أردني)؛ إلهام بدر السادة (قطريّة)؛ محمود شمّام (ليبي ـ أمريكي).

(٧٧) عدنان الشريف، «بداية عملاقة وريادة دائمة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٢٥.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

- **محمد جاسم العلي**؛ قطري بدأ حياته المهنية في التلفزيون القطري عام ١٩٧٤. مساعد مخرج، مخرج، رئيس قسم التنسيق والتنفيذ؛ في عام ١٩٩٠، استدعته حكومة الشارقة وكلّفته بإنشاء فضائيّتها. تابع دوراتٍ تدريبيّة في اليابان، ألمانيا وبريطانيا، ثُمّ عاد إلى قطر ليُعيّن مُديراً مُساعداً ثُمّ مديراً لتلفزيون قطر. في عام ١٩٧٩، أطلق القناة القطريّة باللغة الإنكليزيّة، بعدها عُيّن مراقباً عامّاً للتلفزيون. كان عُضواً في مجلس إدارة الجزيرة مُنذ إنشائها ثُمّ عُيّن مُديراً لها حتّى عام ٢٠٠٣[٧٨].

- **وضّاح خنفر**؛ فلسطينيٌّ أردني، مُهندسٌ مدني، بدأ عملهُ الصحافي مُراسلاً في جنوب أفريقيا ثُمّ غطّى حرب أفغانستان التي دخلها من الهند مع تحالف الشمال. عندما قُصِف مكتب كابول فوق رأس تيسير علّوني، كُلّف خنفر بإعادةِ تأسيسه وتجهيزه وإدارته. بعد ذلك بسنتين تكرّر الأمر في العراق، دخل خنفر ليُغطي الحرب من كردستان وكان علّوني يُدير مكتب بغداد، قُصِف المكتب، بعد الاحتلال كُلّف خنفر بإعادةِ تأسيسه وإدارته. وجّه إليه وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصّحّاف انتقاداتٍ عنيفة، في حين وصفه الأمريكيون بالمعتدل والموضوعي، وخصّه بول بريمر بأوّل حوارٍ مع الصّحافة العربيّة في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣. بعد تعيينه مُديراً للجزيرة صرّح: «على ما فهمت، فإنّ تغطيتي المتوازنة والمُعتدلة للحرب هي ما رشّحني لهذا الاختيار».

ج ـ رؤساء التحرير: صلاح نجم، إبراهيم هلال، أحمد الشيخ

يديرُ مدراء تحرير الأخبار والمذيعون والصحافيّون: ثلاث فرقٍ تتعاقب خلال ٢٤ ساعة، بل تتقاطع لأنّ كُل فريقٍ يعمل لمدّة عشر ساعات، وذلك حرصاً على الاستمراريّة وتجنُّب أي فراغ أو انقطاع. يتشكّل كُل فريق من: مشرف، مُخرج، مُخرج مُساعد، عشرة مُحرّرين، مُذيع أو مُذيعين، مُدقّق لُغوي وعشرات التقنيّين، وفي البداية كانت هُناك قاعدة أن يتشكّل هؤلاء من عدّة جنسيّات ومن عدّة تيّاراتٍ سياسيّة، دينيّة وفكريّة لتفعيل النقاش الذي يحسمه رئيس التحرير.

تعاقب على هذا المنصب منذ عام ١٩٩٦ حتى ٢٠٠٤، ثلاثة رؤساء:

(٧٨) Schleifer and Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani».

أحمد الشيخ، إبراهيم هلال وصلاح نجم. كُلهم من قدماء الـ بي بي سي. وكُلهُم شارك في تأسيس الجزيرة. وكلهُم غادرها لفترة ثُمّ عاد إليها. الشيخ فلسطيني، أمّا هلال ونجم فهما مصريّان. يحمل الأوّل الجنسيّة البريطانيّة والآخران الجنسيّة الهولنديّة.

- **صلاح نجم**؛ من مواليد عام ١٩٥٦، شغل المنصب من عام ١٩٩٦ حتّى عام ٢٠٠١، ثُمّ تنقّل بين بي بي سي والعربيّة، حيثُ شارك في تأسيس الثانية لكنّه استقال إثر خلافٍ مع عبد الرحمن الراشد ليعود إلى الـ بي بي سي. يعودُ إليه الفضل الكبير في نجاح القناتين، خاصّةً لأنّهُ كان في أساس إنشاء وتنظيم المكاتب الخارجيّة.

- **إبراهيم هلال**؛ من مواليد مصر عام ١٩٦٧، كان في الجزيرة منذ نشأتها ثُمّ انتقل إلى أبو ظبي ليُشارك في تأسيس فضائيّتها عام ٢٠٠٠ وليعود إلى الجزيرة رئيساً للتحرير من عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٤، حيثُ أدار المراحل الأكثر دقّةً وحساسيّة: حربي أفغانستان والعراق. ترك الجزيرة عام ٢٠٠٤ ليعود إلى الـ بي بي سي. (عاد عام ٢٠٠٦ كنائبٍ لمدير الجزيرة الدوليّة الناطقة بالإنكليزيّة).

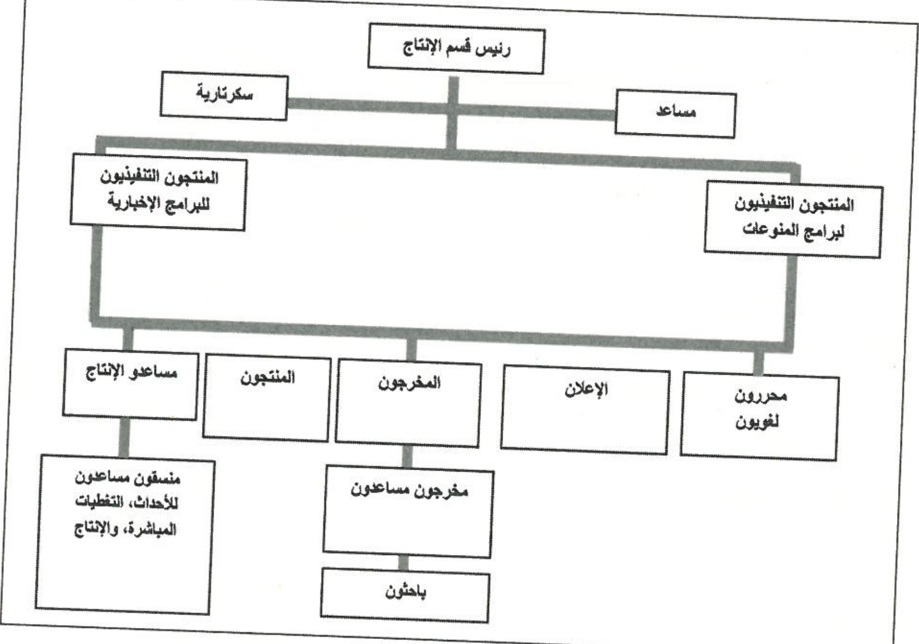
- **أحمد الشيخ**؛ من مواليد عام ١٩٤٧، هو كزميليه من قدماء الـ بي بي سي ومن المشاركين في بي بي سي العربيّة. كان صوتُه أوّل صوتٍ يُسمع عبر قناة الجزيرة عام ١٩٩٦، مفتتحاً بثّها بتلاوة آياتٍ من القرآن الكريم، قبل أن يظهر جمال ريّان، ليُقدّم النشرة الإخباريّة الأولى. قدّم الشيخ برنامج «مُراسلون» قبل أن يُعيَّن مُساعداً لرئيس التحرير. ثُمّ كُلّف عام ٢٠٠١، بتأسيس الجزيرة نت وبإنشاء مكتب كابول قبل وقتٍ قصير من أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وفي عام ٢٠٠٢، عاد إلى موقعة كمساعد لرئيس التحرير ثُمّ انتقل إلى فضائيّة أبو ظبي، لكنّه عاد إلى قطر مُديراً للإعلام الخارجي في وزارة الخارجيّة. في عام ٢٠٠٣، عاد إلى الجزيرة مُديراً للجزيرة نت بالإنكليزية. وفي عام ٢٠٠٤، عُيّن رئيساً لتحرير الأخبار وكُلّف بتوسيع دائرةِ التغطية الإخباريّة كي تشمل إندونيسيا وأفريقيا مع التركيز على الجانب الإنساني.

إلى جانب هؤلاء الثلاثة، هُناك صحافي شغل منصب نائب رئيس التحرير وعُرف بتأثيره القوي، خاصّةً مع اتّجاه القناة نحو الأسلمة. أيمن جاد الله، أحد قدماء الـ بي بي سي، والذي تنقّل كزملائه بينها وبين الجزيرة والعربيّة.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

٢ ـ أبو ظبي

الشكل الرقم (٢ ـ ٢)
الهيكل الإداري لقناة أبو ظبي بين ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤



المصدر: جدول حصلت عليه الباحثة من أرشيف قناة أبو ظبي، في أيار/ مايو ٢٠٠٨.

أبو ظبي الفضائيّة، هي مشروع أشرف عليه الشيخ عبد الله بن زايد وزير الإعلام وهو الأخ الأصغر في مجموعة الأمراء الفاطميّين (أولاد الشيخ زايد من الشيخة فاطمة والأخ غير الشقيق للأمير الحالي الشيخ خليفة). متزوّجٌ من حفيدة الشيخ محمد بن راشد؛ أمّا إدارة الفضائيّة فأُوكلت إلى إمارات ميديا حيثُ كان يتشكّل مجلس الإدارة من: محمد خلف المزروعي، أحمد علي صايغ، الدار ودولفين، محمد عمر عبد الله نائب رئيس هيئة التخطيط والاقتصاد ومبارك حمد المهيري مدير التطوير السياحي في الإمارة. أمّا المدراء ونوّابهم المتعاقبون فهم: علي الأحمد، محمد ذو الرشاد ومحمد علي البلّوشي.

وكما أشرنا، فقد عمل فيها صلاح نجم، إبراهيم هلال وأحمد الشيخ ومُراد شيبين كرؤساء تحرير، إضافةً إلى الأردني نارت بوران.

٣ ـ العربية

الجدول الرقم (٢ ـ ٢)
الهيكل الإداري لمجموعة إم بي سي

رئيس مجلس الإدارة: وليد بن إبراهيم الوليد					
مدير الإعلام ناصر الصرامي		الإعلان والتسويق للمجموعة مازن الحايك		مديرة الموارد البشرية نجوى صفوة	
MBC MAX	MBC Action	MBC3	MBC2	العربية	MBC1
				مدير عام القناة: عبد الرحمن الراشد	
				مساعد مدير عام القناة: داود الشريان	
				مدير الأخبار والبرامج: نخلة الحاج	
				رئيس التحرير التنفيذي: د. نبيل الخطيب	
				رئيس التحرير: ● ألفريد عصفور ● أنطوان عون ● ياسر ثابت	

المصدر: جدول أعدته الباحثة بحسب قوائم الموظّفين التي حصلت عليها من القناة.

أ ـ الإدارة: الوليد بن إبراهيم الوليد، علي الحُديثي

الوليد بن إبراهيم الوليد، هو المالك المُعلَن ورئيس مجلس إدارة مجموعة إم بي سي التي تضُم العربية، أمّا علي الحديثي فهو المشرف العام.

حتّى عام ٢٠٠٤، تعاقب على القناة مُديران هُما صالح القلّاب وعبد الرحمن الراشد. وكان نخلة الحاج نائب المدير عام، يدير التخطيط والميزانيّة. نبيل الخطيب المدير التنفيذي. داود الشريان نائب مدير المجموعة والقناة في العربيّة السعوديّة.

يخضع رؤساء تحرير الأخبار لإدارة نخلة الحاج وعبد الرحمن الراشد. ومن بين هؤلاء صلاح نجم وسمير رزق.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

علي الحُديثي، ينتمي إلى أسرةٍ من قبيلة بني زيد (قحطان)، وهي القبيلة النافذةُ والقويّة في نجد والتي تحتلُّ موقعاً خاصّاً لدى الأمير سُلطان. والدهُ هو القاضي الأكبر لمنطقة عسير. يحمل ماجستير في إدارة الأعمال من جامعة أريزونا الأمريكية[٧٩]. هو مدير عام باقة إم بي سي وكذلك شركة مِنْ (MEN) للإنتاج التي تُزوّد إم بي سي والعربيّة بالصحافيّين والبرامج. من الناحية القانونيّة تعود ملكيّة (MEN) إلى شركة إم بي سي، فيما العربيّة شركة مُنفصلة. وهما كذلك من الناحية البنيويّة. لكنّهُما في الواقع مُتّصلتان عبر مدير (MEN) الذي هو في الوقت ذاته المدير التنفيذي للعربيّة.

يُعلن الحُديثي أنّه:

ـ مع التوازن. ويُمثّل عبد الرحمن الراشد بالنسبة إليه «رجل التوازن». ولن يُنافس التحاق داود الريان بنا سلطة عبد الرحمن الراشد»[٨٠].

ـ ضدّ المحطّات الحكوميّة، التي يتمنّى اختفاءها كُليّاً.

ـ مع المحطّات المُتخصّصة.

ـ مع الصحافيين الشباب «نُفضّل بناء صحفيّين شباب على توظيف صحافيّين مُتشكّلين لا يتأقلمون مع سياسة القناة».

ـ مع سعوديّة الموظّفين: لا يُشكّل السعوديّون إلا ٨ في المئة من العاملين في محطّات إم بي سي، ولذلك دعم الحديثي إنشاء مكتب تدريب في الرياض لرفع هذه النسبة.

ـ مع الشركات المُساهمة: «في عام ١٩٩٨ مرّت إم بي سي بأزمة، وكنّا على وشك بيعها، لكنّنا قرّرنا تحويلها إلى شركة مساهمة، وهذا ما أنقذها»[٨١].

ب ـ المُدراء: صالح قلّاب، عبد الرحمن الراشد، نخلة الحاج، نبيل الخطيب، داود الشريان

ـ **صالح قلاب**؛ المدير الأول للعربيّة، أردنيّ في الستين من عمره،

(٧٩) علي الحُديثي، ويكيبيديا.
(٨٠) المصدر نفسه.
(٨١) المصدر نفسه.

ينتمي إلى قبيلة بني حسن، درس في العراق وكان بعثياً قبل أن يلتحق في السبعينيات بالمقاومة الفلسطينيّة تنظيم فتح، حيثُ كان مُقرّباً من «أبو إياد». بعد عشرين سنة، ومع المُصالحة بين مُنظّمة التحرير والنظام الأردني عاد إلى الأردن ليصبح من رجال الموالاة المُنافحين، ويُدافعُ عن دول الاعتدال في مقالاته في صحيفتي **الدستور** و**الشرق الأوسط**. عُيّن وزيراً للإعلام حيثُ عُرِف بمواقفه المُتشدّدة ضدّ الإسلاميين، وبخاصّة خلال الأزمة التي نشأت عن منع ثلاثةٍ من قياديّيهم من دُخول عمّان، أزمةٌ انتهت بتسويةٍ أدّت إلى استقالته. في عام ٢٠٠٣، عُيّن مُديراً للعربيّة، لكنّهُ لم يستمر إلا بضعة أشهُر.

ـ **«اللوبي»**[٨٢]: عبد الرحمن الراشد، نخلة الحاج، نبيل الخطيب

وصفت مراسلة **نيويورك تايمز** سامانثا شابيرو، الراشد والحاج والخطيب بـ (اللوبي) «يتقاسمون رؤيةً تُريدُ التقليل من شأن العنف وتطوير الأخبار واجتذاب انتباه ومشاعر المُشاهدين»[٨٣]. يظلّ مُصطلح العنف هُنا غامضاً حيثُ تُضيف المُراسلة أن اللوبي يدعمُ الوجود الأمريكي في العراق وفي سياق ذلك حُظر على برنامج «السلطة الرابعة» الذي يورد أقوال الصحف الأجنبية، الإشارة إلى **الإندبندنت** و**الغارديان** لأنّهما: «وسيلتا إعلام يساريّتان تُعارضان احتلال العراق»[٨٤] كذلك يتقاسم الثلاثة رؤيةً نيوليبراليّة على الصّعيدين السياسي والاقتصادي.

وُلِد **عبد الرحمن الراشد**، في العربية السعوديّة لأسرة بسيطة وأبٍ مُتعدّد الزوجات. درس في الرياض ثُمّ في الولايات المُتّحدة الأمريكيّة، حيثُ تخصّص في الدراسات الإعلاميّة والإخراج السينمائي في جامعة واشنطن. في عام ١٩٨٠، عُيّن مُديراً لمكتب الصحيفة اليوميّة السعوديّة **الجزيرة** في واشنطن. في عام ١٩٨٥، التحق بالشركة السعوديّة للأبحاث والنشر في لندن التي يملكها الأمير فيصل بن سلمان بن عبد العزيز. عُين الراشد رئيساً لتحرير المجلة، وبعد سنتين لجريدة **الشرق الأوسط**. في عام ٢٠٠٣، استقال من منصبه بنيّة التفرّغ للكتابة وإدارة شركة إنتاج تلفزيونيّة خاصّة به في لندن[٨٥]. في عام ٢٠٠٤،

(٨٢) Shapiro, «The War Inside the Arab News Room».
(٨٣) المصدر نفسه.
(٨٤) المصدر نفسه.
(٨٥) مقابلة شخصيّة مع الباحثة في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

عُيّن مُديراً للعربيّة وعُرف بعلاقته الطيبة بـ الشيخ محمد بن راشد أمير دبي.

ينفي الراشد وجود أسباب سياسيّة وراء تعيينه، مُشيراً إلى أنّ **الشرق الأوسط** وإم بي سي تتبنّيان سياسة واحدة. لكنّه يقول إنّه جاء برؤيةٍ جديدة تهدف إلى مزيدٍ من «الموضوعيّة»(٨٦). غير أنّ المقصود بالموضوعيّة هُنا أمرٌ سياسي بحت، مُرتبطٌ تحديداً باحتلال العراق بدليل ما يقوله علي الحُديثي: «لقد أطلقنا العربيّة قبل ثلاثةِ أسابيع من حرب العراق، في البدء كان الجمهور غاضباً ضدّ هذه الحرب، وكان من الصعب أن نجعله يتقبّل احتلال بلد عربي، وعليه أمرنا صحافيّينا بمُسايرةِ مشاعر الجمهور وتركنا لجميع الأصوات أن تُعبّر عن نفسها. ولكن ما إن بدأت الأمور تهدأ قليلاً واستطاعت القناة أن تفرض نفسها في السوق، حتّى أقمنا التوازن والعقل، وخاصّة مع تعيين عبد الرحمن الراشد على رأسها»(٨٧).

حول ملف آخر، يتبنّى عبد الرحمن الراشد رؤيةً ليبراليّةً مُعاديةً للإسلام السياسي، فغداة ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ كتب في **الشرق الأوسط**: «ليس المسلمون كلّهم إرهابيّين، لكن وللأسف، أكثر الإرهابيّين هُم مُسلمون»(٨٨). جملةً استعادها توماس فريدمان بعد ذلك في مقالةٍ في الـ **نيويورك تايمز** مستبدلاً «للأسف» بـ «التأكيد» و«إرهابيّين» بـ «انتحاريّين». لكنّ الراشد، يُدافع عن الإسلام كدين إذ يُردف في المقالة نفسها: «يرتكب النيومسلمون ظُلماً بحقّ الإسلام، فهو دينٌ بريء تمنع نُصوصه قطع شجرة، وتصف القتل بأنّه الجريمة الأكثر بشاعةً بين الجرائم، تُدينُ الذي يسحقُ حشرة وتُجزي من يُقدّم الماء لقطّة. هذا هو الإسلام الذي عرفناه قبل التكفيريّين»(٨٩). أمّا المجتمع العربي فيصفهُ بـ «مجتمع مريض بسبب الأخبار التي تنقلها وسائل الإعلام» وما ينقص هذه الوسائل هو: «المهنيّة، صدقيّة المصادر، مُقاربةٌ جديدة تؤنسن القضايا بدل أن تُسيّسها»(٩٠). أمّا البرامج فيُصنّفها بحسب

(٨٦) عبد الرحمن الراشد، «لم آت لإصلاح «العربيّة»،» العربيّة نت، ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

(٨٧) حوار مع علي الحُديثي، في: **البيان** (دبي) (كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥).

(٨٨) عبد الرحمن الراشد، في: **الشرق الأوسط**، ٢٠٠١/٩/١٣.

(٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) مقابلة شخصيّة مع الباحثة في أيار/ مايو ٢٠٠٧.

أولويّات: الوثائقيّات التي تُنتجها O3 وهي فرعٌ من فروع إم بي سي «نحن نشتري، لكنّنا نُنتج ما يقع في دائرة اهتماماتنا السياسية مثل «صدّام والعائلة»»، كذلك تُعبّر بعض الأولويّات عن تقاطع مصالح: «أنا أفهم جيّداً المصالح السعوديّة، ولكن هُناك أيضاً مصالح الشركات والمساهمين الذين يُعطون الإعلان، الإعلان الذي يجب أن يكون أولويّة، لأنّه من يُموّل. أنا أحرص أيضاً على اعتباراتٍ شخصيّة للبعض، ممّا لا يمنع سوء الفهم من حين إلى آخر». أمّا بالنسبة إلى المُذيعين، فهو يؤيّدُ توظيف بعض النجوم لكنّ السياسة العامّة تُفضّل الجُدد «غير المتشكلين والمستعدين لتطبيق سياسة القناة حرفيّاً». وذاك ما يؤكّدُ ما قاله علي الحَديثي. إلى أيّ مدىً أنت ديكتاتور؟ يُجيبُ باسماً: «لا أمنع نفسي من التدخل عند اللزوم»(٩١). عند اللزوم هذه مُتكرّرة ومألوفة لدى العاملين في القناة والذين يتذكّرون اجتماعه الأول معهم مُديراً حيث قال لهم: «أنا رجل ليبرالي، أقبل بالإسلاميين، اليساريين، القوميين، كُلّهم... كموظّفين في القناة، لكنّ أيّاً من آرائهم يجب ألا يمرّ على الشاشة»(٩٢).

يصف التقرير الأمريكي الذي أشرنا إليه الراشد بـ «صحافي مثالي لأمركة العقل العربي... لتسخيف ما يُسمّى في العالم العربي بـ «نظريّة المؤامرة»، لقد دافع دائماً عن الطروحات الأمريكية في مقالاته... واستطاع أن يُرسي سياسةً إقصائية لكُلّ من يُخالف السياسات الأمريكية... لديه سُلطةٌ إعلاميّة... لا يتلقّى أموالاً من الأمريكيين ولكنه يُكافأ بدعم قويّ لتعيينه في مناصب عُليا»(٩٣). وأيّاً يكن الوضع، فإنّ الرجل يبدو واثقاً في قراراته ومُستنداً إلى دعمٍ قويٍّ قد يتجاوز السعوديّة.

- **نخلة الحاج**؛ لبنانيٌّ مارونيٌ من قرية رميش الحدودية الجنوبيّة، في الخمسين من عمره مؤيّدٌ للقوّات اللبنانيّة (سمير جعجع). هو رجل القناة القوي الذي يصفه الراشد بـ اليد اليُمنى، والموظّفون بـ (The Boss). نائبُ المُدير العام، مدير البرامج السياسيّة والإخباريّة. يُشرف على رؤساء التحرير،

(٩١) المصدر نفسه.

(٩٢) حقّي، «تقرير عن قناة العربية والـ «إم بي سي»».

(٩٣) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

المراسلين والمكاتب الخارجيّة بحيثُ يُصبح مدير البرامج الخارجيّة مُجرّد مدير تنفيذي لا يملك القرار. كان الحاج واحداً من الفريق المؤسّس وهو من جاء بنبيل الخطيب وعيّنه مُديراً تنفيذيّاً. حيثُ إن العلاقة بين الرجلين تعود إلى نهاية التسعينيات عندما كان الحاج مديراً لمكتب الـ إم بي سي في لندن، ووظّف نبيل الخطيب كمراسل في فلسطين ثُمّ مُديراً لمكتب إم بي سي في رام الله. «لقد تعرّضتُ لكثيرٍ من النقد بسببه، كان الجميع يقول لي «كيف يُمكن أن يكون المرء حياديّاً في فلسطين؟ كيف يستطيع أن يصف الشهداء بالقتلى؟» لكنّني كُنت راضياً عن عمله، وأعتبر أنّه كان المراس الأكثر موضوعيّةً في المنطقة»[٩٤].

من لبنان جاء بأخيه جورج الحاج رئيساً لتحرير النشرة الاقتصادية. كان الحاج وراء سلسلة الحلقات حول سمير جعجع، والتي قدّمت زعيم ميليشيات الحرب اللبنانيّة كرجل مُسالم مظلوم. غير أنّ تدفّق ردّات الفعل المُستنكرة أجبر القناة على تنظيم حلقةٍ حواريّة بين أنطوان زهرة القائد السابق في ميليشيات سمير جعجع، والنائب الحالي عن القوات اللبنانيّة، ونايف كريّم المدير السابق لتلفزيون المنار.

شكّل تعيين داود الشريان، على رأس الـ إم بي سي في جدّة، تهديداً لسلطة الحاج؛ فالرجلان لا ينسجمان ويتبادلان النقد علناً. وقد حاول الشريان الإفادة من أزمةٍ سبّبها بثُّ خبرٍ غير صحيح عن زيادةِ الرواتب في العربيّة السعوديّة، ما اعتُبر محاولة لإحراج الملك عبد الله. أُحيل الحاج للتحقيق وانتهت الأزمة بعد أسبوع بتقديم الوليد بن إبراهيم الوليد اعتذاراً للملك عن «خطأ تقني»[٩٥].

يُنادي الحاج بمزيد من الحريّات الصحافيّة وبإصلاحاتٍ تشريعيّة تؤمّن حماية الصحافيّين من الحكومات[٩٦]. هو من يُشرف على احترام ما يُسمّى بـ «القائمة السوداء للصحافيين والسياسيين والمثقفين المحظورين في

(٩٤) Shapiro, «The War Inside the Arab News Room».

(٩٥) «العربيّة تُقدّم اعتذارها عن الأخبار المُتعلّقة بمعاشات السعوديّين،» **الرياض**، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٧.

(٩٦) حوارٌ حول وسائل الإعلام العربيّة، مركز دراسات الخليج، الشارقة، ٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦، <http://www.magrebia.com/cocoon/awi/xhtml1/ar/features/awi/futures/5/09/2006/>.

القناة»[٩٧]. ينتقد مفهوم الشهيد في الثقافة العربية الإسلاميّة، ويعتبر أنّ على وسائل الإعلام ألا تستجيب لتطلّعات هذه الثقافة. ويُدافع عن بثّ صُور قتل الإسرائيليّين في الأراضي المُحتلّة: «إذا كانت حماس تُريد إبراز صور قتلاها لتؤثّر بالشارع العربي فعلينا ألا نُشارك في هذه اللعبة، يجب ألا نكون طرفاً في الحرب، يجب ألا نخضع للشارع العربي، للمواطنين العرب، أو للثقافة العربيّة الإسلاميّة»[٩٨].

ـ **نبيل الخطيب**؛ فلسطيني ولد في بيت إيبا في الضفة الغربيّة، أكمل دراسته في جامعة بيرزيت، ثُمّ حصل على منحة دراسية من جامعة مِنْسك في الاتحاد السوفياتي حيث أنجز أطروحة حول الصحافة الشيوعيّة.

كان لا يزال مُراهقاً عندما اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام ١٩٧٨؛ في عام ١٩٨٢، ترك جامعته في منسك ليلتحق بالمقاومة الفلسطينيّة في لبنان في مواجهة الاجتياح الإسرائيلي. غير أنّ انسحاب مُنظّمة التحرير من لبنان شكّل له إحباطاً كبيراً فعادَ إلى منسك ليُواجه إحباطاً آخر، سُقوط الاتحاد السوفياتي والكُتلةِ الاشتراكيّة[٩٩]، ما خلق لديه ردّة فعلٍ ليبراليّة، بل ومعجبة بالنموذج الأمريكي. إنّهُ نموذجٌ لأولئك المُناضلين الشباب الذين تُصيبهم الأحداثُ بالإحباط فينتقلون إلى تبنّي البديل الذي كانوا يرفُضونه؛ في نهاية الثّمانينيات حصل على دكتوراه وعاد إلى فلسطين ليعمل أستاذاً في الإعلام ومراسلاً لـ إم بي سي ثُمّ مُديراً لمكتبها في رام الله. عام ٢٠٠٣، التحق بـ العربيّة كمديرٍ تنفيذي. وظلّ مُؤيّداً لفتح محمود عبّاس مُعادياً لحماس التي يحرصُ على مُراقبةِ الأخبار المُتعلّقةِ بها في القناة. مُراقبةٌ وصلت عام ٢٠٠٤، حدّ المحاكم إثر تلاعُبٍ بخطابٍ لإسماعيل هنيّة عن طريقِ اقتطاعِ جُملةٍ من سياقها. ويقول الصحافي جمال دملجي المُقرّب من حماس، والذي كان مُصنّفاً كصحافيٍّ أوّل في العربيّة، إنّه اضطر للاستقالة بسبب تكرار الإهانات والمُلاحقات والضغوط من طرف نبيل الخطيب.

في عام ٢٠٠٥، شارك الخطيب في فيلم وثائقي حول القدس مع

(٩٧) Shapiro, «The War Inside the Arab News Room».

(٩٨) حوارٌ حول وسائل الإعلام العربيّة، مركز دراسات الخليج، الشارقة، ٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦.

(٩٩) مقابلة شخصيّة مع الدكتور نبيل الخطيب، دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الصحافي الإسرائيلي زئيف شيف. وذلك في إطار سلسلة وثائقيّاتٍ لـ جون ماركس رئيس مُنظّمة، «بحثاً عن أرضيّةٍ مُشتركة» حيثُ كان كُلُّ فيلمٍ يضمُّ شخصيّتين فلسطينيّة وإسرائيليّة يعملان في مجال واحد ويتناقشان حول موضوعٍ إشكالي.

كمُديرٍ تنفيذي لا يُشارِكُ الخطيب في بلورةِ السياسات والخطط البرامجيّة مثل الراشد والحاج، لكنّهُ مُكلّفٌ بتنفيذها كُلّها، وبخاصّةً أنّه يُدير شركة (MEN)، ما يُشكّل عملاً ضخماً يجعلهُ «لا يتمكّن من رؤية أسرته لأيّام»، يُضاف إليه ثقل التعليمات التي يجهد في التعامُلِ معها: «عبثاً حاولتُ إقناع المستثمرين الفلسطينيّين بإنشاء قناةٍ في عمّان، تكونُ لنا... لقد تعبتُ هنا»(١٠٠). وفي السياق نفسه، تفاوض مع قناة أو تي في المصريّة، لإنشاء فرعٍ في عمّان، لكنّه لم ينجح أيضاً. «ليست رؤيةٌ ما يحكُمُ عملنا في العربيّة، بل «Style Of Life»(١٠١). ليأتي تعبيره التلقائي هذا وبالإنكليزية مُذكّراً بالنظريّة الإعلاميّة الأمريكية التي تقومُ على محورٍ أساسي هو تسويق نمط الحياة الأمريكي كأساسٍ لتسويق الأمركة، قيَماً وثقافةً ومن ثَمّ اقتصاد سوقٍ يقوم على الاستهلاك ويُشكّلُ رافعة الهيمنة السياسية والعسكريّة.

ـ **داود الشريان**؛ ولد عام ١٩٥٢ في بُريدة في العربيّة السعوديّة لأسرةٍ مُتواضعة. سُنّيٌّ، كثيراً ما اعتبره البعض شيعيّاً لأنّه كان مُعارضاً ويُدافع عن الشيعة في مقالاته. بدأ حياته المهنيّة في مجلّة **اليمامة** السعوديّة (١٩٨٢ - ١٩٨٦). ثُمّ مُراسلاً لوكالة **الأسوشييتيد بريس**، ليكون بذلك أول سعودي يعمل مُراسلاً لوكالةٍ أجنبيّة في المملكة. عام ١٩٨٨، ترك الوكالة ليُصبح رئيس تحرير النشرة الدوليّة لجريدة **المسلمون** ثُمّ للمجلّة الإسلاميّة **الدعوة**. انفصل عن الإسلاميين ليُصبح مديراً إقليميّاً لجريدة **الحياة** اللندنيّة وأحد أبرز كُتّابها.

تتّسم علاقته بالسلطات السعوديّة بالاضطراب والتناقُض، كما إنه انتقل في كتاباته من عروبي إلى إسلاميّ إلى يساريّ وأخيراً ليبرالي يكتب: «لعبت الهيمنة السعوديّة على وسائل الإعلام دوراً كبيراً في انفتاح المجتمعات

(١٠٠) المصدر نفسه.

(١٠١) المصدر نفسه.

العربيّة، وكشفت عن الادّعاءات الكاذبة للقوميّين العرب واليسار والإسلاميّين»(١٠٢).

بعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كان بين الليبراليّين الذين نادوا بالإصلاحات السياسيّة والاجتماعية في السعوديّة، فأوقف مقالته في **الحياة** وانتقل إلى تلفزيون دُبي ليُقدّم برنامجاً حواريّا بعنوان «المقال». تراجع الأمريكيون عن مطالبتهم بالإصلاح في المملكة بالتوازي مع تبنّي الملك عبد الله لإصلاحاتٍ محدودة حاول معها اجتذاب المُثقّفين السعوديّين المُعارضين، فترك الشريان دبي ليعود إلى العربيّة السعوديّة نائباً لمدير عام إم بي سي، مسؤولاً عن الفعاليّات الصحافيّة، الإداريّة، التدريب والتطوير والعلاقة مع الحكومة. وليقول في مُقابلةٍ صحافيّة: «الديمقراطيّات هي فرصةٌ للأُصوليّين، فلنترك الأمور تتغيّر بهُدوء في إطار سعوديّ من دون بغض»(١٠٣) في الوقت ذاته، عُيّن عضواً لمجلس إدارة أكثر من وسيلة إعلام: **الحياة**، الشركة السعوديّة للدراسات والنشر، وإم بي سي. كما استعاد مقالته في **الحياة**.

الشريان هو مستشار للأميرين مشعل بن عبد الله بن محمد، وفيصل بن عبد الله بن محمد اللذين كانا يعملان في مكتب الأمير سلطان بن عبد العزيز. وإذ يُبعده الأمير نايف بن عبد العزيز من دائرته، فإنّ دائرة الملك عبد الله تستقطبه في إطار بحثها عن صورةٍ إصلاحيّةٍ للنظام. وهو في كُلّ ذلك مدعومٌ من الأمير سلمان بن عبد العزيز مسؤول الإعلام (عُيّن وليّاً للعهد عام ٢٠١٢)، وذلك لأسباب مهنيّة وسياسية: فهو صحافي مهني ناجح، يتمتّعُ بشهرةٍ كبيرة، عُرِفَ كمُعارضٍ ومُطالبٍ بالإصلاح، ما يجعل من وجودهِ دليلاً على الانفتاح وينسجم مع سياسةٍ تبنّتها الأنظمة الخليجيّة مع النظام الإقليمي الجديد: مُحاولة استيعاب المُعارضين وتدجينهم طالما أنّ اليسار الدولي لم يعُد يُشكّل تهديداً مثله مثل القوميّة العربيّة بعد سقوط العراق.

أمّا رؤساء التحرير فهُم حتّى عام ٢٠٠٤، خمسة يعملون بالتناوب بتوجيهات مجلس التحرير الذي يجتمع يوميّاً في السابعة مساءً، وهو يتألف

(١٠٢) داوود الشريان، «هل يعيش شيعة العربية السعودية حصاراً إعلامياً؟»، الجزيرة. نت، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤، <http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a3bb96af-9bd2-41a3-bdde-fa3f8b4f24f4>.

(١٠٣) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

من أربعة أشخاص: الراشد، الحاج، الخطيب ورئيس التحرير المُناوب. بحيثُ يبدو دورهم أقل أهميّة من نظرائهم في الجزيرة.

٤ ـ المنار: المكتب التنفيذي لحزب الله، المدراء ورؤساء التحرير

تتّسم المنار بخصوصيّة كونها الذراع الإعلامي لحركةٍ سياسيّةٍ عسكريّةٍ مُقاوِمة، ولذلك فهي تتميّز بخاصّيّتين: الضبط والسرّيّة. تُوجّهُها سياسياً ومهنيّاً مؤسّسات حزب الله، ومن هُنا «فإنّ ثقافة السريّة التي يتبنّاها هذا الأخير، لأسباب حياة أو موت، بخُصوص أشكالٍ تنظيمية وإدارةِ بُناه المُختلفة لا تسمح بتبيُّن الآليّات الدقيقة لعملها... غير أنّ أمراً واحداً هو المؤكد، وهو أنّ إدارة حزب الله هي التي تُسمّي كوادر المنار، مثلُها مثل سائر المؤسّسات التابعة للحزب»(١٠٤).

على المستوى السياسي يُحدّد مجلس شورى الحزب استراتيجية القناة، كان يتشكّل، حتّى عام ٢٠٠٦، من سبعة أعضاء:

- السيد حسن نصر الله، الأمين العام.
- الشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين العام.
- السيّد إبراهيم الأمين السيد، الرئيس السابق لكتلة نوّاب حزب الله في البرلمان.
- جواد نور الدين، مدير مؤسسة الشهداء.
- الشيخ محمد يزبك، الذي يتمتّع بعلاقةٍ خاصّة مع الإمام الخامئني والطبقة الدينيّة الإيرانيّة.
- السيد هاشم صفي الدين، رئيس المجلس التنفيذي لحزب الله، الذي يُعتبر بشكلٍ ما حكومة الحزب، وينقسم بدوره إلى عدّة أجهزة من بينها جهاز الإعلام والعلاقة مع الصحافة، الذي أدارهُ محمد عفيف، ثُمّ إبراهيم فرحات. وتتبع قناة المنار هذا الجهاز. ينبثق عن ذلك مجلس إدارةٍ يتشكّل من عشرة

---

(١٠٤) Olfa Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah,» *Conuences Méditerranée,* no. 69 (avril 2009).

تم تدقيق المعلومات الواردة في مقالة لملوم مع مسؤول في القناة.

أشخاص، وهو الذي يُقرّ ميزانيّة القناة، يُحدّدُ خطّها التحريري، يُسمّي المُدير ورؤساء الأقسام. يُعتبر المدير بحُكم وظيفته عضواً في مجلس الإدارة. وقد أشارت دراسات غربيّة إلى وجود أعضاء مسيحيّين في المجلس، غير أنّ هذا ليس صحيحاً حيث يوجد هؤلاء بين المُساهمين(١٠٥).

بعد ذلك تأتي شبكة المُدراء ورؤساء الأقسام، وهم جميعاً من كوادر حزب الله أو، نادراً، مُقرّبون عيّنتهُم الهيئات الإداريّة فيه.

يُكلَّف الشخص نفسُهُ أحياناً بدور المُدير ورئيس مجلس الإدارة، ويُفصل الموقعان في أحيانٍ أخرى؛ فمن عام ١٩٩٥ ـ ١٩٩٨، كان نايف كريّم رئيساً لمجلس الإدارة، وعلي حيدر مُديراً للقناة ومسؤول الإعلام المركزي في الحزب. من عام ١٩٩٨ ـ ٢٠٠١، كان نايف كريّم مُديراً ورئيس مجلس إدارة في آن. من عام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٣، أصبح رئيساً لمجلس الإدارة ومُكلفاً بالعلاقات الخارجيّة فحسب. عام ٢٠٠٣ انتُخب محمد حيدر رئيساً لمجلس الإدارة.

حتّى عام ٢٠٠٤، تعاقب على منصب المُدير خمسةُ أشخاص هُم: علي ضاهر، نايف كريّم، محمد عفيفي، نايف كريّم من جديد، محمد حيدر وأخيراً عبد الله قصير. «وهم ينتمون جميعاً إلى الجيل الأوّل من مسؤولي الحزب الذين تكفّلوا بمُهمّاتٍ ذات أثرٍ في بروزه السياسي... ما يجعلُ من سيرتهم مجالاً لفهمِ بُنيةِ الأولويّات السياسيّة التي سبقت تأسيسه ونموذج الكوادر المدنيّة للمنظّمات العامّة التي انبثقت عنه»(١٠٦).

أمّا رؤساء تحرير الأخبار فهُم: حسين رحّال (١٩٩٥ ـ ١٩٩٨)؛ عاطف الموسوي (١٩٩٨ ـ ٢٠٠١)؛ حسن فضل الله (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥)؛ محمد عفيفي (٢٠٠٥ ـ ٢٠١٠). كان محمد شرّي مدير البرامج والبرامج السياسيّة (١٩٩٨ ـ ٢٠٠١)، ومحمد عفيفي مديراً البرامج والبرامج السياسيّة (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥)، أمّا إبراهيم فرحات فشغل منصب مدير العلاقات الخارجيّة ثُم العلاقات مع الإعلام. ونلحظ أنّ الأشخاص أنفسهم يتنقّلون بين المواقع المُختلفة إعلاميّة، نضاليّة وسياسيّة بما فيها مقاعد حزب الله في البرلمان اللبناني.

---

(١٠٥) دققت الباحثة المعلومات مع نايف كريّم وناصر أخضر في لقائين مُنفصلين، بيروت، ٢٠١٠.

(١٠٦) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

كريّم، مُهندسٌ تخرّج من الأردن ثُمّ تابع دوراتٍ في الإدارة والإعلام في أكثر من بلد. عام ٢٠٠١، استقال من المنار وعمل في تلفزيون دُبي كمُعدٍّ للبرامج السياسيّة. أمّا محمد حيدر، فهو طيّارٌ سابق عمل أيضاً في التجارة. وقد تابع هؤلاء جميعاً دراساتهم في لبنان، العراق وسوريا، كما إن بعضاً منهم تابع دراسات عليا في الخارج، وبخاصة في فرنسا. على عكس ما يدّعيه بعض الباحثين الغربيّين من أنّ هؤلاء هُم خرّيجو الحوزات في النجف أو في قمّ؛ ففي فريق القناة لعام ٢٠٠٣، مثلاً لم يكُن الفريق يضُم إلا ثلاثة من خرّيجي الحوزات وكانوا يُديرون البرامج الدينيّة[١٠٧]. وربّما يأتي هذا الخلط لدى الصحافيين الأجانب من أنّ جميع العاملين يُنادَون داخل القناة بـ «الحاجّ»، ولا يُميّز الأجانب كثيراً بين هذه الصفة وصفة الشيخ وحتّى أحياناً صفة السيّد.

يتشكّل هيكل القناة من أربعةِ أقسام: الأخبار، البرامج السياسيّة، البرامج والقسم التقني واللوجيستي؛ في البداية كانت البرامج كلّها تتبع لقسم واحد، ومع انتقال القناة إلى البثّ الفضائي عام ٢٠٠٠، توزّع هذا القسم إلى ثلاثة: برامج المُقاومة، البرامج الدينيّة والمُنوّعات. بعد عام ٢٠٠٣، قُسِم قسم المُنوّعات إلى ستّةِ أقسام لكُلّ منها رئيسها: البرامج الاجتماعيّة وبرامج التسلية، البرامج الرياضيّة، برامج الأطفال والشباب، البرامج الثقافيّة والدينيّة، البرامج اللبنانيّة والأجنبيّة وأخيراً إدارة المخرجين[١٠٨]. يُضافُ إلى ذلك مُنذُ عام ٢٠٠٤، جهاز الموقع الإلكتروني «الذي يعمل فيه عشرةُ أشخاص والذي اكتسب أهمّيّةً واهتماماً كبيرين من قبل الإدارة مُنذُ حظرِ بثّ القناة في أكثر من بلدٍ غربيّ»[١٠٩].

---

(١٠٧) حوار شخصي مع نايف كريّم، دبي، ٢٠٠٧.

(١٠٨) مقابلات شخصيّة مع نايف كريّم، دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧، وبيروت أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩ ـ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠.

(١٠٩) Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah».

الفصل الثالث

الصحافيون العاملون وتوزيعهم

أولاً: الأعداد، الصحافيّون والمراسلون

«يكمن مِفتاح نجاح الجزيرة في الحُريّة المُعطاة لصحافيّيها، الذين يتمتّعون بكفاءةٍ مهنيّة عالية» يقول حمد بن تامر رئيس مجلس إدارة الجزيرة[١]. كما يؤكّدُ كتابٌ صادر عن القناة أنّ «أهميّة شبكة المراسلين والمكاتب لا تكمن في انتشارها الجغرافي بل في الكفاءة العالية للعاملين فيها... خاصّة المراسلين الذين دفع البعض منهم حياته ثمناً للحصريّة والحقيقة»[٢].

كذلك يُفسّر محمد بن رشاد، الذي كُلّف بتشكيل فريق تلفزيون أبو ظبي، نجاح قناة أبو ظبي «بفضل اهتمامها اليومي بتقديم تشخيصٍ واضحٍ وموضوعيٍ للمشاهد... تؤمّنُهُ شبكةٌ توزّعت في كُلّ مراكز الأحداث في العالم... وكفاءاتٌ كبيرة تُشجّعُها الرواتب السخيّة والتوجّه الوطني الذي تتبنّاه القناة، وتجربة الجزيرة التي أعادت الثقة بالإعلام العربي»[٣]. يقول أحد مسؤولي المنار: «ليس صحفيّو المنار مُجرّد صحافيّين، إنّهُم مُناضلون

---

(١) Abdallah Schleifer and Sarah Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani,» *TBS Journal*, no. 7 (Fall-Winter 2001), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall01/Jazeera_chairman.html>.

(٢) «شبكة الجزيرة: القنوات والخدمات،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ط ٢ (الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٧)، ص ٢٤٣.

(٣) Sarah Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television,» *TBS Journal*, no. 8 (Spring-Summer 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Spring02/dourrachad.html>.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

يتوقّعون أن يعملوا في الظروف الأكثر قسوةً وخُطورة كما يحرصون على تحصيل أفضل الكفاءات المهنيّة القادرة على اجتذاب الجمهور».

هكذا يُركّزُ مسؤولو المحطّات ومثلُهُم خُبراء عرب وأجانب على مسألة الكفاءة المهنيّة لفريق العاملين من دون أن يهملوا العناصر الأخرى.

لذا لا بُدّ من قراءةٍ تفصيليّة لتركيبة فريق كُلّ من المحطّات المعنيّة، قراءةٍ تعتمدُ عدّة معايير؛ ففي فضاءٍ يُشكّلُ في الوقت ذاته وِحدةً وتنوّعاً لا بُدّ للباحث من أن يتبيّن خُيوط هذه التركيبة في تركيبةِ الفريق العامل. عددهم في المكاتب المركزيّة وفي الخارج. كيف يتوزّعون بحسب جنسيّاتهم، انتماءاتهم، ثقافتهم وجنسهم.

الجدول الرقم (٣ ـ ١)

جدول توزيع الموظفين (الفترة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤)

المنار	أبو ظبي		العربيّة		الجزيرة	كوادر فنيّة
	قناة أبو ظبي	إمارات ميديا	قناة العربيّة	مجموعة إم بي سي		
٣٠٠ - ٣٥٠	٢٢٠	١٨٠٠		١٢٠٠	٥٠٠	موظف
٣٠ ـ ٤٠	٤٥		٧٠		١٢٠	صحافي
١٣	٢٥		٣٥		٧٥	مراسل

المصدر: جدول أعدّته الباحثة بحسب قوائم الموظّفين التي حصلت عليها من أرشيف الفضائيّات الخليجيّة الثلاث وبحسب الأرقام الجاهزة التي حصلت عليها من المنار.

يعكس عدد العاملين في كُلّ قناة إرادة تشكيل فريقٍ قادر على كسب رهان النجاح والمنافسة. وقد تأثّر تطوّر تشكيل كُلّ فريق بثلاثة عوامل: نجاح الإعلام الفضائي لدى الجمهور؛ تسارع الأحداث المفصليّة في العالم العربي والدولي؛ أخيراً المنافسة الشديدة بين المحطّات، وبخاصّة الإخباريّة، في ما يعكس سباقاً مهنيّاً ولكنّه يعكس أيضاً مُنافساتٍ سياسيّةً عميقة. بدأت الجزيرة بـ ١٤٠ مُوظّفاً، ارتفع العدد إلى خمسمائة، لتصل بعد ثماني سنوات من إنشائها إلى ١٤٠٠ مُوظّف. كذلك شهدت الرواتب ارتفاعاً ملحوظاً، وبخاصّة مع إنشاء فضائيّة أبو ظبي التي رفعت سُلّم الرواتب بشكلٍ ظاهر، ما فسّر انتقال عدد من صحافيّي الجزيرة إليها، بحيثُ يقول محمد ذو الرشاد «خلالَ

ستّة أشهُر استطعنا أن نستقطب ٢٢٠ صحفيّاً، مُخرجاً، وفنيّاً، فريقاً مُكلّفاً بالأخبار ولكنّه يخدم تلفزيون أبو ظبي بشكلٍ عام»[٤] مع إنشاء العربية تكرّرت الظاهرة نفسها، أمّا الفارق في عدد أعضاء الفريق فيعود إلى أنّ أبو ظبي والعربيّة هُما فرعان من باقات، وهكذا تُفيدُ الأولى من كُلّ العاملين في إمارات ميديا والثانية من الـ إم بي سي.

في المنار تختلفُ المُعادلة، الموظّفون هُم مُناضلون، يعملون بشكلٍ مُختلف وبرواتب لا علاقة لها بمُنافسات السوق. التمويل محدود ليس بالمُقارنة مع دول الخليج فحسب، بل مع محطّات المنوّعات اللبنانيّة، والعائدات الإعلانيّة محدودة أيضاً لكنّ الدوافع والمُحرّضات مُختلفة وتُعوّضُ كُلّ ذلك. هذا إضافةً إلى عامل آخر وهُو أنّ دواعي الأمن تفرضُ عدم توسيع الدائرة.

ثانياً: المكاتب في الخارج

تولي الجزيرة، أبو ظبي والعربيّة أهمّيّة كبرى لشبكة المكاتب الخارجيّة «في واشنطن، نيويورك، باريس ولندن، وبالتأكيد في مناطق الصراعات: أفغانستان، كابول، قندهار، فلسطين (القدس، غزّة ورام الله)، العراق، وكُلّ الشرق الأوسط، خاصّةً القاهرة، بيروت، المغرب، الجزائر، السودان، سوريا، دول الخليج وتركيا. إضافةً إلى مُراسلين مُتنقّلين جاهزين للتحرّك إلى أيّة نُقطةٍ ساخنة»[٥]. أمّا مُراسلو المنار في الخارج فعددُهُم ١٣ في مُدُنٍ مُحدّدة وليس هُناك مكاتب. مكاتب الفضائيّات الثلاث الأولى، سنتناولها وفق ترتيبٍ يعتمدُ معيار المساحة التي تشغلُها في الأخبار وعلى جدول البرامج. مساحةٌ تعود إلى الدور السياسي للعاصمة المعنيّة وإلى موقعها في الأحداث الجارية، كما إلى كون بعض هذه المكاتب تُقدّم برامج حواريّة إضافة إلى البرامج الإخباريّة.

١ ـ في واشنطن

من واشنطن احتلّت أسماءٌ كـ حافظ الميرازي في الجزيرة، عبد الرحيم

(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

فقرا في أبو ظبي، هشام ملحم في العربيّة موقعاً رئيساً في النشرات والبرامج الإخباريّة، وبخاصّةً مُنذ أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، ففي العاصمة الأمريكية تُعالَج الملفات الأكثر دقّةً: العراق، أفغانستان، الصراع العربي الإسرائيلي والإصلاحات في العالم العربي.

الميرازي، مُدير مكتب الجزيرة حتّى عام ٢٠٠٤، مصريٌّ يحمل الجنسيّة الأمريكية، بدأ مسيرته في صوت العرب، ثُمّ في الإذاعة التونسيّة. بعد أحداث ١٩٧٧، في مصر هاجر إلى الولايات المتّحدة وعمل في إذاعة صوت أمريكا باللغة العربيّة، ثُمّ مراسلاً لـ بي بي سي قبل أن يلتحق بالجزيرة. عام ٢٠٠٣، كان المرشّح الأوفر حظّاً لإدارةِ الجزيرة، ومن ثُمّ استقال بعد خلافاتٍ مع المدير الجديد وضّاح خنفر. والواقع أنّ الخلاف بين الرجلين يُترجم الصراع بين خطّين: الإسلامي والليبرالي.

إضافةً إلى ميزاته المهنيّة كانت للميرازي ميزاتٌ أخرى في عين الجزيرة: فهو يحمل الجنسيّة الأمريكية ويُقيمُ علاقاتٍ واسعة مع المسؤولين في واشنطن، كما إنّه على خلافٍ مع الأمير بندر بن سلطان السفير السعودي في الولايات المتّحدة ومُعارضٌ للنظام المصري. عرفت العلاقة بين الجزيرة والإدارة الأمريكية في عهده ثلاث مراحل:

في الأولى كان الأمريكيون راضين جدّاً عنه وعن القناة، بخاصّةً في ما يخُصّ استضافة الإسرائيليّين، وفي أيّار/ مايو ٢٠٠١، خصّصت له قناة سي بي إس الأمريكية حلقةً من برنامجها (ستّون دقيقة).

مع أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر وحرب أفغانستان، طالبت وزيرة الخارجيّة الأمريكية كوندوليزا رايس رسميّاً من المحطّات الأمريكية عدم بثّ التقارير والأخبار التي تنقلها الجزيرة من كابول. طلب البيت الأبيض من الميرازي إجراء مُقابلةٍ مع الرئيس بوش ثُمّ عاد فألغاها بعد مُقابلة طوني بلير مع سامي حدّاد في ٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، والتي اعتُبرت فشلاً كبيراً لرئيس الوزراء البريطاني[٦]. واستُعيض عن ذلك بحواراتٍ أجراها الميرازي مع رايس، رامسفيلد، مايرز وباول.

---

(٦) محمد بابا ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها** (الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٨)، ص ١٠٩.

تكرّر الأمر نفسه مع حرب العراق، حيثُ خصّ كُلٌّ من رامسفيلد ورايس، الميرازي بمُقابلاتٍ حصريّة «كانوا بحاجة للوُصول إلى الجمهور العربي، وهذا ما جاء بهم إلى مكتبنا»[٧] يقولُ الميرازي الذي يوضح أنّ البنتاغون طلب أن يُجري المُقابلة مع رامسفيلد صحافيٌّ آخر غير الميرازي، ما كان يعني بداية عدم الرّضا عنه.

المرحلة الثالثة هي مرحلة الحرب على العراق، وقد أدّت إلى إقالة مُدير القناة محمد جاسم العلي، واستقالة حافظ الميرازي الذي خسر حربه للحلول مكانه. كان مكتب واشنطن يضُمّ كفاءاتٍ أخرى بارزة مثل المصريّة وجد وقفي، المغربيّ محمد العَلَمي الذي كان سابقاً بفضائيّة أبو ظبي مثله مثل المدير الجديد عبد الرحيم فُقرا، والصحافيين ثابت البرديسي (إسلامي) ونظام المهداوي (قومي - عربي) اللذين استقالا بضغط من الميرازي[٨].

كان مكتب تلفزيون أبو ظبي في واشنطن يضُمّ خمسة مُراسلين برئاسة عبد الرحيم فُقرا. ثُمّ تمّ تطوير المكتب بتقنيّاتٍ ومُوَظفين جُدد، غير أنّه عاد فخضع للتخفيض مع تخفيض الدور الإخباري للقناة عام ٢٠٠٤؛ فبعد هذا التحوّل قرّرت الإدارة صرف ما يزيدُ عن مائة مُوظّف من المُوظّفين والمُراسلين وإغلاق عددٍ من المكاتب في ما أسمته الصحافة «حملة تنظيف في تلفزيون إمارة أبو ظبي»[٩] بذريعة الحاجة إلى «خطّةِ طوارئ لتخفيض النفقات نتيجة أزمة ماليةٍ مُتفاقمة لعدّة أسبابٍ منها الفاتورةُ الضخمة التي دفعتها القناة لتأمين تغطية الحرب الأمريكية البريطانيّة على العراق»[١٠].

صحيحٌ أنّ القناة كانت تمر بأزمةٍ مالية بخاصةً مع تراجع العائدات الإعلانيّة نتيجة تخفيض الشركات، ولا سيما متعدّدة الجنسيّات، لميزانيّات الإعلان. ولكن هل كانت القناة يوماً تُغطّي تكاليفها؟ وهل تقصرُ سلطات أبو

---

(٧) انظر «حوار شخصي مع الميرازي»، في: المصدر نفسه، ص ١١١.

(٨) فيصل البارودي، «ماذا يحدث داخل الجزيرة وما أبعاد قرار تحويلها إلى شركة مساهمة؟،» **دنيا الوطن** (١ آذار/ مارس ٢٠٠٥)، <http://www.alwatanvoice.com/arabic/content-18036.html>.

(٩) Aissa Amourag, «La Chaîne de télévision Abu Dhabi se débat dans une crise financière, Vaste opération de licenciements,» *Maroc Hebdo International* (23 janvier 2004), p. 26, <http://www.maroc-hebdo.press.ma/Site-Maroc-hebdo/archive/Archives_589/pdf_589/mhi_589.pdf>.

(١٠) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

ظبي عن تمويلها كما يفعل السعوديّون والقطريّون مع العربيّة والجزيرة؟ هذا ما سنناقشه في الفصول اللاحقة.

أمّا العربيّة، فلها مكتبٌ نشيطٌ جداً في واشنطن تولّى إدارتهُ اللبناني هشام ملحم، وهو من مواليد ١٩٤٨. كان يُقدّم، إضافةً إلى عمله كمُدير، برنامج «عبر المُحيط»، حيثُ يستضيف فيه مسؤولين أمريكيين ويُثير قضايا تتعلق بالسياسة الأمريكية في العالم العربي وبقضايا الجالية العربيّة في الولايات المتّحدة. تُسجّل سيرته السياسيّة انتقالاً من أقصى اليسار إلى الليبراليّة الأمريكية، ما يُترجَم بانتقاله من جريدة **السفير**، معقل اليسار اللبناني، إلى جريدة **النهار** الناطقة باسم اليمين والمُقرّبة من السياسات الأمريكية. هذا المسار يربطه بالصحافي اللبناني من أصل فلسطيني، سمير قصير، الذي سلك المسيرة ذاتها حتّى مقتله في تفجير سيّارته في بيروت عام ٢٠٠٥. وكان قصير مُتزوجاً من المُذيعة في قناة العربيّة جيزيل خوري.

كان مُساعدُ مدير مكتب واشنطن بيار غانم، وهو أيضاً لبنانيٌّ مسيحي مُقرّبُ من الخط الأمريكي، حيثُ تلقّى تدريبه الإعلاميّ على يده. أمّا الشخصيّة الثالثة في مكتب واشنطن فكانت الصحافيّةُ الفلسطينيّة ناديا البلبيسي التي تحمل الجنسيّتين الأردنيّة والأمريكيّة.

شهد مكتب واشنطن خطوةً بارزة بتعيين عبد الله شليفر مُديراً له. حيثُ يتمتّع هذا الصحافي الأمريكي بكفاءةٍ مهنيّةٍ عالية وبخبرةِ ٣٥ سنة في العالم العربي. اسمه الأصلي مارك، بدّله إلى عبد الله مع اعتناقه الإسلام عام ١٩٦٤. تخصّص في الدراسات الإسلاميّة في جامعة بنسيلفينيا عام ١٩٥٦، وبعد ٢٤ سنة أي في عام ١٩٨٠، حصل على الماجستير في العلوم السياسية من الجامعة الأمريكية في بيروت.

بدأ حياته المهنيّة في العاصمة اللبنانيّة مُراسلاً لقناةِ إن بي سي الأمريكية. ثُمّ نُقل، للمهمّة ذاتها، إلى العربيّة السعوديّة، ثُمّ إلى القاهرة حيثُ عُيّن عام ١٩٧٠، مُديراً لمكتب هذه القناة في مصر قبل أن يُصبح مُديراً إقليمياً لمكاتبها في الشرق الأوسط. قابل مُعظم المسؤولين والسياسيين العرب، ويعترف بأنّه التقى أيمن الظواهري، الرجل الثاني في القاعدة، :«كان هو من جاء لزيارتي في الجامعة، قائلاً إنّني أهمّه كشُيوعيّ تحوّل إلى الإسلام. قدّرتُ أنّه قريبٌ من الإخوان المسلمين، لكنني لم أفكّر أبداً أنّه عُضوٌ في الخليّة السريّة لتنظيم

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

القاعدة مُنذُ كان عمره ١٦ سنة»[١١]. في عام ١٩٨٨ انتقل شليفر إلى سي إن إن الدوليّة، كمُمثّلٍ لها في القاهرة وعندها أنشأ، في الجامعة الأمريكية في القاهرة، مركز دراسات أدهم للأبحاث حول الإعلام العربي. مُتزوّجٌ من حفيدة الزعيم السوداني المهدي، التي كانت تُدير مكتب الأمم المُتّحدة لحماية اللاجئين.

٢ ـ في فلسطين

أ ـ الجزيرة

مكتب الجزيرة في فلسطين هو أقرب إلى وكالة إعلام كاملة وهو أول مكتب للجزيرة خارج قطر، حيثُ أُنشئ في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦، وكانت القناة لا تزال في مرحلتها الأولى. عمل وليد العُمري بمُفرده مُراسلاً لمُدّةِ سنتين ثُمّ انضمّت إليه شيرين أبو عاقلة عام ١٩٩٨، فـ جيفارا البُديري، ماجد عبد الهادي ووائل دحدوح، وفي عام ٢٠٠٠، وصل عدد العاملين في المكتب إلى ٥٠ شخصاً، ٧ صحافيين وسبع فرق تصوير مُوزّعين على ثلاثة مكاتب في رام الله، غزّة والقدس، يُديرها كُلها وليد العمري.

يحمل العمري، الجنسية الإسرائيليّة ويُتقن اللغة العبريّة، يحمل بكالوريوس في العلاقات العامّة من الجامعة العبريّة في القدس ودبلوم الدراسات المُعمّقة في الإعلام من جامعة رامات أبيب في تل أبيب. إضافة إلى عمله في الجزيرة، يُشرِف على دورات تدريبيّة في بير زيت ويُراسل إذاعتي ميلتي كوتي في برلين وإذاعة الشرق في باريس؛ في بداية عمله كانت فتح تتهمُه بالانحياز إلى حماس ثُمّ حصل العكس. وفي عام ٢٠٠٦، فسّر الخبير نبيل الدجاني، التوازن بين حماس وفتح في الجزيرة بانحياز العُمَري إلى فتح: «الجزيرة مُنحازة إلى حماس ولكن هُناك وليد العُمري في رام الله»»[١٢].

شيرين أبو عاقلة، هي من مواليد القدس عام ١٩٧١، تخرّجت في كليّة الإعلام من جامعة اليرموك في الأردن، بدأت حياتها العمليّة في مكتب الأمم المتحدّة لإغاثة وتشغيل اللاجئين ثُمّ في إذاعةِ فلسطين قبل أن تلتحق بالجزيرة. عُرفت شيرين، كزميلتها جيفارا البديري، بتغطياتها الجريئة مثل

---

(١١) «مدير العربيّة في واشنطن،» **الشرق الأوسط** (لندن)، ١٧/٩/٢٠٠٦.

(١٢) نبيل الدجاني، في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلميّة»، إعداد ربى عطيّة (٢٠٠٦).

تغطية عمليّة السور الواقي في نيسان/ أبريل ٢٠٠٢، والتي اجتاحت خلالها القوّات الإسرائيليّة المدن والقرى والمخيّمات في الضفّة الغربيّة «كنّا الثيرمومتر لكل ما يحصل على الأرض سواء بالنسبة إلى الجمهور الفلسطيني أو في الخارج... كانوا ينتظرون تعابير وُجوهنا كمؤشّرٍ على الوضع... كُنّا نُحاول أن نُخفي الألم، الخوف، الرعب الذي يجتاحُنا. كان ذلك صعباً لكنّه مُهمّ بالنسبة إلى تناغم شعبنا في هذه الفترات الصعبة»[١٣].

عن هذه الصعوبة يتحدّث العُمري عن تجربة العُبور إلى مدينتي نابلس وجنين الأكثر حصاراً من قبل قوّات الاحتلال: «اضطُررنا للمبيت في قُرى نائية بمنطقة جنين ونحن نُحاول التسلل إلى داخل المدينة ومخيّمها خلال معركة المخيّم في نيسان/أبريل ٢٠٠٢. تعرّضنا لإطلاق نار من قبل قنّاصة قوّات الاحتلال الذين كانوا يُحاصرون المُخيّم لكنّنا نجحنا في الدخول وكنت أول صحافيّ تمكن من التسلّل إلى داخل المخيّم بعد تسعة أيّام من بداية معركته برفقةِ المُصوّر نجيب الصفدي. تعرّضنا أيضاً لاعتداءاتٍ من قبل المُستوطنين أكثر من مرّة قرب مستوطنة أفراتا جنوب بيت لحم وعند مدخل حلحول شمال الخليل وأيضاً في مُستوطنة بيت إيل شرق رام الله»[١٤].

في المكتب لم يكن الأمر أسهل، تستذكر شيرين: كُنّا ننام في المكتب بطبيعة الحال، حيثُ خصّصت غرفة للفتيات... كُنّا دائما على أُهبة الاستعداد، حتى إننا كنا ننام بأحذيتنا خوفاً من اقتحام مُفاجئ ولا سيما أنّ جنود الاحتلال اقتحموا الكثير من المكاتب الإعلاميّة»[١٥]. «حوصرنا داخل المكتب في رام الله عدّة مرّات لدرجة أنّه في إحداها نفد الماء والطعام خلال الحصار الطويل على رام الله في نيسان/أبريل ٢٠٠٢، وأطلقت دبّابة إسرائيليّة النيران الرشّاشة علينا بينما كان أحد المُصوّرين يلتقط الصور من نافذة المطبخ في المكتب المُحاصر»[١٦].

---

(١٣) شيرين أبو عاقلة، «نساء تحت المجهر».

(١٤) مُقابلة مكتوبة مع وليد العمري بتاريخ ٢٩ آذار/ مارس ٢٠٠٥، في: ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها**، ص ٨٣.

(١٥) يوسف الشايب، «شيرين أبو عاقلة مراسلة الجزيرة في الضفة الغربيّة،» **الحياة** (لندن)، ٢٠٠٦/٦/٢٣.

(١٦) مُقابلة مكتوبة مع وليد العمري بتاريخ ٢٩ آذار/ مارس ٢٠٠٥، في: ولد أشفغ، المصدر نفسه، ص ٨٤.

غير أنّ التحدّي الأصعب يكمن في التوازن المطلوب بين المشاعر والمهنيّة خاصّةً في ظُروفٍ من مثل حِصار واقتحام مُخيّم جنين «كانت مرحلةً بالغة الصعوبة، كُنّا نعيش الحالة النفسيّة التي يعيشُها كُل الفلسطينيّين، لا أذكر أنّني عشت في حياتي فترةً أكثر إيلاماً... ولكن كان علينا أن نجد التوازن بين مشاعرنا ومهنيّتنا، قدر الإمكان»[١٧].

ب ـ أبو ظبي

يعترف مسؤولو قناة أبو ظبي بصُعوبة وأهميّة تغطية الأحداث في فلسطين: «بعد اشتعال العنف ضاعفنا حُضورنا وأيّدنا العمليّة في القدس، رام الله وغزّة حيثُ ضاعفنا عدد المراسلين، سواء الذين أرسلناهُم من هُنا أو الذين وظّفناهُم في الأراضي المُحتلّة وإسرائيل»[١٨] من بين هؤلاء كرّست الانتفاضة نُجوماً من مثل ليلى عودة وجاسم العزّاوي. حيث عُرفت **الأولى**، بالشحنة الانفعالية لتغطياتها، وبخاصّة اغتيال الطفل محمد الدرّة بين ذِراعي والده، **والثاني**، عندما نقلت الشاشات صورةَ الجنود الإسرائيليّين وهم يُبعدونه بالقوّة عن مكتبه. «بالرغم من ذلك ما زلنا مُصرّين على القيام بعملنا ـ صرّح محمد ذو الراشد ـ لقد فرضت إسرائيل تعتيماً على الأخبار وتُحاول أن تفرض رواياتها الخاصّة، تبتزّ وتُهدّد الصحافيّين. ليست إسرائيل في موقع يسمح لها بإعطاء النصائح... ما نقلناه لا يُشكّل إلا جزءاً صغيراً ممّا يجبُ أن نُغطّيه: أعمالٌ رهيبة وفظاعاتٌ يرتكبها الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين خاصّةً في جنين ونابلس... لقد اكتسبت تغطيتنا اهتمام المُشاهد العربي»[١٩].

ج ـ المنار

تقول أولفا لملموم إنّ «حدثين قويّين» قد وسما صُعود المنار: الانتفاضة في فلسطين وحرب ٢٠٠٦ في لبنان. الأول في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠، سرّع تحوّل المنار إلى فضائيّة، وبسبب غياب مُنافسةٍ من قبل التلفزيون الفلسطيني وصُعود حماس والجهاد، تمكّنت المنار بسرعة من اكتساب

---

(١٧) أبو عاقلة، «نساء تحت المجهر».

(١٨) Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television».

(١٩) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

مصداقيّة واقعيّة في الأراضي الفلسطينيّة خاصّةً وأنّها دعمت دون تحفُّظ الانتفاضة وراحت تبُثُّ فعاليّاتها خاصّةً أشرطة فيديو صوّرها مُتطوّعون هُواةٌ على الأرض. وبذلك ارتفعت نسبة مُشاهدتها»[٢٠] وكان عماد عيد هو المراسل الأبرز من غزّة.

د ـ العربيّة

دخلت العربيّة إلى الساحة عام ٢٠٠٣. إذاً، لم تعُد الانتفاضة في فلسطين هي مجالُ المنافسة فحسب، بلِ الاحتلالان الجديدان في العراق وأفغانستان، أمّا في فلسطين فإنّ ما يُشكّل الحدث هو وفاة الرئيس ياسر عرفات، والصراع بين حماس وفتح. وفي هذا لا تُداري القناة موقفها وكذلك مراسلها زياد حلبي من القدس الذي يعمل أيضاً مُراسلاً لراديو مونتي كارلو، وحنان المصري من غزّة.

٣ ـ في العراق

١٩٩١ ـ ٢٠٠٣، العراق هي الساحة التي تجتذب كُل صحافيّي العالم، إنّها الحرب التي ستُقرّر مصير الشرق الأوسط، بل والإمبراطوريّة الأمريكية والنظام العالمي.

تمتلك المحطّات الإخباريّة العربيّة ميزاتٍ ومُحرّضاتٍ خاصّة، إنّها حربها. هيّأت الجزيرة، أبو ظبي والعربيّة مكاتبها مُسبقاً، أمّا المنار، التي لا يسمح لها النظام البعثيّ بالوجود، فتمتلكُ ميزةً تتمثّل في حُضورها في إيران وفي صُفوف شيعة جنوب العراق.

نُجومٌ، ضحايا، قتلى أو مُعوّقون، ومُفاجآتٌ تخرج من المكاتب الثلاثة.

أ ـ الجزيرة

كانت الجزيرة أوّل من افتتح مكتباً في بغداد عام ١٩٩٧. مُديره فيصل الياسري، المدير السابق للتلفزيون العراقي وصاحب شركة إنتاج خاصّة،

(٢٠) Olfa Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah,» *Conuences Méditerranée,* no. 69 (avril 2009).

يعمل فريقٌ منها لصالح الجزيرة. تدينُ الجزيرة لهذا السبق بأوّل ظُهورٍ لشارتها على الشاشات العالميّة حيثُ كانت الوحيدة التي تُغطّي عمليّة ثعلب الصحراء في ١٦ ـ ١٧ كانون الأوّل/ديسمبر عام ١٩٩٨، لتحُلّ بذلك محل سي إن إن عام ١٩٩١؛ في عام ٢٠٠٣، كُلّف تيسير العلوني بإدارة المكتب الذي يضُمّ ٥٠ مُوظّفاً من بينهم المُصوّر طارق أيّوب الذي قُتل في غارةٍ أمريكية في ٨ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

بعد سُقوط بغداد، كلّفت الجزيرة وضّاح خنفر بإدارة المكتب الجديد الذي انتقل إلى عمارةٍ من ثلاثة طوابق بحيّ الكرّادة، ليُصبح أشبة بقناة تلفزيون صغيرة تتمتّع بأحدث التجهيزات. ارتفع عدد المُوظّفين إلى مئة، من بينهم ١٥ صحافياً و١٠ مُصوّرين مُوزّعين على كُل أنحاء البلاد، من أشهرهم الصحافيّة أطوار بهجت التي تميّزت بجُرأتها ومِهنيّتها، والتي انتقلت بعد سنتين إلى العربيّة، والمصوّر صلاح حسن خير الذي اعتقله الجيش الأمريكي وهُو يُصوّر انفجاراً في مدينة بعقوبة برفقة زميلٍ من وكالة الصحافة الفرنسيّة، أُطلق سراح الفرنسي واقتيد خير إلى سجن بعقوبة ثم إلى سجن تكريت قبل أن ينتهي إلى زنزانةٍ انفراديّة في سجن أبو غريب حيثُ سُجن وعُذّب لمُدّة ٤٨ يوماً، تعرّض خلالها لإهاناتٍ مُزرية وعذاب نفسي، إذ خضع للتجويع وخُلعت ملابسه مرّات أمام مُجنّدات أمريكيات، وأُكره مرّات عديدة على البقاء لمدّة طويلة في وضعيّاتٍ جسميّةٍ مؤلمة، أُطلق سراحه بعدها لعدم توافر الأدلّة[٢١]. أمّا المُصوّر الآخر رشيد والي، فقد قتله الجنود الأمريكيون في ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٤، وهو يُغطّي المُواجهات بينهُم وبين مُقاتلي التيار الصدري في كربلاء. في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤، قرّرت حكومة إياد علاوي، إقفال مكتب الجزيرة في بغداد ليُعاد فتحه بعد عدّة أشهُر.

ب ـ أبو ظبي

كانت أبو ظبي والجزيرة المحطّتين الوحيدتين اللتين امتلكتا مكتباً خارج وزارة الإعلام حتّى نهاية الحرب. وبوعيٍ ذكيّ للواقع حرِصت القناة الإماراتيّة على تعيين شاكر حامد مُديراً لمكتبها؛ فهو رجُل مهني، عُضو في حزب

(٢١) مقابلة مع صلاح حسن خير في بغداد بتاريخ ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤، في: ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها**، ص ٧٥.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

البعث وبالتالي يحظى بثقة السلطات العراقيّة، ما أمّن مُوافقة هذه الأخيرة على استقرار مكتب أبو ظبي في فيلا على شاطئ دجلة، كما سهّل الحُصول على المعلومات والأخبار والوصول إلى المسؤولين العراقيّين والتحرّك بحُرّية على الأرض. ضمّ المكتب فريقاً من ٣٠ مُوظّفاً، انضمّ إليهم المُذيع الإماراتي جابر عبيد.

وفي ٨ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، تعرّض مكتبها لإطلاق نار خلال معركةِ جسر الجمهوريّة، حيثُ كانت تُغطّي مُباشرةً خُروج دبّابتي أبرامس أمريكيتين من المُجمّع الرئاسي في بغداد لتتمركز على الجسر، لكنّ أيّاً من مُراسليها لم يُصب بأذىً؛ في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، انقطع الاتصال بين القناة ومكتبها في بغداد، واحتُجز ٢٧ صحافياً وتقنيّاً في المكتب طِوال الليل تحت نيران القوّات الأمريكية، غير أنّ وكالة الصحافة الفرنسيّة استطاعت الاتصال بِهم واستطاع المُراسل هشام بدوي أن يُوجّه نداءً للمُنظّمات الإنسانيّة والدوليّة: «نحنُ المدنيّون الوحيدون في مُحيط المكتب، الدبابات الأمريكية تحتل المنطقة بين وزارة الإعلام والسفارة الإيرانيّة، ولقد تحطّم زُجاج المكتب وجدرانه». هل كان ذلك من طبيعة الحرب أم أنّ الأمريكيين كانوا يُعاقبون فريق المكتب على تعاونه مع السلطات العراقيّة؟ تعاونٌ يُبرّره شاكر حامد بقوله: «كُنّا نحتاجُ لأن نبقى على الأرض، لئلّا نُطرد. وعندما كان وزيرٌ أو مسؤولٌ يأتي إلى المكتب ليجري مكالمة هاتفية كُنّا نتعاون معه... لكنّ ترتيباتنا هذه لم تؤثّر أبداً في عملنا الصحافي»[٢٢].

بعد الحرب، غادر شاكر حامد العراق مع عائلته إلى أبو ظبي، ويقول رئيس تحرير الأخبار مُراد شيبين: «بما أنّه كان معروفاً بقربه من نظام صدّام حسين، كان شاكر سيُواجه متاعب كبيرة لو بقي في بغداد... فهُناك عدّة وُجوهٍ من المعارضة العراقيّة تطلب رأسه، لذلك كان من الطبيعيّ أن تتكفله القناة، فلولاه لما حصلنا على تغطياتٍ حصريّة من مثل ظُهور صدّام حسين بين الجماهير في ٩ نيسان/ أبريل، أي بعد أن أصبحت بغداد تحت السيطرة الأمريكية»[٢٣].

---

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) محمد قدري حسن، «شاكر حامد، مراسل «قناة أبو ظبي» في بغداد: لم نسع لشريط صدام بل جاءنا إلى المكتب ودفعنا مقابله مبلغا من المال،» **الشرق الأوسط**، ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٣.

ابتداءً من الأوّل من أيّار/ مايو، عادت أبو ظبي تدريجيّاً إلى برامجها المُنوّعة. وأُرسل فريقٌ جديدٌ إلى بغداد ليُقدّم دوريّاً ثلاثة برامج إخباريّة مُباشرة.

ج ـ العربيّة

دخلت العربيّة الساحة العراقيّة كمُنافس قويّ سجّل سبقاً في التغطيات وفي سرعة النقل، بل إنّ البعض اعتبر أنّها تفوّقت على الجزيرة في المُدُن العراقيّة[٢٤] وذلك بفضل مكتبها في بغداد ومُراسليها في جنوب العراق.

ضمّ المكتب في بغداد ١٠ صحافيّين أبرزهُم العراقي صباح ناهي واللبنانيّة نجوى قاسم، وكلاهُما شيعيّان. كان ناهي نائب نقيب الصحافيين العراقيّين، وهو شخصيّةٌ إشكاليّة. أمّا نجوى قاسم فقد برزت كمُراسلة لتلفزيون المستقبل في أفغانستان عام ٢٠٠٢، وجاء انتقالها إلى العربية بترتيب بين القناتين نصّ على أن تُعطيها المُستقبل إجازةً لمدّة أشهر تقضيها في العربيّة، غير أنّها استمرّت في القناة. برزت جدّاً في تغطيتها للحرب في بغداد ورأيناها تنهضُ من أنقاض المكتب بعد قصفه مُصابةً بجرحٍ في يدها، على الرغم من ذلك، ظلّت ترفض دعوات الإدارة المُتكرّرة لها للعودة إلى أن هدّدها عبد الرحمن الراشد بعقوبات.

في الجنوب كان فريقٌ مؤلّف من وائل عوض، علي صفا وطلال المصري يُرافق القوّات البريطانيّة. أمّا وائل عصام (فلسطيني) فقد نجح في تغطية أحداث الفلّوجة ووُصِفت تقاريره بأنّها «تقطع الأنفاس»، غير أنّ الأمريكيين اعتقلوه إثرها وأبعدوه[٢٥]. أُصيب ١١ صحافياً وتقنيّاً من العربيّة بنيران القوّات الأمريكية، فمنهُم من جُرح ومنهم من قُتل مثل علي الخطيب وعلي عبد العزيز الذي جُرح ونُقل إلى الكويت حيثُ جُعل موضوع تغطية دعائيّة واسعة قبل أن يموت مُتأثراً بجرحه[٢٦]. الضجة الدعائيّة نفسها دارت حول قصف المكتب في بغداد الذي أُعيد تأسيسه بتجهيزاتٍ تقنيّة أكثر تطوّراً

---

(٢٤) محمد عوض المشيخي، «العربيّة في خدمةِ أيّةِ سياسة؟،» **مجلة مركز بحوث الرأي العام** (جامعة القاهرة) (٢٠٠٠).

(٢٥) Samantha M. Shapiro, «The War Inside the Arab News Room,» *New York Times*, 2/1/2005.

(٢٦) «العربيّة في العراق: الدم والمتاعب ثمن الحقيقة،» العربيّة نت (١٩ آذار/ مارس ٢٠٠٤)، <http://www.alarabiya.net/articles/2004/03/19/956.html>.

مع تعيين عبد الرحمن الراشد مديراً للقناة. وترافق هذا التجديد بتغيير مُتواصل للمُراسلين بسبب اعتراضاتهم على تغيّر سياسة القناة باتجاه الانحياز للاحتلال الأمريكي، حيثُ صُرف عبد القادر الكرّوبي أكثرُهم شُهرةً، ثُمّ ماجد حميد، ليحُلّ محلّه ديار العُمري ولم يلبث هو الأخير أن ذهب ليحُل محلّه جواد الحطّاب الذي كان يُعرفُ في السابق كشاعرٍ لا علاقة له بالصحافة.

د ـ المنار

بالنسبة إلى المنار تبدو المنافسة صعبةً في العراق. فلا سلطات بغداد ولا الأمريكيون يسمحون لفريقها بالعمل. الأمريكيون اصطحبوا معهم من يُريدون من الصحافيّين «لم يتّصلوا بنا ولو فعلوا لكُنّا سنرفضُ بالتأكيد»[٢٧]. يقول رئيس تحرير الأخبار في المنار حسن فضل الله. قُصورٌ عوّضته المنار بوُجود «مُراسليها في كُلّ العواصم المُهمّة في العالم وتلك المُحيطة بالعراق»[٢٨]، وعليه، كانت فرقُ عملٍ تنشط على الحدود الأردنيّة، السوريّة والإيرانيّة. ومن هذه الأخيرة استطاع فريق المنار أن يُصوّر حصريّاً معركة الفاو. مرّةً أخرى يلعب العامل الشيعي والعلاقة مع إيران لصالح القناة اللبنانيّة.

كما عوّضت القناة ذلك النقص بأسلوبٍ خاص في التغطية اعتمد على الإكثار من التحليل عبر استضافة خبراء عسكريّين وسياسيّين، بينما تمُرّ أخبار الحرب في الشريط أسفل الشاشة. أهو اضطرارٌ تقني أم أنّهُ تعبيرٌ مهني عن موقفٍ يُعادي الولايات المتّحدة ولكنّه في الوقت نفسه ضد صدّام حسين؟

غير أنّ دوراً خاصّاً كان ينتظر القناة في العراق. عندما ظهر الإمام مُقتدى الصدر على شاشتها مع عبارة «حصريّاً»، بعد أن أعلن أنّهُ ذراع حزب الله في العراق. ومنذئذٍ لم يتوقّف عن تخصيص القناة بمُقابلاته وتصريحاته، وتبعه في ذلك بعض القيادات الجديدة المُعارضة للوُجود الأمريكي.

كان أوّل مُراسل للمنار وصل إلى العراق هو عبد الله شمس الدين، وقد نشر كتاباً حول تجربته هذه.

(٢٧) حسن فضل الله، «سنعتمد على مصادر أخبارنا كأساسٍ للمصداقيّة والمنافسة،» **الأنوار** (بيروت) (١٧ آذار/ مارس ٢٠٠٣).

(٢٨) زينب ياغي، «المنار وتغطية الحرب،» **السفير**، ٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

٤ ـ في أفغانستان

أ ـ الجزيرة

كان مكتب أفغانستان هو الذي حوّل القناة من قناة إقليميّة إلى قناة دوليّة؛ ففي عام ١٩٩٩، ناقش المُدراء تطويرها بحيثُ تدخُل المُنافسة الدوليّة واعتبر البعض، وعلى رأسهم المدير محمّد جاسم العلي، أنّ ذلك يقتضي استشراف مواقع التوتّرات المقبلة وإنشاء مكاتب فيها، وكان يرى أنّ هذه المواقع هي أفغانستان والصومال[٢٩]. وبخاصة أنّ العوامل الثقافيّة، الجغرافيّة والدينيّة تقف في صالح الجزيرة بالنسبةِ إلى القنوات الغربيّة، «كانت سي إن إن قد رفضت عرضاً بفتح قناةٍ في كابول»[٣٠].

كُلّف مُراسل الجزيرة في اليمن بتغطية الصومال، فيما أُرسل تيسير علّوني إلى كابول. خيارٌ سيجعلُ من القناة مُنافسةً لـ سي إن إن ومن علّوني نجماً ثُمّ مُتّهماً في قفصِ محكمةٍ إسبانية.

من مواليد سوريا عام ١٩٥٥، مُعارض لنظامها في إطار تنظيم الإخوان المُسلمين. ذهب تيسير علّوني إلى إسبانيا عام ١٩٨٥، لتحضير دكتوراه في الاقتصاد، تزوّج من إسبانيّةٍ ـ جزائريّة إسلاميّة. حصل على الجنسيّة الإسبانيّة وعاش في غرناطة، حيثُ عمل في وكالة الصحافة الإسبانيّة، التي أوفدته، مُراسلاً، عدّة مرّات إلى أفغانستان، مُنذ عام ١٩٩٧.

عام ٢٠٠٠، وقبل ١١ أيلول/ سبتمبر بقليل، كلّفته الجزيرة بتأسيس مكتبها في كابول بميزانيّة تتراوح بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف دولار. «كان التصوير الذي هو أساس العمل التلفزيوني مُخاطرة حقيقيّة حيثُ يعتبر نظام طالبان التصوير مُحرّماً شرعاً، كان فريق المكتب يُصوّر انطلاقاً من سيّارةٍ مُظلّلة، وتعرّض لسيلٍ من المُضايقات انتهت في حالاتٍ عديدة إلى اعتقال علّوني»[٣١].

أوّل، تغطيةٍ حصريّةٍ، شكّلت خبطةً إعلاميّة، كانت تغطية الحملة التي قامت بها حركة طالبان لتحطيم تماثيل بوذا في باميان في شباط/ فبراير وآذار/

(٢٩) مقابلة شخصيّة مع محمد جاسم العلي في الدوحة، نيسان/ أبريل ٢٠٠٦.

(٣٠) ليبيراسيون، ١٧/ ٣/ ٢٠٠٥، نقلاً عن: ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها**، ص ٩٣.

(٣١) مقابلة مع محمد جاسم العلي، في: ولد أشفغ، المصدر نفسه، ص ٩٤.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

مارس ٢٠٠١. أمّا **الثانية**، فكانت تغطية اختطاف طالبان لـ ٢٤ شخصاً بينهم ٨ غربيّين كانوا يعملون في المنظّمةِ الألمانية غير الحُكومية (Shelter Now) التي اتُّهمت بنشر الدعوة للارتداد عن الإسلام والتبشير بالمسيحيّة. أمّا الحدث الأبرز الذي تفرّدت الجزيرة أيضاً بتغطيته، فهو الحرب في تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، والتي قابل خلالها شخصيّاتٍ من طالبان تكلّلت بمُقابلةٍ مع أسامة بن لادن نفسه في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر. يقول علّوني إنّ مُقاتلين من طالبان اقتادوه معصوب العينين بين الجبال من دون أن يوضحوا له من هو الشخص الذي سيُقابله. وأنّه فوجئ حين كُشفت عيناه بأنّه أمام زعيم القاعدة. كما يقول إن الأسئلة فُرضت عليه وإنّ المُصوّر كان أحد مُقاتلي طالبان[٣٢].

لم تبثّ الجزيرة المُقابلة. بل إن الـ سي إن إن هي من بثّ مقاطع منها في ٣١ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢، وكان على القناة القطريّة أن تنتظر سنتين حتّى عام ٢٠٠٤، لتبثّ كامل المُقابلة بعد أن أعلن كولن باول خلال النهار ذاته أنّ الجزيرة ستبثُّ «هذا المساء» شريطاً جديداً لبن لادن.

اتُّهمت الجزيرة بأنّها سلّمت الفيديو فور جهوزه إلى الـ سي آي إيه، التي مرّرت مقاطع منه للـ سي إن إن وانتظرت اللحظة المناسبة لتسمح للجزيرة ببثّه. اتّهامٌ تردُّ عليه القناة ردّاً غير مُقنع، إذ تقول إنّ امتناعها عن بثّه كان بسبب الظروف غير المهنيّة التي تمّت فيها المقابلة[٣٣] وتتهم القناة الأمريكية بأنّها حصلت على المقابلة بطريقة غير مشروعة، لتردّ سي إن إن بأنّ عقدها مع الجزيرة يمنحها حقّ بثّ جميع الأفلام والصور التي تمتلكها هذه الأخيرة[٣٤].

تتالت أشرطة الفيديو لـ بن لادن والظواهري لتتوالى معها الاتهامات: عُملاء للقاعدة أو للأمريكيين؟ ويردّ المسؤول: «أنا لا أعرف كيف تصلُ أشرطة الفيديو للأمريكيين، إنّهُم موجودون، ونحنُ نستعملُ وسائل معلوماتيّة مفتوحة لكُلّ العالم. الجزيرة لم تُسلّم أشرطة فيديو لأمريكيين»[٣٥].

---

(٣٢) تيسير علّوني، «تأملات في واقع تجربتي في أفغانستان،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ - ٢٠٠٦)**، ص ٨.

(٣٣) بيان أصدرته الجزيرة في ١ شباط/ فبراير ٢٠٠٢.

(٣٤) *Wall Street Journal*: 2/12/2002, and 4/12/2002.

(٣٥) مُقابلة مع وضّاح خنفر مدير عام الجزيرة، في: **الرأي** (عمّان)، ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٤.

في المقابل لم يكن علّوني مُرضياً للأمريكيين في تغطياته، فهُم يُريدون رواية «الحرب النظيفة»، «الحرب الجراحيّة» كتلك التي قدّموها خلال حرب ١٩٩١ على العراق. في حين أنّ علّوني كان يُبرز الضحايا المدنيّين، التدمير المُعمّم، خاصّة على الأحياء السكنيّة؛ في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، وبعد ساعتين من سُقوط المدينة ووُصولِ تحالُف الشمال، قُصف المكتب بأربعة صواريخ دمّرته تماماً.

مع تحالف الشمال، وصل صحافي آخر من صحافيي الجزيرة، كان يُغطّي الحرب من الشمال، حيثُ دخل أفغانستان من الهند، وضّاح خنفر الذي كُلّف بإنشاء مكتبٍ جديدٍ للقناة في حيّ جديد.

بعد عودته من كابول، أرسلت الجزيرة علّوني إلى بغداد ليُدير مكتبها ويُغطّي حرب ٢٠٠٣، تكرّرت القصّة حيثُ قصفت القوّات الأمريكية المكتب وكُلّف وضّاح خنفر بتأسيسه من جديد كما ذكرنا.

عاد علّوني إلى إسبانيا في إجازة لكنّ مُذكرة توقيفٍ كانت تنتظره. ووجّه له القاضي بلتزار غارسون، الذي عُرف بقضيّة الدكتور أوغيستو بينوشيه، الاتهام بالانتماء إلى مُنظّمةٍ إرهابيّة، وبنقل الأموال إلى هذه المُنظّمات خلال رحلاته الصحافيّة. أُطلق سراحه بكفالة ووُضع في الإقامة الجبريّة. أُعيد توقيفه في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤، وبعد ٦ أيّام تشكّلت لجنةً دوليّة لدعمه بمُبادرةٍ من عشر مُنظّمات حقوق إنسان وحريّة صحافيّين. كما وضعت الجزيرة كُلّ ماكينتها الإعلاميّة في خدمة الدفاع عن مراسلها، أو التسويق لنفسها: قوىً سياسيّة عامّة، مُنظّمات المُجتمع الدولي، خاصّة الإسلاميّون، كُلها تتحرّك لجعل القضيّة قضيّة رأيٍ عام. في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥، صدر الحُكم بسجن علّوني ستّ سنواتٍ وبغرامةِ ٥ يورو شهريّاً وحرمانه من حقّ التصويت خلال فترة الحكم. حيثُ أُدين بالتعاون مع مُنظّماتٍ إرهابية وبُرّئ من الانتماء إليها.

لقد جعل من الجزيرة قناةً عالميّة، وجعلته هي نجماً ومُتّهماً سجيناً بريئاً بالنسبة إلى البعض، ومُداناً بالنسبة إلى البعض الآخر.

ب ـ المنار

كانت حرب أفغانستان الفرصة الأولى للمنار لدخول ساحة المُنافسة

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الدوليّة، «هكذا ظهر لوغو المنار على شاشات التلفزيونات الغربيّة عندما نقلت وكالات الأنباء الدوليّة الصور المأساويّة للقتال بين طالبان وتحالف الشمال في منطقة باغلان»(٣٦). حيثُ أمكن رؤية هذه المعارك مُصوّرةً عن مسافة قريبةٍ جدّاً وبنمطٍ يشبه الأفلام التي اعتاد حزب الله أن يُوزّعها على وكالات الأنباء، والتي تُصوّر العمليّات التي يقومُ بها مُقاتلوه ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في الجزء المحتل مِن جنوب لبنان.

غير أنّ تساؤلاً أُثير حول الموضوع حيثُ إن المنار كانت قد أعلنت عن أنّ ثلاثةً من صحافيّيها يُغطّون الأحداث انطلاقاً من باكستان، وأنّها غير موجودة في كابول ولا في باغلان. وذاك ما فسّره نايف كريّم مُديرُ المنار لجريدة **الحياة** قائلاً إن «المنار حصلت على الفيلم المعني في إطار تعاون بينها وبين التلفزيون الإيراني. وعندما سُئل لماذا لم يبُث التلفزيون الإيراني الشريط بنفسه، أجاب نايف كريّم «لا شكّ أنّ إخوتنا هنا (في لبنان) هم أنشط»(٣٧).

٥ ـ في باريس

أ ـ الجزيرة

كان مكتب الجزيرة في باريس واحداً من أول مكاتبها في الخارج، حيثُ جاء الأمير بنفسه ليُشرف على إنشائه وكُلّف به الصحافي اللبناني ميشيل الكيك، حيثُ ظلّ مُديراً له حتّى عام ٢٠١٠، وكان مُكلفاً بتغطية مُعظم الأحداث الأوروبيّة مع وُجود مُراسلين لفتراتٍ قصيرة في بلجيكا، ألمانيا وموسكو. غير أنّ مكتب باريس لم يكُن يُقدّم برنامجاً حواريّاً كما كان الحال في مكاتب واشنطن، لندن وبيروت، وحتّى البرنامج الذي قُدّم لفترةٍ قصيرة بعنوان «من أوروبا»، فإنّه كان يُنفّذُ على يد صحافي مستقل لا علاقة له بالمكتب.

ب ـ المنار

القناة هي موضوع إشكالٍ كبير في العاصمة الفرنسيّة. لها مُراسلوها

(٣٦) وفيق قانصوه، «المُنافسة بين التلفزيونات العربيّة،» **الحياة**، ١٢/١٠/٢٠٠١.

(٣٧) المصدر نفسه.

ولكنّها تخضع لمُحاكمةٍ أدّت إلى منع استقبال بثّها، وعلى الرغم من ذلك ظلّ مُراسلها يُرسل تقاريرها.

ج ـ العربية

اختارت العربيّة حسين قنبر، المعروف باسم حسين فيّاض، لتأسيس وإدارة مكتبها في باريس. وهو شيعيّ لبناني من مواليد قضاء النبطيّة في الجنوب.

صحافي تكنوقراط بكل ما تعنيه الكلمة. يعمل أيضاً لصالح إذاعة الشرق التي يملكها رفيق الحريري في باريس. آلية العمل تربطه بالمكتب المركزي في دُبي عبر مسؤول المكاتب الخارجيّة بن شريف. أمّا حين يتعلّق الأمر بالقضايا السياسيّة الرئيسيّة فعليه الرجوع إلى نبيل الخطيب. لا يمتلكُ هامشاً كبيراً من الحريّة في عمله إلا بمقدار معرفته الجيّدة بما تُريده الإدارة في دُبي «أحرصُ على عدم إغضابهم لأنّني أعرف الحدود جيداً»(٣٨). وعلى سبيل المثال، المُقابلة التي أثارت أكبر قدر من الجدل هي مقابلة نائب الرئيس السوري، المُنشقّ، عبد الحليم خدّام، حيثُ يوضح فيّاض: «بأنّه لم يكن من المسموح له بأن يُغيّر كلمة في الأسئلة التي وردته من دبي»(٣٩).

٦ ـ في بيروت

تُعتبر بيروت عاصمةً رئيسة للأحداث التي تُهمّ المنطقة والعالم، فطالما كانت كذلك لأسبابٍ كثيرة، جاء تحرير جنوب لبنان وبروز المُقاومة ليُفعّلها أكثر. كانت تغطية هذا التحرير فرصةً للمنار ليُعاد بثُّ تغطياتها على مُعظم القنوات العربيّة وأصبح علي شُعيب، فاطمة عواضة ومنار عسّاف نجوماً، إذ كانوا أول المُذيعين العائدين إلى الجنوب والذين غطّوا عودة اللبنانيّين إلى قُراهم.

ـ الجزيرة

للمحطّات الأخرى مراسلوها أو مكاتبها في بيروت حيثُ يُعتبر مكتب الجزيرة الأنشط، بإدارة غسّان بن جدّو (حتّى عام ٢٠١١)، الذي كان يُقدّم

(٣٨) لقاء شخصي مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/مايو ٢٠٠٧.

(٣٩) لقاء شخصي في باريس، نيسان/أبريل ٢٠٠٧.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

أيضاً البرنامج الحواري «حوار مفتوح»[٤٠]. عرف كيف يُحافظ على التوازن بين مُختلف التيارات السياسيّة في لبنان. يضُمّ المكتب فريقاً من الصحافيّين الشباب الكفوئين والنشيطين: عبّاس ناصر شيعي بدأ حياته العمليّة في المنار (استقال عام ٢٠١٠). بشرى عبد الصمد درزيّة تنتمي إلى بيتٍ شيوعي ومُتزوّجة من مسيحيّ ينتمي إلى أسرة بعثيّة. سلام خضر وغسّان رفاعي سُنيّان، وكاتيا ناصر مسيحيّة.

يبدو مكتب لبنان إلى جانب مكتب فلسطين الأكثر نشاطاً، ذاك أنّ لبنان يُشكّل، مُنذُ إنشاء الفضائيّات، ساحة أحداثٍ ساخنة مُتعاقبة، إضافةً إلى أنّ حُريّة العمل الصحافيّ فيه تترك للعاملين مجالاً كبيراً للحركة، كما تضعهم أمام تحدياتٍ كبيرةٍ في المنافسة.

٧ ـ في إيران، تركيا، القاهرة

أكثر فأكثر تحتلُ إيران ثُمّ تركيا مكانةً في الحراك السياسي في الشرق الأوسط، ولذلك تملكُ كُلٌّ من المحطّات المعنيّة مُراسلاً في عاصمتها، أمّا في القاهرة، فبالرغم من أنّ الجميع موجود، إلا أنّ مكتب الجزيرة يتميّز عن سواه على الرغم من العدائيّةِ التي كانت تسم علاقة القناة بنظام حسني مُبارك. كذلك نجد مراسلين في مُعظم العواصم العربيّة ومُراسلين أو مبعوثاً خاصاً في سائر مناطق آسيا وأفريقيا بحسب الأحداث واستراتيجية القناة.

ثالثاً: من أيّة دول عربيّة جاء العاملون في الفضائيّات؟

لسنواتٍ طويلةٍ ظلّ اللبنانيّون والمصريّون يتقاسمون، بشكلٍ عام، الساحة الإعلاميّة، ومنها السمعيّة ـ البصريّة في المشرق العربي. أمّا الفلسطينيّون، فقد شاركوا فيها بفاعليّة منذ بداية القرن العشرين، إلا أنّ تشتُّتهُم المُتكرّر مُنذ إنشاء دولة الاحتلال جعلهُم يتوزّعون على مُختلف الدول العربيّة ويحملون جوازات سفرٍ عربيّة وأجنبيّة يُحتسبون وِفقها على جدول المُوَظّفين. غير أنّ العُنصر الجديد على ساحة الفضائيّات هو موجة المغاربة. يجد الباحثُ صعوبةً كبيرة في التصنيف وِفق القوائم التي يحصل عليها من إدارة المحطّات، ذاك

(٤٠) مع بداية الثورات العربية أوقف البرنامج نهائيّاً، كما أوقفت جميع البرامج الحواريّة على الجزيرة مؤقّتاً.

أنّ أغلب الصحافيّين العاملين فيها من سوريّين، عراقيّين، أردنيّين، ومغاربة يحملون جوازات سفر غربيّة. ويبدو أنّ المحطّات تُفضّل هؤلاء لعدّة أسباب، منها ما يرتبط بعقليّة سوق العمل الخليجيّ ومنها ما يعود إلى سُهولة الحركة والتأشيرات التي تُؤمّنها هذه الجوازات. لذلك فإنّ الباحث مضطرٌ إلى الاعتماد على المعرفة الشخصيّة.

الجدول الرقم (٣ ـ ٢)

توزيع الصحافيّين العاملين ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

(الأرقام بين هلالين بالنسبة المئوية)

المنار	أبو ظبي	العربية	الجزيرة	
١. لبنان (٩٥)	١. لبنان (٢١)	١. لبنان (٤٠)	١. فلسطين (١٨)	الجنسيات
٢. مصر (١)	٢. الإمارات (٢١)	٢. الأردن (١٣)	٢. لبنان (١٤)	
٣. فلسطين (٢)	٣. الأردن (١٨)	٣. فلسطين (١٠)	٣. الأردن (١٤)	
٤. العراق (٢)	٤. مصر (١٨)	٤. مصر (١٠)	٤. سورية (١٤)	
	٥. المغرب (١٢)	٥. سورية (١٠)	٥. تونس (١١)	
	٦. العراق (٩)	٦. العراق (٣)	٦. مصر (٧)	
		٧. الجزائر (٣)	٧. العراق (٣,٦)	
		٨. المغرب (٣)	٨. السودان (٣,٦)	
		٩. عُمان (٣)	٩. الجزائر (٣,٦)	
		١٠. السعودية (٣)	١٠. المغرب (٣,٦)	
			١١. السعودية (٣,٦)	
			١٢. قطر (٣,٦)	

المصدر: جدول أعدّته الباحثة بحسب قوائم الموظّفين التي حصلت عليها من أرشيف الفضائيّات الخليجيّة الثلاث، وبحسب الأرقام الجاهزة التي حصلت عليها من المنار.

اللَّبننة والمَغربة، مُصطلحان أصبحا شائعين في أوساط العاملين والباحثين. ذاك أنّ المُنافسة ساخنةٌ داخل المحطّات الخليجيّة بين المشارقة والمغاربة، بين اللبنانيّين والمصريّين والعراقيّين والسوريّين، وكأنّ العرب نقلوا حساسيّاتهم إلى هذا المُجتمع المُصغّر الذي يُغذّيها بعنصر المنفعة.

حتّى عام ٢٠٠٤، كانت وسائل الإعلام السعوديّة التي أعيد توطينها مُتّهَمةً بـ اللبننة (٤٠ بالمئة في العربيّة)؛ فيما كان اللبنانيّون يُشكّلون (٢١ بالمئة) في أبو ظبي و(١٤ بالمئة) في الجزيرة. وتتميّز القناة القطريّة بنسبةٍ (١٧ بالمئة) من الفلسطينيّين، وإذا أضفنا إليها نسبة (١٤ بالمئة) من الأردنيّين

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

التي تضُمّ في الواقع عدداً كبيراً من الفلسطينيّين، وصلنا إلى نسبةٍ مُرتفعة؛ في قناة أبو ظبي نجد (١٨ بالمئة) من الأردنيّين بحسب الجوازات، والفلسطينيّين من ضمنهم. في العربيّة يُشكّل الفلسطينيّون (١٠ بالمئة) والأردنيّون (١٣ بالمئة). أمّا الحُضور المغاربيّ، فنلحظ أنّه بدأ في أبو ظبي قبل ٢٠٠٤ (١٢ بالمئة) وبعدها انتقل إلى قناة الجزيرة ليصبح (١٦ بالمئة). يُضاف إلى ذلك حُضورٌ سوري (١٤ بالمئة) في الجزيرة، (١٠ بالمئة) في العربيّة. العراقي (٩ بالمئة) أبو ظبي، (٣ بالمئة) في الجزيرة و(٣ بالمئة) في العربيّة. أمّا المصريّون فيُشكّلون (٧ بالمئة) في الجزيرة، (١٠ بالمئة) في العربية و(١٨ بالمئة) في أبو ظبي[٤١].

١ ـ الجزيرة: لا توازن بين الجنسيات العربية، بل توازن بين الاتجاهات السياسية القائمة باستثناء اليسار

حتّى عام ٢٠٠٢، لم يكُن هُناك أيّ لبنانيّ بين الوجوه الرئيسة في قناة الجزيرة، لا من مُذيعين أو إداريّين أو رؤساء تحرير. برامج الحوار الرئيسة التي كانت تُميّز القناة مُوزّعة على أربعة: سوري، مصري، أردني وتونسي. أمّا إدارة التحرير فيتبادلها فلسطينيّون ومصريّون. مُذيعتان لبنانيّتان فقط بين مُذيعات الأخبار. في عام ٢٠٠٢، ظهر الصحافي اللبناني سامي كُليب، في برنامج «زيارة خاصّة» ولكن عبر شركة إنتاج في دبي (لم ينضم إلى فريق الجزيرة إلا عام ٢٠١٠، واستقال منها عام ٢٠١١). يعود ضعف الحضور هذا إلى عاملين: مهني وسياسي، المرجعيّة الأنغلوفونيّة لفريق الـ بي بي سي وطبيعة القناة الإخباريّة، حيثُ إنّ الصحافيّين اللبنانيين هم فرانكوفونيون،، ومن جهة ثانية يتوزّعون على مُعسكراتٍ سياسيّة معروفة: السنة وغالبيّتهم مرتبط بالعربيّة السعوديّة، والشيعة المرتبطون بإيران، والمسيحيّون واليسار، تيّاراتٌ أربعة لا تناسب سياسات الجزيرة.

لا ينفصل الحضور الفلسطيني الكثيف في الجزيرة عنه في قطر، حيثُ تُشكّل الجالية الفلسطينيّة أغلبيّةً عربيّة تُمسك بمفاتيح الإدارة في البلاد مُنذُ فترةٍ طويلة. كان من قدّم أوّل نشرة أخبار عام ١٩٩٦، إلهام بدر السادة، من

(٤١) بعد حرب ٢٠٠٦، شهد الإعلام الخليجي تخفيضاً في عدد العاملين اللبنانيّين، وامتدّ عامي ٢٠١٠ و٢٠١١، إلى السوريّين مُقابل نُموّ للحُضور المغاربي.

أبٍ قطري وأمّ فلسطينيّة؛ وجمال ريّان فلسطينيّ يحمل الجنسيّة الأردنيّة؛ وكلاهُما من خريجي الجامعة الأردنيّة. والريّان من قُدماء الـ بي بي سي وعمل قبلها في الإذاعتين الأردنيّة والكوريّة.

اختيار المصريّين يرتبط من جهة بالعلاقة الوثيقة مع إسلاميّي هذا البلد وحُضور الشيخ القرضاوي، ما يُفسّر، جُزئيّاً، السياسة الهجوميّة التي كانت تتّبِعُها القناة إزاء نظام حسني مبارك.

أمّا بالنسبة إلى التيّارات السياسيّة القائمة في العالم العربي، فقد كانت الجزيرة، خلال المرحلة التي تتناولها دراستنا، تحرصُ على التوازن بين التيّارات الأربعة: السّني الإسلامي، القومي، الليبرالي والمُقرّب من إيران، أما اليسار فلا مكان له. توازنٌ يُترجمُ باختيار أصحاب البرامج الحواريّة الرئيسة في القناة: سامي حدّاد، فيصل القاسم، أحمد منصور وغسّان بن جدّو.

أ ـ سامي حدّاد؛ مُقدّم برنامج «أكثر من رأي»، هو مسيحيّ أردني يحمل الجنسيّة البريطانيّة، عمل ٦٢ عاماً في الـ بي بي سي، حيثُ كان أوّل من قدّم نشرة أخبار باللغة العربيّة عام ١٩٤٤. برنامجه هو الأكثر استضافةً للإسرائيليّين بين برامج القناة، ويُقدّمه من لندن.

ب ـ فيصل القاسم؛ مقدّم برنامج «الاتجاه المُعاكس»، هو درزيّ سوري يحمل الجنسيّة البريطانيّة، حائزٌ على دكتوراه في الأدب الإنكليزي من جامعة يبل حول موضوع تحطيم الأيقونات. عمل في بي بي سي، الإذاعة ثُمّ التلفزيون، ثُمّ مُراسلاً لـ **الفايننشال تايمز** في الإمارات، قبل أن يلتحق بالجزيرة. يُقدّر عدد مُشاهدي برنامجهِ بـ ٤٠ مليوناً. كان يُحسب على التيّار القومي واتُّهم بالدفاع عن نظام صدّام حُسين، كما كان يرفض استقبال الإسرائيليّين في برنامجه، غير أنّه عرف كيف يُكيّف خطابهُ مع تحوّلات القناة بعد عام ٢٠٠٤. (كما عرف كيف يكيّفه نهائيّاً مع الثورات العربيّة، حيث أوقف برنامجه لفترة ثُمّ أُعيد مع بدء أحداث سوريا وبنبرة عدائيّة حادّة).

ج ـ أحمد منصور؛ مُقدّم برنامجي «بلا حُدود» و«شاهد على العصر». مصريٌّ ينتمي إلى الإخوان المُسلمين، كان يُدير مجلّته في الكويت قبل التحاقه بالجزيرة، حيث كانت زاويته تحمل عنوان «بلا حُدود». وعلى الرغم من أنّه ليس مُراسلاً فقد تطوّع لتغطية أحداث في باكستان، في البوسنة وفي الفلّوجة.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

د ـ غسّان بن جدّو؛ مُقدّم برنامج «حوار مفتوح»، من أبٍ تونسيٍّ سنّي وأم لبنانيّة مسيحيّة ومُتزوّج من إيرانيّةٍ شيعيّة. بدأ حياته المهنيّة في طهران وظلّ مُقرّباً من خطّها السياسي. (استقال من الجزيرة عام ٢٠١٠، وأسّس قناة الميادين).

أمّا المُذيعون الآخرون الذين يُقدّمون النشرة ويُجرون مُقابلات ويُديرون أحياناً حوارات، فهُم مُوزّعون على جنسيّاتٍ مُختلفة. أبرزهم جميل عازر، الذي وضع شعار الجزيرة «الرأي والرأي الآخر»، وهو من مُحرّري النشرة الإخباريّة، إضافةً إلى أنّه المُشرف اللغوي العام على البرامج. مسيحيٌّ أردني يحمل الجنسيّة البريطانيّة، تعودُ تجربته في الـ بي بي سي إلى عام ١٩٦٥، ومنذئذٍ عمل مُذيعاً، مُترجماً، مُحرّراً بالعربيّة والإنكليزيّة، مُساعد رئيس تحرير، رئيس تحرير، مُخرجاً أوّل، مُنتجاً، ومُقدّماً للبرنامجين الشهيرين «السياسة بين السائل والمُجيب» و«الشؤون العربيّة في السياسة البريطانيّة»، وهو عُضوٌ في المعهد البريطاني للغويّين.

أبرز المغاربة محمد كريشان، التونسي الذي عمل في إذاعات تونس، مونت كارلو، هولندا، قبل أن يُصبح مُراسلاً لـ إم بي سي، ثُمّ مُذيعاً في بي بي سي العربيّة؛ في الجزيرة يُقدّم النشرة الإخباريّة، كما يُساهم في عديدٍ من البرامج الأخرى: «ضيف وقضيّة»، «تحت الحصار»، «أولى حروب القرن» و«عراق ما بعد الحرب».

أمّا المُذيعات فسنتناولهنّ في فصلٍ خاص.

٢ ـ أبو ظبي: غالبية لبنانية وبداية الحضور المغاربي

في قناة أبو ظبي نجدُ توازناً بين اللبنانيّين والإماراتيّين (٢١ بالمئة)، بين المصريّين والأردنيّين (١٨ بالمئة). وهذا ما يبدو منطقيّاً بالنظر إلى تاريخ العلاقات بين الصحافة اللبنانيّة والمصريّة، الإمارات، خاصّةً إمارة أبو ظبي.

أمّا العنصران الجديدان فهما الحضور القوي للمغاربة والعراقيّين. وبذا لم تعد المنافسة مُقتصرة على ما بين المشرقيّين، بل امتدّت إلى مُعادلة مشرق ـ مغرب. مُنافسةٌ وفّرتها المحطات الخليجيّة في حينٍ أنّها مُستحيلة في مصر أو العراق أو بلاد الشام، كونها جميعاً مُصدّرة للكفاءات الإعلاميّة. وفي حين أنّ المنطق القومي أو الإسلامي يخلق ترحيباً بالوافدين الجُدُد، فإن ذلك

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

لم يمنع الحساسيّات؛ فعلى سبيل المثال، حين صرفت قناة أبو ظبي عام ٢٠٠٤، ما يزيدُ على مئةٍ من مُوظّفيها ينتمون إلى مُختلف الجنسيات العربية، من بينهم رئيس تحرير الأخبار (فلسطيني)، المدير المُساعد (إماراتي)، ومُقدّمي البرامج الحواريّة الرئيسيّة الثلاثة (عراقيّان وإماراتي)، وجدنا «الأوساط الإعلاميّة المغربية «تُهاجم القرار وتُقدّمه على أنّهُ عُقوبةٌ اتّخِذت بحق إعلاميّين مغربيّين هما محمد العلمي ورشيد جعفر. «لقد أثار صرفهما ردّات فعلٍ حادّة لأنّه لا يطال مُوظّفاً بسيطاً بل صحافيّاً قديماً أمضى مُعظم حياته المهنيّة في هذه القناة العربيّة»[٤٢].

صحيحٌ أنّ الإعلاميّين المغاربة القادمين يُشكّلون كفاءاتٍ عالية، لكنّ ذلك لا يُفسّر وحدهُ كثافة استقدامِهم؛ فثمّة سببٌ سياسيّ يُعزّز ذلك: المغرب العربي لا يضُمُّ إلا السنّة، والمالكيّينَ حصراً، ما يجعلُ من إعلاميّيه مهيّأين نفسيّاً ضدّ إيران والشيعة بشكلٍ عام، وبخاصة بعد حرب العراق. ولعلّ هذا ما يُفسّر كون قناة أبو ظبي هي أوّل من استقدمهُم بكثافة، كما يُفسّر ما تداولته الأوساط الإعلاميّة في التسعينيات حول توجيهاتٍ أمريكية بهذا الخُصوص، لذا تبعت الجزيرة أبو ظبي في فتحِ أبوابها لهُم بكثافة، في حين فعلت العربيّة ذلك بحذرٍ ناجمٍ عن حذرها من الإسلاميّين والقوميّين.

أماّ العراقيّون، فلا يتجاوز عددهُم ٩ بالمئة من العاملين في قناة أبو ظبي، لكنّها تظلّ نسبةً دالّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار غيابهم شبه الكامل عن الإعلام غير العراقي قبل عام ١٩٩١. لقد كانت الإمارات من أكثر الدول العربيّة التي فتحت أبوابها للعراقيّين خلال الحصار والحرب. غير أن الحضور العراقي لم يتميّز بالعدد بقدر ما تميّز بدور المُذيعين الزوجين ليلى الشيخلي وجاسم العزّاوي؛ حيث قدّمت ليلى ثلاثة برامج ناجحة إضافةً إلى دورها كمذيعة أخبار ومراسلة. كما عُرف جاسم كمُذيعٍ ومنتج لبرنامج مواجهة الذي شكّل مُعادلاً لبرنامج الاتجاه المُعاكس على الجزيرة. في عام ٢٠٠٣، وبعد احتلال العراق سطع نجمُهُ كمُراسلٍ للقناة في بغداد، وخاصة بعد البثّ الحي المؤثّر للقائه بأسرته هُناك.

(٤٢) Amourag, «La Chaîne de télévision Abu Dhabi se débat dans une crise financière, Vaste opération de licenciements».

٣ ـ العربيّة: لبننة ثُمّ تراجع عن اللبننة وتوازنات محسوبة

قال عبد الرحمن الراشد، إنّهُ كمُديرٍ للعربيّة قرّر تحقيق مُعادلةٍ مدروسة بين المسيحيّين والمُسلمين (٣٠/ ٧٠) وبين النساء والرجال (٤٠/ ٦٠)[٤٣]. أمّا بالنسبةِ إلى الجنسيّات، فتدلّ قائمة الموظّفين على أنّ اللبنانيّين كانوا يُشكّلون الأغلبيّة (٤٠ بالمئة)، يليهم الأردنيّون (١٣ بالمئة)؛ ثُمّ الفلسطينيّون (١٠ بالمئة)؛ المصريّون (١٠ بالمئة)؛ السّوريون (١٠ بالمئة). كذلك هُناك حُضور أجنبي خاصّة البريطاني ويليام ويسلي، المدير السابق لـ أورو نيوز الذي شارك في تأسيس العربيّة ثُمّ أدار شركة (Men) التي تُغذّي العربيّة بالأخبار والموارد البشريّة.

اللبنانيّون يتوزّعون على كُل المستويات: مدراء، رؤساء تحرير، مذيعون، مقدّمو برامج، محرّرون ومُخرجون، قسمٌ كبيرٌ منهم جاء من تلفزيون المستقبل مثل نجوى قاسم التي برزت كمراسلة حربيّة قبل أن تعود إلى القناة لتقدّم برنامجها السياسي، ريما مكتبي، ريما صالحة التي تُقدّم برنامج صناعة الموت، ونادين هاني التي تُقدّم البرنامج الاقتصادي. أو مثل مُراسل القناة في باريس حسين فيّاض، الذي جاء من إذاعة الشرق. أو آخرين جاؤوا من إم بي سي مثل نخلة الحاج وأخيه جورج الحاج، إيلي ناكوزي ومراسل القناة في واشنطن هشام ملحم ومساعده بيار غانم. أما جيزيل خوري، فجاءت من إل بي سي الدوليّة حيثُ كانت تُقدّم برنامجها الشهير «حوار العمر».

هل صحيح أن القناة «تعتمدُ معايير مهنيّة ولا تُميّزُ بين الأديان أو المذاهب أو الأفكار؟ أنّها تُمثّلُ كُل المجتمع، كُلّه حاضر»[٤٤] كما يقول مسؤولوها، أم أنّ هُناك معياراً أساسيّاً يتقدّمُ كلّ ما سواه؟ فالعربيّة قناةٌ سعوديّة أنشئت لأهدافٍ مُحدّدة، منها ما يتعلّق باحتلال العراق في إطار سياسة مُعسكر الاعتدال في العالم العربي. لذلك فإنّ الشرط الأوّل المطلوب من العاملين فيها أن ينتموا إلى هذا الخطّ، واللبنانيّون من مؤيّدي الحريري، سواء كانوا سنّة أم شيعة، هم كذلك. بل إنّ للشيعة منهم ميزة أنّهُم معادون

(٤٣) مقابلة شخصيّة مع عبد الرحمن الراشد، دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٤٤) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

لصدّام حسين وكذلك للمُتطرّفين السنّة. أمّا اللبنانيّون المسيحيّون المُقرّبون من القوّات اللبنانيّة، فهُم معادون لسوريا ولحلفائها في لبنان، خاصّة حزب الله. وإذا ما أخذنا مثالاً، الكاتب أحمد الزين الذي يُقدّم البرنامج الثقافي الوحيد في القناة، فهو لبناني شيعي، عمل في الصحافتين الكويتيّة واللبنانيّة، وفي صحيفة **النداء** التابعة للحزب الشيوعي اللبناني. شيعي، شيوعي، مُقرّبٌ من الكويتيّين، أي إنّهُ يُمثّل مُثلّث العداء لنظام صدّام حسين[٤٥]. أمّا الآخرون الذين لا يُوصفون كذلك، فهُم لا يحتلّون مواقع مُهمّة ويخضعون لتوجيهاتٍ دقيقة لا يستطيع مُعارضتها حتّى زُملاؤهم من الصف الأوّل. مثلما حصل مع المذيع الأردني مهنّد الخطيب، الذي اضطر للاستقالة لأنّه رفض أن يرّد في برنامجه على محمد حسنين هيكل، على الرغم من أنه ينتمي سياسيّاً إلى خطّ القناة بدليل أنّه انتقل بعدها إلى المُستقبل.

تنطبق المعايير نفسها على الفلسطينيّين حيثُ يتقدّم مؤيدو أبو مازن من مثل نبيل الخطيب وحسن معوّض اللذين جاءا من إم بي سي، ويُقدّم الثاني برنامج «نقطة نظام» كذلك صبا عودة ومُنتهى الرمحي التي كانت المذيعة الوحيدة التي تركت الجزيرة إلى العربيّة، حيثُ قدّمت ثلاثة برامج سياسيّة على التوالي.

أخيراً الحُضور العراقي، وهنا تدور الإشكاليّة حول شخصيّة صباح ناهي، الذي عُيّن بعد الاحتلال مُستشاراً في العربيّة ومُديراً للبرامج الخاصّة بالعراق بعد أن كان خلال الحرب مُراسلاً للقناة في بغداد. ناهي شيعيٌّ انتمى إلى صفوف حزب البعث، ثُمّ أصبح عضواً في اتحاد الصحافيّين ثُمّ نائباً لرئيس الاتحاد عُديّ صدّام حسين. بعد ذلك عُيّن عضواً في اللجنة العليا للإعلام في الحزب. غير أنّ مواقع المقاومة العراقيّة بعد الحرب اتهمته بأنّه كان على علاقة بالـ سي آي إيه، وأنّهُ كان يُزوّدها خلال الحرب بتقارير عن عدد وحدات الجيش العراقي وأجهزة حزب البعث والأجهزة الأمنيّة ومواقعها الجغرافيّة والمهمّات الموكلة لكُلّ منها، إضافةً إلى معلومات تقنيّة حول الأسلحة، اتصالات الاستخبارات والقيادات، وعن الحالة النفسيّة للمواطنين. كما ادّعت أنّه كُلّف بتقديمِ تقارير حول لقاءاتٍ مع كبار المسؤولين السياسيّين

(٤٥) سناء عطوي، «أحمد الزين؛ أكتب ما هو جميل».

والعسكريّين، مع العلماء والمهندسين العسكريّين حيثُ كانت تُحدّد له نقاطٌ دقيقة كي يعرف عنها أو يؤكّد معلوماتٍ بشأنها. من جهة ثانية، برزت صداقته مع قيس شهاب، وهو أمريكي من أصلٍ عراقي كان يعمل مع الجنرال كيميت، لتُثير مزيداً من الشكوك!

ـ لماذا يُهمَّش المواطنون في المحطات الخليجية؟

حتّى عام ٢٠٠٤، لم يكُن على قائمةِ مذيعي كلّ من الجزيرة وأبو ظبي إلا مواطن واحد؛ إلهام بدر السادة وجابر عبيد. أمّا في العربيّة، فهناك حضورٌ أفضل للسعوديّين؛ تركي الدخيل، علي الظفيري وأخيراً داود الشريان.

ساهم تركي الدخيل، في تأسيس العربيّة وقدّم برنامج «إضاءات»، وكان قد عمل سابقاً في العديد من الصحف الخليجيّة وراسل إذاعة مونت كارلو وبي بي سي.

أمّا علي الظفيري، فقد ترك العربيّة إثر خلافٍ مع الإدارة والتحق بالجزيرة حيثُ أصبح مُقدّم البرنامج الخليجي الوحيد بعد أن استقالت المذيعة إلهام بدر السادة.

وداود الشريان، ترك برنامجه في تلفزيون دبي ليُصبح مديراً محليّاً لـ إم بي سي وليُقدّم على العربيّة برنامج «واجه الصحافة».

في الفريق التقني لا يُشكل المواطنون إلا (٣ بالمئة) في الجزيرة والعربيّة؛ بينما ترتفع النسبة كثيراً في أبو ظبي التي برز على شاشتها المذيع الإماراتي الشاب جابر عبيد؛ فهل هُناك عمليّة تهميشٍ للمواطنين؟

إلهام بدر السادة، وجابر عبيد يؤكّدان ذلك[٤٦]، فهي لم تستمر على شاشة الجزيرة إلا لأشهُر، أمّا جابر عبيد المُذيعُ والمُخرج، فيُمثّل الحالة الأكثر دلالةً. شكّل نجاحُه رضاً عميقاً «للمواطنين» الإماراتيّين الذين أصبحوا يُشكّلون أقليّةً في البلاد[٤٧] ويشعرون بأنّهم مُهمّشون «مُهدّدون بتدفّق

(٤٦) مقابلة شخصيّة مع إلهام بدر السادة في الدوحة، ٢٠٠٦ و٢٠٠٨.

(٤٧) بحسب (Country Profile, United Arab Emirates)، أيار/مايو ٢٠٠٣، فإنّ عدد سكّان الإمارات يتجاوز قليلاً الـ ٤ ملايين نسمة. وتقدر الإحصائيّات الرسميّة نسبة المواطنين بـ (٢٥ بالمئة) من مُجمل سكّان أبو ظبي، غير أنّ هذه النسبة تتدنّى إلى (١٥ بالمئة) على الصعيد الفدرالي.

الوافدين، وبخاصّة أنّ برنامج اللبررة الاقتصادية يبدو في صالح هؤلاء»[٤٨] كما ويشعرون بكبتٍ شديد إزاء الحضور الأجنبي في مؤسّساتها الاقتصادية[٤٩]. من هنا بحثُهم المحموم عن تأكيدِ عروبتهم في مواجهة الأجانب، وبخاصّة الآسيويّون، وتأكيدِ كفاءتهم في مواجهة الوافدين العرب، ولا سيما في وسائل الإعلام. وقد أثارت الأجور المرتفعة جداً والتي دُفعت لبعض هؤلاء الوافدين جدلاً وأزماتٍ وصلت أحياناً مجلس الشورى[٥٠].

من هُنا جاء صُعود جابر عبيد، بلباسه الوطني وحماسه وعفويّته، ليُشعر كُلّ إماراتيّ بأنّه حاضرٌ على شاشةِ عاصمته. بخاصّة أنّ هذا الشاب كان يشغل منصباً جيّداً في وزارة الطاقة وبراتبٍ عالٍ، ولكنّه اختار الانتقال إلى الإعلام بدافع الحماس والرغبة في إثبات حُضوره كإماراتيٍّ عربيّ يُعبّرُ عن افتخاره الوطني إذ يقول لأحد الصحافيّين: «أقسم لك برأسي وعقالي»[٥١]. خلال وقتٍ قصير أصبح المُذيع الشاب نجماً حقيقيّاً يتميّز بأسلوبه العفوي الجريء وصدقه في التعبير عن وطنيّته حيث أكسبه إشراقة خصّته بدمعة وهو يُقدّمُ الصور الفظيعة لضحايا مُخيّم جنين، شعبيّةً كبيرة. في العراق حقّق مرّةً أخرى نجاحاً كبيراً، سواء في التغطية أم في الحوار مع الصحّاف.

ولكن هل ارتدّ هذا النجاح عليه؟ بعد الحرب صُرف من التلفزيون ليُقدّم خلال بضعةِ أشهر برنامجاً إذاعيّاً قبل أن يختفي نهائيّاً عن الساحةِ الإعلاميّة. لقد طُلب إليه أن يقصر برنامجه الإذاعي على الشأن المحلي، فقرّر الخروج من رفاه الأستوديو إلى حيثُ مُعاناة مواطنيه: المؤسسات والفساد والقرى المهملة. ولكن ليختفي من المشهد. ولتُثير الصحافة المكتوبة مسألة غيابه تحت عناوين ذات دلالة: «جابر، افتقدناك»، «الرجال الشرفاء» وعلى أحد المواقع الإلكترونيّة يُفسّر هذا الافتقاد بأن عبيد «لم يكن مجرّد مذيع يُقدّم برنامجاً ليكسب منه الشهرة، بل كان صحافيّاً يذهب إلى الميدان ليَكتشف هُموم

(٤٨) Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006), p. 216.

(٤٩) بحسب فتيحة ديزي هني، فإنّ الوافدين يُشكلون (٩٥ بالمئة) من القوى العاملة في الإمارات منهم (٨ بالمئة) من العرب.

(٥٠) كما حصل بشأن العقد الذي أبرم في لندن مع ليلى الشيخلي وجاسم العزّاوي.

(٥١) حوار مع جابر عبيد، الرياض.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

المواطنين ويواجه المسؤولين، ليس فقط في أبو ظبي، بل في القُرى البعيدة وفي وزارات الدولة»[٥٢]. لذلك يُثمّن الناس جُرأتهُ في «كشف المشاكل والقضايا التي لم يتجرّأ أحد على الاقتراب منها سابقاً ويُناقش المسؤولين بقوّة ويتناول قضايا مُحرّمة من مثل الفساد والرشاوى»[٥٣]. كما تذكّر المقالة بنجاحاتِ عُبيد كمواطنٍ شابّ استطاع أن يبرز خلال الانتفاضة ثُمّ بتغطياته في لبنان، كوسوفو، وأخيراً حرب العراق[٥٤]. صحافيّون آخرون يمضون إلى ما هو أبعد: «من الذي قتل جابر عُبيد؟ جريمةٌ إعلاميّة»[٥٥]. ولا يلبث السائل أن يُجيب بطريقةٍ تُفسّر السؤال حيثُ يمتدحُ عبيد كمذيع، صحافيّ، جريء، مُبدع، مُمتاز... «كُنّا فخورين بأنّهُ واحد منّا، يُمثّل طُموحنا... ليس من أولئك الذين يقبضون ٥٠ ألفاً ولا هو واحدةٌ من النساء المُثيرات» وإذا كان الإيحاء واضحاً في هذه الفقرة، فإنّ المرارة العميقة تتّضحُ في العبارة الأخيرة التي تُوجّهُها كاتبة المقالة «إلى من يملك القرار ـ الشيخ عبد الله ـ قائلة «هذا تدميرٌ لكفاءةٍ مواطنة» وتُوقّع مقالاتها بـ «أجنبيّة»»[٥٦].

٤ ـ المنار: اقتصار على اللبنانيين الشيعة مع استثناءات نادرة

ككُلّ القنوات اللبنانيّة، لا يضُمّ فريق عمل المنار إلا لبنانيّين، مع استثناءاتٍ نادرة. والاستثناءُ الأبرز هُنا هو المصري عمر ناصف، إضافةً إلى عراقيّين وفلسطيني. يُقدّم ناصف البرنامج الحواري الأهم على القناة «ماذا بعد؟» ويقول إنّه لم يكُن في الثمانينيات يعتقد أنّ حزب الله «هو حركة مُقاومةٍ حقيقيّة، لكنّ التطوّرات برهنت على مصداقيّة خطّه السياسي وأهدافه»[٥٧]. كما إنه يرفُضُ صراحةً «النفاق الذي يُسمّى موضوعيّة»: «عندما تكونُ على بعد ثانيةٍ من الموت لا يمكنك أن تخضع لأيّة شروط... أنا لا أفهم الموضوعيّة في ما يخُصّ مصالح وسيادة وطني وشعبي، بين العالم العربي والاحتلال الإسرائيلي

(٥٢) فضيلة المُعيني، «جابر افتقدناك،» **البيان** (دبي) (تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤).
(٥٣) المصدر نفسه.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) <http://www.aluae.net/vb/showthread.php?t=5359>.
(٥٦) المصدر نفسه.
(٥٧) باسم الحكيم، «عمر ناصف: كيف يُمكن أن تكون مُحايداً إزاء إسرائيل،» **الأخبار** (بيروت)، ٣/٨/٢٠٠٧.

أو الأمريكي»[٥٨]. أمّا بين المراسلين فهُناك عدّة جنسيّاتٍ عربيّة. ويُفسّر مسؤولو القناة خيارهُم بتوافر الإمكانيّات اللبنانيّة وبطبيعة القناة كجهازٍ اتصالي لمُقاومةٍ في حالةِ حرب. كما يؤكّدون بأنّهُم كلّما فكّروا بتوسيع دائرة التنوّع بين صحافيّي القناة والعاملين فيها، اندلعت حرب أو أزمة خطيرة. لكنّ السؤال يُطرحُ أكثر بعد تنوّع وصلابة التحالفات التي أقامها الحزب مع تيّاراتٍ لبنانيّةٍ أخرى، وعليهِ يقولُ هؤلاء المسؤولون إنّهُم يُفكّرون بتطعيم الفريق بمُذيعين مسيحيّين (لكنّ شيئاً من ذلك لم يتحقّق حتّى تاريخ نهاية هذا البحث). غير أنّ التحليلُ يُقدّم قراءةً أخرى: فحلفاء حزب الله هم إمّا من الأحزاب العلمانية (من مُختلف الطوائف)، وإمّا من الأحزاب المسيحيّة (التيّار الوطني والمردة) وقسمٌ من السنّة. لذلك فإنّ من الصعب على أيّ مُذيع من هذه التيّارات أن يطّلع بالخطاب الدينيّ المذهبي الذي تلتزمُ به القناة. علّى الرغم من ذلك، لا يبدو الأمرُ مُستحيلاً في الحوارات السياسيّة التي لا يختلفُ بعضُها عن ما يُقدّمهُ مُذيعو الجديد أو أورانج تي في أو غيرهم.

رابعاً: توزيع العاملين بحسب الجنس: رجالاً ونساء

ستتم مناقشة الجدول الرقم (٣ ـ ٣) في كتاب مستقلّ يصدر لاحقاً بعنوان: **أي حضور للمرأة في الفضائيات الإخبارية؟**

الجدول الرقم (٣ ـ ٣)

توزيع العاملين بحسب الجنس: رجالاً ونساء

(الأرقام بالنسبة المئوية)

بحسب الجنس	الجزيرة	العربية	أبو ظبي	المنار
رجال	٦٩	٦٠	٧٥,٥	٦٤
نساء	٣١	٤٠	٢٤,٥	٣٦
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر: جدول أعدته الباحثة بحسب قوائم الموظّفين التي حصلت عليها من أرشيف الفضائيّات الخليجيّة الثلاث، وبحسب الأرقام الجاهزة التي حصلت عليها من المنار.

(٥٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الفصل الرابع

كيف يتوزّع جدول البرامج؟
البرامج: أيّ توازن على الجدول؟

تمهيد

في مجالِ تحليله للتزامن بين «البثّ الإذاعي الأوّل للجيش الأمريكي في ١٩٤٥/٩/٨، مع نهاية الحرب في المحيط الهادئ ودخول الوحدة ٢٤ من الجيش الأمريكي إلى كوريا»، يُلخّصُ البروفيسور في جيوبوليتيك الميديا جاك بارا، طبيعة هذه البرامج التي كانت «تستهدفُ الجنود الأمريكيين والسكان الكوريّين» بثلاثةِ أفعال: «أخبر، سلِّ، وعزِّ»[١]. ويُطبّق المُعادلة نفسها على التلفزيون (TVAFKN) الأمريكي الكوري الذي حلّ محل الإذاعة عام ١٩٥٧ بـ ١٩ قناة انطلاقاً من قاعدة يونغ سانغ.

وإذا كانت الفضائيّات العربيّة قد انطلقت مع دُخول القوّات الأمريكية إلى المنطقة العربيّة، فإنّ ثمّة اختلافاً وتشابهاً مع الوضع الكوري. فالبرامج لا «تُنفّذُ في الولايات المُتّحدة وتُرسل جاهزة كما كان الأمر في كوريا»، والجُمهور المُستهدف لا يضُمّ الجُنود الأمريكيين طالما أنّ البثّ باللغة العربيّة، كذلك فإنّ المصادر الرئيسة للمادّة الإخباريّة هي المكاتب والمُراسلون في الخارج ما يبدو كسراً لقاعدةِ الاتجاه الواحد. لكنّ برامج التسلية مُوزّعةٌ بين تلك المُستوردة من الولايات المُتّحدة أو تلك المُنتجة محليّاً، في الغالب بحسب فورما أمريكية أو غربيّة. كذلك فإنّ القاعدة الثلاثيّة «أخبر، سلِّ، وعزِّ»، تنطبقُ على مُجمل البثّ التلفزيوني.

---

(١) Jacques Barrat, *Géographie économique des medias: Diversité des tiers-mondes*, litec économie (Paris: Librairie de la Cour de cassation, 1992), p. 164.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

ففي مُواجهة برامج التسلية، التي لا تدخُلُ ضمن نطاق هذا البحث، نجدُ البرامج الإخباريّة تسلُكُ أكثر من نهج في توجّهها للمُتلقّي: مُسلحةٌ واسعة مُخصّصةٌ لكُلّ أنواع الصراعات الدمويَّة والكوارث الطبيعيّة وغير الطبيعيّة في كُلّ أنحاء العالم، ما يطرحُ أسئلةً مُتناقضة حول التأثير: هل سيشعر المُتلقّي أن وضعه ليس فريداً ولا هو الأسوأ، وبالتالي فهو ليس مُطالباً بالتمرُّد؟ أو أنّ تراكُم الكبت والإحساس بالظُّلم، إضافةً إلى وعي الفساد المُنتشر والقمع تُشكّل كلّها وقوداً كافياً للثورة؟ وإذا كان يرى في حكوماته طرفاً مُتواطئاً مع كُلّ هذه العيوب وكُلّ أشكال انتهاك السيادة أو على الأقل العجز أمام هذه الانتهاكات، فهل سيُؤدّي كُلّ ذلك إلى جعل ثورته تقتصرُ على تمرُّدٍ محموم ضدّ هذه الأنظمة ينسي الصراع المطلوب ضدّ قوى الاحتلال والهيمنة؟ أليس التناقُضُ القائم بين نقل الواقع المُرّ في البرامج الإخباريّة وبين العالم الافتراضي الذي يستحيلُ بلوغه في الواقع الذي تُسوّقُهُ برامج التسلية والإعلانات هو ما يقعُ في أساسِ الانفجار وفي أساس الاتجاهات التي ستأخُذها شظاياه.

بحسب مجلة **اتحاد الإذاعات العربيّة** «تحتلُّ نشرات الأخبار بين (١١ ـ ٤٠) بالمئة من جدول البرامج، بحسب القناة، أمّا الباقي، فمنوّعات»[٢]. وبما أنّنا نبحثُ في محطّاتٍ إخباريّة فمن الطبيعي أن يُخصّص الجزء الأكبر من جدول البرامج للبرامج الإخباريّة، وبخاصة السياسيّة، وأن تختلف هذه النسبة بين المحطّتين الإخباريّتين المُتواصلتين (٢٨ بالمئة)، وبين المحطّات المرنة (٥٢ بالمئة). وهو توزيعٌ سنتتبّعُهُ بناءً على خمسةِ معايير.

أوّلاً: البرامج: أيّ توازن على الجدول؟

الجدول الرقم (٤ ـ ١)

توزيع جدول البرامج بحسب الشكل، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

(الأرقام بالنسبة المئوية)

	الجزيرة	العربية	أبو ظبي	المنار
نشرة أخبار	٥١	٤٦	٢٣	٢٨
ريبورتاج	٩	٤	١٤	١٤

يتبع

(٢) مجلة اتحاد الإذاعات العربيّة، العدد ٢ (٢٠٠٨).

تابع

	الجزيرة	العربية	أبو ظبي	المنار
وثائقي	١٣	٢٩	١٩	٦
صحافة مكتوبة	٤	٤	١٠	-
برامج حوارية (مقابلات)	٦	١٠	١٩	٢٣
برامج حوارية (ندوات)	١٥	٦	١٠	١٨
فواصل	٢	٢	٥	٤
المُنوّعات	-	-	-	-

ـ نسب المنار وأبو ظبي في أوقات الأزمات.

المصدر: أعدّته الباحثة بناءً على جداول البرامج التي حصلت عليها من أرشيف الجزيرة وأبو ظبي، وبحسب الأرقام التي أعطيت لها من إدارتي العربيّة والمنار. مع ملاحظة أن نسب المنار وأبو ظبي مأخوذة من جدول فترات الأزمات، حيث تتحوّل القناتان إلى إخباريّتين، وتختلف هذه النسب في فترات الهُدوء حيثُ تزيد الحصّة المُعطاة للمُنوّعات.

ـ على جدول **الجزيرة**، نجد ٢٤ نشرة أخبار تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ثلاث نشرات مُطوّلة (ساعة كاملة في الخامسة صباحاً وعند الظهر وفي الساعة التاسعة مساءً). ١١ نشرة (بين ٢٥ و٥٠ دقيقة) تقطعها ثلاثةُ إعلانات تجاريّة أو إعلانٌ عن برنامج من برامج القناة وشعارها الرأي والرأي الآخر. أربعُ نشراتٍ قصيرة (١٣ ـ ٢٠ دقيقة) تقطعها دعايتان. ستُّ نشرات أخبار موجزة (٣ ـ ١٠ دقائق). تتألف النشرة من أخبارٍ يلي كُلّاً منها تقرير من مُراسلٍ ميدانيّ أو مُداخلةٌ من مدير مكتب في الخارج أو من خبيرٍ أو سياسيّ معنيّ، في الأستوديو أو عبر القمر الاصطناعي. ويُشكّل هذا (٩ بالمئة) من جدول البرامج.

ـ على جدول **العربيّة**، يبدو التوزيعُ متشابهاً: ٦ موجزات، ١١ نشرة (٣٠ دقيقة)، ٥ نشرات (٦٠ دقيقة)، إضافةً إلى نشرةٍ اقتصادية، نشرة أعمال ونشرة رياضيّة. غير أن التقارير والريبورتاجات والمداخلات هي أقل (٣,٨ بالمئة) ما يعود، ربّما، إلى عدد المكاتب والمُراسلين في الخارج.

ـ على شاشتي **أبو ظبي والمنار**، تنقسمُ النسب المئويّة تقريباً إلى النصف مُقارنةً مع سابقتيها وذلك خلال فترات الهُدوء، وترتفعُ إلى مستوىً مُساوٍ خلال فترة الأزمات. حيثُ تبلُغُ نسبة تقارير المُراسلين (١٤ بالمئة) على شاشة أبو ظبي. تُقدّمُ قناة أبو ظبي نشرةً مُفصّلة كُل أربع ساعات، وبين كُل اثنتين منها نشرةٌ اقتصاديّة وتغطيةٌ مُباشرة للأحدث الساخنة، حيثُ يوضحُ المُدير المُساعد للقناة أنّ القاعدة هي تقديم الخبر في وقته الفعلي ثُمّ خدمة مُقتضياته

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

من تحليلٍ وتعليق[٣]. أمّا بقيّة الجدول فتتوزّع بين البرامج الحواريّة، المنوّعات والوثائقيّات، ما يؤمّنُ اجتذاب المُشاهد «إن لم ينظُر المشاهد إلى شاشتنا فلا يُمكننا أن نؤثّر بشيء»[٤].

ـ أخيراً **المنار**: ثلاثُ نشراتٍ مُفصّلة (ساعة) وسبعٌ بين قصيرة (٣٠ دقيقة) وموجزة (٥ دقائق). وتُخصّصُ إحدى النشرات المُفصّلة للأخبار المحليّة. أمّا نسبة التقارير والريبورتاجات والمداخلات فتبلغ (٢٠ بالمئة) على الرغم من أنّ عدد مكاتب ومُراسلي هذه القناة في الخارج لا يُقارن بالثلاث الأخريات؛ فيما تُترجمُ خُصوصيّة المحطّات اللبنانيّة، التي، بخلاف محطّات الخليج، تتناول السياسة المحليّة بكثافة عرضاً وتحليلاً ومُناقشةً نتيجةً لطبيعة البلد الذي يُشكّل الحالة الديمقراطيّة الوحيدة المؤمّنة لحُريّة التعبير في العالم العربي.

١ ـ البرامج الحواريّة من ندوات وحوارات ثُنائيّة (مُقابلات)

أ ـ الندوات الحوارية

(١) الجزيرة

تُعتبر برامج الحوار، بل بالأحرى المواجهة، بين ضيفين أو ثلاثة، أكثر البرامج شعبيّة في الفضائيّات العربية، وهي تُقدّم دائماً في ساعات الذروة. وعلى الرغم من أنّ هذا النوع من البرامج ليس جديداً على الشاشات العربيّة الأرضيّة[٥]، إلا أنّ الجديد هو مُستوى الحريّة الذي يبدو في الظاهر للمُذيع وللضيوف والبثُّ المُباشر والاتصالات الهاتفيّة المُباشرة. علماً أن التجربة تؤكّد أنّ هذه الاتصالات تُرتَّبُ في الغالب مُسبقاً[٦].

كانت الجزيرة رائدةً ببرامجها الثلاثة: الاتجاه المُعاكس؛ أكثر من رأي؛ حوار مفتوح. ويُذاعُ كلّ منها في ساعة الذروة (٢١:٠٥) ثُمّ يُعاد بثّه

(٣) Sarah Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television,» *TBS Journal*, no. 8 (Spring-Summer 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Spring02/dourrachad.html>.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أكثر من رأي، أحد أبرز البرامج الحواريّة على الجزيرة، صمّمته وقدّمته الباحثة على التلفزيون الأردني عام ١٩٨٩.

(٦) تجربة شخصيّة وشهادات.

مرّتين بحسب المناطق الجغرافيّة التي يصلُها البثّ (١٠:٠٥ ـ ١١:٠٥ بتوقيت غرينتش). أُضيف إلى الثلاثة برنامجان: من واشنطن لحافظ الميرازي، وللنساء فقط، ليُضاف إليها بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، برنامج جديد (المشهد العراقي) يتحرّك بمُرونة بين الريبورتاج والتعليق والمقابلات والمُناظرات. (ألغيت البرامج الحواريّة مع الثورات العربيّة ليُعاد الاتجاه المُعاكس وبلا حُدود عام ٢٠١٢).

(٢) أبو ظبي

نظراً إلى النجاح الكبير الذي حقّقته البرامج الحواريّة على الجزيرة، وتعطّش الجمهور العربي لفضاء التعبير هذا، حرصت قناة أبو ظبي على تقديمِ عدّة برامج حواريّة كان أشهرها برنامج «مواجهة» الذي قدّمه جاسم العزّاوي ثُمّ ليلى الشيخلي. غير أن مسؤولي القناة قد حرصوا على التميُّز عن الجزيرة بهُدوء الحوار وموضوعيّة التحليل كما جاء في مقالةٍ لخبيرٍ مُرتبطٍ بالقناة: «إنّها تستقبِلُ الضيوف ذاتهُم الذين تستقبلهُم المحطّات الأخرى، لكنّها تتميّزُ بثلاثة عناصر: طبيعة الأسئلة المطروحة، البحث الذي يسبق الحلقة، رفضُ المُشاحنات، الصراخ، تصفية الحسابات، الإثارة، الاتهامات غير المبنيّة، الشتائم التي لا تؤدّي إلى شيء، كما ترفُض استغلال الصراعات والخلافات بين الدول العربيّة وصبَّ الزيت على النار»[٧]. ولا يُخفي الكاتب أنّه يقصد بذلك الجزيرة إذ يُضيف: «أولئك الذين يدّعون تبنّي شعار الرأي والرأي الآخر، ولا يقبلون أي نقض. بل يُصنّفون من ينتقدهُم في قائمة الأعداء»[٨]. البرنامج الحواري الثاني الذي كان بارزاً على القناة هو «مُجرّد سؤال» للإماراتي الشاب جابر عُبيد.

(٣) العربية

بدورها العربيّة اعتمدت برامج الحوار، حتّى ولو أنّها قليلاً ما احترمت التنوّع في الضيوف حتّى إنّها اعتمدت قوائم سوداء تضُمّ عدداً من الصحافيّين والنشطاء والسياسيّين. برامجها الحواريّة الثلاثة تُذكّر ببرامج الجزيرة:

(٧) حسن عبد ربّه، «تلفزيون أبو ظبي والبحثُ عن الحقيقة،» **مجلة المجالس** (١٦ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠).

(٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

بـ «المرصاد» وأكثر من رأي، «عبر المحيط» ومن واشنطن و«من العراق» و«المشهد العراقي».

الأول، يتداول على تقديمه عدّةُ صحافيّين: مُنتهى الرمحي، نجوى قاسم، إيلي ناكوزي ومُهنّد الخطيب. (الأخير ترك القناة).

الثاني، يُقدّمه من واشنطن هشام ملحم.

أمّا **الثالث**، فتناوب عليه أيضاً أكثر من صحافي بإشراف صباح ناهي. وفي حين اعتبر موقع النهرين نت، أنّ هذا البرنامج هو أفضل من غطّى الانتخابات العراقيّة بفضل علاقات العربيّة مع بعثيّين سابقين ومع الأجهزة السعوديّة ذاكراً صباح ناهي بالاسم، فإنّ مُراسلي قناة الأنوار قالوا إن العشائر العراقيّة تشعر بغضب شديد ضدّ تقاريره المُنحازة إلى الاحتلال.

(٤) المنار

شاشة المنار أيضاً غنيّة بدورها بالبرامج الحواريّة: «ماذا بعد؟» لعمرو ناصف و«حديث الساعة» الذي يُقدّمه عماد مرمل. حيثُ يُدير **الأول**، حواراً بين شخصين أو ثلاثة حول قضيّة إقليميّة أو دوليّة، فيما يتناول **الثاني**، قضايا محليّة لبنانيّة.

ب ـ المقابلات (الحوارات الثنائية)

(١) الجزيرة

على جدول الجزيرة أكثر من برنامجٍ يقوم على ضيفٍ واحد. بدءاً من «الشريعة والحياة»، ولهذا البرنامج خُصوصيّة، فضيفه ومُعدّه واحد؛ الشيخ يوسف القرضاوي، ولذلك يتبدّل مُقدّموه؛ فالشيخ القرضاوي المولود في مصر عام ١٩٢٦، والذي نُفي إلى قطر ويحمل جنسيّتها. هو رمزٌ من رموز الإخوان المُسلمين ومرجعٌ من مراجع الإسلام السني، يُدير موقع إسلام أون لاين نت، ويرأس المجلس الأوروبي للبحث والفتوى. له موقفٌ نقديٌّ من السلفيّين ويُمثِّلُ المشروعيّة الدينيّة للنظام القطري ومرجعيّة الجزيرة. «بلا حُدود» الذي يُقدّمه أحمد منصور، كما يُقدّم أيضاً برنامج «شاهد على العصر» ويُعرفُ منصور بأنّه يُعطي الأولويّة في برنامجيه لاستهداف التيّار القومي، خاصّة التجربة الناصريّة. «زيارة خاصّة» لـ سامي كليب، وهو برنامجٌ ميداني

لا يقتصر ضُيوفه على سياسيّين بل قد يكونون شخصيّات ثقافيّة، اجتماعيّة أو ذات تاريخ نضالي. و«ضيف وقضيّة» الذي يتناوب عليه أكثر من مُذيع. (توقف هذا الأخير عام ٢٠٠٨).

(٢) العربيّة

على جدول العربيّة ثلاثة برامج تقومُ على المُقابلة: «إضاءات» يقدمها تركي الدخيل، ويُعدّها «أخصّائيون في الشؤون السياسيّة الاجتماعية التي تخُصّ العالم العربي، ويهدف إلى تقديم معلوماتٍ للجمهور وحثّه على التواصل»[٩].

«بالعربي» تقدّمه جيزيل خوري، وهو استمرارٌ لبرنامج حوار العمر الذي كانت تُقدّمه على الـ إل بي سي.

أخيراً «نقطة نظام» الذي يُقدّمه حسن معوّض، المعروف بأسلوبه الخاص الذي يعتمد الأسئلة القصيرة والسريعة والتي تفرضُ على الضيف الإيقاع نفسه.

(٣) المنار

على المنار نجدُ برنامجين بارزين «بين قوسين» لـ بتول أيّوب وتستضيفُ فيه شخصيّة سياسيّة حول قضيّة إقليميّة أو دوليّة. و«مع الحدث» يُقدّمه محمد شرّي وحسن القصير ويستضيفُ شخصيّة سياسيّة حول شأنٍ محلي، كما يتضمّن فقرة حول الصحافة المكتوبة.

٢ ـ نقل الصحافة المكتوبة

تُقدّم جميع الفضائيّات قراءات يوميّة للصحافة المكتوبة تخضع للانتقائية خاصّة وأنّ بعض الصحُف تنتمي إلى الباقات نفسها التي تنتمي إليها هذه القنوات. ولا تسلم من هذه الانتقائية الصحف الأجنبيّة نفسها. تُقدّم أقوال الصحف في الفترةِ الصباحيّة باستثناء العربيّة التي تُخصّص لها ثلاثة برامج يوميّة: «مقصّ القريب» الساعة ٩:٠٠، «الطبعة الأخيرة» (الساعة ١٠:٠٠) و«السلطة الرابعة» (الساعة ٢٣:٠٠). وباستثناء «السلطة الرابعة»، يتناوب على تقديمها عدد من المُذيعين. كذلك على الجزيرة: «بين السطور»، «الجزيرة

(٩) بحسب التعريف المأخوذ من موقع قناة العربيّة عام ٢٠٠٨.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

هذا الصباح» و«مرآة الصحافة». على أبو ظبي «بعد الطبع». وعلى المنار «صحافة الصباح».

٣ ـ التحقيقات

كانت كُلّ من الجزيرة والعربيّة تولي اهتماماً خاصّاً للتحقيقات، حيث خصّصت لها الأولى برنامجين: «مُهمّة خاصّة» و«سرّي للغاية». الأوّل شهريّ وثائقي، تُنتجه شركة هوت سبوت. والثاني أكثر إشكاليّةً لأنّه يتناولُ قضايا لم تُعتبر من الأسرار، لذلك أُثيرت تساؤلات حول سرّ تمكّن يُسري فودة، من الوُصول إلى أرشيفٍ سرّي والكشفِ عن وثائق وشُهود ومُراقبين وخُبراء معنيّين بالقضيّة المطروحة. ورُبّما أمكن أن نُضيف إلى ذلك برنامجاً ثالثاً «منبر الجزيرة»، هو في ظاهره فتحُ منبرٍ حُرٍّ للمُشاهدين ولكنّه في الواقع عمليّة استطلاع آراءٍ حول سؤالٍ مطروح. يُقابلهُ على العربيّة برنامج استفتاء على الهواء، الذي يُقدّمه أحمد حُسني.

٤ ـ الوثائقيات

مُنذ البداية اهتمّت الجزيرة بالوثائقيّات (١٣ بالمئة من جدول البرامج)، إلى أن أنشئت قناة خاصّة بها (الجزيرة الوثائقيّة) من دون أن تغيب الوثائقيات عن شاشة القناة الإخباريّة. على جدول العربيّة تُشكّل الوثائقيّات (٢٨ بالمئة)، أبو ظبي (١٩ بالمئة) والمنار (٦ بالمئة). ومن المُلفت أنّ رصد برامج العربيّة عام ٢٠٠٤، يكشف لنا عن بثّ ١٤ فيلماً وثائقيّاً خلال أسبوعٍ واحد (٢٠ ـ ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤) تدور حول مواضيع سياسيّة تاريخيّة وعلميّة، غير أنّ ما يجمع بينها أنّها تُسجّل جميعاً مآسي وكوارث: «كوارث العصر»، «البراكين الكُبرى»، «أخطر لحظاتٍ في التاريخ»، «تاريخ الأسلحة»، «مُذكّراتُ سجين»، «الجزر الأكثر خُطورة» وأخيراً «أسرة صدّام»، ما يُثير التساؤل حول لُجوء استراتيجيّة البرامجيّة لهذا الخيار: أمن أجل تتفيه الكارثة السياسيّة والاجتماعية التي سبّبها احتلال العراق؟ يُقابله تساؤلٌ عن تفضيل الجزيرة والمنار وأحياناً العربيّة للوثائقيّات المُتعلّقة بعالم الحيوان والطبيعة. حيثُ إن هذه المواضيع لا تمسّ المُحرّمات السياسيّة والاجتماعية والدينيّة، كما إنّها تُساعد في تسويق منظورٍ دينيٍّ مُعيّن بحيثُ نجدُ على العربيّة أكثر من برنامج: «هذا العالم» «أسرار الطب الشرعي» «بصيرة العلم» «رجال حول

الرسول» «عين مكّة على المدينة». كذلك يُمكن اختيارها وِفق مضامين تُدعّم الإيمان الديني: الإحساسُ بقوّةٍ ما فوق الطبيعة، قوّة الخالق، كما يقول أحد المسؤولين: «ألا نقول عندما نراها تلقائيّاً «سبحان الله»».

ثانياً: توزيع البرامج بحسب الموضوع، المضمون

الجدول الرقم (٤ ـ ٢)

توزيع البرامج بحسب الموضوع ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

(الأرقام بالنسب المئوية)

الموضوع	الجزيرة	العربية	أبو ظبي	المنار
سياسي	٥٣	٥٣	٤٣	٤٥
ثقافي	٩	١٣	٤	٣
اقتصادي	١٨	٢٠	٨	-
ديني	٦	٦	٤	١٠
اجتماعي	٣	٠	٨	١٥
تسلية	٩	٦	٣٠	٣

المصدر: جدول أعدّته الباحثة بناءً على أرقام زوّدتها بها المحطّات. لم تُحسب فيها الإعلانات وبعضُ البرامج التي لا تشترك فيها القنوات الأربع.

١ ـ البرامج السياسية والاقتصادية

من الطبيعي أن يكون للبرامج السياسيّة حصّة الأسد على قناةٍ إخباريّة (٥٣ بالمئة الجزيرة والعربيّة). حصّةٌ تتناقصُ على محطّات المُنوّعات وتتغيّر صُعوداً وهُبوطاً على القنوات المرنة كـ أبو ظبي والمنار، حيثُ تصل إلى (٥٣ بالمئة) خلال الأزمات وتنخفضُ خلال الفترات الهادئة بحيثُ يُصبح المُعدّل العام (٤٣ بالمئة).

أمّا الاقتصاد، فيحتلُّ المرتبةَ الثانيّة (٩ بالمئة، ١٣ بالمئة، ٤ بالمئة) قبل عام ٢٠٠٤، نسب أخذت بالتزايُد بعد ذلك حتّى إنّ حديثاً كان يدور عن تحويل العربيّة بالتدريج إلى قناةٍ اقتصادية، وإذا ما بحثنا عن التفسير نجده في أنّ ما ظهر من استقرار النظام العالمي الجديد عسكريّاً وسياسيّاً بعد احتلال العراق، بدا أنّ المرحلة أصبحت مرحلةَ النتائج الاقتصادية لهذا

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الواقع الجديد. غير أنّ الثورات العربيّة قد أجّلت ذلك وأعادت الصدارة للبرامج السياسيّة. وربّما بدا من الأفضل أن تمُرّ الأخبار والاتّفاقيّات الاقتصاديّة بصمت تحت ضجيج السياسة والثورات.

هذا التطوّر نحو الاقتصاد لم يكُن مطروحاً بالنسبة إلى المنار، لأنّها تُمثّل تيّاراً سياسيّاً ـ عسكريّاً في مواجهة إسرائيل ومشروع الشرق الأوسط الجديد الأمريكي، ما يجعلها في مواجهة العولمة الأمريكية التي تُمسكُ بخُيوط اقتصاد السوق. وقد جاءت حرب ٢٠٠٦، لتؤكّد هذا الخط.

٢ ـ برامج المنوعات والبرامج الثقافية

تُشكّل المُنوّعات عُنصراً أساسيّاً في شعبيّةِ قناةٍ تلفزيونيّة. أمّا البرامج الثقافيّة التي تحتلُّ الموقع الثالث بالمعيار الكمّي، فإنّها في واقع الأمر مُتخلّفة عنه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مواعيد بثّها؛ فباستثناء برنامج «مُبدعون» الذي كانت قناة أبو ظبي تُقدّمه في الساعة الثامنة، أي في وقت الذّروة، لم تكن القنوات الثلاث الأخرى لتُقدّم البرنامج الثقافي إلا في وقتٍ مُبكّر جدّاً لا يسمحُ للشريحة التي يُفترض أن يتوجّه إليها بمُتابعته (بتعبيرٍ تلفزيونيّ كان التوقيت يقتل البرنامج)، وهو حالٌ لم يتحسّن في ما بعد بل ازداد سوءاً. كان «مُبدعون»، الذي تُقدّمه فضيلة سويسي، هو الوحيد الذي يعملُ على الذاكرة ويحرصُ على النوعيّة الحقيقيّة على الرغم من بساطة الفورما، حيثُ تستقبل المُذيعة مُبدعاً كبيراً يتحدّث عن تجربته، حياته وأعماله. غير أنّ البرنامج توقّف مع خُروج القناة من حقل الأخبار. على الجزيرة، كان خالد الحروب يُقدّم «خيرُ جليس» في إشارةٍ إلى القول المأثور «خيرُ جليسٍ في الزمان كتابُ»، غير أنّ الكفاءة العالية للحروب والاختيار الدقيق للكتاب وللمؤلّف، كُلّه كان يضيعُ بسبب تقديمه في الساعةِ السابعة. على العربية، كانت الساعة السادسة والنصف هي نصيب برنامج «روافد» لـ أحمد الزين. وكذلك كان حال البرنامج الثقافي الذي قدّمته لفترةٍ قصيرة آمنة برّي على المنار.

أمّا التبريرات التي يُقدّمُها هؤلاء لإهمال البرامج الثقافيّة، فيتركّز بشكلٍ خاص على الجانب الإعلانيّ، حيثُ يُركّزون على أنّ البرامج الثقافيّة لا تجتذب الإعلانات وأنّ جُمهورها هو **أولاً**، جُمهور محدود، **وثانياً**، أنّه ليس الجمهور العريض للمُستهلكين الذين يستهدفهم الإعلان. بل إنّهم يعتبرون أنّها

ليست من مهمّات التلفزيونات الخاصّة القائمة على حساب الربح والخسارة[١٠].

غير أنّ التحليل المُعمّق يقودُ إلى «إدراك الأسباب التي جعلت مُجتمع الإعلان، باعتباره مُسلّمة المُستقبل ما بعد الصناعي، يجدُ نفسهُ مُتماهياً مُنذُ الثمانينيات مع أطروحة نهاية الأيديولوجيّات، نهاية المُثقّفين المُعترضين، لصالح صُعود المُثقّفين «الإيجابيّين» المُوَجَّهين نحو اتّخاذ القرارات»[١١]. واقع أصبح أكثر حدّة مُنذ بداية التسعينيات، التي شكّلت بداية ظُهور الفضائيّات في العالم العربي، في حين أنّ المُبدعين في الفضاء العربي هُم في الغالب من اليساريّين أو القوميّين وفي الأغلب من المُعادين للأنظمة ولسياساتها، وكذلك للولايات المُتّحدة وسياساتها. غالبيّة تُدلّلُ عليها طبيعة الهيئات الإداريّة لاتحادات الكُتّاب والفنّانين المُنتخبة وصُمودُ أكثريّة هؤلاء في وجه التطبيع مع إسرائيل. وبذا فإنّ خطاب غالبيّة المُبدعين وأعمالَهُم لا تصُبُّ في خطّ الأنظمة ومراكز القوى التي تُموّل الفضائيّات. كما إنّ هذا الخطاب، قوميّاً كان أو يساريّاً، ثوريّاً أو حداثويّاً، وعلمانيّاً في الغالب، يحملُ منظومة قِيمٍ سياسيّةٍ، ثقافيّةٍ، فكريّةٍ واجتماعيّة لا تُناسب منظومة القيمِ الاستهلاكية وعولمة اقتصاد السوق.

أمّا دعاوى التغيير التي أطلقتها الولايات المُتّحدة بعد احتلال العراق، فإنّها لا تعني أبداً طبيعة التغيير الذي كان يُطالب به هؤلاء المُبدعون والذي طالما ناضلوا من أجله في مواجهة الأنظمة السياسيّة والأنظمة الاجتماعية المُسيطرة. كما إنّ وحدة عملهم في إطار الثقافة العربيّة، التي ظلّت وحدها مُستعصيةً على التجزئة بفضل عوامل تتصدّرُها اللغة العربيّة الفُصحى وتليها الهُموم المُشتركة، لا تُشكّل أبداً نموذجاً يُسمحُ بتسويقه في مرحلةٍ تقوم على تعزيز وتفعيل كُلّ أنواع التجزئة. لذا فإنّ الفضائيّات وُجدت «لتبنّي القاعدة الأمريكية: تسلية ـ سوق»»[١٢] أو لتبنّي السياسات الأمريكية ما يقتضي منها «تتفيه ثقافاتها الخاصّة»[١٣] واعتماد خطٍّ إعلامي «مقطوعٍ عن الثقافة والذاكرة. يركضُ وراء الآني، كما يقول الفيلسوف فيرنون بروديل. وهكذا فإنّ شكل

(١٠) مقابلات للباحثة مع عددٍ من مُدراء المحطّات الإخباريّة ومحطّات المنوعات.

(١١) Armand Mattelart, «Jeter les bases d'une information éthique,» *Le Monde diplomatique*, no. 597 (décembre 2003).

(١٢) Barrat, *Géographie économique des medias: Diversité des tiers-mondes*, p. 164.

(١٣) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الآنيّةِ المُتسارعة الذي يفرضه ذلك يبتُر الزمن اللازم لتبلور المعرفة»[١٤].

أمّا المنار، فإنّها تُشكّلُ جُملةَ تناقُضات؛ على المستوى الوطني هي في الخطّ ذاته الذي يتبنّاه مُعظم المُبدعين، لكنّها من ناحيةٍ أخرى صوت خطٍّ دينيّ مُحافظ يتناقض بذلك مع الغالبية العُظمى من هؤلاء. ولذلك فهي تفتحُ لهُم أبوابها في برامجها ومُناسباتها، لكن ضمن حُدود التزامهم بخُطوطها الحمراء.

ويُلاحظ أنّ مسؤولي القنوات يُدرجون البرامج الدينيّة ضمن حساب البرامج الثقافيّة وبذلك يُقدّمون نِسَباً مُرتفعة لحُضور هذه الأخيرة على الجدول.

٣ ـ برامج التسلية

يختلفُ موقع برامج المنوّعات والتسلية على جدول البرامج الأربعة موضوع الدراسة؛ فعلى العربيّة والجزيرة تملأ الوثائقيّات أو برامج الرياضة أحياناً الفراغ بين برنامجين إخباريّين. أمّا على المحطّتين الأُخريين فتتقدّم المُسلسلات العربيّة والأجنبيّة وبرامج الألعاب على الوثائقيّات، بينما تُحافظ الرياضة على حُضورها. كانت قناة أبو ظبي تتميّز بالمُسلسلات المُنتجة محليّاً وعربيّاً حيثُ إن الإمارة كثيراً ما ساهمت في تمويل الإنتاج العربي، بل وفي أفضل مُسلسلاته التي توزّعت موضوعاتها بين التاريخي، الاجتماعيّ وأحياناً السياسي: حيثُ كانت المسلسلات التاريخيّة تستعيد الرموز واللحظات المجيدة في التاريخ العربي، كما تستعيد الهزائم ومراحل الهُبوط التي يتمّ إسقاطها على الواقع. وقد ساهم التمويل السخي، النّصوص والسيناريوهات المُبدعة والإتقان الفنّي في تقديمِ أعمالٍ كبيرة استطاعت أن تشُدّ الجُمهور. وإذا كانت المُسلسلات التاريخيّة قد حظيت بشبهِ إجماع، فإنّ جدلاً حادّاً دار حول بعض المسلسلات الاجتماعية من مثل «الحاج متولّي» الذي سوّق تعدُّد الزوجات. غير أنّ المعارك الأكثر حدّة هي تلك التي دارت حول المُسلسلات السياسيّة، خاصّة تلك المُتعلّقة بالصهيونيّة وتاريخها. غير أن ما شكّل قمة هذا الإنتاج هو المُسلسلات التاريخيّة من مثل: صلاح الدين، شجرة الدُّر، التغريبة الفلسطينيّة وعشراتٍ غيرها. حيثُ نجحت الإرادةُ والتمويل السخيّ في جمع أفضل الكُتّاب والفنّانين من مصر، سوريا، لبنان، فلسطين والأردن.

(١٤) Mattelart, Ibid.

بعد عام ٢٠٠٤، بدأت المسلسلات المكسيكيّة تجدُ طريقها إلى شاشتها قبل أن يطغى طوفان المسلسلات التركيّة المُدبلجة على كُلّ الشاشات العربيّة. وتُقدّم في الوقت ذاته فيلماً عربيّاً على عرب سات، وآخر أمريكياً على نايل سات، وثالثاً وثائقياً على بانام سات و أوتيل سات.

أمّا برامج الألعاب، فدار حولها نقاشٌ من نوعٍ آخر من مثل برنامج «وزنك ذهب»، حيثُ إنها تنجح في استقطاب الجمهُور لكنّها تُكرّس عقليّة المُضاربة وتُدمّر قيمة العمل وتؤسّسُ لأخلاقيّات الفساد عندما تُكرّسُ فكرة أنّ بإمكانك أن تربح بدقائق ما يمكن أن يُحقّقه جنى عمرٍ كامل من العمل، كما يقول موريس أليه حامل جائزة نوبل للاقتصاد.

على المنار، يحكُم الالتزام الواضح للقناة اختيار جميع البرامج بما فيها المُسلسلات. معياران أساسيّان: المُقاومة والدين. ولا بُدّ لأيّ مُسلسلٍ من أن يُجسّد القيم المُرتبطة بهما سواء بأن ينهل من تاريخ المُقاومات أو أن يستوحي الواقع الحالي «الصراع ضدّ المُحتل... ضدّ المشاريع الصهيونيّة والأمريكية... ضدّ روح الخضوع... ضدّ الفساد... العقليّة الاستهلاكيّة وسائر أمراض المُجتمع».

كذلك تخضع برامج المرأة والطفل للمعايير نفسها. أمّا في المحطّات الخليجيّة الثلاث، فتتشابه برامج المرأة: «لها»، «هي»، «لمسات» و«زينة»، بحيث ينفع التعريف الرسمي للبرنامج الأخير في تعريف سابقاته: «في عالم الموضة، الأزياء، الماكياج، العطور، الديكور. أفضل المُصمّمين المعروفين في الغرب والشرق وآخر ابتكاراتهم بحسب الموضة الحديثة»[١٥].

برامجُ تُكرّس كلّها صورة المرأة، أداة الاستهلاك هذه، بحيثُ لا تكونُ المُستهلك بامتياز فحسب، بل تُصبح مادّةً للتسويق الاستهلاكي، سواء في الإعلان المُباشر أو عبر الفقرات المُوجّهة للمرأة: عُروض الأزياء، الماكياج، المجوهرات وسائر منتجات الترف. برنامجٌ واحد خرج عن هذه الدائرة، ليُشكّل استثناءً يُقدّم الوجه الآخر للمرأة العربيّة «للنساء فقط»، حيثُ يُقدّمُ نساء من مُختلف الدول العربيّة، كوادر عليا، كاتبات، فنّانات، باحثات،

(١٥) التعريف الإداري الرسمي للبرامج في أرشيف قناة الجزيرة.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

سياسيّات، أخصّائيّات علم اجتماع، علم نفس، مُناضلات، أستاذات جامعيّات، يلتقين لِيُناقشن قضايا جادّة تمسُّ تطلُّعات المرأة وتطوّر المجتمع بشكلٍ عام، وتضع أمام الجمهور نموذجاً يُحفّز النساء ويُقنع الرجال. غير أنّ هذا البرنامج لم يعش إلا سنتين فحسب.

ثالثاً: توزيع البرامج بحسب أولويات المناطق والقضايا التي يتمّ تناولها

بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٠، كانت الجزيرة تحتلُّ الساحةَ الإخباريّة. في السنتين الأوليين احتلّت التطوّرات في فلسطين، خاصّة مع اغتيال اسحق رابين الموقع الأوّل، تليه تطوّرات حصار العراق. غير أنّ الحال انقلب في عام ١٩٩٨، مع تكرار الهجمات الأمريكية على العراق وأحداث أفغانستان، عمليّة نيروبي، دار السلام واتهام القاعدة، بحيثُ أصبحت أخبار فلسطين في المرتبة الثالثة. في العام ١٩٩٩، عادت إلى الموقع الثاني بعد العراق. عام ٢٠٠٠ دخلت أبو ظبي الفضائيّة إلى الساحة، وكان هذا العام عاماً مفصليّاً في التاريخ الحديث للعالم العربي، حيثُ شهد تحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي، وعليه احتلّ هذا الحدث الموقع الأوّل على شاشات: الجزيرة، المنار وأبو ظبي. ثُمّ جاءت الانتفاضة في فلسطين لتحتلّ الموقع الثاني ومن ثُمّ الأول. تقطعُ ذلك الترتيب لوقتٍ مُحدّد أحداثٌ مثل الاتهامات والتهديدات المُتبادلة بين الأمريكيين والعراقيّين، ثُمّ تسارُع الأحداث في أفغانستان، خاصّةً تدمير تماثيل بوذا في داميان.

في عام ٢٠٠١، كان حدثُ العصر الذي تقدّم كُلّ ما سواه على كُلّ الشاشات، أحداث ١١ أيلول/سبتمبر وتداعياتها التي تتركز، منطقيّاً، في أخبار أفغانستان ثُم العراق لتذهب فلسطين إلى المركز الرابع.

٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤، تحتلُّ أخبار العراق الموقع الأوّل على شاشات المنطقة وغالباً العالم: الحرب، الاحتلال، بدايةُ عمليّات المُقاومة، خاصّةً انتفاضتي الجنوب والفلّوجة. **الأولى**، بقيادة الإمام مُقتدى الصدر، وقد سُحقت بقوّة إلى حدّ قصف مرقدي الإمامين علي والحُسين في النجف الأشرف وكربلاء. **الثانية**، في مدينة الفلّوجة، وقد لقيت المصيرَ ذاتهُ بعُنفٍ قلّ نظيرُه. كانت المنار أفضل من غطّى الانتفاضة الأولى والجزيرة أفضلُ من غطّى الثانية، ويُمكنُ فهمُ ذلك من خلال العامل المذهبي.

في الموقع الثاني، تأتي أفغانستان على القنوات الأربع: حيثُ أبرزت كُلٌّ من الجزيرة والمنار «ردّات فعل زُعماء وشُعوب العالم العربي والمُتطوّعين الذين ينوون الالتحاق بالمُقاومات»؛ في حين كانت العربيّة تتحدّث عن «الميليشيات المُسلّحة» أو «الإرهابيّين»، أمّا أبو ظبي فاختارت أن تكون في الوسط باعتماد مُصطلح «المجموعات المُسلحة»، أمّا فلسطين فعادت إلى الموقع الثالث.

ترتيبٌ لا يعني قائمةً مُقفلة، إذ كثيراً ما تطرأ بعض الأحداث التي تقلبُ التدرّج، لكنّها تكونُ عابرةً وتعودُ بعدها الجدولة إلى ما كانت عليه. لأنّ أهميّة الحدث واتّساع مفاعيله هي ما يُحدّدُ، إضافةً إلى اهتمامات المُشاهد، ترتيب الأولويّات، خاصّةً في ضوء المنافسة وظُهور وسائل الميديا الجديدة.

الجدول الرقم (٤ ـ ٣)

توزيع البرامج بحسب أولويات المناطق والقضايا، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

السنة	الجزيرة	العربية	المنار	أبو ظبي
١٩٩٦	فلسطين (اغتيال رابين ومستقبل العملية السلمية) العراق (الحصار)		لبنان (المقاومة) فلسطين العالم العربي إيران	
١٩٩٧	فلسطين (العمليات الفدائية) العراق (الحصار)		لبنان (المقاومة) فلسطين العالم العربي إيران	
١٩٩٨	العراق (الهجمات الأمريكية) أفغانستان ـ عمليتي نيروبي ودار السلام واتهام القاعدة بها) فلسطين (النزاع بين السلطة والمعارضة).		لبنان (المقاومة) فلسطين العالم العربي أفغانستان	
١٩٩٩	العراق (الهجمات الأمريكية) فلسطين أفغانستان		لبنان (المقاومة) فلسطين العراق العالم العربي	
٢٠٠٠	لبنان (تحرير الجنوب) فلسطين (الانتفاضة) العراق (تبادل التهديدات واشتداد الحصار) أفغانستان (تدمير تماثيل باميان وتهديدات الغرب)		لبنان (التحرير) فلسطين العالم العربي العراق أفغانستان	لبنان (التحرير) فلسطين العراق أفغانستان

يتبـع

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

تابـع

٢٠٠١	الولايات المتحدة (١١ أيلول/ سبتمبر) أفغانستان (الحرب والاحتلال) العراق (تهديدات) فلسطين (الانتفاضة)		الولايات المتحدة (١١ أيلول/ سبتمبر) فلسطين (الانتفاضة) أفغانستان (الحرب والاحتلال) العراق (التهديدات)	الولايات المتحدة (١١ أيلول/ سبتمبر) أفغانستان (احتلال) فلسطين (يوميات الانتفاضة) العراق
٢٠٠٢	أفغانستان (الاحتلال والمقاومة) العراق (تهديدات وهجمات) فلسطين (الانتفاضة)		فلسطين (الانتفاضة) لبنان (حزب الله) أفغانستان (الحصار والاحتلال) العراق (التهديدات)	فلسطين العراق أفغانستان
٢٠٠٣	العراق (الاحتلال) أفغانستان العالم العربي (ردود الفعل) فلسطين	العراق (الاحتلال) أفغانستان السياسات الأمريكية فلسطين	لبنان العراق (الاحتلال والمقاومة، خاصّة الشيعية) فلسطين العالم العربي أفغانستان	العراق (الاحتلال والمقاومة) العالم العربي أفغانستان
٢٠٠٤	العراق (معركة الفلوجة) أفغانستان العالم العربي فلسطين	العراق (الاحتلال) السياسات الأمريكية أفغانستان فلسطين	لبنان العراق (المقاومة) فلسطين العالم العربي	العراق (الاحتلال والمقاومة) العالم العربي أفغانستان

المصدر: جدول أعدّته الباحثة بناءً على جداول البرامج التي حصلت عليها من أرشيف المحطّات (مُنذ التأسيس وحتّى عام ٢٠٠٤)، إضافةً إلى بعض المُقابلات والمُراقبة الشخصيّة.

رابعاً: توزيع البرامج بحسب الإنتاج: التوازن بين البرامج المنتجة محلياً والمستوردة

في دراسةٍ كميّة لمُجملِ ما يُعرضُ في التلفزيونات العربيّة، تعتبر مجلّة **اتحاد الإذاعات العربيّة** أنّ: «البرامج المُستورَدة تُشكّلُ بين (١٥ ـ ٤٥) بالمئة، والبرامج المُنتجة محليّاً بين (٥٥ ـ ٨٤) بالمئة»[١٦]. غير أنّ هذه الأرقام لا تنطبق على المحطّات الأربع موضوع البحث، لأنّ الأخبار كلّها مُنتجة محلياً، بل إن هذه الخاصيّة هي التي تُعطي الأهميّة لعملها، حيثُ نجحت بواسطةِ شبكةِ مُراسليها ومكاتبها أن تقلب قاعدة تدفّق الخبر من

(١٦) انظر: **مجلة اتحاد الإذاعات العربيّة** (تونس)، العدد ٢ (٢٠٠٩).

الشمال إلى الجنوب، حتّى إنّ سي إن إن، و بي بي سي اضطرّتا أحياناً للنقلِ عن الفضائيّات العربيّة. غير أنّ هذا النجاح لم يطل برامج المُنوّعات، علماً أن الرسالة التي تحفُر، ببطء، التغيير في وجهة تكمن في برامج المُنوّعات، خاصّةً الدراما. من هُنا فإنّ التوازن مُنعدمٌ كُليّاً على هذا الصعيد، حيثُ يخضع المُشاهد العربي، باستمرار، لهذا التأثير الناعم الذي تحمله البرامج المُستوردة، فيما تغيبُ كُليّاً الحالة المُقابلة. خاصّة وأنّ الجرأة التي شدّت بها المحطّات الإخباريّة المُشاهد لم تكن هي هي بالنسبة إلى ما تُقدّمه له بخُصوص القضايا الاجتماعية وحتّى الاقتصاديّة التي تؤرّقُه.

الجدول الرقم (٤ ـ ٤)
نسبة البرامج المحليّة والعربيّة إلى المُستورد

القناة	الأرقام بالنسبة المئوية		
	محلي	عربي	أجنبي
أبو ظبي	٦٥	٢٥	١٠
المصرية	١٠٠		
روتانا			
روتانا كليب	٨٥	١٥	
ART			
LBC	٨٢	٥	١٣
LBC أوروبا	٨٨	٥	٧
LBC أمريكا	٨٧	٩	٤
LBC أستراليا	٨٧	٩	٤
شبكة ORBIT			
الجزيرة	٨١	٧,٨	١١,٢
ANN	٤٠	٥٥	٥-
المنار	٨٠	٢٠	
NBN	٩٥	-	٥
المجد	٩٥		٥

المصدر: مجلّة **اتحاد الإذاعات العربيّة** (تونس)، العدد ٢ (٢٠٠٨).

بحسبِ الجدول الرقم (٤ ـ ٤)، تُشكّلُ البرامج المحليّة والعربيّة في الجزيرة (٨٨,٨ بالمئة)، أمّا البقيّة فهي غالباً برامج المُنوّعات، القليلة، التي

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

تبثّها القنوات الإخباريّة. أمّا قناة أبو ظبي فتخُصّ الإنتاج العربي والمحلّي بـ (٩٠ بالمئة) من جدول برامجها «فيما يخُصّ المنوّعات، تحرص القناة على التوازن بين ما هو عربيّ وما هو أجنبيّ بحسب طبيعة الجمهور وتوقُّعاته»، يقولُ مُدير البرامج في القناة. والواقع أنّ تلفزيون أبو ظبي كان رائداً مُنذُ المرحلةِ الأرضيّة، بتمويل الإنتاج العربي.

من جهةٍ ثانية، اشترت القناة عدداً من الفورمات الأجنبيّة وأقلمتها. أمّا المنار، فإنّ كُلّ (١٠٠ بالمئة) ممّا تُقدّمه عربيّ محليّ (غير أنّ الإنتاج الإيراني دخل القناة بقوّة بعد عام ٢٠٠٥).

كانت الوثائقيّات هي ما يُشكّل ضعف الإنتاج، فأكثرها مُستورد وأنغلوسكسوني. حالٌ تغيّر بعد عام ٢٠٠٤، حيثُ انتبه الجميع إلى أهميّة الوثائقيّات وقرّر تشجيع إنتاجها المحليّ وتمويله، فأنشأت الجزيرة محطّتها الوثائقيّة المتخصّصة ومهرجانها السنوي، واعتمدت الـ إم بي سي برنامجاً لتشجيع المُخرجين الشباب.

خامساً: توزيع البرامج بين مُوقّعة ومجهولة الهويّة

الجدول الرقم (٤ ـ ٥)
توزيع البرامج بحسب المصدر (موقّع ـ مجهول الهويّة)
بين ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤

(الأرقام بالنسبة المئوية)

	الجزيرة	العربية	أبو ظبي	المنار
مجهول الهويّة	٧٠,٦	٥٨,٥	٦٢,٥	٦٠
موقّع	٢٩,٤	٤١,٥	٣٧,٥	٤٠

المصدر: جدول أعدّته الباحثة بناءً على جدول برامج القنوات الثلاث الأولى بين الأعوام ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤، والأرقام التي زوّدتها بها قناة المنار.

تكمن أهميّة التمييز بين البرنامج المُوقّع ومجهول الهويّة، أنّ **الأوّل**، يحملُ، نظريّاً، وجهة نظر صاحبه، **أمّا الثاني**، فيُقدّم وجهة نظر القناة. غير أنّ هذا التمييز يظلُّ نظرياً، في جزءٍ كبيرٍ منه، حيث إن المحطّات لا تختارُ مُوظّفيها إلا بما يُناسبُ سياساتها، وبخاصّة المنار والعربيّة. وإذا كانت

الجزيرة قد بحثت عن صورةِ التّعدُّد والتنوّع بين هؤلاء، فإنّ ذلك هو سياسةٌ بحدّ ذاته. أمّا أبو ظبي، فقد اختارت أن تقف في الوسط من الخيارين. من دون أن يعني ذلك كُلّ ذلك أنّ أياً من القنوات تسمح للعاملين بحُريّة تتجاوز الخُطوط التي رسَمتها لنفسها، بمن فيهم المُراسلون الذين نقلوا النشرة الإخباريّة من مُجرّد سردٍ منقولٍ عن وكالةِ أنباء أو عن «مصادر مجهولة» إلى تقارير ساخنةٍ من موقع الحدث وشهاداتٍ حيّة من الموجودين فيها، من دون أن يعني ذلك أيضاً الحُريّة المُطلقة إزاء تعليمات القناة الأُم.

إذاً، تبقى أهميّة الخطاب المُوَقّع ـ أي المنسوب إلى صاحبه ـ في مُداخلات الضيوف، وهي كثيرة وتحتلّ جزءاً كبيراً من أوقات البثّ عبر البرامج الحواريّة وغيرها، من دون أن ننسى أيضاً التساؤل حول الانتقائية في اختيارهم.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

القسم الثاني

جيوبوليتيك نشوء وتطوّر القنوات الإخباريّة الأربع

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الفصل الخامس

النظام العالمي الجديد وترجمته الإعلامية

تمهيد

خلال المؤتمر الذي عقد في باريس حول الأمن والتعاون، لإبرام نهاية يالطا وذلك في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠، أعلن الرئيس الأمريكي بوش الأب: «لقد انتهت الحرب الباردة»، أي المواجهة بين الشرق والغرب. بعد ذلك بشهر واحد، في أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠، ألقى خطبة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حول أزمة الخليج تحدث فيها عن «السنوات الماضية» وعن «عصر جديد» وصفه بـ «الأمن والتعاون والحرية»[١].

بعد ذلك بثلاثة أشهر، في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، اندلعت المواجهة على حدود العراق، «حرب دارت أمام كاميرات التلفزيون كما دارت على الأرض، ومثلها مؤتمر مدريد الذي نتج منه»[٢]. وبحسب تعبير جان بيير شوفنمان فإن «حرب الخليج قد ساهمت في إرساء وتمتين الحدود (أسوار لإمبراطورية) (Limes) ما إن انتهت حتى استقر نظام عالمي جديد حدده الشمال»[٣].

«لقد حدث كل ذلك كأزمة كان من الممكن أن تكون موضوع حل

---

(١) Jean-Christophe Rufin, *L'Empire et les nouveaux barbares* (Paris: J. C. Lattès, 1991), p. 17.

(٢) Jean-Pierre Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...* (Paris: Albin Michel, 1992).

انظر أيضاً الترجمة العربية للكتاب: جان بيير شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ترجمة حياة الحويك وبديع عطية (عمّان: دار الكرمل للنشر، ١٩٩٢)، ص ١١٩.

(٣) Rufin, Ibid., p. 210.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

تفاوضي، لكنها كانت مناسبة التقطتها الولايات المتحدة لتقيم هيمنتها المطلقة، في المجال السياسي الاقتصادي والعسكري على منطقة ذات أهمية حيوية»[٤]. وفي حين تعتبر «قضية المصادر الطبيعية، وخاصة مصادر الطاقة، ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى أية قوة صناعية، في هذه المرحلة من التاريخ الاقتصادي للعالم الصناعي... ذاك أن الموضوع يمسّ وضعها ووسائلها والوسائل التي تسمح لها بالعمل»[٥].

لقد وضع التاريخ طفلاً جديداً هو قوة عظمى وحيدة أبعادها أبعاد الأرض وهي قوة الولايات المتحدة الأمريكية، روما الجديدة، حتى ولو كان جميع مسؤوليها يحرصون على التأكيد «نحن لسنا إمبراطورية»[٦]. لقد استعاد التاريخ دورته، إنها «نهاية عالم ميترنيخ، والعودة من جديد إلى عالم بيلوب»، والى «أيديولوجية القطب الواحد»[٧]، نهاية القطبين ونهاية «باندونغ وعدم الانحياز اللذين أرادا أن يعطيا مضموناً لمصطلح العالم الثالث، وقد أصبحا الآن بعيدين»[٨].

يُشكّل النظام الإعلامي الجديد إحدى روافع هذا النظام العالمي الجديد بما يُحلُّهُ من مفهوم مجتمع الاتصالات المُرتبط بالثورة التقنيّة. مُصطلحٌ تحوّل إلى «مُجتمع الاتصالات المُسوّق إعلاميّاً» بحسب تعبير برنار مياج؛ فيما يُشكّل العُبور من حرب الأفكار التي كانت تسم مرحلة الحرب الباردة إلى حرب الهيمنة على مُنتجي الاتصالات ووسطائها، بدءاً بالشركات مُتعدّدة الجنسيات والمُنظّمات الدوليّة التي نمت وتطوّرت في إطار العولمة النيوليبراليّة، والتي تهدف إلى تسريع إرساء التنظيم الذاتي (Autorégulation).

يرتبط العالم العربي بهذا النظام الجديد ارتباطاً وثيقاً. حيثُ يرتسمُ على ساحة الشرق الأوسط نظامٌ إقليميٌّ جديد يُشكّل إطاراً للثورة الإعلاميّة العربيّة التي جسّدتها الفضائيّات.

---

(٤) Paul-Marie de La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXI^{ème} siècle sera-t-il américain?* (Paris: B. Grasset, 1996), p. 137.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٧) Rufin, Ibid., p. 17.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢.

أولاً: خصائص النظام العالمي الجديد وترجمتها الإعلامية

١ ـ خصائص أيديولوجية وبراغماتية

أ ـ تعريف الهوية بالآخر، الحاجة إلى عدوّ، هانتنغتون «من نحن؟»

«ما جدوى روما من دون أعدائها؟»[٩].

من دون «عدوّ يستطيع أن ينافِسها كوِحدة وكقُوّة؟»[١٠] هكذا تُشكّل تجربة الانتصار «تجربة خسارة»[١١] في الوقت ذاته، خسارة التوازن وخسارة السبب المبرر، وبخاصة عندما تجد نفسها «عاجزة عن تمويل عجزها في مجالَي الاقتصاد والثقافة»[١٢]. إذاً لا بد من إيجاد، أو اختراع، إمبراطورية أخرى، إمبراطورية الشيطان، وهكذا أصبح حليف الأمس عدوّ اليوم والغد، والعكس صحيح.

في البداية تم اللجوء إلى عصابات تهريب المخدرات، إلى بعض الأزمات والمشاكل الدولية الأخرى، من كولومبيا إلى نيكاراغوا. لكن هذه لم تنجح في ملء الفراغ الذي نعته العالِمُ الاقتصادي إيلي كانيتي، حامل جائزة نوبل، بـ «الكُتلة المُقابِلة»[١٣] التي يُفسّرها بالقول «إن الإمكانية الأكثر ضماناً وغالباً الوحيدة التي تؤهل كتلةً للصمود هي وجود كتلةٍ ثانيةٍ تضعُ نَفسها مُقابلها. تتواجهان وتقيسُ كُلٌّ مِنهُما ذاتها بالأخرى أو تتبادلان التهديد جدّياً، كذلك فإنّ حلم أو خيال الكُتلة المقابلة (Masse Double)، يسمحُ للأولى بعدم الاندماج»[١٤]. وفي غياب الاتحاد السوفياتي، كان لا بُدّ للولاياتِ المتحدةِ أن تجِد إمبراطوريّةَ شرٍّ، مُقابلة. وهذا ما يُمكِنُ أن يشكّله

---

(٩) ورد في: المصدر نفسه، ص ٩.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٤.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ص ١٥١، و Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...*

(١٣) Rufin, Ibid., p. 14.

(١٤) Elias Canetti, *Masse et puissance*, trad. de l'allemand par Robert Rovini (Paris: Gallimard, 1986), p. 64. ورد في: Rufin, Ibid., p. 9.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

العالم العربي الإسلامي خاصة إذا ما انزلق نحو الأصولية[١٥]. إلى أن جاءت الأحداث تقدم لجورج بوش «عدواً على طبق من ذهب»[١٦] عراق صدام حسين. قبل أن يشكّل ١١ أيلول/سبتمبر الهدية الكبرى ومعها الإرهاب والإسلام. هكذا اشتعلت من جديد الحدود التي تحدث عنها توينبي، أي حدود الإمبراطورية بين العالم الإسلامي والغرب.

العراق البعثي هو الدولة العربية الأكثر غنىً والأكثر قوّة، وهو يحملُ ذَنْباً تاريخياً يتمثّلُ في تأميمِ النفط، وقد خرج لِتَوّهِ مُنتصراً مِن حربِ ثماني سنوات مع إيران. حرب لم تكن حربَه وحده بل حربُ العرب. لقد حماهم، وبخاصّة إمارات الخليج العربي، من « تصدير الثورة». كذلك يُشكّل نموّه وجيشه تهديداً وُجودياً لإسرائيل وعائقاً أمامَ الهيمنة الأمريكية على المنطقة. لذا، فإنّ القضاء على هذا التهديد يصبحُ ضرورةً مُلحة لِكلا الطرفين، لكنّه يبدو صعباً مع الشعبيّة الكبيرة التي نجح العراق في تحقيقها على امتداد العالم العربي. ناصر آخر.

وها هو يُقدّم عام ١٩٩٠، الهدية المُنتظرة للأمريكيين: يردّ على استفزازات المسؤولين الكويتيين باجتياح الإمارة منتهكاً بذلك القانون الدولي. وهكذا تصدُرُ الإدانة عن الجامعة العربية وعن مجلس الأمن.

القوّة العظمى الأمريكية تطرح نفسها ضامنةً السلام والتناغمِ الدوليين، وها هي قد وجدت الخطر الذي يُهدّدهما: العراق الذي أَصبح موضوع حملة أدت فيها وسائل الإعلام دوراً أكبر من الذي أدته الجيوش. أما مطلب تطبيق القواعد ذاتها والقرارات ذاتها على إسرائيل فقد تمّت تغطيته في مدريد بمسرحية إعلامية أُخرِجت بشكل جيد.

عام ٢٠٠٢، جاء دور «الدول المارقة» التي لم تُعامَل كلها بالطريقة نفسها، بحيث تترك الانطباع بأنها لم تُذكر معاً في خطاب الرئيس بوش حول حال الأمة وفي الحملة الإعلامية التي تبعته إلا لخلق بيئة مؤاتية للتدخل الأمريكي في العراق. هنا لعبت هذه الحملة الإعلامية دوراً كبيراً، هو الدور

(١٥) شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ص ١٤١، و Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...*

(١٦) المصدران نفسهما.

المنوط بالحملات الإعلامية قبل كل عمل سياسي أو عسكري.

هل هي عملية تحوير إعلامي كبرى؟ عملية شيطنة كبرى؟ أم أنها قد استفادت من وقائع وأحداث وإعاقات وأخطاء وقع فيها العدو المُفتَعَل الآخر؟

أيّاً يكُن الجواب، فإنّ وسائل الإعلام هي دائماً الأفضل لتنفيذ هذه المهمة في عالم يعيش عصر الاتصالات كما يعيش عصر التفوُّق الأمريكي بلا مُنازعٍ في هذا المجال؛ تفوق تكنولوجي، تفوق في تدفق المعلومات، تفوق في الأبحاث، وتفوق الشركات متعددة الجنسيّات؛ في هذا السياق توزّعت وسائل الإعلام العربية بين من حاول مقاومة الخطّة الإعلاميّة الأمريكية، وبين من سوّق لها، وفي هذا السياق الأخير اندرجت مُعظم الفضائيات.

إذا كانت أزمة الكويت قد قدمت هدية «العدو العراقي»، فإن ١١ أيلول/سبتمبر، جاءت بعدها بعشر سنوات ليقدم الهدية الأكبر: «الخطر الإسلامي». في كتابه الذي صدر في نيويورك عام ٢٠٠٤[١٧]، ونقل إلى العربية تحت عنوان **من نحن؟ تحدّيات الهوية الأمريكية**[١٨] اعتبر صاموئيل هانتنغتون، أنّ العداء للإسلام يُعمّق الهويّة الأمريكية؛ فهو يعتبر أنّ هذه الهوية قد استفادت من قاعدتين تتمثل إحداهما في الأعداء الذين حاربهم الأمريكيون على امتداد تاريخهم، بدءاً بالهنود الحمر وانتهاء بالحرب الباردة، ذاك أن عداء الآخر يؤدي دوراً رئيساً في تشكيل الهوية الوطنية لكل مجموعة بحسب رأيه، وهو يحلل التحديات التي واجهتها الهوية الأمريكية خلال العقود الأخيرة ويضع ضمنها تطور وسائل الإعلام التي تربط المهاجرين الجُدد ببلدانِهم الأصلية. كما يُحدد العناصر التي تهدد الهوية الأمريكية بـ:

- تطوّر الليبراليين الأمريكيين الذين يدعون إلى التعددية الثقافية.
- سياسة الهجرة.
- سقوط الاتحاد السوفياتي وغياب بلورة عدو جديد.

معتبراً أنّ هذه العوامل أثّرت سلباً في الهوية الأمريكية التي يُحدّدها

(١٧) Samuel P. Huntington, *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity* (New York: Simon and Shuster, 2004).

(١٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

هانتنغتون بـ: «الإثنية البريطانية»، «الديانة المسيحية»، «الثقافة الأنكلوبروتستانتية»، و«العرق الأبيض». إذاً، ثمة سيناريوهات ثلاثة، كلها خطيرة تُطرح للمستقبل، والحل لها جميعاً يكمنُ بحسبِ الكاتبِ في «صراع الحضارات» الذي يتطوّرُ في اتجاهين راديكاليين: العودة إلى الأصوليةِ البروتستانتية، وتأطير عدوّ جديدٍ هو الإسلام. من هنا فإن نُمو الحسّ الديني المُتطرّف على المستوى الدولي يمكن أن يخدم هذين الهدفين معاً، تعميق الأصولية البروتستانتية وتفعيل، وربّما تضخيم، العدوّ الجديد[19].

وقد ساهم القهر والكبت اللذان كانت تعانيهما الشعوب الإسلامية في العالم العربي وآسيا في تسهيل ذلك، إضافة إلى عوامل تاريخية وسوسيواقتصاديّة أخرى تساعد في تفعيل الكراهية: ذكريات الاستعمار وآثاره المستمرة، مستوى الفقر وغياب العدالة الاجتماعية، البطالة، الفساد، الإذلال والقمع الذي تعرّض له الناس عبر قرون على يد الأنظمة المدعومة من الغرب، نقص العقلانية والانفتاح الناجمين عن كل ذلك، وأخيراً تراجع المَدّين القومي واليساري ما ترك فراغاً لا تحتمله الطبيعة. كذلك يؤدي عاملان سيكولوجيّان دوراً في هذا التفعيل: مركز قيمة الكرامة في منظومة القيم العربية، وواقع أنّ الإنسان الذي يقع في اليأس يبحث عن الملجأ في عالم ماورائي ميثولوجي.

كذلك يحرص هانتنغتون على التأكيد أنّ كراهية الشعوب الإسلامية للولايات المتحدة لم تكن بسبب إسرائيل وإنما تجد منابعها في الكراهية والغيرة إزاء الثروة والثقافة الأمريكيتين. ومن الملفت أن بنيامين نتانياهو قد طرح هذه الفكرة وتوسّع فيها في كتابه **استئصال الإرهاب** الذي صدر في نيويورك عام ١٩٩٥ وتُرجمته إلى الفرنسية تحت عنوان **أمن وسلام**، وترجم إلى العربية عام ١٩٩٦ «ترجمة الباحثة». وكذلك في الخطاب الذي ألقاه امام الكونغرس إثر أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر[20].

هنا تتطلع وسائل الإعلام، وخاصّةً المرئية المسموعة، بالدور الرئيس

---

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) الكتاب والخطاب، ترجما إلى العربية على يد الباحثة؛ نشر الأول على حلقات في صحيفة **الدستور** الأردنية عام ١٩٩٦، ثم أعيد نشره في صحيفة **الوحدة** الأردنية عام ٢٠٠٣، كما نشرت ترجمة **الخطاب** في صحيفة **الدستور** عام ٢٠٠٢.

في ترسيخ حوار أو صراع الحضارات، في تفعيل العداء للإسلام وعداء الإسلام للآخرين، وفي رسم صورة الآخر، ولنَقُل في إرساءِ عولمةٍ إسلاميةٍ توازي العولمة الأمريكية، على أنقاض الدولة القومية أو حتى الخصوصية القومية. ذاك أن نشر نمط الحياة الأمريكية الذي يخدم أهداف الاستهلاك يؤدي في الوقت ذاته إلى رفع مستوى الكراهية وبشكل أدق في رسم كل ما يعتبر دليلاً على هذه الكراهية في تداع سيكولوجي لا عودة عنه. كما يساهم في إزاحة كل ما يعكس التبادل والحوار إلى دائرة الظل. ألا يتساءل المتلقّي: كيف تبث الفضائيات التي تنتمي إلى جهات قريبة من الأمريكيين الصور الأكثر قسوة والرسائل والتصريحات الأكثر تطرفاً وأصولية من مثل رسائل وخطابات بن لادن، وتتبنى نبرة بالغة العداء للأمريكيين؟

قد تبدو سياسة كهذه جذابة بالنسبة إلى الجماهير غير الواعية والتي تشعر بالكثير من الكبت والظلم، والنتيجة أنها تندفع أكثر في منطق الصراع، الذي يشكّل عندما يرتبط بالدين خطراً كبيراً داخل مجتمعاتنا نفسها، كما داخل كل مجتمع متعدد الأديان، متعدد الثقافات، كما هو حال معظم مجتمعات العالم. لا يغيّر في الأمر شيئاً أن تتابع الولايات المتحدة الأمريكية حوارها مع نخب عربية محدودة، بل إن ذلك يؤدي إلى تعميق الفجوة داخل المجتمعات العربية نفسها، كما يؤدي إلى رمي الطفل مع ماء الحمام في ما يتعلق بالحوار الحقيقي، التبادل الحقيقي، والتغيير الحقيقي.

ب ـ العولمة وعبادة السوق

لا يشكّل السوق في الثقافة العربية الإسلامية مكان تبادل للمنتجات المادية فحسب، بل إنه أيضاً مكان تبادل ثقافي بامتياز؛ فالشعر العربي الجاهلي مرتبط بسوق عكاظ الذي لم يكن في الواقع إلا سوقاً تجارياً، لكنه على الرغم من ذلك لا يثير في الوعي الجمعي العربي إلا أسماء الشعراء الكبار المؤسسين وأبيات معلقاتهم. والملفت للنظر هنا أن هؤلاء الشعراء كانوا يوصفون بالتقليد العربي بـ «صحافيي عصرهم». والطريف أيضاً أن هذه المرحلة، مرحلة عكاظ والجاهلية، هي مرحلة تعددية واسعة ولكن ضمن إطار نظام قيمي قَبَلي محدد، في حين أن مأسسة الدولة الأحادية وحدت الخطاب السياسي والقيمي وجعلت شاعرها من ينطق باسمه، أما من لا ينضوي تحت لوائه من المعترضين، فيقصر نفسه على شعر الغزل. فهل نعيش

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

نحن اليوم عصر الانتقال إلى «عبادة إله السوق»[٢١] كما يقول روجيه غارودي؟

لكل سوق ثقافته، قيمه التي يرسخها، ويعزز الذين يعززونها. لكن السوق المعاصر يمثل بالنسبة إلى البعض انتصار مجتمع الاتصالات، في حين يعتبر البعض الآخر أنه «لم يعد وسيلة تواصل وتبادل، بل أصبح المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية والشخصية والمصدر الوحيد للسلطة وللتراتبية الاجتماعية» في خدمة «مفاهيم أكثر كونية لثقافة الاستهلاك العالمية»[٢٢]؛ فهو الذي يحدد معنى الحرية، الحق، السيادة، الخير والشر. فيكتب بول ماري دو لاغورس «أن تبيع أو تشتري أصبح قضية حياة أو موت بالنسبة إلى اليابانيين»[٢٣]. وهذا ما ينطبق على كل القوى الصناعية المنتجة في العالم، ما يحتاج إلى سيادة ثقافة الاستهلاك. نحن إذاً، أمام «نظام اقتصادي جديد» يفترض ملايين الأشخاص «الذين لا يعرف أي منهم إلا مصلحته الخاصة» بحسب تعبير ميلتون فريدمان الذي يؤكد أن «نظام الأسعار هو الذي يتولى هذه المهمة»[٢٤].

من جهة أخرى «تتنامى ضخامة الشركات المتعددة الجنسيات بشكل هائل... وإذا بالمسؤولين عن المال، الاقتصاد، الجيش، والحكومات هم أيضاً نتاج نظام المنظمات»[٢٥].

ج ـ التماهي بين أصحاب السلطات الاقتصادية وأصحاب السلطات السياسية؛ التحالف بين المتعددة الجنسيات والرساميل المحلية

في سياق السوق السائد، يتماهى الممسكون بالسلطات السياسية والأمنية مع رجال الأعمال (جورج بوش الأب، مدير الـ سي. آي. إيه (CIA) وتاجر

---

(٢١) Roger Garaudy, *Les ètats-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXIème siècle* (Beyrouth: Al Fihrist, 1998), p. 31.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 81

(٢٤) Garaudy, Ibid., p. 34.

(٢٥) Adrien Lhern, dans: *La Démocratie aux ètats-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, sous la dir. de Jean-Paul Bled [et al.], CNED-SEDES concours: CAPES-Agrégation d'histoire et de géographie ([Poitiers]: CNED; [Paris]: SEDES, 1999), p. 71.

بترول في تكساس، تشيني نائب رئيس ومالك لـ هاليبرتون). إذاً، «وبما أن التجارة لا تعرف حدود الوطنية، وبما أن المُصنّع يريد العالم سوقاً مفتوحة أمامه... فإن أبواب الأمم التي تبقى مغلقة أمامه يجب أن تكسر... كما يتوجب حماية التنازلات التي يحصل عليها المموَّلون بواسطة وزارات الدولة حتى ولو اقتضى الأمر انتهاك سيادة الأمم الرافضة»[٢٦].

من جهة أخرى تأتي التحالفات القائمة بين رأس المال الأمريكي، متعددة الجنسيات، ورأس المال العربي، لتولّد مزيداً من المرارة والكبت.. ذاك أن هذه الرساميل مرتبطة بدقة بالأنظمة الحاكمة، وبطبقات معيّنة. هكذا تتعمق الهوة أكثر فأكثر، ليس بين أغنياء وفقراء فحسب، بل بين حكام ومحكومين خاصة في غياب ديمقراطية حقيقية. وقائع تتجاوزها، أو تؤجل الإمبراطورية التعاطي معها وهي تركز جهدها على تأكيد «هيمنتها المطلقة والحصرية»[٢٧].

وإذ تشكّل وسائل الإعلام قطباً رئيساً في هذا التأكيد، فإن العناوين التي تدير السياسات الاتصالية هي العناوين نفسها التي تشكّل المبادئ النيوليبرالية: حرية الحركة، هيمنة التدفق الأحادي الجهة، تسلُّط متعددة الجنسيات، عولمة النمط الأمريكي. وكلها سمات من شأنها المساهمة في هذا الانتصار الاقتصادي ـ السياسي وتأمين مصالح المستثمرين.

٢ ـ نظام إعلامي جديد

أ ـ سوق واحد وإعادة توطين المؤسسات

هكذا يشكّل النظام الإعلامي العولمي الجديد ترجمة هذه الحالة ووسيلة تطبيقها. «العالم سوق واحدة» ذاك هو شعار دعاة «العولمة» الإعلامية. وهم يعودون في ذلك إلى تطور تكنولوجيات الاتصال، خاصة الإنترنت وعبور الصحافة المكتوبة للحدود الجغرافية واللغوية والكوابل والأقمار الاصطناعية في المجال التلفزيوني، كما إلى سياسات تتمثل في تشجيع «إنشاء محطات خاصة تتحدى المحطات الرسمية أو محطات الدولة، وتشجيع تعددية القنوات

---

(٢٦) Wilson Woofer,

ورد في: Noam Chomsky, *L'idéologie et l'économie* ([n. p.]: Ed. EPO, [n.d.]), p. 6.

(٢٧) La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 11.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

لتعزيز قيم السوق التأسيسية: الخصخصة والتجارية، الاستهلاكية، حرية تدفق المعلومات، الإعلام، المنافسة والكفاءة. لكن تضاف إليها قيمٌ تتأتى من نمط حياة الأفراد والجماعات». نظام قيم جديد يشكّل مشروعاً «يؤدي على المدى البعيد إلى إنشاء سوق تلفزيوني دولي... تختفي فيه الحدود وتصبح من دون فعالية»[٢٨]. ولا شك في أن هذا المشروع والغاية التي يؤدي إليها، يقعان في صلب مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، إذ إنه يقوّي تبعية معظم دول العالم لها، سواء عن طريق عائدات بيع البرامج «لقد تضاعفت عائدات الشركات الأمريكية التلفزيونية الكبرى ثماني مرات بين عامي ١٩٨٠ و١٩٩٣»[٢٩]، أو عن طريق بيع التكنولوجيا، أو أخيراً عن طريق بيع **(الفورمات)**. حيث يلاحظ الباحثان ديفيد مورلي وكيفين روبنس، أن تأثير الميديا الأمريكية «يمكن رصده عبر الطريقة التي تنسخ بها وسائل إعلام دول العالم **الفورمات** التلفزيونية الأمريكية... لقد كتبت أمريكا كتاب قواعد التلفزيون الدولي، حيث إن **الفورمات** التلفزيونية التي وضعت وطورت في الولايات المتحدة قد حَدَّدت حرفياً الأطر التي تُنتَج ضمنها البرامج في أكثر الدول الأخرى»[٣٠]. وأخيراً عبر تفرع الشركات التلفزيونية الإقليمية والمحلية عن الشركات الأمريكية الكبرى والمتعددة الجنسيّات.

ب ـ التجمعات والفروع

يتبنّى تريستان ماتلار، التصنيف التراتبي الذي وضعه إدوارد س. هيرمان وروبرت وماكشيسني للمؤسسات التي تسيطر «على هذا النظام العولمي لوسائل الإعلام التجارية». حيث يوزّعانها على «ثلاث دوائر مختلفة تنتظم في تراتبيّة دقيقة، لكنّها تتّصل إحداها بالأخرى عبر عدد من الشركات المختلطة والأحلاف التي تؤدّي إلى ولادة كارتل عولمي حقيقي لوسائل الإعلام»:

ـ «المجموعات العولميّة الحقيقيّة... التي إن لم تكن كلّها أمريكية

(٢٨) Ralph M. Negrine and Stylianos Papathanassopoulos, *The Internationalization of Television* (London: Pinter, 1990), p. 9.

(٢٩) David Morley and Kevin Robins, *Spaces of Identity: Global Media, Electronic Landscapes, and Cultural Boundaries* (London; New York: Routledge, 1995), p. 11.

(٣٠) Tristan Mattelart, dir., *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières* ([Bry-sur-Marne]: INA; Bruxelles: De Boeck, cop. 2002), p. 55.

بالضرورة، فإنّ لها جميعاً مراكز قويّة في الولايات المتّحدة الأمريكية».

ـ «١٣ من وسائل الإعلام المهمّة جداً... التي تتدخّل على ساحة السوق الإقليمية أو على بعض قطاعات النظام العولمي للزبائن المُفضّلين لدى شركات الدائرة الأولى، الحريصة على اختراق الأسواق الإقليميّة».

ـ «مئات الشركات النافذة التي تسيطر على الأسواق الداخلية... والتي تقدّم خدمات لشركات الدائرتين الأولين»[٣١].

فعمليّات البيع، فرض الفورمات، قواعد الإنتاج التلفزيوني، الشركات الإقليميّة والمحلّيّة المتفرّعة من متعدد الجنسيّات التي ترتبط بدورها بالولايات المتّحدة الأمريكية، هي كلّها عناصر تؤكّد الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد، كما على الأفكار. حيث تشكّل هذه الهيمنة الثانية الشرط الضروري لبقاء الهيمنة الأمريكية.

إذا كانت البرامج المُستوردة تمتزج بالبرامج المنسوخة وبالبرامج المحليّة في خطٍّ قد يبدو أحياناً ذا تناقضات، فإنّ ما يبرره في الوقائع الاقتصادية ـ الثقافيّة. حيث برهنت التجربة على أنّ نظريّة تشابه (Standartisation) ونمطيّة (Homogénéisation) سلوكيّات المستهلكين التي صاغها الاقتصادي الأمريكي ثيودور ليفيد، هي نظريّة وهميّة فـ «الفوارق العائدة إلى الثقافة، الأذواق، المعتقدات الدينيّة وبنية الأعمال الاقتصادية»، ليست أبداً «من بقايا الماضي»[٣٢] كما وصفها في كتابه. لذلك فإنّ خبراء الجيوماركيتينغ، مثل فيليب كوتلر قد «دعوا الشركات إلى تكييف منتجاتها مع خصوصيّات الأسواق المقصود الاستثمار فيها» (Think Global, Act Local)[٣٣]، وذلك لأجل تأمين السوق. في هذا المجال برهن الباحثون في مجال دراسات تلقّي الجمهور على أنّ خصوصيّات المجتمعات هي التي تحدد تشكيل شيفرة الرسالة الإعلاميّة (Encodage). وعليه، فإنّ وسائل الإعلام العربيّة، حتّى البرامج المحليّة، هي الأكثر قدرة على بناء وتمرير الرسالة التي يريدها السوق، وبالتالي على ضمانة هيمنة الولايات المتّحدة الأمريكية لأطول وقت ممكن. أمّا في ما

(٣١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥١.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

يختصّ بالفضائيّات العربيّة التي تندرج كلّها في الدائرتين الثانية والثالثة من التصنيف المذكور، فإنّها تُمثّل بذلك نموذجاً واضحاً لتبنّي ونسخ الفورمات الأمريكية. نسخاً غيرَ مجّاني. ذاك أنّها تُنشئ وتثبّت القيَمَ والسلوكيّات التي يتطلّبها السوق كما تتطلّبها الاستراتيجية السياسيّة للولايات المتّحدة، مُمليةً بذلك الخطوط الرئيسة للتغيير الذي يُراد للمنطقة، في خدمة تدعيم عناصر قوة الإمبراطورية وتعويض عناصر ضعفها ومقاومة ما يواجهها من تحديات.

ثانياً: تحديات مستقبل الهيمنة الأحادية للقوة العظمى: ودور العالم العربي في تثبيت السيطرة

هل هذه الإمبراطورية الجديدة خالية من نقاط الضعف؟ ما هي نقاط القوة ونقاط الضعف التي تميزها؟ ما هو دور عالمنا العربي في تأكيد هيمنتها وفي حل مشاكلها؟ ما هو الدور الذي تلعبه الميديا وبخاصة المحطات الفضائية التي شكلت ظاهرة ترافق نشوؤها مع نشوء النظام العالمي الجديد؟ هل يشكّل تاريخ وسياق نشوء كل منها عنصراً من عناصر الجواب؟

المسألة تتعلق هنا بألا يكون ثمة «اعتراض يواجه الهيمنة الأمريكية ويهدد بالتالي بقلبها»[٣٤]. هنا تبدأ من جديد حرب الأفكار، الإرادات، والأنماط. حيث تأتي أزمة الأنماط لتضاف إلى «أزمة الأمم، أزمة الدول، أزمة الإمبراطوريات»[٣٥]. وهو خطر يمكن أن يصدر من الخارج كما يمكن أن ينبت من الداخل، ما يفرض الالتفاف على القوى المعترضة، على القوى التي يمكن أن تقاوم، وبخاصة في المنطقة المذكورة، كما على المشاكل الداخلية.

١ ـ عوامل قوة الإمبراطورية وعوامل ضعفها

أ ـ الثقافة

لا تتمثّل قوّة الإمبراطوريّة في الثقافة بمعناها التقليدي؛ فلا هي ديانة المسلمين أو الصّليبيين، ولا هي مدارس الإرساليّات الفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانيّة، ولا هي روافع الثقافة التقليديّة: الشعر، الرواية، المسرح،

(٣٤) La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 81.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

الموسيقى الكلاسيكيّة والفلكلوريّة. لكنّها وعلى الرّغم من كل ذلك، نمط حياة، إمبراطوريّة الكوكاكولا والماكدونالدز، وبالأمس الكاوبوي والبلوجينز.. هذا فقط؟! لا، بل إنّها أيضاً إمبراطوريّة السينما والمُسلسلات التلفزيونيّة وفورمات البرامج وبرامج التسلية، التي أثارت انتقادات كثيرة من جانب المثقّفين، لكنّها أثارت أيضاً العدد الأكبر من الدراسات الإعلاميّة على امتداد العالم، دراسات كشفت عن المستويات المختلفة لتأثير مسلسلات الـ (Soap Opera) على المجتمعات المُختلفة، والمستوى المحدود من التأثير على المجتمعات التقليديّة التي أصبح على السياسات الإعلاميّة الأمريكية أن تستهدفها بشكل خاص. والنتيجة أنّ الدراسات التي تناولت تلقّي مسلسل «دالاس»، على سبيل المِثال، قد أظهرت، كما يقول تريستان ماتلار إنّ: «المشاهدين الأكثر تحصّناً ضدّها كانوا المشاهدين العرب»[٣٦].

إذاً، فإنّه من الأفضل للمُخطِّط أن تمرّ الرسالة عبر صوت محلّي، يعزّز بلغةٍ محلّية القيم المناسبة لنموذج الاستهلاك والأمركة. «إنّ الإنتاج المحلّي للبرامج يضع أمام المُشاهد شخصيّات تشترك معه في الملبس، الغذاء، التعبير، وتحتفل بنفس المُناسبات»[٣٧]، كما تلحظ إيتيل دي سولا بوول، وهي تدعو إلى التغيير الذي يستوجبه تبنّي الثقافة المحلّيّة. وإذ تعتبر البروفيسور الأمريكية، أنّ القاعدة نفسها تنطبق على برامج التسلية كما على البرامج الإخبارية، فإنّها تبشّر بهذا الأسلوب لتبرير مبدأ التبادل الثقافيّ الذي يترجمه مبدأ حريّة تدفّق البرامج والمعلومات. صحيح أنّ الهدف المُعلن لمجموعة الباحثين الذين تنتمي إليهم بوول، كان تجنّب «الرداءة والفوضى»، لكنّ المنطق ذاته يُمكن أن يُوضع في خدمة التغطية على الأهداف الأمريكية في نشر ثقافة السوق وتسريب مفاهيم ثقافيّة وسياسيّة جديدة إلى الفضاء الإعلامي العربيّ، ومنه إلى المجتمع. ولا شكّ أنّ تجربة إيران كانت بليغة في هذا المجال، حيث إن القناة التلفزيونيّة الناطقة بالإنكليزيّة التي أقامها الشاه كانت من أفضل المحطّات، لكنّها لم تنجح في التأثير على الجمهور الذي فضّل صوت الخُميني.

(٣٦) Mattelart, dir., Ibid., p. 51.

(٣٧) Ithiel de Sola Pool, ورد في: المصدر نفسه، ص ٥١.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

ويظلّ هذا صحيحاً مع معرفتنا بأنّ تحليل الوضع الإيرانيّ يقود إلى تأثير وسائل الإعلام وهذا كان مدعوماً بعدد كبير من العوامل التاريخيّة، الدينيّة، الاجتماعية، السياسيّة ـ الاقتصادية. حيث كان للقهر العام الذي نتج من الانقلاب على مصدّق[٣٨]، لتورّط نظام الشاه في المؤامرة، للقمع المُمارَس ضد قوى المُعارضة، لغياب العدالة الاجتماعية، لأوضاع السياق الإقليميّ والأوروبّيّ دور في ذلك. غير أنّ التجربة الإيرانيّة التي كثيراً ما تذكرها الدراسات الإعلاميّة ليست فريدة؛ فتجربة الحُسينيّات في لبنان، وتجربة اجتماعات المقيل في اليمن، تبرهن تأثير صِيَغ محليّة تقليديّة لوسائل الاتصال الجماهيري.

دروسٌ لا يُمكننا أن نتبيّنها بوضوح من تحليل يقتصر على وسائل الإعلام من دون وضعها في سياقها الاجتماعي. وفي حال العالم العربي، لا يبدو أنّ هذه الدروس قد أُخِذت بعين الاعتبار، مثلها مثل مُقاومة المُتلقّي التي كثيراً ما يقلّل الباحثون من شأنها من دون أن يمنعنا ذلك من تحليل الديناميّات كما تمّ تصوّرها وطرحها.

إنّ نشر نمط الحياة الأمريكي يمرّ إذاً بنشر ثقافة السوق: «الزيّ الثقافيّ الجاهز الذي يتدفّق على العالم مُدمّراً الثقافات المحلّيّة»[٣٩] زيّ مُوَحّد أحياناً ومُطوّر أحياناً أخرى تطويراً يتكيّف مع المُتطلّب المحلّيّ، وبخاصّة بعد فشل تجربة نوميك (NOMIC)[٤٠] التي بدأت في السبعينيات وسقطت بسقوط معسكر عدم الانحياز وبانتصار حريّة العبور من دون حدود، بإفلاس أنظمة العالم الثالث. أخيراً يظلّ القول بحتميّة الثقافة العولميّة على كنس الساحة أمام مُجنزرات متعدّدة الجنسيّات، قابلاً للنقاش، إذ يعيدنا البعض إلى **مُقدّمة** ابن خلدون، ونظريّته حول انبهار المغلوب بالغالب، وبالتالي تبنّيه لكل ما يصدر عنه.

(٣٨) Lhern, dans: *La Démocratie aux ètats-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, p. 70.

(٣٩) Garaudy, *Les ètats-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXI*ème *siècle*, p. 27.

(٤٠) نوميك (NOMIC)، هي الأحرف الأولى من مصطلح نظام إعلامي جديد في الإعلام والاتصال، وهو المصطلح الذي أطلق على اللجنة التي أنشأتها مجموعة دول عدم الانحياز داخل اليونيسكو في بداية السبعينيات بهدف الدفاع عن حماية الخصوصيّة في التبادل الإعلامي والحؤول دون سيادة مصدر التدفّق الواحد للرسالة الإعلاميّة.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

ب ـ الاقتصاد

«لقد توقّفت الولايات المتّحدة عن أن تكون الدائن الأول للعالم، لتصبح المدين الأساسي... فهي تبدو كقلعة ضخمة لكن أساسها من الفخّار بسبب هشاشتها الاقتصادية». هذه المُلاحظة التي تصدر عن روجيه غارودي المعروف بعدائه للأمركة، تلتقي مع معادلة أخرى يصوغها باحث أمريكي يؤكّد أنّ «الولايات المتّحدة كانت تنتج عام ١٩٤٥، نصف الإنتاج العالمي في عالم يسيطر عليه بقسوة دمار الحرب. أمّا في عام ١٩٨٥، فقد أصبح إنتاجها يعادل أقل من ربع المنتوج الاقتصادي الدولي الذي تضاعف ٥ مرّات منذ عام ١٩٤٥»[٤١].

وهذا ما يفسّره باحث أمريكي آخر هو بول كينيدي، في كتاب عرف نجاحاً هائلاً وبخاصّة في الولايات المتحدة بعنوان **صعود وسقوط القوى العظمى**، إذ يقول «إنّ استعمال القوّة العسكريّة هو مُكلِف جدّاً من الناحية الاقتصادية» إذ إنّ البلد «يفتقر نتيجة ذلك، وهذا الإفقار يضرب قواعد القوّة»[٤٢]. مثله يتحدّث جون كريستوف روفين عن «التأثير الأيديولوجي الهائل» لهذا الطرح، حيث «إنّه يُستعمل لتبرير عُقوق العالم إزاء الولايات المُتّحدة»[٤٣] لكنّه لا يمضي في تحليله واستنتاجاته بحيث يصل إلى أفكار أخرى يُغذّيها ويبررها هذا الطرح، ومن بينها فكرة «الحقّ» و«الضرورة» في الهيمنة على مصادر الطاقة والثروات في العالم. ولا سيما عندما تعاني هذه القوّة، على الصعيد الداخليّ كثيراً من المشاكل الاجتماعية التي تهدد بالانفجار: «٣٣ مليون تحت خطّ الفقر، عدم الاندماج، التشرذم الاجتماعي، غياب العدالة الاجتماعية والفجوات الفاضحة داخل نظام يتبنّى الليبراليّة المُتطرّفة إلى أقصى الحدود لصالح الأغنياء»[٤٤]. ما يجعل «النظام يُحاول أن يُحافظ على تماسكه عبر القوّة التكنولوجيّة والعسكريّة، وذلك بفرض سيادة

(٤١) John D. Steinbruner, ed., *Restructuring American Foreign Policy* (Washington, DC: Brookings Institution, 1989), p. 2.

(٤٢) Paul Kennedy, *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conict from 1500 to 2000* (New York; London: Random House, 1987).

(٤٣) Rufin, *L'Empire et les nouveaux barbares*, p. 167.

(٤٤) Lhern, dans: *La Démocratie aux ètats-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, p. 100.

محدودة على الدول الأخرى وحقّ في التدخّل يحتفظ به لنفسه فقط»[٤٥]، لكنّ الحفاظ على هذا التفرّد يقتضي امتلاك مصادر اقتصادية كافية.

من هنا، فإن الاقتصاد الذي يشكّل عنصر ضعف، يمكن أن يتحوّل إلى عنصر قوّة في حال سيطرة الولايات المُتّحدة على ثروات الشرق الأوسط، وبخاصّة العربيّة منها. وتلك سيرورة مُعقّدة تؤدي وسائل الإعلام فيها دوراً حاسماً.

ج ـ القوة العسكرية

يُشكّل الخيار العسكري واحِداً من المُكوّنات الأساسيّة للاستراتيجية الأمريكية، حيث تمتلك الولايات المتّحدة الإمكانيّات العسكريّة الضخمة، وبخاصّة منذ أن تبنّى الرئيس ريغان قاعدة: «التسليح قبل اللجوء إلى البرلمان»[٤٦] ذاك أنّ الهيمنة تَعتبِر أنّ الأمر يتعلّق ببقاء الإمبراطوريّة، لذلك تفضّل البقاء على المبادئ الديمقراطية وعلى قيم المُساواة والعدالة الاجتماعية.

هكذا نرى سياسياً بريطانياً مُتبنّياً لمفهوم المهمّة الإمبراطوريّة، يتذمّر من التحفّظ الأمريكي في التعبير الواضح عن مفهوم الإمبراطوريّة في خطابات المسؤولين، وهو يتباهى بـ «٧٣٢ قاعدة عسكريّة في ١٣٠ دولة (تُضاف إليها القواعد التي أُنشئت مؤخّراً في العراق)، ميزانيّة عسكريّة تساوي ميزانيّة ١٥ بلداً، ٤٠ في المئة من الإنفاق الدولي في مجال التسلّح»[٤٧]. لكن المنطق الذي لا حياد عنه يستمر في ربط التسلّح بالتمويل، إذاً العسكري بالاقتصادي. والحل؟ أوَ لا يكمن هذا الحل أساساً في السوق والنفط؟ إذاً في منطقتنا؟

٢ ـ التحدّيات ودور الميديا

المسألة تتعلق هنا بألا يكون ثمة «اعتراض يواجه الهيمنة الأمريكية ويهدد بالتالي بقلبِها»[٤٨]. هنا تبدأ من جديد حرب الأفكار، الإرادات،

---

(٤٥) Garaudy, *Les ètats-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXIème siècle*, p. 28.

(٤٦) Lhern, dans: *La Démocratie aux ètats-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, p. 101.

(٤٧) Niall Ferguson, *Colossus: The Rise and Fall of the American Empire* (New York: Penguin Books; London: Allen Lane, 2005).

(٤٨) La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 130.

والأنماط. حيث تأتي أزمة الأنماط لتضاف إلى «أزمة الأمم، أزمة الدول، أزمة الإمبراطوريات»[٤٩]. وهو خطر يمكن أن يصدر عن الخارج، كما يمكن أن ينبت من الداخل، ما يفرض الالتفاف على القوى المعترضة، على القوى التي يمكن أن تقاوم، وبخاصة في المنطقة المذكورة. كما على المشاكل الداخلية.

أ ـ على المستوى الأمريكي الداخلي

في عام ١٨٤٠، أشار توكفيل، في كتابه **الديمقراطية في أميركا**، إلى هذا الحب الكبير للمال في مجتمع يتشكل من «تجمّع من المغامرين والمقامرين»[٥٠]. ما يفسر كون أيديولوجية المنفعة قد شكلت الرابط الأقوى الذي يدعم الوحدة الوطنية ليأتي محللون بعد توكفيل فيضيفوا إليه الإحساس بالخطر الخارجي المشترك.

لقد طرحت السياسة الليبرالية قيماً تتغنى بالحرية، بالديمقراطية، بالمبادرة الفردية، بالنجاح الفردي والمؤسساتي. لكنها عندما دفعت إلى أقصاها ابتداءً من المرحلة «الريغانية»، طرحت مشاكل اجتماعية خطيرة: «اختيار العرض، التخفيضات الضريبية، سياسة الذراع الحديدية مع النقابات وأنصار البيئة. قد أدت إلى «تعمق الفوارق الاجتماعية بين الأكثر غنى والأكثر فقراً. حيث بات هؤلاء يعتبرون أن لعبة الديمقراطية لا تعنيهم»[٥١]. استياء برهنت عليه نسبة الامتناع عن التصويت خلال الانتخابات الرئاسية الأخيرة. كذلك تشكّل مصادر وحجم تمويل المعارك الانتخابية خطراً حقيقياً على الديمقراطية مثلها مثل السيطرة الساحقة للوبي الصناعي العسكري الذي «دعمت الحكومة قوته الساحقة»[٥٢].

وكان الرئيس نيكسون، آخر رئيس تصدى لذلك، أو على الأقل حذر من هذا الخطر قائلاً... «إنه يديرها (الحكومة) ويهدد قيمنا». بل مضى في

---

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(٥٠) Tocqueville, dans: Garaudy, *Les ètats-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXIème siècle*, p. 43.

(٥١) Lhern, dans: *La Démocratie aux ètats-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, p. 100.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

خطاب الوداع الذي ألقاه في ٨ حزيران/ يونيو ١٩٦١، إلى حد وصفه بـ: «المجمع الصناعي ـ العسكري»(٥٣).

إلى أن جاء حكم الرئيسين بوش ـ الأب والابن ـ ليشكل قمة هذه الصيرورة وليجسد كلياً تعبير نيكسون «هو يديرها» وذلك عبر تحالف وشيج مع اللوبي النفطي واللوبي اليهودي المؤيد لإسرائيل. واقع لم يكن من شأنه إلا الإخلال بالتوازن الاجتماعي الذي تجلّى في ظواهر كثيرة خطرة (المخدرات، العنف، الاحتجاج، الامتناع عن التصويت، التفكك العائلي). ما حاول النظام أن يعالجه «بملء الفراغ عبر اللجوء إلى آليات اقتصاد السوق»(٥٤)، التي تقتضي تبعية الساحات التي تشكّل أسواقاً استهلاكية كما تقتضي الهيمنة على مناطق الثروات في العالم. إذاً، فإن النمو الاقتصادي، النجاح في مجال السياسة الخارجية، والنجاح في الخيارات العسكرية التي تقوم على ادعاء رسالي هي ضمانات الوحدة الوطنية وبقاء النظام ولوبياته المسيطرة «والحاكمة»؟

هذا الشرط الذي تؤدي وسائل الإعلام دوراً أساسياً في نجاحه سواء على المستوى الداخلي في الولايات المتحدة الأمريكية أو على مستوى العالم، بخاصة في مناطق النفوذ الاستراتيجي ومنها العالم العربي.

(١) عدم التأثر، مصدر تدفق واحد (One Flow)، لغة واحدة

أحد الشروط اللازمة لاستقرار إمبراطورية ما، هو عدم تعرُّض مواطنيها لتأثير خارجي وعدم اهتمامهم بالأحداث التي تجري خارج حدودهم؛ فيجب ألّا تتكرر تجربة حرب فيتنام، حيث كانت الكاميرات الأمريكية التي تنقل الأحداث إلى المنازل والعائلات هي السبب في تحريك الرأي العام. لذا فإن صور ما يحدث في العراق، في فلسطين، في أفغانستان يجب ألّا تصل إلى المُتَلقّي الأمريكي إلا بعد مُرورها بالمصفاة. كذلك يجب ألا تتعرض الجاليات ذات الأصل العربي والإسلامي إلى تأثير بث باللغة العربية، وهذا ما عبّر عنه هانتنغتون، عندما كتب أن البث باللغات الأجنبية يعيق عملية الاندماج في المجتمع الأمريكي(٥٥).

---

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 230.

(٥٥) Huntington, *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity.*

في السياق ذاته، لا بد من إقناع الرأي العام الأمريكي بالمهمة الرسالية، التحريرية، الديمقراطية، التي تقوم بها إدارته وجيشه. يجب أن تهيمن على فكره وتقييمه، معادلة الخير مقابل الشر، وتجسيد بلاده للخير كما تجسيد البرابرة للشر. ما يفسّر امتناع الفضائيات العربية الخاصة عن البث باللغات الأجنبية أو إذا ما فعلت، تمييزها الكبير بين طبيعة البرامج والأخبار والتغطيات التي تبث بالعربية وتلك التي تبث بالإنكليزية. وعندما لم تنصع قناة المنار لهذا التمييز قوبلت بالحرب، بالمحاكمة، وبالمنع. هي عودة إلى عالم القطيعة، ونهاية مفهوم التقارب الذي حلم به ماكلوهان! بل هي محاولة مستحيلة في بلد ديمقراطي يدعي الحرية الفكرية وحرية تدفق المعلومات والخبر، وبخاصة أن المنافسات الانتخابية تدفع كل فريق إلى كشف أخطاء الفريق المنافس.

(٢) تدعيم الوضع الاقتصادي: الحفاظ على مستوى المعيشة ومصالح الأكثر غنىً في نظام نيوليبرالي، ومجتمع قائم على أيديولوجية المنفعة، وإدارة مصممة على مغامرات عسكرية مكلفة، تفرض حاجتان نفسيهما بإلحاح: **الأولى**، تأمين الاستثمارات الكبرى، وبخاصة للشركات العملاقة. **والثانية**، الحفاظ على مستوى المعيشة للناس، إن لم يكن تحسينه. ذاك أن الحفاظ على تأييد الناخبين للسياسات العسكرية الخارجية، يتطلب عدم المساس بمستوى معيشتهم (إضافةً إلى مطلبِ إخفاء الخسائرِ البشريةِ عن وسائلِ الإعلام)؛ في حين أنّ الإنفاق العالي الذي تفرضُهُ هذه السياسات والانتشار العسكري الواسع على مستوى الكرة الأرضية، يشكّلان تحدياً عميقاً لذلك. وهنا لا بُدّ من اللجوء إلى التلاعبِ الإعلامي لتبنّي خطابٍ يُسوّق ذلك.

ب ـ على الصعيد الخارجي

ليس الشمال واحداً موحَّداً وكذلك الجنوب؛ ففي **الأول**، هناك قوتان حيّتان متحركتان: الإمبراطورية التي تبذل جهدها لتدعيم هيمنتها وأحاديته، وهناك القوى الأخرى التي تحاول أن تمنع هذه الأحادية. المعترضون الذين يطالبون بالتقاسم: أوروبا، روسيا، والقوى الصاعدة في آسيا سواء الصين أو اليابان أو النمور الآسيوية.

وفي **الثاني**، أي الجنوب، هناك أيضاً قوّتان حيويتان: التابعون، المؤيدون، والمعارضون الذين يقاومون هذه الهيمنة الجديدة وهذا الاستعمار

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الجديد سواء في الشرق الأوسط أو في آسيا أو في أفريقيا، من دون أن ننسى أمريكا اللاتينية التي أطلق منها سيمون بوليفار، منذ منتصف القرن التاسع عشر ملاحظة شهيرة: «يبدو أن الولايات المتحدة مصرة على تعذيب القارة باسم الحرية»(٥٦).

في هذين المعسكرين تتجمع قوى لا تمتلك بالضرورة الملامح ذاتها، لا ولا المصالح ذاتها. ما يجعل مستقبل الإمبراطورية متوقفاً على نجاحها في الالتفاف على البعض واستيعابه وخنق البعض الآخر. وهذا أيضاً ما تترجمه وتحققه وسائل الاتصال.

(١) المنافسون

إذا لم تكن أوروبا حليفاً دائماً، فهي منافس دائم حرصت الولايات المتحدة دائماً على «أن تمنع سيطرته... على الأراضي والمؤسسات الأمريكية عبر وسائل مالية أو غيرها»(٥٧)؛ كما حرصت على أن تطوّقه داخل فضائه الجيوسياسي والجيواقتصادي بالهيمنة على أوروبا الشرقية وعلى المتوسط.

إذا كان استراتيجيو البنتاغون ووزارة الخارجية قد ألحّوا على «مخاطر عودة القومية الروسية»(٥٨) ومخاطر أن تتحالف معها دُول الاتحاد السوفياتي السابق التي أصبحت مستقلة. وهو التخوف الذي بدأت بشائر صدقيته تطل عبر منظمة شنغهاي التي ضمت في البداية هذه الدول إلى روسيا والصين، ثم توسعت تدريجياً لتضم الهند وإيران.

إذا كان يتوجب القيام بأي شيء لتأخير انتشار الصين، التي لم يمنعها بقاؤها على الشيوعية من أن تبيع عام ١٩٨٢، مفاعلاً نووياً لإيران الخميني

---

(٥٦) Chomsky, *Idéologie et économie*, p. 6.

(٥٧) «Rapport de Witte Paul conseiller a l'ambassade de Russie aux Etats Unis, au secretaire d'Etat,»

ورد في: Garaudy, *Les ètats-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXIème siècle.*

(٥٨) Paul Wolfovitz, dir., «Le Rapport Wolfovitz de 1992, élaboré par une équipe de recherche du Pentagone et du département d'ètat,»

ورد في: La Gorce, *Le Dernier empire: Le XXIème siècle sera-t-il américain?*, p. 53.

بهدف ردع حرب وقائية إسرائيلية بعد الغارة على مفاعل أوزيراك، ثم عادت فتعاملت عسكرياً مع إسرائيل.

وإذا كان صحيحاً أن «الخاسران الأكبر في الحرب العالمية الثانية قد عادا فربحا الحرب الاقتصادية... حرب يفسرها هؤلاء اليابانيون والألمان بفاعلية قيمهم»(٥٩).

إذاً، فإنّ ردّ الإمبراطورية على هذه التحديات الثلاثة لا يمكن أن يكون بـ «تحالف لأجل السلام» على طريقة كينيدي، بل بالحفاظ على التفوق العسكري، الذي يقتضي تكاليف هائلة، وبالتالي بتعزيز الاقتصاد الذي يعاني أزمةً حقيقية، وبنشر وترسيخ ثقافة مناسبة لمصالح الإمبراطورية. من هنا فإن من أهم بنود الحل، الهيمنة على «المناطق الحساسة»، في نشر اقتصاد السوق وقيمه الأمريكية أو العولمية التي تخدم الاستراتيجية الأمريكية، ونشر نمط الحياة الأمريكية، ونشر سلّم قيم يزيل القيم التي يتطلبها مجتمع مقاوم. كل هذا يقع في صلب فعل وسائل الإعلام. وبالتالي فإن الهيمنة الإعلامية على المستوى الدولي وبخاصة في المناطق الحساسة (وأولها العالم العربي) تشكّل ضمانة للمستقبل ورافعة أساسية في ضرورة الالتفاف على المنافسين الممكنين.

(٢) المقاومون، أولوية

التهديد الثالث الذي تتوجب مواجهته للحفاظ على الهيمنة الأمريكية في العالم العربي بخاصة، يتمثل في مشروعين يطرحان نفسيهما كأمر واقع في جميع الدول العربية: المقاومة بكل أشكالها، والتغيير الداخلي.

تشكّل قوى المقاومة العربية الخطر الأساسي الذي يهدد بقلب الأمر الواقع المؤاتي للمصالح الأمريكية من الانتفاضات المتتالية في فلسطين، إلى المقاومة اللبنانية، إلى المقاومة العراقية من دون أن تكون هذه المقاومات الثلاث البارزة هي التعبير الوحيد عن الرفض؛ ففي كل الدول، بما فيها الحليفة للولايات المتحدة ثمة حركات شعبية تنشط أكثر فأكثر ضد الأمريكيين، ضد أنظمتها وبالطبع في إطار العداء الإسرائيلي.

---

(٥٩) شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ص ١٧٣، و Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...*

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

وضع يلخصه هنري لورانس قائلاً: «يتّسم العقد الأخير من القرن الماضي باستقرار ظاهر للأنظمة العربية في إطار الهيمنة الأمريكية، حيث تستمر الأطر السياسية على ما هي عليه ويتسارع التطور نحو العودة إلى الليبرالية الاقتصادية التي كانت هذه المجتمعات قد تراجعت عنها في العقدين الماضيين؛ فيبرز عالم جديد من رجال الأعمال ومن المستعدّين لدعم مشروع السلام الذي التزمت به طواقم السلطة حيث يرى هؤلاء في هذا المشروع إمكانية توسيع حقل نشاطهم، في حين يغرب وزن الدولة في الاقتصاد. لكن قوى الاعتراض هي دائماً موجودة؛ في حين يحول افتقار هذه الأنظمة إلى القاعدة الشعبية من دون أي مشروع دمقرطة، بعد أن توقفت كل بشائر الحريات السياسية التي كانت تلوح في نهاية الثمانينيات باسم مقاومة الإسلاميين»[٦٠].

(٣) التغيير في مراكز النفوذ في العالم العربي

لا شك في أن استتباب الوضع أمام الهيمنة يفرض بقاء مراكز القوة على حالها، وعدم حصول أي تغيير، اللهم إلا إذا كان من النوع الذي يمتّن السيطرة. وبالنسبة إلى مركز الثقل في قوة الإمبراطورية، أي منطقة الشرق الأوسط، وتحديداً العالم العربي، فإن التغيير يطرح نفسه كحتمية قادمة. لكنه إذا ما ترك يسير في آليته الشعبية الحرة لا بد أن يصبّ ضد المصالح الأمريكية والإسرائيلية، وما يرتبط بهما. ذاك أن القوى الحية على الساحة السياسية الشعبية، والأغلبية الساحقة من الرأي العام تشعر بعداء عميق للسياسة الأمريكية. **أولاً**، بسبب دعمها غير المشروط لإسرائيل (حتى ولو كان المسؤولون الإسرائيليون يحاولون أن يروّجوا فكرة «لا يعادي العرب الغرب بسبب إسرائيل بل إنهم يكرهوننا بسبب الغرب»[٦١]. **ثانياً**، بسبب الدعم الأمريكي المستمر للأنظمة القمعية في غياب عدالة اجتماعية واقتصادية، وأخيراً بسبب حرب الخليج واحتلال العراق، ومن ثم سياقات ما يُسمّى بالحرب على الإرهاب، التي هي خلطة بين الإرهاب والمقاومة.

إذاً، وبما أن منع التغيير يبدو عملية مستحيلة بمنطق التاريخ، فإن الأفضل

(٦٠) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: A. Colin, 1999), p. 498.

(٦١) بنيامين نتانياهو، «أمن وسلام ـ استئصال الإرهاب،» ترجمة حياة الحويك عطية، **الدستور** (١٩٩٦).

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

هو عدم تركه لآليته الداخلية الذاتية، والالتفاف على اتجاهاته بحيث لا يتناقض مع المصالح الأمريكية في المنطقة. وهنا يبرز من جديد ثلاثة أسئلة مهمة:

ـ هل تعكس وسائل الإعلام الصراع القائم بين مشروعين متناقضين للتغيير، ومن ثم تناقضهما مع مشروع آخر لا يريد إلا الجمود أو العودة إلى الوراء؟ أم أنّها تخدم استراتيجية السلطات المرتبطة بالنظام العالمي الجديد وما انبثق عنه من نظام إقليمي وعربي جديد؟

ـ هل يلعب الجمهور دور السلطة المضادة في حال تخلت وسائل الإعلام عن هذا الدور؟

ـ وكيف يمكن التوفيق بين الدور الشعبي، ودور المثقفين، ودور وسائل الإعلام؟

٣ ـ الحلول

في عام ١٩٩٠، كتب كولن باول، وكان يومها رئيساً لأركان الجيش الأمريكي، يبرر معارضته للحل العسكري في العراق، قائلاً إن هذا الحل يمكن أن يعزز تنامي الكراهية للولايات المتحدة الأمريكية وتنامي الأصولية الإسلامية في منطقة ما زال آيات الله، يتمتعون بنفوذ كبير بها. لكنه في المقابل، أكد حاجة الولايات المتحدة للسيطرة على الشرق الأوسط وعلى منطقة الخليج تحديداً في مواجهتها المقبلة مع أوروبا وآسيا، وبخاصة روسيا والصين[٦٢].

هنا يطرح رئيس الأركان وزير الخارجية بندين في واحد: إحراز الانتصار، والحفاظ عليه، وهذا الأخير يبدو أصعب.

هنا يبرز بشكل أساسي دور وسائل الإعلام، سواء قبل الحرب أو بعدها، بها أو من دونها، في الإقناع، في نشر المفاهيم، في التبرير، ولكن الأهم من كل ذلك في إخماد روح المقاومة، أو إذا استحال ذلك، في تحوير مسارها في اتجاهات سلبية تؤجج غرائز وحساسيات مدمِّرة بدلاً من العوامل المُوحِّدة وطنياً. سواء عبر مضمون الرسالة الإعلامية أو عبر شكلها. وعبر ارتباط المؤسسات الإعلامية العربية بشكل مُتفرِّع عن المجموعات متعدّدةِ الجنسيات أو الأمريكية.

(٦٢) شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ص ١٧٣، و Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...*

بعد عملية خصخصة طالت الإعلام العربي لم تحل دون أن يكون المالكون والمستثمرون الجدد في القطاع الخاص، وبخاصة في حال الفضائيات الإخبارية، هم في الغالب من أفراد الأسر الحاكمة، أو من المقربين من هذه الأسر التي يرتهن وجودها بالنسبة إلى الأمريكيين بسبب غياب المشروعية الشعبية.

أ ـ السيطرة على مصادر الطاقة (النفط والغاز): دور وسائل الإعلام في خدمة هذه الهيمنة

وبما أنّ تأمين الحفاظ على أحادية القوة، تكاليف التسلح وحلّ المشاكل الداخليّة يحتاج إلى الهيمنة على مناطق الثروات ومصادر الطاقة في العالم وعلى رأسها العالم العربي، حيث تُشكّل الدول العربية المحور الأساسي لمنظمة الدول المصدرة للنفط، فإن وضع اليد على هذه المنظمة لا بد وأن يمرّ بالسيطرة على الدول العربية. لا لعراق معارض يؤمّم مصادره النفطية؛ لا لعربيّة سعوديّة يمكن أن توصل يوماً عبر عملية الوراثة ملكاً يحلم، كما حلم فيصل باللجوء إلى سلاح النفط. وإذا كان حصار عام ١٩٧٣، قد برهن للدول العربية على ضرورة تنسيق سياستها النفطية للحصول على نتائج سياسية»[٦٣]، فإنّه قد برهن للأمريكيين ضرورة منع هذا التنسيق؛ فلا لدُويلات خليجية تحلم باستغلال ثرواتها من النفط أو الغاز لخدمة مشروع عُروبي مُقاوم، أو حتى لخدمة مشروع نهضة حقيقيّة وتنمية مستدامة حقيقية.

لا مجال إذاً، أن تدعم القوتان النفطيتان الأساسيتان داخل الأوبك «مبدأ سيادة دولة منتجة للنفط على استخراج احتياطيّها من المحروقات»[٦٤]. وحتى الدور المحدود الذي كانت تحتفظ به المنظمة عند إنشائها، أي دور «المساومة للحصول على أفضل شروط البيع»[٦٥]، فإنه يصطدم بالمصالح الأمريكية ما أكد أن تأمين هذه المصالح يمر عبر تبعية كاملة للولايات المتحدة لا تترك مجالاً لأي استقلال في المجال النفطي. سواء عبر إرساء التبعية السياسية، وإنزال القوات الأمريكية على الأرض كما حصل في قطر أو

(٦٣) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours,* p. 286.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الكويت أو الإمارات والبحرين، أو بالقوة كما حصل في العراق حيث كانت الحرب فالحصار فالاحتلال فقانون النفط. ما جعل الأنظمة الحاكمة تواجه أكثر من مشكلة، مثالها العربية السعودية: نشر الجيش الأمريكي؛ تكاليف حرب ١٩٩١ التي بلغت ٥٠ مليار دولار؛ صفقات الأسلحة الضخمة؛ الدين الدولي، من دون أن يكون من شأن رفع مستوى الإنتاج أن يحل الأزمة الاقتصادية حتى مع إعطاء المملكة الكوتا الخاصة بالعراق الذي أُخرج من السوق النفطي، إذ ارتفع الإنتاج من ٥,٤ مليون برميل يومياً إلى ٨,١ عام ١٩٩١ «لقد فضّل إبقاء السعر عند أقل مستوياته.. كان من الممكن للعائدات النفطية أن تكون أكثر أهمية... لو لم ترفع المملكة سقف الإنتاج»[٦٦].

من جهة أخرى، وجدت هذه الأنظمة نفسها في مأزق شعبي: فالعرب لا يتقبلون فكرة نشر وحدات من الجيش الأمريكي على الأراضي العربية في دول الخليج عامة، ولا يتقبلون فكرة تحالف دولة عربية مع الولايات المتحدة لتدمير دولة عربية أخرى كانت توصف حتى الأمس بـ «حامية البوابة الشرقية»، وبخاصة أن هذا التحالف يصبّ في المصالح الإسرائيلية. والمسلمون عامة لا يتقبلون حصول ذلك قرب الأماكن المقدسة للإسلام... وهكذا يجد المعارضون من شيعة ويسار وإسلاميين وليبراليين فرصتهم الذهبية لإطلاق مكبوتاتهم ومحاولة خلخلة النظام الذي لا يجد أمامه إلا حلين: إما تبنّي إصلاح حقيقي يمكن أن يؤدي إلى مزيد من الحرية والعدالة الاجتماعية وذاك ما لا يستطيع فعله؛ وإما تدعيم التحالف مع الغرب وبخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ما يقتضي تقديم تنازلات سياسية واقتصادية مقابل الحفاظ على بقاء النظام و«تحقيق فوائد مالية للعائلة ومحيطها من العمولات الهائلة التي ترافق هذا النوع من العقود»[٦٧].

في هذا السياق، لا بد من توظيف وسائل الإعلام عامة والفضائيات خاصة لإقناع الرأي العام أو لتهدئته، لتمييعه وإلهائه وتحويل اهتمامات الجمهور عبر برامج التسلية المفرغة والإعلانات التي تنخر سلّم القيم، وبرامج الاغتراب الميتافيزيقي والشعوذة، للتغطية على الجوانب السياسية، التنازلات المقدمة

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٥١٢.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٥٩٧.

للغرب ولتحقيق أهداف أخرى في مقدمتها تمييع موضوع التطبيع مع إسرائيل، تسفيه الفكر القومي، وإرساء فكر ديني يقوم على ثنائية الأصولية الدينية من جهة، وترسيخ الشروخ الطائفية والمذهبية من جهة ثانية؛ في ما يترجم بثلاث: تدمير ذاتي على أساس المواجهة الفئوية هذه، إضافة إلى المواجهة العرقية أو الإثنية، عولمة إسلامية غائمة وتحويل العداء عن إسرائيل إلى عدو بديل. ويأتي على رأس هذه المعادلة تأجيج الحساسية السنية ـ الشيعية، بل وتحويلها إلى فتنة وعداء لا يقتصر على العالم العربي وحده بل يطال كل العالم الإسلامي. وإذا ما شذت قناة عن سقف معيَّن ولو لفترة، فإنّ قراراً سياسياً لا يلبثُ أن يُحجّمها ويُعيدها إلى التغريدِ داخلَ السرب. بشكل أدق، فإنّ المطلوب هو إعادة صياغة وعي الجمهور وفق منظومة قيم جديدة تُثبّت وتُنمّي ما في السابقة من تخلُّف وتُحطّم ما فيها من قِيم إيجابيّة قومية أو إنتاجية أو اجتماعية، من دون أن تحل مكانها، ما يُشكّل تطويراً وتحديثاً وتقدّماً حقيقياً لها، بل تُغذّي وهم الازدهار والليبرالية والديمقراطية وفضل الثروة النفطية. منظومة تلتقي مع تسويق نمط الحياة الأمريكية فتؤدي إلى توجه وتوق يريان في التقدم وفي العبور إلى الحداثة، صورة مختلفة تماماً عن تلك التي كانت تطرحها المشاريع الثقافية والسياسية والاقتصادية في المرحلة السابقة. صورة لا تحاول أن تقرأ تلك التجارب بعقلية نقدية منطقية، تستفيد من إنجازاتها وثوابتها الإيجابية، وتكشف أخطاءها وعثراتها لتطوير مشروع جديد أكثر رقياً وأقدر على تحقيق مصالح الأمة.

وتحت ضجيج مئات الفضائيات من برامج التحريض إلى برامج اللعب والترفيه والشعوذة، يسيل النفط بهدوء ليصبّ في صناديق الشركات الأمريكية والأوروبية.

دور يصبح أكثر حدة وإلحاحاً عندما يضاف إلى معركة النفط القديمة الجديدة، معركة الغاز الذي تحاول روسيا أن تلعب ورقته في وجه الأمريكيين والأوروبيين معاً، حيث نجد في مركزه أيضاً ثلاث دول عربية هي ليبيا، قطر والجزائر، إضافة إلى حوض المتوسط. ما قد يفسر أحد أسباب نقل القاعدة الأمريكية الرئيسة إلى العديد والسيلية، وطرْح نيكولا ساركوزي، منذ حملته الرئاسية الأولى، لمشروع «الاتحاد لأجل المتوسط» ولصفقة مع الجزائر. حيث رأينا المرشح الرئاسي، الذي تكفّل بإعادة فرنسا إلى التحالف مع واشنطن، يتعهد أنه إذا ما انتخب رئيساً سيعرض مبادلة الغاز الجزائري

LAU Beirut campus
Riad Nassar Library

بالتكنولوجيا النووية، حتى إذا ما انتخب خص الجزائر بأول زيارة رسمية، على حساب غضب المغرب. كما يخص أمير قطر وزوجته بموقع ضيف الشرف على منصة الاستعراض العسكري في أول احتفالات رسمية لـ١٤ تموز/ يوليو (العيد الوطني ـ ذكرى الثورة الفرنسية)، يحضرها.

في جوّ عام تتبنّى فيه الاستراتيجية الأمريكية والعولمية سياسة تفضيل الدول الصغيرة (ميكرودولة) على الدول الكبيرة (ماكرودولة)، بإعطاء الأولى أدواراً ومهمات تتجاوز وزنها وحجمها وبتقديمها كمثال للحداثة والتقدم بل وللديمقراطية؛ فأي تهديد يمكن أن تشكله في الحاضر أو في المستقبل القريب أو حتى البعيد دولة لا يتجاوز جسمها الانتخابي ٢٢ ألف نسمة (نساءً ورجالاً)؟[٦٨] في حين أن المستقبل البعيد لا يضمن حصول تغييرات تجعل من الدول الكبيرة تهديداً محتملاً. إضافة إلى أن هذا التضخيم يساعد على تأكيد القُطرية واستحالة أي مشروع توحيدي مستقبلي.

ب ـ السيطرة على سيرورة التغيير، أو الالتفاف عليها: الميديا وسيلة التحكم الأمريكي بالتغيير منذ عام ١٩٥٨

(١) أي تغيير

إذا كان من الصحيح أنّ الميديا هي أمريكية بحسب القول الشائع (Media Are American)، فإن الصحيح أكثر أنّ الدراسات والأبحاث في مجال الميديا، بل وتطوّر هذه الميديا قد سار دائماً في قناتين: الانتخابات والحرب. وتلتقي الاثنتان في كونهما تخضعان لخدمة مصالح الدولة؛ فمنذ العام ١٩٥٠، أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة، جعلت مصالح الولايات المتحدة من الشرق الأوسط والعالم العربي بشكل خاص مجالاً خاصاً للدراسات ولنشاط الإعلاميين.

إذا كانت نظرية الحرب السيكولوجية (Psychological War)، والدراسات حول محرّضات العسكريين في ساحة القتال، قد ارتبطتا بالحرب العالمية الأولى، فإن مفهوم حرب الأفكار وعلاقة الاتصالات بالتنمية قد ارتبطت بالحرب الباردة، بالعالم الثالث وبمنطقة الشرق الأوسط.

(٦٨) الرقم الرسمي لعدد الناخبين في الانتخابات البلدية القطرية لعام ١٩٨٩.

وهكذا رأينا أن الباحثين الذين اعتُبروا الآباء المؤسسين لعلم الاتصال في الولايات المتحدة الأمريكية وهم هارولد لازويل، دانيال ليرنر، ويل شرم، ليو لوينتال، لوسيان باي، كانوا منضوين في الوكالات الثلاث:

وكالة إعلام الحرب (Office Of War Information (OWI))؛ وكالة الأجهزة الاستراتيجية (Office Of Strategic Service (OSS))؛ وبقية الوكالات المتعددة بحسب مختلف قطاعات الجيش. حيث بلوروا معاً نظرية الحرب السيكولوجية بين الأعوام ١٩٤٠ و١٩٤٥، يأخذون استراحة محارب قصيرة بعد انتهاء الحرب ليعودوا عام ١٩٤٧، لخوض الصراع الجديد في إطار الحرب الباردة. هنا أطلقوا نظرية «حرب الأفكار»[٦٩] ضد الاتحاد السوفياتي.

إنها الحرب العالمية الثالثة التي أحلت وسائل الإعلام محل القوات المسلحة موكلة إليها (أي إلى الميديا) مهمة الهجوم، في حين ترك للأولى مهمة الردع. ويصبح العالم الثالث الحقل الرئيس لعملها حيث يدور عليه الرهان بين القوتين العظميين المتنافستين. هكذا صدر كتاب دانيال ليرنر (*The Passing of Traditional Society: Modernizing Middle East*)[٧٠] والكتاب ليس في الحقيقة إلا خُلاصة بحث قاده وأشرف عليه مكتب البث الإذاعي الدولي، وأجراه ١٦٠٠ باحث، في ست دول من دول المنطقة، لمقارنة فعالية الدعاية الأمريكية التي يبثها صوت أمريكا مع فعالية صوت موسكو والـ بي بي سي، في الشرق الأوسط.

(٢) لماذا الشرق الأوسط؟ لماذا وسائل الاتصال الجماهيري؟

لأنها تمثل « قطاعاً حساساً» بحسب تعبير ليرنر، أمّا عناصر هذه الحساسية فهي برأيه:

- الحدود مع الاتحاد السوفياتي.
- الصراع العربي ـ الإسرائيلي.
- النفط.

(٦٩) Mattelart, dir., *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières*, p. 19.

(٧٠) المصدر نفسه، و Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East*, with the Collaboration of Lucille W. Pevsner, and an introd. by David Riesman (Glencoe, IL: Free Press, 1958).

- نمو المد الثوري.

أمّا الأهداف التي يحددها فهي:

- الأمن في المنطقة.
- إلحاقها بالمعسكر الغربي.

«في هذا المشروع تلعب الميديا الوطنية والدولية (الباحث لا يميز بينهما بوضوح) وبخاصة الراديو السينما، دوراً أساسياً، لأن بإمكانهما أن يَمسّا المشاهد الأُمّيّ»[٧١]. أمّا التأثير الذي يمكن أن تحدثه وسائل الإعلام هذه، فيعود بحسب ليرنر إلى فعالية نفسية: «التقمّص الوجداني» (The Empathy)، الذي يولد التوق الذي يفسره بأنه الاستعداد لأن تضع نفسك في موقع الآخر، و«المحرض النفسي». وبما أن الميديا هي « التي تولد وتضاعف المحرِّضات»[٧٢] فإن بإمكانها أن تحرك «الرغبة» التي تشكّل وتوجه بدورها رغبتهم في التغيير، الرغبة في الانتقال إلى المجتمع الحديث[٧٣].

وبما أن التغيير لا يعني في هذا التحليل إلا تبنّي النموذج الأمريكي، والاندراج في المعسكر الغربي، فإن الميديا المؤهلة أكثر للقيام بهذا الدور هي وسائل الإعلام التجارية كما يرى إيثيل دو سولا بول، الذي جاء يكمل عمل ليرنر في نص حمل عنوان **دور الإعلام في مشروع التحديث**[٧٤]؛ في هذا النص يطرح الباحث قاعدة تقول إن «ما من شيء يستطيع أن يكون فعالاً في العبور إلى المجتمع الحديث، أكثر من البرامج التجارية»[٧٥]. والواقع أن ليرنر بتحليله وطروحاته الجديدة، لم يخرج عن إطار نظرية الحرب السيكولوجية التي بلورها ورفاقه خلال الحرب ضد النازيين، داخل وكالة إعلام الحرب (OWI) التي تحولت إلى راديو وتلفزيون إنفورمايشن (RDI)، ما يحمل دلالات

(٧١) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٧٢) المصدر نفسه.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٧٤) Ithiel de Sola Pool, «Le Rôle de la communication dans le processus de la modernisation et du changement technologique,» ورد في: Mattelart, dir., *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières*, p. 20.

(٧٥) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

بليغة سواء بالنسبة إلى تغير طبيعة الحرب بين مرحلتين، أو بالنسبة إلى انتقال ساحتها إلى الشرق الأوسط، أو بالنسبة إلى الدور الموكل للميديا.

لقد لاحظ ليرنر احتضار المجتمعات التقليدية في الشرق الأوسط (*The Passing of Traditional Society: Modernizing Middle East*)، فحاول أن يدفع تحديثها ليأتي منسجماً مع المصالح الأمريكية. لكن رجل السيكولوجيا وقع في خطأ سيكولوجي كبير، إذ أهمل السياق المحلي، مقاومة الجمهور التلقائية والمنظمة، كما أهمل دور القوى السياسية التي تعي مخططه وترفضه على الساحة. كما إنه اعتمد في تسويق نظريته على ما عرف بنظريات التنمية والتحديث التي أثبتت فشلها، ولذلك لم تتحقق التنمية بالصيغة التي أرادها، وتطورت المجتمعات في اتجاه مختلف. ولم تستقر الهيمنة للخط الأمريكي إلا بفعل سقوط الاتحاد السوفياتي. غير أن ما يهمنا من استعراض نظريته هو التدليل على مركزية دور الإعلام في الاستراتيجية الأمريكية إزاء الشرق الأوسط، وطبيعة الحساسيات التي تحكمها.

واليوم لم يتغير شيء في تحديد أسباب الحساسية؛ في حين يعمل الأمريكيون على تطبيق المبادئ نفسها على الساحة الإعلامية، الخصخصة، الميديا التجارية، التحديث وفق النمط الأمريكي وإثارة الرغبات الاستهلاكية. ولكن مع استيعاب دروس الماضي والإفادة من تطور البحث. حيث فهم الاستراتيجيون أن الأفضل لهم هو الاعتماد على وسائل إعلام عربية، وأخذ مقتضيات السياق بعين الاعتبار، ولما كان أفق العلاقات مع الصحف العربية القائمة محدوداً، لسببين: **الأول**، هو ملكية هذه الصحف وتاريخيتها، و**الثاني**، هو الاعتقاد بتراجع سلطانها على سوق الرأي العام في عصر الإعلام المرئي والمسموع، فإنهم راحوا يشجعون على إنشاء الفضائيات العربية، وإنشاء صحف مكتوبة ترتبط بها عبر انتمائها إلى المجموعات الاستثمارية نفسها وارتباط هذه الأخيرة بمراكز سياسية معيَّنة.

ولكن هل يكفي ذلك؟ وهل اختفاء أنظمة «الرفض» أو التي تدّعي «الثورية» عن الساحة، يجعل المهمة مضمونة؟ أم أنّ متطلبات القوى الشعبية وضغط الجمهور، وقناعات قطاع كبير من الإعلاميين أنفسهم، في ظل تحولات الوضع السياسي، يجبر الفضائيات نفسها على تعديل خطابها؟ ومن جهة ثانية، ألن تؤدي المبالغة في التسويق الإعلامي وقيمه إلى الاستهلاك في

منطقة تتميز بغياب فاقع للعدالة الاجتماعية، إلى انفجارات اجتماعية وسياسية. انفجارات تنجم عن الهوة الكبيرة بين «التقمّص الوجداني» الذي تحدث عنه ليرنر، والعجز عن تلبية الرغبات الناشئة. غير أنّ هذه الانفجارات ليست انفجار «الآنية المغلقة»[٧٦]، الذي صفق له الباحثون؟

وحتّى الرهان المتمثل في الوصول إلى الشرائح الأمية في المجتمع سواء بواسطة السينما أو الراديو أو التلفزيون، أفلا يقع في صميم تقوية منطق الانفجار هذا؟ بخاصة أن الأمية والفقر يترابطان، وكلاهما مرتبط بالميل إلى الأصولية والتزمّت. ميل تعززه أجواء مصادرة الحريات الوطنية والفردية. والنتيجة تأرجح بين الثورة والإرهاب، وبين حالات كثيرة من ضياع التوازن. كل هذا بشكل متوازٍ مع تحوّل مفصلي على صعيد الاقتصاد العالمي يتمثل في نمو القوى العابرة للقارات؟

في عام ١٩٩٢، عاد شيلر إلى تناول موضوع وسائل الاتصال الجماهيري مرة ثانية: «لم تمت الإمبريالية الأمريكية لكنها لم تعد تصف بشكل مناسب الحالة الثقافية العولمية، لقد أصبح من المفيد أكثر اليوم أن نعتبر أن الثقافة العابرة للحدود الوطنية هي القوة الرئيسية» (Transnational Corporate Culture)[٧٧]، وهي ثقافة أشبه بسلطة «مروية بصالصة الأسلوب العملي الأمريكي في مجال الميديا»[٧٨]. إن وسائل الإعلام العولمية «التي أصبحت متعددة الجنسيات، ورأسمالية عابرة للحدود الوطنية، لم تفقد شيئاً من قوة إشعاعها الأيديولوجي. كما إن «تأثيرها على المستوى الدولي لم يكن يوماً على هذا القدر من القوة خاصة مع انتصار الثقافة التجارية والقيم الإعلامية الأمريكية، فيما كان يشكّل سابقاً دائرة الهيمنة السوفياتية»[٧٩].

---

(٧٦) التعبير الذي أطلقه ليرنر، على الانفجار الاجتماعي المتوقع نتيجة لخطته.

(٧٧) Herbert I. Schiller, *Culture, Inc.: The Corporate Takeover of Public Expression* (Oxford: Oxford University Press, 1989), pp. 9 et 128,

ورد في: Mattelart, dir., Ibid., p. 56.

(٧٨) Schiller, Ibid.

(٧٩) Herbert I. Schiller, *Mass Communications and American Empire*, Critical Studies in Communication and in the Cultural Industries, 2nd ed., updated (Boulder, CO: Westview Press, 1992), p. 121,

ورد في: Mattelart, dir., Ibid., p. 58.

LAU Beirut campus

في هذا الواقع تتنامى الثورة الإعلامية العربية، وبخاصة في المجال المرئي والمسموع، مما ينعكس على الإعلام المكتوب، مع ظهور وتنامي الإعلام الإلكتروني. ويبرز السؤال عما إذا كانت هذه الثورة ستخضع لعملية تحوير وتوظيف لصالح هذه الثقافة العولمية التي تخدم بدورها الاستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة؟ كما توظف لخدمة مصالح الأنظمة الحاكمة والاستثمارات الكبرى المرتبطة بهذه الأنظمة، ومن ثم بالأمريكيين وبالشركات المتعددة الجنسيات «سادة العالم الجدد التي تبدو شبكاتها ووزنها أهم من الحكومات والدول»[٨٠]؟ أم أنّها تُشكّل، بالرغم من كونها موسومة بالاحتوائية، انطلاقة انفتاح، حرية تعبير، تعددية، تروي هذا التعطش للحرية، للمعلومة، للجدل الحر، كي تعبر إلى إطلاق أو تفعيل حركة تغيير تاريخي، في فضاء إعلامي لم يعرف حتى التسعينيات إلا الخطاب الرسمي الدعائي والرقابي؟ وهل يمكن بالتالي القوى الفاعلة في المجتمع أن تعمل على إطلاق نظام عربي إعلامي جديد يستوعب تطورات العالم ويحقق مصالح الأمة؟

ثالثاً: النظام الإقليمي الجديد وترجمته الإعلامية

تتشكل منطقة الشرق الأوسط تاريخياً من ثلاث وحدات جيوبوليتيكية: الوحدة المتمثلة في المشرق العربي، الوحدة التركية وقد كانت يوماً بيزنطية، ويوماً عثمانية والوحدة الإيرانية، وقد كانت يوماً ساسانية ومن ثم فارسية. وتكفي العودة إلى مرحلة ظهور الإسلام، لتبين كيف كانت المنطقة العربية موضع نزاع بين الساسانيين والبيزنطيين، إلى أن جاءَ العرب، الذين لم يُكرّسوا دولتهم إلا بعد معركتي اليرموك والقادسية. لكن الصراعات أو المنافسات بين القوى الثلاث ظلّت تُشكّل المُحرّك الأساسي للصراعات التي تتالت في دولة الخلافة حتى الحرب العالمية الأولى.

منذ عام ١٩٤٨، أصبح الشرق الأوسط يضم قوة أخرى مفتعلة لكنها فاعلة: إسرائيل. وتتميز القوة الجديدة بأمرين: رفض وجودها من قبل العرب وقطاع شعبي في القوتين الأخريين، وارتباطها العضوي مع العالم الغربي: أوروبا، مُنذ إنشائِها، ثُمّ الولايات المتحدة بدءاً من نهايات الستينيات. حيث

(٨٠) Ignacio Ramonet, «Les Vrais maitres du monde,» *Le Monde diplomatique* (octobre 2003), pp. 1 et 26.

أصبحت مرتكزاً أساسياً في استراتيجية الدولة العظمى، وبخاصة مع حكم المحافظين الجدد أسياد النظام العالمي الجديد.

- التقاطع العالمي - الشرق أوسطي

يرتبط النظام الإقليمي (ومن ضمنه العربي) الجديد بالنظام العالمي الجديد بعلاقة تبادلية؛ فهو نتيجة له؛ كما إنه يشكّل له جسراً وغطاءً كما يؤكد المفكر العربي محمد عابد الجابري، في محاضرة ألقاها في معهد العالم العربي في باريس في ٢٠/ ٣/ ١٩٩٧، حدد فيها الروافع الثلاث التي يرتكز عليها النظام الإقليمي الجديد:

- «شلّ الدولة الوطنية ومن ثَمّ تفتيت العالم لتسهيل هيمنة الشركات متعددة الجنسيات والشبكات الرأسمالية الجديدة.

- إرساء مبدأ البقاء للأقوى والأكثر قوة، هو الذي ينجح في كسب الثروة والنفوذ.

- وضع وسائل الاتصال والإعلام في خدمة الهجمة الثقافية واستعمار الأفكار ما يقتضي انتهاك الدولة - الأمة وسيادتها»[٨١].

في هذه الحال، تفقد الدولة السيطرة على الاقتصاد، على السياسة، وبالتالي على الشعب. وتكلّف الآلة الإعلامية الخاصة بكنس الطريق؛ في هذا يلتقي محمد حسنين هيكل مع الجابري في تحليل ينتهي فيه إلى دور الميديا حيث يكتب:

«لقد ارتكبنا قطيعتين:

- فصل السياسة عن الأمن

- فصل السياسة عن الاقتصاد...

ليأتي النظام الإعلامي فيكمل المهمة»[٨٢].

هل يشكّل هذان الرأيان تشاؤماً مبالغاً فيه؟ أليس لوسائل الإعلام الجديدة

(٨١) محمد عابد الجابري، محاضرة في معهد العالم العربي، باريس، بتاريخ ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩٧.

(٨٢) محمد حسنين هيكل، في: مجلة **الوطن العربي** (١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧).

LAU Beirut campus

هذه من تأثيرات إلا تلك السلبية، حتى ولو كانت هذه المحطات الخاصة في الواقع، ترجمة لهذا النظام؟ هل خدمت المشروع التجاري، قيم السوق فحسب، ورسخت عقلية استهلاكية لا تتناسب مع التطورات الاقتصادية حتى في الدول الغنية؟[٨٣] ألا تعكس طبيعة المساهمين، والمالكين لهذه القنوات والمجموعات إلا مظهراً من مظاهر النظام الإقليمي الجديد الذي لا ينفصل عن نظام السوق؟ أسئلة يتدرج إلقاء الضوء عليها من قراءة الخطاب الإعلامي السياسي والاقتصادي إلى الثقافي.

١ ـ الشرق الأوسط الجديد

أ ـ أيّة هوية؟ أيّ مشروع سياسي واقتصادي؟

لم يحصل أن أعطيت منطقة جغرافية تاريخية كَمّاً من التسميات كما أعطيت منطقتنا: أمة عربية، أمم عربية، عالم عربي، شرق أوسط، شرق أوسط جديد، الشرق الأوسط الكبير، وأخيراً الشرق الأوسط العربي.

وإذا كان مصطلح الشرق الأوسط قد طُرح في المنطقة منذ الثمانينيات، فإن التنظير له ارتبط بـ شمعون بيريس، وبخاصة في نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١، حيث اعتبر أن الفراغ الإقليمي هو «فراغ الهوية»... «وبما أنّ الطبيعة لا تحتمل الفراغ، فقد كان لدى الإسرائيليين ولدى الأمريكيين ما يملؤونها به، هوية تتعدى القومية»[٨٤].

غير أنّ بيريس يطرح هذه الرؤيا ما فوق القومية لمجمل الشرق الأوسط، في حين ترفض إسرائيل قطعياً مناقشة طبيعتها القوميّة وتُصرُّ على يهوديّة الدولة. من جهة ثانية، نجد أنّ الدولتين الأخريين اللتين تدخلان ضمن خريطة الشرق الأوسط، أي إيران وتركيا، كل منهما دولة ـ أمة ثابتة ومؤكدة، ما يجعل العرب وحدهم هم المقصودين والمهددين في هذا السياق. وبالتالي فإنّ ضرب

(٨٣) انظر: محمد الطوخي، **النظام الشرق أوسطي في طوره الجديد: رؤية إسلامية** (القاهرة: مركز يافا للدراسات والأبحاث، ١٩٩٧). تراجع مستوى الدخل الفردي العام من ٢٧٠٠ دولار عام ١٩٩٠، إلى ١٥٠٠ دولار عام ١٩٩٦، في الدول النفطية من ٧٨٦٠ دولاراً إلى ٣٥٠٠ دولار، وفي الدول غير النفطية من ٦٠٠ دولار إلى ٤٠٠ دولار.

(٨٤) المصدر نفسه.

الإعلام العربي للخطاب القومي هو تفتيت للكيان العربي، في إطار محيط جيوبوليتيكي مُتشدّد في قوميته. وبما أن طرح الشرق الأوسط مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمشروع السلام الذي فرضته الولايات المتحدة، فإنه يتقاطع بل ويتماهى مع مشروع الشرق الأوسط الجديد، الذي طُرح بعد احتلال العراق، وطُلب من الإعلام التسويق له. «إن الحرب هي أسوأ وسائل السيطرة، يكتب شمعون بيريس، فالسيطرة الحقيقية تتحقق عن طريق الاقتصاد والتكنولوجيا... ولذلك يتوجب إرساء نظام اقتصادي يربط الجميع، مما يفرض أربع روافع: المال، الرجال، التكنولوجيا، والأدمغة التي تدير كل هؤلاء»[٨٥]. وتحتفظ إسرائيل لنفسها بهذا الدور الأخير، بحسب بيريس، الذي يعود فيركّز على النفط والماء.

الاقتصاد، التكنولوجيا والأدمغة التي تديرها، وهل الإعلام شيء آخر؟ وأين موقع العرب من إنتاج التكنولوجيا عامة، تكنولوجيا المعلومات بخاصة، وتكنولوجيا الاتصال بشكل أخص؟ وما هي الثقافة التي تسوِّق لها الفضائيات العربية الإخبارية عموماً منذ عام ١٩٩١؟

ب ـ مشروع السلام

غداة إعلان وقف إطلاق النار في حرب الخليج عام ١٩٩١، نظمت الولايات المتحدة مؤتمر مدريد. الذي وصفه وزير الدفاع الفرنسي السابق جان بيار شوفينمان، بتظاهرة إعلامية أمام الكاميرات. لقد أرادت، أن تطلق مشروع سلام بين الدول العربية وإسرائيل، بصرف النظر عن حظه في النجاح، بهدف التغطية على حرب ١٩٩١، وامتصاص النقمة العربية. هنا كان الدور الرئيس للإعلام. وقد شارك فيه العرب والإسرائيليون تحت الضغط الأمريكي في حين لم تحضره أوروبا، روسيا، والأمم المتحدة إلا لتدعيم الموقف الأمريكي وإضفاء الشرعية عليه. ولم تستطع هذه القوى أن تشكّل عاملاً فعّالاً بسبب تبعيتها للولايات المتحدة أو ضعفها كما بسبب افتقار المشروع إلى مضمون دقيق لما نسميه بـ السلام؛ في حين كانت مجموعة إسرائيلية من مختلف التخصصات قد عملت تحت إدارة شمعون بيريس على رسم خريطة مستقبل الصراع وتوصلت إلى وضع خطة لمستقبل المنطقة.

(٨٥) Shimon Peres, in: *International Herald Tribune*, 1er trimestre 1992, and *Affaire Internationales*, no. 256 (28 novembre 1994).

LAU Beirut campus

ج ـ التطبيع

تؤدي وسائل الإعلام دوراً أساسياً في هذا المجال. وقد باشر البعض منها، منذ إنشائه، وبدرجات مختلفة، مبادرات محسوبة على طريق التطبيع، كما التزم البعض الآخر بمقاومته. علماً أن ردة فعل الجمهور قد فرضت تباطؤاً وتوازناً ما في هذا المجال وبخاصة أن حركات مقاومة التطبيع كانت نشيطة في معظم الدول العربية وخاصة في الدول التي وقّعت اتفاقيات السلام؛ فاندلعت الحرب الإعلامية منذ عام ١٩٩١، بين هذه الحركات وبين مؤيدي التطبيع. وقد كان الإعلام المكتوب أكثر تحفّظاً ومحافظة على الخطوط الحمراء، على الرغم من محاولات خجولة لتسرُّب ترجمة مقالات الكتّاب الإسرائيليين ونشرها ضمن المقالات العادية لا في صفحة الأرض المحتلة أو الترجمة؛ في تدرج يشبه ما حصل في الفضائيات التي تفاوتت وتدرجت من اتصالات عبر التلفون أو الساتالايت مع ناشطين وصحافيين ومسؤولين إسرائيليين في مداخلات ضمن نشرات الأخبار، إلى استضافة شخصيات إسرائيلية في برنامج كامل. وكثيراً ما كان المد والجزر يتوازيان مع طبيعة الأحداث السياسية في فلسطين؛ فعلى سبيل المثال، جاءت الانتفاضة التي نشبت عام ١٩٩٣، لتهدئ من هذا التطور. إذ أجّجت الغضب والرفض بحيث كان يكفي لإحدى هذه الفضائيات أن تطلق على الضحايا الفلسطينيين لقب «القتلى لا لقب الشهداء» كي تواجَه بالاتّهام والهجوم[٨٦]. ذاك أن التعرض للقيم السياسية هو دائماً، في هذه المنطقة أصعب بكثير من تمرير استراتيجيات السوق وقيمه، حيث يفعل تغيير أنماط الحياة فعله في محيط غير متوازن. غير أن الشاشات تتوزع بين صور العذابات، الخلافات العدائية والإحباطات السياسية والاقتصادية من جهة، وصور التغريب والتزلف والتحوير وبرامج التسلية المتَفَّهة من جهة أخرى، وكأن بين هذين العالمين فجوة لا يغطيها أي جسر. وفي هذه الأجواء كلها تتالى مشاريع التغيير التي يكنس واحدها الآخر من الشرق الأوسط الجديد الذي يشمل إسرائيل إلى الشرق الأوسط الكبير الذي يضم باكستان وأفغانستان وربما غداً الجمهوريات السوفياتية السابقة إلى دوائر محلية. ليظل السؤال: أين دور الإعلام في المساهمة في رسم مستقبل ما؟

(٨٦) أقام المحللون المقارنة بين الـ إم بي سي، وأبو ظبي حول هذه النقطة، وبخاصة في ما أظهرته نتائج التيليتون الذي نظمته كل من المحطتين.

٢ ـ انقلابات الحاضر وعبقرية الأنظمة

أ ـ التغيير: من التنمية إلى الدمقرطة

إذا كان مشروع ليرنر، قد اعتمد في الخمسينيات على شعار التنمية لتحقيق إلحاق المنطقة العربية بالمعسكر الأمريكي، فإن مشروع النظام العالمي الجديد سيعتمد على رفع شعار الدمقرطة واللعب على التطلعات الشعبية في هذا الخصوص.

في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، قدّمت الشوارع العربية مشهداً أسال الكثير من الحبر، سواء في الصحافة أو في كتب الباحثين السياسيين. وبنبرة مشحونة بالمرارة كتب الباحث والأستاذ الجامعي والوزير السابق اللبناني جورج قرم يقول: «إذن ها هي من جديد الجماهير العربية التي اعتقد الرأي العام الغربي أنها قد اختفت نهائياً من الساحة السياسية، تعود إلى السطح وتهدد النظام المستقر. وما جعل هذه الصحوة أكثر قسوة كون صور هذه الحركات الشعبية قد اختفت منذ سنوات طويلة عن الشاشات التلفزيونية العربية... لكأن هدير القومية العربية التي اعتُقِد أنها دفنت إلى الأبد، قد عادت، ولكن لسوء الحظ عاد معها من جهة أخرى التعصب واللاعقلانية»[٨٧]. تحليل يلتقي تقريباً مع التحليل الذي يسوقه الباحث الفرنسي جان كريستوف روفان ولكن بنبرة أخرى: «في الصحافة الغربية يحلل الموقف الذي أخذه الملك الأردني حسين كاضطرار لمسايرة الغليان الشعبي»[٨٨].

ما الذي عاد فجمع هذه الجماهير التي غرقت طويلاً في خلافاتها بل وعداءاتها، هذا العالم العربي الممزق جغرافياً منذ عقود والمتفرق طائفياً وإثنياً وقبلياً وثقافياً؟ ما إن انتهت الحرب حتى عكفت باحثتان تونسيتان على دراسة ميدانية تحاول البحث عن تفسير لتحرك الجماهير الشعبية إزاء العراق بما فيها أولئك الذين كانوا حتى اندلاع الأزمة معادين لنظام بغداد: الشيوعيون، الإسلاميون، نشطاء حقوق الإنسان، والحريات السياسية.. الخ. نتائج الدراسة نشرت في جريدة **لوموند دبلوماتيك**، وتلخصت في الاستنتاج

(٨٧) Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, Folio. Histoire; 30 (Paris: Gallimard, 1991), p. 358.

(٨٨) Rufin, *L'Empire et les nouveaux barbares*.

LAU Beirut campus

التالي: ثلاثة أسباب كانت في أساس هذا التحرك الشامل: المفاجأة **الأولى**، إحساس الكرامة الذي نجح صدام حسين في إحيائه لدى الجماهير؛ ربط القضية العراقية بالقضية الفلسطينية؛ المرارات المتراكمة لدى فقراء العرب ضد ثروات البترول الضخمة، أو بتعبير آخر، غياب العدالة في توزيع الثروة وفي طريقة تبذيرها[٨٩]. استنتاجات ثلاثة تنبع كلها من الإحساس المشترك الذي يشكّل أساس الإحساس القومي. وهي تشكّل تحديات كان من شأنها أن تعيق المشروع الاقتصادي السياسي المرسوم لما بعد الحرب. كما كان أن من شانها أن تؤدي إلى إحداث تغييرات كبرى في المنطقة. يحددها جورج قرم بـ «العودة إلى الإنتاج»، وذاك ما اقتضت المصالح الأمريكية الالتفاف عليه بنشر ثقافة الاستهلاك كي تظل «النخبة العربية منشغلة كلياً بإدارة العائدات النفطية التي تشكّل المادة الأساسية للتصنيع في مجتمعات أخرى أجنبية وربما معادية»[٩٠]، ولصالح «الشركات الدولية تحت نظر السلطة المهيمنة التي تمارسها الأنظمة القائمة» التابعة للأجنبي والمدعومة منه. ولا يُستغرَب أن تكون النتيجة تعزيز الميول نحو «الماورائيات المانوية»[٩١].

المفاجأة **الثانية**، تمثلت في الانتفاضتين الفلسطينيتين اللتين كادتا أن تربكا المشروع الإسرائيلي ليس في فلسطين فحسب، وإنما في العالم العربي.

أمّا المفاجأة **الثالثة**، والخطيرة، فهي تحرير جنوب لبنان، وإعادة إحياء نموذج المقاومة في جوّ من الأمل والإصرار، يشكّل الخطاب الإعلامي السياسي لـ حسن نصر الله رافعته الأساسية. و**أخيراً** لا آخراً، تأتي المقاومة العراقية التي لم يكن، حتى للذين توقعوها، أن يتصوروا سرعتها وفاعليتها، وعجز الأمريكيين حيالها. هذا المأزق الذي قد يؤدي إلى زعزعة النظام العالمي الجديد كله، وبالتالي كل ما تولد عنه إقليمياً وعربياً وقُطرياً.

ب ـ الالتفاف باللعب على التطلعات الديمقراطية لنشر نظام (SYSTEM) معيّن

منذ التسعينيات، تمثّل الالتفاف على كل هذه المخاطر في رفع شعار

(٨٩) Medimegh Aziza Dargouth et Nadia Khouri-Dagher, «Pourquoi, en Tunisie, la rue a soutenu Bagdad,» *Le Monde diplomatique* (mars 1991).

(٩٠) Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, p. 363.

(٩١) المصدر نفسه.

Riyad Nassar Library

دمقرطة النظام السياسي العربي، الذي يشكّل الحلم الأكبر للمواطن العربي الذي يعاني القمع والديكتاتورية والأوليغارشية. حلم شكّل محرك النضال المرير الذي يخوضه المناضلون في الأقطار العربية منذ الخمسينيات. لكن بين هذه الديمقراطية التي كان هؤلاء يضحّون من أجلها، والتي من شانها أن تقود البلاد نحو التقدم والحداثة، وبين الديمقراطية المشوهة التي يطرحها الأمريكيون تبريراً للاحتلال، وطريقاً للمحاصصة الطائفية أو لمقايضة قمع بفوضى وبظلامية جديدة، مساحة شاسعة. مساحة تغيب عنها الأحزاب السياسية، الحياة السياسية، الحريات السياسية، وبالتالي الصراعات الفكرية المؤسسة للمواقف. كما تغيب عنها بلورة شخصية المواطن بعيداً عن الانتماءات الفئوية على اختلافها.

إضافة إلى أنّ الأهداف المحددة التي تتمثل في «نشر النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الأمريكي مكانياً وأيديولوجياً»[٩٢]، وفي التمركز في منطقة الشرق الأوسط، النفطية والجيوستراتيجية كما في تأمين الأهداف الإسرائيلية في هذه المنطقة، قد أفرزت بدورها الحاجة إلى الالتفاف على بعض الوقائع وإلى خلق وقائع جديدة. ما يتلخص في ثلاث فئات من القيم ترسم الاستراتيجية الإعلامية: قيم يجب تأكيدها، قيم يجب إلغاؤها أو إضعافها، وقيم يجب خلقها. إنه الأساس العميق لمعنى التغيير الذي يريده الأمريكيون والذي بلوروه في ما أسموه بـ «الشرق الأوسط الجديد»، فطالما أنه لا مجال لتجنّب التغيير، إذاً، فالحل يكمن في أربع نقاط:

(١) العمل على إحداث تغييرات في العقليات وفي أنماط الحياة بما يتناسب مع الاستراتيجية الأمريكية ومع العولمة والسوق.

(٢) على الصعيد السياسي؛ العمل على إحداث تغييرات تبدو في ظاهرها ديمقراطية ومجددة، لكنها في الحقيقة مجرد أشكال فارغة تؤدي إلى إيصال مؤيدي الأمركة إلى السلطة، تاركة لوسائل الإعلام مهمة إقناع الجماهير.

(٣) تعزيز وضع اليد على الرأسمال المحلي المرتبط بالرأسمال متعدد

(٩٢) John Sinclar, «Mexico, Brazil and the Latin World,» in: John Sinclair, Elizabeth Jacka and Stuart Cunningham, eds., *New Patterns in Global Television: Peripheral Vision* (Oxford: Oxford University Press, 1996), pp. 33 and 35.

LAU Beirut campus

الجنسيات على مختلف قطاعات المجتمع، وبخاصة وسائل الإعلام.

(٤) أخيراً، طرح مشاريع غير قابلة للتحقيق ولكنها تفيد في كسب الوقت لتحقيق مشاريع أخرى أو للتغطية على بعض المخططات والنشاطات.

وهكذا يمرّ كل شيء في حين يكون الناس مشغولين بالجدل الذي تعززه وسائل الإعلام، أو مستسلمين للاسترخاء الذي تنشره.

ج ـ عبقرية الأنظمة

بعد عام ١٩٩٠، بدا واضحاً أن الجمهور العربي قد فقد ثقته بوسائل الإعلام الغربية، كما يشير لطفي مدني في بحث حول الرأي العام في الجزائر. (ينطبق على جميع الدول العربية). نتيجة لكون هذا الجمهور بات يرى في الغرب «آلة جهنمية... لا تقيم وزناً للحق ولا للأخلاق إلا عندما تمليهما مصالحه القصيرة النظر... حرية الوصول لنفط رخيص الثمن»[٩٣] ومصالح إسرائيل. هذا الواقع المستجدّ يعني أنه يمكن تأثير وسائل الإعلام العربية في الرأي العام العربي وفي سوقه الجيولغوي، أن يكون أقوى، ويمكن استغلاله لصالح هذا الطرف أو ذاك. غير أن المتلقّي العربي لا يثق أيضاً بوسائل إعلامه الحكومية. ولا شك أن الغرب يدرك ذلك ويعرف أن بلوغ أهدافه عبر الإعلام يمكن أن يتحقّق بشكلٍ أفضل إذا ما عملت عليه وسائل إعلام عربيّة خاصّة. بعد أن استوعب أنّ الجهل بالسياق المحلي، والـ (Label) الأجنبي «الإمبريالي» كانا من أهم أسباب فشل مشروع ليرنر في الخمسينيات.

هنا تجلّت عبقرية الأنظمة في التكيف وابتكار الحلول، أو في الاستجابة لمطلب أمريكي. وذلك عبر اللجوء إلى خصخصة شكلية للإعلام، كما أوضحنا في **القسم الأول**، مع تبنّي الخطاب المطلوب أمريكياً.

(٩٣) Corm, Ibid., p. 363.

الفصل السادس

التعقيدات والمنافسات العربية تتقاطع مع النظام العالمي الجديد: محطّات المنوّعات

تمهيد

هل يكفي تحليل سياق الحرب الباردة، نهايتها، والنظام العالمي الجديد لتفسير التطور الإعلامي في العالم العربي؟ أوَ ليس هذا التطور تعبيراً عن النظام الإقليمي الجديد الذي نتج من ذلك؟ لا شك في أن التقاطع بين الاثنين هو ما يقع في منطق الأشياء. إضافة إلى تقاطع آخر يقود إليه التحليل، وهو يتجاوز التفسيرات التكنوقراطية: التقاطع بين التعقيدات الداخلية في العالم العربي وبين تعقيدات منطقة الشرق الأوسط.

تعقيدات تترجم عبر المنافسات والخصومات العربية، ولكن أليست المنافسة بين القوى الإقليمية على الساحة العربية في أساس تشكّل هذا السياق، من الصحافة المكتوبة إلى المرئي والمسموع وأخيراً الفضائيات العربية؟

للوصول إلى إجابات عن كل هذه الأسئلة لا بد من البدء بالثابتين الأساسيين: التاريخ والجغرافيا، الجيوسياسية.

أولاً: التطورات الجيوسياسية

١ ـ التاريخ

«يحافظ التاريخ دائماً على دوره كولادة كبرى». يكتب المؤرخ جون بول بليد، منتشياً بانتصار الديمقراطية في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

الثانية. انتصار لا يرى هذا المؤرخ اكتماله إلا في عام ١٩٨٩، عندما «أخيراً» «التحق الجزء الشرقي من ألمانيا بالجمهورية الفدرالية... كثمرة لتحالف التطلعات الديمقراطية والوطنية»[١].

وإذا ما نقلنا كلاً من هذين التعبيرين الديمقراطي والوطني إلى السياق العربي، فإنهما يؤكدان حقيقة مفادها أن الحرب، عسكرية كانت أم باردة، تولّد دائماً كوارث بالنسبة إلى البعض، وخيرات وأمجاد بالنسبة إلى البعض الآخر. تلبي تطلعات في حين تخنق تطلعات أخرى.

في عام ١٩١٦، نشر جبران خليل جبران نصاً أصبح من كلاسيكيات الأدب الحديث تحت عنوان **مات أهلي**. وكان يقصد بـ أهلي سوريّي الهلال الخصيب، لأن اتفاقيات سايكس - بيكو لم تكن قد وضعت بعد. كانت المعاناة الرئيسة بالنسبة إلى الكاتب المُهاجر إلى نيويورك هرباً من القمع والجوع اللذين كانا يقضمان أهله، تكمن في أن هؤلاء يموتون في حرب الأمم التي لم يختاروا المشاركة فيها. ولم يكونوا يعامَلون كأمة من بين الأمم، لم يكونوا إلا الضحايا العاجزين على يد الأمم الفاعلة المتحاربة. وهكذا عبروا من نير الاحتلال العثماني إلى تجزئة رسمها وزيران من وزراء الدول المنتصرة في الحرب. هكذا ولّدت الحرب الأولى اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور، الذي كان يحاول إيجاد حل للمسألة اليهودية، أو مكافأة لخدمات المنظمات الصهيونية خلال الحرب. كذلك فُرِض على وادي النيل وضع مشابه في حين كانت الجزيرة العربية تحت يد البريطانيين باستثناء العربية السعودية. حتى تركيا التي انكفأت داخل حدودها، احتفظت، بفعل اتفاق مع الفرنسيين بجزء كبير من سوريا: الإسكندرون. كما اقتطعت إيران، بمؤامرة مع البريطانيين، مقاطعة عربستان. وهكذا رُسم نظام إقليمي جديد حاول العرب أن يقاوموه ثلاث مرات من دون فائدة.

الحرب العالمية الثانية كانت بدورها ولّادة، فقد وضعت قيام دولة إسرائيل، وولّدت بالتالي الاحتجاجات التي عززت نهوض الحس القومي العربي. علماً أن هذا التطلع القومي كان في أساس عصر النهضة في بداية

(١) *La Démocratie aux états-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989*, sous la dir. de Jean-Paul Bled [et al.], CNED-SEDES concours: CAPES-Agrégation d'histoire et de géographie ([Poitiers]: CNED; [Paris]: SEDES, 1999), p. 13.

القرن، وتحت الاحتلال العثماني. وبما أن هذا الاحتلال كان يكتسب مشروعيته من مفهوم الخلافة، فإن التيار القومي قد اتسم بشيء من العلمنة التي لم تفصل نفسها عن الإسلام كحضارة وبذلك توحد داخلها المناضلون من مسلمين ومسيحيين على السواء: «أنا مسيحي ديناً مسلم حضارة»، يقول يومها رئيس الوزراء السوري فارس الخوري؛ «كلنا مسلمون بالله، فمنا من أسلم بالإنجيل ومنا من أسلم بالقرآن ومنا من أسلم بالحكمة» يقول المفكر القومي أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، غير أن هذا التوجه وضع الخط القومي في سياق منافسة، وأحياناً مواجهة مع الخط الإسلامي وبخاصة الإخوان المسلمين. وهكذا اتسمت سنوات الخمسينيات والستينيات التي شكّلت قمة الحرب الباردة على مستوى العالم، في العالم العربي بالظواهر التالية:

أ - التوزع بين أنظمة مَلَكية أو أميرية تقليدية مرتبطة بالأمريكيين والبريطانيين، وبين أنظمة ثورية مرتبطة بالاتحاد السوفياتي باستثناء النظام اللبناني الجمهوري الذي كان نظاماً ديمقراطياً، مع حفظ النسبة، يتمتع بحياة برلمانية وتداول في السلطة وحرية حقيقية في المجال الصحافي. من دون أن يحمي ذلك بلاد الأرز من التوزع على أساس طائفي عملت على تغذيته منذ عام ١٨٤٥، القوى الاستعمارية والإقليمية كما عمل على تعزيزه الزعماء السياسيون اللبنانيون المستفيدون منه والذين ينتمون، باستثناءات قليلة، إلى عائلات إقطاعية كبرى موروثة من المرحلة العثمانية.

ب - المنافسة، الخصومة التي تصل حدّ العداوة بين الإسلاميين والقوميين.

ج - العداء بين القوميين الموحِّدين (من عرب أو سوريين)، وبين التيارات الانعزالية أو الانفصالية على أساس طائفي أو إثني.

د - الخصومات الواضحة داخل الخط القومي ليس بين القوميين العرب والقوميين السوريين فحسب، بل أيضاً بين العروبيين أنفسهم من ناصريين وبعثيين وقوميين عرب، بل وحتى داخل كل فصيل من هؤلاء.

أما القاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً، على الصعيد الإعلامي، فهو خطاب مرحلة الحرب الباردة، خطاب ملتزم يملي علاقات الإنسان بالعالم كافة، ويفرض عبر رقابة شديدة لا تعرف المرونة وتربط الإعلام بالأجهزة الأمنية. النقطة المشتركة الثانية هي الملكية العامة لجميع وسائل الإعلام خاصة

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

السمعية ـ البصرية، بحيث كانت الإذاعة ناطقاً رسمياً يخوض حرب صاحبها ضد الآخر؛ في حين تتوزع الصحافة المكتوبة بين الملكية العامة والملكية الخاصة، ما جعل الإذاعة رمزاً لكل انقلاب أو انفجار أو حرب أهلية أو محاولة انفصالية. كان المعيار الأول لنجاح أي انقلاب عسكري هو احتلال الإذاعة والسيطرة عليها. من جهة أخرى كان أي انفصال يُترجَم انفصالاً إذاعياً، كما حصل عام ١٩٥٨، مثلاً عندما اندلعت المواجهة الشعبية بين المعارضة والرئيس اللبناني كميل شمعون، وأعطيت بعداً إسلامياً مسيحياً؛ في حين أنها كانت في العمق انعكاساً للصراع بين الناصريين والانعزاليين اللبنانيين، وفي بعد أعمق انعكاساً للصراع بين السوفيات والأمريكيين حيث غدا هؤلاء الصراع ليجعلوا منه حجة لدخول الأسطول السادس الأمريكي إلى البحر المتوسط. وفي هذا الخضمّ، انقسمت الإذاعة اللبنانية إلى اثنتين تعززان العداء، كما كانت الإذاعات العربية الأخرى تشارك بدورها في الحملة سواء مع هذا الفريق أو ذاك، علماً أن الحملات الإعلامية وبخاصة الإذاعية كانت طوال سنوات الخمسينيات والستينيات والسبعينيات سلوكاً يومياً حاداً ومبتذلاً من سلوكيات دعاية الدولة، كما من سلوكيات العداء بين هذا النظام العربي وذاك.

فهل تغيّر هذا المشهد في السنوات اللاحقة مع النظام العالمي الجديد، ومع ظواهر الانفتاح الإعلامي؟

٢ ـ الجيوسياسية: المركز والأطراف: المنافسات المعاصرة

إذا كان «التاريخ كل شيء إلا ثابت جامد»[٢]، فإن الجغرافيا هي كذلك. وليس تأثير التحولات التي تفرضها قوى الطبيعة كما النشاط البشري إلا تأثيراً محدوداً، بل إن هذا النشاط نفسه هو بدوره محكوم بالجغرافيا وبمنطق التبادلية والتفاعل الذي يفرض الوقائع الجغرافية. على خارطة كل أمة، في كل فضاء جيوسياسي هناك دائماً مركز وأطراف، لا تكون مواقعها بالضرورة ثابتة دائماً.

على خارطة العالم العربي جعل التاريخ، مرتين، طرفاً في موقع المركز، مرة بفعل السماء ومرة بفعل باطن الأرض. الإسلام والنفط. حيث جعل الإسلام من مكة مركزاً ليس للعالم العربي فحسب، بل للعالم الإسلامي كله، أي

(٢) المصدر نفسه.

لمليارات البشر على امتداد الكرة الأرضية. غير أنّ هذه القيمة الدينية المحسوسة لم تترجم سياسياً إلا مدة نصف قرن فحسب بعد وفاة الرسول (ﷺ)، كانت خلالها المدينة العاصمة السياسية للعالم العربي الإسلامي. وإذا بدمشق، العاصمة الأقدم في العالم، تستعيد مع الأمويين موقع المركز لمدة ٩٠ عاماً انتزعت بعدها بلاد ما بين النهرين موقع المركز مع العباسيين ليبني أبو جعفر المنصور بغداد ويجعلها عاصمة الدولة الإسلامية، حيث حافظت على ذلك طوال ثلاثة قرون كانت القاهرة فيها مكتفية بالدور الثاني، إلى أن دَمَّرت الصراعات الداخلية، من قومية وإثنية، مُلك العباسيين، فتلقّفت عاصمة النيل دور المركز مع الفاطميين. منذئذٍ والعواصم الأربع تتنازع دور المركز في العالم العربي وحتى في العالم الإسلامي. تنازع لم يكن للجزيرة العربية أن تنافس شقيقاتها فيه لولا ظهور النفط.

أ ـ الزعامة المصرية: لا ناصر من دون الراديو

في سياق سنوات الحرب الباردة، كانت وسائل الإعلام المصرية تتمتع بميزة الانتشار على امتداد العالم العربي على الرغم من كل المنافسين. ولم تكن زعامة مصر موضع نقاش في مرحلة عبد الناصر. لأنه كان يمثل لجماهير العرب بطل القومية، بطل مقاومة الإمبريالية، بطل تأميم قناة السويس وبناء السد العالي، بل بخاصة بطل الصراع العربي ضد إسرائيل، حيث تبقى فلسطين دائماً النقطة الأكثر حساسية في السيكولوجية الجمعية العربية. وعندما جاءت حرب السويس عام ١٩٥٦، كانت نتيجتها تأكيد هذه الزعامة وهذه الشعبية من دون أن تستطيع نكسة ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، أن تهزها. كانت خطب «الريّس» الطويلة تنشر على مدى العالم العربي نوعاً من منع التجول. وكان أحد أهم عناصر الكاريزما الاستثنائية لخطابه يتمثل في البساطة التي تجعل منه خطاب «ابن الشعب» الفلاح المصري البسيط، الإنسان العربي البسيط. كان ناصر، كما يصفه هنري لورانس «الزعيم العربي الوحيد الذي استطاع أن يقيم حواراً مباشراً بين شخصه والشعب بفضل حدسه العميق بأحاسيس الجماهير»[٣].

ولا شكّ في أن وسائل الاتصال الجماهيرية كانت تشكّل رافعة أساسية

(٣) Henry Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours* (Paris: A. Colin, 1999), p. 276.

LAU Beirut campus
Nassar Library

لسياسته؛ فتأثير سهرات أم كلثوم الإذاعية، كان مشابهاً لتأثير خطابات ناصر. كما كان الجميع ينتظر افتتاحيات محمد حسنين هيكل «بصراحة» في صحيفة **الأهرام**، باعتبارها بيانات تحدد كل أسبوع سياسة المنطقة. كذلك كانت قاعات السينما في كل مدينة عربية تمثل تجسيداً حياً للحرب الباردة حيث يرتبط اختيار قاعة السينما بالموقف السياسي.. في حين يتجه الجمهور العروبي إلى الأفلام المصرية، يتجه الجمهور المؤيد للغرب أو الذي يريد أن يصبح مغرَّباً (رفضاً للناصرية أو بردة فعل طائفية) إلى الأفلام الأمريكية وأحياناً الفرنسية أو الإيطالية. من دون أن ننسى الخيارات اليسارية بين اليسار العربي ومنتجات الميديا اليسارية في العالم. ولم تكن النسبة الجماهيرية التي تميل بشكل ساحق لجهة الأفلام المصرية إلا تعبيراً عن موقف الشارع.

لكن هذه الشعبية، هذه الزعامة الممتدة لم تكن من دون منافسين، بل من دون أعداء داخل العالم العربي. حيث كانت المنافسة دائمة ومستمرة بين ناصر والعربية السعودية. ما تجلّى في صراعات كبيرة على أكثر من ساحة عربية؛ فمنذ قمة الخرطوم التي عقدت بعد حرب حزيران/ يونيو، أصبحت «العربية السعودية تحتل موقعاً متنامياً في السياسة العربية بفضل إمكانياتها المهمة»[٤]. وقد ساهمت معطيات جيوسياسية وتوتّرات إقليمية منها التوتر بين إيران والدول العربية الخليجيّة، في جعل هذه الدول تتطلع منذ نهاية الستينيات نحو الملك فيصل الذي كان يريد أن يثبت دوره كمدافع عن العروبة، وعن الخليج من «دون أن يتخلى عن مشاريعه القديمة حول الوحدة الإسلامية»[٥]. ومنذئذٍ لم يتوقف النفوذ السعودي عن التطور صعوداً.

وإذا ما نقلنا كل هذا الواقع إلى سياق ما بعد الحرب الباردة وإلى الانطلاقة الإعلامية التي جاءت نتيجة ذلك، نجدنا أمام السؤال: إذا كان النفط يعزز أهمية العربية السعودية ويعطيها دورها كمركز اقتصادي للمنطقة العربية، فلماذا تكتفي بذلك؟ لماذا لا تطالب بقيادة العالم العربي، بالسيطرة على وسائل الإعلام العربية من الصحافة المكتوبة إلى الفضائيات؟

سؤال يقود إلى آخر خفي وبالغ الخطورة: ماذا لو استطاعت المملكة أن

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٥) المصدر نفسه.

Riyad Nassar Library

تستعيد المحميات البريطانية السابقة في الجزيرة العربية تلك التي لم ترسم حدودها إلا بإعلان بريطاني من جهة واحدة بين الحربين العالميتين وعلى الأخص قَطَر بما لديها من احتياطي من الغاز؟

ألم تكن المملكة وحدها الدولة المرتبطة بالولايات المتحدة عندما كانت بقية أجزاء الجزيرة العربية كلها محميات بريطانية، ومنها قطر؟

من جهته، يمتلك العراق الموارد الطبيعية التي تسمح له بتشكيل ثقل يوازن العربية السعودية، وذاك ما تفتقر إليه مصر. لديه الديموغرافيا التي تمتلكها مصر والتي تفتقر إليها العربية السعودية، لديه التاريخ، الجغرافيا، الاقتصاد والثقافة. إذاً، فهو حامي الخليج وحامي العروبة؛ في حين تحقق سياسة التنمية التي اعتمدها نجاحاً واضحاً كما تضعه «الحداثة العلمانية»[٦] التي تبنّاها على طريق «النهضة العربية». من جهة أخرى، لا يستطيع هذا العراق أن يتخلّى عن فكرة أنه إذا استطاع أن يستعيد المناطق التي انتزعت منه أي عربستان والكويت، سيصبح القوة النفطية الأولى في العالم، ومع مصادره الطبيعية الأخرى واحداً من أهم دول العالم. طبيعي إذاً، أن يرى نفسه مركز العالم العربي، أن يعمل على تحقيق ذلك، وأن يوظف وسائل الإعلام للتسويق لهذه الزعامة.

غير أن هذا المنطق هو منطق لا تستطيع «الشقيقة الكبرى» قبوله. فمصر القوية بديموغرافيتها، بموقعها وتاريخها تصر على دور الزعامة، كما إن قوتها تعود إلى الوضع الخاص الذي تمتعت به في ظل الخلافة العثمانية، وهو وضع منحها مساحة من الحرية لم يكن يمتلكها الآخرون، ما جعلها ملجأً لكل المثقفين، الأدباء، الفنانين، والمناضلين الذين وضعوا في القاهرة أسس النهضة العربية الحديثة. كذلك تتمتع بمزايا ورثتها من فترة محمد علي، ومن مكاسب حملة نابليون، ذاك أن تلك الحملة، على الرغم من كونها حملة استعمارية، قد أعطت البلاد انطلاقة نحو الحداثة والحرية بخاصة في مجال الاتصالات والإعلام.

هكذا تَسِمُ المنافسات الأخوية التي تصل حد التقاتل سياق التطورات السياسية والإعلامية في العالم العربي. مثالان سياسيان يجسدان ذلك ويرتبطان

(٦) Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, Folio. Histoire; 30 (Paris: Gallimard, 1991), p. 264.

LAU Beirut campus

ارتباطاً وثيقاً بما سوف تمثله الفضائيات العربية في ما بعد.

(١) حرب اليمن، حيث كان التدخل المصري يقع في صلب المنطق الثوري لحركات التحرر في تلك الفترة، كما في منطق الحرب الباردة. لكنه يضيف إليهما ثالثاً هو منطق منع السعودية من المنافسة على قيادة العالم العربي.

(٢) أزمة الكويت عام ١٩٦١، والتي تندرج أيضاً في سياق منع العراق من المنافسة نفسها: أعلن الإنكليز انسحابهم من الإمارة وتقدموا بمشروع قرار لمجلس الأمن يمنحها الاستقلال، غير أن العراق طالب بضمها، وألقى مندوبه في المجلس خطاباً تاريخياً جاء فيه: «لم تكن الكويت يوماً دولة مُستقلّة وهي تُشكّل جزءاً من محافظة البصرة العراقيّة»[٧]. كان عبد الكريم قاسم، الذي وصل إلى الحكم عام ١٩٦٠، متحالفاً مع الاتحاد السوفياتي، فمارست موسكو حقّ النقض الفيتو ضدّ مشروع القرار البريطاني. والمُفارقة أن المنطق القومي الذي كانت تقومُ عليه الناصريّة، يفرض المُوافقة على توحيد العراق والكويت، أو أي بلدين عربيين، غير أنّ ما حصل هو العكس. حيثُ دعت مصر إلى اجتماع للجامعة العربيّة مارست فيه ضُغوطها لقطع الطريق على السياسة العراقيّة، وبنتيجة عملية استفزاز والتفاف على مندوب العراق «أقرّ مجلس الجامعة في ٢٠ تمّوز/ يوليو قَبول الكويت كعُضو مُستقلٍّ فيها»[٨]، كما أقرّ إرسال قوّةٍ عسكريّة مصريّة سعوديّة أردنيّة وسودانيّة للحُلول محلّ القوّات البريطانيّة في الإمارة. ونتيجةً لذلك وافقت الأُمم المُتّحدة على استقلال الكويت وقبول عضويّتها في ١٤ أيار/ مايو ١٩٦٣[٩]؛ فيما يذكر أن عام ١٩٩١، لم يشهد المرة الأولى التي ترسل فيها مصر قواتها إلى الكويت لمنع العراق من ضمها وبالتحالف مع العربية السعودية، ما لا يفسر إلا بمنطق التنافس على الزعامة.

ب ـ كامب ديفيد: إقصاء مصر، العراق والعربية السعودية يتنازعان دور المركز: الانعكاس الإعلامي

كان الطوفان الجماهيري الذي سار في جنازة عبد الناصر، يشهد نهاية

(٧) Laurens, Ibid., p. 200.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

المرحلة حتى ولو كان فرصة توحّد جماهيري لم يشهد له التاريخ العربي المعاصر مثيلاً. بعدها صعد السادات إلى السلطة بينما كانت السياسة الدولية تتعرض لتغييرات جوهرية. ونجح في حرب ١٩٧٣، في تحرير سيناء وقناة السويس.

في الولايات المتحدة، كان خط هنري كيسنجر ينتصر. حيث يتم تحييد الاتحاد السوفياتي عبر «عولمة جميع المشاكل العالقة بين القوتين العظميين»[١٠] وفي «إطار هذا الانفراج أحيلت قضية الشرق الأوسط إلى الصف الثاني»[١١].

عوامل كثيرة ساهمت في تبلور قرار الرئيس المصري بالذهاب إلى كامب ديفيد، بإصرار جعله يرفض عرضاً من القمة العربية «بمساعدة سنوية تبلغ ٥ مليارات دولار». حيث رد عبر الصحافة المصرية أن «مصر ليست معروضة للبيع»[١٢]. هكذا خرجت مصر من العالم العربي وها هي بغداد تستضيف القمة التي قررت عدم الاعتراف بـ كامب ديفيد، «وبرفض جميع نتائجها السياسية، الاقتصادية، القضائية وغيرها»[١٣].

ها هي العاصمة العراقية تعطي نفسها لقب «عاصمة الرفض»، وفيها يعقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب من ثم الدورة السبعين للجامعة العربية التي تتبنى عقوبات ضد مصر تتضمن إخراج بلاد النيل من مشروع القمر الصناعي العربي «عربسات» الذي كانت تتولاه (A.S.P.U)، وكان استعمال هذا القمر يقتصر في مرحلته الأولى على نقل الأخبار والقضايا العامة بين التلفزيونات الوطنية والعربية القائمة[١٤].

غير أن «غياب مركز حقيقي يلعب دور المحرك»[١٥]، سمح بظهور

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) Corm, Ibid., p. 260.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) S. Abdallah Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters,» *TBS Journal*, no.1 (Fall 1998), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall98/Articles1/Pan-Arab_bcasters/pan-arab_bcasters.html>.

(١٥) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 389.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

«صراعات على الزعامة». حيث لم يكن للعربية السعودية أن تنافس على ساحة الرفض لأنها كانت دائماً على رأس المعتدلين. أما سوريا التي كانت قد رعت قبل ذلك بعام، في قمة طرابلس «جبهة الصمود والتحدي»، فلم تكن بقادرة على منافسة العراق. «كان صدام حسين يحلم بتجميع ما تبقى من العرب بعد انسحاب مصر، حول قيادته»[١٦] حيث كانت بلاده «في موقع كفء للاضطلاع بهذا الموقع»[١٧] هكذا كانت القمة «خطوة على طريق صعود العراق إلى الساحة العربية، صعود يندرج أيضاً ضمن منطق سلطة النفط»[١٨]. سلطة جعلت المنافسة السعودية - العراقية تتجسد إعلامياً بخاصة في مجال الصحافة المهاجرة، التي تعززت بسبب حرب لبنان.

ج - حرب لبنان: الصحافة المهاجرة والتمويل

طالما شكلت الهجرات الإعلامية ظاهرة عربية؛ ففي نهاية القرن التاسع عشر كان الصحافيون والكتاب العرب يهاجرون إما إلى مصر وإما إلى أمريكا اللاتينية بحثاً عن مساحة من الحرية مستحيلة في ظل العثمانيين.

في سنوات الخمسينيات والستينيات، أصبحت الكويت هي التي تجتذب بدولارات البترول وبسقف عالٍ نسبياً من الحرية، الصحافيين العرب وبخاصة اللبنانيين والمصريين.

أما حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩١، فقد دفعت الصحافة اللبنانية إلى الانتقال إلى المهجر الأوروبي. بحثاً عن الحرية؟ أو عن التمويل؟

الواقع أن هذه المؤسسات لم تكن تحيا في أوروبا إلا بتمويل الأنظمة العربية وبخاصة عراق صدام حسين والعربية السعودية، ومن ثم الآخرين كـ ليبيا وغيرها، في صورة ناطقة لموازين القوى على الساحة السياسية والعسكرية بين المتنافسين العرب. ما أعطى خطابها طابعاً دعائياً غير موضوعي إن لم يكن غير أخلاقي، مع استثناءات قليلة كان اصطفافها تعبيراً عن موقف حقيقي مع هذا المشروع أو ذاك.

(١٦) Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, p. 263.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(١٨) المصدر نفسه.

وفي حين اصطفت الكثير من المجلات والصحف وراء بغداد، اختارت الرياض أن تمتلك وسائل إعلامها: هكذا أسس الأخوان هشام ومحمد علي حافظ، بدعم الأمير أحمد بن سلمان، في لندن عام ١٩٧٨، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، التي أطلقت جريدة **الشرق الأوسط**، **المجلة**، **سيدتي** وغيرها. بعدها اشترى الأمير خالد بن سلطان في عام ١٩٩٠، جريدة **الحياة** التي تأسست في بيروت عام ١٩٤٥[١٩]. وبذا يمكن القول إن ما بحثت عنه الصحافة العربية في أوروبا كان التمويل وليس الحرية، حيث كانت هذه المجلات والصحف تخضع للرقابة العربية وكأنها ما زالت تصدر في العالم العربي، وذلك لسببين:

(١) **التوزيع**: فسوقها هو العالم العربي فقط، ولا يمكنها العبور إليه إلا بموافقة أجهزة الرقابة العربية.

(٢) **الملكية**: المالكون من الأفراد هم مرتبطون بالأنظمة القائمة[٢٠] وبالنسبة إلى السعودية هم أعضاء من الأسرة المالكة.

ظاهرة يصفها الباحث إدمون غريب بـ «ظهور إمبراطورية إعلامية مموَّلة من السعوديين أو مملوكة لهم تصدر من أوروبا، صحف ومن ثم قنوات فضائية هدفها تسويق المنظور السعودي في العالم العربي»[٢١]، ومن ثم خدمة المنظور العولمي، ما جعل الصحافي خالد الحروب، يسميها «الملكية العولمية»[٢٢]. من هنا التناقض والتنافس مع الخط الإعلامي القومي، وأيضاً بين الخط الإعلامي الإيراني والخط الإعلامي السعودي، تناقض لم يكن ليختلف عما هو قائم على أرض الوطن العربي، حيث تضاف إلى الاصطفافات المذكورة وسائل إعلام محلية مكتوبة ومرئية مسموعة تشترك كلها في احتلال حاكم البلد، باسماً أو مقبلاً لطفل، الصفحة الأولى، في تكريس سينوغرافي لمفهومين أساسيين في الحكم العربي: **الأول**، أن الدنيا

(١٩) «The Media Environment in Saudi Arabia, Public Access and Choice,» *CMF MENA*, Center for Media Freedom-Middle East and North Africa) (April 1998), p. 9.

(٢٠) خالد الحروب، «الفضائيّات العربيّة والعولمة في الشرق الأوسط،» <http://www.aljazeera.net/books/2002/12/12>.

(٢١) Edmond Ghareeb «New Media and the Information Revolution in the Arab World, and Assessment,» *Middle East Journal*, vol. 54, no. 3 (2000), p. 412.

(٢٢) الحروب، المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

Riyad Nassar Library

بألف خير في ظل القيادة الحكيمة، **والثاني**، تركيز المفهوم البطريركي، المكرس لـ «الأب القائد» الحاضر الدائم الباقي. وما يتقدم الصحيفة يتقدم نشرة الأخبار والمفاصل التلفزيونية والإذاعية (في غياب لمعالجات المشاكل الاجتماعية والسياسية الحقيقية كـ الفقر والبطالة والأمية والمخدرات والاستغلال، أو كـ القمع وغياب المحاسبة وانتشار الفساد). ونتيجة لذلك، تكرّس مفهوم خطير في العمل الصحافي، يشوّه طبيعة المهنة الميدانية إذ يجعل قيمة الصحافي فيمن يقابله من المسؤولين (مع شيوع انتهاء المقابلة بظرف في اليد يحوله إلى بوق للمعنيّ) لا في ما يتبناه من قضايا وفي ما يكشف عنه من اعوجاج ويتابعه محققاً ضاغطاً. وعلى الرغم من أن الخلافات العربية القبلية كانت تسمح للمتلقّي أن يكشف عورات وفضائح نظامه لدى صحف النظام الآخر وبالعكس، فإن ذلك قاده إلى فقدان الثقة بالإعلام. وعلى الرغم من أن نماذج قليلة استطاعت أن تحافظ على موقع حراس النار، فإن إعلام تلك المرحلة لم ينجح في أن يؤدي دوره في خلق فضاء عام ومن ثم رأي عام عربي مستقل وفاعل، ما ظهرت نتائجه السلبية في المراحل اللاحقة.

د ـ الحرب العراقية ـ الإيرانية: تأجيل المنافسات.. تأكيد الزعامة العراقية

جاء شبح الخميني ليُجبر العراق والسعودية ومعهما جميع دول الخليج على تأجيل خلافاتها ومنافساتها. من ثم انفجرت الحرب العراقية ـ الإيرانية التي «موّلتها العربيّة السعودية ٥٠ مليار دولار»[٢٣]؛ وفي السياق ذاته، تم إقرار مشروع الملك فهد بخصوص الصراع العربي ـ الإسرائيلي في قمة فاس عام ١٩٨٢ من دون مناقشة، ذاك أن القمة كانت منشغلة بالحرب[٢٤].

الصحافة بدورها كانت منقسمة بين معسكرَي الحرب، ما حوّلها إلى إعلام حرب بكل ما يعنيه ذلك؛ في حين أُجّلت الصراعات داخل كل معسكر من دون أن تلغى، وكان من المعروف أنه أياً يكن المنتصر، العراق أم إيران، فإنه يشكّل خطراً على الممالك والإمارات الخليجية التي تشعر منذ عام

(٢٣) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours,* p. 393.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٢٩.

١٩٧٠، بأنها «مهددة بخطر مزدوج»[٢٥]. كذلك لم تكن إسرائيل والمصالح الأمريكية لتطمئن في النهاية إلى أي من الاثنتين حتى ولو كانت الدولتان الأهم في المنطقة من الناحية الديموغرافية والاقتصادية تتبنيان أيديولوجيتين متناقضتين: البعث القومي العربي العلماني، والثورة الإسلامية الشيعية.

إنها أيضاً حرب الأفكار. الحرب التي تؤدي فيها وسائل الإعلام دوراً أساسياً سيتعاظم أكثر مع تحولها إلى بداية للحرب العالمية الثالثة، عسكرية كانت أم باردة.

في عام ١٩٨٥، استهدفت طلعات جوية أمريكية المنافذ النفطية لإيران على الخليج، ما أدى إلى انهيار أسعار النفط وبالتالي تأثر الدول العربية بخسارات كبرى.

في عام ١٩٨٧، وصلت بواخر الأسطول السادس الأمريكي إلى الخليج العربي بحُجة حماية حرية المرور والحركة في الخليج؛ في العام نفسه أيضاً أعادت القمة العربية فتح الطريق أمام إعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر، في حين كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية تشرف على نهايتها، وبالتالي، فإن التحالفات أخذت ترتسم بشكل آخر، ومثلها المنافسات؛ ففي مواجهة مجلس التعاون الخليجي تَشكّل مجلس التعاون العربي بين العراق، مصر، اليمن والأردن.

العراق هو المنتصر الكبير، وصدام مصمّم على «جعله يلعب دوراً مركزياً في العالم العربي»[٢٦]. طموح ذاتي يلتقي مع الطموح القومي. غير أن إرادة منعه من التمتع بالتفوق والسيادة على المنطقة، لا تغيب عن الآخرين. المشروع العراقي يستند إلى محورين: الحفاظ على الجيش وتقويته، إعادة بناء الاقتصاد. وفي حين تولي القيادة العراقية الجانب الإعلامي من مشروعها اهتماماً كبيراً، وميزانية كبيرة لم تتناقص مع انتهاء الحرب، فإن ذلك يظل مقتصراً على اكتساب الصحف والصحافيين. منهم المتحمس باندفاعة قومية ومنهم من يجتذبه التمويل الذي يقدمه النظام، وفي الحالين يظل الخطاب مباشراً وشمولياً وقاصراً. ويجدر هنا الالتفات إلى ملاحظة الباحث عبد الله

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٩١.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

شليفر، أن «من سخرية التاريخ أن الصحافة التلفزيونية الفضائية جاءت بمبادرات الدول العربية المحافظة وليس الدول التي تقوم على أيديولوجيات قومية راديكالية كالناصريين والبعثيين»[٢٧]. وحتى حين امتلك العراق فضائيته الخاصة، فقد كانت قناة ضعيفة وغير فعّالة. لم يفكر صدام حسين بإطلاق فضائية عربية دولية واسعة «توازن الفضائيات الغربية، خاصة الأمريكية» إلا في عام ٢٠٠٠. حيث أثار الفكرة في لقاء مع جورج غالاوي، الذي عرض عليه أن يأتيه «بصحافيين بريطانيين»[٢٨] ويقول سامان عبد المجيد، مترجم صدام الخاص في كتابه **سنوات صدام** إن «المقابلة التي أجراها طوني بن مع الرئيس كانت ستُبثّ في افتتاح هذه القناة»، لكن الأمور جاءت متأخرة حتى إن الاسم الذي كان يفترض أن تحمله هذه القناة «تلفزيون العربية» قد صودر من قبل السعوديين وأعطيلقناة جديدة «العربية»، أطلقت خلال التحضيرات للحرب الأخيرة عام ٢٠٠٣.

هـ ـ أزمة الخليج: التقاطع بين العالمي والإقليمي

في عام ١٩٩٠، انفجرت حرب الخليج، فالعراق الذي وجد نفسه محصوراً بين المأزق الاقتصادي الذي يُعيق مشروع إعادة الإعمار، والمأزق السياسي، اختار الهروب إلى الأمام. الديون هي التي تعيق مشروع إعادة الإعمار، والدول الخليجية التي اعتبر العراق أنه دافع عنها طوال ثماني سنوات ترفض شطب هذه الديون، بل الأسوأ أن الكويت والإمارات عمدتا إلى رفع مستوى الإنتاج النفطي الذي تسبب في خفض الأسعار وبالتالي مداخيل العراق. من جهة ثانية، ترفض الكويت أن تعطيه ولو بالإيجار جزيرتين استراتيجيتين على شط العرب، كما تعمد إلى سحب نفط الجنوب بوسائل تقنية تحت الأرض، في حين لم يكن ترسيم الحدود بين البلدين قد حل يوماً وتثبَّت.

في موازاة ذلك، يرتفع التوتر مع إسرائيل والغرب «إن العنصر الأول الحتمي هو إسرائيل: فالترسانة العسكرية العراقية تهدد التفوق الإسرائيلي في

(٢٧) Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters».

(٢٨) Saman Abdul Majid, *Les Années Saddam: Révélations exclusives*, avec la collab. de Christian Chesnot et de Georges Malbrunot (Paris: Fayard, 2003), p. 218.

المنطقة والهدف الرئيسي للخيار الأمريكي هو تدمير هذه الترسانة باعتماد الحجة المثالية التي قدمها غزو الكويت»[٢٩].

وكان عدد آذار/ مارس للمجلة العسكرية الاستراتيجية **جينز** (*Janes*)، قد تضمّن مقالة لرئيس هيئة الأركان الأمريكية، بعنوان «الصراعات المنخفضة السرعة»، تحدد تفاصيل الحرب القادمة في الخليج العربي.

لم تُفد اتفاقية عدم الاعتداء المعقودة بين العراق والسعودية في آذار/ مارس ١٩٨٩، في منع إنزال القوات الأمريكية على أراضي المملكة، حيث لم يكن السعوديون بقادرين على ذلك لثلاثة أسباب: تبعيّة المملكة للولايات المتّحدة؛ الضغوط التي مارسها جناح محدّد في الأسرة الحاكمة متحالف كليّاً مع الأمريكيين ومعادٍ للعراق؛ وأخيراً الوضع العسكريّ الهش. ذاك أنّ «الحذر الذي أوحت به الثورات العربية في الخمسينيات والستّينيات» أدّى إلى فرض تحجيم الجيش والسيطرة عليه «لتجنّب أيّة عمليّة انقلابيّة»[٣٠].

وفي هذا الصراع لأجل التبرير أو الشحن أو الشيطنة، وباختصار، لأجل استيعاب أو تحفيز الرأي العام، يلعب الإعلام بكل أشكاله دوراً أساسياً، ويترافق المدّ الشعبي المؤيد للعراق مع المد الإعلامي المعبِّر عنه؛ في حين تجند الدول الخليجية الوسائل المرتبطة بها لمقاومة الحرب النفسية العراقية، ولتبرير وقوفها إلى جانب الأمريكيين. وتستعد الـ سي إن إن (CNN) لولوج المنطقة.

ثانياً: مرحلة قنوات المنوّعات

١ ـ مصر تحاول استعادة دور المركز: إطلاق الفضائية العربية الأولى، والحرب الإعلامية

أ ـ مع حرب العراق

من جديد يعود دور مصر: الجيش المصري يتدرب مع قوة التدخل السريع الأمريكية منذ سنوات، و«التهديد الإيراني لدول الخليج يجعل

(٢٩) Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, p. 360.

(٣٠) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 391.

LAU Beirut campus

Riyad Nassar Library

مصر تبدو وكأنها البديل المحتمل في حال انهيار العراق»[٣١].

فعلى الصعيد الدبلوماسي، كان الأمريكيون يريدون منع حصول حل سياسي للأزمة، ووحده قرار صادر عن الجامعة العربية يمكن أن يبرر تحالف أطراف عربية مع الأمريكيين ضد العراق[٣٢]. لذلك عمد الرئيس مبارك، في مؤتمر القمة الذي عقد في ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٠، إلى «منع كل مناقشة لأساس المشكلة وفرض التصويت على إرسال جيوش عربية إلى العربية السعودية تحت راية الأمريكيين»[٣٣]، كأن مصر التي كانت مركز العالم العربي مع ناصر الثوري والقومي تريد أن تستعيد دور المركز «في إطار الاعتدال» حيث كانت سياسة مبارك تهدف إلى «إعادة إدماج مصر في العالم العربي مع الحفاظ على العلاقات مع الولايات المتحدة»[٣٤]، وذلك ما تسمح له به الأهمية الاستراتيجية لمصر. كان يريد أن يبرهن على أن «موقعه في الآلية العسكرية والسياسية الأمريكية في المنطقة هو موقع غير قابل للاستبدال»[٣٥]، وذلك للإفادة من المساعدات الاقتصادية ومن شطب الديون (ديون بلغت ٤٤ مليار دولار) وإذ حظي مبارك بدعم سوريا التي ضحى رئيسها بشعاراته القومية والمعادية للأمريكيين، في مساومة حول وضعه في لبنان وبدافع هاجس التخلص من الشقيق العدو.

مع اندلاع الحرب الدبلوماسية ومن ثم العسكرية، اندلعت الحرب الإعلامية بشكل أعنف. صحيح أن عناصر دعاية الحرب كانت في يد العراق: فالشوارع العربية تشتعل إذ لا علاقة للشعوب بمنطق الأنظمة. وهي تنظر إليها باعتبار أنها تمثل مصالحها فقط، وتعتبر أنها لم تنتخبها يوماً، كما يتحدث أبسط الناس عن تبعيتها للأجنبي. أما منطق القانون الدولي، فإنه يصطدم مباشرة في ذهن المواطن العربي بتاريخ الصراع مع إسرائيل؛ في حين أن منطق المساعدات المالية لا يكفي للإقناع لأنه يصطدم بدوره بإحساس الكرامة الوطنية من جهة، وبحسابات واعية لدى البعض: إن تكاليف الحرب

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٠٨.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) Corm, Ibid., p. 356.
(٣٤) Laurens, Ibid., p. 405.
(٣٥) المصدر نفسه.

التي ستتحملها الدول الخليجية النفطية ستتجاوز بكثير مبالغ المساعدات وقيمة الدين العربي. كذلك يصب في خدمة دعاية الحرب الحس القومي، الكبت الذي يستشعره الفقراء إزاء الأغنياء الفاسدين، إحساس «العداء للغرب الناجم عن مواجهة طويلة مع إسرائيل التي يعتبرها قاعدة متقدمة للغرب»[٣٦] وعن دعم هذا الغرب للأنظمة الأقل شعبية والأكثر قمعية. أمّا منطق المساعدات المالية، فعدا عن أنّه يصطدم بمنطق الكرامة الوطنيّة، فإنّه يخضع أيضاً لعمليّة حسابية: إنّ تكاليف الحرب التي ستدفعها الدول الخليجيّة تتجاوز كثيراً قيمة ديون الدول العربية مُجتمعة. يُضاف إلى ذلك الإحساس الديني الذي أُهين بوجود الجنود الأمريكيين على أرض السعودية، قرب مكة والمدينة. ما جعل «صدام حسين البعثي العلماني، يتحول فجأة إلى مدافع متشدد عن أماكن الإسلام المقدسة»[٣٧]. كلّ هذه العناصر تقود إلى ملاحظة مفادها أنّ تخلف العراق عن إنشاء قوة إعلامية حقيقية قد قلّل من فرص الإفادة من كل هذه العناصر. كما يقود إلى السؤال المُتعلّق بتأسيس الفضائية العربية الأولى وهي الفضائية المصرية، فهل أُسست لمواجهة دعاية الحرب هذه؟ أم أنّ إطلاقها جاء ضمن منطق وعناصر استعادة دور المركز؟

كان البثّ التلفزيوني بين الدول العربية، قبل ظُهور الفضائيات، محصوراً بنوعين من التبادل:

- البرامج والمسلسلات التي يشتريها الجميع من مراكز الإنتاج نفسها. وفي هذا كانت مصر تحتلّ، قبل كامب ديفيد الموقع الأول.

- البرامج والأخبار التي يتم تبادلها في إطار مشروع التعاون عبر عربسات، الذي «كان مخصصاً في مرحلته الأولى لتبادل المعلومات والقضايا العامة بين التلفزيونات المحلية القائمة وهو تبادل لا يحقق إلا الحد الأدنى من التأثير»[٣٨] لأنه كان انتقائياً بشكل كبير ومراقباً من قبل الإدارة والرقابة.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٤٥.
(٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٥.
(٣٨) Amin Hussein, «Pay TV: World interview,» paper presented at: The Fourth International Radio and Television Festival, Cairo, July 1998.

LAU Beirut campus

مع اندلاع أزمة الخليج يمكن تحديد عدة مؤشرات:

(١) «قبل الأزمة بقليل وضعت الحكومة المصرية قانوناً يسمح باستيراد اللواقط؛ في حين بدأت مصانع محلية في العربية السعودية وفي سائر دول الخليج بتصنيع لواقط تنافس الماركات المستوردة»[٣٩].

(٢) دخول التلفزيون المصري في اتحاد الإذاعة والتلفزيون (ERTU).

(٣) في حزيران/ يونيو ١٩٩٠، وافقت سلطة الاستثمار المصرية على تشكيل (CNE) المكلّفة بإعادة بث الـ سي إن إن (CNN)، كما طرحت فكرة إجازة البث المباشر. كان ذلك قبل شهر واحد من غزو الكويت.

(٤) في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠، أطلق التلفزيون المصري الـ سبيس نت المصرية (ESN)، وذلك قبل شهر من اندلاع «عاصفة الصحراء». «بدأ هذا البث بـ ١٣ ساعة يومياً على قناتين محليتين»[٤٠] وكان الهدف بحسب التبرير الرسمي المصري الذي تبنّاه الباحث المصري أمين حسين، هو مواجهة الحرب السيكولوجية المكثفة التي يشنها العراق، وتأثيرها على القوات المصرية والعربيّة المُتمركزة في العربية السعودية في إطار التحالف تحت الراية الأمريكية. وذاك ما يخضع للنقاش في ضوء معطيات كثيرة منها ما يضيفه عبد الله شليفر، وهو التأثير على شعوب الخليج العربي. والملفت أن البحرين والإمارات قد قررتا إعادة بث برامج القناة المصرية على قنواتهما المحلية كما كان التقاط هذا البث ممكناً للمواطنين السعوديين عبر خدمات أقمار البث التي أنشئت في المملكة، بحجة كون القوات المصرية تشكّل الحامية الرئيسة في الجيوش العربية المشاركة في التحالف[٤١].

ب ـ استراتيجية ما بعد الحرب

ما إن انتهت الحرب، حتى اشترت الفضائية المصرية موقعاً في القمر الصناعي الأوروبي (EUTEL SAT 2 F3)، وبذلك استطاعت أن تصل بسهولة

(٣٩) Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters».

(٤٠) Amin Hussein, «The Development of Space Net and it's Impact,» in: Ray E. Weisenborn, ed., *Media in the Midst of War: The Gulf War from Cairo to the Global Village* (Cairo: Adham Center Press, 1992).

(٤١) Schleifer, Ibid.

LAU Beirut campus

إلى جمهور الخليج وأن تجتذبه بفعل شعبية الأفلام والمسلسلات المصرية، كما استطاع أن يصل إلى الجمهور في كل العالم العربي.

وقد دلّت دراسة على الجمهور أجراها الباحث الجزائري بن قاسم مصطفاوي، لتصنيف تلقي القنوات التي تبث على القمر الصناعي الأوروبي، على أن الفضائية المصرية تأتي على رأس المحطات الرسمية كما تأتي فضائيات العائلة المالكة السعودية على رأس الفضائيات التجارية[٤٢]. ويلحظ الباحث أن المغاربة والتوانسة، إنما يتابعون أخبار الحرب الأهلية في الجزائر بواسطة التلفزيون الفرنسي والمحطتين العربيتين الـ إم بي سي (MBC) والفضائية المصرية»[٤٣].

هذه الاستعادة للجمهور تبرهن على أن الاستراتيجية المصرية تمضي حداً أبعد من مقاومة الحرب النفسية التي أطلقها العراق. ولذلك فهي تشكّل تحدياً مقلقاً بالنسبة إلى السعودية. كما تفسر السباق على احتلال الموقع الأول في النظام الإقليمي الجديد، بعد أن شطبت منه بغداد، في حين أن دمشق لا تمتلك القدرة على المنافسة فيه.

كل هذا يُفسّر الرّد المُتمثّل في الاجتياح الإعلامي السعودي الذي لم تكن الـ إم بي سي، إلا نقطة البداية والانطلاق فيه.

٢ ـ الرد السعودي: إنشاء الـ إم بي سي (MBC) والباقات الفضائية؛ فصل تأسيسي في الإمبراطورية التلفزيونية

في أول أيلول/سبتمبر ١٩٩١، أُطلقت من لندن الفضائية السعودية الخاصة الأولى ((Middle East Broadcasting Center (MBC)). «MBC هي الطبعة العربيةلقناة أمريكية أو أوروبية تجارية»[٤٤] كما حددها مديرها العام عند إطلاقها إيان ريتشي. إذاً، خصخصة، تجارية، واندماج في صلب النظام العولمي.

(٤٢) Belkacem Mostefaoui, «La Télévision des autres: La Réception de TV5 et France 2 à Casablanca et Tunis,» *Réseaux*, vol. 14, no. 78 (1996).

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) S. Abdallah Schleifer, «Ian Ritchie, CEO, MBC (Middle East Broadcasting Centre),» *TBS Archive*, no. 1 (Fall 1998).

برامجها هي «مزيج من البرامج الإخبارية، الرياضة، الأفلام وبرامج التسلية. أما الفورمات والأنماط، فهي مهنية جداً ومتطورة مقارنةع مع المحطات العربية المحلية»[٤٥] ومن الملاحظ أن ريتشي يحرص أن يؤكد أن الـ إم بي سي «قد استطاعت أن تحقق تقدماً في المنافسة مع القناة الوطنية المصرية (الفضائية المصرية) ومع المنافستين الأخريين إيه آر تي (ART) وأوربت (Orbit)»[٤٦].

في عام ١٩٩٤، انطلقت فضائية سعودية جديدة تحت اسم راديو وتلفزيون العرب (ART)، وذلك من تلسبازيو سنتر إن فوسيني شرق روما، وكانت تبث على عربسات. «العربية السعودية هي المساهم الرئيسي في هذا القمر الصناعي الذي أطلق عام ١٩٨٥، حيث تملك ثلثي رأس المال». وقد وُضعت هذه الميزة في تصرف الـ إم بي سي عامي ١٩٩٢ و١٩٩٣، ضد الفضائية المصرية، ومن ثم في خدمة ART[٤٧].

بعدها جاءت الـ أوربت (Orbit Satellite and Radio Television Network (Orbit))، التي تحدد نفسها على لسان مديرها العام «مختارات واسعة من برامج التسلية والبرامج الإخبارية ذات المستوى العالمي باللغتين الإنكليزية والعربية، تقدم لجمهور متعطش لمجال أكبر من تنوع البرامج «جمهور يحدد بدوره على أنّه «النخبة الكوزموبوليتية في الخليج العربي»»[٤٨]. بالمقارنة بين هذه القنوات نكتشف العوامل الثقافية، الاقتصادية، والإعلامية التي تفسر إنشاء وبرمجة وملكية هذه المجموعات؛ فالتحالف الوثيق بين الرساميل الخاصة والسلطة الإعلامية يرسم طبيعة هذه الفضائيات الثلاث. كما إنّ السلطة السياسية ليست ببعيدة عن ذلك، عبر المالكين الذين إن هم في الواقع إلا أعضاء في الأسرة المالكة السعودية.

أ ـ موقع المملكة في العالمين العربي والإسلامي

إن فكرة ظهور إمبراطوريّة إعلامية تبث من أوروبا، ويمتلكها سعوديون هي «مشروع أيديولوجي يمضي إلى ما هو أبعد من الاستثمار الاقتصادي».

---

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) Schleifer, «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters».

(٤٨) انظر: <http://www.orbit.net/corporate.profile>.

Riyad Nassar Library

مشروع يهدف في جزء منه إلى نشر الرؤية السعودية في العالم العربي ولدى جمهور المتلقّين باللغة العربية في الدول الأخرى. ما يُشكّل ميّزات كما يُشكّل مخاطر في الوقت ذاته.

(١) الميّزات

ثلاثة أنواع من الميّزات تصبّ في مصلحة هذا الانتشار:

(أ) ميّزات ذات طابع سياسي

ـ تتمتّع المملكة بالنسبة إلى دول الخليج الأخرى بتفوّق ديموغرافي، برقعة جغرافيّة، وبالتحالف التاريخي مع الولايات المتحدة الأمريكية. ما يجعل منها الدولة الوحيدة في الخليج التي تمتلك فعليّاً عناصر الدولة كما تمتلك بالتالي سوقاً وجمهوراً حقيقياً.

ـ كذلك تتمتع بمشروعيّة خاصّة بها غير قابلة للنقاش: المشروعيّة الإسلاميّة؛ فمنذ الملك فيصل حاولت المملكة، وعبر منظّمة المؤتمر الإسلامي، أن ترسم خطاً مُوازياً لخطّ الجامعة العربية، تستطيع أن تؤمّن فيه دور الزعامة التي لا ينازعها فيه أحد. عالم إسلامي يُشكّل وزناً مقابلاً للعالم العربي في عمليّة التنافس على القيادة.

ـ أخيراً تستفيد من التحالف مع الولايات المتّحدة، هذا التحالف الذي يعود إلى المرحلة الاستعمارية عندما كانت كل الأخريات محميّات بريطانيّة، ولم يكن من شأن الحربين: الحرب الباردة وحرب الخليج، إلا أن تدعم هذا التحالف، ومن ثمّ جاء اختفاء العراق كقوّة إقليميّة، إفقار مصر، والمأزق الذي تعيش فيه سوريا، إضافة إلى سيادة سياسة السوق، لتشكّل عوامل تؤكّد أكثر فأكثر الدور السعودي.

هكذا كانت الفضائيّات وسيلة لترويج هذا الدور، ما يفسر توزع جدول البرامج بين برامج التسلية المستعارة من الفورمات الغربية الأكثر تحرراً، وبين البرامج الدينيّة الأكثر تشدّداً؛ في حين تُترك مساحة محددة للسياسة في غياب برامج الجدل الأيديولوجي والفكري المُعمَّقين.

(ب) ميّزات ذات طابع اقتصادي

يظلّ التلفزيون بشكل خاص، وبالطريقة التي يريدها المُستثمرون

LAU Beirut campus

السعوديّون: مُشقرة، مدفوعاً، غنياً بامتياز، عملية مرادفة للإنفاق المالي «فوحدهم الذين يستطيعون أن يستندوا إلى دعم مباشر من حكومة ما، يستطيعون الصمود والنجاح في السوق السمعي - البصري»(٤٩) يكتب جون ألترمان. ولا يمكن أن يؤمّن هذا الدعم الذي تحتاجه المجموعات المُكلّفة إلا حكومات تمتلك إمكانيّات استثنائيّة من التمويل والاستثمار. وإذا ما وثّقنا بالأرقام التي قدّمها الفيلم الوثائقي الشهير لمايكل مور (فهرنهايت ٩/ ١١)، فإنّ الاستثمارات السعوديّة في الولايات المُتّحدة وحدها تبلغ ٧ في المئة من استثمارات الدولة العُظمى.

(ج) ميّزة ذات طابع إعلامي

هنا يختلط السياسي بالاجتماعي، بالسيكولوجي والأنثروبولوجي؛ فالعالم العربي يفتقد الحريّة على كلّ الصُعُد والتلفزيونات المحليّة تفتقر إلى الصدقيّة وإلى المهنيّة ما لا يجعلها قادرة على الاستجابة لتعطّش جمهور يريد الخبر والجدل والمُتعة. أمّا وسائل الإعلام الغربية فإنّ «تدخّلها في الجدل السياسي القائم في المنطقة يندرج ضمن علاقة جذب ورفض معاً»(٥٠). جذب يعود إلى المستوى التقني والمهني، ورفض يعود إلى قدرة المُتلقّي على كشف زيف ادّعاء الموضوعيّة في ما يتعلّق بقضايا المنطقة. ما يجعل هذا الكشف «يُعيد الثقة إلى الصحافيين العرب»(٥١).

وهكذا، فإنّ المحطات العربية الخاصّة التي تُبثّ من الخارج وكأنّها مُستقلّة عن الحكومات وفي الوقت نفسه تتمتّع بالمُستوى التقني والمهني، كما إنّها ظاهراً، تبدو وكأنّها الأفضل لتمرير الرسالة المُرادة، وبخاصّة أنّ الجمهور العريض ليس بقادر على إخضاع كلّ هذه المُعطيات للتحليل. كما إنّه من جهة أخرى متواطئ إلى حدّ مّا، ذاك أنّ الإحباط، الكبت، اليأس، القمع والوضع الاقتصادي، قد جعلته بحاجة إلى أن ينسى أو أن يُصدّق.

(٤٩) Jon B. Alterman, «The Effects of Satellite Television on Arab Domestic Politics,» *TBS Journal*, no. 9 (Fall-Winter 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall02/Alterman.html>.

(٥٠) Belkacem Mostefaoui, *La Télévision française au Maghreb: Structures, stratégies et enjeux*, histoire et perspectives méditerranéennes (Paris: Ed. L'Harmattan, 1995), p. 225.

(٥١) Ghareeb «New Media and the Information Revolution in the Arab World, and Assessment».

أخيراً تُشكّل الدياسبورة العربية في المهجر حقلاً خصباً لنجاح الفضائيّات العربية وبالتالي لترويج دور المملكة ووجهة نظرها. حيث إنّ الحنين إلى الوطن، والحاجة إلى تأكيد الذات في سياق غريب، تأكيد بواسطة الهويّة الدينيّة في حال العجز عن ذلك بواسطة الهوية الوطنية، كلّها تدفع هؤلاء المهاجرين إلى التعلّق بقناة الاتصال الجديدة مع الأوطان وثقافتها؛ في حين يأتي منطق صراع الحضارات الجديد ليعزّز من هذا المنطلق.

(٢) التهديدات الاعتراضية

في المقابل، هناك عدّة مخاطر اعتراضيّة تهدّد الهيمنة السعوديّة وبالتالي هذه الفضائيّات والمشروع الذي تُروّج له.

تاريخيّاً يمثّل هذا التهديد في تيّار اليسار العربي والقوميّة العربيّة الذي كان باستمرار معارضاً للحُكم السعودي؛ فالتيّارات العلمانيّة ترى فيه نظاماً ثيوقراطيّاً قرسطويّاً، أمّا القوميّون، على اختلاف تشكيلاتهم، فيرون فيه عائقاً في طريق مشروعه سواء بسبب التحالف مع الأمريكيين أو بسبب طبيعة النظام. أمّا المتشدّدون في الصراع العربي الإسرائيلي فيتّهمون المملكة بأنّها رائدة الاعتدال، وأخيراً جاء الإسلاميّون الذين هُم في غالبيّتهم على تناقض مع الصيغة الوهّابيّة للإسلام. ويظلّ الخطر الكبير الذي يأتي من الشيعة، حيثُ يُشكّل هؤلاء ١٠ في المئة من الشعب السعودي، حيث تبلغ نسبة الشيعة ذوي الأصول العراقيّة ٣٣ في المئة في محافظة الإحساء حيث تتركز الثروات النفطيّة، أمّا في محافظة عسير فمعظم السكّان من أصول يمنيّة ومن أتباع المذهب الزيدي(٥٢)، وكلاهما لا يعترف بالمشروعيّة الوهابيّة، وبخاصة في غياب العدالة الاجتماعية والحريّات، ما يُعمّق المشكلة المذهبيّة ويجعلها تتقاطع مع مشاكل اجتماعية لدى شرائح أخرى. علماً أنّ للشيعة امتدادات في الدول المجاورة: البحرين، العراق وإيران وفي سائر دول الخليج. من هنا، فإنّ التهديد الذي يُشكّلونه يتجاوز منطقة الخليج والعالم العربي ليمتدّ على المُستوى الإقليميّ؛ ففي عام ١٩٩٥، شهدت المملكة عمليّة كبيرة اتُّهمت

(٥٢) Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006), p. 66.

Riyad Nassar Library
LAU Beirut campus

إيران بالوقوف خلفها وقامت الشرطة بتوقيف أربعة أشخاص أُعدِموا على الفور من دون التحقيق معهم. كيف يُمكن إذاً لوسائل الإعلام، بخاصّة التلفزيونيّة، أن تُساهم في مُعالجة جميع هذه المخاطر؟ أن تثبّت دور المملكة الذي هو في الواقع دور الأسرة الحاكمة، في العالم العربي والمنطقة؟ أن تُحافظ على الأمر الواقع؟

ب ـ داخل الأسرة المالكة

يتوقف الحفاظ على الأمر الواقع على بقاء حكم الأسرة، فإنّ التنازع على السلطة وتراتيبها داخل الأسرة نفسها لا يخلو من المنافسة، بل والخصومات، خاصّة بين مجموعة الأخوات من زوجات الملك عبد العزيز المختلفات، وبذا تتشكّل مراكز قوى داخلها.

وربّما يكون أشهر هذه النزاعات محاولة الانقلاب التي نظّمها «الأمراء الأحرار» وعلى رأسهم الأمير طلال بن عبد العزيز، مُطالبين بملكيّة دستوريّة.

منذ اغتيال الملك فيصل عام ١٩٧٩، تركّزت السلطة في دائرة الأمراء السُّديريين (أولاد الملك ابن سعود نسبة إلى زوجة ابن سعود السُّديرية) ومنهم الملك فهد، الأمير سلطان، الأمير نايف والأمير سلمان. يُسيطر هؤلاء الأمراء مع بضع عشرات من أبنائهم على مفاصل السلطة؛ في عام ١٩٩١، وصل الملك فهد إلى حالة صحيّة خطرة إثر إصابته بجلطة دماغيّة. وليّ العهد هو الأمير عبد الله بن عبد العزيز الذي ينتمي عبر أمّه إلى الشُّمّريّين، «بين ١٩٩٥ ـ ١٩٩٧، كان الحفاظ على حياة الملك المريض الهدف الجوهري الذي تُبنى حوله كلّ أنشطة الأمراء السُّديريّين الذين يُحاولون عزله عن وليّ عهده... وبما أنّ وليّ العهد لا يمتلك سنداً عائلياً مُباشراً ـ إخوة أشقّاء ـ، فإنّه قد نسج شبكة تحالف مع أمراء بارزين أولاد الفيصل: سعود وتركي، والأمير طلال وابنه»[٥٣] إضافة إلى أنّه فرض أبناءه في مواقع أساسية في الدولة، مع الحرص على عدم استفزاز إخوته.

على الرغم من أنّ وليّ العهد كان يدير البلاد منذ عام ١٩٩٨، «فإنّ مسألة الخلافة لم تكن محسومة نهائيّاً: حيث إنّ القانون الأساسي لا يكلّف

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

ولي العهد إلا بتسيير الأمور ويترك للعائلة تسمية الملك الجديد»[٥٤]، تسمية لا تقتصر شروطها على السياق الداخلي، حيث تحكمها تدخلات خارجيّة وعلى رأسها الولايات المتحدة. إذاً على كلّ فريق أن يسجّل نقاطاً لصالحه في هذه اللعبة المصيريّة. ومُبكراً انتبه السُّديريُّون إلى أهميّة امتلاك وسائل إعلام مكتوبة وسمعيّة ـ بصريّة تدعّم وتنشر سلطتها.

بدأت القصّة مع هشام ومحمد علي حافظ اللذين أنشآ في لندن «بدعم الأمير أحمد بن سلمان» الشركة السعوديّة للأبحاث والنشر، ناشرة **الشرق الأوسط**، **المجلة**، **سيدتي** وغيرها. بعدها اشترى الأمير خالد بن سلطان عام ١٩٩١، جريدة **الحياة** اللبنانيّة التي أسسها كامل مروّة في لبنان عام ١٩٤٦.

ليأتي الانتقال إلى السمعيّ البصري «كما رأينا» بدعم الأمير عبد العزيز ابن فهد الـ إم بي سي (MBC)، والأمير خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأوربت (Orbit)، وكلاهما سُديريّان. أمّا الأمير الوحيد من خارج المجموعة السُّديريّة، والذي استثمر في الميديا، فهو الوليد بن طلال الذي لا يملك طموحات سياسيّة، بل يسعى إلى امتلاك معاقل اقتصاديّة تجعله حليفاً قويّاً لوليّ العهد.

بين ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣، كان وليّ العهد يعمل على خطّين متوازيين: إدارة مسألة الخلافة بطريقة توافقيّة، وإدخال إصلاحات عارضها البعض وعلى رأسهم الأمير نايف «الذي يرفض الوصيّ وسياساته الإصلاحيّة»[٥٥]؛ في هذا السياق جاءت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، لتقلب الموازين وتعطي الأولويّة للموضوع الأمني خاصّة منذ عام ٢٠٠٣، ما يُعدّل في أوضاع مراكز القوى.

هكذا اتّسمت التحالفات في خطّين: خطّ الوصي على العرش وحلفائه، وخط السُّديريّين، وبما أنّ هؤلاء يمتلكون مفاتيح السلطة، فإنّ الإعلام هو أحد أسلحتهم المُفضّلة للحفاظ عليها. هكذا اتُّخِذ قرار أوربت بالانتقال من إعلام المنوّعات إلى المحطّات الإخباريّة، وإذ انتهت هذه المحاولة بالفشل عام ١٩٩٧، فإن الـ إم بي سي (MBC)، قد استعادت الكرة وأنشأت العربية

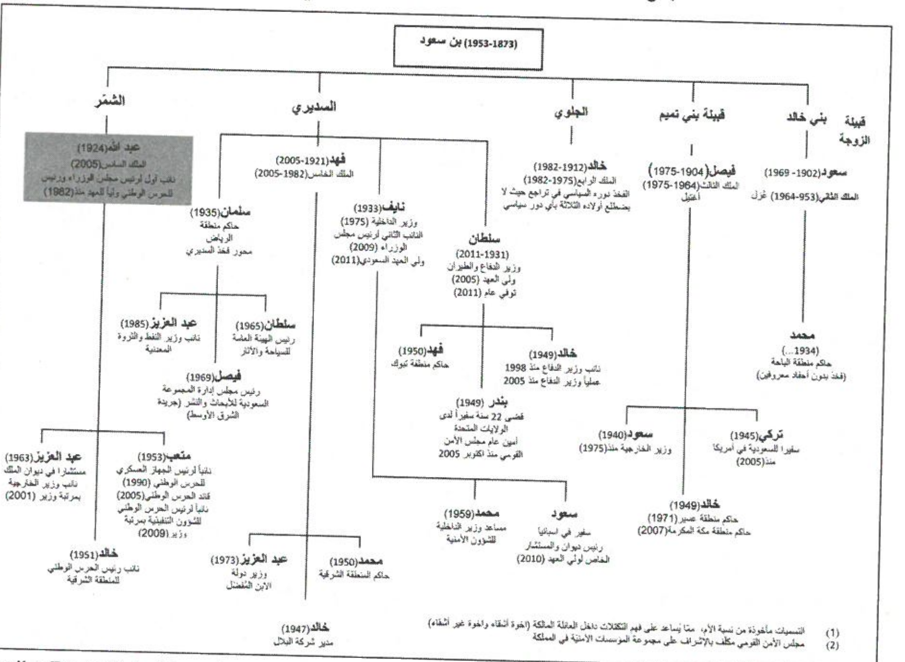
(٥٤) Laurens, *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*, p. 515.

(٥٥) Dazi-Héni, Ibid., p. 97.

LAU Beirut campus

عام ٢٠٠٣. وإذا كان البعض يبحث عن السلطة لضمان نقاط سباق الخلافة والمناصب الرسميّة، فإنّ البعض الآخر يبحث عن تملّك معاقل أخرى اقتصاديّة وأحياناً سياسيّة.

الشكل الرقم (٦ ـ ١)
شجرة عائلة مُبسّطة للأسرة المالكة في السعودية



المـصـدر: Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006), p. 40.

٣ ـ الإمارات العربية المتحدة: الاندماج في مجتمع الاتصالات

تبحث الإمارات العربية المتحدة عن تأكيد موقعها داخل مجلس التعاون الخليجي وفي الشرق الأوسط عبر الاندماج في العولمة وتبنّي استراتيجية أمن إقليميّ تضمنها الولايات المُتّحدة، ما يفرض مجموعة من الخطوات التي تبدو صعبةً على الجيل الكبير من الحكّام. غير أنّ الشيخ زايد يُبدي قدراً كبيراً من المرونة والذّكاء؛ بسرعةٍ تلقّف المعطيات الجديدة وباشر إصلاحاتٍ من شأنها أن تُرضي الإمبراطوريّة وتساعده على منافسة حلفائها التقليديين في

الخليج. بدءاً باستبدال الدستور المؤقّت لعام ١٩٧١، بدستورٍ فدرالي جديد تمّ إقراره عام ١٩٩٦. علماً أنّ دبي لم تكن راضية عن الدستور الجديد، حيث إنّه يحصر الخلافة بذريّة الشيخ زايد.

وانتقالاً إلى الانخراط في مجتمع الاتصالات، وصُولاً إلى الإعلام الفضائي، تحدٍّ لم يكن صعباً بالنسبة إلى الإمارات التي جمعت القرار إلى الإمكانيّات الماليّة الضخمة. كانت أبو ظبي هي الأولى، بين الإمارات، في إطلاق مشروع باقة فضائية، ومن ثمّ تبعتها الإمارات الأخرى: دبي، الشارقة وعجمان، في تنوّع يتمثّلُ في ليبراليّة الأولى ومحافظة الثانية والتزامها العربي الإسلامي؛ وبين الاثنتين تقف العاصمة أبو ظبي كمركز وكعامل توازن.

أ ـ التوازنات والمعادلات الإقليمية

(١) داخل مجلس التعاون

كان إنشاء كونفدرالية الإمارات العربية المتحدة بتشجيع من البريطانيين بنيّة إقامة توازن مع العربية السعوديّة. وقد استمرّت هذه المنافسة داخل مجلس التعاون الخليجي، حيث يحتلّ الاتحاد الموقع الثالث بعد سلطنة عُمان، موقع لا يبدو تغييره صعباً أمام طموحات الشيخ زايد، خاصّة مع نموّ ثروات الاتحاد. من جهة ثانية لا يزال النّزاع الحدودي بين الاتحاد والمملكة قائماً، ولا تزال ذكرى التدخل في البريمي حيّة.

(٢) مع إيران

تحتل إيران الجزر الإماراتيّة الثلاث منذ عهد الشاه (١٩٧١م) «وقد استفادت إيران من الفراغ الذي تركه البريطانيون لتؤكّد سلطتها هناك؛ ففي ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١، احتلّت جزيرتي طنب الكُبرى وطنب الصُغرى، بعد أن كان أمير الشارقة الشيخ خالد بن محمد القاسمي، قد وافق بضغط من البريطانيين على وضع جزيرة أبو موسى تحت الوصاية الإيرانيّة»[٥٦]، ولم يُغيّر حلول شقيقه الشيخ سلطان، الحاكم الحالي، الأمر على الرغم من رفضه الكامل للتنازل عن الجزر.

---

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

في عام ١٩٩٠، رفعت إيران الخُميني من مستوى وجودها في الجُزُر بحجّة انتشار القوّات الأمريكية قريباً من حدودها؛ فطردت المسؤولين الإداريين الإماراتيين من الجزيرة ووسّعت حاميتها العسكريّة فيها، من دون أن يكون الدافع الاستراتيجي بعيداً عن «دافع الانتقام للدعم الذي قدّمته الإمارات للعراق خلال الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨»[٥٧].

على الرغم من أنّ المحللين الاستراتيجيين يستبعدون كليّاً أيّ اعتداءٍ إيراني أو سعودي على الاتحاد، فإن العلاقات تظلّ إشكاليّة، بخاصّة مع طهران التي يُنظر إليها كتهديد، في حين يُنظر إلى السعوديّة كقوّة مهيمنة داخل مجلس التعاون الخليجي، ما يُفسّر انشغال حُكّام الاتحاد، المُسلّحين بثرواتهم الاستثنائية، بتأكيد موقعهم على الصعيدين العربي والدولي: فعلى الصعيد العربي تبنّى الشيخ زايد بوضوح خِطاباً عُروبيّاً، ليس لكون آل نهيّان هم فرع من القبيلة العربية بني ياس فحسب، بل لأنّ ذلك ينسجم مع مصالح الدولة: حيث إنّ الخطاب الانعزالي التجزيئي لا يخدم وحدة دولة فدرالية فتيّة، كما إنّ الخطاب الإسلامي يصبّ في صالح الدولتين المُنافستين: إمّا إيران الشيعيّة وإما العربية السعوديّة السنيّة، وبخاصّة أنّ سُكّان الإمارات لا يتبعون المذهب الوهّابي.

أمّا على الصعيد الدولي، فتتبنّى الإمارات قاعدة التوازن بين القوى العُظمى؛ فيما تدلل عليه مُشتريات الأسلحة ومبيعات النفط والاستثمارات. غير أنّ هذه السياسة لم تصمد بعد عام ١٩٩١، حيث لم يعد النظام العالمي الجديد يسمح بالتوازن.

ب ـ المنافسات الفدرالية

من جهة أخرى، ليست الإمارات بمنأى عن المُنافسات الداخليّة، فإذا كان آل سعود بحاجة إلى تأكيد سُلطتهم في وجه مُعارِضيهم وكانت هُناك صراعات مراكز نفوذ بينهم، وإذا كان آل ثاني يُواجهون الأمر نفسه، فإنّ هذا التحدي ليس بعيداً عن آل نهيّان داخل اتحاد تُشكّل عاصمتهم عاصمته.

ينحدر آل نهيّان وآل مكتوم من القبيلة نفسها (بني ياس)، وهي واحدة من

(٥٧) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

Riyad Nassar Library

الاتحاد القبليّ (عنز) في وسط الجزيرة العربيّة. بينما ينتمي شُيوخ الإمارات الأخرى (الشارقة، رأس الخيمة، أم القيوين وعجمان) إلى قبيلة القواسم.

خلال القرن التاسع عشر كان القواسم يسيطرون على جنوب الجزيرة العربية، وكان «أسطولهم المهم يساعدهم على مُقاومة الأسطول البريطاني في الخليج»، غير أنّ بني ياس «تحالفوا مع البريطانيين ضدّ القواسم وضد آل سعود. . . وانضمّوا إليهم عندما قرّر هؤلاء توجيه حملة بحريّة دمّرت أسطول القواسم تماماً عام ١٩١٩»[٥٨]. بعد ذلك عُقدت هدنة وُزّعت بموجبها الإمارات، فثُبّت آل نهيّان على أبو ظبي وآل مكتوم على دبي. وعلى الرغم من أنّ آل نهيّان «يُشكّلون فرعاً صغيراً من بني ياس، إلا أنّهم عرفوا كيف يكسبون شهرة وموقعاً بفضل زُعمائهم الذين برهنوا عن دهاء وحنكة. . . وهكذا برزت قيادة أبو ظبي للإمارات الأخرى منذ ما قبل إنشاء الاتحاد، ومن ثمّ تأكّدت مع الاكتشافات النفطيّة التي تنتج أبو ظبي منها ٨٠ في المئة من إنتاج الإمارات، وتتكفّل بالتالي بـ ٨٠ في المئة من الميزانيّة»[٥٩]. ولهذا فإنّ التبعيّة الاقتصادية هي من أهم العناصر التي تحول دون أية فكرة انفصالية. «حيث يُشكّل الاتحاد مسألة حياة للإمارات الصغيرة، كما يُشكّل مساحة زعامة لإمارة الكُبرى»[٦٠].

ج ـ الترجمة الإعلاميّة: من المرحلة الأرضية إلى مرحلة الفضائيّات

فهمت قيادة الإمارات أنّ الحاجة للتحالف مع الأمريكيين تقتضي الانخراط في العولمة وبالتالي بمجتمع الاتصالات الذي يُساعدهم على تثبيت موقع بلادهم محليّاً، إقليميّاً ودولياً. كما يُساعد على تثبيت قيادة أبو ظبي العاصمة وأخيراً، على تثبيت سلطة الأمراء «الفاطميين»[٦١] داخل الأسرة الحاكمة. مُعادلة التقطها الشيخ زايد الذي يصفه جون بيير شوفينمان بـ «البدوي

(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٥٩) عام ٢٠٠٥ اعتبر خبراء الـ (ADIA) أنّ أبو ظبي تمتلك ٩ بالمئة من الاحتياطي النفطي العالمي، وتحتل الموقع الخامس بين الدول المنتجة للغاز، تستثمر ٤٠٠ مليار دولار في الخارج تُشكّل عائداتها السنوية من ٨ إلى ١٤ بالمئة.

(٦٠) Dazi-Héni, Ibid., p. 153.

(٦١) يُطلق اسم الشيوخ الفاطميين على الشيوخ السبع، أبناء الشيخة فاطمة، الزوجة الرابعة للشيخ زايد.

LAU Beirut campus

الحاذق»(٦٢)، واتّخذ القرار. وبخاصّة أن أبو ظبي كانت تمتلك تجهيزات سمعيّة بصريّة قابلة للتحوّل إلى البث الفضائي، ولم تكن تنقصها الميزانيّات الكافية للتعاقد مع أفضل المهنيين، من تقنيين وإعلاميين.

كان تلفزيون الإمارات العربيّة المتّحدة قد بدأ البث بالأبيض والأسود عام ١٩٦٩، انتقل إلى نظام (PAL) في ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٤، وبدأ بتطوير تجهيزاته نحو البث الفضائي في عام ١٩٩٦. استقبلت الإمارات بطولة كأس الأمم الأفريقيّة، ونقلها تلفزيون أبو ظبي في بثٍّ مباشر. ما شكّل نواة قناة أبو ظبي الرياضيّة؛ في عام ١٩٩٧، نقلت هذه القناة البطولات الإيطالية، الفرنسيّة وبطولة مجلس التعاون الخليجي. ارتبط انتقال القناة الرياضية من البث الأرضي إلى البث الفضائي بإنشاء مؤسسة الإمارات للميديا تحت اسم (Emirates Media) التي حُدّدت لها أهدافها «إعلامية، اقتصادية ومهنيّة. ويُغطّي بثُّها النطاق المحلي، العربي والدولي... احترام الأهداف والقيم المهنية، احترام الصِّدقيّة... تطوير الإعلام والثقافة في البلاد وتسويق صورتها عبر الأفلام والبرامج التي تنتجها أو تساهم في إنتاجها...تطوير الوعي، والمُساهمة في تطوير الدولة ودعم مؤسساتها... إيصال الرسالة للجمهور العريض المحلّي والعربي»(٦٣).

تضمّ الباقة ثلاث قنوات: القناة الرياضية؛ تلفزيون الإمارات؛ تلفزيون أبو ظبي.

القناة الرياضية؛ عام ٢٠٠٠ انتقلت القناة الرياضيّة إلى البث الفضائي وذلك لنقل نهائيات الأمم الأوروبيّة ونهائيات كأس العالم لكرة القدم. بذلك انتقل البث من ١٢ ساعة إلى ١٥ ساعة؛ في عام ٢٠٠١ انضمّت القناة إلى باقة (Show Time) وأصبحت فضائية في ٨ نيسان/ أبريل ٢٠٠١، حيث افتُتحت الاستوديوهات الرقميّة، وفي أيلول/ سبتمبر بدأت تبث ٢٤/ ٢٤ ساعة(٦٤).

(٦٢) Jean-Pierre Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...* (Paris: Albin Michel, 1992).

انظر أيضاً الترجمة العربية للكتاب: جان بيير شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ترجمة حياة الحويك وبديع عطية (عمّان: دار الكرمل للنشر، ١٩٩٢)، ص ٢١.

(٦٣) وثيقة إنشاء قناة أبو ظبي عام ٢٠٠٠، أُعطيت للباحثة من أرشيف القناة.

(٦٤) معلومات من أرشيف القناة.

تلفزيون الإمارات؛ أُنشئ في ٨ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠، بواقع ١٨ ساعة بث يومياً. وكان يركّز بثّها على منطقة الخليج وتتوجّه إلى المُشاهد المحلّي أولاً ثمّ الخليجي ثمّ العربي. حيث يتضمّن جدول برامجها باقة من البرامج المُوَجّهة إلى المُجتمع الإماراتي؛ فهي مُكلّفة بتسويق تُراث الإمارات بخاصة والخليج بعامة، صورة دولة الإمارات أنشطتها ومنجزاتها. عند الإنشاء كانت برامج القناة المُنتجة محلياً تُشكّل ٦٠ في المئة من بثّها. كانت تبُثّ على الموجات الأرضيّة وعلى عربسات. في عام ٢٠٠٢، حصل تطوّر جديد، حيث بدأ تلفزيون الإمارات يبُثّ نشرتين إخباريّتين في الفترة المسائيّة.

فضائيّة أبو ظبي؛ في ٣٠ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠، أُطلقت فضائيّة أبو ظبي. لوغو أزرق جديد يدخل ساحة الإعلام الفضائي مُنافساً للجزيرة.

LAU Beirut campus

الفصل السابع

مرحلة القنوات الإخبارية في الخليج

أولاً: المحاولة السعودية الأولى تفشل، قطر والإمارات تتلقّفان الكرة

١ ـ أوربت ـ بي بي سي: زواج محكوم بالفشل

هل يكفي لوسيلة إعلامية أن تطبق قوانين السوق أو استراتيجيات برامج المنوعات ونصائح الخبراء والمدراء الأنغلوساكسون، لتحقق تلبية احتياجات المشاهدين في منطقة مهددة بكل أنواع الحروب والمشاكل؟ وإذا ما فرّج الجمهور عن كبته، وانقضت مرحلة الانبهار الأولى، أفلا تدفعه حقائق الحياة نحو اهتمامات أخرى؟ ألا تعود إلى الواجهة الأحداث التي تمسّ وجوده ومستقبله، لتفرض موجبات أخرى؟

في النصف الثاني من التسعينيات يشتدّ الحصار على العراق وتلوح في الأفق ملامح حرب جديدة، مصيرية، مذكرة بدور (الـ سي إن إن) خلال حرب ١٩٩١، بينما الفضاء يفتقر لقناة عربية مشابهة. القوات الأمريكية التي شنت الحرب على العراق انطلاقاً من السعودية عام ١٩٩١، باتت تحتل قاعدتين عسكريتين في قطر (العديد والسيلية). ومن الواضح أن الأمير الجديد الذي انقلب على أبيه، قد قرر منافسة السعودية في التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية. في لبنان تتسارع الأمور حيث تحتل المقاومة التي يقودها حزب الله الشيعي مقدمة الحدث بعد أن أطلقت إذاعتها وقناتها الفضائية المرنة، الواضحة الالتزام.

أما المشاهد فيبحث، حتى في برامج المنوعات، عن أخبار سياسية. لأن

LAU Beirut campus

Riyad Nassar Library

اهتمامه بالسياسة نابع من قلق الوجود في منطقة مهدَّدة وجودياً.

حاجة التقطها النظام السعودي وقرر توسيع إمبراطوريته الإعلامية لتشمل المجال الإخباري؛ فكانت أوربت من بادر إلى ذلك بالتعاون مع الـ بي بي سي. ولم يكن الخيار مجانياً فـ (بي بي سي) هي القناة الأكثر عراقة، صدقية ومهنية بالنسبة إلى العالم العربي حيث قدر جمهورها عام ١٩٩٤ بحوالى ١٤ مليون شخص أسبوعياً[١]. وعليه، عقد اتفاق بين المجموعة الإعلامية السعودية والقناة البريطانية تقوم الأولى بموجبه بتمويل قناة إخبارية تديرها الثانية باللغة العربية.

لقد اجتمعت عوامل النجاح في اتفاق يقوم على تمويل وتوظيف أكفأ المهنيين العرب المدربين من الـ (بي بي سي) في فريق يمثّل كل التنوع في العالم العربي. غير أن الزواج بين التمويل المقدم من (أوربت) والكفاءات التي لدى (بي بي سي) لم يدم طويلاً. حيث اعتبر السعوديون أن لهم الحق «بفرض سياسة إخبارية مهنية، ذات نمط عربي، وبرامج تتضمن تقارير، تعليقات، انتقادات، شرط ألا تطال الحكومة السعودية والبلدان الصديقة[٢]. ما يعني ألا يكون للمعارضين السعوديين أي حق في التعبير عبر هذه القناة. بينما أصرّت (بي بي سي) على عدم التنازل عن تاريخها في التعبير الحر والموضوعية. وهكذا استقبلت الشاشة الجديدة معارضين سعوديين (سعد الفقيه ومحمد المسعري) من الهيئة السعودية للتحديث، فما كان من أوربت إلا أن سحبت تمويلها فأقفلت القناة وفشل المشروع برمّته. بعدها انتظر السعوديون سبع سنوات قبل العودة إلى حقل القنوات الإخبارية مع قناة العربية.

٢ ـ الإطار الجيوسياسي لرد فعل دول الخليج

لفهم التداعيات الإعلامية التي أدت إلى بروز القنوات الخليجية المتعددة، لا بد من فهم التشابك الجيوبوليتيكي لمكونات دول الخليج العربي.

(١) «نبذة عن بي بي سي العربية،» <http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/about_us/newsid_7257000/7257604.stm>.

(٢) Introduction,» in: Kai Hafez, ed., *Mass Media, Politics, and Society in the Middle East*, *Hampton Press Communication Series. Political Communication* (Cresskill, NJ: Hampton Press, 2001), p. 7.

Riyad Nassar Library

في نهاية الحرب العالمية الثانية وبحسب معاهدة الحماية الموقعة عام ١٩١٦، سيطر البريطانيون على الجزيرة العربية باستثناء العربية السعودية المحمية من أمريكا. ما جعل الجزيرة العربية مجال منافسة بين الكبيرين الأنغلوساكسون.

وفي حين حافظ الأمريكيون على وحدة السعودية، قسم البريطانيون محمياتهم على قاعدتين قبلية ونفطية. حيث أوكلوا للقبائل الصديقة، المناطق التي سيطروا عليها. كما رسموا الحدود بناء على خريطة الحقول النفطية المكتشفة أو المتوقعة. لذا بقيت الحدود مطاطة، غامضة، متنازعاً عليها خصوصاً أننا نتحدث عن صحراء لا حدود جغرافية وطوبوغرافية فيها، وعن شبه جزيرة تشكّل في واقع الأمر وحدة جغرافية. هكذا شكلت الخلافات والصراعات القبلية تاريخ هذا المجتمعات، وساهم وجود الشركات النفطية الأجنبية الكبرى والمتنافسة في ما بينها في تعزيز هذه الصراعات واستغلالها واللعب عليها. بحيث إنها كثيراً ما تحولت إلى مواجهات عسكرية ذات دلالة.

في عام ١٩٤٩، دعمت السعودية شركة أرامكو الأمريكية للتنقيب في منطقة (الظفرة) جنوب شرقي قطر، ولم يتوقف التنقيب إلا بعد تدخّل عسكري بريطاني، من دون أن يتخلّى السعوديون عن إعلان ملكيتهم للمنطقة التي يدّعون أنها احتلت منذ مائة عام[٣]، مستندين في ذلك إلى اتفاق عام ١٩١٥، ومعتمدين على ولاء بعض القبائل التي تسكن المنطقة.

في العام ١٩٥٥ قامت شركة (أرامكو) بمساندة سعودية بالتدخل في حقل (بريمي) الذي تتنازعه دولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان فتدخلت القوات البريطانية لطردها[٤].

يقدّم هذان النزاعان مثالاً على سياسة استعمارية حكمت كل خرائط

(٣) منطقة البريمي كانت مُتنازعاً عليها بين عُمان، السعودية والإمارات، وانتهى الأمر بإقرار الجميع بكونها إماراتيّة؛ في عام ١٩٤٣، تم اكتشاف البترول. طالب بها السعوديين بحجة أنها محتلة منذ مئة عام. للمزيد، انظر: Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006).

(٤) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

التجزئة في العالم العربي لما بعد الانتداب، بحيث تكون مولِّدة للصراعات والشكوك. حيث إن الاتفاقات الدولية التي حدّدت تقاسم المنطقة ومن ثم تقسيمها، بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، (سايكس بيكو ـ الإعلان البريطاني)، قد رسمت خريطتها وفق المعادلة التالية: اقتطاع دول ميكرو من دول ماكرو، بحيث تظل الأولى تشعر بالقلق والتهديد والخوف وتعيش عقدة عدم الاعتراف، والثانية تشعر بالغبن والحق في الضم: (سوريا ولبنان)، (العراق والكويت) و(العربية السعودية وقطر).

الأمر الذي كان واضحاً هو أن أياً من هذه المشيخات الصغيرة لا يستطيع حماية نفسه إلا بفضل البريطانيين، ولذا أطلقوا عليها اسم المحميات. وهنا السؤال: الحماية ممن؟

ـ من كل مملكة أو مشيخة في مواجهة الأخرى، ومن القوى الكبرى في المنطقة: مصر عبد الناصر في الأعوام ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠؛ صدام حسين في التسعينيات؛ ومن ثم إيران. ففي مواجهة عبد الناصر، طرحت في الستينيات فكرة إنشاء حلف متّحد مؤلف من جميع بلدان الخليج وإيران الشاه وحتى باكستان. مشروع لم يكن له أي حظ في النجاح ولكنه يكشف العلاقة الإشكالية بين الدول صاحبة النفوذ في المنطقة والتي لا تعترف بهذه الخريطة التي رسمها الأجنبي وبين دولٍ وجودُها موضع نقاش. هكذا ظل العراق يعتبر الكويت جزءاً من جنوبه ويتهم البريطانيين باقتطاعها[٥] والإتيان بآل جابر من الصحراء ووضعهم على رأس الحكم فيها. كما كان على البحرين أن تنتظر حتى العام ١٩٦٨، للحصول على اعتراف إيران الرسمي باستقلالها[٦]، حيث كانت هذه الأخيرة تحكم البحرين حتى أتت قبيلة آل خليفة من قطر وطردتها، بدعم من الإنكليز. ثم اعتبر الإنكليز أنهم عوّضوا إيران بالجُزُر الإماراتية وبمنطقة عربستان.

كذلك تعتبر السعودية أنّ كل البلدان الصغيرة المحمية في الخليج يجب أن تكون تحت حكمها خصوصاً قطر؛ فهذه الجزيرة الصغيرة التي تبلغ

(٥) قدّم العراق هذه المطالبة بمجرد صدور الإعلان البريطاني عام ١٩٦٨، الذي أعلن عن نيّة بريطانيا الانسحاب من محمياتها الخليجية عام ١٩٧١، ومنذئذٍ تتالت الأزمات، حول هذا الموضوع انظر: المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٥ ـ ٧٦، ١٧٤ و١٧٦.

Riyad Nassar Library

مساحتها ١١٥٠٠ كلم على الشاطئ الغربي للخليج ليس لها أي منفذ بري إلا عبر حدودها الجنوبية مع السعودية، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة، يوجد ٩٧ بالمئة منهم في الدوحة وثُلثاهُم مِنَ المُهاجرين الآسيويين والعرب والإيرانيين[٧]. لم يعترف البريطانيون بقطر إمارة متساوية مع بقية الإمارات، وعلى آل ثاني كحكام لها إلا في عام ١٩١٦. وقد رفضت القبائل الأقدم في شبه الجزيرة القطرية وصاية آل ثاني، وظلّت تطالب بحقها في السلطة عِلماً أنّ لها امتدادات قبلية في البحرين والسعودية، الجارتين اللتين تسجلان نزاعاً حدودياً، إن هو إلا مطالب في الأراضي القطرية.

في العام ١٩٦٨، أعلنت بريطانيا عزمها الانسحاب من شرق السويس عام ١٩٧١. وكان لا بُدّ لها من تدبير أمور محمياتها في الخليج العربي بطريقة تضمن لها مصالحها النفطية، عبر الوجود العسكري غير المباشر: أي الخبراء والمستشارين والحضور المدني: «المنتجات والاستشارات والخبراء»[٨]؛ كما تضمن قطع الطريق على الأمريكيين للتقدم لملء أي فراغ ناتج من انسحاب الحامية البريطانية. لذا عملت طوال ثلاث سنوات على ترتيب إنشاء (كونفدرالية) تجمع تسع إمارات تشكّل المحميات البريطانية تحت اسم اتحاد الإمارات العربية، بحيث تحفظ التوازن في مواجهة السعودية، غير أنّ خلافاً حول شكل الحكم ترك قطر والبحرين خارج الاتحاد، على الرغم من أن الأخيرة هي التي قدمت الاقتراح[٩].

في عام ١٩٧١، انسحبت بريطانيا تاركة نزاعات حدودية من دون حل، وتعمّق الخوف والريبة، من دون أن ينفع تشكّل مجلس التعاون الخليجي في تهدئتهما، بل إن المجلس تحوّل إلى ساحة لإثبات الوجود في وجه الهيمنة السعودية.

صراعان حدوديان يقلقان قطر: **الأول**، في مواجهة البحرين على منطقة (الزبارة)؛ **والثاني**، مع العربية السعودية على حقل النفط (الخفوس). النزاع الأول تمت إحالته إلى محكمة العدل الدولية عام ١٩٨٦، وقد صدر قرار عن

(٧) Nabil Ennassiri, «Géopolitique du Qatar, la construction d'une image flatteuse,» 26 novembre 2008, <http://www.omma.com>.

(٨) Dazi-Héni, Ibid., p. 154.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

LAU Beirut campus

المحكمة في العام ٢٠٠١، أعطى آل ثاني السيطرة على (الزبارة) مقابل ذلك إعطاء جزر (حوار) لآل خليفة[١٠]. ويفسر تنازل قطر فيه لحساب البحرين رغبتها في تحييد جار صغير لا يشكّل خطراً من أجل التحالف معه في مواجهة جارٍ آخر قويّ يشكّل خطراً. وبخاصة أن الرياض لم تتوقف عن المطالبة (بالخفوس) مستغلة التواصل القبلي بين البلدين وانتشار المذهب الوهابي في قطر، والخلافات الداخلية بين آل ثاني والتجار الذين يتزعمهم آل المسند[١١]، وكذلك من غضب القبائل من قرار الشيخ خليفة في توزيع الأراضي على المواطنين بدلاً من توزيعها على القبائل[١٢].

في هذا المناخ حصل اجتياح العراق للكويت، وبرزت نتيجته عدة عوامل: اضطرار واشنطن إلى إطلاق يد سوريا في لبنان لحاجتها لدمشق في حربها ضد العراق، وبدرجة أكبر حاجتها للمملكة العربية السعودية للانطلاق في هذه الحرب التي يتحدد بها إرساء النظام العالمي الجديد وتمركز الإمبراطورية، وكذلك إمكانية امتداد النفوذ الإيراني إذا ما سقط نظام صدام حسين، عوامل لم يكن لها إلا أن تجعل كل الجيران الصغار (الميكرو) يخافون من أن تسري العدوى إلى الجيران الكبار المذكورين.

مخاوف لم تلبث أن تحولت إلى واقع. إذ لم تكد معارك عاصفة الصحراء تتوقف، حتى هاجمت السعودية مركز (الخفوس) الحدودي عام ١٩٩٢، فدمّرته وقتلت جنديين قطريين وطردت الآخرين[١٣].

ثانياً: قطر ـ الجزيرة: الوجود عبر الإعلام

يقول محمد جاسم العلي، مؤسس الجزيرة: «لقد كشف لنا الهجوم على الخفوس أن الصوت الوحيد المسموع داخل مجلس التعاون الخليجي هو الصوت السعودي، أما الآخرون فهم على الهامش باستثناء عُمان التي لا تريد

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(١١) وعلى رأسهم حمد المسند الذي اضطرّ إلى اللجوء إلى الكويت وهو والد الشيخة موزة، التي أصبحت الزوجة الثانية للأمير حمد بن خليفة.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(١٣) لطفي شحاتة، «النزاع الحدودي بين العربية السعودية ودول الخليج،» **الرهط الأول** (القاهرة)، ١/١/١٩٩٣.

Riyad Nassar Library

الانخراط في الصراعات. والأمر الثاني المفاجئ، كان في الإعلام حيث لم يقبل أحد روايتنا، سواء كان إعلاماً عربياً أم غربياً؛ فالجميع كان يردد الرواية السعودية. بعدها جاءت حرب اليمن التي ساندت خلالها السعودية الانفصاليين الشيوعيين في الجنوب، ونحن ساندنا حكومة الشمال ووحدة البلد. تحليلنا هو أنّ السعودية لا تريد بلداً قوياً في الخليج. لقد رأينا التهديد ولم يكن لدينا تأثير لا في مجلس التعاون الخليجي ولا في الفضاء الإعلامي. لقد كان الإعلام عجزنا الكبير»[١٤]، يختم محمد جاسم العلي.

من هنا فرض الحل الوقائي نفسه، على الإمارات الصغيرة التي تحاول إثبات وجودها المستقل ضمن مجلس التعاون الخليجي في مواجهة السعودية، وفي المحافل العربية والدولية، أن تنخرط، من دون شروط، في النظام العالمي الجديد. نظام ملامحه: العولمة وتجلّياتها: النيوليبرالية، السوق، الارتباط بالإمبراطورية الأمريكية ومجتمع المعلومات. هي المحميات القديمة تبحث دائماً عن شكل جديد من الحماية.

في هذا السياق يصبح نظام قطر تحت حكم الشيخ خليفة منتمياً إلى الماضي وغير قادر على القيام بهذا التحول. ولذا يقوم ولي العهد الشيخ حمد ابن خليفة بمساعدة قريبه حمد بن جاسم الملحق العسكري في سفارة قطر في واشنطن بانقلاب ناجح على والده بتاريخ ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٩٤، أي بعد سنتين من حرب الخليج عام ١٩٩١ وشهرين من حوادث الخفوس.

١ ـ النظام الجديد يسعى إلى تأكيد الحضور ضمن مجلس التعاون الخليجي وعلى الساحتين العربية والدولية

يحكم عنوانان رئيسان السياسة الخارجية للأمير الجديد:

- ترتيب العلاقات الخارجية بطريقة تؤكد الحضور وتؤمن الحماية.
- تنظيم الوضع الداخلي للبلد تبعاً للوضع الجديد.

ما يترجم عملياً بثلاثة:

- سياسات خارجية تصالحية مع الجيران والشركاء.

(١٤) مقابلة خاصة مع محمد جاسم العلي في الدوحة، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

LAU Beirut campus

ـ تأمين ثقل على الساحة العربية وخصوصاً في مجلس التعاون الخليجي.

ـ تنفيذ شروط العولمة والنظام الأمريكي الجديد في الشرق الأوسط.

أ ـ سياسات خارجية تصالحية وتوسطية

(١) المصالحات: تصفير المشاكل

حصلت الخطوة الأكثر إثارة في آذار/ مارس عام ١٩٩٦، عندما أعلنت قطر افتتاح مكتب دبلوماسي تجاري إسرائيلي في الدوحة. بعد أربع سنوات، التقى الشيخ حمد إيهودا باراك في نيويورك على هامش القمة الألفية. واستمرت الاتصالات مع إسرائيل.

من ناحية أخرى حافظت الدوحة على علاقات جيدة مع العراق، وفي العام ١٩٩٨، أرسل الأمير وزير خارجيته إلى بغداد من أجل القيام بوساطة. في المقابل حافظ الفريق الحاكم على علاقات جيدة مع إيران وقام الأمير بزيارة لطهران بتاريخ ١٧ تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠.

انتهى الصراع مع البحرين مع موافقة قطر على قرار محكمة العدل الدولية بتاريخ ١٦ آذار/ مارس عام ٢٠٠١.

هذه السياسة القائمة على الانفتاح، التنوع والتوازن في مواجهة الدبلوماسية السعودية، حددها الحكم الجديد بمعادلة: نقطة اتصال بين الشرق والغرب بين آسيا والعالم العربي (خصوصاً آسيا الإسلامية أو التي تشكّل مصدر الهجرة)، معادلة ترجمتها مواضيع برامج قناة الجزيرة.

(٢) دور الوسيط والمضيف

جهدت الدبلوماسية القطرية في تأدية دور الوسيط في كل الصراعات في المنطقة، إمّا عبر تنظيم لقاءات في قطر، أو عبر تنظيم وفود تزور مواقع الصراع، أو عبر استقبال لقاءات محضرة بدرجة جيدة، وتنظيم مؤتمرات بين مختلف الأفرقاء. مسلحة في كل ذلك بإمكانيات قطر المالية التي حولت الدوحة إلى مكان لكل أنواع التظاهرات:

مؤتمرات، ندوات، اجتماعات، مهرجانات، خصوصاً تلك المخصصة للعولمة وتجلياتها الاقتصادية وبمشاركة إسرائيلية، العلاقات بين العرب

Riyad Nassar Library

وأمريكا، لحوارات الأديان التي فُتحت لأول مرّة لمشاركة اليهود، بل والمنظمات اليهودية الأكثر تطرفاً والتي تشكّل منظمات اللوبيهات المؤيدة لإسرائيل. وكذلك للفعاليات الرياضية الأكثر اجتذاباً للشباب.

من ناحية أخرى، أمّنت قطر اللجوء السياسي للمعارضين العرب والإسلاميين: من مثل مسوؤلي حماس الذي طردوا من الأردن؛ القيادي الجزائري عباسي مدني؛ الرئيس الشيشاني السابق؛ زوجة الرئيس صدام حسين وأعضاء من عائلته وحكومته.

هذه السياسة حققت هدفا مُهمّاً: خلق خصوصية سياسية لدولة غير معروفة على الساحة الدولية، وغير معتبرة على الصعيد العربي.

ب ـ تأمين وزن على الساحة الدولية العربية، وخصوصاً ضمن مجلس التعاون الخليجي

الخطوة المقابلة التي رافقت عملية الانقلاب وربما ارتبطت به، تمثلت في العلاقة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة. علاقة تقوم على استضافة أكبر قواعد عسكرية أمريكية في المنطقة؛ ففي عام ٢٠٠٢، انتقل مركز القيادة العامة للمنطقة الوسطى (CENTCOM) الأمريكي من (تامبا في فلوريدا) إلى قاعدتي السيلية والعديد في قطر، اللتين استُعملتا جزئياً في حرب أفغانستان عام ٢٠٠١، ثم قاد منهما الجنرال (تومي فرانك) الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، بعد أن نفذ أعمالاً إنشائية جعلت من مدرجها أحد أكبر مدرجات العالم[١٥]. بعد احتلال العراق، عام ٢٠٠٤، تم توقيع اتفاق الدفاع المشترك[١٦]. لقد قرّر الأمير تحمُّل نتائج خياره في التحالف مع الولايات المتحدة[١٧] بحسب ما قاله في كلمته المعلنة قبل أيّام من حرب العراق حيث شرح لشعبه «الضمانة التي تشكلها الولايات المتحدة لأمن قطر»[١٨]. مؤشراً إلى التهديد السعودي.

---

(١٥) Dazi-Héni, Ibid., Ibid., p. 255.

(١٦) جمال زكريا قاسم، «التطور السياسي والاقتصادي في دولة قطر: من الاستقلال إلى وصول الشيخ حمد بن خليفة إلى الحكم، ١٩٧١-١٩٩٥»، <http://www.attarikhalarabi.ma/Html/Adad44partie8.htm>.

(١٧) Dazi-Héni, Ibid., p. 255.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

LAU Beirut campus

يُشكّل هذا التطور تغير النظام الإقليمي الخليجي الذي كانت تقوده، حتى ذلك التاريخ[19]، المملكة الوهابية وحدها، وهو تطور يجد تفسيره في تقاطع المصالح والضغوط بين البلدان الثلاثة: السعودية لم يعد باستطاعتها تحمّل الوجود الأمريكي بجوار الأماكن المقدسة للإسلام، وبخاصة أن أعمال العنف التي يقوم بها الجهاديون تجبر النظام السعودي على الانكفاء نحو الأمن الداخلي، علماً أن بقاء القوات الأمريكية يعزز هذه المجموعات وعنفها. الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد وصول الحالة السعودية إلى الانفجار ولا تريد، في الوقت نفسه، أن تصبح قواعدها وجنودها عرضة لهجمات الجهاديين والمعارضين السعوديين. أخيراً، قطر التي تجد في اجتماع هذه المصالح فرصتها لإثبات نفسها في مجلس التعاون الخليجي في مواجهة السعودية، بالتالي على الساحة العربية وفي العالم. وهكذا يستقر الأمريكيون في الإمارة، ويُسيطر حضورهم أكثر فأكثر على المشهد ويتحكم بالأقوال والأفعال وطبيعة التعامل مع الدول الأخرى[20].

ج - تلبية مطالب العولمة والنظام العالمي الجديد في الشرق الأوسط

إذا كان الالتحاق بالمشروع الأمريكي في الشرق الأوسط هو الوسيلة الأفضل لإثبات الوجود على هذه الساحة، فإن لهذا الالتحاق متطلباته.

(١) إصلاحات سياسية واقتصادية

في العام ١٩٩١، نفذ الأمريكيون مشروعهم ضد العراق للسيطرة على المنطقة العربية تحت عدة ذرائع، منها الإصلاحات الديمقراطية. وهكذا كان بإمكان أمير ذكي أن يفهم أن ما هو مطلوب منه هو القيام بإصلاحات شكلية تغطي الادعاء الأمريكي، ولا يكون من شأنها إحداث تغيير جذري يؤدي إلى تغيير نظامه، شرط أن يبقى ملحقاً بالمشروع الأمريكي. هذه الإصلاحات تبدأ بالخصخصة، فتح الأسواق، احترام قوانين السوق، الاستهلاك، تقديم بعض أشكال الانفتاح والتطور، وتقف عند حدود الشكل من دون المسّ بالتغيير

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(٢٠) حتى عام ٢٠٠٢، كانت الإمارة تستورد من فرنسا ٨٠ بالمئة من حاجاتها العسكرية، ومنذ إقامة القاعدة الأمريكية بدأت هذه النسبة تنخفض. أما الاستثمارات فكانت ١ مقابل واحد، وأصبحت ١ مقابل خمسة.

الحقيقي الذي يطال الحريات العامة، الحوار الحر في الفضاء العام، الحياة السياسية (الأحزاب)، مفهوم المواطنة، تداول السلطة، الوراثة.

هكذا تمّ تبنّي إصلاحات اقتصادية ليبرالية جديدة مطلوبة على صعيد الخصخصة واقتصاد السوق. ساعد على تحقيقها الاستثمار الضخم في قطاع الغاز.

وترافقت بإصلاحات شكلية سياسية:

في ٦ شباط/ فبراير عام ١٩٩٦، صدر قرار أميري بحلّ وزارة الإعلام فاسحاً المجال أمام إنشاء قناة الجزيرة وسمح أيضاً بخصخصة الصحافة المكتوبة[21].

في ٨ آذار/ مارس ١٩٩٩، نظّمت قطر أول انتخابات محلية وأعطت حق التصويت للمرأة[22].

في ٢٩ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣، تم التصديق على أول دستور للبلاد عبر استفتاء عام من دون أن يُعرَض النص على الشعب للنقاش.

حصرت المادتان ٨ و١٦ تداول السلطة بالأولاد المباشرين للأمير، ولم تُشر أي مادة إلى السماح بإنشاء أحزاب، أو حتى منظمات سياسية. وقد تضمّن الدستور على بعض النقاط التي تسمح للعائلة بالحفاظ على سيطرتها على الدولة في كل الظروف[23].

«هذه ليست ديمقراطية طالما أنها لا تسمح بالتعددية، كل ما حصل هو التصديق على دكتاتور يحمل بعض القيم الغربية»[24]. أو إنه نوع من التعايش بين مجتمع وهّابي محافظ، قبلي، ونمط حياة ليبرالي متعدد الجنسيات؟».

(٢) حضور إعلامي في إطار مجتمع الاتصالات: الجزيرة

يعي الأمير جيداً أن بلداً يحوي مخزوناً ضخماً من البترول والغاز ويفتقر إلى أي عامل آخر من عوامل السيادة، لا يمكن أن يثبت وجوده إلا عبر

(٢١) S. Abdallah Schleifer and Sarah Sullivan, «Al-Jazeera: Interview with Sheikh Hamad bin Thamer Al Thani,» *TBS Journal*, no. 7 (Fall-Winter 2001), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall01/Jazeera_chairman.html>.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) Dazi-Héni, Ibid., p. 186.

(٢٤) Reporters sans frontiers, *Le Rapport annuel, 2003* ([s. l.]: Reporters sans frontiers, 2003).

LAU Beirut campus

Riyad Nassar Library

رافعة غير تقليدية. وقد أمّن مُجتمع المعلومات هذه الرافعة لقطر ومكّنها من إثبات نفسها عبر الإعلام.

في كتاب نُشر في الذكرى العاشرة على إنشاء قناة الجزيرة، يتساءل محمد حسنين هيكل، عن سر الجزيرة، القناة التابعة لبلد لا يملك أي عامل من العوامل التي تشكل، في العادة، قوة الإعلام؟[٢٥] ويقصد هيكل «العوامل التي تشكّل عناصر السيادة الوطنية. من هنا تبدأ المقاربة خارج المعايير التقليدية، حيث إن الافتقار إلى هذه العناصر دفع الشيخ حمد إلى تطوير ما يسمى بـ «سياسة الصورة»[٢٦] بشكل حديث وفعال. وهل أفضل من قناة تلفزيونية فضائية لخدمة هذا الهدف؟

لقد تم تأمين التمويل عبر المصالحة بين الأب والابن. أما كفاءة الفريق المؤسس الذي تدين له القناة بنجاحها، فكانت هدية ممتازة قدمها من لندن الخصم السعودي.

لقد تم فسخ العقد بين أوربت وبي بي سي في نيسان/أبريل عام ١٩٩٦، بعد شهرين من صدور قانون إنشاء الجزيرة، فوجد فريق بي بي سي أرابيك نفسه من دون عمل كما يقول أحمد الشيخ في كتاب **روح الجزيرة**: «ظهيرة ذلك اليوم من أبريل ١٩٩٦، طلبوا منّا ألا ندخل غرفة الأخبار في وايت سيتي بلندن»[٢٧]؛ فتلقّف القطريون الفرصة وحصلوا على فريق من ١٤٠ صحافياً وتقنياً بينهم ١٩ من قدامى الـ بي بي سي.

٢ ـ عناصر نجاح الجزيرة

عبر الجزيرة بحثت قطر عن موقع إعلامي عربي وعالمي. وهكذا راح مجلس الإدارة، والمدير المؤسس محمد جاسم العلي وفريقه، يعملون على وضع خطة تقديرية لقدرة القناة على منافسة القنوات الأجنبية، خصوصاً سي إن إن والـ بي بي سي. وفي أقلّ من أربع سنوات أصبحت الأخيرتان تقدمان على

(٢٥) محمد حسنين هيكل، «مسألة الكيمياء،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ط ٢ (الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٧)، ص ١١٨.

(٢٦) Dazi-Héni, Ibid., p. 209.

(٢٧) أحمد الشيخ، «تجربة ساخنة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٣٢.

Riyad Nasser Library

شاشتيهما شعار الجزيرة وتعيدان بث أخبار وصور نقلاً عن القناة[٢٨]. هذا الحدث قلب للمرة الأولى اتجاه انسياب الأخبار بين الشمال والجنوب.

بعد عشر سنوات، أصبح هذا الشعار أحد أكبر الماركات في العالم[٢٩]. أما في الفضاء العربي والجيولغوي العربي، فقد وضعت استطلاعات الرأي الجزيرة على رأس قائمة القنوات الأكثر مشاهدة. ما جعل أحد قدامى بي بي سي يقول: إنّ للجزيرة مُنافسين ولكن ليس هُناك من يُضاهيها»[٣٠].

هل يمكن تفسير نجاح هذه القناة بكونها القناة العربية الأولى المختصة بالأخبار في الفضاء العربي؟[٣١] وأن هذا العالم العربي كان بحاجة إلى صوت فضائية إخبارية، فجاءت الجزيرة تلبي الحاجة ونجحت في تصدر القائمة؟[٣٢]

سؤال يقود إلى تبيّن أكثر من عامل كان لكل منها دوره المؤثر في نجاح هذه القناة. عوامل منها ما يندرج في إطار التطور السياسي والاقتصادي والتقني العالمي، وهذه أمور مشتركة مع المحطات الأخرى، ومنها عوامل خاصة بالجزيرة نفسها.

أ ـ اللحظة التاريخية والرؤية: كيمياء وفيزياء التاريخ

يُجيب هيكل نفسه فيقول إن العوامل التقليدية هي: هوية وطنية واضحة جداً، علاقة بين الأيديولوجية والعمل السياسي، التناسب بين قوة الإعلام وقوة البلد المرسل، وأخيراً كون كل وسيلة إعلام تحمل صوت وصورة البلد المرسل، فيما يتكوّن جهاز العاملين من سكان هذا البلد[٣٣].

(٢٨) S. Abdallah Schleifer, «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera,» *TBS Journal*, no. 5 (Fall-Winter 2000), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall00/al-Ali.htm>.

(٢٩) Mathieu Auzanneau, «Chiffre du jour/Moyent Orient/médias, première place pour Al Jazeera qui arrive en tête des recherches via Lycos,» Transfert.net (4 avril 2003), <http://www.transfert.net/1ere-place-pour-Al-Jazeera>.

(٣٠) مارتن بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٤١.

(٣١) نبيل عمرو، في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلميّة»، إعداد ربى عطيّة (٢٠٠٦).

(٣٢) بيل، المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٣٣) هيكل، «مسألة الكيمياء،» ص ١١٨.

LAU Beirut campus

غير أنّ هيكل يردف أنّ أيّاً من هذه القواعد لا ينطبق على قطر ولا على الجزيرة، علماً أن القاعدتين الثانية والرابعة، وبخاصة الثانية، تظلان موضع نقاش لأن الجزيرة لم تكن بعيدة عن ترجمة الأيديولوجية السياسية والإعلامية لقطر، وبالتالي للولايات المتحدة التي استقرت في قاعدة العديد، مروراً بأيديولوجية الإسلام السياسي.

ينتقل هيكل إلى مقاربة تاريخية، فيقارن الوضع في العالم العربي بمثيله في فرنسا وبريطانيا في القرن التاسع عشر والولايات المتحدة في القرن العشرين. قائلاً إن «عند البدايات دائماً أصل الأنواع حين نشأتها ونموّها. بمفهوم أنّ أصل الكائنات ونموّها هو الفاعل المباشر المؤثّر على مسار حياتها»[٣٤]؛ فالبداية هي اللحظة الفاصلة بين قرن انتهى وآخر يبدأ بين أمل وتهديد، للأسف؟ فإن الوطن العربي كان في حالة الخطر حيث «كان الظرف الإنساني للمنطقة قريب الشبه بذلك التصوير الحي الذي كتبه الزعيم البريطاني الأشهر "ونستون تشرشل" لأحوال الأمّة البريطانيّة في تلك اللحظة الحرجة من الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٠ أنها «في حالة أشبه ما تكون بما يُصيب الكائنات البحريّة القشريّة حين تضربها العواصف وتكسر قشرتها على الصخور، ويصبح لحمها العاري مكشوفاً. لكن الأمّة البريطانيّة بإرادة الحياة ذاتها أدركت ما أصابها، وراحت تسبح مُتحاملة على نفسها كي تحتمي بحجر آمن على أحد شواطئ الجزر البريطانيّة، ثُمّ تكمُن هُناك تستدعي عناصر المُقاومة الغريزيّة لديها حتّى تنمو لها صدفة قشريّة جديدة تحمي جسد لحمها العاري، ثُمّ تعاود الخروج مرّة أخرى إلى حياة البحر الزاخرة»[٣٥].

هذا الزمن التاريخي هو ما يحلّله فهمي هويدي بقوله «إنّ ذلك العقد كان يُجسّدُ مرحلة الانكسار والحيرة في العالم العربي... بما استصحبه من ظُهور عصر القُطب الواحد... كما شهدت تلك البدايات توقيع اتفاقيّات أوسلو... وهو ما أسفر عن تصعيد في العمليات الاستشهاديّة. رد عليه الإسرائيليون بانتخاب بنيامين نتانياهو رئيساً للوزراء... وكانت القمة العربية التي عُقدت في العام ١٩٩٦، من أصداء تلك التطوّرات المؤرّقة، وفي العام

---

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

LAU Beirut campus

ذاته، شنّت إسرائيل غاراتها على لبنان، وحدثت انفجارات ضدّ القاعدة الأمريكية في مدينة الظهران، وتفاوتت أصداء التوتّر الذي توزّع على أقطار من العراق إلى الجزائر مُروراً بأفغانستان وبلاد الشيشان. وسط أجواء الحيرة والبلبلة المخيّمة، ظهرت قناة الجزيرة في الأفُق»[٣٦].

ويؤيد الخبير الإعلامي البريطاني ما قاله الرجلان بناءً على «أنّ العالمين العربي والإسلامي قد تحوّلا إلى مسرح للأحداث الكُبرى في عصرنا الراهن»[٣٧].

لماذا الجزيرة؟ ولماذا قطر؟

من جديد يشرح هيكل أنّ ما حصل هو: « حُلول الرؤية بديلاً للقوّة... وذلك ما جرى عندما تفاعلت لحظة وظرف ومناخ وموقع وطموحات... كيمياء وفيزياء التاريخ.»[٣٨] إنّها الصورة التي تحلّ مكان القوة وتعبر الحدود.

ب ـ هامش الحرية

لقد عمل هؤلاء الصحافيون العرب قبل الجزيرة باستثناء قدامى الـ (بي بي سي) في قنوات حكومية عربية. حيث كان السقف المنخفض لا يسمح بالوقوف ورفع الرأس. فجاءتهم الجزيرة بمفاجأة القرن، عبر معادلة قدّمها أحد المؤسسين جميل عازر «الرأي والرأي الآخر» كـ «مُلخّص أفكار نوقشت في اجتماعات مجلس الإدارة التأسيسي، قبل الانطلاق»[٣٩] وذاك ما أطلقت عليه المذيعة ليلى الشايب، لقب «الصدمة الإيجابية»[٤٠].

صدمة تجلّت منذ البرامج الأولى، مثل حلقات الاتجاه المعاكس: «معاهدة اتحاد مجلس التعاون الخليجي»، حيث دار النقاش بين الأمين العام للمجلس عبد الله بشارة وعبد الباري عطوان؛ «تيارات الإسلام» بين محمد عمارة ونصر حامد أبو زيد، المتهم بالردة والمحكوم بالانفصال عن زوجته وهو

---

(٣٦) فهمي هويدي، «الجزيرة تعيد ترتيب أولويات الأخبار في العالم العربي،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٥٠.

(٣٧) بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» ص ١٤١.

(٣٨) هيكل، «مسألة الكيمياء،» ص ١٢٦.

(٣٩) جميل عازر، «عشر سنوات من "الرأي.. والرأي الآخر"،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٣٩.

(٤٠) ليلى الشايب، «صوت الجماهير،» في: المصدر نفسه، ص ٧٧.

لاجئ في هولندا؛ حلقة ثالثة بين مفكر علماني ملحد هو صادق جلال العظم والشيخ يوسف القرضاوي؛ حلقة رابعة حول السلام بين إسرائيل والأردن؛ حلقة عن النظام الليبي؛ حلقة عن تعدد الزوجات وغيرها من برامج كسرت المحرمات المعروفة. في كل البرامج الأخرى كانت القناة تعمل على التنوع، في نشرة الأخبار، في برامج الحوار، في المقابلات والتعليقات. حتى ولو أن ذلك التنوع ظل محكوماً بتابوهات كثيرة لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها، لان الاستراتيجية المرسومة كانت تعرف كيف ترسم حدودها. لكن ما تناولته كان كافياً لجعل المشاهد يرى فيها فضاء من حرية التعبير في منطقة لا تمتلك سوى «قنوات تلفزيونية رسمية تسيطر عليها الحكومات فتراقب وتحجب وتحظر الأخبار»[٤١]. كما تحظر النقاش السياسي الحر. كل ذلك كان كافياً لإثارة حماس الصحافيين من مثل اللبناني ـ الفلسطيني سمير قصير الذي كتب: «بفضل قلة من الصحافيين نجحنا في تحقيق حريتنا في التعبير والوصول إلى الخبر»[٤٢].

ج ـ التمويل

إن التمويل السخي للجزيرة جعل مجلس إدارة الجزيرة لا يحمل همّ تكاليف دورة العمل أو التقنيات اللازمة، وكان الصحافيون والعاملون مدفوعي الأجر بسخاء، وقد أمّنت لهم أماكن السكن مع كل تكاليفها والضمان الصحي وغُطيت تكاليف سفرهم بشكل جيد. كل هذا وُجد مع مناخ من الأمان وفرص التطور المهني. وهنا تُطرح أيضاً مسألة المنفعة، فولاء العاملين لا يعود لأسباب مهنية فحسب، بل إن الأسباب المالية والمعيشية التي ذكرناها أعلاه، تشكّل عاملاً رئيساً في هذا الولاء، وبخاصة أنه لا يقارن بما تعوّد عليه الصحافيون في مؤسساتهم السابقة وبلدانهم. ما يحيلنا إلى واقع أشار إليه سيرج حليمي حول «العلاقة بين نسبة مداخيل بعض الصحافيين وولائهم لبعض الطبقات الحاكمة ولسياساتها»[٤٣] وبما أنّ الجزيرة ممولة كلياً من الديوان الأميري القطري، فإنّ الولاء لها لا ينفصل عن الولاء للنظام القائم ولسياساته.

(٤١) Schleifer, «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera».

(٤٢) Michael Young, «Republics of Fearlessness?: On Conjugating Liberalism in Syria and Lebanon: An Interview with Journalist and Author Samir Kassir,» Reason.com (8 June 2004), <http://reason.com/archives/2004/06/08/republics-of-fearlessness>.

(٤٣) Serge Halimi, *Les Nouveaux chiens de garde* (Paris: Liber-Raisons d'agir, 2003), p. 66.

د ـ التطور التقني

شهد العالم ثورة في مجال الاتصالات منذ العام ١٩٩١. مرحلة جديدة أعلنت مع بدء البث عبر الأقمار الصناعية. كانت الجزيرة أول قناة عربية استأجرت على قمر (يوتيلسات)، وتضمّن العقد بنداً يتيح للقناة التحول إلى البث الرقمي من دون الحاجة إلى عقد جديد[٤٤].

كانت الـ سي إن إن التي تبثّ من أطلنطا، تُجسّد العبور بين هذه المراحل: ويعتبرها ٨٢ بالمئة من الأمريكيين المصدر الوحيد للأخبار كما بلغ عدد مشاهديها عبر العالم حوالى مليار مشاهد[٤٥]. ويعترف مؤسّسو الجزيرة أنهم استوحوا تجربة الـ سي إن إن[٤٦].

يؤكد محمد جاسم العلي، أن التطور التقني أدى دوراً في قرار إنشاء القناة سواء بفعل الإمكانيات التي وفرها هذا التطور أو بفعل الوضع الجديد لوسائل الاتصال. حيث فتح التطور التقني الفضاء عبر الإنترنت، الفاكس والصحن اللاقط، ما جعل الحكومات في حالة عجز عن المراقبة. في السابق «لم يكن أمام الناس إلا مصدر وحيد للخبر: حكومات بلادهم، باستثناء الذين يسافرون إلى الخارج. وحتى الصحف الأجنبية أو التي تنشر في الخارج، لم تكن تصل للقارئ إلا بعد مرورها على مقصّ الرقيب. وعندما تطورت التقنية والأقمار الصناعية، أصبح من المستحيل السيطرة على مصدر الخبر. ويستعيد العلي تجربة عربسات «عبثاً حاولنا أن نعمم هذه التجربة، أن نقنع الحكومات العربية بالاشتراك في القمر، وحدها سلطنة عمان وموريتانيا استأجرتا قنوات، الآخرون لم يعيروا الأمر أي اهتمام. لكن ما إن دخلت الصحون اللاقطة إلى هذه الدول، وما إن استغلتها «سي إن إن» و«بي بي سي»، حتى أصبحت جميع المحطات فضائية»[٤٧]. غير أنّ هذه المحطات الجديدة كانت كلها قنوات منوعات، وبالأحرى تسلية، مع نشرة أخبار ثلاث مرات في اليوم. إذاً ما كان

(٤٤) عدنان الشريف، «بداية عملاقة وريادة دائمة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٢٥.

(٤٥) Schleifer, «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera».

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) محمد جاسم العلي، في ندوة أقامها مركز دراسات الخليج وأدارها عبد الخالق عبد الله بتاريخ ٣ شباط/ فبراير ٢٠٠٦.

LAU Beirut campus

ينقص هو قناة إخبارية متواصلة؛ في هذا المناخ ولدت الجزيرة»[٤٨]. وأعطاها السياق التاريخي لإنشائها مكاناً استثنائياً في الفضاء الإعلامي العربي. «حيث مثلت في العام ١٩٩٦، نقطتي قطيعة: قطيعة مع السيطرة السعودية على الفضاء العربي، وقطيعة مع الاتجاه الأحادي لتدفق البث من الجنوب إلى الشمال حصراً»[٤٩]. فلأول مرة يتجه هذا البث من الجنوب إلى الشمال. علماً أن ذلك يظل موضع نقاش، لأن عمق المشكلة لا يكمن في الاتجاه فحسب، وإنّما في الرؤية التي يحملها ويخدمها هذا التدفق.

هـ ـ الكفاءات: مهنية وتنوع: شبكة المكاتب والمراسلين

لقد تم جلب المجموعة المؤسسة للجزيرة كما هي، ومثلما دربت من قبل صحافيين وتقنيين كبار من قبل «بي بي سي» لقناتها العربية. كفاءات متطورة تجمع خبرات بعضها عمره نصف قرن وأخرى أتت بكل آمال الشباب. من كل الأصول العربية من جميع التيارات السياسية، وجدوا للمرة الأولى الفرصة للعمل بحسب معايير مهنية: «من المقولات الشائعة التي يتندّر بها الإعلاميون العرب، إنّ كلام الرئيس رئيس الكلام، وإنّ السياسة هي فعل الرئاسة... قلبت الجزيرة هذه المُعادلة، ورتّبت الأخبار بحسب أهميّتها بالنسبة إلى المُشاهد العربي وليس بحسب أهميّتها بالنسبة إلى الهرم الوظيفي في قطر»[٥٠] «قناة تُقدّم نشرة أخبار أولويّاتها هي أحداث العالم، وليس أحداث البلد التي تبثّ منه أو حُكّامه»[٥١].

هذه النتيجة التي أفرحت الصحافيين العرب لوحظت أيضاً من قبل الأجانب «لا شك أنّ محتوى الأخبار قد تغيّر... ثمّة مناطق نزاع جديدة ومُتزايدة صارت تجلب اهتمام التلفزيون»[٥٢]. ولكن قلّة منهم هم الذين لحظوا أن السكوت عن أحداث وحكّام البلد الذي تبث منه هو بحد ذاته تابوه جديد، تلتزم به القناة.

(٤٨) Schleifer, Ibid.

(٤٩) Olfa Lamloum, dir., *Irak, les médias en guerre*, préf. d'Alain Gresh ([Arles]: Sindbad-Actes Sud; Paris: Institut Panos, 2003).

(٥٠) هويدي، «الجزيرة تعيد ترتيب أولويات الأخبار في العالم العربي،» ص ١٥٢.

(٥١) أحمد منصور، «بلا حدود،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٥٥.

(٥٢) بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» ص ١٣٦.

هذه المساحة المهنية أعطت القناة مستوى كبيراً من الصدقية ليس مقارنة بالإعلام العربي فحسب، ولكن أيضاً في الغرب، خصوصاً عندما منحت الجزيرة فرصة الحصرية في العراق، فكتب مارتي بيل بعد الحرب: «لقد ولّى الزمن الذي كانت فيه تلك الشبكات «الأمريكية» في مأمن من التحدّي... إنّ الجزيرة تتمتّع بأفضل رصيد في مجال نقل العنف العالمي بشكل حقيقي (بحسب رأيي) أكثر من بي بي سي وبالتأكيد أكثر من سي إن إن»[٥٣]. الصدقية يحددها مدير القناة وضاح خنفر، بأنها «مهنيّة إعلاميّة تُفرّق بين الخبر والتعليق والتحليل». حيث إنّ هدف الأخيرين هو مساعدة «الجمهور على تبيّن الخبر ووعيه من خلال وضعه في سياقه»[٥٤]. أما رئيس التحرير أحمد الشيخ، فيعتبر «أنّ المهنية هي التمكن من القدرات والصدقية، وهي لا تقوم على الوقوف على مسافة متساوية من الجميع بل تقوم على الوقوف في أقرب مسافة من الحقيقة»[٥٥].

عوامل يوردها البحث بناءً على مواقف تعود إلى فترته (حتى نهاية عام ٢٠٠٤)، ولا شك أنّها أصبحت الآن موضع مناقشة أخرى مع تاريخ صدور العمل.

و ـ العوامل السيكولوجية: الانتماء، روح الفريق، المنافسة، استعادة الفخر والثقة، الاستجابة لتطلعات المُشاهد

يقول خبير غربي «إن قوّتها ـ الجزيرة ـ الحقيقية تكمن في موظّفيها، الذين ينتمون إلى جنسيات كثيرة والذين أقاموا هذا الصرح من خلال «روحيّة الانتماء إلى جسد واحد»»[٥٦]. هذه الروحية ساهمت في حماس العاملين الذي وصل أحياناً ـ مع الميدانيين ـ حد التضحية، وبخاصة وقد اقترنت بروحية التنافس، وهما ما عرفت الإدارة كيف تفعّلهما. كذلك تكمن هذه القوة في سياسة الانفتاح البعيدة عن البيروقراطية، والتي تقبل المبادرة وتشارك في وضع الأفكار، ثم تقرر بسرعة وشجاعة، وهما تميّز به المدير

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٥٤) وضاح خنفر، «روح الجزيرة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٦.

(٥٥) أحمد الشيخ، في الشريط الوثائقي، «حروب سلمية»، إعداد ربى عطية.

(٥٦) بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» ص ١٤٢.

LAU Beirut campus

الأول، محمد جاسم العلي، المؤسس الحقيقي للقناة. والذي يصر على دور روح الفريق هذه ويشير إلى أن الشيخ حمد بن تامر كان يناقش بنفسه، مع الصحافيين الأفكار المطروحة[٥٧].

عامل أخير في أسباب النجاح، يكمن في الوضع النفسي أكثر منه في الوقائع. وتحديداً بإحساس الكرامة؛ فهي، جماعية وفردية منتهكة بشكل مزدوج: في الداخل عبر القمع والمنع، وفي الخارج عبر معادلة الفوقية ـ الدونية بيننا وبين الغرب. وهكذا فإن الصحافي العربي الذي يملك كل الإمكانات لا يجد الفرصة لإثبات نفسه في بلاده بسبب الممنوعات والمراقبة، وفي الخارج لأسباب عديدة. لذلك يعاني إحساساً عميقاً بالكبت وبتمني إثبات الذات، الفردية والعامة. لذلك وجد في هذا الفضاء الجديد من الحرية والإمكانات، عملية إعادة اعتبار، اعتراف وكرامة مستعادة.

في أكثر من لقاء تكلم الصحافيون بوضوح حول هذه النقطة: من مثل الأردني جميل عازار، أحد قدامى الـ بي بي سي، الذي يكتب: «كصحفي عربي أقول: «أعطني حريتي» وسأريك ما يمكنني إنجازه لأبهر به العالم»[٥٨]. زميله محمد كريشان تونسي يقول: «لأول مرة أصبح بإمكاننا ليس فقط الحق في أن نُغطّي الشأن الدولي بمعايير وخلفيّة مختلفة عمّا ارتضاه الإعلام الغربيّ لنفسه وأراد فرضه على العالم كُلّه...وإنما أيضاً أن نُقدّم لهذا الغرب تحديداً رؤيتنا الخاصّة لما يجري عندنا وما يجري عندهم»[٥٩]. وعندما سأله مرة مارتين بيل كيف تقدم نفسك؟ أجاب بفخر «أنا صحافي عربي مسلم»[٦٠]. زميلهما الأكثر شهرة فيصل القاسم، يقول: «لم تلبِّ الـ بي بي سي تطلعاتي، لم يكن لديّ برنامجي الخاص، لقد وضعتني الجزيرة بين أفضل ١٠٠ صحافي الذين يصنعون الرأي العام في العالم»[٦١].

(٥٧) حوار مع محمد جاسم العلي في الدوحة في أيار/ مايو ٢٠٠٧.
(٥٨) عازار، «عشر سنوات من «الرأي.. والرأي الآخر»،» ص ٤٢.
(٥٩) محمد كريشان، «الوعد الصادق،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ٦٦.
(٦٠) بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» ص ١٤٠.
(٦١) مقابلة خاصة مع فيصل القاسم في الدوحة، كان يشير فيها إلى عدد مجلة **شالنج** الذي حمل عنوان: «مئة شخصية يصنعون الرأي العام في العالم»، بينهم خمس شخصيات عربية منهم فيصل القاسم.

LAU Beirut campus

لم يقتصر الأمر على الصحافيين، فها هو المفكر العربي منير شفيق يقول: «كان الإعلام الغربي يهزأ من المقارنة مع الإعلام الروسي هم اليوم مضطرون أن يقوموا بالمقارنة معنا»[٦٢].

بالنسبة إلى الجمهور العربي، الذي يتميز بأنه مُسيّس، حذر، مُتطلّب، وكثير الشك. ذاك أنه، من جهة، يعيش أسباباً تاريخية وواقعية تجعل السياسة بالنسبة إليه مسألة وجود، حياة أو موت. كما إنه، من جهة ثانية، لا يثق بحكوماته وبالتالي بالإعلام الذي يصدر عنها، ولا بالغرب الذي ينظر إليه كمستعمر متآمر. ولذلك فهو يعيش حالة الفخر نفسها إزاء قناة عربية تعيد إليه اعتباره. وهنا يضع وضاح خنفر النقاط على الحروف في تحديده لجوهر كسب الجمهور: «الجزيرة تضع المشاهد في مركز اهتمامها التحريري. فقد تعوّدنا في الجزيرة أن يكون المشاهد حاضراً في أذهاننا عند التخطيط البرامجي...نحترم أولويّاته في ترتيب عناوين نشراتنا وموضوعات برامجنا..نحترم العقل الجمعي للمشاهدين»[٦٣].

ويركّز خنفر على سد الفجوة بين النخبة والجمهور مع تفادي الشعبوية والنخبوية خصوصاً النخبوية المتعالية والمتكبرة المرتبطة بالسلطة[٦٤]. هذه السلطة هي في الغالب مكروهة أو على الأقل مرفوضة من قبل المشاهد لأنه لم ينتخبها، لم يخترها. وهذا ما تستغله القناة في برامجها، حيث تحاكم وتحاسب وتهاجم، مفسحة مساحة واسعة للجمهور كي يشارك في ذلك، من الضيوف المدعوين للمناظرة أو المتدخلين عبر الهاتف، أو عبر إعطاء الكلام للناس في الشارع، على الأرض، خاصة في البرامج المفتوحة لكل الناس مثل «منبر من لا منبر له». «إن التاريخ الفعلي هو الذي يُصنع في عالم الأطراف وأنّ خميرة عالم الغد تنتعش في الهوامش»[٦٥]. يقول وضاح خنفر، من دون أن يخفي اعتماده على «عقدة الإقصاء»[٦٦]، التي يعيشها المواطن العربي.

(٦٢) ملاحظة سجلتها الباحثة من كلمة منير شفيق في مؤتمر مركز دراسات الجزيرة لعام ٢٠٠٦.
(٦٣) خنفر، «روح الجزيرة،» ص ١٨.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٨.
(٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٠.

ز ـ استراتيجية «الخبطات الإعلامية» و«المادة الحصرية»: مبادرة، تجديد واستشراف

تشكل «المبادرة والاستشراف»(٦٧) العنوان الأساس في سياسة العمل التي تتبعها القناة بحسب رئيس التحرير فيها. هذه الاستراتيجية شكلت علامة فارقة في تاريخ الجزيرة، حيث التواريخ والخبطات الإعلامية التي أدت دوراً حاسماً في الاختراق الذي حققته على الصعيدين العربي والدولي.

٣ ـ التطورات الحاسمة بين تاريخ إنشاء القناة (عام ١٩٩٦)، وحرب واحتلال العراق (عام ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤)

أ ـ التواريخ والأحداث المفصلية

(١) ١٩٩٨: عملية ثعلب الصحراء

كان الظهور الحقيقي للقناة في تغطية الحملة العسكرية الأمريكية على العراق عام ١٩٩٨ المسماة (بـ ثعلب الصحراء). وقد كتب محمد جاسم العلي، الذي كان يدير القناة حينها: «لقد توقع مدراء القناة وقوع العملية وعملوا على التواجد على الأرض قبل بدء الحملة العسكرية. لقد كنا المصدر الوحيد للخبر، وخصوصاً الصورة»(٦٨). وعند سؤاله عن السبب الذي جعل الجزيرة تحتكر الوجود على الساحة العراقية، وعما يقال عن وجود اتفاق حصري بين القناة وسلطات بغداد؟ أجاب بابتسامة خبيثة: «كان الآخرون يطلبون مساعدتنا لدى السلطات العراقية من أجل الحصول على فيزا، ومن أجل التواجد هناك»(٦٩). كانت هذه المرة الأولى التي تظهر فيها علامة الجزيرة على شاشات العالم الذي أُجبر على إعادة بث أخبار الجزيرة وعلى الأخص صورها.

هكذا، وبفعل هذا الإنجاز، انتقلت القناة التي بدأت البث لمدة ست ساعات عام ١٩٩٦، إلى البث ٢٤/٢٤ ساعة وعلى ثلاثة أقمار صناعية.

(٦٧) الشيخ، «تجربة ساخنة،» ص ٣٤.

(٦٨) Schleifer, «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera».

(٦٩) مقابلة خاصة مع محمد جاسم العلي في الدوحة في أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٢) ٢٠٠٠: انتفاضة الأقصى

إذاً «كانت أول قطيعة بين الغرب والقناة قد حصلت عقب اتفاقات أوسلو واندلاع الانتفاضة في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠. بحسب (ألان غريش)، فإن تغطية هذا الحدث أدت إلى ارتفاع شعبية القناة في الفضاء العربي؛ ففي الوقت الذي كان الإعلام الغربي يحمّل ياسر عرفات مسؤولية فشل مفاوضات (كامب ديفيد)، ويصوّر الانتفاضة كخطر على وجود إسرائيل، والمقاومة كإرهاب، كانت الجزيرة تظهر صور القمع والعنف الإسرائيلي خصوصاً خلال الأسبوعين الأولين من الانتفاضة»(٧٠). كانت تبث مباشرة وكان طاقمها على الأرض المؤلف من شبان فلسطينيين يجهد في متابعة التطورات حتى في حالات خطر الموت والإصابة. كانت هذه المرة الأولى التي حصلوا فيها على فرصة إظهار الحقيقة من وجهة نظرهم. «نظرة للعالم مغايرة لتلك التي تقدمها الـ (سي إن إن)»(٧١).

على الصعيد المهني المحض، شكَّلت الصور الخاصة المقابلات والضربات الصحافية للقناة علامة وديكوراً.

في فضاء الحكومات العربية لم تكن هذه التغطية وهذا النجاح سوى مصدر مشاكل خصوصاً مع مصر. وقد ألغي اتفاق كان وقع بين القناة ممثلة برئيس مجلس الإدارة الشيخ حمد بن تامر، والحكومة المصرية، وكان هذا الاتفاق ينص على إنشاء مكتب للجزيرة في المنطقة المصرية الحرة. وقد بدأت المفاوضات مع المصريين في حزيران/ يونيو، وأتى رئيس مجلس إدارة القناة إلى القاهرة لتوقيع أول عقد في المنطقة الحرة. غير أن اندلاع انتفاضة الأقصى وتغطية الجزيرة من الأرض والبرامج الحوارية حول الموضوع، أثارت السلطات المصرية التي كانت عرضة للكثير من الانتقادات خصوصاً من قبل الإسلاميين. وقد شنت الصحافة الحكومية المصرية حملة على القناة ما عطّل البرنامج الأساس.

(٣) ٢٠٠١: إطلاق الجزيرة نت

وقد أتت نموذجاً ذكياً لزمن الإنترنت ومن ثم تبعتها كل القنوات العربية.

(٧٠) Alain Gresh, «Ce que la chaîne Al Jazeera a vraiment changé?,» *Le Monde diplomatique* (novembre 2006).

(٧١) Schleifer, Ibid.

LAU Beirut campus

(٤) ٢٠٠١: ١١ أيلول/ سبتمبر وحرب أفغانستان

لقد نوقشت التغطية الخاصة لمكتب كابول في **القسم الأول**، من البحث قبل وبعد الحرب. كما تدمير تمثالي بوذا في بايمان من قبل الطالبان، في شباط/ فبراير وآذار/ مارس ٢٠٠١، وأزمة الرهائن الغربيين الـ ٢٤، ومن ثم المقابلة مع بن لادن في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه.

كانت الجزيرة القناة الوحيدة التي تبثّ من أفغانستان أثناء الحرب ومن قبل مصدرين: الأفغان والتحالف، وضاح خنفر دخل عبر الشمال مع تحالف الشمال، وتيسير علّوني كان يبث من كابول والطالبان.

نجح علّوني في القيام بتغطية ناجحة جداً للحرب، وفي ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر قصف الأمريكيون عمود البث التابع للقناة، ومن ثم مكتب القناة. كل العالم يذكر منظر الصحافي الخارج من تحت الأنقاض الميكروفون في يديه يبث رسالته، بينما الغبار والحطام يتساقط فوق رأسه[٧٢].

لقد مكن هذا البث الناجح القناة من الصعود مرة أخرى في العالم وخصوصاً في العالم الإسلامي ولكنه كلّف علوني محاكمة واعتقالاً.

لقد أعيد بناء المكتب المدمر عبر طاقم جديد لا يحوي أي من الطاقم القديم، وهذا السيناريو أعيد في بغداد.

(٥) بثّ الفيديو الأول لـ بن لادن

«لو كنت الذراع الإعلامية للقاعدة كنت اخترت الجزيرة لبث أشرطة الفيديو التي تخصني. هناك سببان لهذا الخيار: هامش الحرية واتساع نطاق مشاهدة القناة. ليس هناك من مونتاج، بل بث مباشر ومساحة مفتوحة للمشاهدين والخبراء للتحليل والتعليق»[٧٣]؛ في تحليل لطريقة اختيار بن لادن للجزيرة لبث صوره وشرائط فيديو تابعة له، يرد إبراهيم هلال، رئيس تحرير الأخبار مباشرة على الذين يتهمون القناة بعلاقة غامضة وربما سرية مع منظمة القاعدة، حيث ذهب بعض المحللين إلى القول إن القناة أنشئت حتى يجد بن

(٧٢) فيديو، أرشيف الجزيرة، ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١.

(٧٣) إبراهيم هلال في حوارات الفيلم الوثائقي، «حروب سلمية»، من إعداد وإخراج ربى عطية.

Riyad Nassar Library

لادن منبراً دولياً لنفسه. حول هذا يقول هلال: «لديّ أدلة دقيقة على وصول شرائط الفيديو بين أعوام ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤»[٧٤]. وهو لا ينفي العلاقة التاريخية بين القناة وأفغانستان: «هذا البلد كان في أساس انتشار القناة على مستوى عالمي».

وأياً تكن هذه الشرائط المصورة المتتابعة لابن لادن ومن ثم الظهواري، فقد أعطت للجزيرة مستوىً عالمياً متميزاً/ كمصدر وحيد لموضوع يشغل الكرة الأرضية؛ وتبقى مفاعيل وصدف الأحداث المفتاح مع السياسة الأمريكية موضوع بحث وتحليل.

(٦) ٢٠٠٣: حرب العراق

حدث تاريخي وتغطية تاريخية سجلت انتهاء مرحلة.

منذ عملية ثعلب الصحراء عام ١٩٩٨، وحتى الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣، كان صحافيو الجزيرة بشكل كبير في العراق. قبل حرب ٢٠٠٣، كانت لديهم الأفضلية من قبل السلطات العراقية. كان العامل الذي يجعلهم مفضّلين أنهم لم يمارسوا ما اسماه مارتن بيل: «الصحافة من فوق السطوح»[٧٥]. كانوا يحضرون موقع الحدث، حتى في المواقع الأكثر خطراً، بينما كان غالبية الصحافيين الآخرين لا يغادرون القواعد العسكرية المحمية جيداً. «وإذا ما خرجوا منها فبمرافقة كتيبة عسكرية، وإلا ظلوا مكانهم يديرون الكاميرات ومن ثم يبثون تعليقاتهم... غالباً تحت شجرتي النخيل اللتين أصبحتا الأكثر شهرة في العالم»[٧٦].

عندما أعلنت حرب ٢٠٠٣، خصصت لها الجزيرة سبع فرق عمل على الأرض: أربعَ فرق في أربع مدن عراقية، فريق برفقة الجيش الأمريكي؛ فريق في قاعدة السيلية في قطر من حيث يدير الأمريكان الحرب؛ وفي النهاية فريق في البنتاغون. المدير الحالي للقناة وضاح خنفر كان مراسلاً في كردستان العراق؛ تيسير علوني في بغداد؛ في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣، قصف الأمريكيون مكتب القناة في العاصمة العراقية وسقط جراء القصف الصحافي طارق أيوب.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) بيل، «تجربة حياة في الأخبار التلفزيونية،» ص ١٤٠.

(٧٦) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

لقد كان المسؤولون الأمريكيون مهتمين بإعطاء مقابلات مفصلة لمدير مكتب القناة في واشنطن. ومنها مقابلة كانت مقررة مع جورج بوش لكنها ما لبثت أن ألغيت[٧٧].

بداية آذار/ مارس عام ٢٠٠٣، أتت كوندوليزا رايس بنفسها إلى مكتب القناة لإعطاء مقابلة، يقول مدير المكتب حافظ الميرازي. «وحينها أدركت أن الحرب ستبدأ»[٧٨] وبخاصة أن البنتاغون كان نظم قبل أسابيع مقابلة مع رامسفيلد!

في العراق لقي بث صور جنود أمريكيين أسروا من قبل العراقيين، انتقادات من قبل الإدارة الأمريكية. بعيد الاحتلال كانت مقابلة صحافية لبول بريمر مع وضاح خنفر الذي حلّ مكان علّوني كرئيس للمكتب الذي أعيد بناؤه؛ في الوقت نفسه استمرت القناة في إظهار أخطاء وطباع احتلال قاسٍ. وعندما اندلعت المعارك في الفلّوجة في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٤، كان أحمد منصور، أحد أكثر المذيعين شهرة متطوعاً للعمل مراسلاً في المدينة. وقد نقلت وسائل الإعلام العالمية يومها أن قصف مكتب الجزيرة في كابول في ١٦ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٤، كان رداً على التغطية في الفلوجة قبل عدة أيام.

استمر العراق مصدراً للسبق الإعلامي بالنسبة إلى القناة مع صور الرهائن الغربيين: الرهينتين الإيطاليتين في أيلول/ سبتمبر، ومن ثم الفرنسيين والآسيويين.

(٧) ٢٠٠٤: تسونامي

حدث غير سياسي أضيف إلى خصوصيات الجزيرة، كارثة تسونامي في إندونيسيا: كانت أول الصور ترد من الجزيرة قبل أن يأتي أي صحافي إلى المنطقة، ما شكل علامة تحول في استراتيجية القناة التي التفتت إلى العمل الإنساني الإسلامي كما ثبت عملها على المجاعة في النيجر، تحول لا يمكن فصله عن المصالح الاقتصادية لقطر والعصر الأمريكي الجديد في المنطقة.

---

(٧٧) محمد بابا ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها** (الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٨)، ص ١٠٩.

(٧٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

ب - مفصل ٢٠٠٣، ودلالة تغيير المدراء

في ٢٧ أيار/ مايو ٢٠٠٣، أقيل مدير الجزيرة محمد جاسم العلي بشكل مفاجئ من دون أن يعلن مجلس الإدارة الأسباب، وأقيل معه نائب رئيس مجلس الإدارة محمود السهلاوي. الصحافة العربية والأجنبية تناولت الحدث باهتمام شديد، وبخاصة أن إقالة المدير جاءت والجزيرة في قمة نجاحها. وأن ذلك قد ربط بطبيعة العلاقة بينه وبين نظام صدام حسين، حيث قيل إن وثائق اكتشفت في أرشيف المخابرات العراقية أشارت إلى وجود عملاء للاستخبارات العراقية ضمن طاقم الجزيرة. كما بثت قناة الحرة تسجيلي فيديو كشفا عن زيارتين قام بهما العلي إلى الرئيس العراقي السابق وابنه عدي. وكان يرافقه في الزيارة الأولى صاحب أبرز برنامج في الجزيرة، فيصل القاسم. وإذا كان رئيس تحرير الجزيرة آنذاك إبراهيم هلال، قد صرح للقناة الرابعة في التلفزيون البريطاني بأنه لا يعتقد أن أي عميل للأجهزة العراقية قد عمل في محطته، مضيفاً أنه «لا يمكن استبعاد فكرة أن يعمل أي صحافي مرتبط بجهاز استخبارات ما في أية وسيلة إعلام»[٧٩]، فإن الصحافة الغربية الأشد عداءً للعراق اعترفت بأنه «لم يعثر في الأرشيف العراقي على أية إشارة إلى أن العلي كان عميلاً أو أنه قد تقاضى مالاً»[٨٠]. وكل ما في الأمر أنه كان يزور العراق ويتصل بحكومته؛ في ما يبدو طبيعياً من مدير أية وسيلة إعلامية مع أية حكومة قائمة، وبخاصة في فضائها.. وكان المبعوث الخاص لصحيفة **لوموند**، قد كتب في آذار/ مارس ٢٠٠٣، «لقد زار السيد جاسم العلي بغداد مرتين، في كانون الثاني/ يناير برفقة المذيع فيصل القاسم، وقد استقبلهما الرئيس العراقي، وأسرّ لنا القاسم أن صدام وعدهما بمقابلة خاصة. ومنذئذٍ أصبح القاسم أكثر تشدُّداً في نقده للأكراد»[٨١].

من هُنا يبدو أنّ السبب الحقيقي لوضع الإدارة الأمريكية الجمهورية فيتو على العلي، هو أبعد من مجرد زيارة أو حتى اتصال. بدليل أن الحكومة

---

(٧٩) إبراهيم هلال، حديث للقناة الرابعة على التلفزيون البريطاني (أيار/ مايو ٢٠٠٣).

(٨٠) «افتتاحية: العار للجزيرة،» **وول ستريت جورنال**، ٥/٦/٢٠٠٣، ترجمتها الباحثة وحللتها في مقالة بجريدة **الدستور** الأردنية.

(٨١) Tawfic Hakem, «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira,» *Le Monde*, 14/3/2003.

القطرية أرادت تعيينه مديراً للفضائية القطرية، كما أعلن الناطق الرسمي باسم الجزيرة جهاد بلوط بعد قرار التنحية. غير أن الضغوط الأمريكية حالت دون ذلك. بل إنه عندما أراد بعدها بأكثر من سنة تأسيس شركة إعلانية، مع محمود السهلاوي، أدت الضغوط الأمريكية إلى منعه من ذلك فانصرف إلى التجارة[٨٢]. والتحليل المنطقي هو أن نهاية مرحلة العلي في الجزيرة، هي نهاية مرحلة في سياسة القناة وبدء مرحلة أخرى، كما كان عليه الحال في المنطقة كلها بعد احتلال العراق. وربما يكون تحليل افتتاحية **وول ستريت جورنال** المذكورة، أبرز دليل على ذلك.

إن تحليل الخطاب في افتتاحية **وول ستريت جورنال**، يبرز بوضوح أسلوب الضغط السياسي والسيكولوجي الذي يمارسه الأمريكيون على قطر وعلى القناة: بدءاً من العنوان:

«العار للجزيرة، شبكة بث صدام حسين»[٨٣] والذي لا ينسجم مع حجم الاتهام الموجه داخل المقالة لكنه معنى يتكرر عدة مرات خلالها: «شبكة بث صدام حسين»؛ «كانت تبدو واعدة»؛ «لا بد أنّ الأمير نادم الآن على غيابه»؛ «مثيرة للأسف»؛ «تحوير الإعلام وشراء الإعلاميين»؛ «صدام حاول إفساد موظفي الجزيرة»؛ «تشويه وسائل الإعلام العربية الأخرى»[٨٤].

كذلك فإن المقالة التي تكتب بمناسبة إقالة العلي، أو اكتشاف عملاء للعراق ـ كما تقول في المقدمة، لا تخصص للعلي إلا فقرتين فحسب، وتركز على الجزيرة كجزيرة؛ في حين تخصص أكبر فقراتها للحديث عن شراء صدام حسين للإعلاميين الأردنيين، وذلك نقلاً عن سلامة نعمات، من دون أن يذكر أن هذا الأخير هو مراسل **الحياة والشرق الأوسط** السعوديتين منذ سنوات طويلة، وأكثر الصحافيين تطرفاً في الموضوع العراقي. وعن رئيس تحرير مصري لا يذكر اسمه، وعن مقالة لصحافي أمريكي يدعى ستيفن هايز في **ويكلي ستاندرد**؛ فيما يدل على أن محاولة الضغط لا

(٨٢) مقابلة خاصة مع العلي في الدوحة، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

(٨٣) «افتتاحية: العار للجزيرة،» ترجمتها الباحثة وحللتها في مقالة بجريدة **الدستور** الأردنية.

(٨٤) المصدر نفسه.

Riyad Nassar Library

تستهدف الجزيرة وحدها بل كل إعلام يخشى من موقفه من الحرب[٨٥].

وإذا كان هذا التحليل، كتحليل باحث، لا يهدف إلى تبرئة أحد أو اتهام أحد أو حتى القول إن العراقيين لم يكونوا ـ ككل الأنظمة في المنطقة ـ وبخاصة الميسورة منها ـ يشترون من هو قابل للشراء، فإن المقصود منه التدليل على الغاية من الضغط على الجزيرة.

تدليل يوضحه ترتيب فقرات المقالة (١٤)، إذ تشكّل تناوباً من ضغط ومطلب، تناوباً يبدو هدفه واضحاً منذ الفقرة الثانية، بعد أن بدت الأولى مجرد إخبار موضوعي: هذا الهدف هو ما دفع أمير قطر نفسه إلى تغيير اتجاه محطته: «كانت الجزيرة تبدو واعدة. . . الأمير الذي أراد الالتزام بوعده بعدم التدخل بشؤون محطته، ربما يكون الآن قد ندم على إهماله لضبطها». وهذا المطلب الوارد في البداية يتكرر في وسط المقالة وفي نهايتها (على إيقاع مضبوط)؛ ففي بداية الفقرة التاسعة، وبعد إيراد نفي مسؤولي الجزيرة لعلمهم بوجود أيّ عميل يقول: «ربما ولكن على الجزيرة تقع المهمة الثقيلة المتمثلة بتنظيم عملياتها»، ليعود فيختتم مقالته بـ: «ما يزال أمام الجزيرة طريق طويل كي تصبح تقاريرها متمتعة بالاحترام والثقة اللذين يقول مؤيدوها في العالم العربي إنها تتمتع بهما». إذاً، هي تحميل لمسؤوليّة ودعوة إلى تغيير النهج.

وفي سبيل ذلك يبنى الخطاب سيكولوجياً: فبعد توجيه الاتهام بـ «وجود عملاء لصدام حسين في الجزيرة»، يروح في تحليل ومقارنة واستنتاج ليثبت ذلك إذ لا تتوافر لديه أية دلائل. من ثم يركز الانتقاد على شخص محمد جاسم العلي، على الرغم من الاعتراف أن لا دليل على وجود عملاء ولا على تورُّط العلي نفسه بأكثر من اتصالات، ليس هناك أي دليل يشير إلى انه كان عميلاً أو أنّهُ كان يتقاضى مالاً». وهو يكرر أنّ الاتصالات كانت مع المخابرات العراقية، في حين أنّ الأشرطة التي ادُّعي وجودها لا تشير إلى المخابرات وإنّما إلى لقاء مع صدام وعديّ».

غير أنّ المقالة تنتقل، وبحدّة أكبر وبمساحة أكبر، إلى الهجوم على رئيس

(٨٥) الشارع الأردني معروف بأنه من أكثر الشوارع العربية تأييداً لعراق صدام حسين، إلى حد أن الكثيرين من المحللين اعتبروا موقف الملك الراحل حسين في حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، استجابة لضغط هذا الشارع.

LAU Beirut campus

التحرير إبراهيم هلال، (أُقيل هو الأخر بعد فترة)، من دون أن تكون لهلال تهمة إلا أنّه انتقد «مراسلي راديو سوا، وهو الراديو الذي أطلقته وزارة الخارجية الأمريكية»، وسمح بـ «بثّ صُوَر الجُنود الأمريكيين الأسرى لدى القوّات العراقية». عِلماً أنّ وسائل الإعلام الأمريكية قد بثّت صُور آلاف الجنود العراقيين الأسرى والقتلى.

التهمة الأخيرة التي يوجهها الكاتب لـ إبراهيم هلال للجزيرة، ويحمّل هلال مسؤوليتها هي أن القناة ـ وخلال مؤتمر عقد في قطر وكان يشارك فيه السيناتور الجمهوري نيك رحال «ديمقراطي معادٍ للحرب على العراق» والجمهوري داريل عيسى» «جمهوري. . . مؤيد للحرب»، قد استقبلت الأول في برنامج يبث في ساعة الذروة، وألغت استقبال الثاني[٨٦]. تهم ثلاث لا علاقة لها بصدام حسين، هذه المرة، وإنما بالموقف من الأمريكيين وبما هو مطلوب للمرحلة الجديدة.

المرحلة الجديدة اتسمت بملمحين أساسيين، هما من طبيعة أي حسم لأي صراع:

تثبيت الاحتلال والهيمنة الأمريكية ليس في العراق وحده وإنما في المنطقة كلها: الشرق الأوسط الجديد الذي كانت تعلنه إدارة بوش، وحظر أي خطاب من شأنه التذكير بالخطاب السابق للاحتلال، مع ما يؤدي إليه من دعم للمقاومة العسكرية أو السياسية، ومنع إبراز الصورة الأمريكية بالشكل الذي يعزز من كراهية الشارع العربي؛ وهذا بدليل حملة تحسين الصورة التي فرضت على الإعلام العربي كله، وبخاصة على الجزيرة عبر عدة برامج منها الاستضافة المتكررة للموفد الأمريكي المكلف رسمياً بذلك غونزاليس[٨٧]. كما إنه في سبيل إقصاء الخطاب القومي عن الإعلام، لا بأس من السماح بخطاب إسلامي عابر للحدود.

صحيح أن العلي لم يكن ليستطيع أن يرفض تنفيذ سياسة كهذه إذا ما

(٨٦) المصدر نفسه.

(٨٧) أرسلت الولايات المتحدة إلى المنطقة أكثر من مبعوث كلفوا بتحسين صورة أمريكا وتسويق سياساتها. ومن أبرزهم «شارلوت بيرز» و«مارغريت تاتوايلر» وبعدهما «كيرين هيوز»، التي قالت في خطاب تعيينها في الكونغرس إنها تعد خططاً مختلفة عن سابقيها في هذا المنصب تعتمد على فكرة استمالة الشباب والمثقفين والإعلاميين العرب ضمن ما يسمى برامج التبادل التعليمي والثقافي، بهدف أن يجذب المدرسين والصحافيين وقادة الشباب وكل من لهم القدرة على التأثير في دوائرهم المحيطة بهم.

أرادتها حكومة قطر، ولكن تغيير المراحل يقتضي دائماً تغيير الرموز. كما يؤكده توقيت الإعفاء والاضطراب في تعيين المدير البديل ثم شخصية المدير الجديد. لقد أقيل العلي فجأة ومن دون أن يكون هناك قرار بمدير آخر، ما جعل مجلس الإدارة يلجأ إلى تدبير مؤقت هو العودة إلى عدنان الشريف لتعيينه مديراً مؤقتاً بالوكالة، إلى أن تم اختيار وضاح خنفر، وهو مراسل للجزيرة فلسطيني ـ أردني، خريج هندسة مدنية، ذو اتجاه إسلامي، عرف بتغطية أحداث أفغانستان انطلاقاً من الهند، ومن ثم الحرب على العراق انطلاقاً من كردستان؛ حيث كان يثير غضب وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف، الذي انتقده مراراً، وبعد الاحتلال أعاد تنظيم مكتب الجزيرة في بغداد بعد تدميره على يد الأمريكيين. وفي كل ذلك كان الأمريكيون يصفونه بأنه معتدل وموضوعي، ليكون أول صحافي عربي يجري مقابلة مع بول بريمر، دلالة على العلاقات الطيبة التي استطاع أن ينسجها مع الأمريكيين في بغداد. خنفر نفسه لا ينفي ذلك إذ يقول: أن ما فهمه هو أن اختياره يعود إلى «أن تغطيته في العراق اتسمت بالاعتدال والتوازن»[٨٨].

وإذا كان العلي نفسه ينكر هذا التبرير، ويردّ الأمر إلى انزعاج الحكومات العربية من نهج الجزيرة[٨٩]، فإنه يبدو واضحاً أنه برده هذا يحاول ردّ الإقالة لأسباب عربية لإبعاد الشك عن الأسباب الحقيقية الأمريكية وذلك لسببين:

الأول؛ إبعاد تهمة الانصياع للأمريكيين عن الإدارة القطرية، وبخاصة في جو مشاعر العداء الكبير للأمريكيين التي سادت الشارع العربي بعد احتلال العراق. من دون أن ننسى أن هذا الاحتلال انطلق من قاعدة على الأراضي القطرية.

الثاني؛ عدم إقفال الباب نهائياً في وجهه للعودة إلى الساحة الإعلامية، وبخاصة مع تغيّر الإدارة الأمريكية. إن لم يكن على رأس الجزيرة نفسها، فعلى رأس أية وسيلة عربية جديدة[٩٠].

(٨٨) ولد أشفغ، **الجزيرة وأسرارها**، ص ٦٥.

(٨٩) مقابلة شخصية بين الباحثة ومحمد جاسم العلي في الدوحة، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

(٩٠) من المعروف أن الإدارة القطرية حاولت أن تضعه على رأس تلفزيون قطر، لكن الأمريكيين رفضوا بإصرار، وحتى عندما حاول إنشاء شركة إعلان مع محمود السهلاوي، واجه المشروع الرفض نفسه؛ فانصرف العلي إلى التجارة.

LAU Beirut campus

أما التحليل المنطقي لاختيار خنفر، فيقود إلى أكثر من مبرر إضافة إلى المبرر الأمريكي: فهو فلسطيني، والفلسطينيون يشكلون أكبر جالية عربية في قطر، ومن جهة أخرى من الضروري امتصاص غضبهم بعد احتلال العراق؛ وهو غير قطري وبالتالي يسمح للحكومة بالادعاء باستقلالية الجزيرة عندما يغضب أداؤها من لا يراد إغضابهم؛ وهو إسلامي، والإسلاميون كانوا على عداء مع نظام صدام حسين في العراق، ولذلك هو بالتالي أكثر استعداداً نفسياً لمقاربة الوجود الأمريكي هناك. وهذا ما اتضح خلال وجوده في بغداد. أما أسلمة خطاب القناة بجرعة أكبر فلا يتناقض مع الاستراتيجية الأمريكية التي تفضّل ـ خاصة بعد الاحتلال ـ أي خطاب على الخطاب القومي. والتي تقوم أساساً على مبدأ تأجيج صراع الحضارات.

وإذا كنا نوافق على بديهية أن تطور وسائل الاتصال جعل الحكومات العربية عاجزة عن حجب الإعلام والمعلومات عن مواطنيها، وبالتالي أعطى الجزيرة فرصة الوصول إلى كل عربي، فإن ما نعتقده هنا من أن الجزيرة قد خلقت فضاءً عاماً يسمح للمواطن العربي الحصول على المعلومة وتشكيل رؤيته الخاصة للأمور وهو موضع نقاش معمق. كذلك فإن قولها إن الجزيرة وضعت الحكومات العربية من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى أمام واقع انعدام شعبيتها في الشارع العربي، هو أيضاً موضع نقاش. كذلك فإن وصف محمد العوفي[٩١] للجزيرة بـ «الثورة»، هو صحيح. بخاصة من حيث إعطاء فرصة للصوت «غير الرسمي»، وتقديم التيارات الفكرية المختلفة في العالم العربي»، كما من حيث مقاربة مواضيع لم يكن أحد يحلم بالتجرؤ عليها قبل سنوات قليلة. أو من حيث طبيعة البرامج الحوارية، أو من حيث حرارة التغطيات المباشرة. «ما اجتذب إعجاب الغرب والعرب على حد سواء». لكن ثمة أسئلة كثيرة لا تزال تكتنف هذه الثورة الإعلامية الحقيقية ومنها: هيمنة الإمبراطورية السعودية على وسائل الإعلام العربية.

ج ـ ميثاق الشرف الجديد

في العام ٢٠٠٤، عقدت القناة أول منتدى إعلامي دولي: ملف خاص

---

(٩١) Mohamed Ofi, in: Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, p. 210.

Riyad Nasser Library

حدد رسالة الجزيرة وأهدافها فضلاً على ميثاق شرف مرفق بدليل إجباري للعمل المهني.

لقد أظهر المدير الجديد علاقة بين هذا الحدث والنقاش فيه حول «تغطية حرب العراق... السياسات الإعلامية المهنية... أخلاقيات الصحافة... صور الضحايا، الرهائن والأسرى وبث فيديوهات القاعدة»[٩٢].

«الكمال هو حلم إنساني غير قابل للتحقيق»[٩٣] يقول مدير القناة. هناك بديهية أخرى مطروحة، ليس هناك موضوعية مطلقة في مؤسسة إعلامية. «إن حرية الخبر ليست سوى كذبة رميناها وصدقناها. الخبر يأتي دائماً من سلطة، السلطة السياسية أو السلطة المالية أو الاثنتين مجتمعتين»[٩٤].

ثالثاً: قناة أبو ظبي الفضائية: اللوغو الأزرق الذي تحدى هيمنة الجزيرة

١ ـ الخصوصية: قناة إخبارية مرنة

«لقد بنينا عشّنا الخاص»[٩٥]

ليست قطر الدولة الخليجية الوحيدة التي توظف الثروة والإعلام لإثبات الوجود. كما إنها ليست الوحيدة التي تعاني نزاعات حدودية مع جيران أقوياء. من جهة ثانية، فإن ما يجمعها مع البحرين، الكويت والإمارات العربية المتحدة، هو أن «الثلاثة يتنافسون على المكانة المفضلة لدى الولايات المتحدة الأمريكية»[٩٦]. منافسة يندرج ضمنها المجال التلفزيوني.

وإذا كانت الرغبة في مواجهة هذا التحدي « تشكّل القاسم المشترك بين الأمراء الشباب الذين ورثوا آباءهم»[٩٧] في الدول الثلاث الأولى، فإن الإمارات

---

(٩٢) خنفر، «روح الجزيرة،» في: **روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦)**، ص ١٨٢.

(٩٣) Schleifer, «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera».

(٩٤) علي الشعيبي، في مادة الشريط الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد ربى عطية.

(٩٥) Sarah Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television,» *TBS Journal*, no. 8 (Spring-Summer 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Spring02/dourrachad.html>.

(٩٦) Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, p. 175.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

LAU Beirut campus

العربية المتحدة لم تنتظر تبدل الأجيال. وكان الشيخ زايد هو من رعى التطورات الإعلامية التي ذكرناها في القسم السابق، والتي تكللت بولادة قناة أبو ظبي الفضائية الإخبارية في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠، منافسة قوية للجزيرة وللمجموعات السعودية. مسلحة في هذه المنافسة بأكثر من عنصر: مجال البث، التجهيزات التقنية، تركيبة فريق العمل، فضلاً على نوعية البرامج التي تترجم التركيبة المعتمدة: قناة إخبارية مرنة «المرونة هي إحدى علاماتنا»[٩٨] يقول مديرها. «إنها قناة إخبارية أثناء الأزمات، تعود قناة منوعات في أوقات الهدوء».

إن الفارق الشاسع بين مجالها البثي ومجال القنوات الإماراتية الأخرى الموجهة للسكان المحليين يثبت الدور الذي رسم لهذه القناة. حيث يغطي بثها الشرق الأوسط، أفريقيا الشمالية. وكانت على وشك تغطية آسيا الشرقية. بث يتم عبر عرب سات، نايل سات، وباتجاه أوروبا عبر هوتبيرد واوروبيرد (في مجموعة بـ سكايب) وباتجاه أمريكا عبر تيليستار[٩٩].

أما التجهيزات والفريق، فتميّزا داخل البلد بمجموعة سيارات بث خارجي، مجموعة تقنيين وصحافيين على درجة عالية من المهنية يرتبطون عبر شبكة ميكروويف تلفزيونية وشبكة ألياف بصرية موصولة بعدة نقاط بث أرضي في مختلف مناطق الإمارات، والكل موصول بمركز التحكم المركزي (MCR) في أبو ظبي. أمّا مركز الأخبار فيضم وحدة إنتاج، وأخرى للتصميم، إضافة إلى أستوديو وعدة قاعات مونتاج. كذلك تضم التجهيزات سيارتين للبث الفضائي المباشر، تتمتعان بنظام رقمي يبث نحو الأقمار (Satellite News Gathering)، إضافة إلى نظام متنقّل ومحمول للبث الميداني (Fly Away)[١٠٠].

اقترنت هذه التقنيات المتطورة بتركيبة فريق عمل منتقاة وبتوازن مدروس في البرامج، يعتمد أساساً على الأخبار والتقارير الميدانية التي تبث مباشرة وتستتبع بما تقتضيه من تحاليل وتعليقات، كما يعتمد على البرامج الحوارية ومن ثم المنوعات، فيما يلبي «طبيعة كل شرائح الجمهور وتطلعاتها»[١٠١].

(٩٨) حوار شخصي مع مدير القناة في أبو ظبي في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠.
(٩٩) بحسب وثائق أرشيف القناة التي اطلعت عليها الباحثة في أيار/ مايو ٢٠٠٨.
(١٠٠) أرشيف القناة، اطلعت عليه الباحثة في أيار/ مايو ٢٠٠٨.
(١٠١) «ميثاق إنشاء القناة»، أرشيف، اطلعت عليه الباحثة عام ٢٠٠٨.

Riyad Nassar Library

أما العنصر المفتاح أي حرية التعبير، فللقناة رؤية خاصة بشأنه؛ حيث إن تعريف الحرية ليس هو نفسه بين القناة ومنافساتها. فإذا كان مسؤولو تلفزيون أبو ظبي يؤكدون سياسة الحرية ويعتبرون أن اقترانها بالتنوع والمرونة والالتزام جعل من قناتهم القناة «الوحيدة التي يمكن لها الوصول لكافة الشرائح»[١٠٢]. فإنهم يربطون هذه الحرية بمعايير «الحفاظ على الموضوعية والصدقية، عدم الاصطفاف خلف وجهة نظر باستثناء تلك التي تحرك الوعي العربي العام، في قضايا لا يمكن مناقشتها كانتفاضة الأقصى، مبادئ الجمهور، ثقافته ومنظومة قيمه»[١٠٣]، وعليه يستعير علي أحمد عبارات صحافي غربي في المنتدى الإعلامي العالمي في دبي: «إن واجبنا ليس الإقناع ولكن إظهار الحقيقة، وترك الحكم للمشاهد»[١٠٤]، كما يلتقي معه نارت بوران، مدير مركز معلومات تلفزيون أبو ظبي ومن ثم رئيس تحرر الأخبار بقوله: «إن درجةً ما من الحرية هي الوسيلة الوحيدة لاجتذاب المشاهد، ولكن من غير موضوعية لا يشاهدك أحد»[١٠٥]. من هنا لم يخفِ هؤلاء انتقادهم الواضح لاعتماد الإثارة بأنواعها (السياسية والاجتماعية)، وخاصة في البرامج الحوارية في الجزيرة، وفي برامج المنوعات في القنوات اللبنانية والسعودية.

٢ ـ التواريخ والأحداث الحاسمة: منافسة جدية

أ ـ انتفاضة الأقصى التزام لصالح الفلسطينيين لا يُهمل وجهة النظر الإسرائيلية

(١) المصادر: المراسلون، الوكالات وسرديّة الحياة اليوميّة

إذا كانت حرب الخليج الأولى قد خلقت شهرة قناة سي إن إن الأمريكية، وكانت عملية ثعلب الصحراء أساس صعود نجم قناة الجزيرة،

(١٠٢) Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television».
(١٠٣) حوار شخصي مع مدير القناة علي الأحمد، أبو ظبي، ٢٠٠٤.
(١٠٤) المصدر نفسه.
(١٠٥) Antony Shahid et Peter Baker, «Télévision: Al Jazira dans la ligne de mire des télés arabes,» *Le Courrier international* (13 mars 2003).

LAU Beirut campus

فإن انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، ساهمت في بروز بعض الفضائيات العربية خصوصاً فضائية أبو ظبي.

لقد شكلت هذه الانتفاضة الفلسطينية التي هزت الأراضي العربية المحتلة مختبراً حقيقياً لوسائل الإعلام، واضعة صدقية هذه الوسائل ومهنيتها على المحك، في حرب منافسة قوية على تغطية الانتفاضة، فعالياتها وتداعياتها: تظاهرات شعبية، بلاغات رسمية، تعليقات ومواقف على امتداد العالم العربي؛ فيما أبرز البعض، كـ الجزيرة، أبو ظبي والمنار، وكشف عن ضعف البعض الآخر وبخاصة الـ إم بي سي؛ فحين نظمت قناة أبو ظبي تلي تون (Teletoon)، تبرعات لضحايا الانتفاضة طيلة يوم كامل وبحضور ٥٠ شخصية من المشاهير والسياسيين، نجحت بجمع مبلغ ٦٥ مليون دولار[١٠٦]، ارتفعت في ما بعد إلى مئة مليون. في حين قامت إم بي سي بالنشاط ذاته فكانت الحصيلة حوالى مليوني دولار. ما يدلل على موقف الجمهور وصدقية القناة.

في هذا السياق كانت كبريات المحطات الغربية من مثل سي إن إن، بي بي سي وسكاي نيوز، تفقد شعبيتها لدى المشاهدين العرب لصالح المحطات العربية. وذاك ما سجلته **يونايتد برس** قائلة: «إن تغطية هذه الأحداث مكّنت القنوات العربية من الصعود إلى أعلى دوائر الميديا العالمية»[١٠٧].

علماً أن تغطية الأحداث في الأراضي الفلسطينية كان أمراً صعباً يتطلب شبكة كبيرة وقراراً سياسياً: «بعد تصاعد العنف، أيدنا الانتفاضة ورفعنا من مستوى وجودنا في القدس ورام الله وغزة، وقمنا بتوظيف مراسلين في كل مكان: مراسلين دائمين، بالقطعة، وموفدين خاصين، في عدة مواقع من إسرائيل ومن الأراضي المحتلة»[١٠٨].

ساهمت الانتفاضة الفلسطينية في إبراز نجوم جديدة بين المراسلين مثل ليلى عودة، التي عرفت بالشحنة العاطفية التي أعطتها لتغطياتها وبخاصة تغطية مقتل الطفل محمد الدرة بين يدي والده. وجاءت إصابتها بطلقة

(١٠٦) «الانتفاضة مختبر المحطات الفضائية،» **القدس العربي** (لندن) (تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠).

(١٠٧) United Press International, 3 November 2005.

(١٠٨) Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television».

Riyad Nassar Library

إسرائيلية، وتوظيف القناة لذلك إعلامياً لتزيد من شهرتها وشهرة محطتها. كذلك برز المقدم والمنتج المنفذ جاسم العزاوي، عندما طردته السلطات الإسرائيلية من مكتب القناة في القدس، أمام أعين كل الكاميرات الحاضرة في قاعة المراسلين. وكان قد أرسل لإجراء مقابلة مع ياسر عرفات، لكن الحصار الإسرائيلي منعه من ذلك.

يفسّر مدير القناة طرد العزّاوي بهذه الشدة بسبب آخر بعيد من الأراضي الفلسطينية: «لم يكن السبب هو تغطية تلفزيون أبو ظبي لأحداث الانتفاضة فحسب، بل إنني واثق من أن المشكلة تكمن أيضاً في سلسلة الصور المتحركة (إرهابيات)، التي عرضناها خلال شهر رمضان ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١. حيث كان الإرهابي هو رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون»[١٠٩]. غير أنّ مراسلي أبو ظبي لم يكونوا الوحيدين الذين تعرضوا للمضايقات والمنع وحتى إطلاق النار. لكن محمد ذو الرشاد يؤكد أنه «بالرغم من طرد جاسم العزاوي وسحب بطاقة الصحافة من ليلى عودة، فنحن مصمّمون على القيام بعملنا كما نعرف... وليست إسرائيل مؤهلة لتعلمنا كيف نغطي الأحداث الدائرة في الأراضي المحتلة... بعد أن فرضت حصاراً كاملاً على الإعلام ومارست الابتزاز المستمر والتعدي والتهديد وحتى إطلاق النار ضد الصحافيين، بهدف فرض رؤية الأحداث بعيون الجيش الإسرائيلي... وهذا لا ينطبق فقط على مراسلي قناة أبو ظبي ولكن على مجمل وسائل الإعلام»[١١٠]. غير أنّ المسؤول الإعلامي يعترف أن هذا التضييق الإسرائيلي جعل الإعلام ـ وحتى قناة أبو ظبي ـ «لا يغطي إلا حيزاً صغيراً مما يحدث ومما يفترض تغطيته من أعمال فظيعة وجرائم ارتكبها الجيش الإسرائيلي بحق المدنيين الفلسطينيين خصوصاً في جنين ونابلس... غير أن هذا الجزء المحدود من التغطية رفع مستوى مشاهدة قناة أبو ظبي في العالم العربي»[١١١].

في الجانب الآخر، استقبلت القناة على شاشتها أكثر من مسؤول ومُعلّق

(١٠٩) المصدر نفسه.

(١١٠) المصدر نفسه.

(١١١) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

إسرائيلي. «لقد قابلنا صحافيين يعملون مع الحكومة الإسرائيلية وعبّروا عن آرائهم بالعربية أو بالإنكليزية... استقبلنا شيمون بيريز في مقابلة حصرية ومباشرة... كما بثثنا خطاب أرييل شارون مع ترجمة فورية وعدد من مؤتمراته الصحفية»[١١٢]... غير أنّ أبو ظبي كانت تركز، في المقابل، على الإسرائيليين من أنصار السلام والمعارضين للعملية العسكرية مثل (جيرارد آيزنبرغ) من المنظمة الإسرائيلية «السلام الآن».

ويعترف محمد ذو الرشاد بأن ردات فعل المشاهدين العرب تختلف إزاء استضافة الإسرائيليين، فبعضهم يتقبله والبعض الآخر «يتصل بنا هاتفياً غاضباً، مستنكراً.. .لقد نظمنا حلقة حوارية خاصة من برنامج (مواجهة) لمناقشة هذا الموضوع[١١٣]... غير أننا نعتقد أن المشاهد بحاجة لأن يعرف كيف يفكر الإسرائيليون وله أن يحكم ويتخذ موقفاً... نحن نقوم بعملنا جيداً»[١١٤].

أمّا خصوصية تغطية هذه القناة، فتمثلت في اعتماد تصوير الحياة اليومية للناس العاديين، وذلك ما هو أكثر صدقية وأكثر تأثيراً من الأخبار السياسية، التقارير، الأنباء والتصريحات التي «قد تمر فوق القصص الحقيقية التي يعيشها الناس العاديون... أردنا أن نلمس مباشرة معاناة ربّة بيت فلسطينية، أم لسبعة أولاد تحتاج لإطعامهم ولا تستطيع مغادرة البيت، معاناة الناس الذين ليس لديهم ماء، دواء أو كهرباء. ويحتاجون إلى ابتكار حلول كي يعيشوا، لا يستطيعون الخروج فيلجأون إلى الوسائل القديمة، مثل طحن القمح في المنزل. ويعود تقليد الولادة في المنزل بسبب عدم تمكن الحوامل من الوصول إلى المستشفيات. هذه ظواهر نفتخر أننا قمنا بتغطيتها، وأعرنا اهتماماً للطريقة التي يعيش بها الناس في حالة الحصار. لكن للأسف، لا يمكننا الاستمرار بهذه المهمة إذا اغتيل صحافيونا وهم يتوجهون إلى هذه المنازل»[١١٥]. هذا إضافة إلى «ترك الناس العاديين يعبّرون عن أنفسهم على التلفزيون بحرية. ينتقدون السياسة الأمريكية والمسؤولين العرب ووسائل الإعلام. هذا عملنا: أن

(١١٢) المصدر نفسه.
(١١٣) حول البرامج الحوارية سيناقش الكتاب هذه الحلقة بشكل تفصيلي في الفصل التاسع لاحقاً.
(١١٤) Sullivan, Ibid.
(١١٥) المصدر نفسه.

Riyad Nassar Library

نتركهم يتكلمون. ولهذا تأثيره على المشاهد وعلى المسؤولين أيضاً»[١١٦].

لم يقتصر هذا الحس اليومي على النقل الميداني فحسب، وإنما تجلى في برامج الأستوديو، بخاصة مع المذيع جابر عبيد، الذي نجح في إحدى حلقاته في جمع أم وابنتها بعد ٢٥ عاماً من انفصالهما عقب مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان. وزاد في التأثير، أنّ الحلقة تزامنت مع أحداث مخيم جنين أثناء الانتفاضة. «هذا أكثر فعالية من استقبال محلل سياسي لمدة ساعتين» يقول جابر[١١٧].

(٢) استطلاعات الرأي

مع الانتفاضة حققت قناة أبو ظبي صعوداً في استطلاعات الرأي. وإذا كان نجاحها يعود إلى عناصر مهنية كما أسلفنا، فلا شك أن ذلك لم يكن ليحصل من دون قرار سياسي. ذاك أن المسؤولين وجدوا في الأحداث الفلسطينية فرصة لتعويض الإحباط والغضب الناتجين من حرب ١٩٩١، ضد العراق. حيث ساهمت الانتفاضة على الرغم من الآلام في رفع معنويات الشعوب العربية المصدومة.

أما في المجال الإعلامي، فإن اعتماد هذا الخطاب إزاء الانتفاضة، مكّن قناة أبو ظبي من كسب جمهور رافض لخطاب المجموعة الإعلامية السعودية التي تحمل على ظهرها الاتهام بالتحالف مع الأمريكي ضد الشقيق العراقي، أضيف إليه الاتهام بعدم مساندة الانتفاضة الفلسطينية. كذلك سمح للإمارات بعدم ترك الساحة لقطر عبر جزيرتها، وللصعود الإيراني في الفضاء الشعبي العربي بعد تحرير جنوب لبنان على يدي حزب الله.

تحليل أكدته استطلاعات الرأي التي أعطت القناة أحياناً المرتبة الأولى من حيث صدقية الخبر بالنسبة إلى الجمهور العربي، والمرتبة الثانية أو الأولى أو الثالثة من حيث الشعبية (بالتبادل مع الجزيرة والمنار). ومن هذه الاستطلاعات ما نفذته القناة بالتعاون مع مؤسسة زغبي العالمية في أواخر شهر رمضان عام ٢٠٠٢، واستطلاعات أجرتها جامعة بير زيت ومجموعة الإعلام في الشرق الأوسط والهيئة العامة للاستعلامات في فلسطين.

(١١٦) المصدر نفسه.
(١١٧) حوار خاص مع المذيع جابر عبيد في أبو ظبي، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣.

LAU Beirut campus

ب ـ ١١ أيلول/ سبتمبر

بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، احتلت الجزيرة المقدمة بلا منازع بفضل حصرية الوصول إلى أسامة بن لادن. وحول هذا يعلق مدير قناة أبو ظبي قائلاً: «كان الوصول إلى بن لادن ممنوعاً علينا وعلى كل المؤسسات الإعلامية في العالم»[١١٨]. وقد جربت القناة أن تعوّض هذا التأخر عبر تغطية قوية في أفغانستان، وباكستان والبلدان المجاورة، من دون أن تتمكن من تخطي تفوق القناة القطرية التي استفادت من طابعها الإسلامي، ومن مكانتها المفضلة لدى الأمريكيين.

ج ـ الحرب على العراق

منذ بداية الحرب في آذار/ مارس عام ٢٠٠٣، ظهر شعار القناة الأزرق على شاشات التلفزة العالمية. لقد نجح هذا القادم الجديد إلى عالم المرئي والمسموع في العالم العربي، والذي أكد نفسه مع الانتفاضة في تقديم تجربة مهمة موازية لقناة الجزيرة. خصوصاً بعد ١١ أيلول/ سبتمبر وحرب أفغانستان اللتين وضعتا علامة إسلامية على القناة القطرية. وفي هذا يعلق صحافي غربي بالقول «مراسلو قناة أبو ظبي أقل إسلامية وأكثر ليبرالية ولا يربّون اللحى، حتى الذي يقدم برنامجاً دينياً»[١١٩].

الحرب العسكرية على الأرض هي أيضاً حرب الشاشات. كما يقول رفيق نصر لله المستشار الإعلامي في رئاسة الجمهورية اللبنانية عام ٢٠٠٣. وهو يوضّح دعاية الحرب المبرمجة مسبقاً من قبل الأمريكيين وكون بعض المحطات العربية هي جزء منها. «كانت هذه المحطات تلحّ قبل اندلاع المعارك على تفوّق طائرات إف ١٨ و إف ١٦ وطائرات الشبح الحربية. أما أثناء المعارك، فكانت تبث أخباراً وتحليلات ينكر الخبراء العسكريون صحتها»[١٢٠]. «إنها حرب الشاشات والإعلام بشكل عام، عبر أكثر من ٥٠٠ صحافي غالبيتهم أمريكيون أرسلوا برفقة القوات الأمريكية»[١٢١]. بينما يوجد عشرات منهم في

(١١٨) Sullivan, Ibid.

(١١٩) Marie Colmant, «La Crédibilité des journalists une nouvelles fois mise à l'épreuve, les médias sur le fil,» <http://www.lazanganeh.com/images/pdfs/.../les_media_sur_le_fil.pdf>.

(١٢٠) رفيق نصر الله، في الشريط الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد ربى عطية.

(١٢١) Olfa Lamloum, «Médiatisation de la guerre en Irak,» *L'Humanité* (24 novembre 2003).

العراق، من بينهم صحافيو تلفزيون أبو ظبي. «إنها الحرب الأولى ضد بلد عربي، التي تغطى مباشرة عبر قنوات فضائية عربية». كما تقول (ألفة لملوم) التي تناقش تقرير الفدرالية الدولية للصحافيين، وتصفه بـ «الحملة الإعلامية الأكثر اتساعاً والأكثر تمويلاً في التاريخ الحديث.. والتي تقدم مشهداً ثميناً لمراقبة طبيعة سلوك وسائل الإعلام في أوقات الحرب»[١٢٢].

في العراق تابعت قناة أبو ظبي اعتماد النموذج الذي يزاوج السرد اليومي والأخبار الرسمية، كما فعلت في فلسطين. لقد قدمت تغطية ناجحة وأخباراً خاصة من مكتبها في بغداد. حيث المدير صحافي عراقي متمكن وبعثي، على علاقة جيدة بالنظام، كما أوضحنا في تفصيلنا لعمل المكاتب. ما يعطيه أفضلية في الوصول إلى الخبر والحدث من مثل أوّل صور للجنود العراقيين الأسرى، وأوّل صور لسقوط أم قصر. تميّزت تقارير وصور مُراسلي أبو ظبي بأنّها كانت تتِمُّ من مسافةٍ قريبة من المواقع المعنيّة: «من على سطح الفيلا كان فريق أبو ظبي أوّل من صوّر سُقوط القنابل على بغداد. وعلى الرغم من أنّنا لم نكُن نستطيع الخُروج ليلاً، فإنّ موقعنا كان يسمح لنا أن نُحدّد الضربات الأولى التي استهدفت المباني الرسميّة»[١٢٣]. كما تميّزت تقارير جابر عبيد، في السياق المألوف لبرامجه، بتغطية الحياة اليوميّة للناس، ونجاحه في الحصول على الموضوع الأكثر إثارة في نهاية الحرب: مُقابلة حصريّة من ٧ حلقات مع وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف. غطّت الفترة الواقعة بين ١٨ آذار/ مارس ٢٠٠٣، وسُقوط بغداد وهرب الصحّاف نفسه. وتجنباً لأية انعكاسات سلبية لهذه المقابلة على القناة، صرح علي أحمد بأنها «ستركز على النقاط غير الواضحة في الحرب، ولن تشكّل منبراً للصحاف كي يبرر نفسه أو أخطاء نظامه». بدوره عبيد قال «إن الصحاف وضع شرطين: يجيب حسب ما يعرف ولا يتطرق لموضوع الكويت»[١٢٤].

غير أنّ الحلقات السبع التي توزعت عليها المقابلة، لم تتضمن شيئاً مثيراً

(١٢٢) المصدر نفسه.

(١٢٣) «Des journalistes arabes évoquent leur travail en Irak,» <http://www.reveiltunisien.org/spip.php?article560>.

(١٢٤) «تلفزيون أبو ظبي: «المقابلة مع الصحاف تقدم مفاجآت وأفلام»،» **الرياض**، ١٦/ ٩/ ٢٠٠٣.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

في ما يخص الحرب أو في ما يجيب عن أسئلة المشاهد المصدوم والمتعطش لمعرفة الحقيقة. يدافع عبيد عن نفسه بالقول إنه لم يرد فتح تحقيق مع الوزير السابق «نحن لم ندعه كي نحاكمه أو نحاسبه، لقد طرحنا أسئلتنا بحرية، وكان يجيب بحرية. لقد أردنا أن نسأله لأنه كان في قلب الحدث. هناك فرق بين أن نسأل وأن نستجوب. الاستجواب يكون لمتّهم بينما نسأل أحداً ما لأنه يعرف أشياء في موضوع مهم، يحتاج المشاهِد لمعرفة حقيقته»[١٢٥].

٣ ـ المُنجزات، المشاكل، الانتقادات والطموحات

أ ـ المشاكل والانتقادات

طبيعي أن يوجه البعض انتقادات للقناة، ومِن المفارقة أنّها تكون أحياناً متضاربة. بعضهم يأخذ عليها أنها تعاملت بشكل عاطفي مع تغطية الحدث في فلسطين، في حين يتّهمها البعض الآخر بأنها لم تكن على مستوى الفظائع. بعضهم يتّهمها بنقص التوازن والموضوعية وعدم عرضها لوجهة النظر الإسرائيلية، في حين يلومها البعض الآخر على استقبال إسرائيليين وعرب ينتقدون العمليات الانتحارية. بعضهم يتهمها بأنها قريبة جداً من العراقيين في حرب ٢٠٠٣، وآخرون يتهمونها بمسايرة الأمريكيين وبخاصة ببث صور الجنود العراقيين الأسرى أو سقوط أمّ قصر.

أمّا مسؤولو القناة، فيعترفون بوجود أخطاء: «ليس فقط في قناة أبو ظبي، ولكن في الجزيرة، أخبار النيل، بي بي سي و سي إن إن. علينا كلنا أن نعيد النظر في الماضي»[١٢٦]. لكنهم ينفون بعض الاتهامات أو يوضحونها أو يبرّرونها:

بشأن التغطيات يقول محمد ذو الرشاد: «كان علينا أن نكون أكثر عدوانية من أجل الوصول إلى الحقيقة والحصول على صور في المناطق الخاضعة للحصار تبيّن حقيقة ما يحصل فيها». وهو بذلك يؤشر إلى الصور التي أخذها الجيش الإسرائيلي واستعملها بعد انتهاء الحرب «كمن يريد أن يهزأ من الإعلام

(١٢٥) المصدر نفسه.

(١٢٦) Sullivan, «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television».

Riyad Nassar Library

ويقول انظروا، لقد فعلنا كل هذا ولم تستطيعوا الوصول إلينا، هذا يحزن القلب»[١٢٧]. لكنها طبيعة الأمور حيث لا تظهر القصص الحقيقية إلا بعد انتهاء الحرب وخروج المحتل. وهنا يعترف ذو الرشاد بمقاربة نقدية لنقطة تخص كل القنوات التلفزيونية[١٢٨] «التي يوقعها السباق على أن تكون أول من يبث الصور أو الأخبار، أحياناً، في خطأ بث تقارير دعائية أو أخبار كاذبة»[١٢٩] معترفاً بصعوبة إقامة التوازن بين: «أن تكون أول من يبث الخبر وأن تقدم الخبر الدقيق والموضوعي... ولا شك أنه لا يمكن تجنّب الوقوع في الخطأ أحياناً، شرط ألا يتكرر ذلك بحيث نقع في الصحافة الصفراء (تابلويد)»[١٣٠].

بشأن العمليات الانتحارية، يذكر أن القناة كانت تكرر في خطابها أن هذه العمليات تعيق السلام، وبخاصة إذا طالت المدنيين «لكن تشبيه العمليات الانتحارية ضد الجيش الإسرائيلي بالإرهاب هو تشبيه لا يسانده أحد»[١٣١].

الانتقادات تقود إلى الأزمات، وقد دارت الأزمة الأصعب بين القناة والسلطات الإسرائيلية حول المسلسل التركي المدبلج «وادي الذئاب»، الذي أنتج عام ٢٠٠٣، وعالج القصص السرية للمافيا وعلاقاتها ببعض البلدان وتأثيرها على الواقع السياسي. مع الإشارة إلى دور المافيا في السياسة التركية وفي تهريب الأسلحة، إلى دور الولايات المتحدة وإسرائيل في الشرق الأوسط ونشاط الـ سي آي إيه والموساد، وتدخلاتهما في المنطقة، وبخاصة في تركيا. كما يتضمن مستندات مهمة حول سجن (أبو غريب) ودور شركة (بلاك ووتر) الأمنية الخاصة في العراق. وقد أعطيت للممثلين الأسماء الحقيقية للأشخاص المقصودين. أثار بث الجزء الأول من هذا المسلسل قلقاً في إسرائيل نظراً إلى ما يكشفه من فضائح ومن ممارسات وأساليب مافيا الجريمة، تهريب الأسلحة، المخدرات، الصواريخ، وعمليات تبييض الأموال. بين إعجاب الجمهور وضغوط جهات مختلفة، أوقف بث الجزأين **الثاني والثالث** في أبو ظبي كما في تركيا.

(١٢٧) المصدر نفسه.

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) المصدر نفسه.

(١٣٠) المصدر نفسه.

(١٣١) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

بين نجاح المسلسل لدى المشاهدين والضغوط من كل ناحية، دار السجال حول المسلسل.. حول بث الجزأين الثاني والثالث وكما حصل في تركيا لم يتمّ بثهما.

من جهة أخرى، لم تعدم القناة مشاكل مع الحكومات العربية. لكنها لم تكن أبداً بمستوى مشاكل الجزيرة. وبخاصة أن المسؤولين الإماراتيين تحفّظوا في الحديث عن هذه المشاكل بالتفصيل واكتفوا بالقول «نحن مستمرون في القيام بعملنا بطريقة مهنية... لكن التلفزيونات لم تكن في السابق تقدم للمشاهدين إلا التقارير التي تتحدث عن الحكام وعن الحكومة، الآن، باتت تتكفل أن تقدم للحكام وللحكومات، ما يفكر به ويريده المواطنون. هذا تغيّر كبير».

وهذا ما ينسجم مع السياسة التصالحية التي كان يعتمدها الشيخ زايد إزاء كل المسؤولين الآخرين، ومع الصورة التي أراد أن يعطيها للإمارات كبلد قومي، عربي، عاقل ومعتدل.

ب ـ المُنجزات والطموحات: نهاية التدفق ذي الاتجاه الواحد

«نحن من المؤسسات الإعلامية القليلة في الشرق الأوسط التي تعتمد قاعدة مزدوجة بالنسبة إلى مصدر الخبر، إلا في حال ورود الخبر مباشرة من مراسلينا في ميدان الحدث. الـ بي بي سي، تعتمد هذه الطريقة، ولذا تتمتع بالمصداقية في أخبارها» يقول محمد ذو الرشاد.

هكذا تشكّل طموح قناة أبو ظبي لقلب قاعدة المصدر الواحد لتدفق الأخبار من الشمال إلى الجنوب. لكنها فعلت ذلك بتعقل؛ ففي حين تم تأمين المصادر الخاصة عبر شبكة مراسلين تشمل كل مراكز الحدث في العالم، إضافة إلى طواقم متحركة جاهزة للتحرك حيث النقاط الساخنة[١٣٢]. لم تتوقف القناة عن استقبال وكالات الأنباء العالمية التي كانت تعتمد عليها في السابق، ولكنها أصبحت تتعامل معها على قاعدة «الانتقاء بحسب متطلبات احترام المتلقّي، عقله وقلبه وثقافته»[١٣٣]، معطية لهذا المتلقي مساحة واسعة

(١٣٢) انظر الفصل الثالث، الفقرة أولاً في هذا الكتاب.

(١٣٣) Sullivan, Ibid.

Riyad Nassar Library

LAU Beirut campus!

للتعبير عن نفسه، وبخاصة للناس الذين يمسّهم الحدث المعني». أنا اعتقد أنه أكثر صدقية وأهمية للمشاهدين العرب أن يروا التاريخ بعيونهم من أن يروه عبر وكالات الأنباء. الوكالات تميل لأن تقدم لنا التاريخ من وجهة نظر غربية، وهذا ما نشهده بشكل يومي. لقد أرسلنا بيانات صحافية إلى كل الوكالات تقدّم روايتن. **أسوشيتد برس**، قالت إنها لا تستطيع نشر تعليقات أبو ظبي. حتى عندما يسألوننا عن أمر لا يأخذون بما نقول. مثلاً سألوني وسألوا جاسم العزاوي عما حصل معه. واستمروا في تقديم الرواية الإسرائيلية. هناك دائماً تحوير لكل خبر يتعلق بالشرق الأوسط».

من جهة ثانية، لم يقتصر طموح تعديل المصدر الواحد على الأخبار، بل تعداها إلى البرامج والإنتاج «نحن لا نريد أن نشتري الفورمات الجاهزة من مؤسسة سمعية ـ بصرية أخرى أو من مراكز إنتاج أجنبية. لقد أنشأنا إنتاجنا الذاتي، الأفكار تبدأ وتتبلور داخل فريق استراتيجيينا وتنفذها فرق العمل خاصتنا»[١٣٤].

مع نجاحاتها، بدأت طموحات القناة تتخطى حدود العالم العربي. يقول مديرها في حديث لـ **تي. بي. إس جورنال** (*TBS Journal*) «هناك مطلب ملحّ للمشاهدين، إنشاء قناة باللغة الإنكليزية أو لغة أخرى تقدم وجهة نظرنا وروايتنا للغرب، وبشكل خاص الولايات المتحدة الأمريكية. أكثر من محاولة حصلت، ولم يكن من السهل العبور إلى المشهد الإعلامي المزدحم في أمريكا. هناك بلدان مثل فرنسا ألمانيا واليابان والصين تريد جميعاً هذا العبور. ليس من السهل الحصول على الوصول ولا على الصدقية لدى هذا الشعب الأمريكي... وحتى الـ (سي إن إن)، أنشأت عدة نشرات دولية تقدم كل منها رواية خاصة لا ترد في النشرة الأمريكية... رغم ذلك بحثنا مع شركات أجنبية موضوع فتح قناة وموقع إلكتروني باللغة الإنكليزية ومشاريع أخرى من مثل برنامج أو اثنين بالإنكليزية على تلفزيون أبو ظبي موجّهة للشعب الأمريكي ويتم نقلها عبر الكابل لمختلف المناطق الأمريكية. ولكن كل هذا لا يكفي. إنه نقطة في محيط. الإنترنت هو إحدى الوسائل التي يمكن أن تستخدم كرديف لقناة تلفزيونية، وهو فعال جداً شرط دعمه بحملة إعلامية وإقناع المتلقين بمصداقيته».

(١٣٤) المصدر نفسه.

كل هذه الطموحات لم تغب عن التأثير في التغييرات التي شهدتها القناة عام ٢٠٠٤.

٤ ـ التغيير المفاجئ عام ٢٠٠٤: قرار الخروج من حقل الأخبار

أ ـ قرار الخروج من حقل الأخبار: تقاطع أربع إرادات

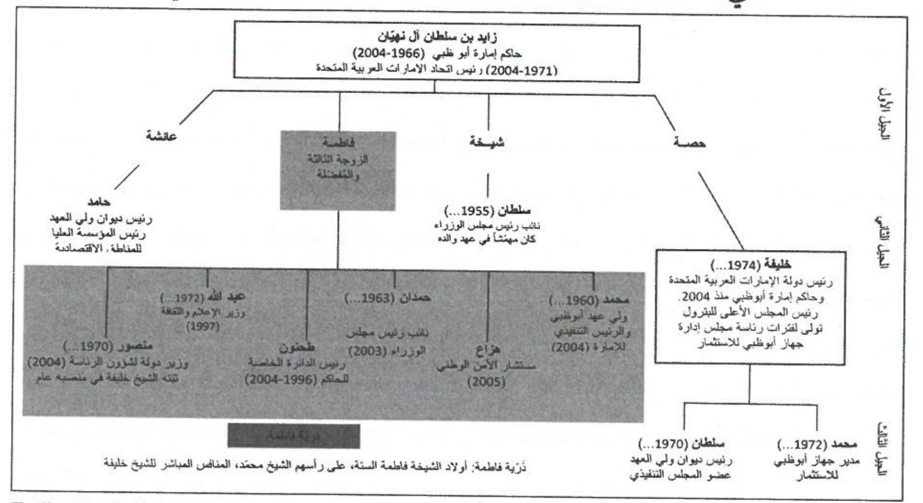
من الإطار الدولي إلى الإقليمي إلى المحلي، تتدافع الأحداث لتترك مفاعيلها على الإمارات وبالتالي على إعلامها وبخاصة فضائية عاصمتها؛ فبعد احتلال العراق الذي غيّر كل المعادلات، جاءت وفاة الشيخ زايد لتنقل البلد إلى مرحلة جديدة تبدأ بقضية الوراثة.

الأمراء الورثة ليسوا من أم واحدة، وولي العهد خليفة ابن الشيخة حصة بنت نهيّان، أخوه غير الشقيق سلطان، من زوجة أخرى (شيخة)، والإخوة الستة غير الأشقاء الآخرون هم أولاد الشيخة فاطمة الزوجة المفضلة والقوية للشيخ زايد، ولذلك يطلق عليهم لقب «الفاطميون».

الشكل الرقم (٧ ـ ١)

شجرة عائلة مُبسّطة لأهم أفراد العائلة الحاكمة

في اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة، إمارة أبو ظبي



المصدر: Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006), p. 164.

في حياة والدهم، كان الفاطميون يسيطرون على كل مفاصل الدولة: البكر الشيخ محمد، الدفاع؛ الشيخ حمدان، وزارة الخارجية؛ الشيخ عبد الله، الإعلام؛ الشيخ منصور صهر الشيخ محمد بن راشد حاكم دبي، التجارة. وقد ركزوا على الإعلام لتسويق صورتهم، وعلى رأسها الشيخ محمد.

غير أنّ الشيخ خليفة يتمتع بشرعية مزدوجة، فأمه هي ابنة الشيخ محمد آل نهيان الذي تنازل عن السلطة لقريبه الشيخ شخبوط شقيق زايد، كما فعل والده عام ١٨٥٥، مع زايد الكبير. وتأتي قوته أيضاً من علاقته الخاصة مع القبائل وشيوخ الإمارات الأخرى، بينما لا يتمتع الفاطميون بنفوذ قبلي من جهة الأم، غير أنهم يتحالفون مع حاكم دبي. وبوعي حاذق للوضع، وزّع الوالد الحصص بين أولاده في حياته، حيث ثبّت خليفة في ولاية العهد، وعيّن أخاه محمداً نائباً لولي العهد.

على الرغم من ذلك احتاجت عملية انتقال السلطة، عند إعلان وفاته في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٤، لتدخلات سعودية وأمريكية، لم تكن لتمر من دون شروط ومطالب. وعلى الفور جاء التغيير الجذري لوضع قناة أبو ظبي.

أربع إرادات التقت ضد الوضع القائم للقناة: فالأمريكيون قرروا استئصال أي خطاب قومي عربي (بدءاً من الجزيرة) وهم لا يمكن أن يرضوا بمجمل خطاب القناة وطرحها وسياساتها، في كل ما أوضحناه سابقاً وما سنوضحه أكثر **في القسم الثالث**، وبخاصة مع نجاحها كقناة أخبار ومنوعات واسعة المشاهدة في البلاد العربية وفي الاغتراب. أما السعوديون فهم لا ينتظرون سوى التخلص من أخ منافس على المستوى الإعلامي والسياسي، كما إنهم يشاركون في عدم الرضا عن خط القناة. وتلتقي هاتان الإرادتان مع السياق الجديد في المنطقة وداخل الإمارة. حيث إن ولي العهد الجديد الشيخ محمد، قائد الأركان القوي قريب جداً من أمريكا، ويحرص على الاتساق مع سياساتها وتلبية شروطها، وبخاصة بعد احتلال العراق. أما الأمير الجديد، رئيس الدولة فهو مدعوم من السعودية، وعليه أيضاً تلبية مطالبها. كما إنه من ناحية أخرى يحرص على تقوية نفوذه داخل البلد في مواجهة الحلف «الفاطمي» المتحالف مع آل مكتوم في دبي، وقد اعتمد على ثلاثة أمور منها منافسة أو تحجيم الفاطميين في دائرة نفوذهم التقليدية، في

LAU Beirut campus

المجالات التي شكلت حتى حينه مركز قوتهم: الدفاع والإعلام[١٣٥].

هكذا انتهى العصر الذهبي لقناة أبو ظبي كقناة إخبارية مرنة، كقناة ذات خطاب قومي عربي، كقناة تركز على الخصوصية والاستقلالية الثقافية. لقد أعلن عصر الخصخصة الكبرى، التحول إلى إعلام المنوعات والتسلية والانكفاء على المحلي، إنها نهاية القضايا العربية الكبرى.

من دون انتظار انتهاء العزاء الرسمي للشيخ زايد، أعلن الشيخ عبد الله ابن زايد إقالة أحمد علي البلوشي مدير (الإمارات للإعلام)، وتسمية علي الأحمد مديراً لقناة أبو ظبي مكانه ولفترة مؤقتة. مبرراً القرار بالقول «إن تلفزيون أبو ظبي يعود إلى البرامج العادية قبل انتهاء فترة الحداد، ما أربك سائر القنوات الإماراتية»[١٣٦]. مؤكداً «أن هذا التغيير ليس بداية لتغييرات أخرى... وأنه لن يكون هناك أي تغيير سوى تعيين مدير جديد لقناة أبو ظبي... كما نفى وجود أية نية لإعادة تنظيم إدارية للمؤسسة...الشيخ عبد الله، أكد أن هذا القرار قراره الشخصي كونه وزير الإعلام ورئيس مجلس الإدارة، دون أي تدخل من دولة أجنبية»[١٣٧].

غير أن الجميع كان ينتظر التغيير بصمت، فيما يقول مسؤولو القناة بألم أنه « قرار سياسي»[١٣٨] ولا حول ولا. وراحت الأسئلة تطرح حول المستقبل: السياسة الجديدة، البرمجة الجديدة، حصة الأخبار، النشرات، برامج الحوار، الإدارة الجديدة، مصير العاملين. وتزامن ذلك مع تغيير حتمي في النظرة الخاصة بالجمهور المستهدف، لن يعود عربياً وعالمياً بل محلياً.

بعد المدير، جاء دور المدراء المساعدين، رؤساء التحرير ومن ثم

(١٣٥) هذا ما تؤكده فتيحة دازي هني في كتابها حيث تعتبر أن الأمرين الآخرين تمثّلا في (١) تحجيم نفوذ دبي عبر دفع أولاد الشيخ خليفة إلى الاستثمار على أرضها. مدعومين بالأصول المالية الأكبر في العالم حوالى ٨٧٥ مليار دولار، وبطموحات لا حدود لها، وأخيراً جاءت الأزمة الاقتصادية الأخيرة التي عصفت بدبي عام ٢٠١٠، لتكرس خليفة منقذاً وإمارة أبو ظبي سيدة. (٢) تقوية الأمير لحلفائه، الإخوة غير الأشقاء من غير الفاطميين والذين كانوا مهمّشين ولشيوخ بقية الإمارات، من خلال المرافق الاستراتيجية: المال، الاستثمارات، الطاقة، البترول، العلاقات مع الجيران، وبخاصة السعودية، والإعلام. انظر: Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, p. 168.

(١٣٦) حيدر عبد الحق، «إقالة البلوشي،» **الشرق الأوسط**، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٤.

(١٣٧) المصدر نفسه.

(١٣٨) مقابلة شخصية مع المدير بالوكالة ومع المذيع جاسم العزاوي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤.

الصحافيين. وبدأ مقدمو الأخبار وبرامج الحوار يبحثون عن عمل في قنوات أخرى خصوصاً في الجزيرة. وكانت الحالة الأكثر دلالة هي حالة مقدم البرامج والمنتج الإماراتي جابر عبيد[١٣٩].

ب ـ بعد عام ٢٠٠٤

التحول الذي بدأ عام ٢٠٠٤، وصل ذروته عام ٢٠٠٧، مثبتاً التوقعات؛ فقد أصدر رئيس الإمارات العربية المتحدة، أمير أبو ظبي المرسوم الرقم ١٣ للعام ٢٠٠٧، الذي يحدد «الإمارات للإعلام» شركة خاصة. ثم أصدر ولي العهد المرسوم الرقم ٣٢ بتشكيل مجلس الإدارة، وبموجبه أصبحت كل قنوات التلفزيون، الجرائد والمجلات التي كانت ملك «الإمارات للإعلام»، ملكاً لشركة « أبو ظبي للإعلام»، كما تم إبرام عقد مع شركة تومسون يوكل إليها أمور التقنية والإنتاج، واضعاً حداً لحلم الاستقلالية الإنتاجية الذي سمعنا ذو الرشاد يتحدث عنه. الرئيس الجديد للشركة الجديدة هو خلف المزروعي، مدير عام «أبو ظبي للتراث والثقافة»، وهو مؤسس مجلة **صقر** المتخصصة برياضتي الصيد والسباحة. أما غالبية شركائه فخبراء غربيون من عالم الاستثمار في إعلام المنوعات، من مثل:

إدوارد بورغردينغ، المدير التنفيذي الذي كُلّف بالإشراف على مجلات وجرائد وباقات تلفزيونات أبو ظبي، راديو الإمارات إف إم وأول جريدة باللغة الإنكليزية (*The National*) التي رأس تحريرها رئيس التحرير السابق في **ديلي تلغراف**... كان مديراً تنفيذياً لوالت ديزني العالمية في هونغ كونغ، التي أسسها عام ١٩٩٥، كأول قناة ديزني خارج أمريكا، ثم أدار عدداً من استثمارات ديزني في العالم. أمضى سنتين في إدارة مشاريع في دبي وفي استراليا، قبل أن يؤسس شركته الخاصة في لندن (مارفل لبرامج التسلية).

ريك كاي من قدامى (British Telecom For Communication) وIPT video on Demand). كان يشغل منصب نائب مدير قسم البرامج في قناة (تي في ٣) في الولايات المتحدة، ثم عين مديراً تنفيذياً لبرامج أوربت. وقد اعتبر بورغردينغ أن تعيينه في قناة أبو ظبي يبشر بعصر جديد للاتصال الرقمي في

(١٣٩) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

Beirut campus

منطقة الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، وبخاصة في الخليج[١٤٠].

المسؤول العربي الوحيد هو اللبناني كريم سركيس، وقد عين مديراً تنفيذياً للإذاعة والتلفزيون في أبو ظبي. كان مديراً لبرامج قناة (إل بي سي). بعد تعيينه أعلن للصحافة عن الوجه الجديد للقناة (نيو لوك)، «التغيير الجذري في القنوات الفضائية، التطور الهائل الذي يشمل المظهر والمحتوى بطريقة تحقق طموحات توسيع الجمهور بهدف جذب دعايات أكثر»[١٤١]. (غير أنّ سركيس لم يستمر طويلاً على رأس القناة).

القناتان الباقيتان: القناة الرياضية وتلفزيون الإمارات لم تخضعا لأي تغيير، ولا تزال الثانية كما عرّفت عند إنشائها «محلية ومنوعة»[١٤٢].

رابعاً: العربية: بديل ناجح بعد فشلين سعوديين

١ ـ الحقائق الجديدة، المتطلبات

أ ـ تقاطع مصالح: السُديريين، السعوديين والأمريكيين

عام ٢٠٠٣، الأمير عبدا لله هو الوصي على العرش. والمنافسة داخل العائلة المالكة قوية وإن بصمت. كذلك هو الحال بالنسبة إلى المنافسات العربية ـ العربية.

في المنطقة، الحرب على العراق على الأبواب، وكالعادة « تتقدم أولوية الحفاظ على ملك الأسرة السعودية على أية خلافات داخلية»[١٤٣]؛ فالظرف لا يسمح بأقلّها. و«إذا كان نظام آل سعود قد عارض أي حرب ضد العراق خارج إطار الأمم المتحدة، فإنه لم يكن لديه خيار آخر غير ترك الولايات المتحدة تستعمل مجاله الجوي وجزءاً من أراضيه حيث ما تزال قوات أمريكية خاصة تتمركز في مطار عرعر»[١٤٤].

(١٤٠) معلومات من أرشيف القناة.

(١٤١) مؤتمر صحافي مع كريم سركيس على العربية نت.

(١٤٢) أرشيف القناة.

(١٤٣) Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, p. 100.

(١٤٤) Shahid et Baker, «Télévision: Al Jazira dans la ligne de mire des télés arabes».

غير أن العمليات العسكرية الرئيسة كانت تقاد من قطر. وشبه الجزيرة الصغيرة والشقيقة تملك إلى جانب القواعد الأمريكية، قاعدة إعلامية غير مسبوقة في المنطقة (الجزيرة). كذلك يدعم الجار الآخر، الإماراتي صعود قناته، «المنافسة الأكثر جدية للجزيرة»[١٤٥] والتي مكنتها طبيعتها المرنة من التحول إلى قناة إخبارية وقت الحرب.

كان لا بد للمملكة من امتلاك قناتها الإخبارية. وإذا كان الفشل مصير أوربت في مشروعها مع بي بي سي العربية، فان الأميرين الوليد بن طلال وخالد بن سلطان يحاولان أن يطرحا البديل. يعقدان اتفاقاً بين قناة (إل بي سي) اللبنانية التي يملك الأول معظم أسهمها وجريدة **الحياة**، التي يملكها الثاني. ينص على أن تخصص المؤسستان ١٢ مليون دولار لقناة إخبارية ملحقة (Newsroom ink)، يديرها جهاد الخازن رئيس تحرير جريدة **الحياة**. حققت المؤسسة الجديدة بمساعدة ٦٩ مراسلاً نشرات الأخبار الثلاث في (إل بي سي). وفي العام ٢٠٠٣، كتبت **الواشنطن بوست**، أن فريق تحرير الأخبار سوف ينتقل من بيروت إلى لندن حيث يتم تجهيز أستوديو تلفزيون. ويهدف المشروع إلى إطلاق قناة إخبارية مستمرة خلال سنة[١٤٦]. غير أن شيئاً من ذلك لم يتحقق، وبعد سنتين أعلن مدير (إل بي سي) بيار الضاهر، للصحافة أن المشروع لم يعد قائماً، وبرّر إعلانه بإنشاء قناة العربية وخروج قناة أبو ظبي من مجال الأخبار[١٤٧]. ولعل ما يبرر هذا القرار هو انه إذا كان الهدف السعودي وضع حدٍّ لتفوق الجزيرة، فإن قناة لبنانية ممولة سعودياً ليست مناسبة لتلك المهمة، وبخاصة أن الانطباع المتشكل لدى المشاهد العربي عن قناة (إل بي سي)، كقناة منوعات خفيفة يغلب عليها الطابع اللبناني، لا يؤهلها لأن تنافس الجزيرة ولا أبو ظبي. لذا فالأفضل هو إنشاء قناة جديدة.

هكذا تكتب جريدة **لوموند** «من وجهة نظر المراقبين، العربية هي رد النظام الوهّابي على قناة الجزيرة القطرية التي تزعج الجار السعودي الكبير»[١٤٨]؛ في

(١٤٥) المصدر نفسه.

(١٤٦) المصدر نفسه.

(١٤٧) «بيار الضاهر لا يستبعد التقدم لشراء قناة «الجزيرة» إذا طرحت للبيع،» حوار عصام الشيخ، **الشرق الأوسط**، ٢٦/٢/٢٠٠٥.

(١٤٨) Hakem, «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira».

حين يصفها كل من وليد إبراهيم الوليد وعلي الحديثي بـ «البديل المعتدل والمتوازن»[١٤٩] أو بـ «سي إن إن مقابل فوكس نيوز»[١٥٠] ويكتب صحافي غربي زار مكاتبها في الطابق الرابع من مبنى الـ إم بي سي في دبي: إنه في وسط مكتب الأخبار، في قاعة المذيعين الكبيرة، وفي كل مكان من قاعات التحرير الفخمة والواسعة، تجد شاشات سي إن إن، فوكس نيوز، بي بي سي، أبو ظبي... كل تلفزيونات العالم، باستثناء الجزيرة... أما في مكتب مدير القناة صلاح القلاب، لا نجد إلا شاشتين: العربية والجزيرة»[١٥١].

غير أن عبد الرحمن الراشد الذي خلف القلاب ينفي هذا الانطباع: «العربية ليست ردة فعل على الجزيرة، الصحيح أن هذه الأخيرة أتت رداً على الـ إم بي سي التي كانت تسيطر على الأخبار الخاصة بالمنطقة من العام ١٩٩١ حتى العام ١٩٩٥. وقد كان النزاع بين قطر من ناحية، والبحرين والسعودية من ناحية أخرى هو السبب في إنشاء الجزيرة لمواجهة الإعلام السعودي. السعوديون أنشأوا الـ بي بي سي العربية، وعندما تركوها قام القطريون، بدافع العقدة السعودية، بشرائها»[١٥٢].

تحت عنوان «حرب التلفزيونات العربية»، كتبت مجلة **إكسبرس** في ١٣ آذار/ مارس عام ٢٠٠٣: «بانتظار الحرب المعلنة ضد العراق، بدأت حرب القنوات العربية. وبدافع القلق من الدور السياسي المحرك الذي تلعبه القناة القطرية، قرر أكثر من نظام في الخليج العربي وفي الشرق الأوسط دعم ظهور قنوات منافسة. وهكذا أطلقت قناة فضائية إخبارية جديدة - العربية - تبث من دبي. بهدف معلن إعطاء بديل عاقل ومتوازن للجزيرة. القناة تبثّ أربعاً وعشرين ساعة من ٣ آذار/ مارس»[١٥٣].

ولكن هل يفسِّر هدف منافسة الجزيرة، وحده إنشاء قناة العربية؟

حتى ولو سلمنا أن «المهنية التي تتمتع بها القناة القطرية قد خرقت

---

(١٤٩) أمجد العبسي، «أسرار قناة العربية،» **السبيل** (عمّان)، ٢٥/١/٢٠٠٥.

(١٥٠) Hakem, Ibid.

(١٥١) Samentha Shabero, «The War Inside the Arab News Room,» *New York Times*, 2/1/2005.

(١٥٢) عبد العزيز محمد قاسم، «الراشد وصف السياسة القطرية بـ «حالة الشيزوفرينيا» والازدواجية، مدير «العربية»: هناك دعاية ضدنا هدفها اغتيال الشخصية،» **المدينة**، ٣/١١/٢٠٠٦.

(١٥٣) Scarlett Haddad, «La Guerre des télévisions arabes,» *L'Express*, 13/3/2003.

المحظورات وخلقت طلباً كبيراً على الإعلام المستقل في العالم العربي»[١٥٤]. فإن إنشاء العربية يرتبط بالوضع الجيو سياسي في الخليج، المرتبط بالحرب واحتلال العراق والنظام الإقليمي الجديد المعلن. وذاك ما لم يكن غائباً عن قرار عودة إم بي سي إلى العالم العربي واستقرارها في المدينة الإعلامية الحرة في دبي، قبل إطلاق العربية. لقد تأمنت كل الشروط اللازمة لإطلاق قناة إخبارية تفيد من الحرب القادمة على العراق لاجتذاب جزء من الـ ٥٥ مليون مشاهد الذي يتابعون يومياً الجزيرة منذ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦»[١٥٥]. جزء يتحول إلى جمهور يتلقى الرواية السعودية ويخضع لتأثيرها.

غير أن الحرب على العراق ليست أمراً عربياً ولا إقليمياً، ونتائجها التي تطال بديهياً المملكة الوهابية، تخص قبل الجميع الولايات المتحدة التي، لا شك في أنها وضعت استراتيجية شاملة تلم بالحاجات والأدوار والاحتمالات والردود كافة. ومن المعروف أن البند الإعلامي يشكّل أحد العناصر الأكثر تقدماً وتطوراً وفعالية في استراتيجية الولايات المتحدة للحروب ولما بعدها، منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن. وفي هذا السياق «عززت الإدارة الأمريكية موقعها على الأرض عبر الأخبار باللغة العربية، بعدما حصلت من أمير قطر على حق مشاهدة جميع شرائط الفيديو المتعلقة بالشبكات الإرهابية قبل بثها عبر الجزيرة. كذلك تقول مصادر متقاطعة إن هذه الإدارة ساندت إنشاء العربية. ذاك أن واشنطن تستفيد من الحرب الإعلامية بين القناتين الإخباريتين باللغة العربية؛ فعندما كانت الجزيرة تفاوض للسماح لها بالوجود فوق حاملة الطائرات يو إس آرمي، بثت العربية مقابلة مع وزير الخارجية الأمريكية كولن باول في ٧ آذار/ مارس، فردّت القناة القطرية ببث مقابلة مع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد»[١٥٦].

ولعل أفضل ما يفسر هذه الثنائية هي المقارنة التي قدمها الوليد بن إبراهيم الوليد، بقوله إن العربية هي بالنسبة إلى الجزيرة ما هي إلا سي إن إن بالنسبة إلى فوكس نيوز. ثنائية تحتاجها السياسة الأمريكية في المنطقة، بخاصة مع دمغ الجزيرة بالتطرف والأصولية.

---

(١٥٤) Shahid et Baker, «Télévision: Al Jazira dans la ligne de mire des télés arabes».

(١٥٥) Hakem, «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira».

(١٥٦) «Des américains très présents,» *Le Monde*, 15/3/2003.

Riyad Nassar Library

LAU Beirut campus

لقد وضعت المجموعة الذكية قناة إخبارية مستمرة. أصبح للجزيرة منافس قوي، للسعوديين قناتهم الإخبارية الخاصة، للسديريين معقل جديد، وللولايات المتحدة سي إن إن بالعربية.

ب ـ مراكز التأثير: الارتباطات والمنافسات؛ الأمراء، رجال الدين، الأنغلوساكسون، التمويل والإعلان

(١) الأوامر السعودية المتناقضة

أكثر من أمير من الجيل الأول والثاني يمارسون نفوذهم عبر رجالهم في القناة: عبد العزيز بن فهد، محمد بن فهد، سلطان بن عبد العزيز، خالد بن سلطان، سلمان بن عبد العزيز.

الوليد بن إبراهيم الوليد، مؤسس الشركة الأمّ إم بي سي، هو خال الأمير عبد العزيز بن فهد «لم يكن الملك فهد يدعم إم بي سي لذاتها وإنما لشخصي. أنا فخور بأنني قضيت فتوتي وشبابي إلى جانبه، وقد أثر هذا في كل ما فعلته وما سوف أفعل»[١٥٧]. الأمير محمد بن فهد، يمارس بدوره نفوذاً على القناة بطريقتين: توظيف الطلاب اللامعين في كلية محمد بن فهد للإعلام في السعودية. وتخصيص القناة بإعلانات مشاريعه واستثماراته وجامعته. الأمير سلطان يعتمد في علاقته بالقناة على علي الحديثي، الذي يشكّل رجل الثقة للأمير خالد بن سلطان، يده وعينه على القناة. الأمير سلمان بن عبد العزيز عبر عبد الرحمن الراشد، المدير العام وداود الشريان المدير المساعد. وهذا الأخير يتميز بعلاقات مع دائرة الملك عبد الله وأجهزة الاستخبارات.

تعدد مراكز التوجيه والتأثير تتسبب بأوامر غير متجانسة، إذ يؤكّد أحد رؤساء التحرير أنّ المشكلة تكمن في الاختلافات بين مراكز القوى السعوديّة المؤثّرة في القناة، وفي التحولات التي تطرأ على هذه المراكز. حيثُ إنّ كُلاً من مسؤولي القناة محسوبٌ على أميرٍ أو على مُعسكر. غير أنّ الراشد ينفي كُلّ ذلك بقوله: «المسألة ليست مسألةَ تعليمات، وليس هُناك أجندة حقيقيّة، بل ثقةٌ كبيرة»[١٥٨] ويورد بعض التفصيلات حول إشكالاتٍ وقعت بينه وبين

(١٥٧) «حوار مع الوليد بن إبراهيم الوليد،» **الرياض**، ٢٠/١٢/٢٠٠٧.

(١٥٨) مُقابلة شخصية مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

السلطات السعوديّة، من مثل سماحه ببثّ أخبار عن اعتداءاتٍ إرهابيّة حصلت في البلاد فيقول: «لكنّهُم في النهاية اقتنعوا بأنّ من الأفضل نشرُ ذلك». وعندما سُئل عمّا إذا كان هُناك طرفٌ ما قد شجّعهُ على هذا القرار؟ يُجيب: «إطلاقاً، نحن من اتّخذ القرار في مجلس التحرير» مُصرّاً على أنّه لا يخضعُ لتأثيرات المنافسات والاختلافات داخل العائلة المالكة[١٥٩].

من ناحية أخرى، هناك ثلاثة أمثلة تدلّل على تضارب هذه التأثيرات: المسلسل الوثائقي حول حياة الملك عبد الله، قضية رفع المعاشات، والمسلسل المعنون «ثمن الخطايا».

قبل عدة أيام من إعلان السلطات السعودية لميزانية عام ٢٠٠٦، بثت القناة خبر رفع معاشات الموظفين في المملكة بنسبة ٤٠ بالمئة. ما أثار غضب دوائر الملك عبد الله، لعدم صحة الخبر واعتباره أنه يستهدف الملك شخصياً، عبر ما سيثيره من بلبلة وردود أفعال. واندلعت أزمة انتهت باعتذار الوليد بن إبراهيم الوليد عما اعتبر «خطأ تقنياً». «بداية علينا الاعتذار رسمياً عن هذا الخطأ التقني، ولكن يجب أن أوضح، أنه بالنسبة إلى التغطيات التي نعتبرها مهمة، نقوم بتحضير البرامج مسبقاً، بالاعتماد على التوقعات والتحليلات. الذي حصل أن توقعاتنا مرّت كخبر عاجل خرج عن السيطرة ونقلته مواقع الإنترنت»[١٦٠]. توضيح أقنع البعض واعتبر البعض الآخر أن القضية كانت معدة لإحراج الملك. خصوصاً أن أحداً لم يتعرض للمعاقبة، لا المذيعة، ولا رئيس تحرير النشرة الاقتصادية، جورج الحاج، ولا المدير المسؤول نخلة الحاج.

القضية الثانية، تتعلق بوثائقي من أربع حلقات، أُنتج عن حياة الملك عبدا لله: الحلقة **الأولى**، تتناول سياسة الملك الخارجية، نظرته للتغيير على الخريطة العالمية، الموضوع الفلسطيني، لبنان، أفغانستان، العراق والعلاقات بين الرياض وطهران. الحلقة **الثانية**، تتناول السياسة الداخلية، وبخاصة الإصلاحات السياسية والاجتماعية. **الثالثة**، حول عمل الحكومة، والحلقة **الأخيرة**، حول الحياة الخاصة للملك، تاريخه، حياته الشخصية، مصالحه وتوقعاته. لقد تم تصوير الحلقات لأول مرة داخل كواليس القصر الملكي

(١٥٩) المصدر نفسه.

(١٦٠) «العربية تعتذر رسمياً،» **الرياض**، ٢٠/٣/٢٠٠٧.

وفي مكتب الملك، بينما كانت ممارسة الصلاحيات تناقش مع أعضاء العائلة وخبراء القانون. بعد عرض الحلقة الأولى، أوقف المسلسل بسرعة، وقد اعترف عبد الرحمن الراشد «أن الإيقاف تم بسبب خلافات داخلية حيث تلقّى أوامر مباشرة من العائلة المالكة»[١٦١].

القضية الثالثة، تتعلق بمسلسل أنتج في الكويت ويسيء إلى الشيعة، وقد مُنع بثه في الكويت بعد تظاهرات كبيرة أمام مكاتب إم بي سي والعربية في الكويت؛ فامتنعت القناة في الكويت عن بثه. غير أن تدخلات من طرف الأمير بندر بن سلطان عند الشيخ وليد بن إبراهيم الوليد، عادت فسمحت ببثه. على الرغم من ما يمكن أن يسببه من تأزيم مذهبي.

(٢) رجال الدين

ثمة تأثيرات تأتي من طرف آخر، رجال الدين الذين يرون في العربية منبراً ممتازاً، تأثيرات تبدو منطقية في إعلام سياسي تابع للعربية السعودية وفي مرحلة صراع بين الإصلاحيين والمتشددين. ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك ما حصل مع تركي الدخيل في برنامج: «إضاءات»، حيث رتب حلقة يناقش فيها عبد الرحمن اللاحم قضية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أن تمّ الإعلان عن الحلقة على موقع العربية نت وعلى شاشتها، تم إلغاؤها وحذف الرابط عن الموقع[١٦٢].

ومن المعروف أن الأمير عبد العزيز بن فهد، الأكثر تأثيراً على القناة مقرب جداً من الجسم العُلمائي، وكان ينحاز إلى عمه الأمير نايف (ت. في حزيران/يونيو عام ٢٠١٢)، ضد السياسة الإصلاحية. الأكثر شهرة من الشيوخ المؤثرين: الشيخ عبد المحسن العبيكان (كان مُستشاراً في الديوان الملكي السعودي إلى أن

---

(١٦١) عبد الرحمن الراشد من ويكيبيديا، <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D8%B4%D8%AF>.

ويمكن تحميل الحلقة الأولى على اليوتوب من الفيلم الوثائقي «عبد الله»، <http://www.youtube.com/watch?v=J017jm1OLI&feature=related>.

(١٦٢) «يأمر بإلغاء حلقة «إضاءات»،» **الرياض**، ٦/ ٤/ ٢٠٠٧، <http://www.johod.net/~hajr/hajrvb/showthread.php?t=402923510&s=>.

نشر الإعلان عن الحلقة، على موقع العربية ثم أزيل، الرابط الإلكتروني لاحقاً: <http://www.alarabiya.net/programs/2007/07/05/36226.html>.

أصدر الملك عبد الله بن عبد العزيز أمراً بإعفائهِ من منصبه ٢٠/ ٦/ ١٤٣٣هـ الموازي ٢٠١٢م) الذي كان يعتبر نجم مجموعة إم بي سي كلها، وهو حنبلي فقهياً مؤيد لأمريكا سياسياً، محافظ اجتماعياً، يحرم حلاقة اللحى والاختلاط بين الرجل والمرأة. الشيخ سلمان العودة الذي يُقدم برنامجَي «حجر الزاوية» و«الحياة كلمة» على إم بي سي والشيخ سفر الحوالي من شيوخ «الصحوات». في المرتبة الثانية من حيث النفوذ، يأتي الشيخ طارق سويدان والشيخ ابن جبرين.

وكما رأينا في فصل توزيع البرامج في القسم الأول، فإن ٥ بالمئة من برامج القناة مخصصة لرجال الدين، ٩٠ بالمئة منها للتيار المؤيد لأمريكا، و١٠ بالمئة من الخمسة مخصصة للإصلاحيين «شيوخ الصحوات».

(٣) العلاقات الأنغلوساكسونيّة

النفوذ الأنغلوساكسوني يتوزع على خطين:

ـ **خط التقنيين والخبراء**؛ وهذا ما يرتبط بالإنكليز، حيث «كلف السعوديون خبيراً بريطانياً هو مارتن ويزلي، المدير العام السابق لـ «يورو نيوز» بالتأسيس والإدارة. . . وهو يمثل المهنية والصدقية اللتين أرادهما السعوديون ـ ويرى في العربية ـ مشروعاً طموحاً ميّزته أنه يمتلك إمكانيات تحقيق طموحه»[١٦٣]. إضافة إلى ويزلي، تعتمد القناة على بعض المستشارين الأنغلوساكسون الآخرين الذين يشاركون في مجلس الإدارة، مثل جيبي ومورغان.

ـ **الخط السياسي والمالي**؛ وهو متعلق بالأمريكيين. وبخاصة إذا صدق التقرير الأمريكي «المجموعة الذكية» الذي فصلناه **في القسم الأول**، من هذا البحث، وما يذكره عن التمويل. وبصرف النظر عن التقرير، فإن الأمريكيين يمارسون نفوذاً غير مباشر إمّا عبر وجود رجالهم في كل المواقع الرئيسة في القناة، وأما عبر منظماتهم مثل (MET) أو(IMET). حيث إنّ الأولى تُدار من العربية السعودية حيث الجهاز الإعلامي للجيش الأمريكي في القيادة الأمريكية الوسطى (US CENTCOM)، أو من العراق حيث أنشأت وزارة الدفاع الأمريكية فريقاً إعلامياً خاصاً تابعاً لـ ميت، (IMET)، كجزء من وكالة الأخبار المجمعة (Combined Press Information Center).

---

(١٦٣) Hakem, «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira».

بعد احتلال العراق، وفي بداية عام ٢٠٠٤، أرسلت (CENTCOM) إلى المدينة الإعلامية الحرة في دبي، فريقاً من (MET) بإشراف الجنرال كيميت المدير السابق المساعد لعمليات التحالف ونائب وزير الدفاع لآسيا الوسطى. تمثلت مهمة الفريق بهدفين: التقرب من المثقفين العراقيين المقيمين في الإمارات، وإقناعهم بالمشاركة في الحوارات التلفزيونية المحابية للولايات المتحدة، وبالعودة إلى العراق والاشتراك في العملية السياسية تحت الاحتلال[١٦٤].

شخصيتان عراقيتان كان لهما دور بارز في العلاقة بين القناة والأمريكيين في ما يخص العراق: قيس شهاب، وصباح ناهي. وقد تناولنا بالتفصيل وضع ناهي في **الفصل الثالث** من **القسم الأول** المخصص للعاملين. أما شهاب فهو بعثي سابق غادر العراق عام ١٩٩٠، إلى الولايات المتحدة، وحصل مباشرة على الجنسية الأمريكية. وأصبح عضواً في (MET). في عام ٢٠٠٣، دخل مع الاحتلال مستشاراً لـ ستيفان هادلي المستشار في الأمن القومي ولـ فرانك باسكوال مدير (U.S. Navy)، ومستشاراً إعلامياً للجنرال كيميت. وشكّل بذلك حلقة الوصل بين كيميت، هادلي، باسكوال والعربية. ومن أهم ميزات ناهي وشهاب بالنسبة إلى الأمريكيين، معرفتهما القريبة بالشخصيات العراقية، من سياسيين سابقين أو مستثمرين لاجئين إلى الإمارات وخارجها. أما مقاربة هذا الموضوع مع إدارة العربية، فتبدو صعبة ويكتفي عبد الرحمن الراشد بابتسامة ساخرة وتعليق: «يتهموننا بأننا نوظف بعثيين»[١٦٥].

في آذار/ مارس عام ٢٠٠٤، أعلن الجهاز الإعلامي للجيش الأمريكي (Armed Forces Press Services) عن تخرّج أول دفعة من ١٢ عراقياً من دورة العلاقات العامة في اطار إيميت. رسمياً يُشكل هؤلاء جزءاً من «فريق العراق للإعلام (Iraqi Media Engagement Team at the CPIC). أمّا مُهمّتهم الأساسية

(١٦٤) بعد ذلك بفترة (في عام ٢٠٠٨) عاد ظافر العاني البعثي السابق في نظام صدام حسين، والذي كان لاجئاً في الإمارات، إلى بغداد ناطقاً رسمياً باسم الحكومة العراقية برئاسة نوري المالكي. وذلك بعد أن عمل في مركز الخليج للأبحاث الذي أسسه الدكتور السعودي عبد العزيز عثمان بن صقر في دبي. في عام ٢٠١٠، منعت لجنة الانتخابات العراقية، العاني من الترشح للانتخابات على خلفية ماضيه البعثي، فعاد إلى الإمارات.

(١٦٥) مقابلة شخصيّة مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

فتكمن في «إطلاع الجمهور على جهود التحالف في العراق»[١٦٦]. وقد عُيِّنوا في البداية بصفة مترجمين ومحللين في وسائل الإعلام، قبل أن يكلفوا بمهام لدى وسائل الإعلام العربية.

قيس شهاب هذا، هو غير قيس شهاب أحد قادة الصحوات في المقداديّة وديالا.

(في ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٨، نظمت العربية برنامجاً حول تنظيم القاعدة في ديالا مع أخبار وصور مرعبة، وفي اليوم نفسه أعطى قيس شهاب قائد الصحوات في المقدادية وديالا مقابلة لجريدة **لوس أنجلوس تايمز**، تضمنت الأخبار ذاتها والمصطلحات ذاتها، وفي اليوم الثاني أعادت جريدة **الشرق الأوسط** نشر المادة كاملة).

(٤) التمويل والإعلان

لا يشكّل التمويل والإعلان المركز الأخير من مراكز النفوذ. وإذا كنا قد جعلناه كذلك في الترتيب هنا فذاك لأن البحث قد تناوله بالتفصيل في الجزء الأول. وهو يقودنا إلى المساهمين وأصحاب شركات الإعلان الذين هم في الواقع مراكز قوى سياسية، كما بالنسبة إلى الأمراء السديريين أو عائلة الحريري أو حتى تحالف شويري - إم بي سي. وهم يمثلون انقسام منطقة الشرق الأوسط بين معسكرين: الاعتدال والتشدد. معسكران يقتسمان البلدان العربية ولكن أيضاً النظام والمعارضة في داخل كل بلد على حدة. وكذلك يحيلنا المنطق نفسه إلى التمويل الأمريكي للقناة.

٢ ـ القناة والمشروع الأمريكي في المنطقة (الشرق الوسط الجديد)

أ ـ الحرب واحتلال العراق: بين المواقف المؤيدة لأمريكا والحاجة لاكتساب جمهورٍ معادٍ لها

عرف موقف القناة من العراق أكثر من مرحلة: «في بداية الاحتلال ـ يقول عبد الرحمن الراشد ـ كنا مضطرين أن نساير الجمهور الذي كانت

(١٦٦) Combined Press Information Center,» Source Watch, <http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Combined_Press_Information_Center>, and «Category: Propaganda,» <http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Category:Propaganda>.

مشاعره معادية بحدة للاحتلال وللولايات المتحدة ومن ثم رويداً رويداً أصبحنا أكثر موضوعية»[١٦٧].

هذا ما يؤكده بالتفصيل علي الحديثي: «أطلقنا العربية قبل ثلاثة أسابيع من الحرب على العراق؛ في البداية كان الجمهور معادياً جداً للحرب، وكان من الصعب جداً أن نجعلهم يقبلون احتلال بلد عربي، لذلك سمحنا لصحافيينا بمسايرة مشاعر الجمهور العربي وسمحنا لكل الأصوات بالتعبير. وما إن بدأت الأمور تهدأ، وتمكنت القناة من فرض نفسها في السوق، حتى عبرنا إلى التوازن والمنطق. خصوصاً مع تسمية عبد الرحمن الراشد على رأس القناة»[١٦٨]. مرحلتان ومديران.

(١) المرحلة الأولى: مسايرة الرأي العام العربي

اتُّخذ قرار الحرب. ولم ينفع حتى رفض مجلس الأمن في منعه. وقد وضعت كل وسائل الإعلام العالمية وبخاصة العربية في حالة تأهب؛ فالمنافسة ستكون شرسة.

«حضّرت الجزيرة مشاهديها للحرب عبر برامج عالية التأثير. وسمح البث المباشر المستمر من بغداد وواشنطن لطلاب وفنانين من البلدين بالنقاش على الهواء مباشرة. أسلوب يضع طرفي النزاع وجهاً لوجه، ويسمح للمشاهد بسماع كلام قوي ومثير. استعادت القناة لهجتها الهجومية وشعار «خاص بالجزيرة» اللذين برهنا عن فاعليتهما خلال حرب أفغانستان. وقد بث الجزيرة تقريرين إشكاليين. **الأول**، صوّر في معسكر على بعد عدة كيلومترات من بغداد وخصص «للمتطوعين المقاتلين» «المستعدين للشهادة». أمّا **الثاني**، فصور عائلة بغدادية سحقت جراء انفجار بعض براميل البنزين التي خزنتها توقعاً للحرب. لقد رأى الجمهور الأب المحترق يتحدث للقناة من المستشفى، كما رأى وسمع الأقارب والشهود من مدرسة الابنة الصغيرة التي توفيت بالانفجار. وهكذا قدمت الجزيرة، خلال دقيقتين و٤٥ ثانية، صور أول الضحايا المدنيين في العراق»[١٦٩].

(١٦٧) مقابلة شخصية مع عبد الرحمن الراشد.

(١٦٨) مقابلة مع علي الحديثي، في: **البيان** (دبي) (٢٠٠٥).

(١٦٩) Hakem, «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira».

Riyad Nassar Library

اشتعل الشارع العربي والعالمي ضد الحرب، التي كانت تدار من قواعد في قطر والسعودية؛ فهل يستطيع ضجيج التلفزيون أن يغطي ما يعتبره الشارع العربي خيانة، خصوصاً بعد أن رفضت تركيا السماح للأمريكيين باستعمال قواعدها والمرور في أجوائها؟

بلغت الحرب بين القناتين ذروتها، حيث سجلت الجزيرة عدة نقاط لصالحها؛ من ناحية لم يقبل أي من نجومها الذهاب إلى دبي، ومن ناحية ثانية ظل فريق مكتبها في بغداد، المكون من حوالى ٥٠ شخصاً، هو الفريق الأهم. كما إن ثمة اعتبارات تتعلق بشخص المدير، فمدير العربية صالح القلاب، بعثي قديم، انقلب على البعث والتحق بالمقاومة الفلسطينية ومن ثم عاد وأيد النظام الأردني، غير محبّذ لدى القوميين ومعروف بمواقفه المعادية للإسلاميين. أما مدير الجزيرة جاسم العلي، فصديق للنظام العراقي، ذهب مرتين لبغداد. آخرهما في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣، برفقة مقدم البرنامج الشهير فيصل القاسم. في المقابل «لم تكن القناة القطرية مرحباً بها في السعودية والكويت والأردن، بينما لدى العربية مراسلون في كل البلدان العربية»[١٧٠].

في هذه الحرب الإعلامية الجديدة يدرك مدير الجزيرة محمد جاسم العلي، نقاط ضعف محطته لكنه يبرع في استعمال لغة دبلوماسية ليمرر رسالة هجومية: «نحن نعمل حتى لا يتخطانا المنافسان الوحيدان في الساحة، س إن إن و بي بي سي». ويتابع مهاجماً الكويت: «هذا البلد الذي يرفض إعطاءنا رخصة للعمل بينما القناة الإسرائيلية لم تجد أية صعوبة في نشر مراسليها»[١٧١].

وزعت القناتان فرق عمل مهمة في العراق، وفي البلاد المجاورة، برفقة القوات الأمريكية وفي واشنطن. وعندما بدأت المعارك سجلت العربية نجاحات في التغطية، خصوصاً في سرعة البث، بحيث اعتبر بعض الخبراء العرب أنها تفوقت على الجزيرة في بعض المدن العراقية.

(٢) المرحلة الثانية: موضوعية أو انحياز واضح؟

مع تعيين عبد الرحمن الراشد، بدأت المرحلة الثانية: انحياز واضح لسياسة الاحتلال الأمريكي يُترجم في السياسة التحريرية. ويُعلن المدير

(١٧٠) المصدر نفسه.

(١٧١) المصدر نفسه.

الجديد أنّ هذه الاستراتيجية هي ضد «النفاق»[١٧٢] الذي يشوب المؤسسات الإعلامية العربية الأخرى، بخصوص احتلال العراق. والتي وسمت السياسة السعودية نفسها خلال الحرب.

في مقالة بعنوان «المفارقات الكبيرة للعربية السعودية» يكتب ألان غريش: «البرهان على التوافق بين الرياض والولايات المتحدة، هو المساعدة الصامتة ولكن الفاعلة التي قدمتها الأولى للثانية خلال الحرب على العراق، على الرغم من تكرار التكذيب الرسمي. حيثُ ارتفع عدد الجنود الأمريكيين على أراضي المملكة، خلال الأسابيع التي سبقت التدخل العسكري إلى حوالى ١٠,٠٠٠ جندي (وهو عدد يبلغ ضعف العدد المُعتاد وهو ٥,٠٠٠ جندي)، لقد استخدمت قاعدة الأمير سلطان كمركز قيادة لكل العمليات الجوية. لم يكن أبداً بإمكاننا أن نخوض الحرب ضد العراق، كما فعلنا، من دون مساعدة المملكة العربية السعودية، يقول دبلوماسي أمريكي»[١٧٣].

أمّا المدير الجديد الذي يصفُ صدّام حسين بـ «الجاهل والغبيّ» فيُصرّح بأنّهُ «جاء برؤيةٍ جديدة تسعى إلى مزيدٍ من الموضوعيّة»[١٧٤]، ما يلتقي مع تصريحات علي الحُديثي حول التغيير الجديد[١٧٥].

(٣) استياء الكوادر القديمة، ورضا أمريكي

عبثاً أعرب الكوادر القدامى عن انزعاجهم، وأرسلوا تقارير للإدارة عن ردود أفعال الجمهور: «منذُ مجيء عبد الرحمن الراشد، أصبح لدى الصحافيّين والمشاهدين شُعورٌ أنّ القناة أصبحت مُبالغةً في تأييدها للأمريكيين وأن تعليمات المدير الجديد ونبيل الخطيب قد تجاوزت الحدود المعقولة... إننا بصدد خسارة جمهورنا... الصحافيون والمشاهدون لديهم الانطباع أن القناة أصبحت موالية كثيراً لأمريكا... لقد تخطت الحدود المنطقية... إذا استمرينا في وصف الاحتلال بالتحرير، فلن يشاهدنا أحد»[١٧٦]. تنقل مراسلة **نيويورك**

(١٧٢) المصدر نفسه.

(١٧٣) Alain Gresh, «Les Grands écarts de l'Arabie saoudite,» *Le Monde diplomatique* (juillet 2003).

(١٧٤) قاسم، «الراشد وصف السياسة القطرية بـ «حالة الشيزوفرينيا» والازدواجية، مدير «العربية»: هناك دعاية ضدنا، هدفها اغتيال الشخصية».

(١٧٥) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(١٧٦) Shabero, «The War Inside the Arab News Room».

تايمز، التي سمح لها بتمضية ٢٠ يوماً في كواليس القناة عن عبد القادر خرّوبي وتضيف: «يجد العاملون في القناة أن قناتهم تُظهر أنها أكثر ولاءً لأمريكا على حساب القضايا العربية: عبد القادر خروبي، ديار العمري، إيهاب الألفي. الجميع ينتقد عدم تسمية القوات الأمريكية بقوات احتلال لا في العراق ولا في سواه»[١٧٧]. غير أنّ الاعتراضات لم تؤدِّ إلا إلى تغيير مُتواصلٍ للمُراسلين.

في الجانب الأمريكي رضاً تام. وقد رحّب التقرير الأمريكي حول «المجموعة الذكية» بـ «الدور الذي لعبته القناة في تغطية العنف كما في تسويق العملية السياسية»[١٧٨]. (وسيُناقش البحث أكثر من مثالٍ على هذا في القسم الثالث).

ب ـ القسم الثاني من المشروع الأمريكي: القناة، سوريا، لبنان، فلسطين

كرأس حربةٍ إعلامية في السياسة السعودية المرتبطة بالمسار الأمريكي، اعتمدت العربية استراتيجية معادية لسوريا ولـ بشار الأسد؛ ففريق الصحافيين والمديرين يتكوّن من ليبراليين جُدد، أو إسلاميين، لبنانيين، فلسطينيين وسعوديين كلهم ضد البعث.

بعد احتلال العراق، أصبحت سوريا الهدف الأوّل لمشروع التغيير الأمريكي. وقد اعتمدت القناة خطاً تحريراً سياسياً استراتيجياً يخدم مشروع الشرق الأوسط الجديد. وإذا كان تحقيق هذا المشروع قد بدا صعباً، فإنّ الضغط الإعلامي هو واحدٌ من الضغوط الممارسة على سوريا كي تسحب دعمها للمقاومات: العراقية، اللبنانية والفلسطينية، وتلغي تحالفها مع إيران.

وتقدّم الأزمة اللبنانية مثالاً واضحاً للاشتباك بين المُعَسكرين، حيثُ جاءت عملية اغتيال رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري، رجل السعودية القويّ، لتؤجّج الصراع ومعه خطاب القناة. ولينقسم البلد بين مُعسكرين: «جماعة ٨ آذار» التي تضُمّ الأحزاب السياسيّة المُتحالفة مع حزب الله وسوريا؛ وجماعة «١٤ آذار» الذي يضم أحزاباً وفصائل موالية للأمريكيين وللسعودية ومُعادية لسوريا.

(١٧٧) المصدر نفسه.

(١٧٨) محمد مجاهد، «التقرير الأمريكي،» المجموعة الذكية (١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦)، <http://sabraeng.com/vb/showthread.php?t=4489>.

وضعت العربية نفسها في خدمة الفريق الثاني. ومضت حد بثّ حلقاتٍ وثائقية عن سمير جعجع قائد القوات اللبنانية، والعدو الشرس لسوريا، المعروف أنّه الأكثر تطرُّفاً بين الأطراف اللبنانية والمُتّهم بالتعاون مع إسرائيل خلال الحرب الأهليّة، قدمته كضحية ومظلوم. غير أن الهجوم الإعلامي بلغ ذروته عام ٢٠٠٦، مع المقابلة التي أُجريت مع عبد الحليم خدام في باريس. ويقول حسين فيّاض، مراسل العربية في العاصمة الفرنسيّة، إنّ الأسئلة أُرسلت إليهِ من دبي ولم يُسمح له بتغيير كلمةٍ واحدةٍ فيها؛ في حين يقول عبد الرحمن الراشد إن المسألة جاءت صدفة، وإنه كان في إجازة عندما تم إبلاغه بالمُقابلة[١٧٩]. أمّا النقطةُ الرئيسة في كُلّ الحديث فكانت اتّهام خدّام لنظام دمشق باغتيال الحريري.

٣ ـ مدى النجاح والتطورات

في نهاية عام ٢٠٠٦، أعطى استطلاع رأي لمؤسسة الزعبي وجامعة ميريلاند للعربية مستوى مشاهدة بنسبة ٦٢ بالمئة في الأردن، ٦٦ بالمئة في مصر و ٤٤ بالمئة في العربية السعودية. وإذا كان اختيار الاستطلاع مُحدّدٌ بثلاث دول من دول الاعتدال، ما يجعل نتيجتَهُ منقوصة الموضوعيّة، فإنّ ذلك لا يُلغي واقع أنّ القناة قد نجحت في اكتساب قطاعٍ كبيرٍ من الجمهور. ما يعود لعدّة عوامل:

أ ـ اتساع نطاق التغطية والشبكة الكبيرة من المراسلين عبر العالم. ما كان يُميّز الجزيرة.

ب ـ الحاجة لصوت ثانٍ إلى جانب الجزيرة، خصوصاً بعد إضعاف قناة أبو ظبي، التي كانت استطلاعات الرأي تعطيها حتى عام ٢٠٠٣، مرتبةً مُساويةً لأُختها القطرية أمام إم بي سي.

ج ـ التنوع الذي يتعدّى الأخبار السياسية، وذاك ما تفتقر إليه الجزيرة المُتّهمةُ بجفاف خطابها.

د ـ المهنيّة وتطور العناصر التقنية والجمالية.

(١٧٩) مقابلة شخصية مع حسين فياض في باريس، أيار/ مايو ٢٠٠٨، ومقابلة مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

هـ ـ التنوع الذي يسمح به التناول الليبرالي لبعض المواضيع الاجتماعية والدينية، إلى جانب الخطاب المُحافظ. ويلتقي وجها الخطاب هذان في السياسة، ضدّ ثقافة المُقاومةِ والجهاد. ولا يؤثّر كثيراً في شعبية القناة كون هذا الطابع يرتبط بالسياسة الأمريكية وبأهدافها في المنطقة. ذاك أنّ المشاهد المُحافظ يجد مساحتهُ فيها مثلُهُ مثل الليبرالي المُعادي للأصوليّة، والمُسيّس يعتقدُ أنّهُ قادرٌ على التمييز والاختيار، وبخاصّة أن الجزيرة تذهب أكثر فأكثر باتجاه الأسلمة. والواقع أنّ الكثير من المشاهدين موزعٌ بين التقارب السياسي مع خطاب الجزيرة والرفض الاجتماعي له، والعكس بالعكس بالنسبة إلى العربية. ليظلّ غيابُ قناة ثالثة أكثرُ توازناً وعلى المستوى ذاته من المهنيّة هو ما ينقص الساحة الإعلاميّة. من جهة ثانية، إنّ كون العربية تُترجم السياسات الأمريكية والسعودية يجعلها مفضّلة لدى حكومات «الاعتدال». كما يجعلُ منها طرفاً في المعارك الداخليّة التي تُترجم الصراع بين هذه الخط ومُعارضيه. في المقابل القناة مرفوضةٌ من الأنظمة والقوى المسماة مقاومة أو مُمانعة. أمّا النظام العربي الذي يُشكّل الهدف الرئيس للعربية فهو النظام السوري إضافة إلى المعارضة اللبنانية الحليفة لسوريا. ثم يأتي النظام السوداني، الإسلاميون عُموماً، وبخاصّةٍ حماس وحزب الله (وهنا يتساوى السنّة والشيعة). مما يزيد من شعبيتها لدى معارضي هذا المحور.

في عام ٢٠٠٨، بدا أنّ القناة تتّجه بهدوء نحو التحوّل إلى قناة اقتصادية، ومزيدٍ من المُنوّعات بحيثُ إنّ الصحافيّين العاملين فيها أبدوا قلقهم من «التراجع في مجال البرامج السياسيّة والإخباريّة ومُقاربةِ الحياة اليوميّة عبر برامج المُنوّعات ما يُشكّل تنكراً للهدف الرئيس لإنشائها: المنافسة في حقل البرامج الإخباريّة السياسيّة»[١٨٠]، ما أثار تساؤلاتٍ في الأوساط الإعلاميّة والسياسيّة عمّا إذا كان هذا التحوّل مُرتبطاً بطبيعة الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، التي تقتضي الانتقال من دور كان مطلوباً خلال حرب احتلال العراق إلى دورٍ ينسجم مع مُتطلّبات هذا الاحتلال ومن ثَمّ، مع التحضير للانسحاب العسكري وتدعيم الوجود الاقتصادي والسياسي؟

ذاك إلى جانبِ تساؤلاتٍ أخرى حول صُعود جناح الملك عبد الله بن

(١٨٠) خالد عمر بن ككّا، في: **الخليج** (الشارقة)، ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٨.

عبد العزيز في العائلة السعودية، وما يقتضيه من تحديد نفوذ السديريين في حقل الأخبار السياسية، ما طرح سؤالاً آخر: هل سوف نشهد ولادة قناة سعودية جديدة عبر مجموعة الوليد بن طلال أو أمير آخر؟

أم أنّها مُدة السنوات الخمس التي ذُكرت في التقرير الأمريكي الشهير، على اعتبار أنّ مدّة صدقية قناةٍ تلفزيونيّة عند الجمهور العربي هي خمس سنوات؟ في حين أنّ صدقية الصحافة المكتوبة والراديو تدوم أكثر؟ وعليه وُضِع التمويل أساساً لمدّة خمسِ سنوات. وهذا ما يؤيّده بيار الضاهر، مدير إل بي سي الذي يرى أنّ تحوّل السمعي ـ البصري في العالم العربي يتبع دورة السنوات الخمس، والدليل أنّ إم بي سي أُطلقت عام ١٩٩١، بعد إطلاق إل بي سي الدولية وتلفزيون المستقبل عام ١٩٩٦، وأنّ التغييرات والقنوات المختصّة ضمن مجموعة إم بي سي جاءت عام ٢٠٠٢ وتلتها العربية[١٨١].

مصادفة؟ دورة؟ أم استراتيجية؟

لم يذكر مدير القناة اللبنانية الجزيرة في هذا التتابع، على الرغم من أنّ عنوان المُقابلة التي قال فيها ذلك هو «نحن مستعدون لشراء الجزيرة». وعندما اشترى روبيرت مردوخ ٢٠ بالمئة من أسهم إل بي سي الدولية عام ٢٠٠٩، طُرحت تساؤلات عن المقصود بكلمة نحن، فضلاً على مستقبل القنوات الفضائية في العالم العربي.

غير أنّ التطوّرات التي تتابعت بعد ذلك أجابت عن بعض التساؤلات وأجّلت الكثير منها؛ فتداعيات الثورات العربيّة المُتتالية صرفت النظر في الوقت الحالي عن تحويل العربيّة عن دورها الإخباري السياسي، بل إنّها، وعلى العكس من ذلك، عزّزت من هذا الدور في جوٍّ بدت فيه الثوراتُ إعلاميّةً أكثر من أيّ شيءٍ آخر، وبدت فيه الفضائيّات الذراع الأقوى لأي طرفٍ يريد التأثير فيها.

أمّا إطلاقُ قناةٍ إخباريّةٍ أخرى، فقد جاء الجواب عليه عبر إطلاق (Sky News) العربيّة.

(١٨١) «بيار الضاهر لا يستبعد التقدم لشراء قناة «الجزيرة» إذا طرحت للبيع».

Riyad Nassar Library

الفصل الثامن

المحطات اللبنانية والتداخل الإقليمي المحلي:
تاريخ من التعقيدات وعدم الثقة:
المنار قناة ذات خصوصية

تمهيد

مساحتهُ ١٠٤٢٥ كم^{٢}، أمّا سُكّانه فـ ٤ ملايين مُقيمون وأكثر من ٦ ملايين مُهاجر. ليست هذه الخصوصيّة الوحيدة للديموغرافيا اللبنانيّة، إذ إنّها تتوزّع على ١٨ طائفة. وبحسب الميثاق الوطني تتوزّع المناصب الرئيسة في البلاد على الطوائف الرئيسة، ما جعل البلد محكوماً بترويكا من الرؤساء تُمثِّلُ المسيحيّين والسنّة والشيعة. وقد تلازم الميثاق الوطني مع الدستور مُنذ الاستقلال عام ١٩٤٦، أمّا الحُدود فرُسمت تنفيذاً لمعاهدة سايكس ـ بيكو في نهاية الحرب العالميّة الأولى.

وكان جبل لبنان قد شكّل في نهاية المرحلةِ العثمانيّة ممرّ الأوروبيّين إلى إرث الرجل المريض عبر معاهدة الامتيازات الأجنبية التي عُقدت عام ١٨٤٥ تحت غطاء حماية كُلّ دولةٍ أوروبيّة لإحدى الطوائف اللبنانيّة: فرنسا والموارنة، بريطانيا والدروز وروسيا والأورثوذكس؛ أمّا السنّة، سُكّان المُدن، فكانوا يُعتبرون مواطني الإمبراطوريّة، في حين تُرِك شيعة جبل عامل لشأنهم. من هُنا لم تكن مشكلة لبنان يوماً في التعدّديّة وإنّما في النظام الطائفي الذي يُغذّيه القلق وانعدام الثقة، كما يُغذّي ارتباطه بمصالح القوى الأجنبيّة، وذلك عبر زُعماء إقطاعيّين يتوارثون السلطة. والنتيجة ثلاثةُ حُروبٍ أهليّة، أوّلها عام ١٨٤٥ وآخرها عام ١٩٧٥.

قرنٌ ونصف ولبنان يُشكّل ساحة تصفيةِ حساباتٍ بين القوى الدوليّة، الإقليميّة والعربيّة.

غير أنّهُ من ناحيةٍ ثانية، ولهذه الاعتبارات، شكّل منذ استقلاله الديمقراطيّة التوافقيّة الوحيدة في العالم العربي التي يتمّ فيها تداول السلطة دوريّاً في إطار نظامٍ جمهوري يضمن حريّة العمل السياسي كما يضمن حريّة الصحافة.

أولاً: صورة بلد قائم على التوزيع الطائفي

تُشكّل الساحة اللبنانية نموذجاً ممتازاً لتقاطع الإقليمي بالمحلي، فإذا كانت القوى المتنافسة على الزعامة في المنطقة الإقليمية حالياً هي إسرائيل (ومعها خط لبنانيّ مُحدّد)، السعودية (ومعها خط لبناني مُحدّد)، وإيران (ومعها سوريا وخط لبناني مُحدّد)؛ فإن هذه الخريطة المتشابكة تترجم عبر وسائل الإعلام على اختلافها، من دون أن يلغي ذلك بقاء بعض الوسائل التي تحاول أن تحافظ على استقلاليةٍ عن كل هؤلاء، إذ تحافظ على إرث القوى السياسية والفكرية الأخرى التي كانت يوماً سيدة الساحة، لكنها انحسرت لصالح الشبكة المذكورة، مع تمكن البعض منها أن يحافظ على استمراريته من مثل تلفزيون الجديد أو صحف عديدة من أبرزها **السفير** أو **النهار** أو **الديار**.

شبكة معقدة لا تكمن خطورتها في التعدد، وإنما في النظام السياسي الذي أقيم على أساس التوازن الطائفي وعلى قاعدة حذر وعدم ثقة من قبل الجميع يتم تغذيتهما باستمرار. إذ إن مصالح القوى العربية والإقليمية والأجنبية تلتقي مع مصالح الزعماء السياسيين ـ الإقطاعيين ـ والطائفيين في الحفاظ على هذا الحذر، والنتيجة ثلاثة حروب أهلية كانت حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٨٩، أخيرتها، وقد لا تكون آخرها، واحتلال إسرائيلي دام حوالى ثلاثين سنة وبدلاً من أن ينتهي بالتحرير، فقد استكمل بحرب تموز/ يوليو الأخيرة ولا ندري ما الذي سيليها.

متابعة توزُّع وسائل الإعلام من مكتوب ومسموع ومرئي، تقتضي مراجعة تبدأ من بداية القرن، وذاك ما لا يتسع له هذا البحث، ولذلك نبدأ من الوضع عشية الحرب الأهلية.

هكذا تتحدّد مراحل البحث بأربع: اثنتان تنتميان إلى الحرب الأهليّة،

واثنتان إلى ما بعدها: انقسام الدولة ووسائل إعلامها، الاحتلال الإسرائيلي وفسيفساء الفصائل ووسائل الإعلام، نهاية الحرب في اتّفاق الطائف وقانون تنظيم الإعلام، العبور إلى مرحلة الفضائيّات. الحرب وما بعد الحرب.

١ ـ عشيّة الحرب الأهلية: الوضع السياسي والإعلامي

أ ـ الوضع السياسي

في بداية السبعينيات كانت المنطقة تعيش أحداثاً كبرى وخطيرة.

ففي الأردن اندلعت المواجهة بين الفدائيين والجيش الأردني، ما أدى إلى انتقال منظمة التحرير إلى بيروت حيث لم يلبث أن نشأ تحالف بين هذه المنظمة وبين الأحزاب القومية وأحزاب اليسار اللبناني، علماً أن المنظمة نفسها تتشكّل من تحالف تنظيمات يُمثّل كُلٌّ منها تياراً أو حزباً سياسياً عربياً، ما يجعله مرتبطاً بهذه الدولة العربية أو تلك، وينطبق ذلك على الأحزاب اللبنانيّة.

في جنوب لبنان ذي الغالبيّة الشيعيّة، الذي تحتلّ إسرائيل جزءاً منه، ويشهد الجزء الآخر منه غارات إسرائيليّة شبه يوميّة منذ ٢٥ عاماً، في حين تتخلّى عنه الدولة بشكل كامل، رحّب الناس بشدّة بالمُقاتلين الفلسطينيين الذين استقرّوا هناك في أقرب مكان من الحُدود مع إسرائيل. وكان سكّان الجنوب يعيشون قهراً مُزدوجاً: القهر الإسرائيلي من جهة، وغياب العدالة الاجتماعيّة والسياسيّة من جهة أخرى، بينما تقتسم السلطات السياسيّة الرئيسة في البلاد طائفتان هُما الموارنة والسنّة. هكذا «يُثوّر» الجنوب بفعل القادم الجديد وبفعل الأحزاب والقِوى التي تنشط في العاصمة وسائر المناطق دعماً للمُقاومة.

في عام ١٩٧٣، ينتظم الجميع في «جبهة القوى الوطنية والتقدّمية» بزعامة كمال جنبلاط.

داخل هذا التحالف كان هناك ثمة تضامن خفيّ بين المنظمة وتيارات اليسار والقوميين العرب والقوميين السوريين بشكل عام، ولكن بين فتح وسنّة بيروت بشكل خاص.

بالطبع لم تكن إسرائيل تريد بأي ثمن أن توجد المنظمات الفلسطينية ومعها المقاتلون اللبنانيون على طول حدودها مع لبنان، كما لم تكن تريد أن

تتشجّع جماهير الجنوب وتتحرّك ضد احتلالها. كذلك لا يُمكِنها أن تقبل نمو جبهة الأحزاب والقوى القوميّة والتقدميّة ذات الأغلبية العلمانيّة في لبنان، وبخاصّة أنّ هذه الجبهة تجتذب المُناضلين من مُثقّفين وكُتّاب وسياسيين من مختلف المعارضات ودعاة التغيير في العالم العربي، حيث إن لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي يتمتع بحرّيّة التعبير وحرّيّة العمل السياسي. كذلك تشعر الأحزاب السياسية المارونية (والطائفيّة الأخرى) بأنها مُهدّدة بهذا التطور. لذلك، تُجدّد تحالفاتها مع إسرائيل؛ كتائب بيار جميل، نمور كميل شمعون، ومردة سليمان فرنجية. كل يشكّل مليشيا مسلّحة، وإسرائيل تقدم التدريب والتسليح. وفي عام ١٩٧٣، يتوّحد هؤلاء في ما يُطلق عليه «الجبهة اللبنانيّة».

أمّا الأنظمة العربية فهي تتمنّى، مثلها مثل إسرائيل و«الجبهة اللبنانيّة»، التخلص من مساحة الحريّة هذه التي تجمع كلّ المُعارضين. كما تتمنّى التخلص من قوى منظمة التحرير الفلسطينيّة ولجم تصاعد تيّارات الرفض.

هكذا تجتمع شروط الحرب الأهليّة. تبدأ المُناوشات ثمّ تتصاعد لتندلع الحرب عام ١٩٧٥.

في عام ١٩٧٦، يؤسّس بشير الجميل القوات اللبنانية التي تسحب البساط تدريجياً من تحت المليشيات المسيحية الأخرى كافة، أما الذين يرفضون فيتعرضون إلى مجازر قاسية[١].

تحدّد القوات اللبنانيّة نفسها بـ «ناتج المُنافسات والظّروف»[٢]، وتُعلِن أنّه «لا يُمكن للنظام السياسي إلا أن يكون انعكاساً للواقع التاريخي - السياسي - الثقافي للطوائف التي يمثّلها؛ على صورة الواقع اللبناني، ويتوجّب على هذا النظام أن يكون نظاماً تعددياً، بل ومتعدداً»[٣].

مع العودة إلى «علاقات قوية وسلميّة بين لبنان وجيرانه»[٤]، ما تُرجم

---

(١) من أشهرها مجزرة «الصفرة» ضد الوطنيين الأحرار و«إهدن» ضد طوني فرنجيّة، حيث قتل الزعيم الماروني المُنافس مع زوجته وابنته وبضع عشرات من أنصاره. وأخيراً عملية اغتيال داني شمعون مع أسرته.

(٢) انظر تعريفاً للقوات اللبنانية على الموقع الرسمي للقوّات اللبنانيّة: <http://www.lebanese-forces.com>.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

سياسياً بدعوة إلى تقسيم البلاد واعتبر فيه أن كلمة الجيران تعني إسرائيل أكثر مما تعني الدول العربية. في الصّف الآخر كانت الأحزاب السياسيّة على اختلافها تتجمّع داخل «جبهة القوى القومية والتقدمية».

وهكذا سارت الحرب من مواجهة بين خطين، أحدهما طائفي ماروني (وحوله بعض المسيحيين من الطوائف الأخرى)، وخط مكون من تحالف القوى القومية والتقدمية والمقاومة الفلسطينية، إلى مواجهات بين قوى طائفية على اختلافها تمثّل كل منها إحدى الطوائف، في تشظٍّ عنقودي لم يلبث أن طال الطوائف نفسها بحيث انقسمت كل منها معسكرات؛ في حين بهت صوت القوى القومية واليسارية العلمانية، وكثيراً ما التحق بعضها أو بعض عناصرها بالقوى القائمة، وبخاصة مع تكريس الطائفية باتفاق الطائف، ودخول قوة المال السعودي مع رفيق الحريري. وإذا كان الاجتياح الإسرائيلي قد فعّل ضرورة المقاومة، وأفسح المجال لهذه الأحزاب باستعادة دورها، عبرها، فإن المقاومة نفسها لم تلبث أن تحولت إلى هيمنة الخط الديني، حتى لو كان حزب الله قد تطور كثيراً مع قيادة حسن نصر الله باتجاه غير طائفي. ليأتي التحرير فيكرس الحزب، لكن لتأتي ١١ أيلول/سبتمبر، فتُعقّد دوره، ومن ثم ليأتي احتلال العراق فيلغي الحاجة الأمريكية إلى سوريا مؤقتاً. (نقول مؤقتاً لأن اندلاع المقاومة العراقية حول هذه الحاجة إلى حاجة للضغط على دمشق كي تساعد على تحجيم المقاومة). هنا جاء اغتيال الحريري كاغتيال الدوق برنادوت، فخرج السوريون، وظهر تحالف قوي مرتبط بالأمريكيين؛ في البداية بدا أن هذا التحالف سيقلب الحكم بسرعة ليقدم للمشروع الأمريكي نجاحاً في لبنان لم يحققه في العراق. نجاح أهميته في أنه يساعد على صيد ثلاثة عصافير بحجر: العراق فلسطين وسوريا. غير أن الأمور آلت إلى اصطفاف جديد كلياً، تجاوز الفرز الطائفي إلى فرز سياسي بين جبهة المؤيدين للمشروع الأمريكي والمرتبطين بالسعودية ودول الاعتدال، وجبهة الممانعين التي يرتبط جزء منها بسوريا وإيران؛ في حين يقف الجزء الآخر محايداً متمسكاً بالسيادة. ولم يكن من شأن عدوان تموز/يوليو ٢٠٠٦، الذي شنته إسرائيل هذه المرة بالنيابة عن واشنطن وليس لحساب تل أبيب فحسب، أن يغيّر شيئاً في واقع الاصطفاف، بل عمّقه، ليبلغ أقصى تعقيداته مع معركة الرئاسة الأولى لـ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧.

Riyad Nassar Library

يحصل هذا في الوقت الذي تتركز الخطة الأمريكية ـ الصهيونية فيه على تفعيل الصراع السني ـ الشيعي في المنطقة ومدّه خارج العراق، ما شكّل سبباً أساسياً من أسباب أحداث مخيم نهر البارد الأخيرة.

ب ـ الوضع الإعلامي

الإعلام اللبناني ترجم من جهته كل هذه التطورات وهذه الخريطة المعقدة، بدءاً من الصحافة المكتوبة وتبعيتها التمويلية للجهات العربية المختلفة؛ في حين ظلت مؤسستا الإذاعة والتلفزيون موحّدتين ومُستقلّتين نسبياً، ذاك أنهما مؤسستين شبه حكوميتين (ما لم يمنع الإذاعة من أن تنقسم إلى اثنتين خلال الحرب الأهلية عام ١٩٥٨ لتعود فتتوحّد مع نهايتها)؛ فتلفزيون لبنان هو التلفزيون الوحيد في البلد حتى عام ١٩٨٥ تاريخ إنشاء الـ إل بي سي (LBC)، ورسمياً حتى ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦، تاريخ موافقة مجلس الوزراء على السماح بمحطات أخرى. كانت فكرة إنشاء قناة تلفزيون تعود إلى الخمسينيات وإلى عدد من رجال الأعمال اللبنانيين حيث رأى المشروع النور عام ١٩٥٧ تحت اسم «الشركة اللبنانية للتلفزيون» التي أطلقت بثها الأول يوم ٢٨ أيار/ مايو ١٩٥٩، على القناتين ٧ و٩، الأولى باللغة العربية والثانية باللغة الفرنسية. بعد ذلك بثلاث سنوات تشكلت شركة تلفزيون لبنان والمشرق وبدأت بثها يوم ٦ أيار/ مايو ١٩٦٢. ظلت الشركتان تتنافسان حتى عام ١٩٦٨، عندما قررتا التعاون في مجال الإعلام تحت ضغط العجز المالي الذي وقعتا فيه. وفي ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧ كان تلفزيون لبنان من بين ١٥ بلداً الأولى في البث بالألوان «سيكام».

٢ ـ الحرب الأهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٨): أطرافها وآثارها على وسائل الإعلام: انقسام الدولة ووسائل الإعلام

أ ـ اللاعبون المحليون والتدخلات العربية والإقليمية: إسرائيل، الدول العربية وإيران

إذا كان طرفا الحرب الأهلية هم اللبنانيّون في ما بينهم والفلسطينيّون، فإن الذين يُمسكون بخيوطها هم كُثر: إسرائيل، الدول العربية والقوى الدوليّة. وقد وسمت عناصر مهمّة تطوّر هذه التدخلات التي تتراوح بين التدخل السرّي،

اللوجستي والمالي والتدخل المُباشر، الدبلوماسي وحتى العسكري.

حاولت الجامعة العربية أن تضبط الوضع بإرسال القوّات العربيّة عام ١٩٧٦، لكنّ ذلك ذهب عبثاً؛ في نهاية العام نفسه، أصبحت الجبهة المارونيّة في وضع خطير، فطلبت المُساعدة من سوريا. وكان للرئيس السوري حافظ الأسد رؤية خاصة تتعلّق بحفظ التوازن في لبنان، كما كانت له حِساباته مع ياسر عرفات ومع الآثار التي يُمكن أن يتركها انتصار جبهة الأحزاب والقوى الوطنية والتقدميّة في لبنان. لذلك ما إن طلبت الحكومة اللبنانيّة رسميّاً تدخّل الجيش السوري، حتّى أقرّته الجامعة العربيّة، ولبّته سوريا.

غير أنّ السوريّين الذين بات جيشهم على الأرض اللبنانيّة ليسوا الوحيدين، فإسرائيل لا تتقبّل هذا الوجود السوري ولا وجود منظّمة التحرير التي أصبح استئصالها من لبنان هدفاً أوّل لإسرائيل؛ في حزيران/ يونيو ١٩٨٢، يجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان حتى العاصمة، تُرحّل منظّمة التحرير، وفي عام ١٩٨٥، ينسحب شاحال جزئياً. بعد أن كانت المُقاومة قد اندلعت منذ الأشهر الأولى للاحتلال مدعومة من سوريا ومن ثمّ من إيران، دعماً تصاعد بعد نهاية حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨)، واستمرّ بعد الثانية (١٩٩١)، ما رسم خطّين مُتوازيين للنفوذ الإقليمي في لبنان: خط إسرائيل ـ القوّات اللبنانيّة، وخط إيران ـ سوريا ـ حزب الله، ما تُرجم إعلامياً بصوتين (LBC والمنار). وكما حصل على الساحة السياسية، حيث انحسرت القوى القوميّة والتقدّميّة وراء حزب الله وتقدّمت المكوّنات الطائفيّة في المُعسكرين، كذلك حصل في الإعلام خاصة السمعي ـ البصري. كان على البلاد أن تنتظر التدخل الدبلوماسي العربي السعودي عام ١٩٨٨، الذي أفضى إلى اتفاقيّة الطائف ووضع الملياردير اللبناني ـ السعودي رفيق الحريري رئيساً للوزراء. أنشأ الحريري تلفزيون المُستقبل مُدخِلاً البلاد إلى عصر الفضائيّات.

ب ـ انقسام الدولة وتلفزيوناتها

الحرب الأهلية فجّرت الدولة ومعها كل مؤسساتها، بداية بين معسكرين، ومن ثَم إلى فئات داخل كلّ منها. هكذا أصبحت وسائل الإعلام وبخاصة السمعي ـ البصري منها، تعكس خريطة تطور هذا التفجر العنقودي.

معسكران كانا يقتسمان البلد: المارونيّة السياسيّة ـ الطائفيّة، والمُمثّلة

سياسياً بـ «الجبهة اللبنانيّة» وعسكرياً بـ «القوّات اللبنانيّة»، وفي الصفّ الآخر تحالف اليسار: القوميّون العلمانيّون التقدّميّون والمُقاومة الفلسطينية المُمثَّلة رسمياً بجبهة الأحزاب والقوى التقدّميّة والوطنيّة، وعسكريّاً بميليشيات تابعة بدورها لكل من هذه الأحزاب والمُنظّمات مع قيادة مُوَحّدة أحياناً. لكن هذه الثنائية لم تلبث أن تحولت تدريجياً إلى فئويات متعددة داخل كل من الجبهتين غالباً ما تشكّلت وفق الحساسيات الطائفية أو الحزبية أو الإقليمية. وفي كل مرحلة كانت المحطات الإذاعية والتلفزيونية تُجسّد الوضع. وبخاصّة أنّ الوضع الأمني كان يحول دون إمكانية توزيع واسع للصحافة المكتوبة، والتي لم تلبث أن بدأت بالهجرة. وفي البداية، خلال «حرب السنتين» (١٩٧٦ ـ ١٩٧٨)، انقسم تلفزيون الدولة إلى محطتين، واحدة تبث من بيروت الغربية وواحدة من بيروت الشرقية، ومنذ الأيّام الأولى من الحرب (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) كانت المحطّتان تعانيان صعوبات مالية ولوجيستية قاسية حيث استطاعتا الحفاظ على القدرات التقنية ولكن من دون الإنتاج بخاصة مع انخفاض مردود الإعلان.

في عام ١٩٧٦، جاء انقلاب الجنرال الأحدب ليؤدي إلى انقسام الجيش إلى اثنين. وإذا بكل فصيل منه يسيطر على قناة وبذا توقف التعاون الذي كان قائماً بين المحطتين في مجال الأخبار لكنه استمر في مجال برامج التسلية علماً أن البرامج في الاثنين قد شهدت تراجعاً بسبب تراجع قدراتها واستحالة تقديم الدعم اللازم الذي أصبح متقطعاً وغير كافٍ.

في عام ١٩٧٧، انتُخب الرئيس إلياس سركيس، وعلّق اللبنانيون على ذلك آمالاً بنهاية الحرب. في ما يخص السمعي ـ البصري، واجهت الحكومة الجديدة مشكلة، بعد أن فشلت في إعادة توحيد المحطتين: إذا لم تدعمهما مالياً يصبح البلد من دون بث تلفزيوني ولذلك تم تشكيل لجنة خاصة لدراسة الوضع المالي للتلفزيون كما كُلِّفت هذه اللجنة بتقديم مقترحات حول دور التلفزيون في مرحلة ما بعد الحرب؛ فقدمت تقريراً يحثّ الحكومة على تأدية دور أكثر فاعلية في مشروع تطوير التلفزيون، وبإنشاء شركة جديدة موحدة تحلّ محلّ «القناة اللبنانية للتلفزيون وتلفزيون الشرق» تمتلك الحكومة ٥٠ في المئة من أسهمها.

بناءً على ذلك، صدر في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧، مرسوم

تشريعي بإنشاء تلفزيون لبنان. وامتلكت الدولة ٥٠ في المئة من أسهمه، في حين وزعت الـ٥٠ في المئة الأخرى على الشركتين السابقتين.

هكذا تحقق دمج الشركتين في واحدة مختلطة، عامة وخاصة، حيثُ بقيت على ساحة السوق التلفزيوني لمدة عشر سنوات. كانت تبث خلالها على ثلاث قنوات الأولى والثانية والثالثة، تتوجّه كل منها إلى جمهور محدّد عبر تنويع في البرامج: التربوية، الثقافية، برامج التسلية بحسب اختلاف الأذواق والأعمال والجنس. إضافة إلى ذلك كان تلفزيون لبنان هو الوحيد الذي ينتج برامج محلية، مُشكّلاً بذلك أحد المُصدّرين الرئيسين للبرامج إلى البلاد العربية الأخرى، غير أنّ الحرب لم توفّره[٥]، وعلى الرغم من أنّ الرئيس إلياس سركيس، حاول جاهداً إعادة توحيد الإعلام الرسمي (السمعيّ ـ البصريّ) في عام ١٩٧٧ من دون جدوى، بل على العكس من ذلك ازداد التشظّي وأصبح البثّ التلفزيونيّ الذي كان ينطلق قبل الحرب من محطّتين ينطلق الآن من عدد من المحطات تُمثّل كلٌّ منها ميليشيا أو طائفة معيّنة أو حتى مركزاً من مراكز السلطة، فيما هو بعيد جداً عمّا يحبّ البعض أن يصفه بأنّه انعكاس لحريّة التعبير في لبنان.

ج ـ الاحتلال الإسرائيلي ثمّ الانسحاب: ميليشيات مُسلّحة وميليشيات تلفزيونيّة

في عام ١٩٨٢، اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان ووصل إلى العاصمة بيروت في ما اعتُبِر انتصاراً للقوات اللبنانيّة وهزيمة للمعسكر المُواجِه خاصة منظمة التحرير الفلسطينيّة، حيث اضطرت هذه الأخيرة إلى مغادرة لبنان بعد أن سلّم مُقاتلوها أسلحتهم لحلفائهم اللبنانيين. وانتُخب بشير الجميّل (٣٣ سنة) رئيساً للجمهوريّة تحت حراسة مُجنزرات جيش الدفاع الإسرائيلي (شاحال). غير أن الرئيس الشاب فاجأ الجميع بإعلان مُطالبته «من جميع القوّات الأجنبيّة بمغادرة لبنان»، ودعوته إلى تشكيل «حكومة قادرة على توحيد الشعب»[٦].

(٥) Anis Moussallem, «La Radio et la télévision au Liban,» <http://www.opuslibani.org.lb/liban/dos0026.htm>.

(٦) انظر خطاب بشير الجميّل في توليه الرئاسة، «Bachir Gemayel the Dream»: <http://www.bachirforces.com/bf/Videos.html>.

إلى أي حدّ كان صادقاً؟ هل كان قادراً على ذلك؟ هل كان بإمكانه التصدّي للنفوذ الإسرائيلي الذي بات يُمارَس مُباشرة داخل البلد؟ أن يُقنع الشعب بشعار الـ «١٠٤٥٢ كلم مربّع» الذي أطلقه والذي كان يعني ضمناً تحرير الجنوب اللبناني؟ هل كان ذلك من أسباب اغتياله؟ أم أنّ المجازر التي حملها على كاهله خلال الحرب كانت كافية لتكون سبباً؟ أسئلة تظلّ إجاباتها مدفونة تحت أنقاض مقرّه العام في الأشرفيّة.

ذهب بشير، ليحُلّ محلّه أخوه مُنتهجاً سياسة توافقية. الإسرائيليّون لا يزالون في البلد، وفي ١٧ أيّار/ مايو ١٩٨٣، توقّع الحكومة اللبنانيّة اتّفاقاً مع إسرائيل برعاية أمريكيّة، اتّفاقاً يرفضه غالبيّة اللبنانيّين مدعومة من سوريا، ويصفه جورج قرم بـ «انتصار دبلوماسي لِقِصَر النظر الأمريكي»(٧) مُحلّلاً الفارق الجوهري بين مصر كامب ديفيد ولبنان الذي يصفه بـ «بلد التوازنات والتوافقات الذي لا يُمكن أن يُحكم إلا من الوسط»(٨). هذا إضافة إلى أنّ كامب ديفيد جاءت عقب انتصار عسكري، في ما عُقدت اتفاقيّة ١٧ أيّار/ مايو تحت الاحتلال.

من هنا قرّرت القوّات اللبنانيّة خوض مُغامرة مجنونة: الذهاب إلى الشوف، الجبل ذي الأكثريّة الدرزيّة، وهي منطقة ظلّت هادئة طوال الحرب وظلّت القُرى المسيحيّة التي تعيش فيها بأمان.

إسرائيل استفادت من الوضع وراحت تسلّح الاثنين: الميليشيات الدرزيّة والميليشيات المارونيّة في إطار منطق يحلّله جورج قرم مرّة أخرى بقوله: «إنّ التعصّب الطائفي لا يُسيء إسرائيل أبداً، أولاً لأنّه يكسر المطلب العربي الخطير على وجود الدولة العبريّة أي مطلب القوميّة العلمانيّة. وثانياً لأنّه يجزّئ أكثر فأكثر لبنان ويهدد بقيّة الدول العربية. وفي المُقابل، كيف يمكن رفض دولة يهودية إذا تم تشكيل دولة طائفيّة في الشرق الأوسط؟»(٩).

في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، انسحب الجيش الإسرائيلي واستطاعت الميليشيات الدرزيّة أن تكنس الميليشيات المارونيّة خلال ثلاثة أيام فقط، فبادر الجيش اللبناني إلى التدخّل لضبط الوضع وخوفاً من أن تصل تلك

(٧) Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté*, Folio. Histoire; 30 (Paris: Gallimard, 1991), p. 276.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

الميليشيات إلى القصر الرئاسي، كذلك كانت مدفعيّة الأسطول الأمريكي تقصف من البحر.

غير أن العنصر الجديد هنا كان انطلاق المقاومة. وفي حين كان الجميع ينتظر انسحاب الجيش المُحتلّ بعد أن أُلغي اتّفاق ١٧ أيّار/ مايو، وأخذت إسرائيل بالفعل تُنفّذ انسحابها على مراحل ما بين ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، كانت كل ميليشيا تعمل على تدعيم وضعها بانتظار ما بعد الحرب. وكان أحد وجوه هذا التدعيم يمر عبر تثبيت الوجود الإعلامي والبروباغاندا.

وإذ كان اللاعبون المحليون والعرب والإقليميون في هذه الحرب يعملون على تأكيد وجودهم عبر الميليشيات، فإنهم إنّما كانوا يفعلون ذلك أيضاً عبر الصحافة المكتوبة والمسموعة وعبر المحطات التلفزيونية التي أخذت تنمو كالفطريات. وفي غياب سلطة الدولة، تفرض نفسها كأمر واقع من دون أي إذن قانوني «تلفزيونات حواجز»(١٠)، بحسب تعبير رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري. استمرّت الفوضى في إنشاء المحطّات عشر سنوات كانت المُعسكرات فيها تتجزأ كقنبلة عنقودية ومثلها أذرعها الإعلاميّة، وعندما حصل الاجتياح الإسرائيلي، عام ١٩٨٢، الذي آل إلى الانسحاب، حصل الانتقال من الميليشيات المسلحة إلى الميليشيات التلفزيونية؛ ففي حين كان الجميع ينتظر انسحاب الجيش المحتل بعد أن ألغي اتفاق ١٧ أيار/ مايو، وأخذت إسرائيل بالفعل تنفّذ انسحابها على مراحل بين عامي ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، كانت كل مليشيا تعمل على تدعيم وضعها بانتظار ما بعد الاحتلال. وكان أحد وجوه هذا التدعيم يمر عبر تثبيت الوجود الإعلامي والبروباغندا... وإذا كانت الدولة قد عملت بعدئذ على تنظيم الإعلام قانونياً، كما سنرى، فإن ذلك لم يغيّر شيئاً في أمر «الميليشيات التلفزيونية» التي لا يخفى تصنيفها على أي طفل لبناني أو حتى عربي.

انطلاقاً من عام ١٩٨٥، تاريخ إنشاء الـ إل بي سي (Lebanese Broadcasting Corporation (LBC)) على يد القوات اللبنانية، تتالت المحطات التلفزيونية: ١٩٨٨ قناة ٣٣؛ المشرق عام ١٩٩٠ (NEW TV)»، عام ١٩٩١

(١٠) انظر الحوار الذي أجرته جريدة **الشرق الأوسط** مع: «رفيق الحريري: وضع المرئي المسموع في لبنان وضع غير طبيعي،» **الشرق الأوسط**، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٢.

كيليكيا، (MTV)، (CVN)، ١٩٩٢ السلام، (TeleLumier)، الشرق، المنار، إن بي إن، (ATN)، وفي عام ١٩٩٣ المستقبل[١١]. ليرتفع عدد المحطات التلفزيونية في لبنان إلى ٤٠ قناة (من بينها محطتان دينيتان واحدة مسيحية والثانية مسلمة: ٢٠ منها في بيروت، و٢٠ في المناطق الأخرى مثل إهدن، طرابلس، البترون، زحلة، تعنايل، صيدا وصور... إلخ.)؛ وقد استطاعت هذه المحطات على تعدُّدها أن تكسب كل منها جمهورها، مموّليها وإعلاناتها، ما يعود لسببين، **الأول**، سياسي فئوي. **والثاني**، تقنيّ يتمثل في التراجع النوعي لبث تلفزيون لبنان سواء من حيث العناصر البشرية أم من حيث المهنية والتقنيات.

ولم تحصل القناة الأولى التي أنشئت كأمر واقع على إذن قانوني من مجلس الوزراء إلا بعد ١٢ عاماً من إنشائها (١٩٨٥ ـ ١٩٩٦)[١٢].

وقد ساعد تراجع تلفزيون لبنان هذه المحطات على اجتذاب الجمهور، المُستثمرين والإعلان، وتقدّمت محطّتان، الـ إل. بي. سي. والمنار. **الأولى**، بدأت كصوتٍ للقوّات اللبنانيّة لكنّها لم تلبث أن انتقلت عدّة مرّات لتُمثّل قوى سياسية أخرى. **أمّا الثانية**، فهي صوت حزب الله.

٣ ـ نهاية الحرب واتفاق الطائف: تنظيم المشهد السمعي ـ البصري والانتقال للفضائيّات

في عام ١٩٨٩، وضع اتّفاق الطائف حدّاً للحرب الأهليّة اللبنانيّة، وبمصادقة البرلمان عليه أصبح جزءاً لا يتجزّأ من الدستور اللبناني ويتمتّع بدعم إقليمي ودولي كحلّ وحيد للمصالحة. وعلى الرغم من أنّ القوات اللبنانيّة قد اعتبرت أنّ سوريا هي التي كانت العرّابة السياسيّة والعسكريّة لاتّفاق الطائف، لكن الواقع أنّ العربية السعوديّة هي التي كانت كذلك. لذا فإنّ حزب الكتائب والرئيس أمين الجميّل البعيدين عن سوريا قد أيّدا هذا الاتّفاق.

ودعا أحد بنود هذا الاتّفاق إلى إعادة تنظيم وسائل الإعلام في لبنان. بدءاً من إدخال القنوات الموجودة حيّز الشرعيّة، وبناءً على ذلك سارع عدد من السياسيين

(١١) Moussallem, «La Radio et la télévision au Liban».

(١٢) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

والمستثمرين اللبنانيين بطلب تراخيص من الدولة لإنشاء محطّات جديدة وصل عددها في نهاية ١٩٩١ إلى ٤٦ قناة تبثّ على (IHF) لأنّ شبكة (VHF) كانت قد امتلأت، ما لم يؤدِّ إلا إلى البلبلة والفوضى، وعندما جاءت حكومة الرئيس إلياس الهراوي واعتبرت أنّ مُهمّتها هي إعادة إرساء سلطة الدولة، كان مشروع إقرار تشريع جديد يُنظّم البثّ التلفزيونيّ إحدى أولويّاته، وعليه أصدر وزير الإعلام عام ١٩٩١، مرسوماً بإعادة تنظيم البث التلفزيوني في لبنان.

أ ـ التنظيم: ضبط ورقابة

(١) قانون ١٩٩٤

أطلق المرسوم المذكور جدلاً واسعاً حول وضع البث الإذاعي والتلفزيوني في لبنان، جدل لم ينتهِ إلا بعد أربع سنوات حيث تبلور في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٤ القانون رقم ٣٨٢/ ٩٤ المتعلق بالبث التلفزيوني والإذاعي، والذي ينص على:

ـ إعلان حرية الإعلام والطريقة التي يجب اتباعها لتطبيق ذلك بشكل مسؤول.

ـ تشكيل لجنة مستقلة باسم المجلس الوطني للإعلام المرئي والمسموع ذات مهمة استشارية بحتة.

ـ تحديد سقف المساهمة في رأس مال كل شركة بـ ١٠ في المئة للشخص الواحد.

وكان القانون يتضمن أيضاً عدة بنود أخرى أثار ثلاثة منها جدلاً حاداً في الأوساط الإعلامية والسياسية:

(أ) إلغاء الموافقة المسبقة على المشاريع السمعية والبصرية.

(ب) فرض ضرائب عالية تتوزع بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ مليون ليرة لبنانية على كل قناة تلفزيونية وبين ٥٠ ـ ٢٠٠ مليون ليرة لبنانية على كل قناة إذاعية.

(ج) زيادة المحظورات وبخاصة أن أعمال الانتهاك لم تحدد بشكل واضح ما يترك مجالاً لتعدد التفسيرات[١٣].

(١٣) Nabil H. Dajani, «The Changing Scene of Lebanese Television,» *TBS Journal*, no. 7 (Fall-Winter 2001), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall01/dajani.html>.

وكأنّما الهدف هو إعادة تنظيم ما وصفه رئيس الوزراء رفيق الحريري في ما بعد بـ «وسائل إعلام الحرب الأهلية، التي لا يجوز أن تستمر كما هي: طائفية، فئوية، فصائلية»[١٤]. وبالفعل تراجع عدد القنوات التلفزيونية بفضل هذا القرار ليقتصر على ١٠ فقط عام ٢٠٠١، لكن لا مناص من الاعتراف أن «منح إجازات البث قد استند بشكل واسع إلى التوازن الطائفي أكثر مما اعتمد على صورة لبنان»[١٥]. وعليه صدرت عام ١٩٩٦، ست إجازات بث: تلفزيون لبنان (تلفزيون الدولة)، إل.بي سي (تلفزيون القوات اللبنانية المارونية)، المستقبل (تلفزيون رفيق الحريري السنّي)، إم تي في (تلفزيون غابرييل المر الأورثوذكسي)، المنار (تلفزيون حزب الله الشيعي)، إن بي إن (تلفزيون نبيه بري الشيعي أيضاً)، (Télé Lumière) (تلفزيون ديني كاثوليكي). ومن ثم أجيزت عام ٢٠٠١ ثلاثة تلفزيونات جديدة هي: الجديد (NewTV)، يو تي في (UTV) وآي سي إن (ICN). ولأسباب اقتصادية لم ترَ المحطتان الأخيرتان طريقهما إلى النور.

(٢) الحكومة بين الضبط والرقابة

بعد قانون ١٩٩٤، بدا الوضع الفوضوي أكثر انضباطاً «حيث نصّ القانون على حريّة الصحافة وعلى الطريقة التي يجب اتّباعها لتطبيق ذلك بشكل مسؤول». وكان يفترض أن يُشكّل إنشاء المجلس الأعلى للإعلام بحسب رئيسه عبد الهادي محفوظ، مؤسسة للضبط، حيث يُعيّن أعضاؤه عن طريق الانتخاب ويتوزّعون بين الحكومة والمؤسّسات التلفزيونيّة. غير أنّ الواقع لم يتحقق كذلك، حيث عُيّن نصف الأعضاء تعييناً[١٦].

من جهة ثانية، منعت حكومة الرئيس الهراوي، وبحجّة بسط سيادة الدولة، المحطّات المُجازة من بثّ نشرات الأخبار كي لا تكون هذه مُصاغة بطُرُق مُتناقضة تستجيب كُلّ منها لحاجة الجهة السياسيّة التي تقف وراءها، ولتَحصُر النشرة بتلفزيون الدولة. غير أنّ الـ إل بي سي تحدّت هذا المنع واستمرّت في بثّ نشرات الأخبار والبرامج السياسيّة ما استفزّ الحكومة وجعلها

(١٤) «رفيق الحريري: وضع المرئي المسموع في لبنان وضع غير طبيعي».

(١٥) Dajani, Ibid.

(١٦) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

تتحرّك في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦، ضدّ أكثر من قناة لا ضدّ الـ إل بي سي فقط. في هذا السياق أقفلت الـ إم تي في، في ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، إثر انتخابات نيابيّة فشل فيها مالكها في وجه شقيقه المُرشّح ضدّه، وفي ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، ثبّتت محكمة استئناف المطبوعات إقفال القناة المذكورة نهائياً. وقبل سنتين كان صاحبها يقول لاستطلاع صحافيّ: «هناك خطوط حمر لا يجب تجاوزها تتمثّل في سياق محلّي وإقليميّ لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار. أعتقد أنّ جميع الصحافيين يُمارسون رقابة ذاتيّة، ونحن في الـ إم تي في نُمارس قدراً أكبر بقليل من الحريّة لأنّنا لا نتبع سياسياً لأحد»[١٧] وفي الاستطلاع ذاته يقول مارسيل غانم، المذيع الأوّل في الـ إل بي سي، مُعبّراً عن تفاؤله: «أعتقد أنّ الأمور ستتحسّن أكثر فأكثر مع الهدوء الذي يعني المشهد السياسي في البلد، كما أعتقد أنّ لبنان يدخل مرحلة جديدة مع الانسحاب الإسرائيلي من أراضيه. إنّها مرحلة مُهمّة وتاريخيّة بالنسبة إلى البلد، وأعتقد أنّ جميع الأمور ستسير فيها بشكل أكثر إيجابيّة»[١٨].

وإذا كانت العلاقة اللبنانيّة ـ السوريّة تُعتبر أحد الخُطوط الحمر الأساسيّة بالنسبة إلى الصحافة اللبنانيّة، فإنّ العلاقة مع العربيّة السعوديّة هي كذلك أيضاً، وعليه تمّت مُعاقبة تلفزيون الجديد (New TV) في أوّل كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، على برنامج اعتُبِر بمثابة تعرّض للنظام الوهّابي، فقطعت وزارة الإعلام ـ بناءً على أمر من رئيس الوزراء رفيق الحريري ـ جميع الخُطوط التي تؤمّن بثّ القناة على الأقمار الاصطناعية، وذلك بهدف منع بثّ برنامج يُشارك فيه مُعارضون سعوديّون، وهذا ما أكّده وزير الإعلام في حينه غازي العريضي على شاشة الجزيرة حيث قال إنّ السفارة السعوديّة وجّهت كتاباً رسميّاً للحكومة اللبنانيّة تطلب فيه منع بثّ هذا البرنامج[١٩]. حادثة النموذج لما يُمكن أن تتعرّض له أيّة قناة أخرى بسبب موازين القوى المحليّة والإقليميّة، السياسية والطائفيّة، بل وبسبب التجاذب بين مراكز القوى في سلطة يتوزّعها أكثر من رئيس.

(١٧) Moussallem, «La Radio et la Télévision au Liban».

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) غازي العريضي في برنامج «بلا حدود» مع أحمد منصور، الجزيرة، ١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

ب ـ عصر الفضائيّات يكرّس الانقسام الطائفي، العلاقة بين الفاعلين الإقليميين، التمويل والمحطّات الحزبية

(١) العامل السعودي: المستقبل

ترافقت الرعاية السعوديّة لاتفاق الطائف مع دخول العامل الاقتصادي إلى الساحة. إعادة إعمار بيروت على يد شركة سوليدير التابعة للملياردير اللبناني ـ السعودي رفيق الحريري، الذي ما إن أصبح رئيساً للوزراء حتّى أنشأ القناة الفضائيّة الأولى في لبنان المستقبل، وذلك في ١٥ شباط/ فبراير ١٩٩٣، لتبدأ بثّها على عربسات في بداية ١٩٩٤، بذلك افتتح رفيق الحريري حُضور رأس المال السعودي في الإعلام التلفزيوني اللبناني، كما افتتح عصر الفضائيّات في البلد. كانت المستقبل هي القناة اللبنانيّة الوحيدة على مدى الـ ٢٤ ساعة. واتّسع بثّها ليُغطّي، إضافة إلى المشرق العربي والمغرب العربي وأوروبا. وفي آذار/ مارس ١٩٩٦، كانت المستقبل أوّل قناة في المنطقة تقدّم مفهوم الـ سيتكوم (Sitcom) مُحقّقة حُضوراً على الـ (World Wide Web). وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، تمّ الاندماج بينها وبين الـ إم بي سي (MBC)، وأطلقت بذلك قنوات جديدة مُشفّرة مثل (Zin TV) الذي يُبثّ من دبي.

هذا الاندماج مع الـ إم بي سي، يؤكّد ارتباط الحريري بخطّ الملك فهد عبر ابنه الأمير عبد العزيز بن فهد، مُقابل خطّ الوليد بن طلال. كتبت مجلّة **إكسبرس** في عدد ١٣ آذار/ مارس ٢٠٠٣، وتحت عنوان «حرب التلفزيونات العربية»: «بانتظار الحرب المُعلن عنها في العراق، يبدو أنّ الحرب بين التلفزيونات العربيّة قد بدأت. حيث إنّ عدداً من الأنظمة العربيّة الخليجيّة والشرق أوسطيّة قد قرّرت، بتأثير قلقها من الدور السياسي المُتنامي لقناة الجزيرة القطريّة، أن تدعم ظهور فضائيّات مُنافسة. وعليه ستنطلق من دبي قناة جديدة باسم العربية، تبثّ بشكل متواصل ذات هدف مُعلن وواضح يتمثّل في تقديم «بديل عاقل ومُتوازن» للجزيرة. ستبثّ القناة الجديدة طوال الـ ٢٤ ساعة ابتداءً من ٣ آذار/ مارس، علماً أن إنشاءها جاء على يد مجموعة الـ إم بي سي، التي يملكها أحد أعضاء العائلة المالكة السعوديّة وبمساعدة قناة لبنانيّة، المستقبل التي يملكها بشكل رئيس رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري القريب جداً من السعوديّين»[٢٠].

(٢٠) Scarlett Haddad, «La Guerre des télévisions arabes,» *L'Express*, 13/3/2003.

(٢) (LBCI) - (LBC): من قناة القوات اللبنانية إلى أيدٍ كثيرة آخرها اليد السعودية

بدأت قناة الـ إل بي سي (LBC)، والتي تحوّلت إلى (Lebanese Broadcasting Corporation International (LBCI))، بثّها الفضائي في نيسان/ أبريل ١٩٩٦ للشرق الأوسط أولاً، ومن ثُمّ أطلقت عام ١٩٩٧ ثلاث قنوات مُشفّرة: (LBCE) أوروبّا، (LBCA) أميريكا، (LBCA) أستراليا. ولم تكن هذه الخيارات مجّانيّة بل إنّها بُنيت على كون هذه المواقع الثلاثة هي مواقع تجمّع المهاجرين اللبنانيّين، وبخاصّة المسيحيّين. وفي المُقابل جاء توجّه بثّ المنار نحو أفريقيا إضافة إلى المواقع الثلاثة المذكورة في السياق ذاته، إذ تتجمّع في أفريقيا جالية كبيرة من المُهاجرين اللبنانيّين الشيعة. من جهة ثانية كانت الـ إل بي سي، في بدايتها مرتبطة بالقوّات اللبنانيّة لكن حدثين جاءا ليفرضا تحوّلاً آخر:

ـ انفجار عبوة في كنيسة سيّدة النجاة في زوق مكايل، وكشفت التحقيقات عن مسؤوليّة القوّات اللبنانيّة عنها، بل وعن المسؤوليّة المُباشرة لرئيسها سمير جعجع، بهدف إعادة إشعال الحرب الطائفيّة. ما جعل الحكومة اللبنانيّة تجتمع في ٢٣ آذار/ مارس، وتقرّر حلّ الحزب المذكور ومصادرة أملاكه، كما تقرّر منع جميع المحطّات التلفزيونيّة اللبنانيّة من بثّ البرامج السياسيّة ونشرات الأخبار والتقارير الإخباريّة وحصر ذلك بتلفزيون لبنان (تلفزيون الدولة) فحسب. علماً أنّ هذا القرار كان قد اتُّخذ سابقاً ولم يُطبّق.

على موقعها على الإنترنت كتبت القوّات اللبنانيّة في حينه تشكو من صرف ٢٩ موظّفاً من العمل في الـ إل بي سي بسبب انتمائهم لهذه القوّات[٢١]، على الرغم من ذلك فإنّ مارسيل غانم، المذيع الأشهر على هذه القناة ببرنامجه «كلام الناس» الذي حطّم الأرقام القياسيّة على ساحة المُتلقّين، يصف مسيرته الإعلاميّة بقوله: «مُصادفة اضطر أخي جورج الذي كان يعمل في إذاعة لبنان الحر إلى الانتقال إلى (LBC)، وهكذا حللت محلّه في الإذاعة، من ثمّ عرض عليّ عام ١٩٩١ أن أُقدّم برنامجاً سياسياً مشتركاً بين (LBC) وإذاعة لبنان الحر تحت عنوان (كلام مسؤول)، صباح كل سبت في

(٢١) <http://www.lebaneseforces.org/dossiers/identification/htm>.

LAU Beirut campus

الساعة الثامنة والنصف. قدّمته مع مي شدياق على مدى سنتين... وفي عام ١٩٩٥، طلب منّي الشيخ بيار ضاهر أن أُقدّم برنامج كلام الناس»[٢٢]. المُلفت في هذه الشهادة أنّ راديو لبنان الحرّ هو صوت القوات اللبنانيّة.

ـ التغير المستمر في المساهمين: بداية قام عدد من الشخصيّات التي تُمثّل تيّارات سياسيّة مُختلفة عن القوّات اللبنانيّة بشراء نسب عالية من أسهم الـ إل بي سي (LBC)، قبل أن يأتي الشيخ صالح كامل ومن بعده الوليد بن طلال ليجعلا ٤٩ في المئة من هذه الأسهم مُلكاً لسعوديين؛ في عام ٢٠٠٠، كانت مُلكيّة القناة تتوزّع بحسب ما يقول الشيخ بيار ضاهر كما يلي: «أنا المساهم الأساسي في هذه القناة، نحن نملك كفريق نصف الأسهم في هذه القناة، طبعاً لأنّ القانون لا يسمح بامتلاك أكثر من ١٠ في المئة. كذلك تمتلك مجموعة عصام فارس ١٢ في المئة ومثله سليمان فرنجية، بعدها دخل على الخط نبيل بستاني، صلاح عسيران وعدد آخر من المُساهمين»[٢٣]. يُلاحظ هنا أنّ بيار ضاهر ينتقل من «أنا أملك» إلى «نحن نملك» من دون أن يُحدّد ماهيّة هذه الـ «نحن». علماً أنّ القانون لا يسمح إلا بـ ١٠ في المئة كما يقول، إذاً من الذي يمتلك الـ ٤٠ في المئة الباقية، خاصة بعد أن صادرت الحُكومة مِلكيّة القوّات اللبنانيّة؟ في عام ١٩٩٠، اشترى صالح كامل ١٢,٩٥ في المئة من أسهم القناة ليتطوّر الوضع بحيث يُصبح وضع أسهم (LBC) والمُستقبل معاً في عام ٢٠٠٣ ترجمة لتحضيرات الحرب على العراق؛ ففي ١٣ آذار/ مارس تكتب **الإكسبرس** أيضاً: «لقد وقّعَت صحيفة **الحياة** السعوديّة، التي تصدر من لندن اتّفاقاً مع قناة (LBC) اللبنانيّة ـ التي يملك القسم الأكبر من أسهمها بيار ضاهر أحد قدماء القوات اللبنانيّة ـ المليشيا المسيحيّة، وذلك لبثّ ثماني ساعات أخبار يوميّاً موجّهة لمُجمل العالم العربي. كذلك شهدت النور مشاريع أخرى أقلّ طُموحاً»[٢٤].

في عام ٢٠٠٣، وبعد انتهاء الحرب، برز على الساحة المُنافس السعودي الآخر للحريري، الوليد بن طلال بنفسه هذه المرّة ليُوَقّع مع بيار ضاهر في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣، اتفاقاً يُكرّس رسميّاً تملّكه لـ ٤٩

(٢٢) Moussallem, «La Radio et la Television au Liban».

(٢٣) Les Chaînes de télévision au liban,» <http://www.rdl.com.lb/2000/3748/enquete.html>.

(٢٤) Haddad, «La Guerre des télévisions arabes».

في المئة من أسهم (LBC Sat)، بعد أن اشترى بـ ٩٨ مليون دولار الحصّة التي كان يتملّكها صالح كامل والتي تُشكّل ٣/ ٤ من الـ ٤٩ في المئة التي أصبحت ملكاً للوليد. هذا في حين توزّعت الـ ٥١ في المئة الباقية على بقيّة المُساهمين اللبنانيّين، وإثر ذلك طُرح السؤال في لبنان: هل سيصبح الوليد بدوره رئيساً للوزراء؟ وذلك ما أجاب عنه الأمير بشكل غامض يترك ترك مجالاً لتقديرات مُختلفة. كما طُرح سؤال آخر في المجال الإعلامي: هل سيؤدّي الاتفاق بين (LBC) و**الحياة** ودخول الوليد عليه إلى إنشاء قناة إخباريّة مُتخصّصة؟

غير أنّ التغييرات المختلفة في المالكين لم تؤثّر على طبيعة القناة وجمهورها. بحيثُ حافظت على موقعها الأول بين قنوات المُنوّعات في لبنان والثاني في العالم العربي. إذ تجذب العرب بليبراليتها الاجتماعية كما تجذب الدياسبورا اللبنانيّة كرابطٍ مع الوطن الأم؛ ففي عام ١٩٩٦ كان لديها ٤٤ ألف اشتراك في أوروبا وأمريكا. وهي تحرصُ على اللعب بذكاءٍ على أكثر من وتر: تُقدّم برامج التسلية الأكثر ليبراليّة لكنّها لا تنسى الجمهور المُسلم ببرامج خاصّة، على الأخص في رمضان. وتُعلن برامجها وِفق توقيت مكّة المُكرّمة.

(٣) العامل الإيراني: إن بي إن ـ المنار ـ العالم

سيتناول البحث قناة المنار بشكل تفصيلي. نظراً إلى طبيعتها «المرنة» وذاك ما شكّل أحد معايير الاختيار في هذا الكتاب، ثُمّ لاعتبارات تتلخص في ما يلي: هي الوحيدة التي تُعلن نفسها صراحة صوتاً لحزب سياسي مُحدّد وليس لشخصيّة سياسية أو عائلة، هي «وسيلة مركزية في جهاز حزب الله»[٢٥] هي الوحيدة التي تحدد نفسها بـ «صوت المُقاومة»، هي قناة غير تجاريّة وأخيراً هي قناة تُمثّل خطّ المُقاومة اللبنانيّة ـ سوريا ـ إيران. قناةٌ تعيش على التوازن (أو عدم التوازن) الطائفي والسياسي الذي يَسِمُ بلاد الأرز وغياب السيادة الوطنيّة.

(٢٥) Olfa Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah,» *Conuences en Méditerranée* (avril 2009), <http://hal.inria.fr/docs/00/37/35/49/PDF/Lamloum-manar.pdf>.

LAU Beirut campus

ثانياً: حزب الله ـ المنار: نتاج توازنات محلية وإقليمية

١ ـ تاريخ الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان

أ ـ من الاحتلال الجزئي إلى اجتياح عام ١٩٨٢

(١) جنوب لبنان قبل السبعينيات

يعود الاحتلال الإسرائيلي لجزء من لبنان إلى بداية الصراع العربي - الإسرائيلي حيث احتلّت إسرائيل عام ١٩٤٨، القطاع المُسمّى بـ «القرى السبع»، ومن ثُمّ استمرّ الجيش الإسرائيلي في انتهاك الأراضي اللبنانيّة من دون توقّف، وفي ظلّ لا مُبالاة كاملة من الحكومات المُتعاقبة في بيروت. حيث تخلّت الدولة كُلياً عن هذه المنطقة ذات الأغلبيّة الشيعيّة ولكن أيضاً ذات الحُضور المسيحيّ والدرزي. وكان التفسير الشائع أنّ السبب يعود إلى التشكيلة الطائفيّة للبلد، لكن الحقيقة كانت أكثر من ذلك تعقيداً. حقيقة تتفرّع جُذورها في عُمق الاستراتيجية الصهيونيّة وطبيعة النظام اللبناني، كما في النظام الاجتماعي الإقطاعي الذي ساد الجنوب والبقاع بشكل أقسى منه في سائر المناطق اللبنانيّة التي تتوزّع كلها إقطاعيّاً منذ المرحلة العُثمانيّة. والنتيجة أنّ الشيعة كانوا الأكثر فقراً في البلاد لكنّهم يضُمّون أعلى نسبة من المُتعلّمين بخاصّة منذ السبعينيات، وكانت الغارات الجوية الإسرائيلية المتواصلة الهادفة إلى تدمير البيوت وحُقول التبغ والزيتون، تؤدي إلى هجرة هؤلاء المُزارعين نحو الضواحي الفقيرة لبيروت حيثُ شكّلوا ما سُمّي بـ «حزام البؤس». مُقابل هجرة أخرى نحو أفريقيا خلقت طبقة من التجار الشيعة الأثرياء. وكأنّه كان عليهم أن ينتظروا مجيء الإمام موسى الصدر في السبعينيات ليقوموا بحركة احتجاج بدأت اجتماعية تحت عنوان (المحرومين)، ثُمّ تطوّرت سياسياً ليشاركوا عبرها في الحرب الأهلية اللبنانيّة.

(٢) من السبعينيات حتى اجتياح عام ١٩٨٢

لكنّ السبعينيات حملت حدثاً آخر مُهمّاً هو مجيء المُنظّمات الفلسطينيّة إلى الجنوب، مما فتح الساحة أمام الأحزاب السياسيّة اللبنانيّة التي كانت تتوق دائماً إلى المُشاركة بعمل مُسلّح ضدّ إسرائيل، وهكذا تشكّلت في المنطقة عدّة مُقاومات تعايشت وتمازجت، مُوحّدة ضدّ إسرائيل لكنّها مُتنافسة في ما بينها.

LAU Beirut campus

خاصة وأنّ كُلاً من هذه الفصائل كان يرتبط بدولة عربية أو إقليمية، ولم يكن هُناك بدّ من أن يكون لإيران الخُميني حصّتها في هذه التشكيلة.

في عام ١٩٧٥، أنشأ الإمام موسى الصدر حركة أمل «أفواج المقاومة اللبنانية» لتمثيل شيعة لبنان وخطّ المُقاومة. بعد اختفاء الإمام عام ١٩٧٨، انتُخب حسين الحسيني على رأس المُنظّمة لبضعة أشهر تولّى بعدها نبيه برّي القيادة.

في عام حزيران/ يونيو ١٩٨٢، اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان، حتّى العاصمة بيروت. حاصر جيش الاحتلال البرلمان ليفرض انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية. الرئيس الجديد يدعو جميع الفُرقاء للحوار ونبيه برّي يتّجه نحو المُشاركة في حكومة وحدة وطنيّة، ما أدّى إلى انشقاق المُتشدّدين في أمل في أواخر عام ١٩٨٢، وتشكيلهم لحزب الله بدعمٍ من حرس الثورة الإيراني الذي كان قد دخل البقاع خلال الاجتياح الإسرائيليّ؛ فهل يعكس ذلك مُنافسة داخل المُعسكرِ الإيرانيِ والشيعي نفسه بين إصلاحيين ومُحافظين، وبين عرب وفرس، بين خطّ وخطّ آخر؟ أم أنّه يعكس انتماءات مُختلفة لمرجعيات مُختلفة؟

كانت سوريا بحاجة إلى إيران للحفاظ على وجودها في لبنان خلال تلك المرحلة الحرجة. حيث قاتل جيشها وحيداً ضدّ الجيش الإسرائيليّ ودمّرت الغارات الإسرائيليّة قاعدة الصواريخ السوريّة في البقاع؛ فمصر قد حُيّدت من الصراع منذ كامب ديفيد، ودول الخليج تُعطي الأولويّة للحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة، ما تُرجم في قمّة فاس التي وضعت جانباً كل القضايا العربية لتُركّز على هذه الحرب «تبنّت خطّة الملك فهد حول فلسطين دون أن تُناقشها»؛ أمّا مُعمّر القذّافي، فيتّجه نحو أفريقيا، في حين تستبعد خطّة ريغان سوريا ويقوم تقارب بين الأردن ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة. إذاً، لم يبق إلا الحليف الإيراني لدعم دمشق؛ فإيران الغارقة في حرب العراق تحتاج إلى حليف عربيّ، كما إنّها تحتاج إلى ممارسة ضغوط على الغرب، ضغوط لا تُريد لها أن تقتصر على الرهائن. كذلك فإنّ المُعسكر المُقاوم في لبنان، بخاصّة جناحه الشيعي، لا يجد الدعم إلا من سوريا وإيران في مواجهته الصعبة مع الاحتلال القابض على الجنوب. مصالح تتقاطع فتتحالف.

حزب الله لم يُحاول أبداً إلغاء أمل، وإنّما عمل على فرض وجوده إلى جانبها وإذا كان قد استطاع أن يتقدّم عليها لعدة أسباب منها أنّ الجيش

السوري كان يضبط أمل في البقاع، في حين كانت يد حزب الله مُطلقة في بيروت والجنوب، ومنها وسائل الإعلام. علماً أنّ الإعلام لا يستطيع التحرّك إلا تعبيراً عن فعل، لكن الفعل يظلّ أخرس من دون وسائل إعلام.

ب ـ بعد ١٩٨٢: مشروعية محسومة للمقاومة

(١) الأحزاب اليسارية والقومية توثّق وتسوّق إعلامياً عملياتها الاستشهادية

كان لرحيل الفلسطينيين من بيروت عام ١٩٨٢، ثُمّ الانسحاب الجزئي الإسرائيليّ، نتيجتان:

ـ تفجُّر كل معسكر من المُعسكرات الطائفيّة.

ـ اندلاع المُقاومة ضدّ الاحتلال واكتسابها المشروعيّة الكاملة.

كانت الأحزاب القومية واليسارية هي من بدأ المقاومة في بيروت ثُمّ في الجنوب منذ الأيام الأولى للاحتلال: بدءاً بالحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي نظّم عمليّة ضد الجنود الإسرائيليين في شارع الحمراء في بيروت؛ الحزب الشيوعي؛ البعثيين والناصريين؛ لتأخذ المقاومة منحى جديداً مع العمليات الاستشهاديّة التي نفّذها مُناضلون شباب.

غير أنّ الجديد في هذه العمليات تمثّل في توظيفها إعلامياً عبر تسجيل الاستشهادي لشريط فيديو يحمل كلمته الوداعية والقَسَم الذي يؤدّيه عشيّة تنفيذه لمُهمّته، وإعلانه انتماءه لهذا الحزب أو ذاك. كان الاستشهاديّون ينتمون إلى مُختلف الطوائف وحتّى الجنسيّات العربيّة، في ما يعكس طبيعة الأحزاب التي ينتمون إليها، وكُلّها أحزاب علمانيّة، قوميّة ويساريّة.

هذا التوثيق المُصوّر فرض ثلاث وقائع:

الأول، لم يعد هناك مجال للتعتيم على الحادثة لإعطاء تفسيرات مغلوطة لها، كما لم يعُد هُناك مجالٌ للالتباس في إدّعاء المسؤوليّة عنها (بعد أن كُنّا نشهد في السابق ادّعاء أكثر من تنظيم المسؤوليّة عن عمليّة واحدة).

الثاني، شكّلت إعادة بثّ الشريط المُسجّل، في أكثر وسائل الإعلام العربيّة وحتّى العالميّة، ترويجاً ليس للمُقاومة فحسب وإنّما للحزب السياسي الذي يقف من ورائه.

LAU Beirut campus

الثالث، التأثير الذي تركته صوَر هؤلاء الشباب الشهداء وكلماتهم على الجمهور العربي بشكل عام وبخاصة على الشباب الفلسطيني المسكون بالغضب والإحباط نتيجة الاجتياح الإسرائيلي وانسحاب مُنظّمة التحرير من بيروت؛ في حين كانت التنظيمات الإسلامية في ذلك الوقت تُدين العمليات الاستشهادية وترفض منح لقب الشهيد لمُنفّذيها بحجّةِ أنّ هذا اللقب يُمنح لمن يستشهد في سبيل الله فقط.

من هُنا موقع التطوّرات اللبنانيّة في السياق العربي العام للمُنافسة بين العلمانيين من يساريين وقوميين، وبين الإسلاميين. حيث يتجاذب الطرفان جُمهوراً واحداً هو الجُمهور المؤمن بالصراع مع إسرائيل ومعارضة الأنظمة السياسيّة القائمة.

(٢) حزب الله يقود المقاومة ويخلق وسائله الإعلامية: المنار

في النصف الثاني من الثمانينيات، سارت التطوّرات السياسية والمُقاومة في لبنان بحيث أُجبرت الأحزاب السياسية القومية واليسارية على الاصطفاف وراء حزب الله.

في عام ١٩٨٩، انتهت الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة ليبدأ معها الصراع بين المُحافظين والإصلاحيين في إيران. أمّا في لبنان، فقد تنامت سلطة الجنرال ميشال عون، قائد الجيش الذي استولى على السلطة إثر انتهاء مُدّة رئيس الجُمهوريّة وعدم انتخاب رئيس جديد. وبما أنّ الجنرال قد كان خصماً مُعلناً لسوريّا، فإنّه حظي بدعمٍ قويٍّ من جانب العراق؛ أحداث صبّت كُلّها في صالح حزب الله.

في عام ١٩٩١، اندلعت الحرب الأمريكية الأولى ضدّ العراق واضطر الأمريكيون والأوروبيّون، تحت ضغط حاجتهم للمُساعدة السوريّة، إلى التضحية بميشال عون والميليشيات المسيحيّة، وإطلاق يد حافظ الأسد في لبنان. من جهتهم، لم يكن السوريون ليُشجّعوا مُقاومة علمانيّة ويساريّة في لبنان لعدّة أسباب، منها تحالفهم مع إيران. إذ لم يؤدّ انتهاء الحرب إلا إلى تدعيم التحالف الإيراني ـ السوري، فإن الإيرانيين كانوا أكثر فأكثر إصراراً على تأكيد حُضورهم في العالم العربي، حيث إنّ التهديد الأمريكي والإسرائيلي يجعلهم في الموقع الثاني على القائمة بعد العراق. ومن هُنا كان دعم المُقاومة كمبدأ،

ودعم حزب الله كتجسيد لها، هو أفضل وسيلة لهذا التأكيد سواء أمام الغرب أم إسرائيل. هكذا أصبح حزب الله إذاً، مظلّة المُقاومة اللبنانيّة ومُقدّمتها. إذاً لا بدّ له من امتلاك وسائله الإعلاميّة. هكذا وُلدت إذاعة «النور» عام ١٩٨٨، ومجلة **بقيّة الله** ومن ثَمّ تلفزيون «المنار»[٢٦].

ج ـ التطورات بين عام ١٩٩١ وعام ٢٠٠٤

المنار قناة وُلدت من رحم الاحتلال ومن رُكام الحرب الأهليّة التي فجّرت البلد أجزاءً طائفيّة، من نتائج التحالف السوري ـ الإيراني، ومن الحاجة إلى تأكيد الحضور واستعادة الحرية والحقوق. أُنشئت المنار في حزيران/ يونيو ١٩٩١، غداة توقيع اتفاق الطائف الذي شكّل النهاية الرسميّة للحرب الأهليّة. وذلك بعد عدّة أشهر من حرب الخليج التي شكّلت نهاية الحرب الباردة وبداية النظام العالمي الجديد الذي تُرجم بنظام إقليمي جديد، تحت عنوانين: النفط والسلام بين العرب المهزومين وإسرائيل. عنوانان يُشكّلان قضيّة حياة أو موت لكلّ من إيران، سوريا ولبنان، ولخطّ المقاومة العربية.

بعدها جاءت معاهدات أوسلو ووادي عربة، لتُعقّد الموقف ولتفرض إيقاعاً أشدّ سُرعة وقُوّة على سباق وُجوديّ عند مُنعطفٍ تاريخيٍّ كبير.

في لبنان، تدعّم موقع حزب الله بفضل نجاح عمليّاته ضدّ الاحتلال، وكان للأداة الإعلاميّة دورها في تحقيق أكثر من هدف بدءاً بالمشروعيّة الشيعيّة ثُمّ الوطنية ثُمّ العربية، التي تقوم على مشروعيّة المُقاومة.

هكذا استطاعت أن تنتقل من كونها صوت إحدى هذه الشظايا إلى أن تُصبح صوت المُقاومة ومن ثَمّ إلى أن تكتسب الشرعيّة القانونيّة. انتقال لا يجعلها تخرج من الجوّ الشيعيّ، في ما تفرضه طبيعة التركيبة اللبنانيّة والعلاقة بالمُحيط. على الرغم من ذلك استطاعت (خلال فترة) أن تؤدي دوراً عابراً للطوائف وأن تستفيد من السياق الإقليميّ وبتطوّر تحتاجه في مواجهة تحدّي مُستقبلٍ تحتاجُ فيهِ إلى المهنيّة إضافة إلى الموقف، كما تحتاج فيه إلى مواجهة تحدٍّ كبير تشترك في مواجهته جميع حركات المُقاومة العربية، ألا وهو إبراز التمييز بين مُقاومة الاحتلال والإرهاب. ولعلّ لجوء المنار إلى

(٢٦) في عام ٢٠٠٨، أُضيفت إليها الصحيفة الإلكترونيّة **الانتقاد**.

LAU Beirut campus

تحقيق فائدة مُزدوجة: التمتّع بالشرعيّة القانونيّة، وبالتالي بحماية الدولة، إلى جانب التحصّن بحُريّة التعبير التي يضمنها القانون اللبناني، يُعطي مِثالاً واضحاً، خاصة للعالم العربي، لمساحة التحرّك التي يمكن أن تؤمّنها الحريّة إذا ما اقترنت بدولة القانون حتّى ولو كانت البلاد في حالة حرب. غير أنّ ذلك لن يحميها من المُلاحقات والمحاكمات في الغرب.

استندت تطوّرات هذه القناة إلى تطوّرات الحرب ونتائجها. حتّى تقنيّاً، حيث انتقلت من البث الأرضي إلى البث الفضائي عام ٢٠٠٠، مع تحرير الجنوب ومن ثَمّ الانتفاضة، ما يجعلنا نُصنّف تطوّراتها مع تطوّرات الأحداث الحاسمة:

(١) مرحلة البث الأرضي قبل عام ٢٠٠٠

- من النشوء إلى التحرير.
- نهاية الحرب الأهلية.
- نهاية الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة ثُمّ اجتياح الكويت ثُمّ حرب الخليج الأولى.
- تأكيد التمثيل الشيعي.
- احتكار تمثيل المُقاومة.
- اتفاقيّات أوسلو، أوسلو ١، أوسلو٢، ووادي عربة.
- تنظيم القطاع السمعي ـ البصري في لبنان.

(٢) مرحلة البث الفضائي ابتداءً من عام ٢٠٠٠

- تحرير الجنوب.
- ما بعد التحرير.
- اندلاع الانتفاضة.
- ١١ أيلول/ سبتمبر.
- حرب الخليج الثانيّة والوضع الشيعي في العراق.
- تطوّر الحرب على الإرهاب: الأزمات في الخارج.

٢ ـ من النشوء إلى التحرير (١٩٩١ ـ ٢٠٠٠)، مشروعية شعبية وقانونية محلية

أ ـ المأسسة والمشروعية القانونية

في عام ١٩٩١، كانت الأوساط الإعلامية والسياسيّة اللبنانيّة مُنشغلة بالجدل حول وضع محطّات البث الإذاعيّ والتلفزيونيّ في البلاد. جدل انتهى إلى إصدار قانون تنظيم هذا القطاع عام ١٩٩٤. وكانت المنار من بين القنوات التي تمّ الترخيص لها بمُقتضى هذا القانون لتصبح قناة خاصة مُستقلّة تابعة للمجموعة اللبنانيّة للإعلام، إلى جانب إن بي إن، أمل، التي تُشاركها التمثيل الشيعي.

في آذار/ مارس عام ٢٠٠٠، قدّم محمد رعد، أحد مُساهمي المجموعة اللبنانيّة للإعلام وعضو البرلمان، رسمياً طلب تحويل المنار إلى قناة فضائيّة، فوافقت عليه الحُكومة اللبنانيّة. «مبدئياً كانت إدارة عربسات قد تحفّظت على الترخيص للمنار، خوفاً من أن تنشر القناة أجندة مذهبيّة شيعيّة. غير أنّ إدارة المنار أوضحت أنّ لا مصلحة لها في تسويق برنامج كهذا، فالقناة لا تنوي أبداً أن تكون الناطق الرسمي باسم المذهب الشيعي»[٢٧].

ب ـ المشروعية الشعبية: بدءاً بالشارع الشيعي.. فاللبناني

«كانت المُهمّة الأولى للمنار بناء مشروعيّة شعبيّة للمُقاومة المُسلّحة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي بدءاً من القاعدة الشيعية، حيث تلعب القناة دور الوسيط الناقل لهويّة حزب الله التي تؤسس لمشروعيّته... وهي تحمل كذلك مُهمّة تفعيل دعم العمليّات العسكريّة للحزب، التي لا تتردّد في تصويرها وبثّها مع وصايا شُهدائها»[٢٨]، كذلك تُقدّم شاشة المنار برامج وفلاشات (Spots) يُعاد بثُّها على سائر المحطّات اللبنانيّة وبعض العربية.

في رسالة دبلوم للدراسات المُعمّقة في جامعة (إكس ان بروفانس ـ بيروت) يُجري ماثيو لاردو (Matthieu Lardeau)، تحليلاً اجتماعياً تاريخياً

(٢٧) الرأي (عمّان)، ٣١/٥/٢٠٠٠.

(٢٨) Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah».

LAU Beirut campus

لإعادة بثّ جميع القنوات اللبنانيّة، الفلاشات التي كانت تبثّها المنار، ليخلص إلى الاستنتاج أنّ هذه العمليّة «تندرج ضمن استهدافين يتبع كُلّ منهما للآخر. التوجّه إلى اللبنانيين غير المؤيّدين، والتوجه إلى الطائفة الشيعيّة. ذاك أنّ حزب الله، وفي بحثِهِ عن المشروعيّة كان يبحث عن احتلال موقع مُهيمِنٍ ليس على الساحة السياسيّة اللبنانيّة فحسب، ولكن أيضاً على الساحة السياسية الشيعيّة حيث المنافسة بينه وبين أمل. باختصار هي مُنافسة على زعامة هذه الطائفة وعلى المشروعيّة الوطنيّة»[٢٩]. ولم تكن هذه الفلاشات «التي تُشكّل جزءاً من استراتيجية شاملة، لتُبَثّ فقط على المنار ـ ما لا يجعلها تصل إلى مُجمل الشعب اللبناني ويُشكّل خطورة جعلها مُصنّفة جداً ـ بل على مُجمل القنوات اللبنانيّة وبتوقيتات تسمح بوصولها إلى أكبر شريحة من المُشاهدين (بخاصّة قبل وبعد الأخبار) مقويّةً بذلك فعاليّة إضفاء المشروعيّة التي يؤمّنها هذا الاعتراف بعمل حزب الله، خاصّة في إطار البحث الحثيث عن مشروعيّة وطنيّة. ولم تُسجّل أيّة مواقف نقديّة من جانب الجمهور الذي تلقّى هذه الفلاشات، فقد كانت عمليّة البثّ هذه وأسلوب المعالجة الإعلامية للحدث يقومان على تعميم خطاب حزب الله والرسائل التي يُوَجّهها لجميع الطوائف اللبنانيّة، وتركيزها بشكل عقلاني. ومثله مثل كل خطاب حول الحياة السياسيّة لا بد لكل تقديم للعالم الاجتماعي الذي يمر خلاله أن يكون مُتناغماً مع الأفكار المسبقة المُتشكّلة حول هذا العالم»[٣٠].

تتأكّد هذه المشروعيّة أكثر عبر بثّ مُباشر لبعض العمليات أو المعارك التي يخوضها الحزب ضدّ قُوّات الاحتلال وكذلك عبر صورٍ مُثيرة لفِرَق التصوير التلفزيوني التي يرتدي أفرادها الستر الواقية للرصاص وهُم يُتابعون العمليّات في ساحة المعركة، حيثُ غالباً ما كان يتِمُّ نشرُ هؤلاء المصورين مُسبقاً في مواقع العمليّات. وكانت «أجهزةُ الإعلام العسكري» لحزب الله تتكفّل بأمن المُصوّرين وبتأمين أفضل المواقع المُناسبة لكاميراتهم، أمّا البثُّ المُباشر والفوريّ فكان يُرسل من الجنوب إلى بيروت بواسطة هوائيّ ميكروويف[٣١].

(٢٩) Matthieu Lardeau, «Le Hezbollah: Un «libérateur» emprisonné par l'ordre politique,» papier présenté à: Mémoire de DEA, Aix en Provence et Beyrouth, suite à la libération du 25 Mai 2000.

(٣٠) المصدر نفسه.

(٣١) *Chicago Tribune*, 13/4/2000.

ج ـ الانسحاب الإسرائيلي وتحرير الجنوب عام ٢٠٠٠

أخيراً جاء التحرير، حيث اضطرّت إسرائيل إلى الانسحاب من لبنان بعد ٢٥ سنة تحت ضغط المُقاومة اللبنانيّة التي يُشكّل حزب الله الفيصل الرئيس فيها، ما أعطى للمنار موقع الناطق الرسميّ باسم أول انتصار عربيّ على إسرائيل. انتصار زاد في بريقه أنّه جاء بعد هزيمتين مُحبطتين: خُروج مُنظّمة التحرير من بيروت (عام ١٩٨٢) وهزيمة العراق (عام ١٩٩١)، إضافة إلى هزيمة أخرى سياسية، اتّفاقيّات السلام المفروضة (عام ١٩٩٣).

هكذا انتقلت القناة من خمس ساعات بثّ إلى ١٢ ساعة عام ١٩٨٨ إلى ١٨ ساعة عام ٢٠٠٠. «وفي حين كانت الخطّة أن يتم الانتقال إلى البث الفضائي في تموز/ يوليو، قرّر حزب الله تقديم الموعد لمُواكبة الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان والذي انتهى في ٢٤ أيار/ مايو ٢٠٠٠»[٣٢]. توقيت لم يفُت معناه على المُشاهدين والمُحللين: المنار الفضائيّة تُجسّدُ التحرير ونهاية الاحتلال الإسرائيلي للبنان.

في بداية عام ٢٠٠١، تطوّر البثّ إلى ٢٤/ ٢٤ ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع.

وبحسب مسؤوليها، فإن المنار أصبحت «تحتل الموقع الثالث في المّشاهدة لدى الجمهور اللبناني، لكنّها تنتقل إلى الأوّل عندما تسخُن الأمور في جنوب لبنان وفي الأراضي الفلسطينيّة. . . ويُشكّل الانتصار الساحق الذي حققناه في جنوب لبنان أحد أسباب نجاحنا»[٣٣] يقول نايف كريّم، لصحيفة **لوموند** التي تُعلّق «في عام ١٩٩١ لم تكن المنار، عند إنشائها تصل إلا لبعض الأحياء المُحدّدة في بيروت، بينما تصل الآن، وبعد تسع سنوات من إنشائها إلى ٢٠ في المئة من اللبنانيين، بحصولها على البث الفضائي ابتداءً من شهر أيّار/ مايو، أصبحت المنار الآن مرئيّة في كل العالم العربي وفي جزء من أوروبّا. كما تدلّل مؤشرات كثيرة على أنّها ستكون واحدة من

(٣٢) مُقابلة مع نايف كريّم، في: **لوس أنجلوس تايمز**، ١/ ٥/ ٢٠٠٠ (الترجمة العربية من أرشيف المنار).

(٣٣) José Alain Fralon, «Les Défis de la télévision du Hezbollah libanais,» *Le Monde*, 20/10/ 2000.

LAU Beirut campus

المحطات المُفضّلة لدى الفلسطينيين. من جهة ثانية يُفكر المسؤولون فيها، وبفعل الأصداء الإيجابيّة التي تأتيهم من الجالية المُسلمة في أوروبّا، بإضافة البث باللغتين: الإنكليزيّة والفرنسيّة»[٣٤].

يظلّ الحصول على الاعتراف القانوني، اعتراف الدولة، أسهل بكثير من الحصول على اعتراف الجمهور، فاللبنانيّون المُتّفقون كلّهم على الدور المُقاوم والمُحرِّر لحزب الله، ليسوا كذلك على خطابه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الذي تُجسّده المنار. بل إنّ الموافقة الكُليّة على الدور الأوّل ليست كُلها صادقة، ولا مؤيّدة، فانتصار المُقاومة ما هو إلا هزيمة التيّارات الأُخرى التي اضطرت إلى إحناء الرأس إلى أن تمُرّ العاصفة. كما إنّه يُثير غيرة تيّارات ثانية. وإذا كانت طريقة حزب الله في إدارة عمليّة التحرير لم تترك مجالاً للنقد ولا لظهور تعبيرات رافضة، فإنّ ذلك يُشكّل بالنسبة إلى الحزب فرصة استثنائيّة، لكنّه أيضاً يُشكّل تحدّياً استثنائياً.

وإذا كانت القناة قد أشارت في بيانها التأسيسي عام ١٩٩١، إلى «اهتمامات جميع اللبنانيين»، «التضامن مع معاناة المواطنين»، «صور هذه المُعاناة»، مع حرصها «على التركيز على أنشطة المُقاومة»، فإنّ عليها أن تُركّز على اهتمامات جميع المُواطنين من الفساد إلى الاهتمامات الاجتماعيّة إلى الوضع الاقتصادي إلى التربية إلى الفعاليّات الثقافيّة إلى الشباب والأطفال وأخيراً التسلية.

في عام ٢٠٠٢، كان جدول البرامج يُجسّد هذا التوجّه[٣٥]. طبخة سحريّة يمتزج فيها النضالي بالمهني بالمُسلّي ليُنتج طعماً يقف وراء نجاح هذا التلفزيون. . . علماً أنّ الأفلام ليست دائماً بعيدة عن التوجّه المعني حيث نجد مثلاً مُسلسَلين يحكيان قصّة النضال اللبناني السوري ضدّ الفرنسي. . . أو مُسلسَلاً وثائقيّاً يحكي الحياة في شمالِ الولايات المُتّحدة ويحمل عنوان «أمريكا المتوحّشة». كما يحرص مسؤولو القناة على التأكيد أنّهم مُصمّمون على تطوير حصّة البرامج الثقافيّة وبرامج التسلية. وعلى استضافة شخصيّات من كلّ التيّارات الأيديولوجيّة والفكريّة والسياسيّة، ينتمون إلى جميع الأديان وجميع الطوائف

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الموجودة في البلاد[٣٦]. وفي سياق ذلك، تمّ استقطاب المُذيع المصري عمرو ناصف، لتقديم أحد أهمّ البرامج الحواريّة في القناة «ماذا بعد؟».

هذا التطور على مستوى البرامج لا ينفصِلُ عن إرادة حزب الله في «إعادة تحديد» أهدافه التي تمرّ بوضوح عبر تدعيم موقعه السياسي وإرادته في أن يُصبح فاعلاً أساسياً في اللعبة السياسيّة اللبنانيّة. لكن هذا التحدي ليس من السهولة بمكان، لأنّ الأهداف كبيرة والوعود المُوجّهة للبنانيين كبيرة: «إصلاح النظام السياسي نحو مزيد من العدالة وتمثيل أفضل، إلغاء الطائفيّة السياسية، تقوية دور الدولة... إلخ.؛ فيما يبدو أنّ الخطاب والرسائل ليست إلا تطويراً للخطاب الاجتماعي لا الرغبة في تغيير النظام السياسي والاجتماعي بذاته»[٣٧].

وإذ يحرص المسؤولون عن القناة على التركيز أنهم مُستقلّون عن الحزب، فإنّهم يؤكّدون أيضاً استقلالهم عن المرجعيّة: «مرجعيّتنا تكمن في الاستراتيجية السياسية العامة التي تحكم عملنا داخل مجلس الإدارة ولكبار المُساهمين ومن بينهم أعضاء في حزب الله»[٣٨] مثل النائب محمد رعد، الذي يُعتبر أحد أكبر المُساهمين المُعلَنين[٣٩].

٣ ـ بعد التحرير: مشروعية محلية، عربية وإسلامية: انتشار ومشاكل

الآن وقد ربحت القناة الجولة الأولى، يُصبح من المنطقي طرح السؤال حول مُهمّتها بعد التحرير، هي التي كانت صوت المُقاومة. هل عليها أن تُعيد تحديد خِطابها الإعلامي كما إنّه على الحزب أن يُعيد تحديد أهدافه؟

---

(٣٦) عدّة أمثلة على ذلك، انظر على سبيل المثال الموقع الإلكتروني (www.plugged.com) نقرأ: «يبث تلفزيون المنار فعاليات ثقافية من لبنان ومن الدول المُجاورة، ويُنتج برامج عن الأدباء والشعراء، ولا ينسى الرياضة وبرامج الشباب»؛ على موقع (upjf.com)، نقرأ شكوى من أنّ قناة المنار قد قدّمت لمُشاهديها برنامجاً خاصاً عن مُحاضرة لجورج صليبا، مُطران الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسية في أنطاكيا حول موضوع: «رؤيا مسيحيّة لليهود» حيث يقول: «يظن اليهود أنهم وحدهم بني الإنسان ويعتقدون بأنهم وحدهم أولاد آدم. وينظرون إلى كلّ الآخرين كحيوانات (العجماوات). وهذا ما يتناقض مع رسالة الله في الأرض»، وفي ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠١، نظّمت القناة مهرجاناً شعرياً لمُظفّر النوّاب مع الشاعر جورج جرداق والمُغنّي الموسيقار مارسيل خليفة. انظر: **السفير**، ١٥/٦/٢٠٠١.

(٣٧) Lardeau, «Le Hezbollah: Un «libérateur» emprisonné par l'ordre politique».

(٣٨) نايف كريّم، «من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة،» **المستقبل** (بيروت)، ٦/١٠/٢٠٠٠.

(٣٩) <http://www.mohamed.raad.com>.

LAU Beirut campus

لا بُدّ للجواب أن يمُرّ بستّ مُلاحظات:

- بقاء الاحتلال في مزارع شبعا، في غياب اتفاق سلام بين لبنان وإسرائيل.

- واقع أنّ حزب الله لم يُحدّد نفسه يوماً بأنّه مُقتصر على الساحة اللبنانيّة؛ فهو ككلّ حركات المُقاومة العربيّة يضع نِضاله ضمن الإطار العربي القومي العام، وكحركة إسلاميّة ضمن إطار الدولة الإسلاميّة.

- أنّ الخطاب الذي تبنّته المنار، كما تبنّاه بعض مسؤولي حزب الله، وبخاصة حسن نصر الله، كان دائماً خطاباً عربياً قومياً.

- تنوّع البرامج حتّى قبل التحرير يجعل بثّ القناة يُلامس اهتمامات جميع المُشاهدين.

- الانسجام القائم بين الحكومة والمُقاومة، والذي نتج من عدّة عوامل أهمُّها وضعه كحزب محرِّر ومن ثَمّ علاقاته السياسيّة.

- الوضع القانوني للقناة والذي اكتسبته نتيجة حُصولها على ترخيص، بناءً على القانون اللبناني.

ما يُمكن تلخيصه بـ ثلاث ظواهر:

الأولى؛ التزام القناة بقضايا عربيّة مُحدّدة، وبخاصة الانتفاضة في فلسطين (كما شهدنا دعمها لانتفاضة مُقتدى الصدر في العراق).

الثانية؛ المُقاربة التي تحرص على تغطية جميع المجالات ومُعالجة المواضيع التي تهُمّ المواطنين كافّة.

الثالثة؛ المُقاربة الجديدة التي تحرص على التمييز بين المنار وحزب الله.

أ ـ مشروعية عربية وإسلامية

(١) من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة

ما إن اندلعت الانتفاضة في فلسطين، حتّى أعطتها المنار الأولوية ذاتها التي كانت تُعطيها لتحرير الجنوب؛ فقد كان من المُقرّر أن تبث ١٢ ساعة يومياً (على عربسات) في رمضان عام ٢٠٠٠، لكنّها رفعتها إلى ١٨ ساعة كي

تتمكّن من مُتابعة الأحداث. وهكذا، فإنها بـ «دعمها المُطلق لنضال الفلسطينيّين وبثّها لعمليّاتهم ضدّ الاحتلال، تمكّنت من أن ترفع نسبة مُشاهديها. . . فاحتلّت، بحسب الاستطلاعات، الموقع الرابع بين القنوات الأكثر مصداقيّة في عيون الفلسطينيين»[٤٠] وبخاصّة أنّ تلفزيون السلطة الفلسطينيّة كان لا يزال في مرحلة البثّ الرقمي الأرضيّ. ساهم في ذلك «تناقُص مصداقيّة السلطة الفلسطينيّة، وصُعود حماس والجهاد الإسلامي»[٤١].

في مُقابلة أجراها عام ٢٠٠٠، أكّد الأمين العام لحزب الله على الدعم المُطلق للقضيّة الفلسطينيّة وعلى الطبيعة «الأخلاقيّة والإعلامية» لهذا الدعم من دون أن يتحدّث عن أيّ دعم عسكري، «إنّ حزب الله يفهم أهميّة التغطية التلفزيونيّة لحركة مُقاومة، هكذا كان الأمر في لبنان، وهكذا هو بالنسبة إلى الانتفاضة»[٤٢]. الموقف نفسه عبّر عنه نائب الأمين العام، الشيخ نعيم قاسم، مؤكّداً أنّ حزب الله يقدّم «دعماً قومياً للفلسطينيين بواسطة تلفزيون المنار»[٤٣].

كانت هذه التغطية تتركّز على العمليّات وعلى المُناضلين والقياديّين المُنحازين إلى استمرار المُقاومة في فلسطين، سواء كانوا من حماس أو الجهاد الإسلامي أو من فتح، من مثل النائب مروان البرغوثي الذي كان يقود الانتفاضة في الضفة الغربيّة. وهذا ما يُفسّره نايف كريّم، في حوار مع صحيفة **المُستقبل** اللبنانية بقوله: «نحن ما زلنا في استمرارية خطّنا الأوّل، بل في تطوير دورنا في الصراع مع العدو الصهيونيّ وغطرسته اللاإنسانيّة»[٤٤]. دور يتجاوز الإعلامي، المهني البحت إلى النشاطِ النضالي: «قد يحصُل أن تتحرّك القنوات الأخرى بسرعة أكبر، لكنّ قضيّة الانتفاضة ليست قضيّة أخبار بل مسألة دور، مُشاركة، ونحن في قلب الحدث»[٤٥] يقول كريّم.

إعادة تأكيد جديدة على الساحة السياسية، والمُناضل، عربيّاً هذه المرّة،

(٤٠) Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah».

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) مقابلة مع السيد حسن نصر الله، على التلفزيون السوري، ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.

(٤٣) خطاب نعيم قاسم على تلفزيون المنار، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.

(٤٤) كريّم، «من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة».

(٤٥) المصدر نفسه.

فيما يُشكّل استمراريّة لدور القناة ولدور الحزب على ساحة العالم العربي. لكنه أيضاً تدعيم للخط الإسلامي على الساحة الفلسطينيّة في مواجهة الخُطوط الأُخرى من عرفاتيّة ويساريّة (فتح، الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي)، ما يُفسّر اختلاف مُستوى شعبيّة المنار لدى الجمهور الفلسطيني.

ففي حين يعتبر نايف كريّم، أنّ محطته هي «الأولى تقريباً على مستوى الجمهور الفلسطيني بناءً على الاستطلاعات التي أُجريت انطلاقاً من الأردن. . . وبناءً على آلاف المُكالمات التلفونيّة التي نتلقّاها من فلسطين»[٤٦]، تنشر الهيئة العامة للاستعلامات، والتي هي مؤسسة من مؤسسات السلطة الفلسطينيّة في غزّة، نتيجة استطلاع آراء أجرته لتأتي المنار فيه في المرتبة السادسة عند السؤال عن أفضل قناة يُتابع المواطنون نشرتها الإخباريّة، وفي المرتبة الثالثة عند السؤال عن أفضل قناة تُساهم في تحريك الشارع العربي لصالح الانتفاضة وضدّ إسرائيل[٤٧]. وربّما أمكن تفسير الفارق بين مرتبة المنار في السؤال الأوّل ومرتبتها في السؤال الثاني بالنسبة إلى المحطات الأخرى بتقدّم هذه المحطات على مُستوى الإمكانيّات التقنيّة والمُراسلين، وبخاصة أنّ بعض هؤلاء المُراسلين يحملون الجنسيّة الإسرائيليّة (وليد العُمري، الجزيرة مثلاً) أو الغربيّة، الأمريكية (جاسم العزاوي، أبو ظبي مثلاً)، ما يُسهّل لهم حريّة الحركة والوُصول إلى المعلومة، بل والحماية القانونيّة. أمّا على صعيد التحريض والدعم المعنوي، فإنّ المسألة تُصبح مسألة خِطاب لا مسألة أخبار، وتلعب فيها الصدقية دوراً كبيراً وبخاصة عندما تكون صدقية تحرير.

هذا التأثير يمتدّ بشكل أوسع في كلّ العالم العربي بما فيه المُخيّمات الفلسطينيّة، حيث ترسم الصحافيّة مارينا دوسيلفا في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢، الصورة التالية: «رغم مُستوى الحياة الصعب في مُخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان والذي يبلغ حداً أدنى مِمّا هو عليه في غزّة، فإنّ

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) أجري هذا الاستطلاع في ٢٤ و٢٦ نيسان/ أبريل ٢٠٠١، على شريحة مؤلفة من ١٣٨٠ شخصاً يمثلون فئات مختلفة من الأعمار والجنس والمهن والمناطق الجغرافيّة. احتلّت الجزيرة الموقع الأول بـ ٥٨ بالمئة للسؤال الأول. و٥٠,٤ بالمئة للسؤال الثاني. تلتها أبو ظبي، ثم التلفزيون الفلسطيني، ثم إن بي سي، إيه إن إن، والمنار بالنسبة إلى السؤال الأول وأبو ظبي والمنار بالنسبة إلى السؤال الثاني.

LAU Beirut campus

تبرّعات هؤلاء للانتفاضة تبلغ مُستوى عالياً ونجد الناس مُتجمّعين باستمرار حول الجزيرة والمنار»[٤٨].

(٢) التأثير في العالم العربي

يرتكز تأثير المنار في العالم العربي على مِحورين رئيسين:

ـ فلسطين، وبتعبير أوسع، الصراع ضدّ الصهيونيّة.

ـ التيّار الإسلاميّ، وبخاصّة الشيعي.

ما يُفسّر المشروعيّة التي يكتسبها خطابها، وضعها، وحتى اعتراف بعض القادة العرب الملزمين بتأثيرها: حيث حرص الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، في معركته الانتخابية الأخيرة على أن يتوجّه عدّة مرّات إلى المنار وأحياناً بلقاءٍ أو تصريح خاص. هذا التأثير في الجزائر يرتبط بالقضيّة الفلسطينيّة، في حين أنّ تأثيراً آخر هو التأثير الشيعي يُعطي القناة أفضلية في البحرين مثلاً، حيث تُعتَبَرُ المنار «العامل الرابع في تشكيل الرأي العام السياسي»[٤٩] وتوضع على موقع الإنترنت «واحُسيناه». كذلك فإن شيعة العربيّة السعودية، المُعارضين بغالبيّتهم للنظام والذين يُعانون القمع والظلم الاجتماعيين ليسوا أقلّ تعلُّقاً بالمنار وتأثراً بها.

في العراق لم تكن القناة تصل إلى الجمهور قبل الاحتلال. أمّا بعده، فقد ارتفع مستوى مُشاهدتها في الوسط الشيعيّ. وعندما كانت التغطية الميدانية غير كافية كانت تُعوّضها بالبرامج الحواريّة؛ في عام ٢٠٠٦، تمّ ملء هذا الفراغ الميداني وكان للدعم الذي قدّمته القناة للزعيم الشيعي مُقتدى الصدر، فضلاً كبيراً في رفع مستوى مُشاهدتها. خاصّة بعد أن أعلن الصدر أنّه ذراع حزب الله في العراق[٥٠].

(٣) التأثير في العالم الإسلامي

على المُستوى الإسلامي، كانت حرب أفغانستان فرصة الظهور الأوّل

(٤٨) Marina de Silva, «L'Espoir vacillant au sud Liban après la Libération,» *Le Monde diplomatique* (janvier 2002).

(٤٩) محاضرة منصور الجمري، قُدمت في البحرين بتاريخ ٢٤ نيسان/ أبريل ٢٠٠٢.

(٥٠) حوار مع مُقتدى الصدر على قناة المنار في ١٣ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤.

للمنار على ساحة المُنافسة «هكذا ظهر لوغو المنار على شاشات التلفزيونات الغربيّة عندما نقلت وكالات الصحافة الدولية الصور المأساويّة للصراع على خطّ الجبهة الواقع بين طالبان وتحالف الشمال في منطقة باجلام. حيث أمكن رؤية تفاصيل هذه المعركة عن قُرب وبنمط يُشبه كثيراً الأفلام التي كان حزب الله يُوزّعها على الصحافة بعد عمليّات مقاتليه ضد الجيش الإسرائيلي في القطاع المُحتل جنوب لبنان»[٥١]. لكن هذا السبق الإعلامي طرح سؤالاً حول وُجود فريق المنار في المناطق التي تُسيطر عليها القوّات الأفغانيّة المُعارضة لطالبان؟ وردّ مسؤولو القناة أنّ ثلاثة من صحافييهم غطّوا الأحداث من باكستان من دون أي وجود في كابول أو باجلام. أما الشريط المُصوّر المذكور، فإن نايف كريّم، مُدير القناة يقول لجريدة **الحياة** أنّه حصل في إطار التعاون مع التلفزيون الإيراني، وعندما سُئلَ لماذا لم يبثّه التلفزيون الإيراني أولاً؟ أجاب: «لا شكّ في أنّ إخوتنا هنا (في لبنان) هُم أكثر نشاطاً»[٥٢] غير أنّ هذه القضية لم تلبث أن أثارت إشكالاً بين المنار وفريق التلفزيون الفرنسي الذي ادّعى أنّ الصور أُخذت منه قبل بثّها.

أخيراً، تلعب المنار لعبة الصورة التي تترسّخ في الوعي الجمعي (Subliminal)؛ ففي غياب قيادة عربية على صورة ناصر، أو في فترةٍ ما صدّام حسين، يتقدّم نصر الله كزعيم قاد الانتصار العربي الأول على إسرائيل (منذ ١٩٧٣)، وتتكفّل المنار بتسويق وتكريس صورته كقائد مُحرّر «وكتجسيد لسلطة الحزب وكركيزة لإعلامه السياسي... وتُشكّل المنار القناة الرئيسية لإخراج هذه الصورة ولتثبيت زعامته الكاريزماتيّة على المستوى الوطني والعربي والإسلامي»[٥٣].

ب ـ الانتشار خارج العالم العربي الإسلامي

(١) التأثير في إسرائيل: دعاية الحرب

ما يُطلق عليه مركز بيغن ـ السادات للدراسات الاستراتيجية تسمية

(٥١) وفيق قانصو، «المنافسة بين التلفزيونات العربية،» **الحياة**، ١٢/ ١٠/ ٢٠٠١.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah».

LAU Beirut campus

«الحرب النفسيّة بين العرب وإسرائيل»[٥٤] هو ما يؤكّده مسؤولو المنار، إذ يعتبرون قناتهم «أداة أساسيّة في الصراع ضد العدو الصهيوني»[٥٥]. وهم إذ يستفيدون من كل نظريّات وتجارِب الحرب النفسيّة وعلم دعاية الحرب، فإنّما يُركّزون على هدفين: العرب والإسرائيليين. من هُنا كانت المنار أوّل من بث برامج بالعبريّة مُوَجّهة إلى يهود إسرائيل، تضمّنت صورة مدروسة بدقّة كي تؤثّر على العرب والإسرائيليين معاً؛ ففي صُفوف العرب وجد تأثير المُقاومة الإسلاميّة صدىً كبيراً في صُفوف الإسلاميين من دون شك، ولكن في صُفوف جميع الراديكاليّين أيضاً. أمّا بعد التحرير فقد تمتّعت بالإجماع، ولكن مع ردّتَي فعل مُختلفتين: شيء من الغيرة في مُعسكر مؤيّدي التنظيمات القديمة للمُقاومة الفلسطينيّة حيث جاء الانتصار اللبناني وكأنّه إدانة للهزيمة الفلسطينيّة ولخط أوسلو، وبرهان على عبثيّة هذا الخط، غيرةٌ تنبُعُ أكثر من كون الفلسطينيين هُم الذين حرّكوا المُقاومة في جنوب لبنان. أمّا الثانيّة فهي الحُصول على برهان قاطع على فعاليّة المُقاومة ورفض التنازلات وقدرة الأولى على استرجاع الحُقوق، برهان لم يكن من شأنه إلا أن يؤدّي إلى تقوية التيار الإسلامي.

ما لا ينطبق على الفلسطينيين خارج إسرائيل فحسب، وإنّما على فلسطينييّ الـ ١٩٤٨ أيضاً الذين كانوا حتّى انطلاق الفضائيّات منقطعين عن الإعلام العربي. أمّا هذه المرّة فإنّ ردّات الفعل على التحرير التي تفجّرت في الضفّة الغربيّة وغزّة، قد امتدّت إلى فلسطينيّي إسرائيل ولم يكن دور الإعلام ببعيد عن ذلك. أمّا اليهود الإسرائيليّون، فيتلقّون البث بالعبريّة الذي اعتبره الخُبراء الإسرائيليّون بالغ الخُطورة «طالما أمكن التقاطه في إسرائيل»[٥٦].

في حين يرى باحث أمريكي «أنّ التأثير المُباشر للمنار على الإسرائيليين هو في الواقع محدود. حيث إن أكثر هؤلاء مشترك في كافيه زاهاف (كابل)، أو في القمر الصناعي «ييس»، وكلاهما لا يضُم المنار. من هنا فالإسرائيليون الذين يلتقطون المنار هم المشتركون في عربسات وسُكّان شمال إسرائيل

(٥٤) The Begin - Sadate Center for Strategic Studies, <http://www.biu.ac.il/Besa/researchers.html>.

(٥٥) كريّم، «من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة».

(٥٦) The Begin - Sadate Center for Strategic Studies, <http://www.biu.ac.il/Besa/researchers.html>.

القريبون من الحدود اللبنانية الذين يلتقطون المنار مباشرة عبر هوائياتهم». غير أنّ سكّان شمال إسرائيل وبخاصّة سكّان المستوطنات المنتشرة هناك، هم الذين يشكلون الهدف الرئيس للحرب النفسيّة التي يشُنّها حزب الله. إضافة إلى أنّ المحللين السياسيين والعسكريين في إسرائيل «يُتابعون المنار وبرامجها ويُعلّقون على مضمونها في إعلامهم المكتوب والمرئي والمسموع»[٥٧].

غير أنّ الخبير الفلسطيني غازي السعدي، يرى أنّ تأثير المنار في إسرائيل ليس فعّالاً بما يكفي، بسبب عدم التمكّن من اللغة العبريّة ومن اللهجة، وبخاصّة بسبب جهل أذواق الجمهور الإسرائيلي إضافة إلى مُشكلة الكوابل والصحون اللاقطة[٥٨].

عمليّاً بدأ البثّ العبري عام ١٩٩٦. وكان يتضمّن أشرطة فيديو موجّهة للجمهور الإسرائيلي تُحذّر إسرائيل من مخاطر البقاء في لبنان[٥٩]. وقد استخدمت القناة «فلسطينيين يُتقنون العبريّة من مواطني الأراضي المُحتلة الذين هاجروا أو طُردوا من إسرائيل خاصّة الأسرى السابقون الذين أتقنوا العبريّة في السجون الإسرائيليّة، ومنهُم بعض مُقاتلي حزب الله الذين شكلوا بعد عودتهم «خليّة الرصد والتنصّت على مُكالمات جيش الاحتلال»[٦٠].

«التغطية المُباشرة لكُلّ العمليات بواسطة الفيديو كانت المنار تُريد أن يرى الإسرائيليون موت جنودهم في لحظته الحقيقية»[٦١]؛ فيما يلتقي مع ما كان يُعلنه مسؤولو حزب الله من أنّ المنار تعمل على إحباط معنويّات جنود الجيش الإسرائيليّ وأنّ هذه التغطيات قد قادت الكثيرين منهُم إلى الهرب من مواقعهم[٦٢]. كذلك أكّد هؤلاء المسؤولون أنّ تأثير برامج المنار رفع من نسبة مُحاولات الانتحار وتعاطي المُخدرات في صُفوف الجنود الإسرائيليين، ولعب دوراً حسّاساً ومُهمّاً في قرار الانسحاب من جنوب لبنان[٦٣].

(٥٧) نايف كريّم، مقابلة شخصيّة مع الباحثة.

(٥٨) غازي السعدي، «البث التلفزيوني بالعبريّة،» **الزمان** (لندن)، ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٠.

(٥٩) *Christian Science Monitor*, 28/12/2001.

(٦٠) **الاستقلال** (غزة)، ١٨/ ١١/ ١٩٩٩.

(٦١) *Christian Science Monitor*, 28/12/2001.

(٦٢) **الاستقلال**، ١٨/ ١١/ ١٩٩٩.

(٦٣) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

ذاك أنّ الصورة تتجاوز قيود اللغة وتتمكن من إحداث تأثير أكثر عُمقاً، بل ومُزدوجاً؛ على العرب وعلى اليهود في إسرائيل كما على سائر جُمهور القناة. وإذا كانت هذه الصورة تعمل على «تدعيم تضامن اللبنانيين»[٦٤]، وتحفيز العرب، وإعطاء المشروعيّة للمُقاومة، وإظهار معنويّات المُقاتلين، فإنّها بتوجّهها إلى مُعسكر العدوّ إنّما تُحدث النتائج المُعاكسة لكُلّ ذلك. وهذا ما يحرص على تأكيده تقريرٌ لمركز بيغن ـ السادات، حول التحريض ضد الجيش الإسرائيلي: «مُنذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينيّة تبُثّ المنار مشاهد دامية كثيرة بالصورة الحيّة (نساء وأطفال أصابتهم الصواريخ الإسرائيليّة مثلاً)»[٦٥]، ما يمثل تبريراً للرد الفلسطيني، الذي يمنح الرضا للبعض ويُصيب الآخرين بالإحباط...» وهي تبثّ «صُور إطلاق صواريخ من عربات الجيش الإسرائيلي، كما تُصوّر مقاتلين فلسطينيين يُهاجمون المواقع الإسرائيليّة ويحتلّونها بثوانٍ...»[٦٦] كذلك تبُثّ القناة كليبّات دعائيّة للجناح المُسلّح لحزب الله وتبرمجها بحيث يأتي توقيتها في أوقات الذروة»[٦٧]. وبما أنّ الصراع العسكري ليس إلا وسيلة لبلوغ الأهداف السياسية التي يقع في أساسها الصراع على الأرض، وبالتالي الهجرة اليهوديّة إلى إسرائيل، «فإنّ المنار تبثّ في مُناسبات أخرى فلاشات بالعربيّة والعبريّة تحُثّ المُهاجرين الجُدد إلى الدولة العبرية على العودة إلى بلادهم: «أيّها اليهود عودوا إلى الولايات المُتّحدة وأوروبّا. ففي فلسطين لن تجدوا ما ينتظركم إلا الموت»[٦٨]. وهُنا يحرص باحثو المركز على التأكيد على «القُدرة العالية للمنار والنور» لبثّ الحذر والخوف في صُفوف

(٦٤) Lardeau, «Le Hezbollah: Un «libérateur» emprisonné par l'ordre politique».

(٦٥) قبل الانسحاب الإسرائيلي بأسابيع، تكرّر على شاشة المنار سبوت يضع أدولف هتلر بموازاة ديفيد ليفي وزير الخارجيّة الإسرائيلي. يُظهر أولاً هتلر وليفي يُلقيان خُطباً ويستعملان المُصطلحات نفسها لتشويه عدوّهم .**الأول**، ضدّ اليهود و**الثاني**، ضدّ حزب الله ولبنان؛ بعد ذلك تظهر صُور عمليّاتٍ حربيّة وأطفال لبنانيّين جرحى تقطعها من حينٍ إلى آخر عبارات: «الحقد نفسه» «العنصريّة نفسها» «الإجرام نفسه» «التاريخ نفسه» «إنّهم يقتلون أطفال لبنان، يحرقون لبنان». ومن ثُمّ تذوب الصور كلها في صليب معكوف قبل أن ينتهي سبوت بعبارة: «إنّهُم يخسرون الحرب، يندحرون».
<http://www.etudiant.ch/page.20>.

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) The Begin - Sadate Center for Strategic Studies, <http://www.biu.ac.il/Besa/researchers.html>.

(٦٨) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

المُهاجرين عبر «صور اجتذبت الجمهور وأثارت غضباً واسعاً... كما إنّ أخصّائي علم الاجتماع أنان (Anan)، ومُراسلو الصحف للقضايا العربيّة راحوا يُتابعونها ويعكفون على دراستها»[٦٩]. وفي ذلك يضيف التقرير المذكور «يُشكّل السمعي ـ البصري عاملاً مركزياً في الصراع السياسي حيث إنّ نقل المعلومات، تداولها، وقدرتها على الإقناع، تتطلّب من السلطات أن تأخُذ بعين الاعتبار هذا السياق الجديد وأن تُعيد تنظيم تفكيرها بناءً عليه»[٧٠].

إذا كانت دعاية الحُلفاء قد ساعدت خلال الحرب العالميّة الثانية في دفع الوحدات الألمانيّة إلى القيام بهجومات انتحاريّة جماعيّة، فإنّ البرامج والأفلام والصور المُتعلّقة بـ «المجازر»، بـ «تاريخ الاستيطان»، بـ «أنشطة الطوائف اليهوديّة في العالم لصالح إسرائيل»، بـ «سيطرة هذه الطوائف على وسائل الإعلام»[٧١]، التي يُعدّدها مدير المنار، تُساعد بدورها على تحريك المُقاتلين والجُمهور وتجريم الإسرائيلي، «لذا لم يقتصر الأمر على البث التلفزيوني فحسب، بل إنّ «صور المجازر التي ارتكبها الإسرائيليون، وأعمال الاحتلال، مُترافقة مع المؤثّرات الصوتيّة، قد أُعيد نشرها على مواقع إلكترونيّة حاول (الهاكرز) الإسرائيليون تخريبها ولكن عبثاً»[٧٢].

صحيح أنّ هذه الأفلام قد صُوّرت بوسائل بسيطة لكنّها تتمتّع بصدقية كبيرة بفضل الواقعيّة. لكن الواقع بحاجة إلى مأسسة وترسيخ بحسب الفيلسوف الإعلامي ميشيل دو سيرتو: «استعملت كاميرات الفيديو البسيطة لتصوير الأماكن الواقعيّة والحقيقيّة لساحة المعركة، للعمليات، وللمواجهات مع الجنود الإسرائيليين. ثُمّ بُثّت هذه الأفلام على المنار مع موسيقى تُثير الانفعال كما تثيره نشوة الانتصار. كذلك حرصت القناة على تكرار صور الآليّات المُدمّرة أو المأسورة لتؤكّد واقعَ وحسَّ النصر»[٧٣].

هدف آخر أُريد أيضاً من وراء الصورة، وهو تقديم دليل حاسم على

(٦٩) المصدر نفسه.

(٧٠) المصدر نفسه.

(٧١) كريّم، «من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة».

(٧٢) The Begin - Sadate Center for Strategic Studies, <http://www.biu.ac.il/Besa/researchers.html>.

(٧٣) المصدر نفسه.

العمليّات التي كان يُثار حولها التشكيك أو يتنازعها أكثر من طرف، سواء على الساحة المحليّة أو العالميّة؛ ففي ٢٢/١/٢٠٠٤، مثلاً اتّهمت إسرائيل حزب الله أنّه هاجم إحدى آليّاته على الحدود، ولم يكُن من المنار إلا أن نشرت فيلماً يُصوّر البلدوزر الإسرائيليّة تجتاز خطّ الحُدود وتُحاول القيام بعمل مُعادٍ داخل الأراضي اللبنانيّة ومن ثُمّ يُطلق مقاتلو الحزب صاروخاً عليه، عنها صرّح الناطق الرسمي باسم الأمم المُتّحدة نيلوس شتوتغارد، أنّ البلدوزر كانت فعلاً في الأراضي اللبنانيّة ما اضطر المندوب الأمريكي آدم إيرلي إلى القول: «لا أريد أن أقول من الذي انتهك حرمة الآخر»[٧٤].

(٢) التأثير على الدياسبورا

إذا كان انتماء العالم العربيّ إلى فضاء جيولغوي واحد يُسهّل تداول البث الفضائي، فإنّ تلقّي هذا البث كما بناء رُموزه وتفكيكها، يتجاوز مفهوم اللغة والجغرافيا. حيث تؤدي الثقافة والتاريخ والقضايا الكُبرى دورها الحاسم أيضاً.

هكذا، فإنّ الدياسبورا العربيّة المُنتشرة في كُلّ العالم، تُشكّل امتداداً لجمهور الفضائيّات العربيّة. وفي هذا يُوضّح نايف كريّم، أنّ «جمهوراً كبيراً من المُتلقّين يرتبط بحيويّة بالقناة سواء في برلين أو في كوبنهاغن وشتوتغارد... إلخ.، كما يُشارك في العديد من فعاليّاته»[٧٥]. وبإمكان المُشاهدين أن يُلاحظوا بسهولة مشاركة المُغتربين عبر الهاتف والساتلايت من أمريكا ومن أفريقيا ومن أستراليا، حيث يُشكّل اللبنانيّون الشيعة نسبة عالية في دول الاغتراب هذه، يُضاف إليهم نسبة المؤيدين من الطوائف الأخرى المُهاجرة؛ في عام ٢٠٠٢، استضافت بيروت قمّة الفرانكوفونيّة فسارعت المنار إلى الاستفادة من هذا الجو الفرانكوفوني المُؤاتي لإطلاق نشرة أخبار باللغة الفرنسيّة تستهدف بشكل أوّلي الحضن الذي تقدّمه المُغتربات الأفريقيّة والأوروبيّة بخاصة في فرنسا، وبذلك حقّقت ضربة سياسيّة ناجحة تهدف إلى تمكين العلاقات مع منظّمة الفرانكوفونيّة من جهة، ومع فرنسا من جهة ثانية ومع المُغتربين العرب. عِلماً أنّ لبنانيّي أفريقيا يُشكّلون الهدف الأولي لهذا البث، أولاً لكونهم في غالبيّتهم من الشيعة ولأنّهم يُشكّلون مصدر تبرّعات

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) كريّم، المصدر نفسه.

وتمويل أساسي «طائفة استطاعت اللغة الفرنسيّة أن تُسجّل لدى شبابها نقاطاً مُتقدّمة لصالحها في حين تراجع استعمالها لدى المسيحيين الذين اتّجهوا أكثر نحو الإنكليزيّة. ويأتي تفسير هذه الظاهرة من تأثير السياسة العربيّة لفرنسا والتي ينظر إليها بعين الرضا كونها تسهّل تقدُّم وانتشار اللغة الفرنسيّة لدى المُسلمين»[٧٦].

وأخيراً، فإنّ الوُصول إلى هذا الجُمهور المُغترب في كُلّ أصقاع الدّنيا، ينقُل ساحة المعركة النفسيّة والسياسية بين المنار وإسرائيل من الأفق المحلّي إلى الأفق الدولي خاصّة أوروبّا والولايات المتحدة بل وحتّى في الأمم المتحدة.

يُمكن تأثير القناة على المغتربات أن يُفعّل ما يُسمّيه البعض صحوة، في حين يُسمّيه البعض الآخر أُصوليّة، ويمضي آخرون إلى نعته باللاسامية. غير أنّه في كل الأحوال مُنافسة خطِرة للحُضور الإعلامي وللسياسة الإسرائيليّة وتحريك للمُتلقّين ضدّ الدولة العبريّة، بل إنّه يُمكن هذا التأثير أن يصل المُهتمّين من خارج الدوائر الاغترابية، إذ يُقدّم لهُم روايةً أُخرى للمسائل السياسيّة. من هُنا يبدو التحرّك الإسرائيلي، منطقيّاً، لصالح منع بثّ تلفزيون المنار في أوروبّا، في أستراليا، وفي الولايات المُتّحدة. وهو تحرّك استفاد بشكل عريض من انعكاسات ١١ أيلول/ سبتمبر والحرب ضدّ الإرهاب. وبخاصّة أنّ وزارة الخارجيّة الأمريكية، قد وضعت حزب الله على قائمة المُنظّمات الإرهابيّة في حين لم تعتبره أوروبّا كذلك.

في هذا السياق تبدو أيضاً استراتيجية المنار في الانفصال القانوني عن حزب الله ذكيّة ومُفيدة؛ فهي إذ تُعلن نفسها مُستقلّة عنه، تفلت من القائمة ومن الاتهامات بالإرهاب، بينما تُحافظ على وضعها كمُمثّلة للمُقاومة اللبنانيّة. مُهمّة صعبةٌ جداً طالما أنّ القناة هي صوت الحزب، الذي لم يكن في بِدايته إلا إحدى ميليشيات الحرب. أمّا الآن وقد حقّق التحرير، فإنّه يواجه تحدّي اكتساب صفة الحزب السياسي الذي يُشكّل فاعلاً مثله مثل سواه في الحياة السياسية للبلاد. تطوّرٌ بفرض مُقاربة إعلاميّة جديدة، وخطاباً جديداً ويمنحه فيث المُقابل ميّزات عدّة من أهمّها: الإفلات من تهمة الإرهاب على الساحة الدوليّة. هكذا يستطيع مدير القناة أن يقول عام ٢٠٠٣: «يمنح القانون اللبناني

(٧٦) Khalil Fleihan, «Le Mouvement sioniste en colère,» *L'Orient le jour*, 31/10/2003.

LAU Beirut campus

الحريّة لجميع لجمع وسائل الإعلام، لذلك نحن لا نتعرّض لأي ضغط أو منع من قبل الحكومة. . .وقد كُلّف المجلس الأعلى للإعلام بتنظيم أنشطة المؤسّسات الإعلاميّة في إطار التفاهُمات الوطنيّة»[٧٧].

ج ـ الأزمات: انتقال ساحة المعركة

إذاً، فإنّ المواجهة، التي لم تعُد ممكنة قانوناً بناءً على وضع القناة، تتمّ الآن على مُستوى مضمون البرامج نفسها. وهكذا تندلع عدّة أزمات مُتتالية حول مُسلسل الشتات (الدياسبورا)[٧٨]. غير أنّ مصادر مطّلعة تؤكّد لصحيفة **لوريان لوجور** اللبنانيّة أنّه «إذا طلب السفير الأمريكي في بيروت وقف المسلسل المذكور فإنّ الجواب سيكون لا. . .ولعدّة أسباب: أوّلها أنّ القناة هي قناة «خاصّة»، «تتمتّع بحريّة كاملة» «ومن الأكثر جُمهوراً» «وتُشكّل الرقابة عليها تعدّياً على حُريّة الرأي»[٧٩].

تعلّقٌ بحريّة الرأي أو تفسيرٌ ينقذ القناة والحكومة اللبنانيّة معاً ويُناسب أهدافهما السياسية؟ أليس هذا هو السؤال الذي يدور دائماً حول المبادئ وأسلوب تطبيقها؟ بين ما يُقال في وسائل الإعلام وحقيقة المسكوت عنه؟

(١) من أستراليا إلى فرنسا

السؤال نفسه يُطرح أيضاً حول تطوّر القضيّة في الخارج: ففي أستراليا أولاً وَجدتْ القناة نفسها في مواجهة مع الحُكومة، التي أوقفت البثّ في حين كانت لجنة رقابيّة لا تزال تقوم بتحقيق حول انتهاكات مُحتملة. لكنّ شركة تارك (TARK) التي كانت تؤمّن بثّ المنار، أعلنت أنّها ستُعيد النّظر في عقدها مع القناة[٨٠]. في ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤، أعلن إبراهيم

(٧٧) «ناصر أخضر نائب مدير قناة المنار: لا نخضع لحزب الله ولا أحد يسيطر علينا،» **الشرق الأوسط**، ٥/ ٨/ ٢٠٠٣، <http://www.aawsat.com/details.asp?section=24&article=185507&issueno=9016>.

(٧٨) أزمات أدّت إلى صراعات قضائية، وإدارية هدفت إلى منع بث القناة في أوروبا وأستراليا وأميركا وكندا.

(٧٩) Fleihan, Ibid.

(٨٠) «جهاز رقابة توقف التحقيقات حول انتهاكاتٍ مُحتملة،» **الوطن** (الدوحة)، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٣.

LAU Beirut campus

الموسوي أنّ المنار تُفتّش عن بدائل أُخرى، قمراً صناعياً آخر في حال فشلت المُفاوضات مع «تارك» في الوصول إلى حلّ. وعلى ذلك يُعلّق الصحافي أنطوان قزّي في صحيفة **التلغراف** قائلاً: «إنّها أزمة سياسية بالمُطلق لا علاقة لها إطلاقاً بمضمون البرامج»[٨١]. كما يكتب مدير تحرير موقع المُحرر نت قائلاً «إنّها قضيّة مُرتبطة بحظر الحكومة الأستراليّة لحزب الله».

بعد أستراليا يأتي دور أوروبا، وفي أوّل عام ٢٠٠٤، تكتب صحيفة أردنيّة: «بحسب الإذاعة الإسرائيلية، فإنّ الحُكومة الإسرائيليّة قد تدخّلت لدى عدد من الحُكومات الأوروبيّة لتطلب منها منع بثّ تلفزيون المنار وذلك قبل عدّة أسابيع من تبادل الأسرى بين إسرائيل وحزب الله. داعمةً تحركها هذا بتقديم أفلام وبرامج مُعادية لليهود بثّتها القناة»[٨٢]. بعد ذلك بعدّة أسابيع كتبت صحيفة **لوموند** الفرنسية: «ذكّرت صحيفة **معاريف** الإسرائيليّة في مُتابعتها للزيارة التي يقوم بها حالياً لفرنسا رئيس دولة إسرائيل، أنّ السلطات الفرنسيّة تدرس بجدّيّة حظر بثّ قناة المنار التابعة لحزب الله، والذي يُمكن التقاطه في البلاد. وقد أُعطيَ هذا الوعد لموشيه كاتساف، في إطار الصراع الذي تخوضه فرنسا حالياً ضدّ التعصّب واللاساميّة على أرضها. غير أنّ الرئيسين كاتساف وشيراك، لم ينجحا خلال لقائهما يوم الاثنين في التوصل إلى مساحة اتفاق بخصوص حزب الله. حيث طلب كاتساف من شيراك أن يُعلن رسمياً اعتبار الحزب مُنظّمة إرهابيّة، وذلك ما تتردّد أوروبّا في الإقدام عليه. لكن شيراك أجاب أن إسرائيل نفسها قد دخلت في مُفاوضات مع مسؤولي حزب الله. ليردّ عليه كاتساف بأنّ تلك المُفاوضات كانت تتعلّق فقط بهدف إنساني هو استعادة جُثث ثلاثة جُنود وتحرير مواطن إسرائيلي من الأسر»[٨٣].

مسؤولو المنار يردّون بأنه لا علاقة للاساميّة بهذا المطلب الإسرائيلي، بل إن السبب الحقيقي يكمن في مسألة تحرير حزب الله لدى إسرائيل (والتي تمّت في برلين) «لا تستطيع إسرائيل أن تتحمّل نقل صور فشلها الثاني في وسائل الإعلام: فشل سياسي بعد الفشل العسكري»[٨٤].

(٨١) أنطوان قزّي، «أزمة سياسيّة بحت،» **التلغراف**، ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٣.

(٨٢) «إسرائيل تُطالب بعقوبة وقف بثّ المنار،» **الرأي** (عمّان)، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٣.

(٨٣) «Les Emissions d'Al Manar censurées en France,» (forum), *Le Monde*, 18/2/2004.

(٨٤) «المنار والحملة الإسرائيليّة في أوروبا،» **اللواء** (عمّان)، ٦/ ٢/ ٢٠٠٤.

أمّا الموقع الإلكتروني للطلبة اليهود في فرنسا، فيستبق الأمر ويكتب في أعلى صفحته «أنّ المجلس الأعلى للسمعي ـ البصري (CSA) قد طلب من إدارة الموقع رسمياً من القمر الصناعي (أوتيل سات)، وقف بثّ قناة حزب الله المُوَجّه إلى الأراضي الفرنسيّة»[٨٥] وبعد أيّام عاد الموقع نفسه ليكتب: «لقد قطعت أوتيل سات خط القناة العربيّة، المنار، المُرتبطة بحزب الله، لأنّها كانت تبثّ مسلسلات لاساميّة»[٨٦]. وعلى الموقع نفسه نجد ملخّصاً لمقالة لسيرج ديمون الصادرة في صحيفة **لوسوار** البلجيكيّة، يُعتبر فيه أنّ «السلطات الإسرائيلية تعتبر وقف بثّ برامج المنار المرتبطة بحزب الله، والمُوجّهة إلى فرنسا وبلجيكا، عبر أوتيل سات، بمثابة انتصار»[٨٧]، غير أن المقالة لا تتعرّض إطلاقاً لمضمون البرامج المُوجّهة إلى أوروبّا بل للبرامج التي بُثّت إثر أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر وللبرامج التي تُبثّ بالعبريّة والمُوجَّهة إلى الجمهور الإسرائيلي.

بعد ذلك بأسبوع، نشرت جريدة **السفير** خبر «التوصّل إلى اتّفاق حل وسط بين القناة والسلطات الفرنسيّة»[٨٨]. كذلك في ألمانيا يصرّح الرئيس موشيه كاتساف خلال زيارته لبرلين يوم الجمعة ٣٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤ لصحيفة **فرانكفورتر الجيماين زيتونغ** (*Frankfurter Allgemeine Zeitung*)، أنّ «العرب هم سبب اللاساميّة وأنّهم يستفيدون من الحريّة، العولمة وتكنولوجيا الاتصالات ليحققوا هدفهم: تدمير دولة إسرائيل. وبخاصة وسائل إعلامهم المُتطرّفة التي تنشر عبر الإنترنت والفضائيّات كُتُباً لاساميّة. وعلى الدول العربيّة أن توقِف بثّ هذه الفضائيّات في أوروبّا»[٨٩].

(٢) حرب المنع تصل إلى الأمم المتحدة

حرب لا توفّر مؤسّسات الأُمم المُتّحدة؛ فقد ذكرت المنار مرّتين في رسالة من ١٣ سطراً وجّهها المندوب الإسرائيلي الدائم لدى المُنظّمة الدولية إلى

(٨٥) <http://www.ujf.com>.

(٨٦) المصدر نفسه.

(٨٧) Serge Dumont, <http://www.ujf.com>.

(٨٨) «حل وسط لحماية بثّ المنار في فرنسا،» **السفير**، ٢/ ٢/ ٢٠٠٤.

(٨٩) «كاتساف: العرب هُم أصل اللاساميّة،» الجزيرة نت، ١ أيار/ مايو ٢٠٠٤.

LAU Beirut campus

الأمين العام للأُمم المُتّحدة، حول عمليّتين ادّعى أنّ حزب الله قد قام بهما ضدّ إسرائيل في ٢٥ و٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢. وذلك ليؤكّد في المرّتين أنّ «هويّة العمليّة ومُنفّذها» قد أُعلنت على «قناة تلفزيون المُنظّمة الإرهابيّة: حزب الله»[٩٠]. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ المنار لم تكُن القناة الوحيدة التي أعلنت الخبر كذلك، فإنّنا نخلص إلى أنّ الدبلوماسي الإسرائيلي قد حرص على ذكرها بالتحديد ليعبر أيضاً إلى ذكر إرهابيّة حزب الله بالتحديد أيضاً.

٤ ـ من ١١ أيلول/ سبتمبر إلى الشرق الأوسط الجديد

أ ـ ١١ أيلول/ سبتمبر وانعكاساته على القناة

شهدت تغطية المنار لأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر مرحلتين، ففي ردّة الفعل الأولى بدت القناة، مثلُها مثل الأخريات، مُتفاجئة، فتأرجحت بين الواجب الإنساني، الحكمة السياسية، وردّة فعل شُعوب أثقلها الكبت التاريخي من سياسات الولايات المتحدة في المنطقة. غير أنّ لغة التفريج عن الكبت انحسرت بسرعة لصالح الحكمة، فالضحايا ليسوا هم من يرسم سياسة المُحافظين الجُدد. غير أنّ التضامن الإنساني لا يمنع واجب الرؤية الاستشرافيّة السياسية: سوف تُستخدم هذه الأحداث ذريعة لاحتلال أفغانستان والعراق، لتطويق إيران، لمُحاصرة حركات المُقاومة العربيّة وعلى رأسها حزب الله.

بناءً على هذا، تتبنّى القناة دوراً جديداً: الدعوة لمُقاومة المشاريع الأمريكية وصيغتها الجديدة، مُكافحة الإرهاب، صيغة تعمد إلى الخلط بين الإرهاب والمقاومة المشروعة للاحتلال.

كانت المنار أوّل وسيلة إعلام طرحت احتمال تورّط إسرائيلي في عمليّة منهاتن. حيث بثّت في ١٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، تقريراً يُشكّك في تورّط يهود إسرائيليين وموساد في الهجوم. ويُشير إلى أنّ ٤٠٠٠ يهودي قد تلقّوا تحذيراً بعدم الوجود في مركز التجارة العالمي يوم ١١ أيلول/ سبتمبر[٩١].

(٩٠) United Nations A/56/798-S/2002/126 General Assembly Security Council, 29 January 2002, <http://www.un.org/documents/ga/docs/56/a56798.pdf>.

(٩١) ريبورتاج بثّته قناة المنار في ١٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، <http://www.moqawama.tv/archive/drep_2001/sep/dr_0918.htm>.

غير أنّ الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله، أوضح في مُقابلة صحافية في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، أنّ «المنار لم تخترع هذه القصّة... بل إنّ كُلّ ما فعلته هو نقلُ ما قيل. وحتّى لو لم نكُن مُتأكدين تماماً من أنّ هذه النظريّة صحيحة، فإنّه من الواجب التحقيق في كُل الفرضيّات دون استبعاد أيّ منها. كما إنّه لا يُمكن توجيه الاتهام الفوري إلى حركة أو جهة مّا وتحميلها مسؤولية الجريمة»[٩٢].

ب ـ ضد صدّام حسين وضد احتلال العراق واعتماد خطاب مبدئي حذر

كان الشيعة الموالون لإيران يتمنّون سُقوط صدّام حُسين. وكان حسن نصر الله وعباس الموسوي، من بين الطلبة الذين طُردوا من العراق إثر اغتيال الإمام الصدر (والد الزعيم الحالي مُقتدى الصدر). لكنّ العداء ضد صدام حسين لا يُمكن أن يصل بحزب الله حدّ قُبول الاحتلال الأمريكي للعراق أو التعاون معه؛ فالمسألة هي أولاً مسألة مبادئ وطنيّة، احترام سيادة، ثُمّ تراتُبيّة العداءات التي تضع إسرائيل في خانة العدو والآخرين في خانة الخُصوم. أمّا الولايات المُتحدة، فهي الحليف الحامي لإسرائيل وصاحب مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي يصُبّ في مصالح هذه الأخيرة، في حين أنّ نجاحه أو فشله يُشكّل قضية حياة أو موت لحركات المُقاومة العربية ولمُقاومتهم.

تُعلن الحرب ويتّخذ الحزب موقفاً واضحاً منه، تتوالى التصريحات ومنها التحدّي الذي أطلقه حسن نصر الله قبل أسبوع من حصولها: «سيعرف أهل هذه المنطقة كيف يستقبلونكم بالبنادق، بالدم، بالتضحية وبالعمليّات الاستشهاديّة. اليوم، والمنطقة تضجّ بمئات الآلاف من الجنود الأمريكيين سيظلّ شعارنا كما كان: الموت لأمريكا»[٩٣].

أمّا بالنسبة إلى التغطية الميدانيّة المُنافسة أكثر صعوبة، حيث لم تسمح سُلطات بغداد ولا الأمريكيون لفريق المنار بالعمل في البلاد، ما جعل حرب

---

(٩٢) مقابلة مع السيد حسن نصر الله، في صحيفة **إلموندو** (El Mundo) (مدريد)، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠١ (الترجمة العربيّة من أرشيف المنار).

(٩٣) حسن نصر الله، أرشيف الحرب على العراق (آذار/ مارس ـ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣).

المُنافسة تشتدّ وتتقدّم فيه الجزيرة في البداية حيث كانت القناة الوحيدة التي سمح لها العراقيون بالبثّ، بعدها جاءت أبو ظبي والعربيّة. أمّا الأمريكيون فقد اصطحبوا معهم الصحافيين الذين سمحوا لهُم بتغطية الحدث. «لم يتّصلوا بنا ولو فعلوا لكُنّا سنرفُض حتماً»[٩٤]. يقول مُدير تحرير الأخبار حسن فضل الله. نقص حاولت المنار أن تُعوّضه بإيفاد «مُراسلين إلى جميع العواصم المُهمّة في العالم حول العراق»[٩٥]، وباعتماد نمط جديد في التقديم يعتمد على مُضاعفة التحليلات ومُداخلات الخُبراء العسكريين والسياسيين، في حين يمُرّ خبر معركة بغداد على الشريط المُتحرّك أسفل الشاشة. أهو اضطرار تقني أو موقف سياسي ضد الأمريكيين وضد صدّام حسين معاً؟ سُؤال لم يغب عن ذهن الشارع العربي.

بالمُقابل كانت فرق مُراسلي المنار تُحاول أن تُعوّض غياب مراسليها عن العراق عبر وجودها على الحُدود العراقيّة مع الأردن وسوريا وإيران، ومن هُنا استطاعت أن تنفرد بتصوير تفاصيل معركة الفاو، مُستفيدة مرّة أُخرى من العامل الشيعي ومن علاقتها بإيران.

أمّا الدور الكبير الذي كان ينتظر هذه القناة بالنسبة إلى العراق، فهو ظهور الإمام مُقتدى الصدر في مُقابلاتٍ حصريةٍ على شاشتها، وذلك بعد أن أعلن أنّه ذراع حزب الله في العراق. لم تتوقّف الدعوة إلى القناة عن الدعوة إلى المُقاومة ضدّ جيش الاحتلال مُنذ بدايته. إنها قضيّة مبادئ، إذ لا يُمكن لحركة مُقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي أن تتساهل مع احتلال آخر على الأرض العربيّة. هي أيضاً مسألة استراتيجية: فالولايات المتحدة وإسرائيل حليفان، والدولة العبريّة هي بنظر العرب قاعدة أمريكية في المنطقة، لم يكن لها أن تُبقي على احتلالها لولا الدعم الأمريكي. وأخيراً، فإنّ الولايات المُتحدة لم تحتلّ العراق إلا في إطار تمركُزٍ عسكريٍ وسياسيٍ واقتصادي يهدف إلى إقامة شرق أوسط جديد بكلّ ما يعنيه ذلك لدول المنطقة، وبخاصة لحركات المقاومة فيه التي يُشكّلُ القضاء عليها بنداً أساسيّاً في هذا المشروع.

---

(٩٤) زينب ياغي، «المنار وتغطية الحرب،» **السفير**، ٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٩٥) حسن فضل الله، «سنعتمد على مصادرنا الإخباريّة كمصدر للمصداقيّة والمنافسة،» **الأنوار** (بيروت) (١٧ آذار/ مارس ٢٠٠٣).

أمام هذا التحدّي الواقعيّ، تؤدي المنار دورها كرافعةٍ إعلاميّةٍ في جهاز حزب الله، تقود الحربَ الإعلاميّة ضدّ المحور الأمريكي ـ الإسرائيليّ، تنشُر روح المُقاومة، تحُثُّ على التضحية، على استنهاض الوعي السياسي، ليس فقط في مواجهة المشروع الأمريكي في العراق، وإنّما في إطار المواجهة الإقليميّة الكُبرى بين المُعسكرين. مواجهةٌ تجري الاستعدادات لها على الساحة اللبنانية نفسها، حيثُ يبرز الرهان على إنهاء الوجود السوري مباشرة بعد احتلال العراق. رهانٌ يدفع الأطراف المُعادية لسوريا وحلفائها حدّ الترحيب باحتلال العراق بوصفه مُقدمةً لتغيير النظام السوريّ والقضاء على كُلّ حركات المُقاومة.

رهاناتٌ كُبرى يتقرّر مصيرها على الصعيد الإقليمي والعربي وعلى الصعيد اللبناني الداخلي في إطار الفوضى الخلّاقة التي تُشكل استراتيجيات المُحافظين الجُدد. ما يفرض اصطفافاً معيناً وخطاباً إعلاميّاً مُعيّناً.

توقّعاتٌ لم تلبث أن تحققت خلال السنتين التاليتين (اللتان تتجاوزان المُدّة المُحدّدة لهذا البحث). حيثُ جاء القرار الرقم ١٩٥٩، اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، الانسحاب السوري وحرب ٢٠٠٦، كتطبيقاتٍ لذلك.

يُحاول أنيس مسلّم، أن يُفسّر تطوّر الإعلام السمعي ـ البصري في لبنان، فيطرح عدّة أسئلة: أهو غياب السلطة السياسية المُستقرّة والكفوءة، ما سمح لكُلّ هذه الأحزاب والفئات أن تؤسّس وسائلها الإعلاميّة الخاصّة؟ أم هو جوّ الحُريّة والتعدّدية الذي يُميّز لبنان عن سائر العالم العربي ما دفع اللبنانيين إلى إنشاء هذا العدد من المحطات لنشر أفكارهم السياسية والاجتماعية؟ أم هي، وبتفسير أبسط، مُجرّد ظاهرة تجارية[٩٦]؟

غير أنّ الباحث يستبعد الفرضيّة الأخيرة التي يجدُها «الاحتمال الأضعف»، مُستنداً في ذلك إلى «تجربة شركة تلفزيون لبنان وتلفزيون الشرق ـ مُستنتجاً ـ أنّ المحطّات التي تتمكّن من الاستمرار، على المدى البعيد بفضل الإعلان التجاري وحده، نادرة»[٩٧]. وإذا كان هذا التحليل يتناول مرحلة المحطّات الأرضيّة فإنّه ينطبق أيضاً على الفضائيات. لذلك فإنّ الفرضيّة

(٩٦) Moussallem, «La Radio et la Television au Liban».

(٩٧) المصدر نفسه.

الأولى التي طرحها مسلّم هي الأكثر واقعيّة، حيث إنّ جميع هذه الفضائيّات، مثلها مثل المنار، تُمثّل حزباً أو تيّاراً سياسيّاً أو مجموعة طائفيّة أو إقطاعيّة. ولا يُخفي المُستثمرون فيها طموحاتهم السياسيّة.

ربّما فسّر ذلك غيابَ البرامج الثقافيّة والفكريّة عن الإعلام الفضائي لبلدٍ كان يُشكّل قبل الحرب الأهليّة واحداً من أهم مراكز الثقافة العربيّة، مُتميّزاً بحريّته وانفتاحه. أهي نتائج الحرب الأهليّة أم أهدافها: تدمير هذه المساحة أو تحجيمها، بينما يتجلّى إعلاميّاً في الغرق في حربٍ أهليّةٍ كلاميّة تحلُّ فيها الشاشات محلّ الساحات وتستفيد من طُغيانِ الطابعِ التجاري على مساحات الانفتاح؟

إنّها بشكلٍ عامّ سمات النظام العالمي الجديد، وما نجم عنه من نظام إقليمي جديد. وكما كان لبنان دائماً، مصفاة التيّارات والصراعات العربيّة والإقليميّة، يُعبّر عنها إعلامه، فهو كذلك اليوم. حيث إنّ التركيبة الديموغرافيّة والنظام السياسي القائم على التوازن الطائفي، تجعل من البلد الصغير ساحةً تتقاسمُها جميعُ القوى العربيّة، الشرق أوسطية والعالمية. وحيث يُصبح وجود دولة مركزية قويّة مُستحيلاً، تتوزّع السلطة بين مجموعاتٍ عصبيّة لكُلٍّ منها صوته الإعلاميّ: فضائيّاتٌ يجمع على اختلافها في خطّين مُتوازيين، امتدادُ الإمبراطورية الإعلاميّة السعوديّة: سُديري ـ إم بي سي ـ المستقبل، طلال ـ روتانا ـ إل بي سي، في مُقابل خطّ آخر إيران ـ أمل ـ حزب الله ـ إن بي إن ـ المنار، ومن تحالف مع أحد هذين الخطّين.

بينما يمثّل المحوران العريضان اللذان يتقاسمان الشرق الأوسط، العالم العربي ولبنان.

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

القسم الثالث

بحثاً عن ثقافة ديمقراطية في خطاب الفضائيات
موضوع البحث وفي شبكات السلطة المسيطرة عليها:
الفرد، المجموعة، المجتمع الـ «أنا»، الـ «النحن»
الوطنية وما بينهما من تكتلات فئوية

LAU Beirut campus
Riyad Nassar Library

تمهيد

إذا كانت علوم الاتصال والإعلام «تشمل دراسات علم النفس، علم اجتماع الاتصالات والاقتصاد السياسي للميديا وللصناعات الثقافية»[(١)]، فذلك لأن تأثير وسائل الاتصالات ينبع من كل هذه المجالات ويؤثر في تطورها. حيث «تشكّل وسائل الاتصال نظاماً باطناً خاصاً يتفاعل مع كل جزء اجتماعي في عملية تفاعلية بين القطبين المزدوجين»[(٢)].

في حالة الفضائيات العربية الإخبارية، تبرهن الوقائع والتحليلات التي وردت في الفصول السابقة، أنها وُلدت من تقاطع النظام العالمي الجديد عام ١٩٩٠، مع الحاجة لـ «تدعيم العادات والقيم التي تعطي مشروعية للنظام السياسي القائم»[(٣)]. في الدول التي أطلقت هذه الفضائيات أو التي تتبع لها القوى المموِّلة.

غير أنّ ثمة سؤالاً يُطرح حول التقاطع والافتراق بين هذين الهدفين. فإذا كانت هذه الوسائل «أداة ضغط سياسي تمارسه الجماعات المهيمنة على مجتمع ما... وكانت بالتالي أنماط تطبيق لقانون السوق في مجال الأفكار»[(٤)]، فما هي المفاهيم والقيم التي تسيطر على خطابها وتتحدد بالعلاقة مع بقية الجسم الاجتماعي؟ وإذا كان رهان التغيير ينطلق من تشكيل المواطن كعنصر أول وعميق في عملية التغيير، من رؤيته لمنظومة القيم ولهويته، فإن الفرد يعيش متأثراً بالسياق الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي والدينيّ، ضمن

---

(١) Ioan Dragan et Nicolas Pélissier, «Les Effets socio-culturels de l'information et des actualités télévisées,» dans: Didier Courbet et Marie-Pierre Fourquet, dirs., *La Télévision et ses inuences* ([Paris]: INA; Bruxelles: De Boeck, 2003), p. 99.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

عمليّة تبادليّة تفاعلية مُعقّدة. السياق يؤثر في الفرد، المجتمع ووسائل الإعلام، ويتأثّر بهم.

من هنا السؤال حول التأثير الذي يحدثه خطاب هذه الفضائيات، بطريقة مقصودة أو غير مقصودة على تشكّل الفرد، الـ «أنا» وعلى تشكّل المجتمع ـ الدولة، الـ «نحن». كذلك حول التأثير الذي يمارسه الواقع ومسار الأحداث على كليهما، وبخاصة أنّنا نناقش الوضع في مجتمعات تعاني عدم تبلور كلا المفهومين في ظلّ غياب الديمقراطية الاجتماعية والسياسية وفي ظل الافتقار الفاضِح للسيادة، ما ينجُم عنه شعور عميق بالظلم، مقترن بمستوى عالٍ من الاهتمام السياسي العائد للطبيعة الوجودية للإشكالات القائمة، ومن غياب الفضاء العام (Espace public) بسبب منع وقمع الجدل العام (Débat public) على الساحة العامة؛ فهل ظاهرة البرامج الحوارية، وبخاصة البرامج الحواريّة (Débat)، التي تتدفّق على الشاشات، ستؤدي إلى تحرير الجدل العام أو التفكير الجدلي الديالكتيكي وتحريك جدليات منتجة، وصولاً إلى تشكيل فضاء عام؟ علماً أن هذا السؤال يظل مقتصراً على دائرة محدودية قدرة الإعلام على إثارة الفكر الجدلي والعقل النقدي إن لم يقترن بالحالة الثقافية التربوية العامة.

من جهة أخرى، أيّ خطاب تقدّمه هذه المحطات سواء في البرامج الحوارية أو في البرامج الأخرى في ما يخص بلورة مفهوم الفرد، المجتمع ومن ثم الدولة؟ وأيّة علاقة تبنى عبر هذا الخطاب بين الفرد، الجماعات والمجتمع؟ علماً أن المقصود بالجماعات هنا هو التكتلات التجزيئية التفتتيّة، من إثنيّة وعرقيّة ودينيّة ومذهبية وغيرها من هويات فرعية تتقوقع وتتضخم وتحلّ محلّ الهوية العامة ـ الوطنية، لتصبح هي مضمون الـ نحن وليتقدّم الانتماء إليها على الانتماء إلى الـ «النحن» الحقيقيّة ـ المجتمع ـ الدولة. وبخاصة أن الهوية القومية لا تزال موضع خلاف في العالم العربي الذي لم يتبلور فيه الجواب القطعي عن سؤال: من نحن؟ ولم يشكّل بعد دولته ـ الأمة. بل إنه لا يزال يفتقر إلى السيادة الوطنية الحقيقية، إما بفعل الاحتلالات أو بفعل مصادرة القرار، عبر احتلال مقنّع. ليتولد لدى المواطن، نتيجة لكل ذلك، إحساس عميق بالقلق وبغياب الدولة التي تحميه، فيما يدفعه إلى البحث عن الحماية، في الانكفاء إلى تلك التكتّلات الجزئية

LAU Beirut campus

واعتمادها هوية أو في الانفلاش نحو امتدادات عابرة للحدود الوطنية والقومية وارتباطات خارجية بهذا الطرف القوي أو ذاك.

وفي ضوء السياقات الدولية والإقليمية القائمة يبرز سؤال مرتبط: أيّ حظ يتركه منطق صراع الحضارات على الصعيد الدولي ومنطق صراع المذاهب والإثنيات على المستوى الداخلي، لتشكل رؤية واضحة، رؤية مواطنة، ديمقراطية، في ما يخصِ القضايا المطروحة؟ أيّة «أنا»، أيّة «نحن» في مقابل هذا العدد الكبير من الكُتل التي تطرح كل منها نفسها كـ نحن ذات عصبيّة شديدة لأن «اللاعقلاني يشدّ اللحمة» كما يقول ريجيس دوبريه، لحمة تكتلات تخلق «هويّات قاتلة»[٥] تفتّت المجتمع والدولة؟

وفي واقع هذه التركيبة المشوهة تتداخل أيضاً عناصر شبكات السلطة المهيمنة، فيما يطرح السؤال: أي توازن أو عدم توازن بين المصالح والمساواة يمكن أن تسمح به هذه الشبكات، خاصة ذلك التوازن الذي يترك مجالاً لتشكل الشخصية الفردية القائمة على العقل النقدي الحر ولتشكل المجتمع ـ الدولة بمعناه الحديث؟

أيّة ثقافة ديمقراطية، وأي خيار ديمقراطي يمكن أن يتشكّل ويتعزّز عبر الخطاب التلفزيوني، سواء خطاب القناة أو خطاب ضيوفها، وبخاصة عبر البرامج الحوارية ثم الإخبارية التي سنناقشها في فصول هذا القسم.

(٥) في استعارة لعنوان رواية **الهويات القاتلة** لأمين معلوف الصادرة بالفرنسيّة عن دار غارسيه وفاسكيل عام ١٩٩٨، والمترجمة إلى العربية بعنوان: **الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة**، ترجمة نبيل محسن (دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩).

الفصل التاسع

البرامج الحوارية ظاهرة غير متوافرة في الفضاء العام، فهل ستساهم في تشكيله؟

تمهيد

هل البرامج التلفزيونية الحوارية قادرة على المساهمة في إطلاق الجدل العام أو التفكير الجدلي الديالكتيكي وتحريك جدليات فكرية منتجة وصولاً إلى تشكيل فضاء عام يتمكن فيه الفرد من ممارسة خياراته الحرة، ومن المساهمة في تشكيل الاتجاهات الفكرية ومن تأدية دوره كمواطن؟ أم أنها تشكّل فضاءً عاماً افتراضياً يحوّر تشكّل الفضاء الحقيقي ويعيقه.

أولاً: المسافة بين الشاشة والفضاء العام: تعبيرات مختلفة عن الحرية ذات تفسيرات متناقضة

١ ـ في سياق هذا التباعد: تدمير التابوهات، كيف؟ ولبناء أيّ بديل؟

في نهاية المؤتمر الصحافي الذي عقده وزير داخلية قطر في نهاية الانتخابات الأولى في البلاد، في ٨ آذار/ مارس ١٩٩٩، طرح أحد الصحافيين سؤالاً حول الخطوة التالية في عملية التطور الديمقراطي في البلاد، وهل ستكون هذه الخطوة السماح بتشكيل الأحزاب السياسية أو بإطلاق حوار فكري يؤدي إلى تشكيلها؟ فأجابه الوزير: «لن تكون هناك أحزاب في قطر، نحن لدينا وحدة وطنية»[١]. كان هذا بعد أربع سنوات من تأسيس الجزيرة، سنوات

---

(١) مؤتمر صحافي عُقد في الدوحة في ٩ آذار/ مارس ١٩٩٩، ونقل مباشرة على الجزيرة.

LAU Beirut campus

بنت خلالها المحطة شعبيتها الاستثنائية على البرامج الحوارية.

بعد بضع سنوات كان الصحافي الكويتي سامي النصف يدافع في حلقة من «الاتجاه المعاكس» عن سياسة الهجرة في الخليج العربي التي تفضّل الآسيويين على العرب معتمداً حجة أن «العامل العربي مُسيّس ويخلق لنا المشاكل»[٢].

هذان المثالان يقودان إلى ثلاث ملاحظات:

أ ـ التناقض بين حضور الجدل العام على الشاشات وغيابه أو التضييق عليه في الفضاء العام، وبالنسبة إلى الساحة العربية عموماً هو غائب عن ساحات، مقموع في ساحات أخرى، ويظل غائباً عندما تنظم بعض الدول انتخابات عامة بلدية أو حتى تشريعية توهم أن ثمة تطوراً ديمقراطياً يحصل، وبخاصة منذ نهاية الثمانينيات. وذاك ما يحلله مدير برنامج الحاكمية العالمية في مؤسسة البنك الدولي بقوله: «إن الوقائع تجعلنا نفكر أن الانتخابات، التي تترافق مع درجة محددة من حرية الصحافة بشكل عام، لا تضمن بذاتها تمكّن وسائل الإعلام من التطور وحرية الصحافة»[٣]. غير إن هذا التحفظ يطال، بنظرنا، ما هو أبعد من وسائل الإعلام ليطال تطور المجتمع ككل.

ب ـ الفارق الكبير بين دول الخليج وبقية الوطن العربي، وبخاصة دول المشرق العربي في ما يخص الحضور التقليدي للمدارس والتيّارات الفكرية، لتقاليد الأحزاب السياسية وتقاليد الجدل العام. حيث نجدها راسخة في مصر ودول سوريا الطبيعية، مقابل غيابها ـ إلا نادراً ـ في دول الخليج؛ فمنذ نهاية القرن الثامن عشر كان المفكرون، المنظّرون والكتّاب في سورية الطبيعية ومصر يضعون أسس عصر النهضة، وكانت الصحافة تزدهر بالتوازي، لتأتي الأحزاب السياسية المعروفة في ما بعد ثمرة لكل ذلك. غير أن تجذر هذا الصراع الفكري تاريخياً في بلاد النيل وسوريا الطبيعية لم يجعل منه يوماً

(٢) سامي النصف ومحمد المُسفر، في برنامج الاتجاه المعاكس، عنوان الحلقة «عروبة الخليج»، ٢٩ تمّوز/ يوليو ٢٠٠٨، أرشيف الجزيرة، <http://www.youtube.com/watch?v=vCzkD6qqES4>.

(٣) Daniel Kaufmann, «Médias, gouvernance et développement: Une Analyse empirique,» dans: *Médias, développement et éradication de la pauvreté* (Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (Unesco), 2007), p. 16.

مسألة حرة وسهلة في غياب دولة القانون والديمقراطية. ولم تكن الأحزاب التي وصلت إلى السلطة أكثر تسامحاً مع الأحزاب الأخرى.

ج ـ أما القاسم المشترك بين كل الدول العربية فهو الرقابة والقمع الفكريّان اللذان تمارسهما السلطة الحاكمة ضد الأحزاب المعارضة ومنتسبيها؛ فالدولة، ملكيّة كانت أو خاضعة لحكم الحزب الواحد، هي تحت سيطرة الأجهزة السرية. وبالنتيجة، يواجه النشطاء السياسيون، المفكرون والمدافعون عن الأفكار والحقوق، معاً، قمع هذه الأجهزة لإجبارهم على الصمت أو على الخضوع. حالٌ لم يتغير إلا شكلياً مع مجيء العولمة ودعاوى التغيير.

كل هذا جعل البعض يرون في إطلاق الحوار على شاشات الفضائيات، وبخاصة الجزيرة بدءاً من عام ١٩٩٦، ظاهرة تعمل على «تدمير التابوهات، خاصة المتعلق منها بعملية انتقال السلطة وسياسات الدولة»[٤]. كما رأوا أن هذه الفضائيات قد أمّنت للمواطن العربي، ولأول مرة، ممارسة حرية التعبير، النقاش بحرية وتناول كل المواضيع والشخصيات بما في ذلك رجال السلطة. وهكذا طَرحت بعض البرامج، للنقاش الحاد أو الهادئ، مواضيع طالما اعتُبرت من المحرّمات وظلت في دائرة المسكوت عنه. وذاك ما يعبّر عنه المذيع فيصل القاسم بقوله: «لقد تعوّدنا أن نخبّئ مشاكلنا تحت السجادة بدلاً من أن نناقشها، فلنتركها تخرج على الشاشات بدلاً من تركها تتراكم وتنفجر»[٥]. وينضمّ إليه ديفيد هيرست قائلاً: «فعلياً تمكن الناطقون باسم عدد كبير من جماعات المعارضة من إيجاد منبر بإمكانه أن يصل إلى كل هذه المنطقة من العالم... من مناقشة الأحداث... ويبثّ الجدل مباشرة، من دون المرور بالمصفاة التي تنتزع منه القضايا المحرجة»[٦].

غير أنّ هذا التحليل المبتهج لم يكن أبداً موضع إجماع، وبخاصة في ما يتعلق بفاعلية هذا النوع من النقاشات في تحديد طبيعة التغيير. ذاك أن اقتصار

(٤) إبراهيم غرايبة، «الفضائيات العربية.. الواجب والممكن،» الجزيرة نت (٢٤ آب/ أغسطس ٢٠٠٣).

(٥) فيصل القاسم، «تساؤلات حول قناة الجزيرة» في برنامج «الاتجاه المعاكس» بتاريخ ٤/ ٦/ ٢٠٠٤.

(٦) David Hirst, «Aljazeera, une chaîne libre au Proche Orient, la télévision arabe qui dérange,» *Le Monde diplomatique* (août 2000), pp. 9-10.

هذا النقاش الحر على شاشة التلفزيون وغيابه عن الساحة العامة، بدءاً من غيابه عن الاستراتيجيات التربوية والثقافية ووصولاً إلى غيابه عن الحياة الفكرية والسياسية، يجعله غير قادر على إحداث التغيير الحقيقي الذي يجب أن يبدأ بالفرد وبالأفكار، بتعزيز العقلية النقدية والمحاكمة الحرة الهادئة. ولذا نجد أن البرامج الأكثر شعبية هي تلك التي تتسم بالطابع الاستفزازي وذاك ما شكّل موضوع انتقادات من قبل الباحثين والصحافيين وحتى بعض القائمين على المحطات: «لا يخرج المشاهد من ذلك إلا مبلبل الفكر، لا يستنتج شيئاً ولا يتعلم شيئاً» ـ يقول المنتقدون، ويضيفون أنّ ما يحصل هو مجرد شحن من دون تنوير. ما يحيل على السؤال: هل البرامج الحوارية الأخرى التي تحرص على النقاش الهادئ ولو في أقصى حالات الاختلاف، قادرة على أن تقدم للمشاهد وللمشاركين أنفسهم، فرصة أفضل؟

يرى الصحافي الأردني رامي خوري رئيس التحرير السابق لجريدة **جوردان تايمز** أنّ: «وسائل الإعلام العربية الحديثة، الفضائيات، هي من دعائم النظام الاقتصادي والسياسي القائم في بلداننا ولا تشكّل تحدياً له. الواقع أن من شأن هذه الوسائل الإعلاميّة أن تمثل تدابير متطورة تتخذها المؤسسة الحاكمة لإرضاء الغضب السياسي المشروع لدى شعوبها والخوف العاطفي الذي تشعر به هذه الشعوب كما إنه من شأنها أن تفتح مسارب تنفيس تتحرر فيها، بأمان، كل ليلة، من هذه التوترات»[٧].

بين وجهتي النظر هاتين نجد آراء مختلفة عبّرت عنها إحدى حلقات برنامج الاتجاه المعاكس، تناولت الانتقادات الموجهة لقناة الجزيرة: المصري سليم عزّوز يهاجم الجزيرة قائلاً: «إنها تكرس صراع الديَكة، وتحوّل النقاش إلى مشاجرة تُستعمل فيها الشتائم والاتهامات التي لا تليق بوسيلة إعلام. المذيع ليس محايداً أو موضوعياً، والمشاركون عبر الهاتف يتم اختيارهم مسبقاً»[٨]. أمّا السعودي سليمان الشمّري، فيرد عليه: «نعم نحن بحاجة أن نصرخ، إن كبت السنوات الماضية كلها يقتضي أن نصرخ، أن نتحدث بصوت عال. إلى متى يجب أن نبقى صامتين، منافقين، كاذبين؟ إلى متى يظل الإنسان الشريف والحر مبعداً؟ إنها الكارثة... نحن في المجتمع

(٧) Rami Khoury, «The New Arab Media,» *Jordan Times* (January 2003).

(٨) سليم عزوز، «تساؤلات حول قناة الجزيرة»، في برنامج «الاتجاه المعاكس»، ٤/٦/٢٠٠٤.

LAU Beirut campus

العربي نعيش القمع والرقابة، بل الرقابة الذاتية، لذلك نحن نتحمل برنامج صراخ لكننا لم نعد نتحمل حكوماتنا»[٩].

يجسِّد تعبير «الإنسان الحر المبعد» ظاهرة الإقصاء التي يعانيها كل الذين لا يُمالِئون الأنظمة القائمة، كما يجسّد طبيعة نظرة هؤلاء المثقفين إلى «المقربين من»البلاط»، «غير المستبعدين»، بحسب تعبيره.

كذلك فإن الكلمات الثلاث «نصرخ»، الكبت»، «بصوت عال»، مربوطة بتعبير «السنوات السابقة»، تلخّص الحالة النفسية والاجتماعية لمجموع «صحافيون ـ متداخلون ضيوف ـ جمهور». وتطرح السؤال: هل يمكن نقاشاً لا ينبع إلا من الحاجة إلى التنفيس «فشّة الخلق» ولو كانت الأكثر مشروعية، أن يؤدي إلى عقلنة ضرورية للتغيير الديمقراطي؟ أليس من شأن هذه الحاجة العميقة لإطلاق المكبوتات، وحتى للانتقام والمرارة أن تسهّل التلاعب بالناس المكبوتين، تحوير اتجاهاتهم وزرع الأوهام خدمة لأهداف أخرى؟

ألا يلتقي قول الشمّري «لا تهمّنا الأهداف»، مقابل الحصول على هذه الفرصة للتنفس والصراخ، مع رأي رامي خوري حول الحفاظ على الأمر الواقع وعلى تسهيل تحرير الانفعالات بكل أمان عبر التحرر من التوترات كل مساء؟[١٠] ألا يشكّل إعطاء هذه الفرصة، لهؤلاء الذين يعانون الإقصاء من قبل قناة تعود لدولة كـ قطر، الإمارات أو العربية السعودية، عملية استحواذ (Appropriation) هذه الدول على قيمة حرية التعبير من قبل أنظمة لا تعترف بهذه الحرية على أراضيها ولشعوبها؟

أوليست، إذاً، ظاهرة «إيهام» ليبرالي لخدمة أنظمة غير ديمقراطية وتمكينها من التلاعب بديناميكية التغيير في الدول العربية الأخرى، لحرف هذه الديناميكية عن الأهداف الديمقراطية الحقيقية وعن الأهداف القومية في مواجهة الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية، وتوجيهها نحو تغيير يُرضي المكبوت ولا يناقض المصالح الأمريكية التي ترتبط بها دول الخليج الممولة لهذه الفضائيات؟

من جهة أخرى، ألا تشكّل عملية التماهي التي يعيشها المشاهد مع هذا

(٩) سليمان الشمّري، «تساؤلات حول قناة الجزيرة»، في برنامج «الاتجاه المعاكس».

(١٠) Khoury, «The New Arab Media».

المشارِك أو ذاك عملية تطهّر (كاترسيس) تستنفد القوى المحركة للفعل، إذ تخلق إحساساً وهمياً بالرضا عن الذات في ما يتعلق بالدور الواجب ممارسته في الجدل العام وفي الفعل العام الذي يجب أن يتبعه؟ وبخاصة أن تلقّي التلفزيون يتم عادة بشكل فردي أو في إطار لا يتعدى الأسرة والمنزل؟ وإذا ما وافقنا ماكلوهان في نظريته القائلة إن الشفوية في الخطاب الإعلامي تؤدي إلى العودة إلى القبلية (Retribalization)[11] أفلا نجد أن هذه الطبيعة الشفوية التي يتميز بها التلفزيون تتضاعف سرعتها مع صراع الديكة والمشاحنات، لتصب في سياق مناقض للتطور الهادف إلى التخلص من العقلية القبلية والطائفية المذهبية، تخلّص لا مجال من دونه لتشكيل المواطن الديمقراطي؟ ومن جهة ثانية، ألن يؤدي التغيير المرتبط بالتكنولوجيا، بالتخصص أو عدم التخصص إلى التأثير في منظومة القيم التي يحملها المتلقي باتجاه عودة جديدة إلى القبلية؟

غير أن هذه الاعتراضات لا تقلّل من مشروعية الأسئلة الجدلية الأربعة التالية:

الأول؛ هل كان من الممكن في سياق «السنوات السابقة» أن نطلق حواراً ونقاشاً حقيقيين من دون المرور بهذه المرحلة وبخاصة في ظل الأنظمة السياسية نفسها؟ بل إن الأفراد الإصلاحيين داخل الأنظمة كانوا مضطرّين أن يحسبوا خطواتهم وأن يتقدموا بصعوبة وبمرحلية بطيئة، لذا قد يكون من شأن الانفتاح الإعلامي أن يشجعهم ويدعمهم.

الثاني؛ هل كان من الممكن إطلاق التغيير من دون كسر التابوهات؟ وهل يمكن تكسير التابوهات من دون إحداث ضجيج، حتى ولو بلغ هذا الضجيج حدود الخروج على المألوف كما حصل في إحدى حلقات «الاتجاه المعاكس» حول موضوع تعدد الزوجات، عندما وصل النقاش بين الأردنية توجان فيصل، والمصرية صافيناز كاظم، إلى حدّ جعل الثانية تغادر الأستوديو في وسط الحلقة[12]؛ وفي برنامج آخر حول دول التعاون الخليجي، حيث اضطر المُعدّون لإخفاء هوية المشارك الثاني عبد الباري عطوان، عن أمين عام

(11) Marshall McLuhan, *Pour comprendre les médias: Les Prolongements technologiques de l'homme* (Paris: Seuil, 1977).

(12) Hirst, «Aljazeera, une chaîne libre au Proche Orient, la télévision arabe qui dérange».

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

مجلس التعاون الخليجي لتنعقد الحلقة. ولكن ما هو البديل العقلاني الذي كلن يرافق عملية التكسير هذه، في ظل غياب كامل للبرامج الفكرية، والأهم في غياب المشاريع البديلة على الساحة العامة؟

الثالث؛ ألا تعزّز برامج الحوارات بطبيعتها حس المحاججة، التحليل والعقل النقدي؟ ولكن هل تقوم غالبيتها على العقلية النقدية، أم على عقلية مصارعة، هادئة كانت أم حادة؟ وهل ثمة وجود لما ينمّي العقل النقدي في المناهج التربوية والثقافية والسياسية كي ينعكس ذلك على الشاشة؟

الرابع؛ ألا تقدم البرامج الحوارية، أياً كان شكلها الجديد من المعارف التي تتراكم وتبنى لتؤدي إلى تشكيل سلطة مضادة؟ ألا يضطر كل مشارك إلى تدعيم وجهة نظره بالبراهين والوثائق والحجج، إذاً بالمعارف؟ ألا يشكّل الامتداد اللغوي للفضائيات مساهمة في خلق فضاء مشترك وتحرك مشترك نحو فضاء عام جغرافي او جيولغوي؟ أم أن السلطة المضادة تتطلب توافر شروط أعمق، وبخاصة أن نسبة ما يقدم من معارف تظل ضئيلة مقارنة بما يثار من غرائز كامنة ومواقف مسبقة؟ وهل الفضاء العام الذي نتحدث عنه هو فضاء افتراضي يسوق وهم تشكُّله في حين أنه يغيب عن الساحة العامة؟

تجيبُ مقولة لـ فيصل القاسم عن السؤالين **الأول والثاني**: «لقد أطلقت برنامج الاتجاه المعاكس لأنني كنت أعتبر أنه من الضروري إسماع صوت وجهة النظر المعارضة، المنشقّة، المحكومة بالصمت منذ نصف قرن في العالم العربي»[13]؛ مضيفاً أن ما يحصل في برنامجه يحصل في البرلمان الإنكليزي أو الإيطالي على سبيل المثال.

السؤال **الثالث**، تبرره بشكل واضح دراسات التلقي التي أجريت على الجمهور العربي، كما تبرره التطورات الاجتماعية والسياسية في المنطقة. حيث يبدو المشاهدون مترددين بين حساسيّاتهم الإثنية، الطائفية، الحزبية، كما حساسّياتهم إزاء حكوماتهم وبين المحاكمة العقلية النقدية. كما نلاحظ أن المشاهد ينظر إلى الشخص المشارك في النقاش على الشاشة كمحام يدافع عنه، كناطق باسمه، أكثر مما ينظر إليه كطرف نقاش عليه أن يحاكم أطروحاته، (وهذا ما تؤكده التجربة الشخصية للباحث). ذاك أن ثمة عوامل

(13) المصدر نفسه.

كثيرة تجعل من النقاش ساحة مواجهة ثأرية يسعى فيها كل طرف إلى كسر الآخر لا إلى إقناعه. عوامل تعود إلى غياب العقل النقدي عن الثقافة العامة من الأسرة إلى التربية والتعليم إلى الثقافة إلى التشكيلات الاجتماعية. كذلك إلى الضغوط التي يعيشها الناس بين احتلالات خارجية وقمع داخلي، بين تمزُّقات سياسية وإثنية ودينية وبين الفقر والفساد، ما يخلق إحساساً عميقاً بانتهاك الكرامة «الفردية والوطنية»، إحساس واع أو لاواع، بالهزيمة على كل الصعد يولّد رغبة في تحقيق أي انتصار افتراضي، وهمي، ولو كلامي، بالحاجة إلى الانتقام، وكلاهما يرتد إلى الآخر المقابل ويترجم بالرغبة في كسره لا في إقناعه. لأن الإقناع عملية جدليّة فكريّة هادئة، أمّا الكسر فعمليّة ثأريّة عاطفية. وهنا تبرز الملاحظة أن أصحاب البرامج يحرصون على استضافة الأشخاص الذين يقفون على أقصى خطوط التطرف في ما يمثلون، ربما رغبة في إنجاح البرنامج، ولكنها حالة تصبّ على المدى البعيد في إطار الفوضى والشقاق والبلبلة الفكرية والسياسية.

غير أنه لا يمكن كلَّ هذه العوامل أن تمنع، على المدى البعيد، التأثيرات الإيجابية حتى ولو كانت تعيقها على المدى القريب. هكذا نجد الشمّري الذي تحدث عن الكبت وإطلاق المكبوتات الذي يدفعه إلى غضّ النظر عن أهداف قطر أو دول أخرى تموّل الفضائيات، يعود ليقول: «ما يهمني في برنامج ليس الأخطاء التي نأخذها عليه أو الخدمات التي يؤديها لقطر، ما يهمني هو: هل استمعتُ إلى وجهات نظر تفيدني، هل هي صادقة أم لا؟»[١٤].

يبقى السؤال **الرابع**، وهنا يرتبط الجواب بموضوع الفائدة والصدق، الذي يحيل بدوره على سؤالين حول نوعية وصدقية المشاركين في نقاشات البرامج الحوارية وحول ما يمثلونه للجمهور. لا شك في أن المشاركين يمثلون وجهات نظر مختلفة، بل ومتناقضة، وأنهم يتناظرون بحدة للدفاع عنها، لكن معيار الفائدة التي يمكن هؤلاء تقديمها يكمن قبل كل شيء في حقيقة الكفاءات التي يتمتع بها هؤلاء الذين يقدَّمون على أنهم خبراء وتخلع عليهم الألقاب، الصادقة حيناً والكاذبة حيناً آخر، لتعزيز أهمية البرنامج والقناة. كما يكمن في درجة الموضوعية والصدقية التي يتمتعون بها. إنهم في

(١٤) عزوز، «تساؤلات حول قناة الجزيرة» في برنامج «الاتجاه المعاكس».

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

الغالب صحافيون، سياسيون، دبلوماسيون، ممثلو أحزاب أو تيارات سياسية و«خبراء؟» في مجالات مختلفة وهم يتداخلون ليضيئوا، ليهاجموا موضوعاً.. قضية.. رأياً.. حدثاً، أو ليدافعوا عنه. غير أن لهذا التداخل المفتوح، تأثيرات إيجابية وسلبية في آن. ذاك أن البعض يرى أن شعبنة المعرفة مرتبطة بدور الميديا في عملية التربية وبأن النقاشات والحوارات، أيّاً تكن درجة عمقها، تعزّز محرّضات البحث عن المعارف، إما بدافع الفضول العلمي وإما بدافع التحدي اللذين يتولّدان عند المشاهد؛ في حين يرى البعض الآخر أن الصرامة العلمية تمنع تسطيح معارف معقدة في وقت محدود، وينبهون إلى خطورة تقديم تحليلات تبسيطية، وخطورة اللجوء إلى المشارك المتوافر أكثر منه إلى الخبير الكفء. لكن المأخذ الأهم هو تحوير وتلفيق المعلومات وتمريرها لدى المتلقّي باعتبارها صادرة عن خبير. والواقع أن الجمهور معرَّض لهذه المخاطر أكثر مما هو متقبّل لمحرضات المعرفة. هذا التحفظ ينطبق على كل البرامج الإخبارية وربما يكون أقل خطورة في البرامج الحوارية إذا كان التوازن بين المشاركين مؤمّناً، وهذا الشرط نادراً ما احترمته البرامج، مثله مثل شرط الموضوعية. بل إن المعروف أن القناة أو صاحب البرنامج، يستطيعان تحديد غلبة وجهة نظر على الأخرى مسبقاً، عبر اختيار المتحاورين. وطبيعة التوازن بينهم؛ فلا فائدة من قضية عادلة إذا كان محاميها فاشلاً، والعكس صحيح. وفي قضية الموضوعية نجد أنّ موقف كل متحاور من القضية المطروحة، يتحدد بناءً على خلفيات وأفكار مسبقة. ونادراً ما يخضع لمنطق الحجة والبرهان والحكم العقلاني الموضوعي.

وبالعودة إلى حلقة الاتجاه المعاكس التي ذكرناها والتي تناقش موضوع البرامج الحوارية وقناة الجزيرة بالذات، على سبيل المثال، نجد أن الأفكار المسبقة والحساسيات الخفية هي التي توجه منطق كل من المتحاورين، ليشكّل المسكوت عنه المحرك الحقيقي للمقول. يمكن بسهولة أن نفهم أن سليم عزوز، يهاجم الجزيرة وبرامجها الحوارية لأنها موجهة بشكل عام ضد نظام حسني مبارك، الذي يؤيده. في المقابل فإن سليم الشمّري، يدافع عن القناة لأنه معارض سعودي مضطهد، وقطر خصم السعودية والجزيرة كانت معروفة باستهدافها الدائم للنظام المصري (السابق) وللسعودية. أمّا المتداخلان الآخران عبر الهاتف فهما: مهاجر في أوروبا يساند الشمري، لأنه بدوره معارض هارب إلى المنفى «كفانا لم نعد نتحمّل» يقول، أما الثاني

فتونسيّ يهاجم الجزيرة ويتهمها بأنها ضد تونس، لأنه مؤيد لنظام بن علي، في حين أن القناة تدعم المعارضة الإسلامية (وذاك قبل تفجُّر الحراك التونسي بسبع سنوات، وتجلّي الدعم القطري غير المحدود للإسلاميين هناك). وهو يثير قضية صحافي تونسي يدعى بن بريك قائلاً: «بحسب الجزيرة اعتقدت بن بريك هو في السجن، ثم تبين لي أن ذلك كذب. لقد جعلت دعايتكم الكاذبة أحد المشاهدين يعلق «لو كان لدينا عشرة من أمثال بن بريك لكان العالم العربي بخير، وهذا أمر مضحك»[١٥].

المبالغة، الإثارة، التلفيق والتحوير، كلها نقائض للموضوعية، لكنها تظل، وللأسف، من خصائص وسائل الإعلام. وفي فضاء يمكن فيه حصول أسوأ التعديات على الحريات، وتسوده أبشع انتهاكات السيادة وعدم الاستقرار في كل المجالات، تصبح الإثارة وسيلة ناجحة لتوسيع شعبية وسيلة إعلامية خاصة إذا كانت تلفزيونية.

٢ ـ هل تخدم الحوارات الهادئة بشكل أفضل، العبورَ من الاتصال الخطي ((Connection linéaire) إلى إعادة التصور (Configuration)؟

لا تتشابه البرامج الحوارية من حيث نمطها الاستفزازي سواء على القناة الواحدة أو بين المحطات. حيث إن أية قناة لم تعتمد أسلوب الإثارة والاستفزاز والحدة كما فعلت الجزيرة، على الرغم من تقارب المواضيع التي تناولها الجميع.

ولذا نبدأ بالجزيرة، حيث كنا نجد في مقابل «الاتجاه المعاكس» البرنامج الهادئ «أكثر من رأي»، والآخر المنوّع «حوار مفتوح»، والبرنامج الإشكالي «للنساء فقط». على الرغم من أن كل هذه البرامج تتعرّض لمواضيع طالما اعتُبِرت محرّمات، وتدور جميعها، في إطار الخطوط العامّة لسياسة القناة (السياسة التي أدت إلى إلغائها جميعاً مع بدء الحراك العربي، قبل إعادة الاتجاه المعاكس فقط مع بدء الأزمة السورية). وعلى الرغم من أن الاتجاه المعاكس تميّز بحدة بخاصة، إلا أن السياسة العامة للقناة كانت تقضي اختيار مشاركين متطرفين كل في اتجاهه ومتناقضين إلى أبعد الحدود.

(١٥) المصدر نفسه.

LAU Beirut campus

كما تقضي بعدم تبنّي خطاب تحديثي حقيقي، وخير مثال على ذلك ما حصل لبرنامج « للنساء فقط» الذي سنتناوله بشكل خاص لأنه شكّل استثناءً بين برامج الفضائيات العربيّة وليس بين برامج الجزيرة فحسب، وكان، منذ إنشائه موضع جدل بين الإصلاحيين والمتشددين في القناة: نساء خبيرات، متخصِّصات، كوادر عليا، يتناقشن في ما بينهن في مواضيع تخصّ المجتمع ككل، في المجتمع، في الاقتصاد، في التربية، في الثقافة وفي السياسة. وهذا ما شكّل ظاهرة جديدة، خاصّة على شاشة خليجيّة، حيث تشكِّل البرامج المخصصة للنساء، في العادة، تجسيداً ذا دلالة لالتقاء روح السوق مع روح المجتمع البطريركي القبلي: امرأة ـ أداة تبحث عن الموضة، التجميل، المطبخ، الثرثرات الفارغة، أو امرأة أداة للإغراء، وسواء كانت هذه أم تلك، محجبة أم سافرة، فهي دائماً امرأة استهلاكية، مستهلكة أو أداة إعلانية لتسويق الاستهلاك؛ في هذا المشهد جاء «للنساء فقط» ليقدم نساء يخضن في نقاشات جادة ويقدمن مشهداً مختلفاً، المرأة العقل، المعرفة، المسؤولية، المهنية والموقف. وهذا ما لم تستطع القناة تحمّله لوقت طويل فتم إيقافه بعد إقالة المدير محمد جاسم العلي، الذي كان وراءه، وهيمنة الخط الإسلامي المحافظ على القناة عام ٢٠٠٤.

غير أنّه لا بد من التنبيه إلى أنّ هذا المشهد ـ الاستثناء في الفضائيات الخليجية لا يعتبر بالنسبة إلى إعلام مصر ودول بلاد الشام والعراق، ففي هذه المجتمعات طالما كانت النساء، متعلمات، كاتبات، فنانات، شغلن كل أنواع الوظائف وكان بينهن نائبات، قاضيات، وزيرات[١٦]؛ كما شاركن في مراحل النضال الاجتماعي والسياسي كافة. الملمح الجديد هنا هو أن تشارك هؤلاء في نقاش عام على وسيلة إعلام في الخليج العربي، والأهم أنها فضائية، قادرة على الوصول إلى كل الناطقين بالعربية. ولذا هي تطور لا بد من تسجيله، كبرهان ومحفّز يجد صداه وأرضه الخصبة في مساحات الكبت الاجتماعي الذي تعيشه النساء، إضافة إلى الكبت العام الذي يشمل جميع المواطنين.

(١٦) أول امرأة سميت قاضية كانت عراقية: صبيحة الشيخ داود في الثلاثينيات؛ أول امرأة وزيرة كانت مصرية: حكمت أبو زيد؛ أول امرأة وزيرة إعلام في الأردن في الثمانينيات: ليلى شرف.

يتشكّل الإعلان عن البرنامج من نجمة متحرّكة يتقاطع فيها الأحمر والرمادي، ويتحرّك عليها عدد من النساء في أوضاع بائسة يحاولن الخروج منها. أما المواضيع المطروحة للنقاش فدقيقة تلامس منظومة القيم التقليدية وتتجاوز الاجتماعي إلى السياسي والاقتصادي وحتى الديني: «التحرش الجنسي ضد النساء في العمل»؛ «حق المرأة في الانتخاب»؛ «الجوائز الأدبية والفنية المخصصة للنساء»؛ «المعايير وغياب عدالة الاختيار»؛ «انتخاب ملكات الجمال، هل تشكّل تعدياً على القيمة الإنسانية للمرأة؟»؛ «الفتاوى الدينية المتعلقة بحقوق المرأة». بل إن إحدى الحلقات قد خُصّصت للسؤال «لماذا لا تملك النساء حق الصلاة في المسجد إلى جانب الرجال؟ لماذا يصلين فيه معزولات؟» وهذا ما أدى إلى مناقشة موضوع الاختلاط بين الجنسين الذي يعتبره بعض رجال الدين وبعض المجتمعات محرّماً. وسنتناول على سبيل المثال حلقة تناولت موضوع استعمال المرأة في أوضاع معيّنة كمادة للترويج السياحي:

ثلاث نساء مختصات؛ أستاذة علم اجتماع لبنانية؛ كاتبة أردنية؛ باحثة في المركز الوطني المصري للبحوث، يطرحن الموضوع بجميع أبعاده ومنها ما يمسّ النظام السياسي، الاجتماعي والاقتصادي، وصولاً إلى دور قيم اقتصاد السوق. يطرحن موضوع السماسرة ويتساءلن لماذا تغلق السلطات عيونها عنهم؟ أية رؤية للكائن الإنساني ولكرامته تقع في أساس هذه الظاهرة؟ أي نموذج يُقدِّمُه للشباب هذا التوظيف التسويقي لصورة المرأة؟ كذلك تطرح نقطة مهمة متعلقة بدور السياحة الذي لا يقتصر على الاقتصادي؛ ففي الداخل تشكّل السياحة الداخلية فرصة تُعرِّف المواطن إلى بلاده، ماضيه وتراثه، ما يساعد على تعميق الهوية وتوجيه النظرة إلى المستقبل، أما السياحة الخارجية فإنها تخدم صورة البلاد وثقافتها لدى الآخرين. غير أن القضية الحساسة التي وصل إليها النقاش هي السؤال «لماذا بلغت ظاهرة الدعارة السياحية والإعلانية أبعاداً جديدة مع النظام العالمي الجديد، وبعد احتلال العراق وتراجع الوضع في فلسطين؟» ما يفضي إلى «العلاقة العميقة مع ثقافة الاستهلاك وما تلقيه من تحوّلات سلبية على منظومة القيم الإنسانية، إضافة إلى تأثير سقوط القضايا الكبرى والكرامة العامة»، «ألا تشكّل بعض هؤلاء النساء المستخدمات كأداة للجذب السياحي عناصر خطر أمني داخلي وخارجي؟» أليس من المعروف أن الكثيرات منهن يقعن في حبال شبكات التجسس، المخدِّرات، التهريب

LAU Beirut campus

والإيقاع بسياسيين وحتى بمناضلين منهم؟» وأخيراً «أليس هناك من أساليب أخرى للجذب السياحي؟ ولماذا يتجاوز منسوب استعمال صورة المرأة استعمال صور المعالم الأثرية والطبيعية؟»، غير أن المشاركات يتفقن في نهاية الحلقة على أن المسؤولية لا تطال طرفاً واحداً، فهو قانون العرض والطلب، إن لم يكن الثاني كبيراً تقلّص الأول وتراجع. ولكل ذلك علاقة وثيقة بالمشكلة السياسية والاجتماعية للعالم العربي.

لقد كلفت هذه الجرأة في طرح القضايا، القائمات على البرنامج إيقاف برنامجهن عام ٢٠٠٤؛ من دون أن يحلّ محله بديل مشابه.

بالانتقال إلى قناة أخرى هي قناة أبو ظبي الإخبارية، يقيم الباحث عبد الكريم بلحاج مقارنة بين المحطتين تنتهي بالاستنتاج التالي: «حتى ولو لم تكن قناة أبو ظبي قناة إخبارية متخصّصة، فإنها تتميز بالحوارات المُعَمَّقة والواقعية والهادئة»[١٧].

لقد وعدت هذه القناة، في وثيقة إنشائها أنها ستحرص على إنشاء حوارات هادئة، في إطار احترام الموضوعية المتبادلة بين المشتركين. وقد احترمت هذه المبادئ حتى في برنامج «مواجهة» الذي أطلقته عام ٢٠٠٠ كمقابل لبرنامج الاتجاه المعاكس (١٩٩٦) على الجزيرة. فقد طرح برنامج «مواجهة» المواضيع الأكثر حساسية ولكن، في الغالب، بهدوء، على سبيل المثال: «التطبيع بين العرب وإسرائيل»، «خلافة ياسر عرفات»، مواجهة بين كاتب سوري معارض في المنفى ووزير الثقافة السوري، تمكّن فيه الجانبان من مناقشة أكثر القضايا دقة وخلافية من دون الخروج عن الهدوء. غير أن الاستراتيجية الثابتة للقناة لم تكن تصمد أمام بعض الحساسيات التي تبلغ درجة حرارتها مدىً يحرق كلّ شيء، وذلك ما يدلل عليه النموذجان التاليان:

المثال الأول، حلقة مواجهة بتاريخ ٢٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، بين ميض نظمي، أستاذ العلوم السياسية في بغداد وعضو المؤتمر القومي العربي، وانتفاض قنبر، الناطق الرسمي باسم المجلس الانتقالي العراقي الذي يرأسه أحمد الشلبي؛ فعلى الرغم من أن نظمي كان معارضاً لـ صدام حسين، إلا أنه

(١٧) عبد الكريم الحاج، «الفضائيات العربية بين المهنية والوازع القومي،» <http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/20-09-2002/a43.htm>.

كقومي يرفض الاحتلال الأمريكي ويدين المتعاونين «الذين جاؤوا على ظهر الدبابات الأميركية والهيلوكبتر العسكرية»؛ فلا يتورع قنبر عن شتمه ومن ثم الاعتداء عليه بالضرب. وراء هذا العنف تكمن حساسيات متشابكة: سنية - شيعية، عربية - إيرانية، قومية - دينية... الخ. ولم تثمر مطالبة القناة لـ قنبر بتقديم اعتذار رسمي ومكتوب للمعتدى عليه وللقناة نفسها، كون ذلك يتناقض مع سياستها المعلنة.

المثال الثاني، يحمل أيضاً أكثر من دلالة، ذاك أن أحد المشاركَين في الحوار كان قد شارك قبل فترة وجيزة ببرنامج الاتجاه المعاكس حول الموضوع نفسه: الأكراد. على الجزيرة كان شيراز اليزيدي في مواجهة سليم مطر الفلسطيني، وعلى أبو ظبي كان اليزيدي في مواجهة محمد بهجت عزت، تركماني. دار النقاش حول مستقبل العراق وبخاصة مدينة كركوك، عزت كان هادئاً يدافع عن وحدة العراق، يرفض الكونفدرالية، يطالب بانتخابات حرة تضع القرار في يد الشعب، يؤكد أن ثروات العراق هي ملك لكل العراقيين ويجب تقاسمها بشكل عادل. أما اليزيدي، فيطالب باستقلال كردستان، ضم مدينة كركوك إليها، إضافة إلى مدينة ديالا ونصف الموصل. وفي حين حافظ الأول على هدوئه راح الثاني يصرخ بصوت عال، تاركاً كرسيه مانعاً المذيع من الكلام، بحيث تحولت الحلقة إلى مشاجرة صاخبة عندما ذكّره المذيع جاسم العزّاوي بأنه هو أيضاً ابن كركوك يعرف كل أحيائها ومكوناتها الإثنية.

في المقابل نجد مثالاً آخر مختلفاً في البرنامج نفسه، مواجهة هادئة في الشكل، ساخنة في المضمون في حلقة ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، حول سؤال: «هل هناك ما يبرر ظهور الإسرائيليين على القنوات الفضائية العربية؟».

المذيع يبدأ باسماً هادئاً أنيقاً. المشاركان: باحثة لبنانية وسفير مصري، ملابس الاثنين ذات أناقة دبلوماسية: هي ببذلة سوداء وقبة حمراء (سموكنغ)، التسريحة تقليدية وابتسامة هادئة، هو ببدلة سوداء، ربطة عنق رمادية وابتسامة هادئة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الموضوع ليس بارداً فهو يلهب الشارع العربي ويحرج الحكومات: التطبيع مع إسرائيل، في بعده الإعلامي المتمثل في دعوة الإسرائيليين للحديث على شاشات الفضائيات. ويشكّل الموضوع بحد ذاته انتقاداً، ضمنياً موجهاً للجزيرة ولـ إم.بي.سي. من قبل

LAU Beirut campus

المنافِسَةِ الصاعِدة قناة أبو ظبي. يتناول النقاش المقارنة بين المحطات الدولية والعربية، العلاقة مع معسكر السلام الإسرائيلي، الحاجز النفسي، صورة الضحية في الإعلام، معرفة الآخر، الإثارة وتأثير وسائل الإعلام.

يبدأ السفير محمد البسيوني بطرح أساس للنقاش من نقطتين: «الأولى، التلفزيونات العالمية تستضيف الإسرائيليين وتسمح بالنقاش بينهم وبين العرب ما يعطيها مصداقية أكبر. الثانية، أن الرأي العام الإسرائيلي ليس واحداً وذلك ما يجب الإفادة منه. يجب التمييز بين الأخبار والبرامج الحوارية، لا بد من إعطاء الفرصة للرأي والرأي الآخر».

الباحثة المُقابلة تردّ بدورها بنقطتين «الأولى مبنية على عمل وسائل الاتصال الجماهيري والإخبارية (Info.com) الذي يقوم على ثلاثة عناصر: الاستراتيجية التي تنطلق من الرؤية لتصل إلى تحديد الهدف، الحامل (Support)، وأخيراً الجمهور الذي يتحدد بالمدى الجيولغوي للرسالة المبثوثة. من هنا، فإن المقارنة بين سي.إن.إن. والفضائيات العربية، تفتقر إلى عناصر أساسية خاصة الجمهور والهدف اللذين يختلفان جذرياً بين طرفي المقارنة. هنا قضية وطنية قومية، صراع على السيادة بل على الوجود. والجمهور العربي يشكّل طرفاً في هذا الصراع، أما هناك، فجمهور غريب عن هذه القضية وعن هذا الصِّراع؛ ففي جهة، ثمة معسكران يتواجهان، وفي الجهة الأخرى جمهور خارج المواجهة. لذلك فإن القواعد التي تحكم العلاقات بين الطرفين وبين كل منهما مع الخارج ليست هي ذاتها. النقطة الثانية، أن وسائل الاتصال الجماهيري في بلد ما تعكس نظامه، السياسي، الاجتماعي والاقتصادي، أما عندنا فما هو النظام التي تعكسه وسائل إعلامنا؟ ما هي المصالح التي تخدمها هذه الوسائل؟».

السفير بسيوني: «إنه الخوف من تدمير الحاجز النفسي، فمنذ كامب ديفيد، وعلى الرغم من ٢٢ اتفاقية بين مصر وإسرائيل، لم يستطع الشعب المصري أن يدمّر هذا الحاجز. لماذا لا نصغي إلى أولئك الذين ينتقدون شارون إلى جانب إصغائنا لأولئك الذين يدافعون عنه؟ هناك إسرائيليون يؤيدون السلام لأنهم يحلمون بشرق أوسط كبير. من مثل زئيف ستيرنهيل أو مالي روبرت، هذا معسكر السلام، ونحن ساعدنا على كسره. العمليات الانتحارية لا تترك لهم الخيار».

الجواب يسوق حججاً: «رجال السلام هؤلاء موجودون، هذا صحيح، يجب دعمهم، ولكن ليس هؤلاء من نراهم على شاشات فضائياتنا، بحجة أنهم لا يمثلون الجمهور الإسرائيلي. من جهة أُخرى، نجد أن الوجوه البارزة بين هؤلاء لا تتجاوز الخطوط الحمراء التي ترفض الحقوق الأكثر مشروعية للفلسطينيين: مثلاً، كلهم يطالبون عرفات بالتراجع عن القرار الرقم ١٩٤ المتعلق بحق العودة. يطالبون رئيس دولة بالتنازل عن حق شعبه، عن حق أساسي كرّسه قرار أممي. هل هذا منطق سلام؟ مثال آخر، يوسي بيلين، صديقك، الأكثر اعتدالاً، يقول في الصحافة، إن حق العودة غير وارد، لأنه يتعارض مع الطبيعة اليهودية لدولة إسرائيل. هل هذا منطق سلام؟ أما ستيرنهيل، فقد كنت معجبة به، وترجمت الكثير من منشوراته، لكنني صدمت وأنا أقرأ له مقالة في مجلة **لو بوان** الفرنسية يقول فيها: «إنهم يريدون رمينا في البحر»».

السفير: يطرح فكرة تتعلق بمنطق السلام: «بالأمس، كتبت مجلة **وجهات نظر** عن مذكرات (آيزنهاور). لقد حملت هذه المذكرات عنوان: «إعلان السلام»، ما يعني أن الحرب لم تنتهِ مع نهاية العمليات العسكرية، لكن يتم تغيير الوسائل والأسلحة».

الباحثة: «بالضبط، إنها حرب الأفكار، القلوب، والنفوس. لذلك فإنه من الخطر أن نترك النخب الإسرائيلية تتحدث على شاشاتنا العربية، في مداخلات خارج السياق، من دون أن يكون لدى هذا الجمهور معرفة عميقة بالذهنية والاستراتيجية وبأساليب الالتفاف والتحوير الإعلامية والسياسية الإسرائيلية. إن جمهورنا يكره الإسرائيليين لأنهم احتلوا أرضنا، ولكنه لا يعرف كثيراً عن استراتيجياتهم ومنهجياتهم. وهذا ما لا تؤمنه بضع دقائق من التعليق والتحليل (ولا ننسى أنهم أهل الحرب النفسية). ثم، هل أعلن آيزنهاور السلام كما جاء في عنوان مذكراته قبل أن يحسم أمر الحرب العالمية الثانية؟ سيكون بإمكاننا أن نفعل مثله، بدورنا، بعد انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة».

السفير: «البيان الأخير الذي وقّعه فلسطينيون وإسرائيليون من مؤيدي السلام هو ذو دلالة كبرى؛ مئات من التواقيع، لا بد من تشجيعها. كما إنه لا بد لنا من أن نربح حرب الصورة، صورة الذين يدعون إلى السلام، صورة

LAU Beirut campus

الضحية، ونحن كذلك فعلاً. هذه هي الصورة التي يُقدّم بها الإسرائيليون في وسائل الإعلام».

الباحثة: «سيدي، أنت تتحدث كسفير في الخارج، يرى وسائل الإعلام الغربية، وتنسى أننا نناقش المحطات العربية التي تتوجه للعرب».

السفير: «أنا لا أريد أن أكون منافقاً، أن أتحدث عن المبادئ والحقوق، فيما يلتقي مسؤولون فلسطينيون، سراً، بنظرائهم الإسرائيليين. علينا أن لا نكون ملكيين أكثر من الملك، علينا أن ندعمهم».

الباحثة: «ندعمهم، نعم، ولكن بطريقة واعية تنبع من معرفة استراتيجية الآخر ومعرفة دقيقة باستراتيجية الجهة التي ننتمي إليها، معرفة شاملة تتبيّن لوحة البازل (Puzzle) الكبيرة التي تمثل كامل المشهد: كل فعالية تمثل قطعة من قطع البازل، ولكلٍ الحرية في أن يختار قطعته، شرط أن يفعل ذلك بوعي، ومعرفة موقعها من الصورة. مشكلتنا أننا لا نملك اللوحة الكبيرة، المخطط الكبير، لدينا فكرة عامة، لكننا نعتقد أن كل قطعة هي اللوحة كلها، بذاتها، وهذا ما يجعلنا نملأ بعملنا أجزاء في المخطط الآخر، في لوحة (البازل) المقابلة المعادية».

السفير: «لا بد من معرفة الآخر».

الباحثة: «معرفة الآخر هي غير معرفة العدو رغم أن كليهما مطلوبان. واستقبال مسؤول إسرائيلي لثلاث دقائق لا يساعدنا على معرفة العدو».

السفير: «لا بد من عمل منهجي يؤمّن معرفة الآخر. لا يجوز الاستفزاز».

الباحثة: «الدبابات الإسرائيلية هي التي تستفزّ المشاهد، ووسائل الإعلام تنقل ما يحصل على الأرض.»

السفير: «وتأثير الميديا؟».

الباحثة تستشهد: حول تأثير الميديا، ببنيامين نتانياهو في كتابه **أمن وسلام** حيث يشرح كيف استطاعت إسرائيل أن تغير الرؤية الغربية المتعلقة بطبيعة الإرهاب والوسائل الضرورية لاستئصاله[١٨]. وكيف استطاعت أن

(١٨) Benyamin Netanyahou, *Paix et sécurité: Pour en nir avec le terrorisme*, trad. de l'américain par Anne Sauvêtre ([Paris]: L'Archipel, 1996), pp. 79 et 81-83.

تطورها بين عامي (١٩٧٩) و(١٩٨٤) «من رؤية تعاقب الأفراد والمنظمات، إلى رؤية تعاقب البلدان والدول. . .أياً تكن هوية الفاعلين وادعاءاتهم» ويعزو نتانياهو هذا النجاح إلى «اتباع خطة فكرية محددة تهدف إلى إقناع الغرب بتغيير سياسته تجاه الإرهاب». وهنا يعرض للفترة التي عاشها في الولايات المتحدة، كرجل ثان في السفارة الإسرائيلية «خلال هذه الفترة. . .ألتقط كل الفرص التي أتيحت لي سواء عن طريق العمل الدبلوماسي أو بواسطة المداخلات في وسائل الإعلام، وذلك بهدف إقناع الدول الغربية. . . بحزمة من العقوبات الدبلوماسية، الاقتصادية وحتى العسكرية ضد هذه الدول» وكذلك لإقناع «الولايات المتحدة بتبنّي هذا المسلك. . .وبقيادة الصراع ضد الإرهاب» «لقد قام ممثلو إسرائيل في الولايات المتحدة بعمل متناغم لإقناع الرأي العام الأمريكي بتبنّي هذا النمط من التدابير».

السفير: «يحتاج أصحاب القرار في العالم إلى أن نقدم لهم رؤية سياسية واضحة واستراتيجية إعلامية واضحة».

الباحثة: «الجمهور الأجنبي لا يشاهد قنواتنا. التأثير المباشر لهذه الفضائيات هو على جمهورنا نحن. أما في الخارج، فالتأثير يأتي من العمل الدبلوماسي ومن تنظيم المشاركة على شاشات وصفحات وسائل الإعلام الغربي».

متدخّل عبر الهاتف يسأل: «لماذا لا تتحدث وسائل الإعلام العربية والدبلوماسيون عن تقرير نشرته منظمة «كير» (Care) الأميركية قبل أيام، يقول إن الـ إف.بي.آي. اعتقلت قائداً من رابطة الدفاع اليهودية كان يحضر لتفجير مواقع عبادة، مكاتب وعدة عمليات اغتيال. خاصة وأن الـ إف.بي.آي. نفسها قد صنّفت، في تقريرها لعام ١٩٨٥، رابطة الدفاع اليهودية كثاني منظمة إرهابية على أراضٍ أمريكية. كذلك ورد في تقرير وزارة الطاقة لعام ١٩٨٩، أن: «رابطة الدفاع اليهودية هي، منذ عشر سنوات، الأكثر نشاطاً بين المنظمات الإرهابية المرتبطة بإسرائيل».

هذا الحوار الهادئ شكلاً، الساخنُ مضموناً، هو ما تبنّته سياسة قناة أبو ظبي. ويبدو أن العربية تماثلها في ذلك، مع فارق أن اختيار هذه الأخيرة للمشاركين يحرص على ألا تكون وجهة نظرهم متباعدة جداً، ما يُعطي انطباعاً بدرجة ما عن الموضوعية، بخاصة في برنامج مثل «بانوراما». لكن ثمة برامج

أخرى، من مثل «صناعة الموت»، قد صممت لمهاجمة أعمال العنف، من دون التمييز بين عنف منظمات المقاومة، سواء في لبنان أو فلسطين أو العراق، وعنف الإرهابيين. ذاك أن السياسة العامة للقناة تفرض ذلك لسببين، **الأول**، كونها قناة تابعة للعربية السعودية التي تعاني عنف المعارضة والأصوليين بمن فيهم القاعدة، والتي تطرح نفسها دولة قائدة لمعسكر الاعتدال في المنطقة. التزام يترجَم أيضاً بدعم محمود عباس ومعسكره في فلسطين، اليمين اللبناني، والنظام المصري. و**الثاني**، هو المتعلق بمقتضيات الاحتلال الأمريكي في العراق، وعمليات المقاومة، التي توصف، في أحسن الأحوال، بأنها أعمال عنف، من دون تمييز بين القاعدة وتنظيمات المقاومة العراقية.

هذا الهدوء النابع من اختيار المشاركين هو ما يحكم أيضاً حواريات المنار، ذاك أن «قناة المقاومة»، أو حزب الله لا تفتح أبوابها لكل أنواع المشاركين: «أنا أحرص على استضافة مشاركين معارضين للخط السياسي للمنار، شرط أن يكونوا من أعلى الهرم السياسي»[١٩] يؤكد عمرو ناصف، صاحب برنامج «ماذا بعد؟». غير أن هذا الانتخاب في الاختيار الذي تبرره أهداف المنار وسياسة العربية، يحترم في الأستوديو فقط، حيث تضبط «نسبياً» ظاهرة إطلاق المكبوتات. أما على الهاتف، فتعود الأمور إلى حالها ويتباين المتدخلون عبر الهاتف الذي يؤشر «خطاب، لهجة، ونبرة معظمهم إلى انتمائهم للطبقات الوسطى والعاملة»[٢٠].

أهو مؤشر تفاؤل في ما يخص الديمقراطية كما يعتقد ديفيد هيرتس، الذي يعبّر عن ارتياحه بالبدء بـ «إطلاق مكبوتات الجميع»[٢١]. اعتماداً على أنّ هذا الإطلاق يشكّل سيكولوجياً، كما قلنا سابقاً، شرطاً أولياً للتوازن الذي يسمح بنشوء تفكير عقلاني ومنطق جدلي؟ أم أنه شرط، ولكنه ليس «الشرط». بل إنه، في غياب الشروط الأخرى، يصبح طريقاً للخلط المؤدي إلى فوضى فكرية في قضايا تحتاج إلى معارف دقيقة وموضوعية؟

الاثنان معاً. ذاك أن هذه الطبقات، المتوسطة والعاملة، هي التي تقوم،

(١٩) عمرو ناصف، في الشريط الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

(٢٠) Hirst, «Aljazeera, une chaîne libre au Proche Orient, la télévision arabe qui dérange».

(٢١) المصدر نفسه.

تاريخياً، بعملية التغيير. ومن شأن فكرة امتلاك حق التدخل المباشر عبر الهاتف، والتعبير بحرية، أن تدفع المشاهد إلى متابعة النقاش بتنبه أكثر، وبفهم الحجج المطروحة ومحاكمتها. صحيح أن عدداً كبيراً من هؤلاء المتصلين ينطلق من أفكارٍ مسبقة، والكثير منهم يوحون بأنهم يقرأون من ورقة أُعدت مسبقاً، وربما بالاتفاق مع واحد من أطراف النقاش أو المذيع. وأن الكثير أيضاً يلجأون إلى الصراخ الذي يصل أحياناً حد الشتم، لكن فئة أخرى من المتصلين عبر الهاتف تقدم مداخلات ذات قيمة تحليلية وعلمية موثقة بنصوص ووقائع، كما يحيل بعضهم إلى نصوص دينية «آيات وأحاديث».

والواقع أن لهذه المشاركة الحماسية ميزات ومشاكل: فالجمهور المتعود على رسالة إعلامية تملي عليه كل شيء، يجد نفسه فجأة في برج بابل، وهو بحاجة إلى أدوات ومعارف ومعايير تضع أسس قدراته على الاختيار والمحاكمة العقلانية. لا شك في أن هناك جزءاً من الجمهور العربي يمتلك ذلك بالنظر إلى تاريخ الاتجاهات السياسية والتيارات الفكرية والانفتاح المعرفي على العالم. ولكن هناك الجزء الآخر الذي يقتصر على ردة الفعل العاطفية والفئوية وبخاصة أن ثمة عوامل عدة تشجع ردات الفعل هذه: **الأول**، أن المشاهد يعي - في مناخ من التوتر الذي يتجاوز الفردي والشخصي ويأتي من شمولية المحيط بحسب نظرية هانس سيلي (Hans Seley) حول التوتر (Theory of Stress). العنصر **الثاني**، يكمن في المنافسة بين المحطات على اللحاق بالحدث ما لا يترك فرصة لتعميق الافكار وذلك ما يعترف به مسؤولو المحطات أنفسهم، من مثل إبراهيم هلال في الجزيرة[٢٢]. العنصر **الثالث**، يكمن في الشفوية التي لا تسمح للمجتمعات بأن تقف على مسافة من نفسها، كما يقول بول عطا الله: «لا تستطيع الأفكار أن تصبح أبداً موضوع جدل نقدي وموضوعي مدعّم طالما أن المشاهد لا يستطيع تجميد الكلام، وقفه بشكل ملموس، مدة تكفي لتحليله، لمقارنته، ولنقده» ولذلك فإنه (المشاهد) يصبح خاضعاً «لسلطة شبه سحرية»[٢٣] لكنها آنية، لا يحمل منها إلا «ذاكرة قصيرة»[٢٤] على المستوى الفردي والجمعي.

(٢٢) إبراهيم هلال، في الشريط الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

(٢٣) Paul Atallah, *Théories de la communication: Histoire, contexte, pouvoir* (Québec: Presse Universitaire du Québec, 1989).

(٢٤) المصدر نفسه.

ثمة عاملان آخران يدعمان هذا التحليل: سرعة الحوار نفسه من جهة، وظاهرة معمّمة تتمثل في الشريط الإخباري المكتوب الذي يتحرك في أسفل الشاشة، ناقلاً آخر الأخبار حول الأحداث، وبسرعة تجعله مشابها للشفوية. ما يشتّت انتباه وتركيز المشاهد بين شاشتين متحركتين في آن: «الشاشة الكبيرة والشريط»، وبين حاسّتين وفعاليّتين، حاسة النظر مع فاعلية القراءة، وحاسة النظر مع السمع؛ إنه يقرأ صحيفة ويستمع إلى مناظرة أو حوار في آن معاً، وبذا، لا يمكنه أن يتلقّى بعمق، لا هذه ولا تلك. وإذا ما قرأنا ذلك في ضوء نظرية ماكلوهان، التي تبنّيناها حول العلاقة بين الشفوية وعودة القَبَليّة، فإننا نصل على أن لهذا النوع من التلقّي آثاراً سلبية على بناء الفرد الديمقراطي. آثار تتحدد، إلى الرغم من ذلك، بمدى حضور الجدل العام على الساحة العامة. وهنا يختلف الوضع من دولة عربية إلى أخرى؛ ففي لبنان مثلاً، لم يقتصر هذا الجدل على الشاشات، بل إن وسائل الإعلام هي التي تلهث كي تواكب ما يحصل على الأرض. من هنا ليس أمام المحطات، ومنها المنار، أي خيار في شأن الانفتاح. غير أن تعاقب الأحداث التي عاشتها البلاد يتجه إلى جعل النقاش مقتصراً أكثر فأكثر على قضايا تتعلق بالحدث العابر، وضمن أطر التوزع الطائفي. أما في دول عربية أخرى، فنجد الجدل العامّ، بدرجات مختلفة، لكنه بشكل عامّ يدور في دوائر سرية أو محصورة وأحياناً مقموعة، غير مسموح له الوجود على الساحة العامة، ولا هو متجذر في التربية. حتى إذا استطاع التحرر، كان ذلك ضمن طبقات النخب وفي إطار الإنتاج الأدبي والثقافي والفكري، الذي لا يطال إلا هذه الطبقات، خاصة مع إقصاء الموضوع الثقافي عن جدول البرامج التلفزيونية. وهكذا يعيش المشاهد بعيداً عما يحصل على الشاشات في ما يخص مساحة الحرية التي يتمتع بها في حياته الواقعية، لكن هؤلاء الذين على الشاشات هم من هذا المجتمع، وغايتهم إقناع المشاهد، و«الإقناع» (Persuation) بصفته نشاطاً معرفياً يتعلق بالمُشاهد وبمعالجة المادة الإخبارية، لا يقوم على إطلاق المكبوتات أو على الاستحواذ (Appropriation) من دون أية فعالية تحليلية[٢٥]. من هنا، فإنه

(٢٥) Marie Pierre Fourquet, «Nouveau regard sur les émissions politiques vers un récepteur complexe,» et Judith Lazarre, «Ma persuasion par la télévision, éducation versus manipulation,» dans: Didier Courbet et Marie-Pierre Fourquet, dirs., *La Télévision et ses inuences* ([Paris]: INA; Bruxelles: De Boeck, 2003), chaps. 4 et 14.

يمكن للدول والأحزاب التي تموّل الجزيرة وأبو ظبي والعربية والمنار، أن تمارس، كما المشاهد، عملية استحواذ، يرفضها الآخرون بمن فيهم الذين يستفيدون منها، ذاك أن ثقل التاريخ والجغرافيا يفرض نفسه.

في المقابل، فإن تعدّد المحطات، تنوّعها، تنافسها بل وخلافاتها، تفسح المجال لجميع الآراء: فما هو محرّم لدى واحدة هو مطلب موضوعيٌّ لدى الأخرى، ما «يوحي بالأمل بأن دائرة القمع والتحوير في المنطقة يمكن أن تنكسر»[٢٦]. وحتّى الاعتراض السائد أن النقاش لا يؤدي في النهاية إلى شيء، فهو يبدو، في العمق، اعتراضاً غير ديمقراطي، لأنّه من غير المطلوب من المتناظرين والمذيعين أن يُملوا على المشاهد رأيهم وأفكارهم حول الموضوع المطروح، ولا أن يصلوا بالجميع إلى تبنّي رأي واحد. إن دورهم أن يطرحوا، يقدّموا، يرافعوا، يُحلّلوا ويتركوا للآخر أن يفكّر ويختار. إنه عمل يشبه المدرسة التكعيبية في الرسم، التي «أحلّت محل «وجهة النظر» و«وهم المنظورية»، رؤية متعاقبة للموضوع من كل جوانبه»[٢٧] هكذا، فإن تعدد وجهات النظر التي يطرحها المتناظرون والمتداخلون وتعدد وتنوع البرامج والمحطات، ترسم كلها لوحة تلفزيونية تشبه «التكعيبية التي، وهي تعيد إلينا الداخل والخارج، الفوق والتحت، الأمام والخلف، وكل ما تبقّى من البُعدين تلغي وهم المنظورية لصالح وعي حسي وآني بالكل، وبدلاً من الوهم المتخصص بالبعد الثالث، تضع على اللوحة تداخلاً متفاعلاً للمخططات، تناقضاً وصراعاً دراميًا بين الأنماط، الإضاءة، القماش، ضمن عملية تفاعل تفرض الرسالة بواسطة المشاركة»[٢٨]. هذا الوعي الحسي وهذه المشاركة على واسطة أخرى، هي التلفزيون، تفعّل «العبور من الاتصال الخطي (Connection linéaire) إلى إعادة التصور (Configuration)»[٢٩] ما يُشكّل عوامل تفعّل تغيير الأفكار والسلوكيات باتجاه ديمقراطي، وبخاصة أن حركة المجتمعات العربية موسومة بإخفاقات الحاضر، لكنها من جهة أخرى مختزنة لطاقة التاريخ والثقافة من جهة، وفعل المقاومة السياسية الثقافية وحتى

(٢٦) Hirst, «Aljazeera, une chaîne libre au Proche Orient, la télévision arabe qui dérange».

(٢٧) McLuhan, *Pour comprendre les médias: Les Prolongements technologiques de l'homme*, p. 30.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٠.

المسلّحة من جهة أخرى، مضافة إلى انفتاح معرفي على العالم أدت فيه وسائل الاتصال دوراً مهمّاً. وربما تساعدنا المقارنة مع التطور التاريخي في فرنسا على تقييم ما: ففي عام ١٨٨٦، كانت حلقات النقاش مجازة في تلك البلاد شرط ألاّ تتناول المواضيع السياسية والدينية. كذلك فإن ما عرف بـ «النقاشات الجامعية» كان إلى حدٍّ ما حُراً، غير أن نتائجه كانت تخضع لرقابة الكنيسة. أما في الجمهورية الثالثة، فإن الجدل العام كان محظوراً على الساحة العامة وكذلك في النوادي، بحجة أن ذلك يحمل خطورة تحويل التجمعات إلى وسائل تصبح منافسة للسلطة. وهكذا كانت السلطتان الدينية والسياسية وراء تحجيم نتائج الجدل العام.

على شاشة الفضائيّات الإخبارية العربية، يُشكّل الموضوع السياسي مادّة مطروحة للنقاش، أمّا الديني، فلا يُقاربه إلا الشيوخ وتحت رقابة مرجعيات محدَّدة «القرضاوي في الجزيرة، العودة وغيره في العربية»[٣٠]، مجلس الشورى في المنار». وبذلك يسيطر هؤلاء على الرسالة الإعلامية عبر برامجهم وفتاويهم وعبر رقابتهم على البرامج الأخرى. من جهة أخرى، نلاحظ الفجوة بين تحرير النقاش التلفزيوني وتحديد حرية التجمع والنقاش على الساحة العامة، ما يُفسّر حرص السلطات الدينية والسياسية على قطع الطريق على كل ما يجعل من الجدل العام والتجمعات العامة تهديداً مُحتملاً، وتحديد كل أنواع «الحركات الاجتماعية التي تحاول الانفلات من ذلك»[٣١].

فإذا كانت هذه المُقارنة تقودنا إلى أنّ المُحدّدات الفرنسية التي ذكرنا، لم تستطع أن تمنع التطور الديمقراطي، أوَليست هذه الأشكال الحوارية التي نناقشها «مشابهة للأشكال التي ظهرت في القرن الثامن عشر في الغرب وكانت في أساس ظهور وتشكّل الفضاء العام؟»[٣٢] ولكن هل أمكن حصول هذا التطور في فرنسا إلا في سياق تطوّر ثقافي وظروف تاريخية مؤاتية على أرضيتين، عصر النهضة بثورته على الكنيسة، ومن ثَم الثورة الصناعية:

(٣٠) انظر تأثيرات رجال الدين على العربية في الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(٣١) Roger Bautier et Elizabeth Cazenave, «Sources historiques et archives de la communication,» dans: Stéphane Olivesi, dir., *Introduction à la recherche en SIC* (Grenoble: Presses universitaires de Grenoble, 2007), p. 120.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١١٨.

تطور تَمثّل في الحراك الفكري الكبير في مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلوم التربية والعلوم التطبيقية، ما شكّل أرضية فكريّة لقيام الثورة الفرنسية، ومن ثَمّ ترسيخ منجزاتها الإصلاحية والتشريعية والاجتماعية. حيث لا يجوز اختزال هذا الحراك التاريخي بثورة جياع، تقتصر محرضاتها على «فليأكلوا بسكويت»؛ ولو كانت كذلك لما أنجزت ما أنجزت.

الفصل العاشر

المواضيع المُغيَّبة: التهميش أو الإقصاء

تمهيد

تبقى القضية الأكثر حساسية، قضية الإقصاء، المواضيع المطروحة للنقاش ليست هي الأهم حتى ولو كانت ترتبط بالحدث الساخن، أما المواضيع التي يتم تهميشها وإقصاؤها فهي اجتماعية واقتصادية وسياسية. وإذ يدّعي القائمون على المحطات الإخبارية أن المواضيع الاجتماعية لا تدخل في دائرة تخصص محطاتهم، فإن الكثير من القضايا الاقتصادية والسياسية تتعرض للتهميش والإقصاء، بحيث إن وزير الإعلام اللبناني غازي العريضي، يتساءل من على شاشة الجزيرة عام ٢٠٠٣: «أين هي السياسة الإعلامية التي تخدم قضايانا المركزية؟ الصراع العربي ـ الإسرائيلي، المقاومة، القضايا الاقتصادية، النفط، الماء، المال، قضايا الشباب والديموغرافيا؟ إن الإقصاء نسبي لكن السؤال الكبير هو: هل لدينا استراتيجية إعلامية تركّز على هذه القضايا؟» سؤال يردّ عليه بنفسه قائلاً «لا استقلالية للمحطات إلا نسبياً، ذاك أن وراء كل قناة حكومة أو قوة سياسية محددة، لكن صريحين، هي موجودة لخدمتها»[(١)].

عالِم الاجتماع د. نبيل دجاني، يؤطر الموضوع بشكل أَدَقّ: «على وسائل الإعلام أن تؤدّي عدة أدوار: السياسي، الاقتصادي والاجتماعي؛ في العالم العربي يتمّ التركيز على المجالين الأوّلين، لأنهما يقعان في دائرة اهتمام ومصالح هذه الوسائل والحكومات التي تدعمها. ويتم استبعاد الثالث الذي لا

(١) غازي العريضي في حلقة من «برنامج بلا حدود»، مع أحمد منصور بتاريخ ٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

يهتم به أحد من هؤلاء. إذاً، فالمواطن هو المستبعد»[٢]. إن إقصاء المواطن هو ما يترجم بإقصاء المواضيع التي تقع في أساس التنمية البشرية المستمرة. تورد مقدمة تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠، قولاً لـ ماري روبنسون المفوضة العليا للأمم المتحدة لحقوق الإنسان: «المطلوب هو إحقاق جميع الحقوق المدنية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية والاجتماعية، لكل الأفراد. حق الوصول إلى التعليم الأساسي، إلى الخدمات الصحية، الحق في السكن، في العمل، كلها أساسية، بقدر الحقوق السياسية والمدنية لتأمين الحرية الإنسانية»[٣]. في السياق ذاته، يعتبر نادر فرجاني، أن «فشل التنمية إن هو إلا فشلُ بناءِ القدرات البشرية، في التعليم وفي التعليم المستمر»[٤] ذاك أن التعليم هو مشروع بلورة الشخصية الإنسانية ولا بد من استكماله بالبناء الثقافي. ولهذا فإن الإقصاء الكلي أو النسبي لهذين الموضوعين يستحق التدقيق والتوسع. (نحن نقصد بالنسبي، عدم كفاية المساحة المعطاة لهذين الموضوعين على جدول البرامج، كما نقصد به توقيت البث؛ فالكل يعرف أن بث برنامج في وقت العصر أو عند الساعة السابعة لا يحظى بكم ونوع المشاهدين الذي يحظى به برنامج يبث في ما يسمى الساعات الرئيسة (Prime Time)، وهذا ما يقع في دائرة التهميش. أما الإقصاء فيمارس بحق مواضيع أخرى سيناقشها البحث بعد موضوعي التعليم والثقافة. أما الخصائص التي تميّز بين فصيلتين من البرامج، البرامج الثقافية من جهة، والبرامج الاقتصادية والسياسية من جهة أخرى، فتنبع من طبيعة هذه البرامج وطبيعة القضايا التي تتناولها ونوعية التأثير الذي تحدثه: الاجتماعي والثقافي يُحدثان تأثيرات على المدى البعيد، ولذلك تتم إزاحتهما إلى الخلف، تهميشهما، أما المواضيع السياسية والاقتصادية فتخلق تأثيرات مباشرة، لذلك يتم إقصاء الخطير منها، ووضعه في مقام التابو. وبخاصة أن المواضيع السياسية والاقتصادية تقع في أساس طبيعة المحطات الإخبارية وخلفيّات المنافسة بينها، والخطير من هذه المواضيع يتعلق بالدول التي تمتلك هذه المحطات. لذلك فهي لا تستطيع تبنّي حلٍّ وسطٍ بشأن تناولها،

(٢) نبيل دجاني في برنامج «قضايا الساعة» مع محمد كريشان بتاريخ ١٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

(٣) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٠).

(٤) مخطوطة أرسلها نادر فرجاني إلى الباحثة عبر البريد الإلكتروني.

LAU Beirut campus

فإما بإقصائها نهائياً وإما بفتح باب جهنم. وبما أن هذه المواضيع المهمشة والمقصاة، تشكّل قائمة طويلة، فإن البحث سيعتمد، في خياراته، معيار مدى تأثيراتها الجوهرية في المجال الاجتماعي، الثقافي والسياسي والاقتصادي. بدءاً من المواضيع المهمّشة ومثالها الأهم: الأمية والتعليم، ثم الثقافة، سواء طرح المواضيع الثقافية الخطيرة، أو البرامج الثقافية التي تشكّل بحد ذاتها محرّضاً على الثقافة العضوية الاعتراضية والعقلية النقدية، انتقالاً إلى المواضيع المقصاة، ومثالها قضية حقوق الإنسان، ثم قضية الوراثة في الحكم ومسألة ميزانية الدولة، خاصة موارد النفط، الفساد، الحريات والفقر، والبيئة، والقواعد العسكرية الأجنبية في الخليج والاتفاقيات الأمنية.

أولاً: التهميش

١ ـ التعليم والأُمية: مثال أول للقضايا المهمّشة

التعليم حق أقرّه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وكرّسته المادة الرقم ١٣ من الميثاق الدولي للحقوق الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية، ثم حددته بشكل جوهري المادتان ٢٨ و٢٩ من معاهدة الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الطفل[٥]. وهو حق يقع في صميم مسؤولية الدولة، المجتمع وبالتالي، الميديا. تؤدي وسائل الإعلام المرئية هذا الدور بطريقتين: إثارة المواضيع المتعلقة بالتعليم ومناقشتها في البرامج من جهة، والمساهمة في عملية التعليم عبر ما تقدّمه في إطار التعليم غير النظامي والتعليم المستمر من جهة ثانية، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بمجتمعات تعاني مستوى عالياً من الأمية ومن تفاوت الفرص والحقوق كما من عدم الاستقرار على كل الصُعُد، وبخاصة النزاعات المسلحة.

غير أن قضايا التعليم هي شبه غائبة عن البرامج التلفزيونية وبخاصة تلك البرامج التي تُعتبر سياسية حصراً، وترتبط بالحدث والآنيّة. وكذلك البرامج الأخرى، برامج المنوعات، فإنها نادراً ما تولي أهمية لموضوع التعليم. وإذا كان الحق في التعلم لا يقع في صميم مسؤولية وسائل الإعلام، فإن إثارة النقاش حول تطبيقات هذا الحق في الدول العربية هو في صميم هذه

(٥) انظر المعاهدة الدولية لحقوق الطفل: <http://www.droits-enfant.org>.

المسؤولية. كذلك كشف النقص الكبير الذي تُعانيه الاستراتيجيات الحكومية والمجتمعية، في عدة مناحٍ، ولاسيما غياب المساواة، والظلم الذي يطال كل من المهمّشين، الفقراء، النساء، المعوّقين والمناطق الزراعية. أما عندما نتحدث عن التعليم المستمر، فإن ما يطرح للنقاش هو طبيعة المعارف والقيم ومنهجية المعرفة التي تنقلها البرامج.

أما العوامل التي تساهم في تفعيل دور التلفزيون في مجالي الحق في التعلّم والتعليم المستمر، فتختلط بالمشاكل التي تستحق أن تثار في البرامج، وبخاصة الحوارية النقاشية: بدءاً من مشكلة الأمية إلى مشكلة التسرب من المدرسة، إلى النقص في التمكين من الوسائل الحديثة وعلى رأسها المعلوماتية والإنترنت. إلى استحالة الوصول إلى المدرسة.

ونبدأ من الأمية: بحسب تقرير الأمم المتحدة للطفولة ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣، هناك ٩ ملايين طفل عربي لا يذهبون إلى المدرسة الابتدائية، ٧٠ مليون بالغ من الأميين ٤٥ مليوناً منهم هم من النساء. ١٧ مليوناً في مصر، و٧٠ بالمئة منهم في السودان، المغرب، الجزائر واليمن[٦].

بحسب **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥**، في العالم العربي ٦٥ مليون أمّي، ثلثاهم من النساء. وتأتي المغرب في الرتبة الأولى من أمية النساء ٦٤ بالمئة، تليها الجزائر ٤٢ بالمئة، ثم تونس ٣٩ بالمئة، فيما يحتل لبنان المرتبة الأولى من حيث نسبة وجود الفتيات في المرحلة الثانوية ٨٥ بالمئة، تليه الأردن ٨٤ بالمئة، ثم الكويت ٨٣ بالمئة[٧].

على الرغم من ذلك لم نجد أي برنامج تلفزيوني يناقش هذه المشكلة التنموية الأساسية، لأن ذلك سيفضي إلى كشف حقيقة الحكومات وتقصيرها والخلل القائم في ميزانياتها وسياساتها الاجتماعية. كما إنه سيفضي إلى موضوع العدالة الاجتماعية، وسيصطدم ببعض القضايا الاجتماعية والثقافية الأخرى. إضافة إلى قضايا سياسية؛ فالأمية في الجزائر مثلاً لا تماثل الأمية

(٦) *AFP* (Le Caire), 13/12/2003.

(٧) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٥: التعاون الدولي على مفترق طرق: المعونة والتجارة والأمن في عالم غير متساوٍ** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٥).

في مصر أو في السعودية. حيث إن نسبة الأمية التي تركها الفرنسيون في الجزائر كانت ٧٢ بالمئة واستطاعت البلاد بعد ٥٠ سنة من استقلالها أن تخفض النسبة بمعدل ٥٠ بالمئة. تطور كان من الممكن أن يكون أفضل لولا الحرب الأهلية والفساد.

الذين ينجون من الأمية يتعرضون لعدّة عوامل تُعيق التنمية في مجال التعلّم وأولها التسرّب من الدّراسة في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية، التي تبلغ معدلاً كبيراً وترتبط بدورها بعوامل اقتصادية، ثقافية واجتماعية، وبخاصة أن التسرّب يتركز بين الفتيات وفي الطبقات الفقيرة. ومَن يحالفهم الحظ للاستمرار في المدرسة، يعانون في غالبيتهم التخلف في استعمال وسائل المعلوماتية، وبخاصة الإنترنت بفعل نقص الإمكانات والكفاءات، ومنها عدم التمكن من اللغات الأجنبية التي تعتبر من مستلزمات الإفادة الجيدة من المعلوماتية، في غياب تعريب كامل لهذا المجال. علماً أن مسألة التعريب هي بحد ذاتها موضوع مناقشة لأن المشكلة الحقيقية تكمن في أن مصادر المعلوماتية لا تنبع من العالم العربي (نسبة مستخدمي الإنترنت في العالم العربي هي ٠,٦ بالمئة)[٨].

تتفاقم هذه المشاكل في المناطق الزراعية، الأحياء الفقيرة وفي المناطق التي تعاني النزاعات، إذاً، لدى غالبية السكان في العالم العربي. والمفارقة أن تأثيرات التلفزيون لدى كل هذه الشرائح، تتركز في هذه المناطق أكثر منها في المناطق الأخرى للأسباب التالية: إمكانية تخصيص وقت أطول للمشاهدة التلفزيونية، كون هذه المشاهدة تتم غالباً بشكل جمعي (العائلة أو ما هو أوسع)، متابعة الحدث أولاً بأول من قبل جمهور يعاني عدم الاستقرار والقلق بالنسبة إلى كل التطورات، تفوّق وسائل الإعلام المرئي والمسموع على المكتوب، وقدرتها على الوصول إلى الشرائح الأمية، وأخيراً قدرة المساحات المخصصة لبرامج التسلية على اجتذاب المشاهد، الذي يتابع بالتالي كل البرامج.

إضافة إلى عنصر خاص بمناطق الصراعات المسلحة، حيث يصبح التلفزيون الوسيلة الوحيدة لمتابعة الحدث وتحصيل المعارف وتكوين الرأي

(٨) المصدر نفسه.

بسبب خطورة الحركة أو منع التجول. كذلك فإن هذه الصراعات سواء أكانت حروباً أهلية أو احتلالات، تُفاقم الفقر والبطالة كما تفاقم انعدام الأمان واستحالة الحركة، ما يرفع من مستوى الأمية. هنا يقدم العراق وفلسطين كنموذجين بليغين؛ ففي عام ١٩٨٧، حصل العراق على جائزة اليونسكو لمحو الأمية (١٠٠ بالمئة من الأطفال كانوا في المدارس)، أما في فترة الحصار فلم يتم إنشاء أي مدرسة جديدة، وفي فترة الاحتلال ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٨، وصل مستوى الأمية إلى ٦١ بالمئة في صفوف الشريحة العمرية بين ١٥ سنة ـ ٢٥ سنة[٩]، ٧٠ بالمئة من المدارس تعاني الحاجة للترميم، نقص المختبرات العلمية، ٥٠ ألف طفل يتسربون من المدارس كل عام، مليونا طفل لا يذهبون إلى المدرسة أساساً ولم تشيِّد وزارة التعليم أي مدرسة جديدة منذ الاحتلال عام ٢٠٠٣[١٠]. ويلحظ تقرير مدير معهد الأمم المتحدة للقيادة الدولية ٢٠٠٥، أن ٧٠٠ مدرسة قد تعرضت للقصف و٣٠٠٠ مدرسة للحريق، وأن ٤٨ بالمئة من مؤسسات التعليم العالي قد نهبت أو دمرت. بضاف إلى ذلك اغتيال ١١٦ أستاذاً وعالماً عراقياً بين ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦، و١٦٣ بين ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠[١١]. على الرغم من ذلك، كان علينا أن ننتظر حتى عام ٢٠٠٩، لنرى هذه القضية تطرح في برنامج تلفزيوني على إحدى الفضائيات الإخبارية، حيث تناولتها حلقة من «المشهد العراقي» على الجزيرة. ولكن لتظل حلقة يتيمة[١٢].

أما فلسطين، فتقدم أراضيها المحتلة نموذجاً آخر لهذه المشكلة، حيث تعاني تدمير البنى التحتية للتعليم وصعوبة انتقال الطلاب من بيوتهم إلى المدارس بحيث يكتسب مصطلح «الحق في الوصول إلى المدرسة» الوارد في شرعة حقوق الإنسان، والمقصود به الحق في التعلم، معنى إضافياً مادياً

(٩) United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization [UNESCO], *Education under Attack 2010* (Paris: UNESCO, 2010), <http://unesdoc.unesco.org/images/0018/001868/186809e.pdf>.

(١٠) Dérik Adriensen, «La Décomposition de l'état irakien,» papier présenté à: Conférence donnée au sein des Nations Unis à Genève 5 Octobre 2010.

انظر أيضاً الترجمة العربية، تحت عنوان: سناء عبد الله، «التعليم في العراق الضحية الأولى للحرب والتمييز العرقي هو النتيجة الأبرز».

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) «المشهد العراقي: الواقع التعليمي والتربوي في العراق،» الجزيرة. نت، ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5F53320F-9973-42F3-BFE5-568689B7E122.htm>.

ملموساً، إذ تأتي الصعوبات الأمنية الواقعية من مثل حظر التجول والعنف، لتضاف إلى الصعوبات المالية، ولتجعل عملية التنقل بالغة الصعوبة، وأحياناً مستحيلة. لم يُثَر هذا الموضوع في الفضائيات الإخبارية إلا نادراً كما في إحدى حلقات برنامج «مجرد سؤال» للمذيع الإماراتي جابر عبيد، المعروف بحسّه بالحياة اليومية. حيث خصص عبيد ١٥ دقيقة لعنوان «معاناة الطلاب الفلسطينيين في الوصول إلى المدرسة»[١٣]. وكان المتحدثان طالباً في جامعة ٦ أكتوبر في نابلس ووالدته.

الطالب: «نحن لا نتمكن من شراء الكتب الضرورية لأن اللقمة أَوْلى. ونواجه خطر عدم التمكن من دفع أقساط الدراسة، كما نواجه الاستحالة الفيزيائية للانتقال إلى المدارس في ظل منع التجول أو العنف والحواجز الإسرائيلية». أما الأم التي تتحدث عبر الهاتف من بيت ساحور في الضفة المحتلة، فتشكو من منع التجول، من المصارف المغلقة ومن الحصار. جابر عبيد يذكّر بإثارته الموضوع نفسه في برنامج سابق، وفي أسفل الشاشة شريط يذكر أسماء المؤسسات التي يمكن أن ترسل إليها التبرعات المخصصة للتعليم كما ترد عبارات حول الغارات الجوية وحملات التفتيش الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. عدا ذلك، نادراً ما تذكر قضية التعليم في البرامج التلفزيونية على الرغم من أن الموضوع الفلسطيني هو ما يحتل معظم ساعات البث على الفضائيات الإخبارية.

إذا كان هذا القصور يستحق اهتماماً خاصاً من وسائل الإعلام، وبخاصة عندما تكون حكومية أو شبه حكومية، فإن الأمر يطرح «السؤال حول الدور الرسمي الذي تضطلع به الدولة (أو لا تضطلع) في موضوع التعليم، ذلك أنه، وعلى عكس الحقوق الأخرى، على الدولة هنا أن تتكفل بتأمين الإطار اللازم لممارسة هذا الحق، من دون أن يكون على الأطفال أو أسرهم أن يطالبوا به»[١٤]. لكننا وعلى العكس من ذلك، نرى تراجعاً في ميزانية التعليم

(١٣) جابر عبيد، في برنامج «مجرد سؤال» عنوان الحلقة، «معاناة الطلاب الفلسطينيين في الوصول إلى المدرسة» (٢٠٠٠) (أرشيف قناة أبو ظبي).

(١٤) Jean Zermatten, «Le Droit à l'éducation si simple et si compliqué,» papier présenté à: Onzième séminaire de l'institut international des droits de l'enfant, <http://ebookbrowse.com/book-education-2005-pdf-d50125941>.

في الدول العربية (٢٠ بالمئة عام ١٩٨٠ ـ ١٠ بالمئة عام ٢٠٠٠) كذلك في ميزانية البحث العلمي (٠,٢ بالمئة)[١٥]. ويأتي هذا التراجع كنتيجة للمشكلات الاقتصادية والسياسية الثقيلة مقترنة بالقصور في الرؤية الاستراتيجية «عندما يكون على الدول أن تتحمل أعباء ديون اقتصادية ضخمة فإن ذلك يقودها إلى التقليل من فرص الوصول إلى الحاجات الاجتماعية، خاصة الحاجة إلى التعليم»[١٦]. (علماً أن موضوع الديون هذا يقع في مقدمة قائمة المواضيع الخاضعة للإقصاء عن البرامج). وإذا كان الحق في التعليم من مسؤولية الدولة والمجتمع، فإن إطلاق النقاش حول مستوى تطبيق هذا الحق وعلى العجز الكبير الذي تعانيه الاستراتيجيات الحكومية والاجتماعية بشأنه وعلى الظلم الذي يعانيه المهمشون والممنوعون منه، هو في صميم واجب الفضائيات. خاصة وأن الفضاء الجيولغوي للغة العربية الفصحى ينتصر على الحدود السياسية ويوسع من مدى تأثير الاستراتيجيات الإعلامية الفضائية. لكن هذه الاستراتيجيات لم تتبلور إلا عبر تحالف بين سلطة السوق والسلطة السياسية، ما يؤسس للإجابة عن تساؤلات حول طبيعة المعارف التي تنقلها، حول مضمون الإقصاء والتهميش اللذين تمارسهما بخصوص قضايا عدة منها التعليم الذي يعتبر القناة الرئيسة لتشكيل البنى المعرفية والفكرية التي تحدِّد بطريقة أو بأخرى ملامح التطور الاجتماعي.

إلى جانب البعد الكمي تبدو قضية المضمون والمنهجية في التعليم ذات أهمية قصوى، ولذلك فإنها تعاني حالة الإقصاء نفسها عن برامج النقاش التلفزيوني. وهنا نواجه أيضاً، أكثر فأكثر، تأثير التلفزيون عبر عملية التعليم المستمر؛ ففي مضمون العملية التربوية نشير إلى أن «الاعتراف بالحق في التعليم لكل كائن بشري، لا يقتصر التأكيد على تمكّن كل شخص من الوصول إلى تعلّم ما، أي إلى الوصول إلى التقنيات الأساسية المتمثلة في القراءة والحساب، بل إنه يتعدّى إلى إعلان التأكيد بحق كل شخص، إضافة إلى التحصيل الأساسي، في أن يتمكن من التطوير الكامل والمستمر لقدراته الفكرية والعاطفية والنفسية والاجتماعية»[١٧]. هذا التطوير يتحقق عبر مراحل

(١٥) تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣.

(١٦) Zermatten, Ibid.

(١٧) المصدر نفسه.

التعليم المختلفة. ويستمر بعدها من دون توقُّف عبر عمليات مختلفة، من أهمها وسائل الاتصال الجماهيري وعلى رأسها التلفزيون؛ فالتلفزيون هو الأكثر قدرة على المساهمة على تطوير هذه القدرات بتأمين نشر المعارف والقيم الضرورية لإحداث تطور يصبّ في مصلحة المجتمع والفرد المواطن، «إن الإطار العام اللازم لكل الأشخاص كي يتمكنوا من التعبير عن إمكانياتهم الكامنة بفضل الظروف المحيطة بهم: شرط الاحترام، الكرامة، المسؤولية والتسامح»[١٨].

وبذا ينفذ البحث إلى مناقشة البرامج التلفزيونية نفسها والمضامين التي تنقلها إلى المشاهد، والمنهجية الفكرية التي تبني بها مكتسباته المعرفية، والمسارب التي توجِّه إليها عواطفه وغرائزه ومواقفه من الحياة، وتشكل بها ثقافته. كما نتوقف بشكل خاص عند شكل ومضمون البرامج الحوارية، وبخاصة المناظرات: فمواجهة الرأي الآخر والحوار والنقاش معه، يفترض أن تكون ممارسة المسؤولية والاحترام حتى وإن لم تكن تطبيقاً حقيقياً للتسامح؛ فالمتحاورون والمتداخلون لم ينشأوا في بيئة تفعِّل قدرات التحليل والعقل النقدي، ولا مفاهيم احترام حق الآخر في الاختلاف ولا الاعتراف بحريته في الرأي. ومن هنا تنضمّ مناهج الممارسة التلفزيونية مع المناهج التربوية التي يجب أن «تتجاوز نطاق التلقين التقليدي المرتبط بفكرة التعليم الإملائي، كي تشمل مفاهيم تعليم المسؤولية وتحضير الطالب لممارسة الحقوق السياسية مستقبلاً كما يجب أن تفعِّل مشاركة الطلاب في الحياة التي تحيط بهم، وبالقرارات التي تمسُّهم، وبالمواضيع التي يجب أن يهتموا بها»[١٩]، من مثل تعليم حقوق الإنسان، المفاهيم الديمقراطية، مفاهيم المواطنة التي تتجاوز الطائفية والعقيدة وجميع الانتماءات الأخرى، عدم التمييز، وقيم الإنتاج بدلاً من قيم الاستهلاك. لا نقول إن على البرامج التلفزيونية أن تحل محل المدرسة، المجتمع أو الدولة، ولكن من طبيعة مهمتها أن تلقي الضوء، أن تناقش، أن تحرِّض سلباً أو إيجاباً عبر إثارة المواضيع الحساسة؛ فإذا كان هدف التعليم أن «يشكل ضمائر حرة، وعياً حراً ونقدياً»[٢٠] «وأن يجعل حسّ

(١٨) L'Organisation des Nations Unies, pour l'éducation, la science et la culture [UNESCO], *Rapport mondial de suivie de sur l'éducation pour tous: Le Monde est-il sur la bonne voie?* (Paris: UNESCO, 2002), <http://unesdoc.unesco.org/images/0012/001299/129950f.pdf>.

(١٩) مادة ٢٨ ـ ٢٩ من المعاهدة الدولية للحق في التعليم.

(٢٠) Zermatten, Ibid.

المسؤولية المُتبنّاة بحرية كاملة وبخيار واعٍ يحل محل حس الخضوع والطاعة»[٢١] «فإن دور وسائل الإعلام هو تدعيم كل ذلك وتأكيد الرابط بين حاجة الفرد إلى تلقّي التعليم وحاجته إلى الانتماء إلى أسرة، مجتمع، دولة، عليه أن يعرف أهدافها وأن يريد أن يسمح لنفسه بإعادة فهم هذه القيم الموصوفة سابقاً بالأخلاقية، وأن يتبناها كقواعد سلوكية: ألا تكون لديه الرغبة في احترام قواعد ما، إلا إذا فهم الـ «لماذا». . .هذا المبدأ يشكّل المعبر الواصل بين المعرفة والإرادة، بين المعارف والمسؤولية»[٢٢]. من دون ذلك، يتضافر هذا الإقصاء مع غياب العدالة الاجتماعية ليقودا إلى ردات فعل أصولية متطرفة أو أنانية تحدّ من فرص التغيير والتطور أو تشوّهها، قضية تبدو نسبية عندما يتعلق الأمر بتلفزيونات تجارية أو تابعة لحكومات مونارشية أو حزب سياسي مذهبي، كما هو حال الفضائيات موضوع هذا البحث. وهذا التناقض هو ما يؤشر إليه نادر فرجاني، محرر تقارير التنمية البشرية الثلاثة: «يجب تحسين نوعية التعليم، أي تطوير قدرات التحليل والنقد، غير أن الأنظمة الشمولية لا تخشى شيئاً بقدر ما تخشى هذا التطوير الذي يؤدي حكماً إلى الاحتجاج، المعارضة والمقاومة خاصة من قبل الشباب ومن ثم يتبعهم الجمهور كله»[٢٣].

غير أن التشابك يبدو معقداً بين القطاع التربوي والثقافي والاجتماعي وبالتالي الإعلامي. إذ إن كل مادة اتصالية تنقل مضامين مرتبطة بكل هذه القطاعات، تتأثر بها وتؤثر فيها، وتركبها شيفرات من قيم ومضامين وتوجهات ومعارف محكومة بالحاجة لاجتذاب الجمهور، تاركة للمشاهد أن يميز ويختار ويرفض ويتبنى وينتقي وفق المعايير التي كوّنها عبر سياقه الثقافي والتربوي من دون أن يعني ذلك تشابه التركيبات، ولا تشابه المتلقّين. ما يطرح إشكالية التلقي الذي يمكنه أن يقلب الأدوار وذلك ما يعيدنا إلى مدرسة (Cultural Studies) وتيري إيغليتون الذي دعا منذ نهاية الثلاثينيات إلى «حملة أخلاقية وثقافية ننتظر من نشطائها أن يذهبوا إلى المدارس والجامعات ليُناضلوا ويقدموا، عبر دراسة الآداب والإجابات المعقدة، الغنية، الناضجة،

(٢١) ورد فـــــي: Jean Piajet, *Où va l'éducation? Comprendre, c'est inventer* (Paris: UNESCO, 1948).

(٢٢) UNESCO, *Rapport mondial de suivie de sur l'éducation pour tous: Le Monde est-il sur la bonne voie?*.

(٢٣) مخطوطة أرسلها نادر فرجاني للباحثة عبر البريد الإلكتروني.

الهادفة والجديّة ما يسمح للأفراد أن يحافظوا على أنفسهم في مجتمع آلي، مجتمع المسلسلات التافهة (Soap Opera)، العمل المُغرِّب، الإعلانات البلهاء، وسائل الإعلام الجماهيرية التي تقود إلى الخَبَل»[٢٤]. وإذا كان عمل التعليم والآداب والأخلاق يبدأ بالمدرسة (وقبلها العائلة) فإنه يمتد ويتكامل أولاً في الجامعة ومن ثم عبر كل الفعاليات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي يعيشها الفرد، والتي يدور معظمها في إطار الاتصال باعتباره «فعلاً ونتيجة لفعل كمشروع واسع يشكّل الإعلام مضمونه»[٢٥]. «إنّ الرسالة الإعلامية تحدد التفكيك الصحيح لشفراتها ومنظور إطار القصدية الذي تحمله»[٢٦]، ولكن ثقافة المشاهد هي التي تتحكم بدورها بعملية التفكيك وإعادة البناء هذه، قبولاً أم رفضاً أم تفاوضاً، وهذا ما يحدده مستوى القدرة على المحاكمة النقدية للرسالة، ومستوى ثبات المعايير التي تعتمد قياساً. من هنا السؤال حول الحيز المعطى للمواضيع الثقافية على جدول البرامج وبخاصّة الحوارية منها، حول الحيّز وحول توقيت البث كما سبق وأشرنا.

٢ ـ البرامج الثقافية، نموذج ثانٍ من التهميش

يمكن البرامج الثقافية أن تعيد التوازن ولو نسبياً في حال قصور التعليم. لكن الموضوع الثقافي، أو الفكري، لا يشكّل أبداً موضوعاً للبرامج الحوارية، وإذا خصصت نادراً برامج للثقافة، فتكون مهمشة كما رأينا حول توزيع جدول البرامج. وبالرغم من أن هشام شرابي[٢٧]، يرى أن البرامج الحوارية تعالج مشاكل المُشاهد وتوقعاته[٢٨]، فإن أستاذاً جامعياً آخر هو الدكتور أمين سعيد عبد الغني، يسجل غياب برامج تتناول الآداب، المسرح، الفلكلور والفنون التشكيلية، كما يقول إنه إذا ما قاربت هذه البرامج الثقافة،

(٢٤) Thierry Eagleton, dans: Armand Mattelart et Michèle Mattelart, *Histoire des théories de la communication*, repères; 174, 3ème éd. (Paris: La Découverte, 2004), p. 56.

(٢٥) Francis Balle, *Médias et sociétés*, 11ème éd. (Paris: Montchrestien, 2003), p. 31.

(٢٦) Daniel Bougnoux, «La Communication contre l'information,» dans: Ibid., p. 31.

(٢٧) هشام شرابي، هو أستاذ في التاريخ والفلسفة، متخصص في تاريخ الفكر والمجتمع الأوروبيين والعربيين، كان يشغل كرسي التاريخ وكرسي عمر المختار للثقافة العربية في جامعة جورج واشنطن.

(٢٨) إبراهيم غرايبة، «الفضائيات العربية.. الواجب والممكن،» الجزيرة نت (٢٤ آب/ أغسطس ٢٠٠٣).

فإنما تفعل بشكل نخبوي، فوقي، بينما يظل واقع الحياة اليومية للناس مستبعداً: همومهم، مشاكلهم وثقافاتهم. صحيح أنّ عبد الغني يطرح ذلك معتمداً على قنوات المنوّعات التي تخصص ٦٠ بالمئة من برامجها للتسلية، لكنه يلحّ أيضاً على أن الوضع ليس أفضل في القنوات الإخبارية[٢٩].

على الرغم من أنّ هذا البحث لا يتناول عملية التلقي، بل يحلل الرسالة الإعلامية التي يحددها جدول البرامج ومضمونها، فإن من غير الممكن فصل فعاليتَي الإرسال والتلقي، وبخاصة التلقي، عن «الرحم الثقافي الذي تتحرك ضمنه»[٣٠]؛ فالعمل الثقافي هو عمل ذاكرة، موروث، رؤية للمستقبل، تجذّر في الذات وانفتاح على العالم. كذلك فهو عمل جدل مع الذات وإبداع فردي، خيار حر وانطلاق نحو التغيير المتواصل. في العالم العربي تكتسي الثقافة خصوصية محددة: هي المجال الوحيد الذي لم يتأثر بالحدود السياسية بين الدول العربية، وهي بذلك التعبير الوحيد عن الوحدة: الأدب، المسرح، الموسيقى، السينما والفنون التشكيلية، لا تميِّز، كلها، بين جنسية وأخرى، كما ينتشر إنتاجها وتأثيراته في فضاء مفتوح واحد واتجاه معارض غالباً للسلطات القائمة.

من هنا، فإن إطلاق الحوار الثقافي لا ينسجم مع مصالح الأنظمة من جهة، ولا مع حاجات العولمة التي تعمل على قولبة أفراد متشابهين، مُستهلَكين، خاضعين، وفقَ طِراز رسمه السوق؛ فيما يختلف تماماً عن مفهوم العالمية الإنسانية المفتوحة، التي ترى أن الحضارة الإنسانية ليست إلا النهر الذي تصب به روافد الثقافات المختلفة، لتعود فتتوزع من جديد كما في الأواني المُستطرَقة إذا لم تحل دونها المعوقات.

علماً أن كل ثقافة تكتسي خصوصية نابعة من طبيعة أُمّتِها ومرحلتها. وهي بذلك تحمل منظومة من القيم، الأفكار، الرؤى ونمط حياة، تنشرها داخل وخارج حدودها، ما يمكن أن ينتج آثاراً سلبية وإيجابية: فانتشار الثقافة الفرنسية مثلاً، حمل معه قيم ثورة ١٧٨٩، التي تحولت إلى محرك تغيير

(٢٩) أحمد أمين سعيد عبد الغني، «دور القنوات الفضائية العربية في نشر الثقافة العربية: دراسة تحليلية وميدانية،» (أطروحة دكتوراه في الآداب، جامعة الزقازيق، قسم الإعلام - الإذاعة والتلفزيون، المنصورة، ١٩٩٨).

(٣٠) Marshall McLuhan, *Pour comprendre les médias: Les Prolongements technologiques de l'homme* (Paris: Seuil, 1977), p. 30.

للمشهد الإنساني، ومنبع تفكير فلسفي وسياسي. لكنها في الوقت نفسه، خدمت منطق الاستعمار.

هكذا، من شأن انتشار ثقافة معيَّنة، وبخاصة إذا ما ارتبطت بالقوة المهيمنة، أن يشكّل وسيلة تمهّد الطريق لهيمنة اقتصادية وسياسية. أَلَم يَبْنِ المُنظِّر الأمريكي لعلوم الاتصال دانيال ليرنر في الخمسينيات، نظريته حول تغيير المجتمعات التقليدية ونظرية التنمية، على معادلة بسيطة: «يجب نشر نمط الحياة الأميركية في الشرق الأوسط لكي تنحاز هذه المنطقة إلى الولايات المتحدة».

غير أنّ هذه المعادلة ليست قَدَراً، لأنّ بإمكانِ أيِّ مجتمعٍ أن يُوائم بين عبوره إلى الحداثة، سيادته، خصوصياته الثقافية وانفتاحه على الثقافات الأخرى، واضعاً هذا الزواج المختلط في خدمة تطوره. ويقدّم تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤، حول الخصوصية الثقافية، دولة ماليزيا كنموذج لهذا النجاح: فهو بلد متعدد الإثنيات، انفتح على العالم وحافظ على خصوصيته، وحقق نمواً اقتصادياً وضعه في المرتبة العاشرة بين دول العالم من حيث التطور والنمو، بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٩٠. التقرير نفسه يطرح خمسة مواضيع يدعو إلى مناقشتها واصفاً إياها بالأساطير[٣١]:

- المنافسة بين الهويات الثقافية والولاء للدولة.
- الوحدة الوطنية ليست نقيضاً للتعددية.
- الحرية الثقافية لا تقتضي إلغاء العادات والتقاليد، فهي ليست عائقاً أمام التطور والحداثة.
- حالات العنف الإثني ليست نتيجة لاختلاف القيم.
- الهويات الثقافية ليست مصادر تمزُّق وعدم استقرار داخل أمة واحدة.

من هنا، يطرح مرة أخرى السؤال المركزي حول دور الدولة كحارسة للثقافة، للذاكرة وكمسؤولة عن مشروع التنمية وعن الرؤى المتعلقة بالمستقبل، كما إنها ضامنة الحرية الثقافية. كذلك يطرح دور القطاع الخاص

(٣١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤**، رئيسة الفريق ساكيكو فوكودا - بار؛ ترجمة غسان غصن (باريس: البرنامج، ٢٠٠٤).

أو دور نموذج ثالث يزاوج بين الاثنين تزاوجاً يؤمِّن عدم الوقوع في فخّ مصادرة الديمقراطية كما في الدول الشمولية، وتجنب الفوضى وفقدان التناغم في حركة التنمية الثقافية المستمرة بسبب صراعات المصالح في القطاع الخاص، وبين هذا القطاع والدولة، في الدول النيوليبرالية.

في تطبيق ذلك على القنوات موضوع البحث، نجد أن الجزيرة وأبو ظبي محطتين تابعتين للدولة؛ بينما تمثل العربية الزواج بين الدولة والقطاع الخاص؛ أما المنار، فقطاع خاص حزبي. الحوار الثقافي والفكري غائب عن الأربع؛ فعلى كل من الجزيرة والعربية نجد برنامجاً ثقافياً واحداً يُبث في وقت مبكر جداً من المساء، لا يناسب أبداً شريحة المشاهدين البالغين. على قناة أبو ظبي كنا نجد برنامجاً ثقافياً في ساعات الذروة، وهو عبارة عن حوار مع مبدع كبير يتحدث عن تجربته، فيما يشكّل عملاً جيداً للذاكرة. مثلاً، سهيل إدريس الروائي، الناشر والمترجم البيروتي، الحامل لدكتوراه في الآداب من السوربون في مطلع القرن، والعروبي الملتزم، صاحب دار الآداب التي قدّمت أهم الروائيين العرب وشكلت عبر عملية الترجمة على امتداد خمسين سنة، جسراً نشطاً بين الفكر الغربي واللغة العربية؛ في حين شكّلت **الآداب** المجلة، تاريخ الأدب العربي المعاصر.

المنار، إذاً، تحدد أهدافها، تضع بينها «خدمة الثقافة»، لكن هذه الخدمة هي دائماً محددة بالمعايير الدينية لـ «الحفاظ على القيم الإسلامية ولتفعيل الدور الحضاري للمجموعة العربية الإسلامية»[٣٢]. ما يغيِّب الكثير من المواضيع السائدة والمهمة. ويؤكد مسؤولو البرامج عزمهم توسيع حصة البرامج الثقافية التي تحتل ٢٠ بالمئة على جدول البرامج. لكنهم يدرجون البرامج الدينية ضمن حساب نسبة البرامج الثقافية.

ثانياً: الإقصاء: المواضيع المغيّبة

«ما لا تراه هو ما يشكّل لك خطراً. أي غطّاس يمكن أن يقول لك: «لا تخف من أسماك القرش التي تراها أمامك تحت الماء، احذر تلك التي لا تُرى»»[٣٣].

---

(٣٢) انظر الموقع الإلكتروني لقناة «المنار»: <http://www.almanar.com.lb/main.php>.

(٣٣) Joé Tholoe, dans: *Médias, développement et éradication de la pauvreté* (Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (Unesco), 2007), p. 36.

نبدأ بالإقصاء الأكثر بساطة وتعميماً: المواضيع المتعلقة بالدول التي تمول المحطات المعنية، دول الخليج بالنسبة إلى محطات الخليج، والمواضيع التي تمس سرية حزب الله بالنسبة إلى المنار.

١ ـ المواضيع الاقتصادية والسياسية ذات الأثر المباشر

أ ـ حقوق الإنسان

يطرح سليم عزّوز، على فيصل القاسم، السؤال التالي: «لماذا لا تتناول محطتكم أبداً، قضايا حقوق الإنسان في قطر، في حين أنّ تقرير **رويترز** لشهر آب/أغسطس ١٩٩٨، يضع قطر بين الدول التي تطبق أعلى درجات الرقابة على وسائل الإعلام المحلية؟... لماذا لزمتم الصمت حول قضية الصحافية مريم السّعد ورئيس تحرير جريدة **الراية**؟ ألم يُفصَل الاثنان من عملهما ويُمنعا من العمل بسبب استجواب نشر في الصحيفة حول تبذير الأموال العامة في قطر؟»[٣٤].

السؤال لم يحظَ بجواب، والمذيع اكتفى بعبارة: «شكراً لمشاركتك» محولاً الكلام لمشارك آخر. وعلى الرغم من أن مشاركاً من المعارضة التونسية رد مدافعاً عن قطر واصفاً الجزيرة بأنها «نافذة يتنفس العرب من خلالها»[٣٥]، فإن أخبار قطر خاصة «الداخلية» لا تمرّ أبداً على شاشة الجزيرة.

كذلك هو الأمر بالنسبة إلى قناة أبو ظبي؛ أمّا العربية السعودية، فإن تعدّد مراكز القوى، وتعدّد امتدادات هذه المراكز داخل القناة، يترك المجال لتسرّب بعض المواضيع التي تخص المملكة من دون أن يكون بينها إطلاقاً ما يتعلق بقضايا حسّاسة جوهرية من مثل حقوق الإنسان والحريّات؛ فالمحرمات محترمة، وهوية المشاركين مدروسة جيداً. هذا الإقصاء دفع مجموعة من الشباب المدوِّنين إلى تأسيس موقع أعطوه اسم «الاتجاه المعاكس»، تيمُّناً بالبرنامج الذي يدّعي أنه أكثر جرأة. وعلى هذا الموقع يطرح الشباب مواضيع

---

(٣٤) سليم عزوز، «تساؤلات حول قناة الجزيرة»، في برنامج «الاتجاه المعاكس»، ٦/٤/٢٠٠٤.

(٣٥) عادل العربي، «تساؤلات حول قناة الجزيرة»، في برنامج «الاتجاه المعاكس»، ٦/٤/٢٠٠٤.

حساسة حول انتهاكات حقوق الإنسان في الدول العربية، بخاصة في دول الخليج، بالخلافات داخل الأسر الحاكمة، بالفساد، بالمشاكل الاجتماعية التي يتمّ التعتيم عليها، ليس في الإعلام فحسب، بل وفي المجالات كافة. ويتوّج الشباب موقعهم بسؤال: «أين هي هذه المواضيع على شاشات التلفزيونات؟».

ب ـ موضوع الوراثة

هذا الموضوع المطروح بسخونة حادة في دوائر السلطة وأحياناً في الشارع، وقليلاً في الصحافة المكتوبة، ومُغيّب تماماً عن الشاشات، سواء كان ذاك الصراع داخل الأسرة الحاكمة في السعودية، الإمارات، الأردن أو مصر؛ في حين أن هذا الموضوع مرتبط بسياسة التكتلات القائمة داخل كل نظام، مواقفها من القضايا الكبرى في المنطقة وارتباطاتها الإقليمية والدولية، وبالدرجة الأولى مع الأمريكيين الذين يُغذّون التنافس على تقديم الالتزامات التي يريدونها.

ج ـ التابو السياسي المشترك: الوجود الأمريكي في الخليج: القواعد

في أكثر من مرة، هاجم متداخل أو محاور مذيعاً في الجزيرة بقوله: «أنت على بعد كيلومترين من القاعدة الأمريكية، وتجعل من قطر منصة للهجوم على الآخرين؟». ولا يردّ المذيع إلا بتحويل الكلام إلى مشارك آخر. في عام ٢٠٠٤، قرّرت قناة أبو ظبي تنظيم حوار حول القواعد الأمريكية في الخليج، ولكنها بعد أن أعلنت عنه ووجهت الدعوة إلى المشاركين، عادت فألغته واعتذرت لهم[٣٦]. كذلك تشكّل الاتفاقيات الأمنية المعقودة مع الغرب محرّمات لا تجوز الإشارة إليها.

د ـ ميزانية الدولة

«أين يذهب نفط البلاد؟»[٣٧] هذا السؤال الذي يطرحه قرويّ يمني على الصحافي وليد السقاف، هو سؤال مُحرّم على الصحافيين أنفسهم وبالطبع

(٣٦) إبراهيم علوش، مقابلة خاصة.

(٣٧) Walid Al-Saqaf, «Les Populations arabes sont lasses de manque de transparence des régimes au pouvoir,» dans: *Médias, développement et éradication de la pauvreté*, p. 69.

على شاشات التلفزيون؛ فليس في مقدور أي صحافي أن يستجيب لنداء هذا القرويّ البسيط: «ساعدونا من فضلكم بإيصال صوتنا ومعاناتنا لحكامنا»[٣٨]؛ ففي غياب ميزانية واضحة للدولة في عدة دول عربية، بخاصة دول الخليج النفطية، يُحظر إثارة هذا الموضوع على الشاشات (تم تناوله مرة واحدة وبشكل عابر على الجزيرة). العائدات النفطية تظل خارج ميزانية الدولة، بيد الأمير أو الملك، وأحياناً الرئيس، يوزعها كما يشاء على أفراد العائلة وعلى حاجات الإمارة أو الدولة، بحيث إن اقتصاديات الدول العربية لم تستفد من عائدات النفط كقيمة مضافة، ولا تخدم هذه العائدات التنمية المعرفية الحقيقية، أما تزايد الاستيراد، فيحصل على حساب الإنتاج الزراعي والصناعي في الدول المؤهلة لذلك؛ ففي عام ٢٠٠٧، أصبح العالم العربي أقلّ تصنيعاً مما كان عليه من أربعة عقود، حتى عندما ارتفعت العائدات النفطية في السبعينيات، لم تنجح الأنظمة في استثمارها. ولا يبدو ارتفاع الأسعار في بداية القرن الواحد والعشرين واعداً أكثر من سابقه في هذا المجال في غياب مشروع حقيقي للتصنيع، الإنتاج الزراعي، وبناء البنى التحتية للإنتاج الاقتصادي والتنمية التكنولوجية. ولعل أفضل تلخيص لظاهرة التضخم هذه التي يرى فيها البعض تطوراً، هو ما عبّر عنه نادر فرجاني بـ «الفرق بين الدهن والورم»[٣٩].

٢ ـ إقصاءات اقتصادية واجتماعية تفرضها العوامل السياسية

يطال الإقصاء أيضاً مواضيع لا تبدو في الظاهر ذات طبيعة سياسية. وذاك ما تفرضه متطلبات سياسية، اجتماعية أو دينية، باختصار، متطلبات السلطات المهيمنة. وكثيراً ما تختلط هذه المتطلبات لتشكل شبكة تفاعلية. لقد تم اختيار المواضيع التي سيتناولها البحث هنا وفق معايير ترتبط بطبيعة المحطات الإخبارية وبمدى تأثيراتها.

أ ـ الفساد

يُلقي نادر فرجاني الضوء على «تزاوج الفساد مع القمع والتبعية للقوى

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) مخطوطة أرسلها نادر فرجاني إلى الباحثة عبر البريد الإلكتروني.

الأجنبية». ويقدم مثالين على ذلك، البلدين الأهم في العالم العربي، مصر والعربية السعودية.

«تمثل مصر، «القوة الناعمة» الديموغرافية المبدعة بخاصة في المجالات الإعلامية، الاجتماعية، الأدبية والفنية. لقد تلقّت الحكومة خلال ٣٠ عاماً ١٥٠ مليار دولار من المساعدات الخارجية، على الرغم من ذلك، تراجع مستوى معيشة الشعب على كل الصعد. أما في العربية السعودية، البلد الأكثر ثراء في العالم العربي، فإن المناطق القروية تعاني الفقر، ونصف الشباب عاطلون عن العمل، بمن فيهم المتعلمون. كما تعاني هذه المناطق مختلف المشاكل والأمراض الاجتماعية»[٤٠]. ويكمل الباحث شاكياً غياب مناقشة هذه المواضيع عن البرامج الحوارية على الفضائيات العربية: «تَشْتُم الجزيرة مصر، وتهاجم العربية السعودية بشكل غير مباشر، لكنها لا تطرح أبداً المواضيع الحقيقية لأنها تمس جميع الدول وجميع الأنظمة»[٤١]. إنها استراتيجية معتمدة في القنوات الثلاث التي يتناولها هذا البحث. وهي تفضي إلى موضوع جانبي هو موضوع العلاقة بين الرواتب والتسهيلات التي يحصل عليها الصحافيون العاملون في الخليج بالنسبة إلى زملائهم في الدول العربية الأخرى، وبين قدرتهم على التجرؤ أو رغبتهم فيه. قضية تُذكِّر بما كتبه جايمس فالوس، رئيس تحرير **يو.إس. نيوز أون وورلد ريبورت** (*U.S. News on World Report*): «يصبح موقف الصحافيين المشهورين أكثر تحفظاً ومحافظة بقدر ما ترتفع دخولهم، ما يطرح مسألة العلاقة بين مداخيل بعض الصحافيين وإخلاصهم لأيديولوجية الطبقات الحاكمة»[٤٢].

في الدول غير النفطية، يُهيمن رجال السلطة والمقرّبون منهم على مصادر الثروات الأخرى، ما يرفع أيضاً مؤشر الفساد إلى أعلى درجاته: «يرتبط الفساد بعدة عوامل، غياب الديمقراطية، الاستثمار الأجنبي والخصخصة التي تؤدّي إلى بيع المؤسسات العامة. ويرتبط الفساد أيضاً، بغياب الشفافية في النقاش الإعلامي»[٤٣].

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) حوار شخصي في برشلونة ضمن إطار المؤتمر الذي عُقِد في كليّة الحقوق في جامعة برشلونة حول حُقوق الإنسان في الإعلام العربي (شباط/ فبراير ٢٠٠٨).

(٤٢) Serge Halimi, *Les Nouveaux chiens de garde* (Paris: Liber-Raisons d'agir, 2003), p. 65.

(٤٣) مخطوطة أرسلها نادر فرجاني إلى الباحثة عبر البريد الإلكتروني.

ب ـ العلاقة بين الحريات الإعلامية، التنمية والقضاء على الفقر

يلتقي خبراء اليونسكو مع فرجاني حول العلاقة بين حرية الإعلام، التنمية والقضاء على الفقر: ليست الفضائيات مسؤولة عن الفقر، لكن صمتها عنه يفاقمه: «تبرهن الوقائع على أن آثار الحدود المفروضة على الصحافة في ما يخص الفساد، الفقر والتخلف، هي آثار هائلة»[٤٤] ويؤكد أمارتيا سِن (Amartya Kumar Sen)، حامل جائزة نوبل، العلاقة بين الحرية والمجاعات: «لم يحصل أن اجتاحت المجاعة بلداً ذا نظام ديمقراطي وصحافة حرة... حيث إن الصحافة الحرة تساهم في تحفيز الناس على مطالبة حكوماتهم بحقوقهم»[٤٥].

لقد كانت الجزيرة رائدة في إثارة موضوع المجاعة في النيجر، لكنها في المقابل، لزمت الصمت حول المجاعة في مناطق من العالم العربي. ذاك أن محرضاتها لم تكن إنسانية كما ادّعت، وإنما هي محرضات اقتصادية تتعلق بالنفط في خليج النيجر، وسياسية تتعلق بنشر الإسلام السياسي في تلك المنطقة، وهما هدفان مرتبطان.

من جهة ثانية، يرتبط الفقر والبطالة في علاقة تفاعلية تبادلية، وتغيب هذه المواضيع كلها عن النقاش الحاصل على شاشات الفضائيات على الرغم من أن تقرير التنمية البشرية قد سجل منذ عام ٢٠٠٠، أن ٧٣ مليون شخص في العالم العربي هم تحت خط الفقر، ١٥ مليوناً يعانون البطالة و١٠ ملايين يعانون نقص الغذاء[٤٦]. في العام ٢٠٠٥، سجل التقرير ارتفاع معدلات الفقر بمعدّل ٣٣٫٦ مليون نسمة. «تبلغ معدلات البطالة في العالم العربي ٣ أضعاف المعدل العالمي، وترتفع في صفوف النساء والشباب، حيث تبدو الدول العربية بعيدة عن تأمين الفرص المتساوية والكريمة لهذه الأجيال... وبحسب تطور الدخل القومي الخام، فإن على المواطن العربي أن ينتظر ١٤٠ سنة كي يضاعف دخله»[٤٧]. أمّا في العام ٢٠٠٩، فإن عدد العاطلين عن

(٤٤) Daniel Kaufmann, «Médias, gouvernance et développement: Une Analyse empirique,» dans: *Médias, développement et éradication de la pauvreté.*

(٤٥) أمارتيا سِن، ورد في: Larry Kilmann, «Une Presse libre favorise le développement et prévient la famine - mais qui s'en soucie?,» dans: Ibid., p. 58.

(٤٦) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠**.

(٤٧) مخطوطة أرسلها نادر فرجاني إلى الباحثة عبر البريد الإلكتروني.

العمل قد ارتفع بنسبة ١٤,٤ بالمئة وسيكون على الدول العربية أن تخلق ٥١ مليون فرصة عمل عام ٢٠٢٠[٤٨].

تتداخل مشكلة البطالة مع قضية الهجرة. لقد كان بإمكان العالم العربي أن يُقيم توازناً بين دوله النفطية الغنية بالثروات والفقيرة بالديموغرافيا، ودوله الفقيرة بالثروات والغنية بالديموغرافيا. غير أن ذلك لم يتحقق وكان الآسيويون والأوروبيون أكثر من استفاد من ثروات الخليج. يورد تقرير التنمية البشرية التصنيف التالي لمعدلات الهجرة (على المستوى العالمي): الإمارات الأولى(٦٩ بالمئة)، الكويت الثانية (٤٩ بالمئة)، الأردن الثالثة (٣٩ بالمئة)، عُمان السادسة (٢٦ بالمئة)، والعربية السعودية التاسعة (٢٤ بالمئة). ولكن ما يجب أخذه في الاعتبار أنّ الهجرة في الأردن مختلفة عن مثيلاتها في الدول الأخرى التي يوردها التقرير. التقرير الذي يَعُدّ الفلسطينيين ومن ثَمّ العراقيين في نسب المهاجرين؛ فهي إذاً هجرة عربية، ومرتبطة بقضية سياسية بحتة، ما يجعل نتائجها وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية مختلفةً تماماً عن تلك التي تطرحها الهجرة في الخليج. غير أننا لا نجد معالجة أو مناقشة لأيّ من هذين النوعين من المشاكل على شاشات الفضائيات باستثناء حلقة واحدة من الاتجاه المعاكس على قناة الجزيرة، تناولت قضية مستقبل اللغة والثقافة العربيتين في مجتمعات أصبحت ذات غالبية آسيوية، فيما المؤسسات التربوية لا تُدرِّس إلا الإنكليزية. في هذه الحلقة أطلق الدكتور محمد المسفر التحذير من اختفاء تدريجي للغة العربية، حتى من الحياة اليومية، ونبّه إلى أن مبادئ حقوق الإنسان سوف تفرض يوماً تجنيس المهاجرين الآسيويين، وبالتالي التغيير الكامل لطبيعة المجتمع، الثقافة وبالتالي الهوية. أما الحل بالنسبة إليه فيتمثل في استراتيجيات التعليم، وإحلال العمالة العربية مكان الآسيوية. أما المُحاور الآخر، الصحافي الكويتي سامي النصف، فقد اعتبر أن العرب يشكّلون تهديداً «لأنهم مُسيَّسون»، بينما لا يطمح الآسيوي إلا إلى الربح المادي[٤٩]. أسباب تفسر الصمت الكامل عن غياب توزيع الثروة بين بلد عربي وآخر: تحتل

(٤٨) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٩: التغلب على الحواجز: قابلية التنقل البشري والتنمية** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٩).

(٤٩) برنامج «الاتجاه المعاكس»، حلقة حول «مستقبل العروبة في دول الخليج العربي» (أرشيف الجزيرة).

الكويت المرتبة الثالثة على مستوى العالم في مجال التنمية؛ فيما تقبع إريتيريا في المركز ١٥٩، وبينهما دول أخرى تراجعت مراتبها على هذا السلم مثل لبنان، ليبيا، البحرين، الإمارات، قطر، العراق والسودان[٥٠].

ج ـ البيئة

يجمع موضوع البيئة عناصر سياسية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية. فهو يمسّ مصالح الشركات الكبرى، بخاصة النفطية منها، كما يمس مصالح الطبقات السياسية المهيمنة. يطرح هذا الموضوع عدّة قضايا:

(١) قضية المصادر الطبيعية، بخاصة الماء الذي يشكّل رهان العصر بالنسبة إلى منطقة الشرق الأوسط، ولا يمتلك العالم العربي منه إلا ٢٧٧ مليون متر مكعب.

(٢) مسألة مراقبة المنتجات الزراعية.

(٣) النفايات النووية والكيماوية التي يتم تهريبها للمنطقة، بخاصة لبنان.

(٤) آثار المفاعلات النووية، بخاصة مفاعل ديمونة الإسرائيلي على الدول المحيطة، والأردن بشكل خاص.

(٥) أخيراً، الموضوع الحسّاس، موضوع التلوّث الذي تسبَّب به استعمال الأمريكيين للأسلحة المحرَّمة في حربهم على العراق، والإسرائيليين في فلسطين ولبنان. حتى إن الصحافي الأردني محمد خروب، وجه سؤالاً لوزير الخارجية القطري حول احتمال تسرب إشعاعات ومواد من الأسلحة المُخزّنة في القواعد الأمريكية في الخليج؟ فردّ عليه الوزير قائلاً: «نحن لا نملك المفاتيح لنعرف ما في الداخل»[٥١].

أما حصار العراق بين عامي ١٩٩١ ـ ٢٠٠٣، فقد ترك آثاراً مدمرة على البيئة، ففي حين ظهرت تقارير خطيرة حول الموضوع في الصحافة الدولية (من مثل تقرير خبير الأمم المتحدة للزراعة رينيه دومون الذي نشرته صحيفة **لوموند**

(٥٠) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٣: أهداف التنمية للألفية: تعاهد بين الأمم لإنهاء الفاقة البشرية** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٣).

(٥١) مؤتمر صحافي مشترك مع وزير الدفاع الأمريكي ديفيد كوهين في الدوحة بتاريخ ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٩.

ديبلوماتيك)، فإن أياً من الفضائيات العربية لم تثر هذا الموضوع. بل إن الإعلام العراقي نفسه تجنّب الحديث عن ذلك، كي لا يثير هلع المواطنين وكي لا يستفز الأنظمة الخليجية والأمريكية، ولا يُدين المتعاملين مع الاحتلال.

في العراق ثمة قضية أخرى تجاهلت الفضائيات إثارتها تجاهلاً كاملاً. إنها قضية تدمير المواقع الأثرية والثقافية، المتاحف والمكتبات العامة، فمنذ حرب عام ١٩٩١ وبدء الحصار، قايضت الأمم المتحدة عودتها وإعادة دفع حصتها في تمويل اليونسكو عام ١٩٩٢، بوقف التحقيق الذي كانت لجنة الحفاظ على التراث الإنساني قد باشرته حول موقع أور في جنوب العراق. بعد ١٢ سنة، عام ٢٠٠٣، احتل الجيش الأمريكي البلاد، فأطلقت جمعية الأركولوجيين العرب نداءً وقعه ٢٣٠ مثقفاً من ٢٥ جنسية، لإنقاذ التراث الوطني العراقي. اعتمد النداء على اتفاقية لاهاي لعام ١٩٥٢، حول حماية التراث الإنساني. كذلك أطلقت اللجنة الثقافية في اتحاد الصحافيين العرب نداء بخصوص ١٧٠ ألف قطعة أثرية اختفت من مخازن المتحف الوطني العراقي والبنك المركزي، على الرغم من ذلك، لم نر أي برنامج تلفزيوني يتناول هذه القضايا الخطيرة أو يطرحها للحوار، على الرغم من أن النداءات قد استمرت خلال السنوات السبع الأولى للاحتلال؛ نداءات متعددة وجهها خبراء عرب وأجانب وأغفلتها الفضائيات. نذكر منها على سبيل المثال نداءً وجهه خمسة علماء آثار (أربعة من أصل عراقي والخامس أمريكي: زينب البحراني من جامعة كولومبيا، لميا الكيلاني من جامعة لندن، ندى شبّوط من جامعة تكساس، سلمى الراضي خبيرة في صيانة وترميم المواقع الأثرية، عالم الآثار الأمريكي دوني جورج من جامعة ولاية نيويورك). «لا تجوز التضحية بالمتاحف والمواقع الأثرية لأجل مصالح سياسية وفي ظل الصمت المطبق الذي تفرضه حملة العلاقات العامة»[٥٢]. هذا الصمت تتحدث عنه، في أحد مقالاتها الأستاذة الجامعية العراقية هيفاء زنكنة، شاكية من «أن الفضائيات العربية لا تتحدث إلا نادراً وبشكل عابر، عن تدمير الثروة العراقية الحقيقية. ليس النفط هو الثروة، لأنه وفي غياب توظيف عائداته في خدمة التنمية، يجعل من الدول المنتجة مجرّد قناة وقود مصيرها الإفلاس. إن ثرواتنا الحقيقية المنهوبة هي مواقعنا الأثرية، ذاكرتنا وتراثنا الألفي، اللذان يشكلان جزءاً من التراث

(٥٢) نشر هذا النداء على عدة مواقع إلكترونية.

الإنساني. . . لا تفوّت وسائل الإعلام أقل كلمة يقولها السياسيون، لكنها تتجاهل نهب تل جوخة عاصمة إمبراطورية أمّا السومرية ٢٥٥٠ ق.م. في جنوب العراق، وموقع أور، ومتحف الآثار العراقية في بغداد»[٥٣].

حتى تقارير التنمية البشرية، التي تصدرها الأمم المتحدة، ويتمّ تناولها في وسائل الإعلام، تتحدث عن الأضرار المادية للاحتلال: تهديد الحياة الإنسانية، التلوث والنشاط الاقتصادي. علماً أن هذه الأضرار يمكن أن تنتج من كارثة طبيعية. وفي حين أن الاحتلال في فلسطين مثلاً يهدد وجود البلد كبلد، فإن الاحتلال في العراق يهدِّد وحدة الدولة وبقاءها، لأنه دمر مؤسساتها ومزق نسيجها الاجتماعي. التقارير الدولية تعرض الإنسان العربي كجسد مهدد بحياته المادية من دون أن تأخذ في حسابها حياته الروحية والثقافية. إنه من الممكن تعويض الأضرار المادية التي يوردها تقرير التنمية البشرية وتمرّ أحياناً في برامج الفضائيات، ولكن هل من الممكن تعويض جمجمة عمرها ثلاثة آلاف عام، سحقها «بسطار» جندي في أور؟ أوَ ليس من الغريب أن تخصص مجلة فرنسية صفحة لهذا الحدث من دون أن نسمع عنه في فضائية عربية؟[٥٤] «هل من الممكن تعويض قصر الزهور الذي قصف ودُمّر في ثالث أيام الحرب؟ أو ٨٠٠ مخطوطة تحولت إلى رماد في حريق مكتبة المخطوطات الوطنية في أول أيام احتلال بغداد، ومثلها مكتبة جامعة الموصل»[٥٥] ويتساءل (ليفين دي كاوتر)، في كتابه **التطهير الثقافي في العراق**: «لماذا يتم نهب المتاحف؟ تُحرق المكتبات؟ ويُغتال العلماء؟» ليُجيب نفسه: «الهدف هو تدمير دولة لا بناء أمّة»[٥٦] أسئلة كثيرة تشكّل مادة ثرية للحوار لكنها تظل غائبة عنه. وكثيراً ما يُبرَّر التقصير بالمصلحة الوطنية، «منذ عقود والأنظمة العربية تُبعِد كلياً مسائل الشفافية، المسؤولية والصدقية. . . يُخفون أو يُظهِرون حسب رغبتهم، ويُقنعون

(٥٣) هيفاء زنكنة، «كي لا يتحول مؤتمر البيئة في العراق إلى صابون إعلامي،» **القدس العربي** (لندن)، ٢٣/١٠/٢٠١٠.

(٥٤) «Quand les GI sacrifient Abraham à Khaldée,» *Le Point* (Paris), 20/12/2004.

وهذه المقالة كانت موضوعاً لدراسة سيميائية للمؤلف تحت عنوان «قراءة القراءة».

(٥٥) حياة الحويك عطية، مُداخلة في المؤتمر الذي عقده مركز دراسات الجزيرة في قطر بالتعاون مع جامعة جورج تاون ومجلة **وجهة نظر** لمناقشة **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٠**.

(٥٦) Lieven de Cauter, «La Purification culturelle de l'Irak,» dans: Raymond W. Baker, Shereem T. Ismael and Tareq Y. Ismael, eds., *Cultural Cleansing in Iraq: Why Museums Were Looted, Libraries Burned and Academics Murdered* (London: Pluto Press, 2010).

الناس بأن ذلك ضروري لحماية ما يسمّونه هم المصلحة الوطنية»[٥٧]. حجة أخرى يتم استغلالها لتبرير الصّمت: الضّرورة، المحرّمات، التقاليد، الأولويّات، كلها تُوَظَّف لتبرير تهميش أو إقصاء قضايا هي في أساس المصلحة الوطنية، وإذا انتبه المشاهد إلى ذلك، وبحث عنها، فإن تواتر الحدث السياسي وأسلوب الطّرق السريع الذي يعتمده البث التلفزيوني، يجعلانه ينسى، فعملية التلقي هي دائماً محكومة بمواقف ثلاثة تتوزع الجمهور: الرّفض، التفاوض والتّملك. «ليست الرسالة الإعلامية وحدها من ينتج المعنى. . . ، فالمعنى يتأتّى أيضاً من استراتيجية تفكيك الشيفرة (Décodage). . . ذاك أن دراسة تلقّي البرامج الحوارية تدل على أن عدة تأويلات تتشابك وتتشكل معاً. . . في لقاءِ بُنيَ كسيناريو»[٥٨].

المُحرّضات التي تدفع المشاهد للتّلقّي بروح نقدية هي عوامل مُتجذّرة في واقعه، ونتيجة لكمّ من المصاعب التي تواجهها منطقة تعيش منذ قرن: الحروب، الاحتلالات والدكتاتوريات، في تحالف ليس من شأنه إلا إعاقة التنمية، كما إنه يقع في أساس الاستراتيجية الإعلامية. لكن الخطاب الإعلامي يظلّ أخرس من دون أُذن وعين المُشاهد، وهنا يكمن التحدي التاريخي لكليهما. فبإمكان المشاهد أن يبحث في هذا الطّوفان غير المعهود، عما يستجيب لحاجته في أن يكون فرداً منتمياً لمجتمع ولوطن مصالحهما واضحة والحرّيات العامة فيهما مُصانة. لكن تعاقب الأحداث والتمزّقات بقوة وبسرعة لم يسبق لهما مثيل، يجعله يَغرق في الجدل السياسي البحث والآنيّ، وينزلق أكثر فأكثر نحو مرجعيات فئوية في غياب سيادة الدولة والعدالة الاجتماعية مقابل حضورٍ طاغٍ للقلق الوُجودي.

من هنا ينتقل البحث في الفصلين التاليين إلى تناول هذين الموضوعين: كيف يقارب خطاب المحطات الفضائية الإخبارية موضوع السيادة؟ وهل من الممكن بناء مفهوم مواطنة في غياب هذا المفهوم الحقوقي الأساسي؟

(٥٧) Al-Saqaf, «Les Populations arabes sont lasses de manque de transparence des régimes au pouvoir».

(٥٨) Bernard Mieje, «Une question à dépasser, celle de l'influence de la television et des medias de masse,» dans: Didier Courbet et Marie-Pierre Fourquet, dirs., *La Télévision et ses inuences* ([Paris]: INA; Bruxelles: De Boeck, 2003), p. 124.

الفصل الحادي عشر

غياب السيادة الوطنية، الانكفاء نحو الهويات الفئوية أو الهرب نحو خيار خارجي

تمهيد

يقول جان جاك روسو في **العقد الاجتماعي**: «السلطة السياديّة هي بسيطة ولا يمكن تقسيمها من دون تدميرها. . . بالتالي لا يمكن أن يكون خضوع مدينةٍ أو أمةٍ لأخرى أمراً مشروعاً»[١].

إنّ تاريخ العالم العربي وبشكل خاص تاريخ سوريا الطبيعية، إن هو إلا تاريخ الصراع والمقاومات ضدّ الاجتياحات الأجنبية؛ فلقد جعل الموقع الجغرافي من هذه المنطقة، منطقة مستهدفة باستمرار، فلم تعرف في تاريخها الطويل قرناً من دون حروب. حتى في ظل الإمبراطورية العثمانية تكررت الثورات والانتفاضات، وكانت أهمها تلك التي قادها أمير لبنان فخر الدين، المعنيّ، بالتحالف مع والِيَي حلب وصفد، «علي باشا جامبولاد وظاهر العُمَر».

في العصر الحديث، ساهم العرب في إنهاء الإمبراطورية العثمانية على أمل إنشاء دولة عربية تجمع سوريا الطبيعية وعاصمتها دمشق، أملٍ تبدّد وهماً لأن اتفاقيتي سايكس بيكو وسان ريمو ووعد بلفور، كانت قد أُبرمت سرّاً مثلها مثل المخطط البريطاني للجزيرة العربية، ما أسفر عن تشكيل خارطة جديدة للمنطقة. هكذا كانت الدول الجديدة ترجمة إرادة أجنبية مثلها مثل

(١) Jean-Jacques Rousseau, *Du Contrat social* (Paris: Union générale d'éditions, [n. d.])

الأنظمة التي وُضعت على رأسها من دون أن تمتلك عناصر السيادة. وهكذا برز تناقض ثنائي بين غالبية تطالب بسيادة الأمّة، وخط آخر يطالب بسيادة محلية (سيادة كل من الدول الجديدة)، في الوقت نفسه كانت دولة إسرائيل تتركز في فلسطين التاريخية في حرب مع جميع الدول العربية، انسحبت منها مصر بتوقيع اتفاقيّة كامب ديفيد عام ١٩٨٦، والأردن وفلسطين في اتفاقيتي وادي عربة عام ١٩٩١ وأوسلو عام ١٩٩٣. ما يطرح السؤال المشروع، هل من الممكن تشكّل الفرد «المواطن» في رحم بنى كهذه؟ بخاصة أن غياب السيادة المفروض هذا قد تفاقم بتحديدات وقيود إضافيّة سواء «أرادتها أو قبلتها الدول عبر المعاهدات، الوثائق، الاتفاقيات، بحسب نظرية التدخل الأجنبي الحاضرة بقوّة في أيامنا»[٢].

«من الآن فصاعداً، ومع النظام العالمي الجديد، ستتبدى الهيمنة الدولية عبر ثورة ثلاثية الأبعاد: دبلوماسية، عسكرية وإدارة تسويقية تقودها الولايات المتحدة. وتتناوب فيها سياستَا القوّة الناعِمة (Soft Power) والإعلام العولمي (Global Information) بحسب ظروف دبلوماسية المدافع أو دبلوماسية الشبكات (Cyber War)، لتوجيه العالم بحسب ما يسمى ديمقراطية السوق»[٣]. يتجلى هذا التعاقب في العالم العربي، وبخاصة دول المشرق، بسياسة هيمنة ناعمة (Soft)، اقتصادية وسياسية في ظل هيمنة عسكرية. وتتقاطع جميع الأهداف الاقتصادية للولايات المتحدة في المنطقة: السيطرة على مصادر الثروات الطبيعية الغنية، تسويق ثقافة السوق، تدمير الأمن الغذائي، الإغراق في الديون والاعتماد على المساعدات الأمريكية. أما في السياسي، فيلتقي التحكم بطبيعة النظام القائم، مع أية محاولات وحدوية، مكافحة الحركات المعارضة بالمواجهة أو بالاختراقات او بالالتفاف، كل ذلك إلى جانب ثابت أساسي في السياسة الأمريكية منذ نهاية الستينيات، هو تبنوأوسلو عام ١٩٩٣.ي السياسة الإسرائيلية وفرض التطبيع بين العرب والدولة العبرية. أين دور وسائل الإعلام في كل ذلك؟ وأي تجليّات في هذا الدور يحملها الخطاب الإعلامي؟

(٢) Isabelle Pailliart, *Les Territoires de la communication* (Grenoble: Presses universitaires de Grenoble, 1993), p. 78.

(٣) المصدر نفسه.

أولاً: عدّة وجوه لغياب السيادة المفروض، المراد والمقبول: على الموارد، الدفاع، الأرض والإرادات

يطال غياب السيادة، اختيارياً كان أم مفروضاً، المصادر، الدفاع، الأرض والقرار السياسي والاقتصادي. غير أن التجلي الفاضح المتمثل في الاحتلال المباشر ومقاومته هو الموضوع الوحيد الذي تتناوله الرسالة الإعلامية في الفضائيات موضوع البحث، في عملية تعويض، أو مصادرة. تعويض عن السكوت على المصادرات الأخرى، ومصادرة لموقف رفض الاحتلال والدفاع عن الحقوق من دون أن يطال ذلك الوجود العسكري في القواعد المنتشرة على امتداد الخليج العربي في مصادرة للسيادة، تطرح السؤال عما إذا كانت اختيارية أم مفروضة. سؤال أجاب عنه بيار سالينغر وإيريك لوران في كتابهما عن حرب الخليج الأولى، حيث أكّدا أن إدارة الرئيس بوش الأب لم تنتظر موافقة الملك فهد كي تبدأ بنشر قوّاتها في الصحراء السعودية[٤]. ولم يكن هذا الاحتلال غير المعلن إلا حاملة طائرات وقواعد لانطلاق الاحتلال العسكري المباشر والمعلن للعراق والهيمنة على المنطقة كلها، إضافة إلى الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والجولان ولبنان.

بناءً على هذا، فإنّ الخطاب الذي تتبناه المحطات الإخبارية يجسد مقاربتها للسيادة ويحدد تأثيراته على المشاهد من دون أن ننسى أنه (أي المشاهد) لا يتلقى بسلبية مطلقة. علماً بأنّ ثلاثاً من المحطات التي يتناولها هذا البحث مملوكة لأنظمة قائمة يتراوح سلوكها بين التواطؤ، البراغماتية والعجز. وهذا ما ينطبق على كل الأنظمة العربية.

بخاصة بعد أن أصبحت السلطة نتاج تلاقٍ بين ثلاث فئات مهيمنة: الممسكون بالسلطة الاقتصادية، يليهم العسكريون والسياسيون. ولم تعد السلطات محصورة بالدولة كما يحددها «ماكس فيبر» «الدولة المعاصرة هي مجموعة إنسانية، ضمن حدود جغرافية محددة، تطالب وبنجاح، ولحسابها الخاص، بحق

(٤) Pierre Salinger et Eric Laurent, *Guerre du Golfe: Le Dossier secret* (Paris: Olivier Oran, 2004). وترجمته حياة الحويك عطية إلى العربية وعرضته جريدة **الدستور** الأردنيّة عام ١٩٩٨.

الاستئثار بالعنف الفيزيائي المشروع»[٥]. وعليه، فعلى الرسالة الإعلامية أن تترجم هذا الامتلاك أو أن تطرح للحوار مشكلة التخلي عنه ونتائجها، أما الجمهور، فتختلف ردّات فعله، هناك المقاوم وهناك السلطة المضادة والسلطة المُهيمِنة، «آنتي (Anti) كلمة لاتينية تعني الضّد، ولذلك فإن مصطلح (Anti-pouvoir) تعني سلطة تعارض أخرى بهدف تدميرها والحلول محلها. أمّا كونترا (Contra) باللاتينية فتعني مُقابل، وهو معنى آخر للاعتراض، لذلك فإن مصطلح (Contre-Pouvoir) هو مصطلح ذو جذور لاتينية تعني سلطة تعارض أخرى بهدف التأثير عليها وتغيير مساراتها دون إرادة إلغائها أو تدميرها»[٦].

بين هذين الخيارين نما منطقان: منطق خيار الإلغاء ومنطق الإصلاح التوافقي، حكما حركات المقاومة في العالم العربي سواء كانت سياسية أم ثقافية أم عسكرية: بدءاً من مقاومة التجزئة التي فرضها الأجنبي، انتقالاً لمقاومة الأنظمة المرتبطة بها، وصولاً إلى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي ومن ثم مقاومة اتفاقيات السلام وما نجم عنها من تطبيع. وأخيراً مقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق.

كان خيار «الإلغاء» هو المعتمد في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ضد المحتل وضد الأنظمة. منذ الثمانينيات ساد التمييز بين خيار الإلغاء ضد الاحتلال وخيار الإصلاح التوافقي أو حتى القسري مع الأنظمة، إلى أن عاد الخيار الأول بقوّة مع احتلال العراق في عام ٢٠٠٣، ولكن بوجه جديد مزج بين إلغاء النظام وإلغاء الدولة وإلغاء السيادة، إذ زاوج بين الاحتلال والتغيير. (اكتسب هذا الإلغاء وهذا التزاوج أشكالاً جديدة مختلفة مع الحراك الشعبي الجديد في تونس ومصر وليبيا وسوريا. سنتناولها في كتاب قادم)[٧].

---

(٥) Max Weber, dans: Thi Quy Phuong Nguyen, «Pouvoir anti-pouvoir, contre-pouvoir et internet au Vietnam,» (Thése de doctorat en sciences de l'information et de la communication, Paris II, 2010), p. 11.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١.

(٧) نقول مختلفة لأن الحراك في تونس ومصر، لم يقترن بالتدخل العسكري الأجنبي، وإن كان قد اقترن بالتدخل الأجنبي السياسي، حتى في ما يخص الجيش والموقف من الاحتلال الإسرائيلي، في حين أن التغيير في ليبيا تم بتدخل عسكري أجنبي واحتلال مقنّع، أما في سوريا، فقد تم الالتفاف على المطالب الشعبية لصالح تدخل متعدد الأنواع والأشكال، وصولاً إلى التدخل العسكري، الذي يستهدف مؤسسات الدولة وكيانها. وذاك ما سنتناوله في كتاب لاحق يناقش مواكبة الفضائيات للحراك العربي.

من هنا تندرج الرسالة التي تبثها الفضائيات موضوع البحث في إطار المعادلة **الأولى**، بالنسبة إلى البعض، **والثانية**، بالنسبة إلى البعض الآخر. والنموذج كيفية مقاربة كل منها لموضوع السيادة عند تناول المقاومات الثلاث الفلسطينية واللبنانية والعراقية.

على الجزيرة كانت قطر تعوض إقصاءها الكامل لموضوع سيادتها الوطنية، بـ «صورة مدروسة لزواج ثلاثي بين حرية التعبير، المشروعية الإسلامية والخطاب العروبي (حتى عام ٢٠٠٤) مع الحرص على عدم استفزاز إيران». أما المساحة الواسعة التي تعطيها القناة لموضوع فلسطين، فإنها وسيلة لمصادرة وامتلاك فضائل نضال وطني مشروع بهدف تعويض تنازل غير مشروع وتواطؤ مفروض ومقبول. أما المساحة الواسعة التي تعطيها القناة لتغطية انتهاكات السيادة في الدول العربية الأخرى، في غياب كامل للسيادة القطرية على أرضها، فإنها تؤدي وظيفة مزدوجة: **الأولى**، هي التقليل من شأن التعاون القطري مع واشنطن وإسرائيل، والإيحاء بأنه حال عربي عام، **والثانية**، هي خدمة سياسات قطر، أو بالأحرى السياسات الأمريكية ضد الدول المعنية. ما يؤكده كون التقارير الطويلة التي تقدمها القناة حول انتهاكات السيادة في الدول الأخرى تتم بطريقة انتقائية، تركز على البعض وتسكت عن البعض الآخر؛ فعلى سبيل المثال نجد تركيزاً على التعاون اليمني مع الأمريكيين، من مثل تقارير أنور العنسي حول «التعاون الأمني مع واشنطن» والتي يقول فيها إن الأمريكيين يشاركون في التحقيقات مع الإسلاميين، كما ينقل اتهاماً يوجهه رئيس البرلمان عبد الله الأحمر، وأحد نواب اليسار للحكومة بالاستنجاد ببلد أجنبي ضد مواطنيها في ما يشكّل - بحسب قوله - عملاً غير مسؤول، مسيء، ويزرع البلبلة بدليل أن القنصل الأمريكي قد عبر عن رضاه عن ذلك، ثم ينتقل التقرير إلى الحارثي، زعيم التمرد اليمني ليقول إنه قتل الأطباء الأجانب لينتقم لقائده الذي اغتالته أجهزة المخابرات الأمريكية بطلب من الحكومة اليمنية»[٨]، ويكفي ربط هذه الرسالة الإعلامية بما حصل في اليمن في ما بعد، وموقف الإسلاميين الذين كان الأحمر يتزعمهم، وموقف الحراك الجنوبي الذي ينتمي إليه النائب اليساري

---

(٨) انظر تقرير أنور العنسي، في برنامج «حصاد اليوم»، بتاريخ ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢ (أرشيف الجزيرة).

المذكور، لنفهم أي دور مبكر كانت تقوم به الجزيرة ضمن الاستراتيجية الأمريكية للمنطقة.

ننتقل إلى قناة أبو ظبي، لنجد خطاباً لمصلحة الإمارات في إثارة موضوع السيادة بوجه العربية السعودية، التي تنازعها حدودها، من جهة، وإيران التي تحتل ثلاث جزر من جزرها، من جهة ثانية، ما يفسر الخط القومي الذي يتبناه هذا الخطاب وأحد تجلياته الالتزام بالموضوع الفلسطيني ودعم العراق ضد الأمريكيين والإيرانيين. خطاب كلّف القناة الإلغاء عام ٢٠٠٤، وتحويلها إلى قناة منوعات.

على العكس من ذلك تُقصي قناة العربية، كلياً أي كلام أو أي مفهوم في السيادة، فليس ذلك في مصلحة العربية السعودية التي سمحت بقواعد عسكرية (للكفار) على مقربة من الأماكن الإسلامية المقدسة ولا هو في صالح الأمريكيين المحتلين والذين تلتزم القناة بخدمة استراتيجيتهم.

أما المنار، فعليها التوفيق بين متطلبين متناقضين: خطاب السيادة في مواجهة المحتل الإسرائيلي، خطابٌ هو في أساس الصراع ومبرر الوجود. وتبرير العلاقة مع سوريا وإيران، ما يعتبره السياديون اللبنانيون مأخذاً. علماً أنّه من دون هذين البلدين لا يمكن المقاومة أن تحافظ على بقائها. والحل هو في انتهاج خطاب يجمع القومي إلى الإسلامي «قناة العرب والمسلمين». مع الحرص على صيانة الوحدة الوطنية مع المكونات الدينية الأخرى في البلاد والمنطقة «عليكم أن تسهروا على وحدة الأمة وعلى القواسم المشتركة، عليكم أن تقدموا رؤية مستنيرة للإسلام»[٩] يقول حسن نصر الله في خطابه التوجيهي للعاملين في المنار.

على الرغم من ذلك، وكما قلنا في الفصول السابقة، فإن الجميع يلتزم الصمت إزاء الانتهاكات التي سبق وذكرناها في مجالات الاقتصاد والسياسة. أما الموضوع الثالث، أي القواعد الأجنبية فهو تابو مطلق. لذلك يصبح موضوع الاحتلالات الساحة الرئيسة التي تتبارى فيها الشاشات الإخبارية مع اختلاف خطابها ومقارباتها ومواقفها منها. وفي هذا تمكنت المحطات الثلاث

---

(٩) خطاب للسيد حسن نصر الله أمام موظفي المنار، ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠ (أرشيف المنار).

في المرحلة الأولى الجزيرة، أبو ظبي وبالطبع المنار، من تكريس وجودها على الساحة العربية عبر القضية الفلسطينية، وبخاصة الانتفاضة ومسألة التطبيع، وسنأخذ بعض الحلقات المتعلقة كنموذج للتحليل.

ثانياً: تناول الموضوع الفلسطيني بين إحياء الأمل وردات الفعل الانتقائية

١ ـ ثقافة التيئيس، خطاب العجز وطموحات السلطة في ظل الأمر الواقع

تُخصّص الجزيرة نشرتها الإخبارية ليوم ٢٨ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠، للمواجهات التي حصلت خلال زيارة شارون للمسجد الأقصى، ما أدى إلى اندلاع الانتفاضة. تتشكل النشرة من فقرات متواترة بين التغطية الميدانية والشهادات: جنود يركضون في كل اتجاه، نفق مُعتم، شباب يركضون يحملون شهيداً ـ شهود عيان يتحدثون ـ الشرطة الإسرائيلية منتشرة في حالة تأهُّب ـ شهادات أخرى: «لم نرَ شيئاً كهذا منذ ٦٧» ـ شاب يتلوّى أرضاً من الألم، آخرون يركضون لإنقاذه ـ شهادة ثالثة ـ جنود إسرائيليون يمنعون فُرَقَ الإنقاذ ـ شهادة رابعة، العقيد جبريل الرجوب مدير الأمن الفلسطيني يؤكد استعمال الجنود للرصاص الحي ويقول «إن زيارة زعيم اليمين الإسرائيلي للحرم وضعت حداً لاستعداد السلطة لأية مرونة وإن الأمور عادت إلى نقطة الصفر» ثم يطرح قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين يشكلون ٥٠ في المئة من لاجئي العالم[١٠]. «لا يمكنهم العودة إلى ديارهم، حقهم غير معترف به، هذا يشكّل مشكلة كبيرة لأمن وسلام كل من الدول العربية»[١١].

ليست إثارة موضوع اللاجئين مجانية، بل إن الرجوب يعرف أن هذا الموضوع الأكثر حساسية بالنسبة إلى الدولة العبرية، ونقطة الخلاف الأساسية في مفاوضات السلام، «حق العودة»، ويبدو واضحاً أن مصمم النشرة أقام توازناً بين تصريحات العقيد «الرجوب» والتقارير الميدانية. منذ حينها راحت الجزيرة تركز على الأحداث اليومية للانتفاضة، ويتحوّل المواطنون العاديون

---

(١٠) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٩، التغلب على الحواجز: قابلية التنقل البشري والتنمية** (نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٩).

(١١) برنامج «حصاد اليوم»، ٢٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ (أرشيف الجزيرة).

إلى مراسلين ميدانيين إلى جانب المراسلين المهنيين. يؤكد الخبراء أن الفرق بين تأثير الانتفاضة الأولى عام ١٩٩٦، والانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ يعود إلى دور وسائل الاتصال، وبخاصة الفضائيات؛ في حين يأخذ باحثون آخرون على هذه التغطية أنها تراهن على «معاناة الشقيق الفلسطيني» وليس على مبدأ السيادة، ما يطرح السؤال: هل كانت الفضائيات تخدم قضية السيادة والمعاناة الإنسانية لذاتها، أم أنها كانت تستفيد منها لتحقيق نجاح إعلامي أكبر واكتساب صدقية وشعبية تهيّؤها لدور مستقبلي؟ في هذا يقول الباحث المصري جمال حمدان، إن مشكلة الذاكرة العربية هي مشكلة «القطيعة والآنيّ»، ما يُترجَمُ بتدرج التغطية الإعلامية من السخونة في الأشهر الأولى، إلى الفتور في ما تلاها، ثم إلى البرود. لكن ثمّة من يردّ على ذلك بالقول إن وسائل الإعلام إنما تعكس ما يحصل على الأرض. وكما في الثقافة حيث لا يكفي تجميع المعلومات لتقدّم المعرفة، بل إن استخدام المعلومات والمعارف وفق منهجية محددة واضحة هو ما يوصل إلى بلورة رؤية وموقف معينين بشأن قضية ما، خاصة عندما يكون التوظيف نفسه مدروساً بطريقة علمية واضحة الاستهداف. وإذا كان بإمكاننا أن نقول إن الجزيرة تطورت على هذا الصعيد، فإنما، نحو أسلمة القضية وتعزيز راية حماس التي رأيناها مهيمنة في تغطية التظاهرات التي أعقبت مجزرة مخيم جنين.

المثال الثاني من قناة أبو ظبي، ومن برنامج «مجرد سؤال»، حيث نأخذ حلقة تعمل على تصوير معاناة الفلسطينيين. تنقسم الحلقة إلى قسمين:

القسم الأول، تناولناه في الفصل السابق الخاص بالتعليم وهو يتناول «معاناة الطلاب الفلسطينيين في الوصول إلى المدرسة».

أما **القسم الثاني**، فيتناول «مسألة لجنة تقصّي الحقائق حول تدمير الإسرائيليين لمخيم جنين»[١٢]. رجا حوراني، مدير المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان في غزة، يطالب بلجنة تحقيق في مخيّم جنين مناشداً اليونيسيف، والمجتمع المدني، مذكّراً بمعاهدة جنيف الرابعة، ويعدّد الانتهاكات القانونية، الوقائع وشهادات سكان المخيم وشهود العيان: «نحن لسنا بحاجة للمبالغة أو التضخيم، فالوقائع دامغة؛ يكفي زيارة المخيم المحاصر الذي

(١٢) برنامج «مجرد سؤال» (٢٠٠٠) أرشيف قناة أبو ظبي.

يُحظَر دخوله حتى على المحامين كي لا يروا أو يسمعوا شهادات سكانه الموضوعية والهادئة، وكي لا يطبقوا العدالة، القانون وحقوق الإنسان. أما ذروة المؤامرة، فهو الصمت الدولي. أما نحن، فقد بدأنا منذ اليوم الثاني للاجتياح، وبالرغم من كل الصعوبات، بتجميع الوثائق، نعرف من هو المسؤول الإسرائيلي الذي أعطى الأوامر، الذي قاد عملية التدمير، الذي منع الصليب الأحمر، الأونروا وأطباء بلا حدود ووكالة العفو الدولية من الوصول إلى المواقع. لدينا ٢٨ ساعة من تسجيل الفيديو داخل المخيم»[١٣].

في الفقرة التالية من البرنامج، يكرر المحامي الدولي هادي شلّوف، المتداخل من لندن المُطالبة بالعدالة: يعرض بنود القانون الدولي وقانون الجزاء الدولي، ويطالب مجلس الأمن والأمم المتحدة بتطبيقهما: «ما حصل للفلسطينيين هو مسؤولية دولية، إنها جريمة ضد مخيم لاجئين. من هو المسؤول؟ الجرائم التي تحصل في حالة الحرب تقع تحت البندين ٣٨ و٥١. لا يجوز لمجلس الأمن أن يكتفي بإرسال لجنة، عليه أن يتخذ تدابير قانونية وفعلية»[١٤]. المذيع يعلق مذكراً بالشكوى التي رُفعت أمام العدالة البلجيكية بخصوص صبرا وشاتيلا، قبل أن يترك الشاشة إلى فاصل من الصحافة المكتوبة تتحدث عن: «تراجع تيري رود لارسن الذي غير تقريره مرتين، ومن ثَم يعطي الكلام لـ متداخل، عبد الرحمن العوضي[١٥]، الذي يقدم قائمة بعمليات الاجتياح الإسرائيلي لأراضي السلطة الفلسطينية: «ثلاثون ألف اعتداء برّي، بحري وجوّي».

يقدم هذا التشكيل المركب من صور المعاناة اليومية ومن المرافعات المدعّمة حول قضية جنين، صورة واقعية للظلم ولكن، للعجز أيضاً. ما يعمّق القهر والكبت لدى المشاهد ويدفعه ـ ربّما ـ للتبرع بالمال، للرغبة في الانتقام، ولكن هل تخدم هذه الصورة المعنويات المولّدة «لإرادة القوة... للثقة والأمل بمستقبل حرّ»[١٦]. ذاك أن هذه الثقة وهذا الأمل يقعان، بحسب قائد المقاومة اللبنانية، في أساس هذه الإرادة، ويشكّلان الثقافة التي يتوقف

(١٣) رجا حوراني، في برنامج «مجرّد سؤال»، (٢٠٠٠) أرشيف قناة أبو ظبي.
(١٤) هادي شلّوف هادي في البرنامج نفسه.
(١٥) عبد الرحمن العوضي في البرنامج نفسه.
(١٦) خطاب للسيد حسن نصر الله أمام موظفي المنار.

عليها استمرار وبقاء المقاومة، ولذلك فإن هذه الثقافة هي التي تملي خطاب قناة المنار.

صحيح أن المعاناة والعذابات الإنسانية هي واقع الحال في فلسطين، لكن ما من شيء قادر على تقزيم القضية الفلسطينية كحصرها في الجانب الإنساني، يعلّق أحد الباحثين. يظل هذا الاعتراض نسبياً طالما أن الحلقة قد خصصت الجزء الثاني للجانب القانوني، للحق. غير أن المشكلة هنا تكمن في كون هذا الخطاب موجّه باللغة العربية ولجمهور عربي لا يحتاج إلى إقناعه بالحق الفلسطيني، وليس بلغة أجنبية وإلى جمهور أجنبي يتوجب إقناعه. المشكلة بالنسبة إلى الجمهور العربي هي: كيف نعمل لإحقاق هذا الحق، للمساهمة في المقاومة بكل أشكالها؟ الفعل الذي لا يقتصر على الجانب العسكري بل يطال السياسي، الاجتماعي، الثقافي، الاقتصادي... إلخ، بدءاً من الفرد وعبوراً إلى مختلف المؤسسات. إن من شأن المبالغة في القهر والتيئيس أن يؤديا إلى ممارسات انتحارية، كما إنه من شأنهما أن يؤديا إلى الاستسلام أو اللامبالاة، وفي حال سوء تقنينهما قد يقودان إلى إساءة استعمال السلطة وإلى صراعات أخوية. إن من شأن خطاب العجز وانعدام السيادة في عالم «لا يحترم إلا الأقوياء»[17]، أن يقود إلى مواقف رخوة قدرية تغطي نفسها بـ «الواقعية».

يتجسد هذا التحليل في مثال ثالث: حلقة، في ٣٠ آذار/ مارس ٢٠٠٢، تناقش بدم بارد إمكانية تصفية الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات[18]: المشاركان في الحوار محمد دحلان قائد الأمن الوقائي في السلطة الفلسطينية، وعريب الرنتاوي الكاتب الصحافي يتفقان على هذه النقطة، حيث يؤكد الرنتاوي «أن إسرائيل قد اتخذت قرار تركيع ياسر عرفات بوضعه بين خيارين، إما الخضوع للمطالب الإسرائيلية، وإما الاجتياح العسكري لمناطق السلطة» مذكّراً باجتياح لبنان عام ١٩٨٢، في حين يرى دحلان أن الخيار الثاني هو الأرجح، لأن عرفات لن يرضخ لمطالب شارون وسيحصل الاجتياح في تشرين الأول/ أكتوبر. وذلك ما يؤكده اغتيال ٣٥ قائداً فلسطينياً واستدعاء جنود

(١٧) نايف كريّم، «دور وسائل الإعلام في دعم قضية التحرير،» محاضرة ألقيت في بيروت بتاريخ ١١ نيسان/ أبريل ١٩٩٨.

(١٨) برنامج «مجرد سؤال»، ٣٠ آذار/ مارس٢٠٠٢، أرشيف قناة أبو ظبي.

الاحتياط الإسرائيلي من الخارج. «اجتياح يُخطَّط له وكأنه يستهدف قوّة عظمى، دولة ذات سيادة تتمتع بكل عناصر القوة، مع عناوين غريبة: «حقل الشوك»، «الباب الدوّار»، «الجحيم رقم ١»، «والجحيم رقم٢»».

من ثم ينتقل الحوار إلى مناقشة احتمال التخلص من عرفات، فتقارير الـ شين بيت، التي سُرّبت إلى جريدة **معاريف**، تصف عرفات بـ «قائد خطير، لم يقبل بوجود إسرائيل، مخادع، قادر بتحويل كل هزيمة لانتصار، مؤمن بالعنف»[19]. أما مجلة **جينز** الأمريكية فتكتب: «لا تتفاجأوا إذا عاد يوماً من الخارج ليجد المطار مغلقاً»[20]. يرجّح دحلان احتمال اغتيال عرفات آخذاً التهديدات الإسرائيلية على محمل الجِد، لأن «الرمز يصنع التاريخ، وعرفات هو الرمز الذي يحظى بإجماع جميع الفلسطينيين، إضافة إلى أن من شأن الاجتياح أن يوجّه رسالة للمجتمع الدولي مفادها أن الفلسطينيين ليسو مؤهلين للاستقلال وحتى للحكم الذاتي. وبخاصة أن الخليل محاصرة والمدن الأخرى تحت الاحتلال»[21].

سيميولوجياً: يظهر دحلان بزيّ مدني ذي أناقة مدروسة؛ سترة صفراء وربطة عنق زرقاء، لونان يوحيان بالحداثة والهدوء، وكذلك تسريحته. وجه بارد، ضبط كامل لأي تعبير انفعالي، منطق عقلاني، نبرة هادئة ومحايدة. يكرر التركيز على دور القائد الرمز ويتحدث عن الخلافة، أما الرنتاوي، فيبدو كأنه يرد على هذا الترشيح المضمر، إذ يلح على مشكلة غياب الرقم الثاني مؤشراً إلى دكتاتورية المسؤولين العرب الذين يحولون بهذا دون وجود البديل منعاً لتداول السلطة. ثم يطرح أزمة الديمقراطية وما يسمّيه بـ «غياب الشعوب»[22].

يدور ذلك في الشهر العاشر من الانتفاضة التي خاض فيها الفلسطينيون نضالاً بطولياً اعترفت به الصحافة الأجنبية نفسها، قدموا تضحيات هائلة وأحيوا أملاً بدا وكأنه مات في الشارع العربي. إحياء عززه كون الانتفاضة قد

(١٩) عريب رنتاوي في البرنامج نفسه.

(٢٠) محمد دحلان، نقلاً عن: مجلة **جينز**، والبرنامج نفسه.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) الرنتاوي، في برنامج «مجرد سؤال»، ٣٠ آذار/ مارس ٢٠٠٢ (أرشيف قناة أبو ظبي).

اندلعت بعد تحرير جنوب لبنان على يد المقاومة. غير أن المتحاورين، ومثلهما المتداخلين عبر الهاتف من برلين، سويسرا والولايات المتحدة يعكسون موقفين: الدفاع عن عرفات وفتح، أو مهاجمتهما بمنطق حماس: «إذا اختفى عرفات فهناك من يحلّ محله، محمد ومات». صراع ضمني بين فصيلين يُغيّب مبدأ احترام السيادة، احترام حصانة رئيس منتخب ديمقراطياً، رفض اعتداء خارجي على الكرامة الوطنية، بل إنه يغيّب مناقشة سبب تعرّض الرئيس لهذا الخطر، أي رفضه الرضوخ للعدو والتنازل عن حقوق وطنية، أو حتى مناقشة المآخذ التي ساقتها ضده الأجهزة الإسرائيلية في صحافتها والصحافة الأجنبية. ذاك أن ما يشغل المتحاورين (ومن ورائهم) هو قضية الخلافة؛ صراع بين أشخاص ولكن بين حماس وفتح وباقي المنظمات التي تدور في فلك كل منهما. والنتيجة أن الجمهور يخرج من هذا النقاش محبطاً، مسحوقاً بإحساس العجز، تائهاً في خضمّ صراع ثانوي يصرف فكره عن القضية الأساسية. وبخاصة أن هذا الجمهور يتلقى بعدها وعلى كل الشاشات العربية نداء الاستغاثة الذي أطلقه عرفات عبر الهاتف من مقره المحاصر مطالباً «الزعماء العرب بالتحرك على المستوى الدولي، ومع زعماء العالم لوضع حد لإرهاب شارون[23]... إلى الرباعية الدولية للدول العربية والإسلامية، للصين، لليابان، للأوروبيين، لأمريكا الجنوبية ولكل شرفاء العالم. نداء سلام لشرعية القيادة وللقانون الدولي»[24]. وحدها كتائب الأقصى توجه نداءً، من ساحة المجلس التشريعي، لدعم عرفات، فيما يتحدث أمين سر المجلس عن محاولات لتصفية الرئيس[25].

بعد سنتين، وفي النشرة الإخبارية للجزيرة رأينا مشهد الترحيل المُريب للرئيس المريض من مقرّه، واستمعنا إلى خبر منع عزمي بشارة من الترشّح للكنيست: «منع النائب العربي عزمي بشارة من الترشح للانتخابات الانتخابية بحجة أن حزبه يدعم المقاومة المسلحة في فلسطين»[26]. ما يجعل المشاهد يقارن، ولو بشكل غير واع، بين السلوك السيادي (حتى التعسفي) لإسرائيل،

(٢٣) Philippe Quillerier-Lesieur, dans: AFP, 29/3/2002.

(٢٤) الجزيرة، ٢٨ آذار/ مارس ٢٠٠٢.

(٢٥) الجزيرة، ٢٩ آذار/ مارس ٢٠٠٢.

(٢٦) وليد العمري، في «حصاد اليوم»، على قناة الجزيرة (آذار/ مارس ٢٠٠٣).

وبين السلوك المفتقر للسيادة في الجانب الآخر، لتأتي تعليقات وليد العُمري من الأرض المحتلة فتعمّق هذا الإحساس بالكبت واليأس، حيث يدين التمييز الذي تمارسه الحكومة الإسرائيلية ضد الأحزاب العربية في حين تتساهل مع المتطرفين اليهود في إسرائيل، تسمح بترشيح باروخ مارزيل، وترفض ترشيح أحمد الطيبي. وتصب تصريحات جمال زحالقة، النائب العربي في الكنيست في السياق نفسه حيث يتساءل: «أين هي الديمقراطية؟ هذا هو التمييز»[27].

مرة أخرى يكون من شأن هذا الخطاب أن يسيء إلى صورة إسرائيل في الخارج، لكن بثه باللغة العربية وعلى قناة عربية لا يفيد شيئاً، اللهم إلا تعميق الكبت والقهر. والاعتراف الواقعي بتفوق دولة إسرائيل وعبثية مواجهتها، باختصار، التيئيس.

الديمقراطية الفلسطينية لا تستطيع منح الحصانة والحماية لرئيسها، والديمقراطية الإسرائيلية هي وهم وادّعاء، إذاً القوة وحدها هي التي تقرر مصير الأمور. وإذ يدرك المتلقي الخلل القائم في ميزان القوة، فإنه يقع ضحية القلق واليأس، فينكفئ على نفسه وينزلق إلى منطق السوق الاستهلاكي والاستشراس في تأمين المصلحة الفردية، ما يشكّل منزلق الفساد، أو يبحث من جهة أخرى عن حماية جمعيّة لا تؤمنها الدولة والمواطنة، وبالتالي لا تؤمنها السلوكيات والقيم المرتبطة بهما. تراجع في الثقافة والوعي الديمقراطيين لصالح هويات فرعية تجزيئية انعزالية توحي بالحماية، أو لصالح هويات دينية تُحيل إلى فضاء جغرافي وبشري أكثر اتساعاً وقوة، وإلى قوة غيبية أقوى من كل الذين يختارون بوعي النضال ضد كل الأخطاء: الظلم، اليأس والظلامية، بحيث يصل هؤلاء لأن يجدوا أنفسهم في مواجهة سياقات صعبة في الداخل كما في الخارج.

غير أن هناك خطاباً آخر ينمّي منطق الأمل وقدرة النضال الوطني لأجل السيادة والعدالة، مؤسساً بقوة لمستقبل يتحقق فيه التوازن مع العدو. كما هو حال خطاب قناة المنار التابعة لحزب الله. لولا أن ثمة شائبة تَسِمُ هذا الخطاب هي المنطق المذهبي الذي يعود ليندرج في سياق الهويات الفرعيّة التجزيئية والباحثة عن الامتداد الخارجي.

(٢٧) جمال زحالقة، في «حصاد اليوم»، على قناة الجزيرة (آذار/ مارس ٢٠٠٣).

٢ ـ إعادة الثقة للمواطن؛ ضرورة تصبح أكثر إلحاحاً بعد عام ٢٠٠٣

شكّلت محاربة خطاب التيئيس أول أهداف استراتيجية المنار: «الصورة النمطية» للمواطن الجنوبي اللبناني التي كرّستها وسائل الإعلام: «العاجز الغارق في الفقر والبؤس، الذي يهرب من بيته المدمر ببعض الأثاث البالي، أو الذي ينبش في ركام هذا المنزل بحثاً عن بعض بقايا، الباكي الصارخ طلباً للنجدة. هو الجريح الذي يخرج معاقاً من المستشفيات ليدخل بسرعة في النسيان، أو الجثة المحمولة على خشبة أمام النادبات. أما في حياته اليومية، فهو المتخلف الذي يعيش خارج العصر، الذي لا يفعل شيئاً إلا العمل ليلاً ونهاراً في زراعة التبغ وبالوسائل الأكثر بدائية، لقد أصبحت نبتة التبغ شعار قضيته، وانتهى بأن يصدّق ذلك. جعلوه ينسى أن نهر الليطاني هو ملكه، وأن له الحق في كل نقطة من مائه الغزير يُنمّي بها زراعته بعد أن يناضل لاسترجاعه. الليطاني هو رمز من الرموز التي يجب تسويقها. . . لدى البعض الآخر هذا الجنوبي هو الساذج الذي تشكّل لهجته مادة للكوميديا مثل شخصية أم طعّان على تلفزيون لبنان. . . موضوع شفقة، سخرية وكوميديا فارغة»[٢٨] هذه الصورة التي يرفضها، بغضب واضح المدير الأول لقناة المنار نايف كريّم، تعكس ثلاثة أبعاد: وعياً سياسياً مقاوماً، رؤية إعلامية واضحة خاصة في ما يتعلق بالصورة وردة فعل اجتماعية، ذاك أن الإشارة إلى تلفزيون لبنان هي في واقع الأمر إشارة إلى نظرة فوقية إزاء الشيعة الفقراء في الجنوب. وربما كان تحدّي هذه النظرة على الساحة الاجتماعية، الاقتصادية والإعلامية في أساس نجاح حزب الله. لذلك يذكّر كريّم بالماضي البعيد لجنوب لبنان رابطاً إياه بالحاضر ليغذي إحساس الفخر والكرامة الذي يقع برأيه في أساس «إرادة القوة»[٢٩]، يعدد «العلماء، الكتّاب، المخترعين ويذكر المهاجر الذي يعود بكل ما كسبه طوال حياة كاملة ليبني ويستثمر في موقع بيت أهله الذي دمّره المحتل، حتى وهو يعرف أن الطيران الإسرائيلي قد يدمّره من جديد»[٣٠] ويفتخر كريّم أن «المنار ووسائل الإعلام المُقاوم

(٢٨) كريّم، «دور وسائل الإعلام في دعم قضية التحرير».

(٢٩) نايف كريّم، «الانتقال من دعاية الحرب إلى الحرب السيكولوجية،» ورقة قدمت إلى: المؤتمر الذي عقد في دار بيروت بتاريخ ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧.

(٣٠) كريّم، «دور وسائل الإعلام في دعم قضية التحرير».

الأخرى، قد نجحت في تغليب الصورة الحقيقية لهذا الجنوب الأبيّ، الكريم، الشجاع القادر على أن يعرف ويعمل. لقد نجحنا في أن نبعد من الإطار صورة اليأس لنُحِلّ محلها صورة الأمل الضرورية للانتصار»[٣١].

استراتيجية تتضاعف الحاجة إليها مع تطور الأحداث في المنطقة، وهذا ما يؤكده أمين عام الحزب حسن نصر الله، مركزاً على البعد العربي «في عالمنا العربي، رمت حرب الخليج الناس في حفرة الإحباط وعلينا واجب إعادة الثقة، إن من شأن مواجهاتنا وانتصاراتنا على العدو الإسرائيلي أن تشكّل برهاناً على أن العربي هو وطنيّ مستعد للعطاء وأن المصاعب لن تسحقه»[٣٢]. هدف يشكّل أساساً في الاستراتيجية التي يرسمها الحزب للمنار: «إنّ آفاق مسؤوليتنا هي الأمة، علينا أن ننفخ فيها الثقة ونرفع المعنويات، أن ننقل ثقافة المقاومة للمواطنين والخوف للأعداء بأساليب الحرب النفسية»[٣٣]. ذاك لأن النجاح في التحرير يمرّ بالهجوم: «الانتقال من الدعاية المضادة إلى الحرب النفسية بهدف الإخلال بتوازن الجبهة الداخلية للعدو»[٣٤]. وهذا ما جسدته البرامج والكليبات المبنية بشكل يتوافق مع هذا الهدف، والتي كانت تكررها المنار وتنقلها عنها بعض وسائل الإعلام الأخرى. كذلك خُطَب السيد حسن نصر الله التي تنقلها القناة نقلاً مباشراً ثم تعود وتكرر فقرات منها. كل هذا يجعل صحيفة يومية إسرائيلية، تعترف أن «تأثير الحرب النفسية التي تمارسها وسائل الإعلام اللبنانية الملتزمة، خاصة إعلام حزب الله، تصبح أكثر فأكثر تأثيراً على الحالة النفسية للإسرائيليين»[٣٥].

بعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية: «مع اندلاع الانتفاضة، قامت المنار بعمل مشرّف، ليس فقط بانتقال البث من ١٢ إلى ١٤ ساعة، وإنما باحراج الفضائيات العربية التي لزمت الصمت خلال الأيام الأولى»[٣٦] يقول الأمين العام لحزب الله معبّراً عن

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) خطاب للسيد حسن نصر الله أمام موظفي المنار، ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) كريّم، «الانتقال من دعاية الحرب إلى الحرب السيكولوجية».

(٣٥) يديعوت أحرونوت، ٢٥/ ٤/ ١٩٩٦.

(٣٦) خطاب للسيد حسن نصر الله أمام موظفي المنار، ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.

رضاه عن أداء القناة ولافتاً إلى «الفارق بين الذين يتصرفون بروح المنافسة الإعلامية والذين يعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الصراع ضد عدو واحد»[٣٧]. من جديد يعود نايف كريّم لطرح موضوع الصورة وتأثيراتها: «خلال عقدين كانت وسائل الإعلام العربية ترسم صورة سلبية للمجتمع، خاصة للمناطق المحتلة في لبنان وفلسطين. تكرّس التفوق الإسرائيلي مقابل العجز العربي، ما ينجم عنه الإحباط واليأس، اللذان، بفعل التكرار يقودان الناس إلى اعتبار الاحتلال قدراً لا خيار لهم إلا التعود عليه إن لم يكن التعامل معه»[٣٨]. هذه الصورة هي أول ما تمحوه تغطية أحداث الانتفاضة والأعمال البطولية التي يقوم بها الناس، شرط «عدم الاكتفاء ببردة الفعل وبنقل الأخبار والأحداث من دون استراتيجية واضحة»[٣٩].

هاجس آخر يشغل الاستراتيجية الإعلامية للمنار، بالنسبة إلى لبنان ثم إلى فلسطين: الوحدة الوطنية، لأنه من دون هذه الوحدة لا يمكن حماية المقاوم، كما إن السلاح الذي يجب أن يوجه إلى الداخل في عملية تدمير ذاتي؛ فذكريات الحرب الأهلية اللبنانية ليست ببعيدة، والصبغة المذهبية لحزب الله تشكّل خطر إحياء الحساسيات. لذلك كانت الأوامر واضحة خلال عمليات التحرير: عدم المساس بأحد، حتى بالأسر التي كان بين أعضائها من تعاون مع الإسرائيليين[٤٠]. هؤلاء المتعاونون سلموا للدولة كتعبير عن احترام القضاء والسيادة الوطنية، سلوك كان له الأثر الكبير وبخاصة أنه جاء بعد سنوات الحرب الأهلية التي دمرت كل مفهوم للسيادة الوطنية، لصالح الميليشيات اللبنانية والفلسطينية التي كانت تتقاسم البلد، والقوى الأجنبية التي كانت تتدخل بشكل مباشر وغير مباشر.

على شاشة المنار كانت تغطيات التحرير في الجنوب تحرص على نقل هذه الصورة: السكان يحتفلون بالتحرير بقرع أجراس الكنائس كما عبر المآذن، شيخ بعمامته يتحدث إلى الميكروفون من داخل بلدات مسيحية «لقد

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) كريّم، «دور وسائل الإعلام في دعم قضية التحرير».

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) نداء كان يتكرر على شاشة المنار طوال الأيام التي أعقبت الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠ (من أرشيف المنار).

حرصنا على زيارة مطران القليعة ومرجعيون لتطمين الناس، نحن كلنا مواطنون والانتصار لنا جميعاً»[٤١]. امرأة تقف أمام صور حسن نصر الله وورود صفراء (اللون الرمزي لحزب الله) وصليبها على صدرها. علم حزب الله يختلط بأعلام مختلف الأحزاب اللبنانية التي شاركت في المقاومة، في رسالة تطمينية يؤكد المقاومون المسلحون في الشوارع لمندوب المنار أن هذا الحضور المسلح سيختفي قريباً، شابّ منهم يقترب من الكاميرا ليقول «أنا طالب جامعي ولديّ عملي. لقد أعطينا وكوفئنا بتحرير الوطن، الآن علينا أن نعود إلى حياتنا الطبيعية»[٤٢] رغبات لم يكن لها حظ التحقق إلا لفترة، حيث إن الحدث الذي هز العالم والمنطقة يوم ١١ أيلول/سبتمبر والحروب التي تلته ومشروع الشرق الأوسط الجديد لم تترك كلها مجالاً للهدوء. فلا يزال هناك مشروع أمريكي، مشروع إسرائيلي، مشروع إقليمي وعربي تتناقض في هذه المنطقة من العالم ولا تسمح بإلقاء السلاح بسهولة في هذا الصراع التاريخي الذي يتجاوز المصالح إلى الوجود.

ثمة معسكر اتّبع سياسة إحناء الرأس أمام العاصفة ولزم الصمت خلال تحرير الجنوب بانتظار الانسحاب السوري؛ في هذا السياق جاء اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، ليُعقّد الأمور من جديد، خاصة بالنسبة إلى معسكر المعارضة المتحالف مع حزب الله. عاد جدل السيادة ليُطرح بشكل أكثر حدّة ودائماً بشكل مختلط: البعض يطالبون بسيادة إزاء إسرائيل، الآخرون إزاء الولايات المتحدة وسائر الدول التي تتدخل في لبنان، آخرون إزاء سوريا، وكل معسكر يتّهم الآخر بانتهاك السيادة. ما يرمي المواطن في البلبلة وفي الانحياز إلى تأويلات متناقضة للسيادة. تأويلات لا تحتمل الكثير من البلبلة في سائر الوطن العربي، حيث يجمع الكل على الانتهاكين المتمثلين في احتلال فلسطين والعراق، ويُطالَب كل، حكومات وأفراد بموقف من ذلك. أما المشاهد فيتوقف ما ينتظره من الرسالة الإعلامية على أوضاع الأنظمة والقوى السياسية القائمة.

(٤١) لقطات من برامج بثتها قناة المنار في إطار برنامج يومي «تغطية التحرير»، تاريخ ٢١ أيار/ مايو ٢٠٠٠ (من أرشيف المنار).

(٤٢) لقطات من برامج بثتها قناة المنار في إطار برنامج يومي «تغطية التحرير»، ٢٥ أيار/ مايو ٢٠٠٠ (من أرشيف المنار).

٣ ـ بين البراغماتية والقلب: لا تنطلي الأمور على المشاهد

تعتبر مقاطعة إسرائيل التي أقرّتها جامعة الدول العربية منذ عام ١٩٤٨، سلاحاً فعّالاً في مقاومة الاحتلال ووسيلة للضغط على الدولة العبرية للانسحاب من المناطق المحتلة في فلسطين والدول العربية المجاورة. من هنا، فإن التطبيع معها مشروط بحسب الجامعة بالانسحاب الكامل من هذه المناطق، ما يضع التطبيع في صميم موضوع السيادة. لذا فإن السماح به يشكّل تنازلاً عنها وإعلاناً واضحاً بالهزيمة ونهاية أي أمل بالتحرير. لذلك فالمواجهة قائمة بقوة حول هذا الموضوع منذ اتفاقيات كامب ديفيد، أوسلو ووادي عربة. غير أن التيار التطبيعي لا يزال الأضعف حتى في مصر، إذ تقاومه القوى الشعبية إضافة إلى القوى النقابية والحزبية المختلفة في العالم العربي، كما تنشط حركات مقاومة التطبيع المنظمة في الدول الموقعة على هذه الاتفاقيات. غير أن ذلك يختلف عن موقف أكثر الحكومات، ومنها حكومات الدول التي تنتمي إليها الفضائيات موضوع البحث؛ قطر التي تمارس التطبيع علناً، الإمارات التي تبدو أكثر تحفظاً والعربية السعودية التي تصر على رفض التطبيع (رسمياً)؛ في تحليل لخطاب الجزيرة يؤكد نبيل الناصري، على أنه لا يمكن هذا الخطاب أن ينفصل عن «متابعة التطبيع مع إسرائيل الذي يُشكّل ثابتاً من ثوابت الدبلوماسية القطرية؛ فمنذ اتفاقية أوسلو واللقاءات قائمة بين الدبلوماسيين القطريين ونظرائهم الإسرائيليين؛ في عام ١٩٩٤، تم التفاوض بين قطر والدولة العبرية على عقد تزويد بالغاز. غير أن الانتقادات التي وجهتها الدول المجاورة، وبخاصة العربية السعودية، أدّت إلى إعلان التخلي رسمياً عن هذا المشروع؛ في عام ١٩٩٦، استقبلت الدوحة أول ممثلية تجارية إسرائيلية في الخليج، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧، استقبلت العاصمة القطرية المؤتمر الاقتصادي الرابع للشرق الأوسط وشمال أفريقيا المعروف برمزه الأنكلوساكسوني (MENA) بمشاركة إسرائيلية. في عام ٢٠٠٢، وعندما قررت الدول العربية مقاطعة إسرائيل إثر قمع الانتفاضة، التقى الشيخ حمد ابن جابر آل ثاني وزير الخارجية رسمياً بـ شمعون بيريس»(٤٣).

(٤٣) Nabil Ennassiri, «Géopolitique du Qatar, la construction d'une image flatteuse,» 26 novembre 2008, <http://www.omma.com>.

حتى ولو لم تُثَر هذه الوقائع إطلاقاً على شاشة الجزيرة، فإن الاستضافة المتواصلة للمتداخلين الإسرائيليين تواجه انتقادات شديدة من قبل الجمهور كما من قبل المحطات الأخرى. مثلاً مدير العربية، القناة المتهمة بأنها الأكثر قرباً من الأمريكيين يقول للباحثة: «صحيح أن إم. بي. سي. كانت أول من استقبل إسرائيليين، ولكن هل بإمكانك أن تجري مقارنة كمية بهذا الموضوع بين العربية والجزيرة؟»(٤٤). لذا يتساءل باحثون وسياسيون عن هذه الشيزوفرينيا التي تمارسها القناة: من جهة تريد أن تكون قناة المتشددين من العرب والفلسطينيين، وتسمح لضيوفها بالهجوم الحاد على علاقات بعض العرب مع إسرائيل، وفي الوقت نفسه تتعامل هي مع الدولة العبرية وتستقبل بعض مسؤوليها وكوادرها وناشطيها على شاشتها. في هذا يقول النائب السوري ياسر نحلاوي: «إن التطبيع ينتشر بفضل الجزيرة، التي أدخلت إسرائيل إلى كل بيت عربي، فالحضور الإسرائيلي على شاشتها هو وسيلة تطبيع العقل العربي مع وجهة النظر الإسرائيلية وقبولها كرأي ورأي آخر، في حين كنا نريدها صوتاً عربياً يدافع عن قضايانا كما تفعل قناة أبو ظبي»(٤٥).

أما المختصون مثل البروفيسور نبيل دجاني، فيذهبون إلى أبعد من مجرد استضافة الشخصيات، إلى مضمون الخطاب الإعلامي: «كنا نقول فلسطين، الأراضي المحتلة، العدو الصهيوني، الآن بتنا نقول إسرائيل والسلطة الفلسطينية. هناك توجيهات واضحة بعدم ظهور العلم الإسرائيلي على الشاشات، لكننا نراه يخفق في الكثير من البرامج. الإسرائيلي يظهر على الشاشة بكل حرية ليقول لنا كل ما يريد، والأسوأ أننا قدمنا كل هذه التنازلات مجاناً وبحجة واحدة: معرفة الآخر»(٤٦)؛ في ذلك نشر موقع كنعان أون لاين، بحثاً لـ بثينة شعبان، يسرد قائمة من ثنائية المصطلحات التي حلّ أحدها مكان الآخر، بقصد أو بغير قصد، في الخطاب التلفزيوني: ««ناشط» بدلاً من «مقاوم»، «اغتيال ثلاثة من العرب» بدلاً من «الشرطة الإسرائيلية أو المستوطنين يقتلون ثلاثة من العرب». ذاك أن جملة من دون

(٤٤) مقابلة شخصية مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٨.

(٤٥) ياسر نحلاوي، مداخلة على شاشة قناة أبو ظبي، بتاريخ ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤.

(٤٦) نبيل دجاني، في حوارات الفيلم الوثائقي «حروب سلمية» إعداد وإخراج ربى عطية.

فعل وفاعل هي جملة رخوة حتى ولو كانا مضمرين، «الجدار الذي يفصل إسرائيل عن الضفة» في حين أن الجدار قد بني على أراض يقع ٤٥ في المئة منها في الضفة الغربية، «دخول» بدلاً من «اجتياح يدمّر الأحياء والبيوت ويقتل المدنيين»، «أهداف» بدلاً من القول إن الصواريخ قد قتلت نساءً وأطفالاً، عدم ذكر الأسماء في عملية نزع الأنسنة عن الضحايا. حماس وفتح بدلاً من منظمات المقاومة، «إسرائيل تخفف ظروف الحياة للفلسطينيين» بدلاً من «تخفف من تدابير منع التجول والاحتلال»، «إسرائيل ترد على العنف» بدلاً من «تهاجم أو تعتدي»، الحديث عن إسرائيل وفلسطين كطرفين متساويين بالقوة بدلاً من الحديث عن عدو قوي يعتدي وشعب يدافع عن نفسه بالحد الأدنى من وسائل القوة، «نقل المستوطنات» بدلاً من «تفكيكها» وتنتهي المقالة إلى خلاصة تقول: «خلال ١٣ عاماً تمكّن الخطاب من تفكيك الحقوق»(٤٧).

في أكثر من مرة أثار مشاركون على الهواء موضوع الخطاب وموضوع الاستضافات على شاشة القناة ذاتها، وبخاصة برنامج الاتجاه المعاكس، حيث كان المذيع فيصل القاسم يلتف على الموضوع بعبارة «أشكرك» وينتقل إلى آخر. من مثل سؤال وجهه له نبيل البرادعي حول استضافة «إيغال كارمون المدير السابق للموساد، والذي يدير مركز دراسات لليمين الإسرائيلي العنصري في إسرائيل، وشاؤول مينشي الذي قاد حملة عدائية ضد للعرب على إذاعة إسرائيل»(٤٨) أما سليم عزّوز فيتجاوز، في مداخلة أخرى السؤال إلى الهجوم «في إطار مشروع بين وزير الخارجية القطري وديفيد كمحي، تقوم الجزيرة بتتفيه حرب أكتوبر، تدمير الرموز، وزرع البلبلة بين الدول العربية»(٤٩).

يحلل الباحث جون ألتيرمان، الموضوع بمقاربة أخرى: «لقد كان لأقلمة الإعلام تأثير كبير على الرأي العام العربي في ما يخص الصراع العربي -

(٤٧) بثينة شعبان، «مصطلحات الخطاب الإعلامي ودورها في القضايا العربية الحالية،» <http://www.bouthainashaaban.com/SYRI%20ABB.%20AND%20ARAB%20RIGHTS.htm>.

(٤٨) نبيل البرادعي، في برنامج «الاتجاه المعاكس»، عنوان الحلقة «تساؤلات حول قناة الجزيرة».

(٤٩) سليم عزوز، في برنامج «الاتجاه المعاكس»، عنوان الحلقة «تساؤلات حول قناة الجزيرة».

الإسرائيلي... لهذا التطور وجهان؛ أحدهما إيجابي والآخر سلبي. يتمثل الإيجابي بأن وسائل الإعلام باتت تقدم للعرب تجربة السياسيين وصانعي القرار الإسرائيليين، إدخال وجهة النظر الإسرائيلية وتقديمها كفاعل مهم وأساسي في المنطقة. أما السلبي فهو أنّ وسائل الإعلام وبخاصة الفضائيات تقدم صورة سلبية لإسرائيل في المنطقة»(٥٠). ويعترف ألتيرمان، أن نقاشاته مع الصحافيين تصل إلى النتيجة نفسها؛ لا شك في أن للإعلام الفضائي تأثير كبير على الرأي العام العربي، ولكن «ليس هناك الكثير من الأخبار الايجابية التي تأتي من الجبهة العربية الإسرائيلية كي تبثّها المحطات، لذلك فإنه لا يمكن للتأثير إلا أن يكون مضاداً لإسرائيل»(٥١). غير أن نبيل الناصري، يجد أن تفسير التناقض بين الخطاب الإعلامي وبعض السلوكيات السياسية يكمن في ثنائية التناقض بين البراغماتية و«القلب»، ويطبّق ذلك على العلاقة بين قطر والولايات المتحدة: «عندما تكون قطر مقراً لـ القيادة المركزية الأمريكية (United States Central Command (Centcom))، في القاعدتين الأمريكيتين الكبيرتين، «العديد» و«السيلية» اللتين اكتمل إنشاؤهما عام ٢٠٠٠؛ فكيف يمكن تفسير أن تكون قطر قاعدة انطلاق عسكرية للولايات المتحدة وحروبها في العالم العربي والإسلامي، وأن تكون مقراً للقناة الفضائية الإخبارية المعادية لأمريكا؟»(٥٢) الجواب يكمن بحسب الباحث نفسه في الحاجة إلى: «الحماية في غياب عناصر السيادة، فالضمانة الأمريكية هي خيار براغماتي أكثر منها خيار قناعة وقلب»(٥٣). هنا يطرح السؤال، إذا كانت الأنظمة تقبل بهذه الشيزوفرانيا تحت ذريعة الحماية، فمن الذي يحمي المواطن وحقوقه؟ وفي غياب الثقة بدولة ذات سيادة، كيف يمكنه أن يتبنى هوية «المواطنة» بدلاً من هويات أخرى مضادة للمواطنة، دينية، مذهبية أو إثنية يتخيل أنها تحميه وتؤمن مصالحه؟ وهل يمكن هذه التكتلات التجزيئية ألا تبحث بدورها عن الحماية خارج السيادة الوطنية وخارج الدولة؟ ليجدها البعض في علاقات مميزة مع دول أجنبية تحت غطاء علاقات تاريخية، فيما يجدها البعض الآخر

(٥٠) Jon B. Alterman, «Transnational Media and Social Change in the Arab World,» *TBS Archives*, no. 2 (Spring 1999).

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) Ennassiri, «Géopolitique du Qatar, la construction d'une image flatteuse».

(٥٣) المصدر نفسه.

في عولمة أمريكية أو عولمة استهلاكية؟ وهكذا يجد القوميون، العلمانيون، السياديون، أنفسهم في عزلة تشتد أكثر فأكثر.

تتفاقم هذه الأسئلة كما تتسع وتترسخ المسافة بين القلب والبراغماتية مع حرب احتلال العراق، ونلمس تجلياتها على شاشتي الجزيرة وأبو ظبي. لقد شكلت هذه الحرب الضربة التاريخية الكبرى للتيار القومي ولمفهوم السيادة في العالم العربي، وبخاصة في المشرق حيث لم تؤدِ نهاية حكم الحزب الواحد إلى دولة تعددية ديمقراطية فحسب، بل إلى احتلال وضع يده على كل المنطقة، وبخاصة على دول الخليج، بعد أن دمر كل منجزات وإمكانات النهضة والتنمية. لقد جاء انهيار الدولة العربية الأقوى، التي انتصرت على القوة الموازية في المنطقة، إيران، والتي أعطت دعاية الحرب الغربية حجماً غير واقعي لقوتها العسكرية، مضافاً إلى تفجّر المجتمع العراقي بين الإثنيات والمذاهب، ليدمّر مفهوم الدولة ومفهوم السيادة وبالتالي مفهوم المواطنة.

ثالثاً: الخطاب المتعلق باحتلال العراق يعمق فقدان الثقة بالدولة، الانكفاء أو الهرب نحو الآخر

١ ـ بين التواطؤ، الواقعية السياسية والعجز، يشعر المشاهد بأنه مجرّد من كل سلاح

التعبير **الثالث**، عن الخطاب المتعلق بالسيادة هو ذلك الذي تناول احتلال العراق، ثم المقاومة التي اندلعت بعده؛ في فترة التحضير للحرب برزت ثلاثية التواطؤ أو العجز أو الالتزام، ودخلت قناة جديدة على الساحة. «سبقت دعاية الحرب بدء العمليات العسكرية: فكنا نرى على العربية التدريبات العسكرية الأمريكية والإسرائيلية، المدرعات، أسلحة مخيفة، برامج عن القنابل الذكية، عن فعاليتها، الطائرات القاذفة إف ـ ١٦ وإف ـ ١٨ وطائرات الفانتوم. هكذا يفقد المشاهد معنوياته، بخاصة وهو يعرف أن المعسكر الآخر لا يملك هذه الأسلحة»[٥٤] من جهته يربط ألان غريش، هذا الخطاب بالسياسة السعودية: «الدليل على التوافق بين السعودية والولايات المتحدة هو المساعدة الصامتة والفعّالة التي قدمتها الرياض لواشنطن خلال

(٥٤) رفيق نصر الله في حوارات الفيلم الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

الحرب على العراق. وعلى الرغم من التكذيب الرسمي، فإن عدد الجنود الأمريكيين على الأراضي السعودية قد ارتفع خلال الأسابيع التي سبقت الهجوم العسكري، إلى حوالى عشرة آلاف... حيث كانت قاعدة الأمير سلطان مركز قيادة لكل العمليات الجوية»[٥٥]. ويستشهد غريش في ذلك بما قاله له دبلوماسي أمريكي: «لم يكن بإمكاننا أبداً أن نشن الحرب على العراق كما فعلنا بدون مساعدة العربية السعودية»[٥٦].

أما أبو ظبي والجزيرة، فقد تبنتا نبرة دفاعية مؤيدة للعراق. مثلاً النشرة الإخبارية الرئيسة «حصاد اليوم»، عشية ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢[٥٧]، تبدأ النشرة بعنوان: «بوش لا يعرف ما إذا كان العراق يمتلك السلاح النووي رغم تقرير كراوفورد». ثم تتوزع النشرة سلسلة من الشهادات: كوفي عنان، ناجي صبري، طارق عزيز، ثم مقابلة طويلة مع جوزيف سيرينسيوني، الخبير في مؤسسة كارنيغي. عنان، يبدو متجهِّم الوجه ويؤكد عدم وجود أسباب لضرب العراق، وبخاصة أن سلطاته تتعاون مع المفتشين الدوليين. ناجي صبري، يتحدث عن الغارات الجوية على البلاد. طارق عزيز، يؤكد أن المشكلة هي مع من يدعون إلى الحرب، معبّراً عن أسفه: «لو أن القضية كانت في يد الرجال الأشراف!» ويقول إن بغداد وواشنطن تتبنّيان مفهومين وعنوانين: الحرب والسلام. بعدها تورد النشرة خبراً مفاده أن هانز بليكس ومحمد البرادعي، يدرسان تلبية دعوة بغداد في شهر كانون الثاني/ يناير. وأخيراً يشير جوزيف سيرينسيوني إلى التناقض بين نبرة بوش وهو يعلن: «نحن لا نعلم»، وبين الواقع المتجسِّد في نشر وحدة ثالثة من الجيش الأمريكي في الخليج العربي. المذيع يعود إلى السؤال: هل هناك تغيير حقيقي في الموقف؟ وسيرينسيوني يؤكد من جديد: «أنا أُصرّ وأكرر: أنا أشك في جدّيته. العالم كله يعيش القلق في انتظار الحرب». المذيع: «ليس قبل كانون الثاني؟». ويعود إلى رسالة كوفي عنان في الأمم المتحدة، إلى النقاش داخل مجلس الأمن، إلى القرار الدبلوماسي بشأن كوريا الشمالية.

(٥٥) Alain Gresh, «Les Grands écarts de l'Arabie saoudite,» *Le Monde diplomatique* (juillet 2003).

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) برنامج «حصاد اليوم»، الجزيرة، ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢.

ملامح المذيع جمال الريّان، صيغة أسئلته وطريقة طرحها تحمل كما ملامح ضيوفه وخطابهم معاني اليأس ويبدو كأنها تقول المسألة مسألة وقت. وبخاصة أن الخبر التالي يعلن قصف ثلاث مقاطعات عراقية، انطلاقاً من الكويت، وتظهر على الشاشة الخريطة التي تحدد نقطة الانطلاق وخط سير الهجوم. غير أن المشاهد كان يعرف أن قيادة العمليات العسكرية، في حال اندلاع الحرب ستكون انطلاقاً من القواعد الأمريكية في قطر. وهو يحس بحتمية الحرب بالعجز والتواطؤ وبغياب الحد الأدنى من السيادة أو من توازن القوى. يشعر بالشلل.

وفيما يبدو تخفيفاً لوقع هذه القدريّة تنتقل القناة إلى خبر: روسيا تنتقد تدابير تشديد الحصار ومنع وصول البضائع. إيروبيك تمارس التفتيش بواسطة الطائرات، الناطق الرسمي العراقي يتساءل عن هذا الانتهاك. والمراسل ماجد عبد الهادي يقدم تقريراً مصوراً عن أنشطة فريق المفتشين في بن يونس، المنصور، المأمون، مركز الدراسات الطبية، مركز الأبحاث ابن سينا، ومركز الأبحاث والتطوير النفطي. مواقع كلها مدنية والصور مذلة إلى الحد الذي يجعل المراسل يخلص مبرراً: «إنها استراتيجية ضد: «ادعاءات واشنطن وليست الخضوع المحبط لإملاءاتها»[٥٨].

تندلع الحرب؛ في ٣٠ آذار/ مارس ٢٠٠٣، يبدأ الأمريكيون هجومهم على العراق، عشرات ملايين العرب يتعلقون بشاشات الفضائيات، إنها الخط الوحيد الذي يصلهم بالحرب التي ستقرر مصيرهم. باحثتان أردنيتان، سلام محادين وربى عطية تسجلان يومياً ملاحظاتهما عن أداء المحطات الفضائية تصوغانها في رسالة تجمعان عليها التواقيع وترسلانها إلى المسؤولين في الجزيرة، العربية وأبو ظبي. وفي ما يلي ملخصها:

كانت المحطات الفضائية تشكّل أمل العرب في نقل حقيقة ما يحصل في العراق وتمثيل الوعي الجمعي لهذا الهجوم الذي لا يستهدف فقط سيادة العراق، كرامته ووحدته، بل كل الأمة العربية. ومع تقديرنا للجهود التي تبذلها المحطات الفضائية الإخبارية والنجاحات المهنية التي تجاوزت

(٥٨) برنامج «حصاد اليوم»، الجزيرة، ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٣.

المحطات الغربية، خاصة في ما يتعلق بالصدقية والرؤية الشاملة، نحرص على تسجيل بعض الملاحظات حول إعادة إنتاج الاستراتيجيات الإعلامية الأمريكية الهادفة لتدمير معنويات الجمهور، وصولاً إلى تدمير احتمالات المقاومة بعد الاحتلال:

ـ المبالغة في صور حاملات الطائرات والسفن العسكرية الأمريكية في الخليج، كذلك المدرعات والأسلحة الثقيلة في الصحراء.

ـ التزام الصمت حول الرقابة الكاملة التي يفرضها الجيش الأمريكي في الكويت وقطر على الصحافيين ووسائل الإعلام.

ـ النقل الحرفي لتقارير القيادة الأمريكية، وتلخيص لخطب وتقارير المسؤولين العراقيين.

تعكس المصطلحات المستعملة موقفاً معيّناً من الحرب: «الحرب على العراق» على الجزيرة؛ «العدوان على العراق» على المنار والتلفزيون السوري؛ «الحرب في العراق» و«على خط النار» على العربية؛ «في رياح الحرب» على أبو ظبي.

ـ تتبنى العربية مصطلح «التحالف الدولي» بدلاً من قوات الاحتلال، ما يضفي مشروعية دولية على حرب غير مشروعة، حتى في نظر المؤسسات الدولية.

ـ استعمال تعابير مثل: «القوات المعادية»، «استسلام الجنود» بدلاً من أسر، وذلك على الرغم من اعتراض القياديين العراقيين. وكذلك وصف الجنود الذين يستشهدون بـ «القتلى».

انتبهت الجزيرة إلى البعد التوراتي في تسمية القنبلة الأكثر فعالية لدى الجيش الأمريكي بـ «مؤاب»، لكنها أشارت إلى ذلك من دون أن توضح ذلك البعد؛ فـ مؤاب هي المملكة التي انتصرت على مملكة يهودا في عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ودوّن مليكها قصة حربه وانتصاره على مسلّة موجودة حالياً في متحف اللوفر في باريس. لذا فإن الإشارة إلى الصفة التوراتية من دون هذا التوضيح، توحي للمشاهد أن للحرب طابعاً دينياً، «صليبية» كما قال جورج بوش. في حين أن توضيح معناها التاريخي يحيل إلى بعد سياسي، إسرائيلي ـ عربي في الحرب على العراق، ويؤشر إلى دور اللوبي الصهيوني وإلى روح

انتقام أقدم من الولايات المتحدة نفسها، كذلك إلى العقلية الأصولية للمحافظين الجدد.

ـ تصوير التظاهرات المؤيدة للعراق وكأنها أعمال ديماغوجية فوضوية. وإغفال الأصوات الأجنبية الكثيرة المعارضة للحرب من مثل مارغريت أتوورد حاملة جائزة بروكر.

ـ تقلل العربية من شأن المقاومة وتسميها «جيوب المقاومة، أو تقول «القوات الأمريكية تتقدم من دون مقاومة».

ـ في اليوم الخامس للحرب، تنقل مراسلة الجزيرة في البنتاغون خبراً عن صحيفة **جروساليم بوست** الإسرائيلية يقول: «عثرت القوات الأمريكية على مخزن للأسلحة الكيماوية في بغداد». وعلى الرغم من أن البنتاغون لم يؤكد ذلك، إلا أن العربية ظلت تكرر تأكيدها للخبر إلى أن كذبه الجنرال تومي فرانكس في اليوم الثاني.

ـ في اليوم السادس للحرب، بثت العربية مقابلات مع جنود أمريكيين يعبّرون عن معارضتهم المبدئية للحرب وعن أسفهم لأنهم اضطروا للقتل. ما يهدف إلى تدمير الحاجز النفسي بين جنود الاحتلال والمواطنين العراقيين.

يعلن وزير الدفاع البريطاني، أنّ القوات المعتدية ستستخدم القنابل العنقودية، فتغفل العربية الخبر، في حين لا تمرره الجزيرة إلا على الشريط المتحرك أسفل الشاشة. ومن ثم تغفل المحطتان كليّاً المجازر التي سبّبها استعمال هذه القنابل في بغداد والبصرة، على خلاف الصحافة المكتوبة.

على شاشة أبو ظبي يعلو العلم الأمريكي على العلم العراقي والمذيع يؤكد أن الأسلحة الأمريكية تستعصي على أي هجوم؛ في حين يقول مذيع آخر لرئيس منظمة «صحافيون بلا حدود»: «لا شكّ بأنك فخور وراض بكون القوات الأمريكية قد سمحت لأحد زملائكم بمرافقتها بحرّية؟» وحين يرد عليه المدير قائلاً: «على العكس من ذلك، الأمريكيون يعيقون عمل الصحافيين ويفرضون عليهم خمسين شرطاً»، يرد عليه المذيع قائلاً: «والعراقيون أيضاً يفرضون شروطاً صعبة، فكيف تستطيعون العمل؟» لكن مدير المنظمة يكرر: «الأمريكيون هم من يمنعونا من العمل».

وفي الختام تركز الباحثتان على «الفوضى، الاضطراب، غياب

الاستراتيجية لدى البعض واتباع الاستراتيجية الأمريكية لدى الآخر». كما تلاحظان «أن البحث عن الخبطات الإعلامية الآني السريع والسبق لم تترك كلها مجالاً للتحليل»[٥٩].

في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، شكلت صورة إسقاط تمثال صدام حسين المشهورة رمزاً لسقوط السيادة العراقية، وبالتالي العربية، بصرف النظر عن تأييد أو معارضة الرجل. إطار بقياس الشاشة، ساحة الياسمين نصف دائرة من الأعمدة الرخامية، وفي الوسط العمود الكبير الذي يحمل تمثال الرئيس. زاوية التصوير تجعل الفضاء فارغاً من كل شيء إلا هو، ثم تعود إلى الأسفل حيث دبابة الأمريكية وبضع عشرات من المدنيين إلى جانب جنود أمريكيين يصعد أحدهم لكي يغطي وجه الرئيس بالعلم الأمريكي قبل أن يلحق به الصبية ويربطوا التمثال ويجهدوا طوال نصف ساعة لإسقاطه. مراسل الجزيرة يغطي الحدث بصوت مخنوق: «هذه هي المرحلة الجديدة» هذه بغداد الجديدة، «الرئيس» هو ما يشغلهم وليس الاحتلال، هذا «التمثال»، «بوش أعلن أنه سعيد، ولا شك أن شارون سيشاركه هذه السعادة» إنها المرحلة الأمريكية ولا نعرف كم ستطول. يؤشر إلى المدرعات والجنود التي تطوّق مسجد الياسمين القريب ليختم قائلاً: «هذا ليس موقفي، على الشعب العراقي أن يقرر»[٦٠].

سواء كان المشاهد مؤيداً لـ صدام حسين أو معارضاً له، فلا بد له أن يشعر إزاء هذا المشهد بسقوط السيادة والخضوع للعلم الأمريكي الذي لم تكن تغطية وجه الرئيس به قبل إسقاطه إلا دلالة بالغة لا يمكن أحد أن ينجو من تأثيرها. وإذ يلجأ أشد أعداء الرئيس العراقي بأنه مسؤول إلى دفع العراق إلى هذا المصير، فإنما يعني ذلك أنهم يحاولون التخلص من مسؤولية هذا الإذلال؛ فالوقائع تتجاوز النقاش حول مشروعية الشخص، إلى رمزية السيادة وواقع الاحتلال غير القابل للنقاش.

من هنا، فإن قناة المنار، وبالرغم من موقفها من صدام حسين، فإنها لا

---

(٥٩) سلام محادين وربى عطيّة، رسالة مُوجّهة إلى مُدراء المحطّات الإخباريّة في ٨ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

(٦٠) تقرير مُراسل الجزيرة من بغداد، ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

تداور في خطابها: «الاحتلال هو الاحتلال، في لبنان كما في العراق، لقد كنا واضحين منذ الأيام الأولى»، يؤكد مدير القناة[٦١]؛ بينما ينتقد المذيع عمرو ناصف: «الفوضى في الخطاب والتصوير الخبيث للنظام العراقي كديكتاتورية لا وسيلة للتعامل معها إلا الاستنجاد بجيش الإنقاذ الأمريكي الذي سيقيم الجنة الديمقراطية»[٦٢].

٢ ـ المقاومة العراقية: مقاربة تؤجج الفئويات المذهبية والإثنية

الآن وقد حصل الاحتلال، جاء دور المقاومة، فكيف يقاربها خطاب الفضائيات الإخبارية؟

تبنّي أمريكا استراتيجية مزدوجة نحو المقاومة، التقليل من شأنها والخلط بينها وبين الإرهاب. حتى إن مصطلح «المقاومة» أو «المقاوم» يصبح محظوراً في الفضائيات، الجزيرة، تصفهم بـ المقاتلين، وتسوّق للإسلاميين منهم؛ أبو ظبي، تعبّر في الأشهر الأولى للاحتلال عن دعمها للمقاومة قبل أن تضطر للانصياع فتجد حلاً وسطاً، مصطلح «الجماعات المسلحة»[٦٣]؛ المنار، وحدها تصرّ على المقاومة، تحيّي أعمالها وتبرز المقاومة الشيعية بخاصة تيار مقتدى الصدر؛ أما العربية فتتفّهه، تشوّه وتُدخل الكل في دائرة الإرهاب. أربعة أمثلة تجسد هذه الخطاب:

يوم ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤، يجتمع جيران العراق في الكويت، عنوان النشرة الإخبارية في الجزيرة[٦٤]: «إنهم يرفضون الكونفدرالية». وتُبرز النشرة تميُّز هذا الاجتماع عن الثلاثة التي سبقتهُ بالمشاركة التركية ومشاركة الأمم المتحدة بشخص الرئيس عبد الله غول ومبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي، إنها أقلمة وتدويل للوضع في غياب السيادة العربية؛ فالتأكيد على وحدة العراق هي حاجة تركية يفرضها الأكراد وحاجة دولية يفرضها عدم المساس بخريطة المنطقة، وليست أبداً قراراً عراقياً أو عربياً؛ في النشرة ذاتها

(٦١) حوار شخصي مع مدير المنار في بيروت عام ٢٠٠٤.

(٦٢) عمرو ناصف، في حوارات الفيلم الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

(٦٣) مقابلة شخصية مع رئيس تحرير الأخبار في قناة أبو ظبي نارت بوران في أيار/ مايو ٢٠٠٥.

(٦٤) برنامج «حصاد اليوم»، الجزيرة ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤.

تنقل الجزيرة التظاهرات في العراق «الشعارات الغاضبة ضد الاحتلال»، «تظاهرات أمام سجن أبو غريب» وذلك «قبل ظهور فضيحة هذا السجن». من حينها أصبحت القناة تغطي أعمال المقاومة في العراق ولكن لتصفها باستمرار بالإسلامية، من هنا الاهتمام الخاص الذي كانت تبديه للإشكالي أبو مصعب الزرقاوي، للقاعدة، للطابع الإسلامي في معركة الفلوجة ولجبهة علماء المسلمين. أما دور البعثيين، الشيوعيين، القوميين العرب وغيرهم، فيغيب كلياً عن الأخبار والبرامج.

في آذار/ مارس ٢٠٠٤، تخصص نشرة الأخبار الرئيسة على تلفزيون أبو ظبي ١٢ دقيقة للعراق[٦٥] تتوزع كما يلي:

عشر دقائق حول نشاط المقاومة: تقرير عن عملية، عن شهادة عقيد أمريكي، وعن مواطنين عراقيين موجودين في المكان يروون التفاصيل. تقرير ثانٍ يظهر سهولة تمكّن المقاومين من الهرب باختفائهم بين جمهور الناس الذي يحميهم. تغطية نسف جسر يسبب انقطاع المواصلات بين مدينتين. قوات الاحتلال تقتحم سكن الطلاب في جامعة المستنصرية. اكتشاف مستودعات كبيرة للسلاح عند فدائيّي صدام؛ في الدقيقتين المتبقيّتين تورد النشرة الخبرين المتتاليين: «مجلس الحكم يختار غداً رئيساً، القوات الأمريكية تعطيه قائمة للمرشحين لكي يكونوا وزراء. صعوبة مد الجسور بين المحتل والشعب، الفراغ السياسي، الوضع الأمني الحساس، غياب دور فعال للشرطة». بعدها تكرس النشرة عشر دقائق لأخبار مختلفة، لتعود، في بث مباشر من العراق: «خاص بأبو ظبي وصل للتو» مواجهات في الرصافة: على الشاشة شوارع فارغة، جنود، مدرعات، سماء فارغة إلا من الهيلوكبتر العسكري، نار في كل مكان. بعد ذلك تختتم بتقرير حول زيارة الشريف علي ابن الحسين للإمام علي السيستاني، والبيان المشترك الذي يؤكد: «حق الشعب العراقي في اختيار المجلس الدستوري»[٦٦]. أما باقي النشرة، فتخصصها القناة لبحث الشأن الفلسطيني، الاستيطان والأسرى. في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤، تطرح حلقة البرنامج الحواري مواجهة موضوع مجلس

(٦٥) برنامج «المدار»، تلفزيون أبو ظبي آذار/ مارس ٢٠٠٤.

(٦٦) المصدر نفسه.

الحكم العراقي بنبرة اتهامية؛ يشارك في الحوار نبيل الموسوي ممثل المجلس الوطني العراقي الذي يرأسه أحمد الشلبي[٦٧] (هو تشكيل شيعي مرتبط بإيران وأمريكا في آن). يوجه إليه المذيع أسئلة حول التعاون مع الاحتلال، الطائفية، والفساد، وموضوع المقاومة. الموسوي يصرّ على التمييز بين العراقيين والأجانب، في ما يبدو أنه التزام بالسيادة الوطنية. غير أن الخلط يبدو واضحاً عندما يحدد من يقصد بالأجانب؛ العرب والمسلمون مضيفاً إليهم العراقيين البعثيين ومؤيدي النظام السابق، «نحن نعتبر كل هؤلاء إرهابيين»، لكنه لا يعتبر الإيرانيين والأمريكيين أجانب. وعندما يسأله المذيع عن قضية القواعد الأمريكية في العراق. يحيله الموسوي إلى وجودها في العربية السعودية، قطر والبحرين. وإذ يردّ المذيع بأنه يمكن السعوديين تفكيك هذه القواعد. يرد الموسوي أن العراق أيضاً يستطيع ذلك عندما ينتهي الاحتلال. وإذ يورد المذيع ما نشرته **نيويورك تايمز** والـ **واشنطن بوست** حول هيمنة بريمر على كل شيء وحول عقود إعادة الإعمار. يرد الموسوي قائلاً: «الأمريكيون هم الذين يُموّلون، إذاً فلهم الحق في أن يقرروا كيف وأين يبنون». وحين ينتقلان إلى مناقشة بنود الدستور الجديد يؤكد أن ثمة بنوداً وضعها العراقيون وأدى الفيتو الأمريكي إلى إلغائها. تتخلل البرنامج فواصل تمثل رقعة شطرنج تتنقل عليها التماثيل الصغيرة مترنحة.

يلاحظ في تغطية قناة أبو ظبي لأعمال المقاومة، الحرص على عدم إبراز التيار الصدري والشيعة إجمالاً وكذلك الأصوليين الإسلاميين.

أمّا بالنسبة إلى المنار، فإنه ليس أمام العراقيين إلا خيار واحد: (المقاومة) «يعرفون جيداً أنهم إذا استسلموا لن يضيع العراق وحده فحسب، بل فلسطين أيضاً: ذاك أن جميع الخبراء يتفقون أن العدوان على العراق يمثل أعلى مستوى من التعاون الاستراتيجي الأمريكي الصهيوني. وهذا ما يؤكده أيضاً الصهاينة عندما يدّعون أنهم المستفيد الأول والوحيد من هذه الحرب على العراق»[٦٨].

على شاشة القناة يتواصل خطاب المقاومة: برامج حوارية، أشرطة

(٦٧) برنامج «مواجهة»، ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤ (أرشيف قناة أبو ظبي).

(٦٨) نقلاً عن: قناة «المنار»، ٢٤ آذار/ مارس ٢٠٠٣.

فيديو، موسيقى، كليبات، تحمل كلّها رسالة المقاومة ضد المسؤولين الأمريكيين وحملتهم العسكرية، وكثيراً ما تتشابه الصور واللغة مع تلك التي اعتادت القناة أن تبثها ضد إسرائيل. إذ يعتبر المسؤولون أن «القوتين تحتلان أرضاً عربية وهما متضامنتان ومتحالفتان تحالفاً غير مشروط، لذا فمقاومتهما واحدة»

أحد أفلام الفيديو هذه يظهر ضحايا مدنيين عراقيين بينهم أطفال وفي المقابل قاذفات قنابل تقلع من على حاملات الطائرات الأمريكية وصواريخ عابرة تنفجر في بغداد، يتبع ذلك مقطع من خطاب وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد يقول فيه: «تتمتع الأسلحة التي نستعملها اليوم بدرجة من الدقة لم يحلم بها أحد» وينتهي الشريط بحرف «X» يرتسم بالأحمر فوق طفل جريح وشعار يقول «دقة فائقة حقاً»؛ في فيديو آخر تظهر مقاطع من خطاب لـ جورج بوش يعلن فيها «عندما نربح الحرب في العراق سيكون بمقدور كل الذين التحقوا بنا أن يقولوا للشعب العراقي «كنا فخورين للقتال لأجل الحرية»». يتبع ذلك صور مرعبة للموت والدمار وتنتهي الفقرة بعبارة «إنها الحرية على الطريقة الأمريكية»[٦٩]. في قناة العربية، ثمة توجيهات تحدد بدقة مصطلحات الخطاب الذي يتناول هذا الموضوع، توجيهات وُزّعَت على جميع الصحافيين والمذيعين: «انتحاري بدلاً من شهيد» ـ «إرهابي بدلاً من مقاتل أو مقاوم» ـ «قوات متعددة الجنسيات بدلاً من قوات الاحتلال». أما في الصورة واللغة: التقليل من عدد الضحايا واختيار نوعية الصور خاصة صور الضحايا المدنيين الذين يسقطون على يد القوات الأمريكية وتضخيم عدد هؤلاء وإبراز صورهم إذا كانوا قد سقطوا بفعل عمليات المقاومة التي تفرض التعليمات التزام الحد الأدنى من أخبارها. وقد أجرى الباحث المصري محمد المشيخي استطلاعاً بين العاملين في القناة حول مدى هذه التعليمات، جاءت نتيجته كالتالي: ٥٨ في المئة منهم يؤكدون أن القناة حددت لهم سياستها واشترطت الالتزام بها قبل تعيينهم، ٤٧ في المئة يؤكدون أن هناك خطوطاً حمراء وحدوداً للحرية، ٥٠ في المئة يؤكدون وجود لجنة رقابة على قائمة المرشحين للمشاركة في برامج القناة، أما عن وجود ما يسمى بـ القائمة

(٦٩) قناة «المنار» (آذار/ مارس ـ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣).

السوداء فينكر ٣٠ في المئة وجودها، فيما يؤكده ١٨ في المئة ويقول ٥٠ في المئة إنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك، علماً بأن ٥٠ في المئة يعترفون أن الرقابة تمارس من قبل من يُسمّى «مراقب الفترة» ويشغل هذا الموقع ثلاثة أشخاص، إضافة إلى مدير التحرير والمدير العام[٧٠]. من جهة ثانية يصف مدير العربية عبد الرحمن الراشد، محطته بأنها «رائدة في تغطية أعمال العنف في العراق»[٧١]، وإذ يُسأل عن مضمون هذه التغطية وعما إذا كانت تعمل - كما جاء في التقرير الأمريكي - على «إخفاء عدد الضحايا المدنيين الذين يسقطون على يد قوات الاحتلال وعلى إخفاء أو التقليل من شأن هجمات المقاومة العراقية بغاية رفع معنويات مؤيدي الاحتلال، وفي المقابل تضخيم عدد الضحايا المدنيين العراقيين الذين يسقطون على يد المقاومة بهدف إثارة الشعب ضد هذه الأخيرة وعلى تضخيم آثار الهجمات الأمريكية على المقاومة العراقية بهدف إضعاف معنويات الذين يؤيدونها»[٧٢]، يرد بجملة واحدة: «ما تسمّينه مقاومة هو بالنسبة لنا إرهاب»[٧٣]. هذا الخلط التحويري يشكّل أسلوباً شائعاً في البرامج وحتى الإعلانات من مثال الكليب الدعائي «لا للإرهاب» حيث نرى مجموعة من المدنيين العراقيين يتعرضون للعنف، ثم رجالاً عراقيين يأسرون إرهابياً على وشك قتل عراقي، يوثقونه ويشتمونه قائلين «مجرم، غريب جاي تقتل العراقيين»، وبعدها يتوجهون للمشاهدين العراقيين طالبين منهم «إعلام الأجهزة الأمنية بأقل حركة مشبوهة»[٧٤].

الجمهور المستهدف بهذه الكليبات هو أولاً الجمهور العراقي ثم العربي، ما يفسر بثها على شاشة كـ نيو تي في اللبنانية؛ فهي إذ تتوجه للعراقي تحاول إقناعه بخطر التنظيمات التي تُتّهم بأنها من الخارج، ومن دون أي تمييز بين مقاوم وبين مجرم عادي في صورة بشعة وجبانة. صورة المجرم

(٧٠) محمد عوض المشيخي، «العربيّة في خدمةِ أيّةِ سياسة؟،» **مجلة مركز بحوث الرأي العام** (جامعة القاهرة) (٢٠٠٠).

(٧١) حوار شخصي مع عبد الرحمن الراشد في دبي.

(٧٢) محمد مجاهد، «التقرير الأمريكي،» المجموعة الذكية (١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦)، <http://sabraeng.com/vb/showthread.php?t=4489>.

(٧٣) حوار شخصي مع عبد الرحمن الراشد في دبي.

(٧٤) كانت هذه الكليبات تبث على شاشة العربية وعلى شاشة القناة اللبنانية نيو تي.في. مع إشارة هذه الأخيرة «إعلان مدفوع».

الجبان هذا مدروسة تماماً كنقيض لصورة المقاوم الشجاع التي تجتذب المشاعر والدعم الشعبيين خاصة في السيكولوجية العربية والعراقية. كذلك فإن التخويف من الإرهاب مدروس جيداً لدفع المشاهد إلى إبلاغ الأجهزة الأمنية الأمريكية والعراقية بأية حركة مشبوهة، هذا وقد رُسمت ملامح الصورة واللغة والخطاب واللهجة، بحيث لا تترك مجالاً لتبين أية هوية للشخص المعني، وبذلك يمكن دفع المشاهد إلى التبليغ عن تحركات توصل إلى المقاومة حتى من دون أن يعلم، وتحت تأثير مزدوج: الخوف ورفض هذا الغريب الحقير الذي جاء يزرع الرعب ويقتل العراقيين.

أمّا بالنسبة إلى الجمهور العربي، فتُحدث هذه الكليبات تأثيرات ثلاثة: **الأول**، تأكيد الدعاية القائلة بعدم وجود مقاومة عراقية، وليس هناك إلا إرهابيون أجانب. أمّا **الثاني**، فهو مسؤولية هؤلاء المتهمين بالإرهاب عن كل أعمال العنف في العراق، ما يقلل من شأن عمل المقاومة الحقيقية ويستفز الفئات المعارضة للإسلاميين، كما إنه يبرئ أجهزة الحكومة والقوات الأمريكية من كل أعمال العنف التي يتعرض لها المواطنون «فلقد أوكلت مهمة تفيه وتشويه عمل المقاومة العراقية للعربية منذ إنشائها بحسب تقرير وزارة الخارجية الأمريكية»[٧٥]. وهذا ما يتفق عليه باحثون وصحافيون آخرون من مثل محمد المشيخي وسامنتا شابيرو[٧٦].

تم تصميم هذه الكليبات في القسم الإعلامي للقيادة الأمريكية الوسطى (US CENTCOM)، ونفذت في مراكز إنتاج أسست في العراق على يد رجال أعمال عراقيين كفروع لشركات إنتاج أمريكية، سعودية ولبنانية، كما إن بعض الكليبات قد نُفِّذ في ستوديوهات في دبي، منها ستوديوهات شركة الإنتاج التابعة لـ إم بي سي. ويشارك فيها عراقيون من صفوف المعارضة العراقية السابقة تم تدريبهم في (MET)، في الخارج وذلك في إطار التحضير لحرب الاحتلال. وذاك ما يفسر تنوع هذه الكليبات لأنها لم تنفذ على يد مجموعة

(٧٥) طارق شفيق حقّي، «تقرير عن قناة العربية وال «إم بي سي»،» (٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦)، <http://merbad.net/vb/showthread.php/2062>؛ محمد العزّي، «فضيحة قناة «العربية»،» (١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦)، <http://forums.naseej.com/showthread.php?t=87190>، ومجاهد، «التقرير الأمريكي».

(٧٦) المشيخي، «العربيّة في خدمةِ أيّةِ سياسة؟»، و Samantha M. Shapiro, «The War Inside the Arab News Room,» *New York Times*, 2/1/2005.

واحدة ولا من قبل قوة سياسية واحدة، أما التمويل فتوزّع بين الأمريكيين والصحوات وبعض الأحزاب العراقية[٧٧] والقوى الشيعية الموالية للحكومة.

في العام ٢٠٠٤ مثلاً، «شكّلت الانتقادات التي وجهتها العربية لعمليات المقاومة العراقية ٨٠ في المئة في مقابل ٢٠ في المئة وجهت إلى الهجمات الأمريكية»[٧٨]. ويلتقي ذلك مع المصلحة السعودية في الحرب على المعارضين الإسلاميين. كذلك يذكر أن توزيع البرامج التي تناولت الجريمة على شاشة العربية عام ٢٠٠٦ كان كما يلي: ٥ في المئة إسرائيل، ٨ في المئة أمريكيين، ٩ في المئة بقية العالم، ٧٨ في المئة الإسلاميين[٧٩]، علماً بأن المكونات الأخرى للمقاومة العراقية من بعثيين وشيوعيين وشيعة وأحزاب أخرى لم تكن تلقى تناولاً إعلامياً أفضل[٨٠]. في برنامج «السلطة الرابعة» الذي ينقل مقاطع من الصحافة المكتوبة تمارس القناة رقابة صارمة على الصحافة العربية، كما إن عبد الرحمن الراشد منع تناول صحيفتي **الغارديان** والـ **إندبندنت** البريطانيتين، بسبب معارضتهما للحرب والاحتلال في العراق[٨١].

في المقابل يقول المذيع عمرو ناصف، من قناة المنار «إن وصف جماعات المقاومة بجماعات إرهابية هو تجاوز لأية حدود مقبولة»[٨٢] أما المذيع غسان بن جدو مدير مكتب الجزيرة في بيروت، فيعترف «بأن هناك مقاومون وهناك جماعات إرهابية وأعمال عنف مدفوعة الأجر. ومن الخطير جداً أن نخلط بينها وأن نعطي الجميع فرصة الظهور على الشاشات كمقاومين، سواء لنؤيدهم أو لندينهم»[٨٣] ويحلل رفيق نصر الله المستشار السياسي لرئيس الجمهورية اللبنانية ذلك بقوله: «ليست غالبية القوى المعارضة المحيطة بإسرائيل من السلفيين، ولذلك فإن تصوير المقاومين

---

(٧٧) يعود أحد مراكز الإنتاج هذه لابن مجيد حميد، أحد قادة الحزب الشيوعي العراقي - الجناح المؤيد للاحتلال والممثل بمجلس الحكم.

(٧٨) Hamoudi Studio, <http://www.hamoudistudio.com/upload.bye%20bye%20alarabiya.doc>.

(٧٩) المصدر نفسه.

(٨٠) هذا ما تغير بعد عام ٢٠٠٥، ذاك أن العربية السعودية حاولت بعدها أن تتحالف سرّياً مع المكونات السنية بما فيها البعثيين ضد الشيعة المرتبطين بإيران.

(٨١) Shapiro, «The War Inside the Arab News Room».

(٨٢) عمرو ناصف في حوارات الفيلم الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

(٨٣) غسان بن جدو، في الفيلم الوثائقي «حروب سلمية».

العراقيين على أنهم سلفيون أصوليون يهدف إلى جعل الجمهور يرفضهم، وبالتالي يرفض المقاومة بحد ذاتها. إنّ خلط الشر بالخير يؤدي إلى رفض الاثنين. تطبق الجزيرة والعربية هذه الاستراتيجية ذاتها وللهدف ذاته»[٨٤].

في كل الأحوال تشهد تغطية فعاليات المقاومة صعوداً وهبوطاً حتى على القناة نفسها ويظل الإسلاميون هم الأكثر حظاً لأنّ أحداً لا يُريد الإشارة إلى الأحزاب العلمانية من بعثيين وشيوعيين وقوميين عرب وناصريين. . . الخ. لذا يلجأ هؤلاء المستبعَدون إلى الميديا الجديدة خاصة الإنترنت، ذاك أن وسائل الميديا الجديدة ليست حكراً على أي طرف مهيمن، وهي تتمتع بميزتين:

الأولى، هي الحرية التي تؤمنها بعيداً عن المأسسة والتمويل اللذين يفرضان قوانينهما، وبعيداً عن رقابة كل أنواع السلطات.

والثانية، هي الشبكة الواسعة العابرة للحدود والتي هي في طريقها إلى تشكيل شبكات قضايا تتحول إلى حرب أفكار، وجهات نظر، مواقف وأنشطة. ما يقدم للمناضلين وللنشطاء من كل الاتجاهات وأيّاً تكن مجالات نشاطهم، امتداداً وحماية تنجم عن أنه لم يعد من الممكن التعتيم على كل شيء، كما تقدم فرصة للتناول الفردي لكل المواضيع ما ظهر أثره في ما بعد في الانتفاضات الشعبية، وبخاصة التونسية والمصرية. حيث لم يعد الشباب أرقاماً في جماهير تصفّق للزعيم، بل أفراداً يمارسون خياراتهم. تفاؤل لم يلبث أن اصطدم بالواقع الذي برهن أن الأمور أكثر تعقيداً لأسباب سوسيولوجية بالدرجة الأولى، سياسية بالثانية، وعلمية تتعلق بالجدل حول دور تغيير الوسيلة الوسيطة (Medium) في تغيير العلاقات والعقليات، ولسبب أخير وجيه هو أن التحوير والتلاعب بالمعلومات والأخبار والصور أصبح أسهل، إضافة إلى كونه يتمتع بلا مسؤولية (المصدر المجهول). من جهة ثانية، يصطدم هذا التفاؤل بالحدود القاسية التي يفرضها غياب أو نقص السيادة والعدالة، كذلك بالحدود التي يتيحها منطق صراع الحضارات ومثله منطق صراع الإثنيات والمذاهب داخل المجتمع نفسه الذي بات يشكّل أكثر فأكثر اقتراحاً يوجِّه المشاهد نحو مفهوم معيّن للذات وللهوية.

---

(٨٤) رفيق نصر الله، في الفيلم الوثائقي «حروب سلمية».

مفهوم لا بد قبل الانتقال إلى معالجته، في المضمون أيضاً، أن نلتفت إلى دور الشكل التلفزيوني في ترسيخه، بدءاً من الفورمات المستوردة والمتشابهة، أي شكل المذيعين الموحد تقريباً إلى شكل وديكور الشاشة والأستوديو (الكرومو) والتصميم (الغرافيك)، إلى تشابه بل وتكرار لإعلانات الواحدة، مضافة إلى إيقاع سريع واحد، ما يجعل التمييز بين قناة وأخرى، شاشة وأخرى، عربية أو أجنبية أمراً صعباً، فيما يلتقي مع خاصية العولمة في إلغاء الخصوصيات الثقافية. حيث يمهد التعود على هذا الإلغاء تمهيداً نفسيا للقبول بإلغاء السيادة. وهو إذ ينطبق أيضاً على البرامج الدينية أو القريبة منها، فإنه يؤسس أيضاً، بصرياً ونفسياً للعولمة الإسلامية.

الفصل الثاني عشر

صراع ثلاثي: حضارات، إثنيّات ومذاهب، الفرد والمجتمع والدولة هم الضحايا

تمهيد

في رؤية معيَّنة لسيكولوجية الجماهير وتشكل الفرد، كشرط للديمقراطية الغربية، يكتب سيرج موسكوفيتش، في كتاب **عصر الجماهير**: «منذ ظهور الجنس البشري وحتى عصر النهضة كان أفق الإنسان هو الـ «نحن»»[1]. مضيفاً أنّ منظور الـ «أنا» التي تتمتع بحقوقها وحرياتها «جاء ثمرة لثلاثة عوامل: الرحلات الكبرى، التجارة والعلوم»[2]. في المقابل يعتبر أن «الجماهير» تشكّل التفافاً على هذا المُنجَز.

على الرغم من أن النظريات المتعلقة بسيكولوجية الجماهير قد ولدت من العمل الفكري على تطور المجتمعات الغربية، وعلى المفهوم الفردي الذي يقع في أساس تشكّل الطبقات والبنى الموازية، على «الديمقراطية الليبرالية والمسار الذي سلكته الثورات التي كانت شاهداً عليها»[3]، فإن تحليل هذه النظريات يمكن أن يخدم منهجاً مقارناً في ما يخص المجتمعات العربية مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات التي تميز كلاً من المساقين. لم تأتِ التطورات الأوروبية إلا نتيجة الثورات الصناعية، الآلة والبخار، قبل

(١) Serge Moscovici, *L'ôge des foules: Un Traité historique de psychologie des masses*, l'espace du politique (Paris: Fayard, 1981), p. 25.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣) المصدر نفسه.

العبور إلى عصر الثورة التقنية؛ في حين أن المجتمعات العربية تنقسم إلى نمطين في ما يخص هذا التطور: المجتمعات التي حاولت العبور إلى العصر الصناعي وفشلت تحت ضغط الغرب من جهة، وعوامل داخلية من جهة أخرى. يقول جان بيير شوفينمان: «**مرتّان حاول العرب أن يعبروا إلى العصر الصناعي، مرة مع محمد علي، ومرة مع صدام حسين، وفي المرتين كان الغرب يتصدى لكسر المحاولة**»(٤) وتلك التي قفزت من العصر القبلي إلى العصر التكنولوجي مباشرة بفعل اكتشاف النفط. وفي الحالتين تأثر تشكّل الفرد والمجتمع بالنتائج.

غير أن الاندماج الاجتماعي لا يتحدد بالعامل الاقتصادي وحده، كما تعتقد المدرسة الأمريكية (مارتن ليبست وجوزيف إلدر). إذ إن النمو يمكن أن يكون عاملاً جوهرياً في الاندماج الاجتماعي إذا اقترن بالعدالة الاجتماعية، بالحريات العامة وبالسيادة الوطنية. لأن تبلور الفرد ـ المواطن، المجتمع ـ الأمة والأمة ـ الدولة، أو على العكس طغيان الهويات الفرعيّة التجزيئية يرتبط كله بالثقافة، بالتاريخ والجغرافيا، بطبيعة الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة، التي تشكّل كلّها السياق الذي تحصل ضمنه عملية التفاعل.

في العالم العربي، وبخاصة في المشرق، نجدنا أمام تاريخ ألفيّ على خارطة جغرافية تشكّل نقطة عبور أو ملتقى للعالم، مما أنتج تعدّداً نادراً في الإثنيات والأصول؛ في هذه البقعة أيضاً ظهرت الديانات السماوية الثلاث، بعد تاريخ ميثولوجي عميق وبالغ التنوع، ما جعل منها فسيفساء من الأديان والمذاهب والأعراق والإثنيات. تعددية من شأنها أن تشكّل مصدر غنى وانفتاح في إطار الدولة ـ الأمة القائمة على مبدأ المواطنة. في المقابل، من شأن هذا التعدد، أن يؤدي إلى تشكّل مُتّحدات طائفية مذهبية إثنية، يشكّل تناحرها مصدر صراعات وتدمير ذاتي في غياب المشروع القومي المُوحّد.

هذا المشروع التوحيديّ طُرح مرّات منذ نهاية المرحلة العثمانية والرّواد

(٤) Jean-Pierre Chevènement, *Une certaine idée de la République m'amène à...* (Paris: Albin Michel, 1992).
انظر أيضاً الترجمة العربية للكتاب: جان بيير شوفنمان، **أنا وحرب الخليج**، ترجمة حياة الحويك وبديع عطية (عمّان: دار الكرمل للنشر، ١٩٩٢).

الكبار الذين كانوا ينتمون إلى جميع الأديان والأعراق. في تلك المرحلة، بدا وكأن الغرب يدعم هذه التطلعات القومية في إطار التحالفات التي كان يحتاجها ضد الإمبراطورية العثمانية حليفة هتلر، إلا أنه ما لبث أن أظهر عداءه لكل أنواع التوجّهات القومية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، ذاك أن الاتفاقيات والوعود التي كانت معقودة سراً حول اقتسام الخارطة الموروثة وإعطاء جزء منها للحركة الصهيونية، تفترض خنق أي مشروع قومي موحِّد.

بعد الحرب العالمية الثانية، ومع الحرب الباردة التي تلتها، انقسم العالم العربي، كما العالم كله إلى معسكرين، الأنظمة الموالية للغرب، والتي وُصفت بـ المعتدلة، في مقابل اليسار والقوميين على اختلافات اتجاهاتهم والمتحالفين غالباً مع الاتحاد السوفياتي. وبما أن التيارين الأخيرين كانا الأقوى في صفوف الشعب، فإن مواجهتهما قادت أكثر الأنظمة إلى مسايرة التيار الإسلامي إن لم يكن دعمه لإضعاف الآخرين، كما حصل في الأردن على سبيل المثال. يناقش الكاتب رينيه نبعة، هذه العلاقة التاريخية بين الغرب والإسلاميين في كتاب صدر بالفرنسية عام ٢٠٠٦، حمل عنوان **جذور المأساة العربية**، طارحاً السؤال حول العلاقة المريبة بين الإسلام السياسي والولايات المتحدة الأمريكية بغطاء سعودي. لم يكن الطالبان، يقول نبعة، إلا «المجاهدين» الذين شكّلهم ودربهم الأمريكيون وموّلتهم السعودية، ولم تكن القاعدة إلا ابنتهم. كذلك يطرح الباحث التساؤل بخصوص أوروبا: «كان أيمن الظواهري، الرجل الثاني في القاعدة، لاجئاً في سويسرا، وكان يتنقل عبر العالم بجواز سفر سعودي علماً بأنه مصري الجنسية!»(٥).

غير أن ثمة إشكالية أخرى تتناول مفهوم الوحدة الوطنية نفسه: هل هي وحدة الأمة العربية؟ أم وحدة كل من الوحدات الجغرافية التاريخية الأربع التي تُشكِّل العالم العربي؟ أم الوحدة داخل كل دولة أنشئت مع نهاية الاستعمار والانتداب الأوروبي الفرنسي الإنكليزي؟ ما نجد تجلّياته في مصطلحات الخطاب السياسي: «دولة الأمة»، «الأمة العربية»، «الأمة السورية»، «القُطر»، «الدولة القُطرية»، «الكيان». وفي كل من هذه توجد

(٥) René Naba, *Aux origines de la tragédie arabe*, orient et vous (Paris: Ed. Bachari, 2006).
ورد في: أمين شوقي، **القدس العربي**، ١٨/١١/٢٠٠٦.

التعددية بأشكالها. ويبقى مفهوم الـ «نحن» متأرجحاً بين كل هذه المصطلحات والتعدديات القائمة في داخل كل منها.

من هنا تنطبق نظرية موسكوفيتش حول «أفق النحن» على التاريخ والواقع المعاصر، إذ إن المشكلة ليست في وجود الهويات الفرعية والاعتراف بها وبحقوقها الثقافية، وإنّما في ترتيب هذه الهويّات وراء وضمن الهويّة الوطنية الواحدة، ولذا نرى هذه الهويات الفرعية تتقدم وتتراجع، تختفي وتظهر، متحوّلة من جُزئية إلى تجزيئية، وبالعكس، بحسب التطورات السياسية.

ويقع في مقدمة أسباب ذلك، عدم تبلور الـ «أنا» الفردية، بمعنى الفرد الذي يمارس بخيار واعٍ العبور من الـ «نحن» الفرعية التجزيئية إلى الـ «نحن» الاجتماعية ـ الوطنية حَاصراً انتماءه وهويته بهذه الأخيرة أو على الأقل معطياً إياها الأولوية في تحديد هذا الانتماء. الفرد الذي يمارس خياراته السياسية، الاقتصادية والاجتماعية بحسب معيارين: مصلحته كمواطن ومصلحة المجتمع كدولة، وذاك ما لا يمكن أن يتحقق إلا برؤية شاملة للحياة يتم تبنّيها وفق محاكمة عقلانية نقدية ومقارنة للأفكار «بعد تفحّصها ووزنِها وتحليلها» في إطار صراع فكري عامّ وحرّ يؤدي إلى نشوء تيارات ومن ثم أحزاب سياسية عابرة للإثنيات وللطوائف. من دون ذلك «يظل الفرد خاضعاً لحكم السلطة والعدد»[6] داخل الحظيرة الفئوية التي يديرها زعيم إقطاعي أو ديني، وكثيراً ما يختلط الاثنان. أما المصالح الوطنية، فتُدفع إلى الصف الخلفيّ. وإذا كانت طبيعة الثقافة الشرقية، ومنها العربية، موسومة بالإيمان الديني العميق، حتى لدى من لا يمارس الطقوس الدينية، ما يجعل الدين عنصراً أساسياً في الهوية والثقافة، «في الغرب يمكنك أن تسأل شخصاً «ما رأيك بوجود الله؟» في حين أن السؤال الطبيعي في العالم العربي هو «ما هي ديانتك؟»»[7] فإنه يمكن هذه الخصوصية الثقافية أن تشكّل عامل تضامن وقوة في حال الوحدة الوطنية ومصدر تجزئة لاعقلانية في حال ضعف هذه الوحدة وضعف الدولة الحاضنة، وبخاصة في الأزمات.

(٦) Moscovici, *L'ôge des foules: Un Traité historique de psychologie des masses*, p. 25.

(٧) Jon B. Alterman, «The Effects of Satellite Television on Arab Domestic Politics,» *TBS Journal*, no. 9 (Fall-Winter 2002), <http://www.tbsjournal.com/Archives/Fall02/Alterman.html>.

تتجلى كل هذه الحالات عبر قنوات اجتماعية مختلفة، منها وسائل الإعلام، في عملية تفاعلية تبادلية: «نحن مرآة تعكس الواقع، والذين لا يحبون صورتهم فيها يهاجموننا»[8]، يقول مدير الجزيرة. غير أن الأمر ليس بهذا التبسيط، لأن «كل عملية اتصالية هي تفاعلية وتعاقدية، تفاعلية، لأن التفاعل الاجتماعي يتشكل عند نقطة التقاطع بين الإنتاج ـ الإرسال، والتلقي ـ التأويل. وتعاقدي، لأنه لا بد من تفاهم بين الطرفين (حتى ولو كان ضمنياً وغير مقصود حول المعايير والأعراف التي تسمح بتفاهم متبادل)»[9]. قد تكون المعايير والأعراف معروفة لدى الطرفين، لكن «المشاهد لا يملك كل الدلائل والقدرات التي تجعله حاضراً ومتحكماً بفاعلية في مهمة تأويل الرسالة التي يتلقاها»[10]. من هنا، يقع الجزء الأكبر من المسؤولية على عاتق الميديا المرسلة، وبخاصة السمعية ـ البصرية، حيث يتم تصوّر وتصميم الخطاب وفق استراتيجيات مدروسة لتحقيق أهداف معيَّنة. استراتيجيات تهدف بوعي وقصدية في حال التلفزيونات الإخبارية شبه الرسمية والحزبية التي تشكّل موضوع هذا البحث إلى تشكيل الفرد، الجماعات والمجتمع وفق صيغة معيَّنة.

لذا، نسأل: إذا ما رسّخ هذا الخطاب مناخات ومفاهيم صراع الحضارات مع الخارج، وصراع المذاهب والإثنيات مع الداخل، فأيّ خيار يترك للفرد في أن يكون مواطناً ينتمي إلى مجتمع ووطن فحسب؟

أولاً: صراع الحضارات: عولمتان على حساب الفرد والمجتمع ـ الأمة

في الحوار الشهير الذي بثته الجزيرة عام ٢٠٠١، يطرح تيسير علّوني السؤال التالي على أسامة بن لادن: «ما هو رأيك حول ما يقال بخصوص صراع الحضارات؟ واستعمالك الثابت والمتكرر لمصطلح «الصليبية» يبرهن أنك تحترم هذا المصطلح، صراع الحضارات.».

(٨) حوار شخصي مع وضاح خنفر، في الدوحة، شباط/ فبراير ٢٠٠٧.

(٩) Patric Chareaudeau, dans: Ioan Dragan et Nicolas Pélissier, «Les Effets socio-culturels de l'information et des actualités télévisées,» dans: Didier Courbet et Marie-Pierre Fourquet, dirs., *La Télévision et ses inuences* ([Paris]: INA; Bruxelles: De Boeck, 2003), p. 104.

(١٠) Livet, dans: Courbet et Fourquet, dirs., Ibid., p. 104.

فيردّ بن لادن قائلاً: «أقول إنه ليس هناك أدنى شك حول هذا الموضوع، هذه قضية واضحة جداً، يؤكدها الكتاب والسنة، وكل مؤمن حقيقي يدّعي أنه مسلم لا يستطيع تكذيب هذه الحقائق، لا أهمية لما يقوله هذا أو ذاك نحو هذا الموضوع»[١١].

في كتابه (*Who are We?*)، الذي تناولناه في **القسم الثاني**، يعتبر صاموئيل هانتنغتون، أن تأجيج صراع الحضارات هو ضمانة للحفاظ على الهوية الأمريكية وعلى مصالح الولايات المتحدة حول العالم، الإسلام السياسي هو الوحيد القادر على الحلول محل الكتلة الشيوعية في دور التهديد الذي يشدّ اللحمة بين الأمريكيين.

في **مقدمة** كتابه **الإسلام المتسامح أو غير المتسامح** (*L'Islam tolérant ou intolérant*)، يكتب المفكّر الجزائري مصطفى الشريف[١٢]: «ثمّة أزمة غير مسبوقة تهدد العلاقة بين العالم الغربي والعالم الإسلامي. أزمة تندرج في سياق الأزمة العامة التي يعيشها عصرنا المظلم... الأصوليّون وأدعياء الحداثة هم بحاجة أحدهما للآخر، وجهان لعملة واحدة يلتقيان ويتشابهان حتى لو اختلفت وسائلهما»[١٣]. وعلى الرغم من أن الشريف يدرك بوضوح الأسباب الأساسية فإنه لا يستسلم للتشاؤم. ذاك أن هذه الأسباب مرتبطة برأيه «بإرهاب الأقوياء وبآثار العولمة واقتصاد السوق المتوحش وسيادة قانون الأقوى... نوع من الليبرالية الفاشيّة التي تجرد إرهاب الضعفاء من أية إنسانية... ولن يكون بمقدور هذا التطرف السياسي ـ الديني أن يغير مسار التاريخ... لحسن الحظ لا تزال هناك قوىً مبدعة، قوىً مسكونة بهَمّ العدالة والمعنى، تقاوم في الغرب وفي العالم العربي، ما قد يؤدي إلى المعرفة والتفاهم المتبادلين»[١٤].

ثلاث مقاربات وثلاث خُطَب تنطلق من أسس ثلاثة: الأيديولوجيا،

---

(١١) حوار تيسير علّوني مع أسامة بن لادن (أرشيف الجزيرة).

(١٢) فيلسوف وأستاذ الإسلاميات في الكوليج دو فرانس، وزير التعليم العالي سابقاً في الجزائر وممثلها السابق في الجامعة العربية.

(١٣) «La Crise entre l'islam et l'occident n'est pas une fatalite,» dans: Mustapha Chérif, *L'Islam, tolérant ou intolérant?*, préface de Jean-Luc Nancy (Paris: O. Jacob, impr. 2006).

(١٤) المصدر نفسه.

المصالح الميركانتيلية والعقل التحليلي الذي يتهم عولمة السوق، الظلم، ويدعو إلى العدالة والمعنى وتبادل المعرفة، لكنه يهمل تأثير الرؤية الرأسمالية التي تقوم على استراتيجية التوسع الرأسمالي، والتي تجمع بين النظام الاقتصادي الإسلامي والنظام الاقتصادي الليبرالي في التقاء بنيوي، على الرغم من اختلاف الأيديولوجيا، والتقاء في مفهوم الملكية وتوسيع الملكية[١٥]. أسس تضرب جذورها في ما هو أقدم من مرحلة التلفزيونات الفضائية. أما التعبير عنها في خطاب هذه الفضائيات، فما هو إلا تجلٍّ للتفاعل بين الميديا والمجتمع كما حللناه في **المقدمة**. من هنا نجدنا أمام ثلاث مراحل: مرحلة التطلعات السابقة للنظام العالمي الجديد؛ مرحلة ١١ أيلول/سبتمبر وما رافقها؛ مرحلة ما بعد احتلال العراق.

١ ـ ما قبل عام ١٩٨٩: نمو الحياة الحزبية

تبدو السنوات الممتدة من الخمسينيات حتى بداية الثمانينيات «عصر الأيديولوجيات»، التي شكّلت أساس الأحزاب السياسية التي تبنت رؤية واضحة للفرد وللمجتمع. و«عصر الجماهير»، التي تتجمّع في تيّارات سياسيّة تتجاوز إطار الحزب السياسي المنظم، والناصريّة أوضح مثال على ذلك. كانت العروبة ثابتاً غير قابل للمناقشة، حتى من قبل بعض التيارات الإسلامية التي تعارض الأحزاب القومية، وكذلك من قبل تيارات اليسار على اختلافها، وحتى من قبل الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي يتبنى صيغة مختلفة للعروبة تقوم على واقع أربع أمم عربية، على أساس أربع وحدات جغرافية وتاريخية: سوريا الطبيعية؛ وادي النيل؛ الجزيرة العربية؛ المغرب العربي؛ فالعوامل المشتركة تربط الجميع: اللغة العربية، التاريخ والقضايا، وعلى رأسها قضية فلسطين ثم قضية الوحدة ورفض التجزئة التي فرضها المستعمر. أما الإسلام، فهو بالنسبة إلى الأكثرية هوية ثابتة وانتماءٌ حضاريٌّ بالنسبة إلى القوميين بمن فيهم غير المسلمين. هوية حضارية لا تتناقض مع الحداثة وحتى العلمنة، في حين أن هذه الهوية تصبح أيديولوجية تتفاوت في انفتاحها أو أصوليتها لدى التيارات الإسلامية؛ في هذه الأجواء السياسية كان الفرد يعيش

---

(١٥) حسين مروة، **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية** (بيروت: دار الفارابي، ١٩٨١).

تطلعات توحيدية إلى العدالة الاجتماعية، وتحررية، وبخاصة من «الإمبريالية والاحتلال الإسرائيلي». وبهذا يشعر أنه مندمج في مسيرة جماعيّة كبرى ويشكل جزءاً من مواجهة كونيّة بين قطبين يتقاسمان العالم، وهو يمتلك الخيار من أحدهما. سيكولوجيّة الجماهير هذه حالت دون تشكّل تيّارات جماهيرية أصوليّة دينية، حيث إن ارتباط كل تيّار بأحد القطبين العالميين لم يترك مكاناً لمنطق صراع الحضارات. لكن هذه السيكولوجيّة قد حالت من جهة أخرى دون تشكّل الـ «أنا» العقلانية، وبذلك لم تنجح في صهر الهويّات الإثنيّة، الدينيّة، الطائفيّة، المذهبيّة والإقطاعية التي حاول الكثير من هذه الأحزاب والتيّارات أن يذيبها في بوتقة «نحن اجتماعيّة وطنيّة قوميّة» تشكّل هويّة عابرة للهويّات الثانوية. ربما لم تكن ٤٠ عاماً أو حتى نصف قرن كافية لترميم خراب قرون، ولذلك تحقق تطور ما، لكنّه لم يصبح شاملاً. كما إن ديكتاتورية حكم الحزب الواحد لدى القوميين وتبعيّة أحزاب اليسار للخارج قد أعاقتا نجاحهما في تشكيل الفرد ـ المواطن. في الجانب الآخر، لم تترك رجعية التيّارات الأخرى، وبخاصة الطائفية وتلك الموصوفة بالمعتدلة أي حظ لهذه الـ «أنا» بالتشكل، وبخاصة حيث تسود الأوليغارشية.

تحليل لا يقلل أبداً من شأن الثقافة الدينيّة والجمعيّة لدى العرب أيّاً تكن انتماءاتهم السياسيّة، ولا من شأن الحلم القوميّ الذي لم يكن من الممكن استبداله، كمحرك أساسي، إلا بحلم آخر يضاهيه في الجمعيّة والامتداد، إن هو إلا الإسلام السياسي. غير أن نقطة الاختلاف بينهما هي أن القومي مُوحِّد، في حين أن الإسلام السياسي يمكن أن يشكّل مصدراً إشكالياً تصادمياً إذا ما وقع في الأصولية، وأن يشكّل امتداداً أفقيّاً عابراً للحدود الوطنيّة والقوميّة، ما فوق الدولة. وبذلك يمنع تشكّل الفرد ـ المواطن والدولة ـ الأمة. وهو يتشدّد أكثر فأكثر بقدر إحساسه بتشدّد وتهديد الآخر، أو بتوافر الظروف المواتية له للاستفراد بالسلطة.

٢ ـ ١٩٩١ ـ ٢٠٠١: الآخر: يصبح التهديد، الفشل والقلق، مصادر لعدم الأمان

مع سقوط الكتلة الاشتراكية عام ١٩٨٩، وسيادة النظام العالمي الجديد الذي أدّى إلى حرب العراق عام ١٩٩١، وجد العالم العربي نفسه يخسر كل ما

كان يجمع تيّاراته: المشروع العربي يترنّح، العراق ينوء تحت ثقل العقوبات والحصار، فلسطين تقع في أغلال معاهدات مفروضة لا تستجيب لأي من التطلعات التي ناضل الناس لأجلها. إحساس الظلم يتعمّق بالتوازي مع الإحساس بغياب السيادة الوطنية سواء عن طريق الخضوع أو القوّة، لحساب الهيمنة الأمريكية، اقتصاد السوق وتفوّق إسرائيل. كل ما من شأنه أن يشكّل أرضاً خصبة لتصاعد تيّارين متناقضين: إسلام سياسي عابر للحدود، عولمة أخرى موازية للأمريكية. وتفجّر لكل أنواع الفئويّات الدينية والمذهبية والإثنية.

المواطن «يشعر أنه لعبة بيد قوىً معادية»[١٦]؛ فينتابه القلق «من هنا بحثه عن مثال أعلى أو عن إيمانٍ ما»[١٧]، أو بالأحرى عن حماية. حماية يجدها في إسلام عالمي يعطيه من جهة قوّة الميتافيزيقيا «العلي القدير»، كذلك قوة العدد ومدى الانتشار؛ المجموعة ـ الأمّة التي بات يحددها الدين بدلاً من الجغرافيا. خلال الحرب الباردة ساند الغرب الأنظمة المونارشية، الديكتاتوريات والقوى الرجعية بشرط واحد: خدمة مصالحه والاصطفاف ضد الاتحاد السوفياتي وكتلته، ثم جاء النظام العالمي الجديد ليسحق بالقوة الوحشية كل من قاومه. فكان العلمانيون والحداثيون أوّل من دفع الثّمن لأن الأولوية هي للنفط، للهيمنة ولحماية إسرائيل. أما الأصولية الدينية فيسهل التلاعب بها وتشجيعها على الانزلاق نحو رفض الآخر وإلغائه عبر تكفيره، ونحو العنف في إطار منطق صراع الحضارات، ما يؤمّن فرصة الخلط بين المقاوم والوطني وبين الإرهابي.

بالنسبة إلى الخطاب الإعلامي وبدءاً من الجزيرة، نجد أن تعاقب الأحداث التي سبقت نشوءها عام ١٩٩٦، جعلها تتبنّى خطاب التيارات الموجودة على الساحة والتي كانت في عزّ صراعاتها خلال فترة حصار العراق وبعد اتفاقيات السلام. احترمت الجزيرة، ومثلها قناة أبو ظبي توازناً ما بين القوميين والإسلاميين في حين كان حضور اليسار والعلمانيين نادراً على شاشاتها. لم يكن منطق صراع الحضارات قد سيطر، بعد، على الخطاب السياسي والثقافي بشكل عام، حتى ولو أن بعض البرامج من مثل «بلا حدود»

(١٦) Moscovici, *L'ôge des foules: Un Traité historique de psychologie des masses.*

(١٧) المصدر نفسه.

و«شاهد على العصر» بدت وكأنها صُمِّمت لتستهدف التيارات القومية، وبخاصة الناصرية التي عمل البرنامجان على تشويهها بمقاربة إسلامية وإخوانية تحديداً. وإذا كان السؤال المطروح في البداية هو ما إذا كان حسّ الانتقام لدى المذيع أحمد منصور المصري، العضو في جماعة الإخوان المسلمين، المبعد من مصر، هو ما يفسر ذلك، فإن ما طرأ بعدئذٍ من أسلمةٍ كاملةٍ لخطاب القناة، يدل على أن الأمر كان أكبر من خيار مذيع. وأن التعددية في المرحلة الأولى لم تكن إلا وسيلة لتأمين الشعبية والصدقية تمهيداً لاستغلالها حينما تحل ساعة التغيير في المنطقة. في أكبر حرب إعلامية عرفها الجمهور العربي.

في المقابل، كانت تغطية الحدثين الأهم في تلك الفترة: تحرير جنوب لبنان والانتفاضة الفلسطينية، تعكس واقعاً ميدانياً تتجلى فيه وحدة وطنية عفوية ومنظّمة في آن، يخلقها الفعل المناضل؛ فلطالما حرص الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات على أن يؤكد على التعددية الفلسطينية؛ ففي خطبه التي كانت تنقلها المحطات الإخبارية كان يكرّر دائماً الترتيب التاريخي «فلسطين المسيحية المسلمة»، بل يمضي أحياناً حدّ تعبير «اليهودية المسيحية المسلمة». كذلك كانت الشاشات تنقل في الأعياد، وبخاصة عيد الميلاد، مشاركته في قدّاس كنيسة المهد في بيت لحم مع زوجته المسيحية، وكثيراً ما كان يستشهد في خطابه بالسيد المسيح (عليه السلام) إلى جانب الآيات القرآنية. من جهة ثانية، كان زعيما التنظيمين الفلسطينيين اللذان يليا فتح رجلين مسيحيين، جورج حبش ونايف حواتمة، كما كان بعض رجال الدين المسيحي، خاصة المطران عطا لله حنّا، شخصية حاضرة باستمرار على شاشتي الجزيرة وأبو ظبي. في ١ آذار/ مارس ٢٠٠٠، نقلت الفضائيات قدّاساً أقامه البطريرك ميشيل صبّاح على حاجز إسرائيلي منعه من الوصول إلى قدّاس في كنيسة المهد في بيت لحم[١٨]. هذه الكنيسة التي أصبحت بعد أشهر من ذلك رمزاً للنضال ضد الاحتلال، عندما لجأ إليها عدد من الفلسطينيين معتقدين أن الجيش الإسرائيلي سيحترم حرمتها، غير أن المدرّعات قصفت الكنيسة ودمّرت التمثال الألفي للسيدة العذراء وأغلقت الممرات المؤدية إليها لمنع وصول الماء والغذاء والأدوية. لم يكن لهذه القضية أن تتوقف هنا لولا وسائل

(١٨) برنامج «حصاد اليوم»، ١ آذار/ مارس ٢٠٠٠ (أرشيف الجزيرة).

الإعلام وبخاصة الفضائيات، كما ساهم التسويق الإعلامي لهذه القضية خاصة على الجزيرة، أبو ظبي والمنار في استثمار أفضل لصالح الانتفاضة، أما التأثير الآخر، وهو الأكثر أهمية بالنسبة إلى المجتمع نفسه، فهو أن هذا التسويق الإعلامي لفعلٍ واقعي على الأرض، يعطي للقضية الوطنية أبعادها الحقيقية: شعب، بكل مكوناته، في مواجهة محتلٍ يقمع وعالم عربي ينقسم بين معارض وحليف على قاعدة دعم الحقوق والقضايا.

في لبنان، وبالرغم من الطابع الشيعي لحزب الله، فإنّ قيادته كانت تجهد في الانتقال من رؤية مذهبية ضيّقة خلال الحرب الأهلية إلى انفتاح يسمح بتمثيل وطني وعربي مع المقاومة، كذلك كان يجهد في التمايز عن الأصوليين والسلفيين في موضوع حوار الحضارات. إلى أي مدىً كان لهذا التطور أن ينجح في بلد قائم على التوازن الطائفي؟ وإلى أي مدىً يمكن أن ينجح حين يكون الحزب المعني مبنياً على عقيدة دينية مذهبية؟

ثلاثة عوامل كانت تصب في صالح التطوّر الانفتاحي: الوجود السوري في لبنان، التحالف مع الأحزاب العلمانية واليسارية، والتركيبة الدينية والمذهبية التعددية للجنوب المحتل. إذ لم يكن الإسرائيليون يميّزون في قصفهم للجنوب بين كنيسة ومسجد، بين مسيحي ومسلم. أمّا دور الإعلام، ومنه تلفزيون المنار، فيكمن بحسب القائمين على المنار، في تمكين الوحدة الوطنية لمنع العدو من عزل أية طائفة، أي حزب سياسي أو منطقة. ما يُترجم بحسب مدير المنار بأربعة أهداف:

١ ـ معرفة العدو، استراتيجياته وأهدافه.

٢ ـ تحريك المعنويّات.

٣ ـ تشجيع التضامن مع الضحايا، السكان، الأسرى وأسر الشهداء. لا يجوز أن يشعر أحد بأنه متروك.

٤ ـ رفع معنويات الجمهور بتقديم منجزات المقاومة بموضوعيّة[١٩].

أهداف لا تندرج في منطق صراع الحضارات باستثناء **الأول**، إذا ما

(١٩) نايف كريّم، «المنار: قصّة النشوء والتطور،» **السفير** (بيروت)، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠١.

أُسيء فهمه وصياغة رسالته (إساءة تركيب الشيفرات أو إساءة تفكيكها). أما **الهدف الثاني**، فيفرض البناء العقدي كما يفصّل أمين عام حزب الله: «الهدف هو رفع معنويات الناس وتثبيت إحساس العداء اتّجاه المحتل ومعه روح المقاومة... ما يجبرنا على استعمال خطاب عقائدي أكثر من خطاب الواقعية السياسية... يجب تشجيعهم وتحفيزهم»[٢٠] غير أن ما توالى من أحداث، بدءاً من احتلال العراق، إلى أحداث عام ٢٠٠٥، في لبنان: اغتيال الحريري وما أعقبه، وصولاً إلى العدوان الإسرائيلي عام ٢٠٠٦، قد عززت توجه الخطاب العقائدي المذهبي.

يظلّ العامل الديني، إسلامي أم مسيحي، عنصراً أساسياً في عملية الشحن المعنوي، فاعتداء الجيش الإسرائيلي على كنيسة المهد في فلسطين أو مغدوشة في لبنان، على كاهن الأخيرة أو مطران القدس (هيلاريون كبّوجي وعطالله حنّا)، يشكّل اعتداء على مقدّسات في نظر المسلمين كما في نظر المسيحيين، دليلاً توظّفه وسائل الإعلام لتصوير حقيقة الصراع مع إسرائيل. ويشكّل عنصر الإيمان الإسلامي الأساس الأقوى في عملية الشحن المعنوي. لذا نرى أوقات البث تُحدَّد بحسب توقيت القدس أو مكّة المُكرّمة أو الاثنتين معاً، كما تخرج التظاهرات في الغالب بعد صلاة الجمعة من دون أن ننسى أن الانتفاضة التي اندلعت إثر زيارة أرييل شارون للحرم القدسي، وأعطت نفسها اسم «انتفاضة الأقصى».

وهكذا نرى الجزيرة، المنار وأبو ظبي تلحّ على الجملة ذاتها: «الإسرائيليون يهاجمون المؤمنين قبل صلاة الظهر».

لا يقود حضور المكوّن الديني في السيكولوجيا الجمعية، حُكماً، إلى الأصولية، لا ولا إلى الصراعات الطائفية أو الصراع مع الثقافات والأديان الأخرى؛ فعندما يعلو المنطق الوطني والقومي على التعدديات الثانوية، فإنه يحتضنها ويدمجها كلها في إطار ذات «نحن» تدافع عن نفسها أو تهاجم الآخر، علماً أن كل الحروب الهجومية في التاريخ قد قُدّمت على أنها دفاع عن النفس. الهزيمة والظلم هما ما يغذّي الأصوليّات، وبخاصة عندما يتبنى

(٢٠) Hala Jaber, *Hezbollah: Born with a Vengeance* (New York: Columbia University Press, 1997), pp. 49-50.

الأقوى أو المُتجبّر بدوره خطاباً أيديولوجياً وأصولياً؛ ففي مواجهة الولايات المتحدة - جورج بوش والغرب الذي يدعمها، وإسرائيل التي تتحدّى القانون الدولي، وجد العرب أنفسهم في موقع دفاعي ضعيف وراحوا يبحثون عن خطاب يدعّم دفاعهم ويمنحه المشروعية. هكذا وجدت الفضائيات الإخبارية نفسها مسرحاً لثلاثة خطابات: خطاب إسلامي أصولي عولمي، خطاب قومي أيديولوجي في الغالب، خطاب ليبرالي مضطرب يقترن بخطاب الهويّات الفرعيّة التجزيئيّة التي تُنمّي هويّة جمهور لا هويّة شعب. وبخاصّة أنّ الذين يتبنون خطاباً عقلانياً، نقدياً، علمياً ومتوازناً هم أقل بكثير من الذين ينطلقون من العواطف والغرائز وإليها يتوجّهون.

٣ ـ ١١ أيلول/سبتمبر: طائرتان، برجان وعالمان

الفيديو الشهير الذي غيّر مجرى التاريخ: البرجان الرماديان والنار المشتعلة، ١٨ دقيقة على شاشة الجزيرة ثمّ على سائر الشاشات العربية والعالمية. الصوت المرتجف للمراسل طلال الحاج، جورج دبليو بوش جالس شاحب الوجه وخلفه طفلان: أسود وأبيض، عمدة نيويورك يتّهم العودة أسامة بن لادن، زووم الكاميرا ولوغو مجلس العلاقات الإسلامية في الولايات المتحدة (كير) ثم صور أرشيفية من بيرل هاربر.

إنه إعلان الحرب العالمية الثالثة، والولايات المتحدة تستدعي الوحدة الوطنية كي تخوضها. لم يعد صراع الحضارات مفهوماً بل أصبح واقعاً. أما العالم الإسلامي فتختلط عليه الأمور: في اليوم التالي تنقل كل الشاشات ياسر عرفات يتبرّع بالدم في رام الله. الجزيرة تتحفظ في صياغة أخبارها ولكنها تخرج عن ذلك ببث خطاب لـ بن لادن. الانتقادات تتالى قاسية من طرف المفكرين الإسلاميين المعتدلين، ومن الذين يفهمون جيداً البعد السياسي العسكري الذي سيؤدي إلى احتلال العراق، من العلمانيين، المعتدلين، ومن أتباع الديانات الأخرى.

يدافع مسؤولو المحطات عن تغطيتهم للأحداث: في محاضرة في جامعة سياتل يتحدث حافظ الميرازي عن (Balanced Reporting): «إذا ما توصلت الحكومة الأمريكية إلى أسر بن لادن فستعيّن له محامياً، تدفع أجره من ريع الضرائب الأمريكية. لا يمكن أن نقوللقناة فضائية: لا تعطي مجال

الكلام لشخص لأننا نكرهه»[٢١]. أمّا إبراهيم هلال، فيذكّر بالعلاقة التاريخية بين الجزيرة وأفغانستان «إن تغطية أفغانستان هي سبب أساسي في نجاح الجزيرة على الصعيد الدولي»[٢٢]. ويحدد محمد جاسم العلي، الموضوع أكثر: «هذه ليست حرب الولايات المتحدة ضد الإسلام، إنها حرب الولايات المتحدة ضد بن لادن وطالبان»[٢٣]. غير أن كل هذه التبريرات لا تحجب الخطاب الإسلامي الذي تتبناه القناة بحيث تقول الـ سي.إن.إن. إن مسؤولاً أمريكياً صرّح لها أن الجزيرة «تؤجج الأصولية الإسلامية»[٢٤]. هذا الخط تصاعد أكثر فأكثر بعد احتلال العراق. ما يطرح سؤالين منطقيين: **الأول**، أهو البحث عن الشعبية والشهرة ما يدفع إلى تبنّي استراتيجية كهذه، وبخاصّة أن «خطب ورسائل بن لادن التي كانت تبثّها الجزيرة حصرياً جعلتا القناة مشهورة حتى لدى الأمريكيين والأوروبيين؟»[٢٥] الثاني، هل الإدارة الأمريكية التي تشكو للـ سي.إن.إن. استراتيجية القناة القطرية، لا تملك القنوات والوسائل الكافية للتأثير على مسؤولي الإمارة الصغيرة التي تقع تحت الحماية الأمريكية، وبخاصة منذ إقامة أكبر قاعدة عسكرية أمريكية على أرضها؟ ولماذا إذاً تتركها تمرّر ما تمرّر؟ ألم نرَ في **الفصل السابع** من **القسم الثاني** كيف أن الـ سي آي إيه، هي من تحكّم بتوقيت بثّ مقابلة تيسير علوني مع بن لادن، بل وبتسريبها إلى الـ سي. إن. إن. قبل بثها على الجزيرة؟

أيّاً يكن الحال،٧ فإن الجمهور العربي يجد خياراته محصورةً بين هذا التطرف أو ذاك: «نحن ضد الولايات المتحدة، لكننا أيضاً ضد القاعدة»[٢٦] يقول مدير المنار، وكأنه يفسّر بذلك التصريحات المتناقضة التي تظهر على شاشته. ذاك أن للمنار مبرراتها الخاصة: فحزب الله هو حركة مقاومة مهددة بتهمة الإرهاب من قبل الولايات المتحدة والغرب، والقاعدة تمثّل أقصى

---

(٢١) Hafez Al Mirazi, «Balanced Reporting,» paper presented at: Conference at Seattle University, <http://www.startimes.com/f.aspx?t=9179788>.

(٢٢) إبراهيم هلال في حوارات الشريط الوثائقي «حروب سلمية»، إعداد وإخراج ربى عطية.

(٢٣) محمد جاسم العلي، «الدور السياسي للفضائيات،» ورقة قدمت إلى: ندوة مركز دراسات الخليج.

(٢٤) Abdelkarim Belhaj, «Les Satellitaires entre le professionnalisme et le devoir national».

(٢٥) Nabil Ennassiri, «Géopolitique du Qatar, la construction d'une image flatteuse,» 26 novembre 2008, <http://www.omma.com>.

(٢٦) كريّم، «المنار: قصّة النشوء والتطور».

التّطرف السّني الذي لا يحبّذه الشّيعة، بل إنه يكفرهم. كذلك تفهم جميع حركات المقاومة الأخرى، العلمانية وحتى السنية، من مثل حماس والجهاد، أن أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ستعيق حركتها المقاوِمة وستخدم الدولة العبرية.

بين الموقفين يبدو خطاب قناة أبو ظبي الأكثر وضوحاً في ما يخصّ النتائج الاستراتيجية لـ ١١ أيلول/سبتمبر. تقدم القناة تغطية جيدة للأحداث مع الحرص على توضيح خطّين متوازيين: التمايز الواضح عن القاعدة وعن كل الأصوليّات الدينية، مع تقديم صورة مختلفة للإسلام، «الإسلام الحقيقي» كما تقول. ترفض منظور الانتقام من كل المسلمين وتلقي الضوء على عدم التناقض بين الإسلام والقوميّة بالنسبة إلى كل الشعوب ومنهم العرب، توضح التلاعب الإعلامي الهادف إلى التحريض على الحرب بين الغرب والعالم الإسلامي. مجموعة نقاط تلتقي كلها في الرؤية العروبية لحُكم الشيخ زايد، لتقدّم قراءة جيدة للنتائج السلبية التي سيواجهها العالمان الإسلامي والعربي. ونأخذ مثالاً على ذلك حلقة برنامج «المدار» ليوم ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. تبدأ الحلقة بمركّب مونتاج تتقاطع فيه لقطات من مانهاتن، صورة جورج بوش ولقطات لجنود ذاهبين إلى الحرب، قبل أن يستقبل المذيع مدير الاستخبارات الباكستانية في حوار يقول خلاله هذا الأخير: «نحن لا نمتلك أية ورقة ضغط على طالبان... نحن مهددون بضربة هندية إسرائيلية أمريكية تهدف إلى توريطنا في الحرب... الهند تعلن أنها مستعدة للمشاركة في الحرب ضد الإرهاب... لقد أعلنت حالة الطوارئ كما أعلنت الأحزاب السياسية موافقتها على وضع القواعد العسكرية الهندية تحت تصرف الحرب... الهدف أبعد من أفغانستان: انه إرضاء واشنطن وتصفية مسألة كشمير (المفاوضات خلال شهر). إنها حرب بين الغرب والعالم الإسلامي وهناك خطة أمريكية لتوريطنا في ما يطلقون عليه «مكافحة الإرهاب»»[٢٧]. بعد المقابلة تنتقل النشرة إلى خبرين: «باخرتان عسكريتان وحاملتا طائرات أمريكية تغادر طوكيو»، تصريحات جون أشكروفت، التدابير التي تقلّص من الحريات العامة في الولايات المتحدة، وتعليق: «لا أحد يصغي إلى اعتراضات جمعيات حقوق الإنسان، فأصوات طبول الحرب هي الأعلى»[٢٨].

---

(٢٧) برنامج «المدار»، ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ (أرشيف قناة أبو ظبي).

(٢٨) المصدر نفسه.

بعدها تستضيف النشرة مستشار الشيخ زايد الشيخ علي الهاشمي، الذي يقدّم رؤية شاملة: «صحيح أننا ننتمي للإنسانية لكن من لا يكون جيداً لوطنه لا يمكن أن يكون جيداً للإسلام. على المسلم أن يكون مخلصاً لشعبه ووطنه وأن يدافع عنهما... إذا كان عربياً فلعروبته. على كل أمة أن تحافظ على استقلالها ووحدتها... **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**[29] لا للتمييز بحسب اللون أو الدين أو القناعات... الإسلام يعترف بكل الأديان التي تدعو إلى المحبة واحترام الإنسان... إذا ما اقترفت عصابة جريمة، لا يجوز أن نعاقب كل الناس... إنها عقدة العقاب والانتقام... لا فائدة من الصلاة والصوم إذا انتهك الإنسان أو إذا اعتدت دولة على دولة أخرى»[30]. خطاب يبدو خارج سياق الخطاب المهيمن في تلك المرحلة؛ فهو أولاً يحدّد الهويّة بوضوح كهويّة قوميّة عربيّة مشدّداً على مصطلح «العربيّ المسلم» وليس «المسلم» فحسب، مدعّماً ذلك بالتحليل. كما يؤكّد الاعتراف بالآخر واحترامه ويدين إرهاب القاعدة كما يدين العمليات المتوقعة للولايات المتحدة. موقف وخطاب لا يرضيان الطرفين ولا يصبّان في الاستراتيجية الأمريكية؛ فهل يشكّل هذا تفسيراً مسبقاً للسؤال الذي طرح في ما بعد: لماذا خُنِق صوت هذه القناة بعد ذلك بسنتين؟ ولماذا خُنقت تدريجياً، خلال السنوات اللاحقة، الأصوات الأخرى التي تحدّث عنها مصطفى الشريف فيما أوردناه سابقاً؟ لماذا أُخرس كل صوت يتحدث عن العروبة، عن الحوار، عن العقل، عن احترام سيادة الدول ورفض الاعتداء عليها؟ لماذا تركت الساحة لمن يؤججون المنطق الذي يؤدي إلى التدمير الذاتي أو إلى تبرير الاعتداء الخارجي؟

الحدثان التاريخيّان اللذان أكّدا في ما بعد منطق صراع الحضارات هما: حرب أفغانستان عام ٢٠٠١، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣.

في أفغانستان، وقعت الحرب بين أصوليتين. الولايات المتّحدة تخوض حرباً انتقاميّة في ظلّ انعدامٍ هائلٍ لتوازن القوى، وتأتي تغطية الفظائع والمجازر التي يتعرّض لها الأفغان لِتُعزّز تنامي الأصوليّة الإسلاميّة، وبخاصّة مع خطاب جورج بوش والمُحافِظين الجُدد الذي لا يقلّ أصوليّة، حيث لا

(٢٩) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(٣٠) علي الهاشمي في برنامج «المدار»، على قناة أبو ظبي (آذار/ مارس ٢٠٠٤).

تترك صيغة الخير ضد الشرّ خياراً للمُسلم في أن يكون «ابن الشرّ»، كما إن مصطلح «الصّليبيّة» في خطاب كل من بوش وبن لادن يُعيد إحياء حساسيّات تاريخيّة مُرّة.

الصّور الميدانيّة، تقارير تيسير علّوني، وخُطب بن لادن تعزز هذه الحسابات العميقة لدى المُتلقّي، وبخاصّة مع اللغة اللاهوتية التي يتبنّاها الأخير ومع العزف على أوتار حسّاسة لوجدان المّتلقي: فلسطين، الظّلم، غياب العدالة الاجتماعية، القادة القمعيون والفاسدون وعبثية عملية السلام التي يدعمونها: «السلام الذي يفرضونه على المسلمين يهدف إلى تحضيرهم للذبح. إذاً، إذا ما حاولنا الدفاع عن أنفسنا أسمونا بـ إرهابيين، وتستمر المجزرة... مجرم مذبحة دير ياسين أُعطِيَ جائزة نوبل للسلام. هذا الخائن أنور السادات، الذي باع الأرض وقضية فلسطين ودم الشهداء حصل على جائزة نوبل للسلام... لقد سوّق اليهود والأمريكيون أسطورة أنّهم يحرصون على المسلمين، وللأسف تبعهم المسؤولون المحلّيون وكثير من النّاس المقرّبين منهم، مستعملين السلام كعذر. إنها أسطورة بلا معنى ولا أساس، قضية خيالية»[31]. أخيراً يُورد آياتٍ وأحاديث تصُبّ في خطّ التّأكيد على الأمل والانتصار ولو بعد أمد طويل وإلا فـ«هو الكفر وتكذيب الوعود الإلهية»[32].

إذا كان هذا الخطاب يبدو غير واقعي بالنسبة إلى البعض فإنّه جذّاب لقطاع كبير من الناس الذين تقوم ثقافتهم على الإيمان الديني، كما إن الظّلم المتعدد الوجوه الذي يعانونه يجعلهم مهيّأين للتأثر به، تأثّرٍ قد لا يمضي حدّ تبني القاعدة، لكنّه يدفع نحو توجّهٍ إسلاميّ عامة وأصوليّ مؤمن بالصراع. وهذا ما أكدته الحرب على العراق. حيث عاد الخطاب الديني ليحتلّ مكانه في المشهد العراقي خلال فترة الحصار (١٩٩١ ـ ٢٠٠٣)، بدءاً من إضافة «الله أكبر» إلى العَلَم العراقيّ، حتى ما سُمّي بـ «الحملة الإيمانية» خلال الحصار. وذلك بعد أن كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية وأحداث انتفاضة الجنوب عام ١٩٩١، قد أحيت أُسس الأحقاد المذهبية. لقد كان الحكم العراقي يقود منذ ٣٠ سنة مشروعاً قومياً عربياً يتبنى العلمنة، الحداثة والتنمية

(٣١) خطاب أسامة بن لادن، ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ (أرشيف الجزيرة).

(٣٢) المصدر نفسه.

الصناعية والثقافية. أما عيبه فكان الديكتاتورية التي ينتقدها ويعارضها البعض، في حين يتسامح معها البعض الآخر، إمّا لانتمائه إلى معسكرها وإما تقديراً للإنجازات التي حقّقتها وبخاصة إذا ما قورنت بالأنظمة العربية الأخرى. غير أن التطورات التي شهدتها البلاد مع الحرب، برهنت على أن العيب الكبير كان في بلورة الفرد المواطن؛ ففي غياب الحرية وحكم الحزب الواحد الذي تدهور باتجاه حكم العائلة، أُعيد إنتاج شكل جديد من القبلية، وبخاصة أن الجدل الفكري العام ووسائل الاتصال الفكري الحرة كانا غائبين عن السّاحة. الديكتاتورية تحول من دون تشكّل الـ أنا ـ المواطن، والحرب تجعل الـ نحن ـ الوطن ـ الدولة بحاجة إلى الاستنجاد بـ نحن ـ المجموعات التجزيئية، من طائفية وقبلية، في أخطر اعتراف بفشل المشروع الوطني الثوري. واقع جديد تعكسه وتعززه وسائل الإعلام وعلى رأسها الفضائيات.

تندلع الحرب عام ٢٠٠٣، «ويتلقّى العرب والمسلمون رواية مختلفة دراماتيكياً عن الرواية الأمريكية. التلفزيونات الأمريكية تركّز على التكنولوجيا المتطوّرة للجيش الأمريكي؛ في حين أن وسائل الإعلام العربية تقدّم صورة الدمار والعذابات التي سببها هذا الجيش للعراق... والأسوأ، أن الـ **واشنطن بوست** تدّعي في شهر آب/ أغسطس ٢٠٠٣، أنّ ٦٩ في المئة من الأمريكيين ما زالوا يعتقدون أن صدّام حسين متورّط شخصياً في الاعتداء على البرجين»[٣٣]. وهكذا كان الجمهور العربي والمسلم يعلّق أنظاره على الشاشات ليتلقّى منها كل ما يحرّك حساسيته القوية والإسلاميّة، بل إن الخطط الغربية، وتحديداً الأمريكية، قد عملت على استفزاز وتفعيل هذه الحساسيات؛ ففي اليوم الثالث للحرب، فاجأت الجزيرة المشاهدين بتغطية غارة جويّة أمريكية على تنظيم الجماعة الإسلامية في كردستان ذهب ضحيتها ٣٤ قتيلاً و١٥ جريحاً. وفي تقريره عنها يؤكّد وضّاح خنفر «الذي كان ما يزال مراسلاً في كردستان العراق»: أن أعضاء الجماعة «لم يهاجموا أحداً وقد سبق لتنظيمهم أن أعلن أنه لن يهاجم الأمريكيين أبداً»[٣٤]. ثمّ يخرج رجل ملتحٍ من أنصار الإسلام ليؤكّد أن السّكان قد هجروا المنطقة نتيجة الهجوم. من هنا السؤال حول أهداف

(٣٣) Olfa Lamloum, «Médiatisation de la guerre en Irak,» *L'Humanité* (24 novembre 2003), <http://www.humanite.fr/node/355747>.

(٣٤) وضاح خنفر، في برنامج «حصاد اليوم» (أرشيف الجزيرة).

فكما يلحظ فوّاز جرجس، صاحب كرسيّ دراسات الشرق الأوسط في سارة لورانس كوليدج (Sarah Lawrence College): «عندما سقط النظام البعثي كان المشروع القومي العربي أوّل الضحايا»[٣٥]. وفي غياب مشروع قادر على أن يحلّ محلّه تشظّت الـ «نحن» الوطنية والقومية العربية بين عولمتين عابرتين للحدود والقوميّات، تتبنّيان الاقتصاد الليبرالي، بشكل أو بآخر: عولمة أمريكية وعولمة إسلامية. كما تشظّت، جهة ثانية، بين الهويات الفرعية الإثنية والطائفية والمذهبية المختلفة. وتُتّهم الجزيرة بأنها تحوّلت إلى قاعدة لكل هذا الخليط معاً؛ فعلى سبيل المثال، نرى نشرة أخبار الأول من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، تخصّص ١٥ دقيقة لقضية الحجاب في فرنسا[٣٦]، وعلى الرغم من ارتباط هذه القضية بمبدأ حقوق الإنسان فإن توقيتها وسياقها يُثيران التساؤل. هي تأتي بعد حرب العراق مباشرة، وبعد المُعارضة الفرنسية الشديدة لهذه الحرب، والغضب الأمريكي على فرنسا «الشيراكية» ورغبتها في معاقبتها؛ ففرنسا جاك شيراك هي فرنسا الديغولية الجديدة، استمرار الديغولية الأصلية التي تقوم عقيدة سياستها الخارجية على مبدأ الاستقلالية الأوروبية عن الولايات المتحدة، وعن التبعية الأطلسية. هذه الفرنسا تختلف عن فرنسا ـ ميتران، التي خاضت الحرب عام ١٩٩١، تحت الراية الأمريكية، (كما تختلف عن فرنسا ـ ساركوزي، التي عملت الولايات المتحدة واللوبيهات المتحالفة معها على إحلالها)؛ فيما يُترجَم الصراع الاستراتيجي المصيري بين خطّي الاستقلالية والتبعيّة الأطلسية في أوروبا، صراع لا يُختَصَر بتصنيف يمين يسار، بدليل خط ساركوزي الأطلسي في صفوف اليمين وخط الاستقلاليين في صفوف اليسار من مثل جان بيار شوفنيمان، الذي كان وزيراً للدفاع عام ١٩٩١، واستقال احتجاجاً على ما أسماه «التعلق بذيل التنورة الأمريكية». وفي هذا السياق جاء افتعال مسألة الحجاب لإحراج حكومة شيراك وخط الاستقلالية، ومعاقبتهما لحساب الخط الآخر. بعد، لم يغب عن الكثير من المحللين والسياسيين وحتى رجال الدين ومؤسساته، وعلى رأسها الأزهر

(٣٥) Fawaz A. Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global?* (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 2005).

(٣٦) «حصاد اليوم»، ١ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

الشريف، بل إن بعضها من مثل حركة العمل الإسلامي في الأردن أصدرت بيانا ضدّ «التلاعب السياسي بحقوق المسلمين». غير أن صوت الجزيرة ظلّ الأعلى، واستمرّت القضية تحتل شاشتها لمدّة أسبوع؛ في سياق مشابه، كانت تغطية القناة لكل الساحات العربية تبرز الإسلاميين وتُعتّم على سِواهُم: في التظاهرات الفلسطينية تحتل أعلام حماس الشاشة، في تغطية فعاليات المقاومة العراقية تنطق الصّور ومثلها المصطلحات «المثلّث السني»، «المقاومة الإسلامية»، بالبعد الطائفي المذهبي. مثلاً تنقل القناة يوم ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٤، تظاهرة في بغداد تقدّمتها المراسلة المحجّبة على أنّها تجمّع «عشائر ومسلمين»[٣٧]. ويلتقي تأثير خطاب كهذا مع تأثير تقارير حول تعاون بعض الحكومات (اليمنيّة مثلاً) مع واشنطن ضد المتّهمين بالإرهاب.

أمّا المنار، فيُعاني خطابها حول العراق ارتباكاً يعترف به مسؤولوها: «كما هو الحال مع ١١ سبتمبر، كنّا مُربكين، نحن ضدّ العدوان الأمريكي على العراق ولكننا أيضاً ضد صدّام حسين. إذا استقبلنا معارضين عراقيين نستفزّ الشارع العربي، وإذا استقبلنا رجال النظام نستفزّ جمهورنا، الثابت الوحيد لدينا هو الاحتلال والمُقاومة. أما الخطاب الإسلامي فنحن نتبنّاه كمرجع، لا للإثارة. صراع الحضارات ليس في مصلحتنا، نحن ندافع عن قضيّة عادلة ولا نريد أن نُربط بالإرهاب. على العراقيين أن يفهموا ذلك أيضاً»[٣٨].

أخيراً العربية، قناة النظام الوهابي، الأكثر أصولية بين المذاهب الإسلامية. لكنّها لا تُجامِل أبداً في موضوع الإرهاب لأنّه يستهدف النّظام السعودي أولاً. غير أن خطاب القناة يخلط بين الإرهاب وكل حركات المُقاومة التي تُعارض معسكر الاعتدال العربي أو مصالح الولايات المتحدة في المنطقة؛ فهي مثلاً تكرّس لهذا الموضوع برنامجاً خاصاً بعنوان «صناعة الموت». وفيه يبدو الخلط واضحاً ومقصوداً بين المقاومة والإرهاب، ويمضي حدّ التحريض الذي يثير ردّات فعل تصل أحياناً حدّ اللجوء إلى القضاء والتهديدات بردّات فعل. وهكذا تخدم تأثيرات خطابٍ كهذا هدف مضاعفة التشدد في المُعسكرين: الليبراليّون يَرَون الآخرين بصورة كريهة، شريرة

(٣٧) أطوار بهجت، في «حصاد اليوم»، ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٤ (أرشيف الجزيرة).

(٣٨) كريّم، «المنار: قصّة النشوء والتطور».

ومُهدِّدة، وفي المقابل يتعمّق لدى هؤلاء الآخرين الكبت، القهر، الرّفض والغضب. أما المُقاومون ومؤيدو القضايا القومية والاجتماعية، بل وحتى العلمانيون بينهم، فيجدون أنفسهم مُلحقين بالأصوليين الإسلاميين والإرهابيين. والنتيجة تعميق القطيعة وتفعيل الأصوليّة التي تستفيد من وضعها في صورة ضحيّة الأمريكيين والأنظمة الفاسِدة. ما يغذّي العنف والكراهية وبالتالي منطق الصراع، وبخاصة أن رسائل بن لادن وأيمن الظواهري تتوالى على الجزيرة، ليُعاد بثُّها على معظم شاشات العالم. مُصادفة؟ أم أنّهم يُوظفون وسائل الاتصال لخدمتهم؟ أم أنّ ثمّة تواطؤاً ما ليس الأمريكيون ببعيدين عنه؟

سؤال يشغل دوائر جيوبولوتيك المنطقة، ومنها ثلاثة من الباحثين عملوا على الفترة الزمنية التي يتناولها هذا البحث[٣٩]. يقدّم هؤلاء المعطيات التالية: «بعد ١١ أيلول/سبتمبر، وبين ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤، بثّت الفضائيات والإذاعات العربية ٢٦ رسالة موزّعة كما يلي:

- ١٢ رسالة من بن لادن.
- ٥ رسائل من الظواهري.
- ٤ رسائل من عبد العزيز المقرن.
- ٢ من أبو غيث.
- ٢ من الزرقاوي؟
- ١ من سعود العتيبي».

كان البثّ يتم في توقيت موحّد. بعض هذه الرسائل يتبنّى عمليات حصلت. وبعضها سبق عمليّات؛ فهل كانت تحمل شيفراتٍ ما؟ هل لنا الحق في الحديث عن تواطؤ؟ هل نجح التنظيم في اختراق الفضائيات؟ في مصلحة من يصبّ تأثير هذه الرسائل؟

في غياب دلائل واضحة يقتصر الأمر على التحليل والفَرَضيّات. والأرجح

(٣٩) تركي السهيل، «هل نجحت القاعدة في تحويل وسائل الإعلام العربية إلى منابر تحيي خلاياها؟»، **الرياض**، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٥، <http://www.alriyadh.com/2005/06/17/article72864.html-Arabiesaoudite>.

أن موضوع الشيفرات وارد، في حين أن موضوع التواطؤ مُستبعد. لقد جاءت تفجيرات بالي بعد عدة ساعات من رسالة بن لادن على شاشة الجزيرة. في أوّل تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، جاءت رسالة أيمن الظواهري لتليها بعد ٦ أيام عملية طابا في مصر، في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، جاءت رسالة ابن لادن لتليها بعد ٦ أيام عملية القنصلية الأمريكية في جدة؛ في ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٤، بثّت الجزيرة رسالة لـ صالح العوفي، وبعدها بيومين تمّ تفجير مسرح في قطر؛ فهل كان يمكن القاعدة أن تستخدم وسائل إعلام عربية، من مثل الجزيرة من دون علم هذه؟ وهل يكفي منطق المنافسة والبحث عن السبق الإعلامي لتفسير ذلك؟

لا يشكّ الباحث عبد العزيز بن سلمى بالقنوات، لكنه يطلب منها «أن تستشير خبراء في الإرهاب بخصوص مضمون هذه الرسائل، حيث يتمكن هؤلاء الخبراء من اكتشاف الشيفرات الخفيّة المخصصة لتوجيه عمل الإرهابيين»[٤٠]. كذلك يوافقه عبد الله بن جاد، مرجّحاً احتمالية التشفير هذه: «كتنظيم إرهابي، لا بد للقاعدة من تنويع قنوات اتصالها، والشيفرات التي لا ينتبه لها المشاهد هي ذات صلة ببعض العمليات في عدة دول»[٤١]. أمّا فارس بن حزام، فيرى أهدافاً أبعد من ذلك على الرغم من أنّه يوافق على وجود الشيفرات: «لقد أصبح التنظيم معزولاً في أفغانستان، الاتصالات السرية بطيئة، ولذا فإن الرسائل التلفزيونية تسدّ الفراغ. فهي تفيد في إطلاق تنفيذ عملية قد خطط لها... تعتبر استراتيجية التنظيم وسائل الإعلام نصف وسائلها للاتصال والتنفيذ. تستفيد منها لتأكيد استمراريتها، لتحفيز مؤيديها، لنشر أهدافها. كذلك للتغطية على انتقال أحد قادتها من مكان إلى آخر بالإعلان عن مقتله كما حصل مع صالح العوفي؛ لقد أعلن عن مقتله على يد الشرطة السعودية، وبعد ذلك وجّه رسالة يحيي فيها عمليات الكويت»[٤٢]. إذا ما استعدنا فرضية التواطؤ، فإن السؤال المنطقي لا بد وأن يطرح حول تسامح الأمريكيين مع بث المحطّات لهذه الفيديوهات، كما حول توافق تواريخ بثّها ومتطلبات السياسة الأمريكية: «من دون أسامة بن لادن لم يكن

(٤٠) عبد العزيز بن سلمى، في: المصدر نفسه.
(٤١) عبد الله بن جاد، في: المصدر نفسه.
(٤٢) فارس بن حزام، في: المصدر نفسه.

ممكناً إعادة انتخاب جورج دبليو بوش، لقد سُمح له بالسيطرة على أذهان ٣٠٠ مليون أمريكي بواسطة صناعة الخوف التي يبرع فيها المحافظون الجُدد»[٤٣]. يكتب باحث فلسطيني تحت عنوان «كيف تستفيد أجهزة المخابرات الأمريكية من التنظيمات الإرهابية؟»، حيث يورد ثلاثة أمثلة: **الأوّل**، «اكتشاف خلية زرعها الموساد في غزة تحت اسم القاعدة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢». **الثاني**، «تقرير الـ سي. إن. إن. حول الزعيم الأمريكي للقاعدة المعروف باسم «أبو صهيب» الأمريكي، الذي كان يطلق فيديوهات مصوّرة تهدد الشعب الأمريكي، في حين أنّ هذا الرجل لم يكن إلا آدم بيرل ابن ريتشارد بيرل، وفي عام ١٩٩٣، أوقفته الـ إف.بي.آي. بتهمة التجسس لصالح الموساد». و**الثالث**، الذي يشكّل أبرز مثال على التلاعب الإعلامي، هو قصة أحمد سعيد المصري، ابن عبد الرحمن خضر أحد قادة القاعدة في أفغانستان، حيث جنّدت وكالة الاستخبارات الأمريكية في أفغانستان هذا الشاب، وظل طوال سنوات يلعب أدواراً استخباراتية بالغة الخطورة في أفغانستان، في غوانتانامو، في البوسنة، في الأردن وفي العراق، قبل أن ينكشف أمره في كندا»[٤٤]. حتّى إن هذا الشاب كان وراء اغتيال والده كما اعترف في البرنامج التلفزيوني (Front Line)، في الولايات المتحدة الذي روى فيه قصّته كاملة ليُعاد بث هذا الشريط على محطّات كثيرة في العالم، منها الفرنسية في عام ٢٠٠٤. وإذا كان البحث لا يتناول هذه الأمثلة ليتّهم المحطّات المعنية، فذاك ليس شأن الباحث، بل لأن هذا الاستعراض يبرهن على أن حصول التلاعب الإعلامي إنما يصب في صالح الأمريكيين والإسرائيليين في سعيهم إلى تعزيز منطق صراع الحضارات ونتائجه السياسية والاجتماعية. من هنا مشروعية التساؤل حول المسؤولية الإعلامية، حول الاستراتيجيات ومن يتحمّل مسؤوليتها.

البعض يدّعي باستحالة المقاطعة «إنه الواقع، هذه التيارات موجودة ووسائل الإعلام لا تفعل شيئاً غير عكس الواقع»[٤٥] يقول حمد الكوّاري،

(٤٣) أحمد غانم، «الأمراء العملاء... كيف تتلاعب أجهزة المخابرات العالمية بالتنظيمات الإرهابية؟»، <http://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=543809>.
(٤٤) المصدر نفسه.
(٤٥) حمد الكواري، في حوارات الشريط الوثائقي «حروب سلمية» إعداد وإخراج ربى عطية.

نائب رئيس قناة الجزيرة. في حين يدين رفيق نصر الله، المستشار الإعلامي اللبناني، عقلية «الخبطات الإعلامية» ويصفها بعدم النضوج وبالتلاعب والتحوير: «لاجتذاب الأصوليين الإسلاميين، لا بد من اكتساب ثقتهم، بدءاً من بث أخبارهم، وهكذا يعتبرونها محطّتهم، بعد ذلك تعمل البرمجة على تسريب أفكارٍ أخرى مرادة إليهم شيئاً فشيئاً»(٤٦). أمّا مصطفى الشريف، فهو إذ يُسلّط الضوء على الخصوصية الروحانية التي تشكّل عاملاً أساساً في سيكولوجية المسلمين الذين يرفضون «نزع الروحانية عن الحياة كما يرفضون الظلم»(٤٧)، فهو إنّما يصف سيكولوجية الإنسان الشرقي بشكل عام، والعربيّ بشكل خاص، ما يسهّل التلاعب به عن طريق الدين وبخاصة أنّه، كثيراً ما يجد فيه هويّته في غياب حسم أمر الهوية القومية وتشكّل الدولة ـ الأمة، فراغ يعززه غياب السيادة وبالتالي الثّقة بالدّولة.

ثانياً: صراع الطوائف والمذاهب: محرّكون وجماهير عمياء: تدمير ذاتي وتحويل لاتّجاه العداء

هزائم الحاضر، الاحتلالات، الإحباط الناجم عن فشل المشروع القومي، إفلاس الدولة، انعدام الأمان الوطني، كلّها عوامل تفاقمت منذ عام ١٩٩١، تاريخ حرب العراق الأولى وحتى عام ٢٠٠٣، تاريخ الاحتلال، والنتيجة تكَسُّر الهوية الوطنية وبروز الهويّات الجزئيّة بشكل أكثر قوّة من أي وقت مضى، وبخاصّة أنّ معظمها يحمل روحاً انتقامية متأججة. هكذا أصبح مشروع التغيير الاجتماعي الذي يصلّب الوحدة الوطنية، بعيداً. لقد كان أقوى خلال النصف الأول من القرن العشرين وقبل تشكُّل الأحزاب الأيديولوجية القومية.

ويلاحظ الباحث أنّ مكوّنات فئويّة كانت كامنة في هذه الأحزاب نفسها على الرغم من أن المشهد العام للجماهير الشعبية العربية بدا وكأنّه تجاوز الانتماءات الإثنية، الدينية والمذهبية لصالح انتماء حزبي سياسي ولصالح الوحدة الوطنية. غير أنّ الأحداث تبرهن أنّ هذا الانتقال من الجزئي إلى الكلي لم يكن قد نضج بعد، أو أنه لم يكن صادقاً. ولذا، فإنّ الفرد ما إن فقد حماية الدولة أو سلطتها، حتى بحث عن ذلك في الهويات أو المجموعات الفرعية.

(٤٦) رفيق نصر الله، في الشريط الوثائقي نفسه.

(٤٧) Cherif, «La crise entre l'Islam et l'occident n'est pas une fatalite».

البعد الديني اكتسى أبعاداً طائفية ومذهبية (سنية ـ شيعية) تجاوزت البعد المسيحي ـ الإسلامي؛ فبعد سقوط العراق، وانهيار المشروع القوميّ، أصبح التاريخ المُعاصر ساحة تنافس إقليميّ بين الإيرانيين من جهة، والسعوديين والمصريين من جهة، والأتراك من جهة أخرى. صراع تغذّيه الذاكرة التاريخية الألفيّة. وبذا كان على الفضائيات الإخبارية، التي يتناولها هذا البحث، كما على كل وسائل الإعلام العربية، أن تأخذ موقعاً في هذا الاصطفاف. اصطفاف كان لمشروع الشرق الأوسط الجديد الأمريكي أن يراهن عليه. لأن الشرخ السني ـ الشيعي الذي أُطلق من العراق كان الشرخ الفئوي الوحيد القادر على اختراق العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. كُتلتان تتواجهان داخل الإسلام وداخل كل مجتمع عربي إسلامي. وإذا كانت تمزّقات كهذه لا تشكّل قدراً على المدى البعيد، فإنها تظل مرهونة بدمقرطة المجتمع على أساس مفهوم المواطنة. وهذا ما يُبنى ببناء الثقافة الديمقراطية بدءاً من بناء الفرد المستقل على أساس الخيارات العقلانية النقدية الحرة، ووصولاً إلى بناء التيارات الفكرية والأحزاب السياسية العابرة للإثنيات والطوائف، والتي تقبل كلها بالتعددية والصراع الفكري في صميم الشعب. ثقافة لا تتحقق بمجرد إقرار إشكال ديمقراطية من أعلى، تبقي كل الخراب القائم، بل وتكرّسه.

أمّا الهويات الفئوية الإثنية فإنّها، قد تشكّل مجرد عائق محدود للاندماج الوطني، وقد تشكّل مشكلاً انفصالياً حقيقياً كما هو حال الأكراد، وقد تشكّل تهديداً قائماً للمستقبل، إذا لم يتم تفاديه، كما هو حال الأقباط المرشّح لأن يشكّل مشكلة مزدوجة، إثنيّة ودينيّة في آن. أمّا في المغرب، فإن المشكلة العميقة بين العرب والبربر تفترض تحديداً واضحاً للعروبة كهوية ثقافية تعددية لا كهوية عرقية. تهديدات لا يمكن تلافيها إلا ببناء مفهوم المواطنة الذي يمنع تضارب الهويات الجزئية ويرسم إطار ديمقراطية تقوم على دولة القانون، دولة المواطن. وهنا يتقدم دور الإعلام في بناء هذه الثقافة أو تلك.

أخيراً، البعد القبلي فهو قائم بشكل أو بآخر في أساس العلائق الاجتماعية؛ فالمجتمع العربي، بنسبة أو بأخرى ـ بحسب المناطق ـ هو ذو تشكيل قبلي قد يحمل اسم القبيلة أو العشيرة أو العائلة. ومنذ الجاهلية كان الشاعر الموصوف بـ صحافي عصره، صوت قبيلته والمدافع عن منظومة قيمها، ما يفسّر لجوء الرسول (ﷺ) إلى استبعاد الشعراء لاستبعاد هذه

المنظومة القيميّة القبلية في سبيل التمكن من بناء الدولة. شاعر هذه المرحلة لا يعبّر عن نفسه بالـ «أنا» بل بالـ «نحن» القبلية؛ في العصر الحديث نجد الخطاب الإعلامي يتأرجح بين أكثر من «نحن» تتقاطع وتفترق في فضاء لم يجد بعد جواباً غير قابل للمناقشة عن السؤال الجوهري: من نحن؟ هذا ما يمنع تشكّل الـ «أنا»، وما يفسح المجال للحضور القوي للـ «نحن» الفرعية، الفئوية، في غياب الـ نحن الوطنية والقومية في الخطاب الإعلامي، وبخاصة في الفضائيات الإخبارية التي ولدت بعد سيادة مجتمع الاتصالات المرتبط بالعولمة وما تبعه من تحولات في المنطقة. إن من شأن إرساء مجتمع الاتصالات أن يكسر الأطر القبلية، كما إن من شأنه أن يؤكدها أو أن يعيد تشكيلها (كما يقول ماكلوهان)، وذلك بحسب الخطاب الذي يتبناه وبحسب تطوّر الفعاليات الأخرى في المجتمع. وبذا يصبح تطبيق مفهوم الإعلام الأخلاقي حاجةً ملحّة لضمان الآثار الإيجابية على طريق الدمقرطة.

١ ـ النقاش حول الإثنيّ ينزلق إلى العنصرية والعنف

ثمّة أخبار ومواضيع من شأن إثارتها في دولة حديثة أن تؤدي إلى المحاكم، ذاك أن تناولها محرّم قانوناً، خاصّةً تلك التي تقع في دائرة قوانين مكافحة العنصرية. غير أنّنا نراها تتدفّق على شاشات الفضائيّات العربية؛ فالمنطق العرقي أو الإثني المحظور في الغرب يصبح هويّةً أصيلة ومادةً لأكثر البرامج الحوارية عنفاً. كانت الجزيرة أوّل من راح يُثيرُ قضيّة البربر في المغرب، وقبل حرب العراق بأيّام بثّت برنامجاً خاصاً عن الكلدان في العراق؛ في نشرة أخبار ١ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، بثّت تصريحاً عن إنشاء حزب سياسي فرعوني في مصر: «نحن نرفض العروبة والإسلام. أين كان العرب عندما كنّا نبني الأهرامات؟ نطالب بتعليم اللغة الهيروغليفية. على الولايات المتحدة أن تغيّر الأنظمة في المنطقة.»[48] المسمّيات الإثنيّة تتكرر في كل البرامج، والمشكلة ليست في طرح موضوع ما، بل في طريقة تناوله. خاصة وأن هذه المواضيع لم تجد حلّها بعد في إطار المواطنة، دولة القانون، دولة حقوق الإنسان والدولة الأمة الكاملة السيادة. لذا، فإن مناقشتها في إطار هذه المبادئ يساعد على التطوّر الاجتماعي والسياسي في هذا الاتجاه، وإلا فإنها

(٤٨) حصاد اليوم، ١ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

تكون مادة للتلاعب والإثارة وفي النّهاية لتفتيت الدولة، تفتيتها جغرافيّاً وديموغرافياً بخلق الرفض والحذر وحتى الكراهية بين المواطنين. بذلك تُلغى الـ «أنا» الحرّة العاقلة لحساب عقلية جماهيرية قطعانية غرائزية، وتُلغى الـ «نحن» الوطنية لصالح «نحن» عرقية مدمّرة.

يشكّل العراق النموذج الأوضح الذي تعكسه البرامج الإخبارية؛ فحتّى في برنامج يعتمد الأسلوب الهادئ كبرنامج «مواجهة» على قناة أبو ظبي، يصل الضيوف العراقيون، أكراد وعرب، مرّتين إلى الضرب بالأيدي والصّراخ والشّتائم؛ في المرّة الأولى، كان البرنامج يستضيف ناشطين عراقيين، **أحدهما**، كردي **والثاني**، تركماني. الكردي يهاجم مُحاوره صارخاً: «يتامى أتاترك، طوراني، كمالي»[49] ليتحوّل النقاش إلى شجار عنيف. الأمر نفسه حصل بين الكردي شيراز اليزيدي وسليم مطر الكاتب الفلسطيني على شاشة الجزيرة في برنامج الاتجاه المعاكس[50]. ليس الحوار ومضمونه ما يفسّر هذا العنف، وإنّما هو حقد الأكراد على تركيا يسقطه المحاور الكردي على التركمان العراقيين وبالتالي على محاوره وضد العرب في آن، باعتبار أنّهما يُعيقان انفصال واستقلال كردستان.

النموذج الثاني من «مواجهة» هو حلقة بين عراقيين، وميض نظمي وانتفاض قنبر، يشتبك فيها الطرفان بالأيدي بعد تبادل اتّهامات وشتائم[51]. هنا تتشابك عنصريتان: الإثنية: فارسية ـ عربية، والمذهبية سنّية ـ شيعية؛ فقنبر هو رجل أحمد الشلبي، الزعيم الشيعي المرتبط بإيران والأمريكيين، ونظمي هو القومي العربي، وكلاهما متشدد.

المشهد نفسه يتكرر في حلقة أكثر عنفاً حول إعدام الرئيس صدام حسين عام ٢٠٠٤[52]، حيث يصل مشعان الجبوري إلى ضرب صادق الموسوي التابع لحكومة الاحتلال، وذلك بعد أن يكشف الجبوري على أن صادق الموسوي هو اسم مستعار وأن الاسم الحقيقي للرجل هو اسم إيراني

(٤٩) برنامج «مواجهة» (أرشيف قناة أبو ظبي ٢٠٠٤)

(٥٠) برنامج «الاتجاه المعاكس» (أرشيف الجزيرة، ٢٠٠٤ -فيديو).

(٥١) برنامج «مواجهة»، ٢٣ أيار/ مايو ٢٠٠٤ (أرشيف قناة أبو ظبي).

(٥٢) برنامج «الاتجاه المعاكس» ٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧ (أرشيف الجزيرة).

«شابور»، ما يفسر عنف المواجهة بين الطرفين، وبخاصة عندما نعرف أن الجبوري كان معارضاً لـ صدّام حسين، ما يعني أن عروبته في وجه فارسية الآخر هي التي تحرك عنف المواجهة.

هذه المواجهات العنيفة على أساس عرقي لا تختلف في منطقها عن منطق الخطاب الهادئ في الأخبار. مثلاً نشرة «حصاد اليوم» ليوم ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٤، تصنّف المتظاهرين ضدّ مجلس الحكم العراقي على أساسٍ إثنيّ وديني: «عشائر عراقيّة... جبهة علماء المسلمين... عشيرة الزباعي». كما يطرح المذيع سؤالاً على رئيس المجلس غازي الياور: «أنتم كعشيرة، ما هو موقفكم؟»[٥٣] ثمّ يضيف أن الأكراد يتظاهرون مطالبين بالكونفدرالية، في حين ترفض تركيا الفدرالية القائمة على أسس عرقية.

غير أنّ المشكلة تتجاوز الخطاب الإعلامي؛ فالعِرقيّة مثبّتة في الدستور العراقي الجديد الذي تمّ التصديق عليه في ١٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥، حيثُ ينُصّ على: «يشكّل العرب جزءاً من الأمّة العراقية». أما فوز الدستور بالأكثرية الساحقة في الاستفتاء، فيعود إلى فتوى للإمام آية الله علي السيستاني المرجع الشيعي الأعلى في العراق. يومها بدأت صحيفة **لوموند** (*Le Monde*) الفرنسية، تقريرها عن الاستفتاء بما قاله لمراسلها ناخب عراقي: «أعرف أنّ هذا الدستور ليس في مصلحة العراق، لكن السيستاني أمرنا، وعلينا أن نطيع»[٥٤]؛ في أوضح مثال على انمحاء الفرد وخياراته العقلانية، الحرّة، كما على عبثيّة العملية الانتخابية وعبثيّة التدابير الديمقراطية في غياب ثقافة ديمقراطية. إذ لا يتحقق العبور من المجموعة إلى المجتمع ومن المجتمع إلى الدولة الديمقراطية بمجرّد حصول انتخابات. كما لا يمكن الديمقراطيّة أن تتحقق ببضعة قرارات تُتّخذ من أعلى، بناءً على حساباتٍ مصلحيّة بين متطلّبات القوى الأجنبيّة المُهيمنة والتنازلات الفئوية الداخلية. تبدأ الديمقراطية، بتحرير النقاش العام والصراع الفكري بين الرؤى والتيارات الفكرية المُترجمة إلى برامج وإصلاحات؛ فهل ينطبق هذا المُعطى على الساحة اللبنانية طالما أن لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي يُقِرّ الحريات العامّة، التعدُّديّة الفكريّة والحزبيّة،

(٥٣) «حصاد اليوم»، ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٤ (أرشيف الجزيرة).

(٥٤) *Le Monde*, 15/1/2007.

الانتخابات الدوليّة وتداول السلطة؟ عناصر كان من الممكن أن تؤدّي إلى جواب إيجابي لو لم يكن النظام السياسي اللبناني قائماً على المُحاصصة الطائفية (علماً بأنّه لا وجود لاختلافات إثنية تذكر بين مكونات الشعب اللبناني)، فهل كان النموذج اللبناني مفيداً لسائر المنطقة العربية؟ وبالأحرى، هل شكّل نموذجاً للمحاصصات الطائفية الطارئة؟

٢ ـ اللبننة: المحاصصة الطائفية على الأرض وفي خطاب وسائل الإعلام من لبنان إلى العراق

في برنامج لقناة الجزيرة حول وسائل الإعلام اللبنانية[٥٥]، يكرر المذيع أحمد منصور ١٩ مرة كلمات مسيحي، سنّي، شيعي. ويتابع الوزير الرد عن الأسئلة من دون أن ينتبه أن من واجبه كوزير رفض هذه التوصيفات الطائفية. لأن في ذلك تواطؤاً ضمنياً لا شعورياً، أم أنه الواقع الذي يفرض الخطاب، كما يعيق عمل الدولة؟ ذاك ما يعبّر عنه النائب القاضي الراحل وليد عيدو، في برنامج آخر «قضايا الساعة» مع محمد كريشان: «تفرض الحياة السياسية اللبنانية، بتعقيداتها الدينية والمذهبية، توزيعاً يخلق نوعاً من الحصانة لكل واحدة من القنوات، حيث يحميها الزعماء والطوائف وغياب القوانين» في البرنامج نفسه، يسجل أستاذ الإعلام نبيل دجاني اعتراضاً: «حتى المجلس الأعلى للإعلام الذي يُوصف بالمنتخب، تمّ تعيين أعضائه على قاعدة التوازن الطائفي، لا على قاعدة الكفاءات»[٥٦].

في وضع تلفزيون المنار، يبدو من الصعب التوفيق بين متطلبات صورة الوحدة الوطنية، بمعناها الحديث، وصورة الصوت الإعلامي لحزب الله، اللهم إلا ضمن التركيبة القائمة على الطبيعة الطائفية للمكونات الأخرى للبلاد. «كانت المهمة الأولى للمنار خلق فضاء من المشروعيّة لصالح المقاومة المسلّحة ضد الاحتلال الإسرائيلي، مقاومة مُحرّضها إسلامي ورمزيّتُها ذات مرجعيّة شيعيّة. كان لا بدّ من البدء بتصليب وإعادة إنتاج

(٥٥) حوار مع وزير الإعلام اللبناني غازي العريضي في إطار برنامج «بلا حدود»، ٣٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

(٥٦) «إشكالية السياسة والإعلام في لبنان»، قضايا الساعة، ١٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ (أرشيف الجزيرة).

القاعدة الشيعية لحزب الله، وببنائها كمجموعة سياسية، ما يقتضي إعادة إنتاج نظام تقديم صورتها الذي ينهل مرجعياته من الذاكرة الجمعية للاستشهادية الشيعية. وبذلك تحدد أطر رؤيتها التي تسمح لجمهورها بأن يرى، يميز، ينظّم، ويحدد موقع الأحداث التي تدور في محيطه، في حياته وفي العالم»[٥٧]. ذاك أن «المقاومة ليست فقط مسألة قتال. فأن تُقاوم يعني أن تبدع، هنا والآن، عدداً من الممارسات العملية التي تدلّل بشكل ملموس على الشروط اللازمة لكي تكون الأشكال الجديدة للمجتمع والحياة ممكنة»[٥٨]. فأية أشكال هذه تستطيع طرحها قناة تلفزيونية تمثّل حزباً طائفيا في بلد قائم على التوزيع الطائفي؟ طبيعيّ أنّها لن تكون أشكالاً علمانية أو دعوة إلى الفصل بين الدين والدولة. تطلّعان يظلان محصورين بأقليّة من اللبنانيين المؤيدين لأحزاب اليسار أو القوميين خاصّة الحزب السوري القومي الاجتماعي الأكثر وضوحاً في موضوع العلمنة. غير أن هذه الأحزاب هي حليفة لحزب الله ضمن جبهة المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي وضد المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد. من هنا الحاجة لخطاب مُوَحِّد كما يؤكّد المدير الأول للمنار نايف كريّم «إن مجتمعاً يواجه مُحتلاً يجب أن يتمسك بالوحدة الوطنية، بالتضامن، بإجماع وطني حول تحديد العدو وحول المقاومة. ما يفرض على وسائل الإعلام خطاباً يعكس هذه المبادئ»[٥٩]. من هنا، حاولت المنار، بعد تحرير جنوب لبنان، أن تتجاوز صورة الإعلام الحامل «لهوية حزب الله وكل ما يتعلّق به من مشروعيّة إزاء قاعدته الشيعية»[٦٠]، إلى صورة إعلام وطني شامل. وكما عمل حزب الله على تقديم نفسه «كفاعل مندمج في الساحة السياسية الدستورية اللبنانية وحريص على اكتساب مشروعية عابرة للطوائف، نقلة لا يكفيها المشاركة في الانتخابات البلدية والتشريعية لتأمين هذا الاندماج، لأن الانتخابات نفسها تقوم على

(٥٧) Olfa Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah,» *Conuences en Méditerranée* (avril 2009), <http://hal.inria.fr/docs/00/37/35/49/PDF/Lamloum-manar.pdf>.

(٥٨) Miguel Benasayag et Diego Sztulwark, *Du contre-pouvoir*, préf. inédite de Miguel Benasayag; trad. de l'espagnol par Anne Weinfeld (Paris: La Découverte, 2002)

(٥٩) نايف كريّم، «دور وسائل الإعلام في المُقاومة ضد الاحتلال الصهيوني،» (محاضرة في دار بيروت، ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧).

(٦٠) Lamloum, «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah».

أساس طائفي. لذا اتّجهت المنار نحو الشباب: ففي عام ١٩٩٦ نظّمت، بالتعاون مع الاتحاد الوطني اللبناني لكرة القدم، المهرجان الوطني الأول لكرة القدم في لبنان بعد الحرب ليصبح المهرجان موعداً سنوياً يشارك فيه جميع الصحافيين المهتمّين بالرياضة من مختلف وسائل الإعلام اللبنانية؛ في عام ١٩٩٨، نظّمت المنار «مهرجان التفوّق» لتكريم أوائل الامتحانات في مُختلف المؤسسات التعليمية اللبنانية، مهرجان أصبح بدوره مناسبة سنوية. تطوّرات انفتاحيّة نحو المواطن، لم يكن لها حظّ كبير بالنجاح في مجتمع لا يرى نفسه إلا مجموعة طوائف، وفي سياق تاريخي يجعل من الشرق الأوسط ساحة استفزاز وتأجيج للانتماءات الطائفية. لذلك فإنّه بدلاً من أن تؤدّي حريّة التعبير والنقاش السياسي في لبنان إلى التقدّم نحو مجتمع حزبيّ عابر للطوائف إن لم نقل علماني، انتقلت اللبننة، بمفهومها الطائفي، إلى العراق لتجعل منه قناة إطلاق جديدة لها بعد الاحتلال. إطلاق تركز هذه المرة على البعد المذهبي السني الشيعي، إضافة إلى الأبعاد الأخرى من إثنية وطائفية أو مزدوجة.

وهكذا أصبح مشروع الشرخ السّني الشيعي هو الخطر الأكبر، لأنه يتهدد المنطقة كلها. ذاك أن خصوصيّة هذا اللون الجديد للفئويات الدينية تكمن في أنّه قادر على تجاوز محليّته ليطال العالم الإسلامي كله من باكستان إلى لبنان؛ فالصراعات التاريخيّة، النزاعات السياسية والعسكرية المعاصرة، وسقوط الدولة المُوحّدة، عناصر جعلت من العراق مناخاً نموذجيّاً لإطلاق هذا الصراع المعدي وجعله قنبلة موقوتة في كل زاوية من المنطقة. وعلى الرغم من أن الجهات المسؤولة تعرف مدى هذا الخطر، إلا أنها تجد فيه أيضاً وسيلة لتصليب قواعدها على أساس ردّات الفعل الطائفية. الأرض خصبة والأمريكيون هم أوّل من يُفيدُ منها إضافة إلى الإسرائيليين الذين تمكّنوا، ولأول مرة، من دعوة الدول العربية للتحالف معهم ضد عدو مشترك موحّد هو إيران والشيعة[٦١]. وسائل الإعلام بشكل عام، والفضائيات الإخباريّة بشكل خاص، أدت دوراً سلبياً عبر تسليط الضوء على كل ما يعمّق الشقاق، بل والاستفزاز مُقابل التعتيم على كل تعبيرات الوحدة الوطنية. دور نلمسه في

(٦١) دعوة أطلقتها تسيفي ليفني، من الدوحة في قطر ضمن فعاليات منتدى الدوحة للديمقراطية والتنمية والتجارة الحرة في دورته الثامنة، ١٣ نيسان/ أبريل ٢٠٠٨.

خطاب القنوات الأربع بنسب متفاوتة مع تقدّم العربية بشكل واضح، ما يفسر بانتماء القناة إلى العربية السعودية. حيث يشكّل الشيعة في المملكة الوهّابية، ٣٣ في المئة من سكّان الإحساء في الشرق وعسير في الجنوب، و٥٠ في المئة في الحفيف، و٩٥ في المئة في القطيف[٦٢] ومن الطبيعي أن يشجّع المدّ المذهبي على تشجيع هؤلاء الشيعة بالمُطالبة بحقّهم في المُساواة وحريّة التعبير والعدالة الاجتماعية. مطالبة يجعلها الظلم التاريخي أقرب إلى ردّة الفعل الانتقامية، التي تغذّي المذهبية وتتغذّى منها.

على الساحة العربية، تواجه المملكة الاتهام بتسهيل احتلال العراق وبإضعاف القضية الفلسطينيّة؛ في حين لا يغفر لها الإسلاميّون سماحها لقوّات الكُفار بالنزول قرب المواقع المُقدّسة. مُقابل إنجاز تحرير جنوب لبنان الذي حققه حزب الله مدعوماً من سوريا وإيران، إنجاز حفّز انطلاق الانتفاضة الثانية في فلسطين. بعد ذلك فازت حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، ومن ثم اندلعت المقاومة في العراق بأسرع ما توقّع لها المراقبون، لكن السنة والشيعة كانوا يتنازعون الفضل فيها ولم تتأخر منظمات إرهابية من مثل القاعدة عن اختراقها.

جوّ مُعقّد يميل أحياناً إلى الأصوليّة وغالباً إلى المذهبيّة، ويترك كل عنصر فيه تأثيراته على المملكة التي تحتاج إلى السلم الاجتماعي الذي يحتاج إلى التفاهم بين المواطنين السنة والشيعة. هنا يبرز لدى الطبقة السياسية الحاكمة والدينية اتجاهان:

الأول، يجد في حوار الحضارات والأديان، والتقارب السعودي - الإيراني، والإصلاحات السياسية طريقاً لهذا السِّلم الاجتماعي. وقد بدا أن هذا الخط هو خيار الملك عبد الله في بدايات حكمه.

أما **الثاني**، فيرى في الموجة المذهبية وسيلة لإبعاد التهديدات. لأن هذه التهديدات لا تأتي من الطرف الشيعي فحسب، بل من الإسلاميّين والعروبيّين

(٦٢) Xavier de Planhol, *Les Nations du Prophète: Manuel géographique de politique musulmane* (Paris: Fayard, 1993).

ورد في: Fatiha Dazi-Héni, *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*, préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar, collection académique (Paris: Les Presses de Sciences po, 2006).

الغاضبين من تحالف المملكة مع الأمريكيين وبخاصة بعد احتلال أفغانستان والعراق. لذلك، فإنّ من شأن صعود المدّ المذهبي أن يُنسي السنة من هؤلاء، انتقاداتهم واتهاماتهم ويجمعهم حول النظام الوهّابي، بل إنّه قد يجعلهم يبرّرون قَمعه للآخرين. وربما وصل أحياناً حد الاتساق المقصود أو غير المقصود مع متطلبات السياسة الأمريكية. هل من الأفضل البحث عن السلام الاجتماعي للحفاظ على نظام اهتزت مشروعيته العربية الإسلامية؟ أو أنه من الأفضل توظيف المذهبية لاستعادة اصطفاف السنة حول المملكة في مواجهة ما أطلقه الأمريكيون من فزّاعة «الهلال الشيعي»؟

يبدو أن العربية قد تبنّت الخيار الثاني، حيث إنّ خطابها المذهبي يتجاوز الخطاب السياسي المعادي لإيران إلى خطاب استفزازي ضد الشيعة سواء في البرامج الإخبارية أو حتّى في برامج التسلية.

يشكّل مسلسل «للخطايا ثمن» نموذجاً على ذلك. حيث إنّ المسلسل الذي أُنتج في استوديوهات إم.بي.سي. يسيء إلى الشيعة، فبطلته شابة شيعية تستغلّ زواج المتعة لتمارس الدعارة والنصب. كما يسخر المسلسل من المواقع الدينية المقدسة للشيعة ومن معتقداتهم. في الكويت مُنِع بث المسلسل بعد تظاهرة أمام مكاتب القناة. لكنّ الإدارة في دبي قرّرت بثّه بعد تدخّل الأمير بندر بن سلطان، السفير السابق في الولايات المتحدة والمعروف بتطرفه. وتقول مصادر القناة إن الأمير استند إلى فتوى الشيخ سلمان العودة أحد أئمّة الصحوات المعروف بتبنّيه سياسة إعلامية استفزازية ضد الشيعة، حيث وصفهم بالكفار في مقالة نشرها في جريدة **الجزيرة** السعودية صباح يوم العيد[٦٣] وقد عرف عن العودة فتواه حول الجهاد: «ليس الجهاد فرضاً دينياً، لأنّ له ظروفه، شروطه وفروضه وهذه غير متوافرة حالياً»[٦٤].

غير أنّ المُلاحَظ أن هذا الموقف الاستفزازي من الشيعة ليس معمماً على الخطاب السياسي للعربية، ما يُفسَّر بالأساس السياسي للموقف: فالقناة تهاجم حزب الله في لبنان والتيار الصدري في العراق، لكنّها تدافع عن الشيعة المتعاونين مع الأمريكيين في العراق وتصفهم بـ «العقلاء المعتدلين

(٦٣) وليد الإبراهيم ومسلسل «للخطايا ثمن»، ٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧.

(٦٤) المصدر نفسه.

والديمقراطيين»[٦٥]. بل إن عبد الرحمن الراشد يتباهى بشعبية العربية لدى شيعة العراق. أما اللبنانيّون فيصفهم بـ «جماعة إيران»[٦٦]. ما يفسّر موقف القناة من التظاهرة التي نظمتها المعارضة اللبنانية وعلى رأسها حزب الله عام ٢٠٠٥؛ كانت التظاهرة تضمّ مليون شخص، فلجأت العربية إلى عملية مونتاج للصور وقالت إنهم مئة ألف، لكنّها عادت بعد أن بثّت جميع القنوات الأخرى رقم المليون إلى تغيير صياغة الخبر بالقول «مظاهرة كبيرة» من دون ذكر الأرقام.

الأسلوب نفسه يتجلّى واضحاً في الشأن الفلسطيني، فالقناة مُنحازة إلى فتح ضد حماس (علماً بأن المنظمتين لا تضمّان إلا السنّة)، ما يؤكّد الأساس السياسي للموقف، وقد كان نبيل الخطيب المدير التنفيذي للقناة المُقرّب من محمود عباس والمعروف بعدائه لحماس، يراقب شخصياً الأخبار والصحافيّين، ما دفع بجمال دُملجي الذي كان يُصنّف كصحافيّ أوّل في القناة، إلى الاستقالة والتصريح بأنّه اضطر إلى ذلك نتيجة الإهانات والتلاعب المتكرّرين من قبل الخطيب، مما لا يمكن أن يحصل بدون ضوء أخضر من الإدارة[٦٧].

لا يغيّر في الأمر شيئاً أن يكون بين صحافيّي القناة عدد من الشيعة. حيث يؤكد نبيل الخطيب، أن القناة تحرص على توظيف الشيعة لإبعاد تهمة المذهبية، علماً أن على هؤلاء، كغيرهم، إطاعة تعليمات الرؤساء[٦٨]، من هؤلاء مراسل القناة في باريس الذي أجرى المقابلة الشهيرة مع عبد الحليم خدّام، بعد خروجه على النظام السوري.

لا يتفّق جميع المسؤولين عن الخطاب الإعلامي في الموضوع المذهبي: بعضهم يتبنّاه تعميماً وبعضهم يخضعه للمقاييس السياسية ولكن بعضهم يرفضه من مثل داود الشريان المُقرَّب من الملك عبد الله؛ فعندما استعاد الشريان مقالته في جريدة **الحياة** بعد فترة من الوقف، تبنّى خطّاً مُدافِعاً عن النظام في الموضوع الشيعيّ: «فيما يتعلق بأن الشيعة في المملكة لا يتحدثون عن

(٦٥) لقاء شخصي مع عبد الرحمن الراشد في دبي، أيار/ مايو ٢٠٠٧.

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) المصدر نفسه.

(٦٨) المصدر نفسه.

قضاياهم الخاصة أو قضايا العقيدة في وسائل الإعلام فهذا صحيح، لكن أنا أعتقد أنه في طريقه إلى التغير لأن هذه الحالة هي نتاج ثقافة شعبية واجتماعية. تطرح وسائل الإعلام العربية موضوع الشيعة في السعودية من وجهة نظر انفصالية، وهذا غير وارد عند الشيعة أصلاً، لأن الشيعة جزء من المجتمع السعودي في إطار الوحدة الوطنية ورموزهم حاربت مع الملك عبد العزيز وبايعته... قضية الشيعة ليست مع الحكومة بقدر ما هي مشكلة اجتماعية... نتج منها ـ مع التراكم ـ تقاليد وعادات بعضها أدى إلى قوانين. هذه القوانين ستتغير، وهناك في السعودية قناعة حكومية واجتماعية بضرورة التغيير ولا سيما بعد ما حدث في العراق، وظهور الشيعة العراقيين كعرب وكقبائل وتغيُّر الانطباع الذي كان موجوداً عن الشيعة والذي تسببت به الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩»[٦٩].

«الشيعة العرب»، «الصفويون»، «الفرس»، «الشعوبيون»، «السنة العرب»، «السنة التركمان»، «الأكراد»، «المسيحيون العرب»، «المسيحيون الفراعنة» أو «المسيحيون الصليبيون»؛ تعابير كثيرة تحوّل منطق التعددية إلى منطق التفسّخ والمواجهة وبخاصة أنّها تقترن أحياناً بنفسٍ دونيّ. وإذ يُضاف إليها مصطلحات جغرافية مُشابهة «المثلث السني»، «الهلال الشيعيّ»، «الشمال»، «الجنوب»، فإنها تبني معاً خطاباً إعلامياً مُلوَّثاً يعمّق الفئوية وبخاصة أن الفرد يشعر بالقلق والتهديد إذ يقف وحيداً أمام قوىً ساحقة فيبحث عن ملجأ يجده في جماعته الصغيرة وينكفئُ داخل «نحن» فرعية تجزيئية تحدّد نفسها بالعِرقِ والدين؛ فـ «الحاجة المأساة» التي يتحدّث عنها فرويد بقوله «إنّ المأساة السيكولوجية للجماهير هي الحاجة إلى الـ «نحن» «أصبحت مقترنة بعدد آخر من المآسي: مأساة الاحتلال العسكري المباشر، الاحتلال غير المباشر، الدكتاتورية، التبعية الاقتصادية خاصة في مجال الأمن الغذائي، غياب الديمقراطية ـ الاجتماعية، السياسية والدينية، وأخيراً الأفكار الموروثة عن الهوية.

غير أن الواقع الميداني يقدم وجهاً آخر للعملة، حتى ولو كان شاحباً..

(٦٩) داود الشريان، «هل يعيش شيعة العربية السعودية حصاراً إعلامياً؟،» **الحياة**، ٩/٩/٢٠٠٦، <http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a3bb96af-9bd2-41a3-bdde-fa3f8b4f24f4>.

وجهاً يحاول فيه المواطنون، بعفويّة شعبية أو بوعي، أن يُحافظوا على وحدة وطنية أو على الأقل على وحدة قضايا، سواء في النضال لأجل حقوق فردية أو لأجل حقوق وطنية. حيث نجد أن الحس المذهبي والإثني يتراجع عند صعود المطالبة بالقضايا العامّة المشتركة، لكن هذه الصورة وأصواتها هي الأقل حظاً في الظهور على شاشة الجزيرة أو العربية.

الحقيقة أكثر من عُملة، إنها بالأحرى قطعة كريستال، من هنا اختلاف آثار الخطاب الإعلامي على شرائح المُتلقّين لأنّ أيّ «نموذج نفسي ـ اجتماعي ـ معرفي (Psycho-Socio-Cognitif)، لتأثير الاتصال التلفزيوني السياسي يتضمّن مختلف العناصر التي تؤثر على النشاط المعرفي للفرد»[٧٠] من هنا السؤال: ما هو السياق المعرفيّ الذي يسلكه المتلقّي لإعادة إنتاج الأخبار والمعلومات؟[٧١] سؤال تقتضي الإجابة عنه جمع وتحليل الفعاليّات الذهنيّة، النفسية واللغويّة للفرد التي تفاعلت خلال التلقّي. علماً أنّ عملية «الإقناع، باعتبارها فعاليّة معرفية يمارسها المتلقّي عبر معالجته للمادّة الإخباريّة، لا يجوز أن تهدف فقط إلى تصريف الانفعالات وإلى الاستحواذ بعيداً عن فعالية التحليل»[٧٢].

(٧٠) Marie Pierre Fourquet, «Nouveau regard sur les émissions politiques vers un récepteur complexe,» dans: Courbet et Fourquet, dirs., *La Télévision et ses inuences*, p. 54.

(٧١) المصدر نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.

خاتمة

«بعد عصر المدفعيّة وبعد عصر التجارة والمال، باتت تقنيّات الاتصال وشبكاته تُمثّل الجيل الثالث من هيمنتنا على العالم»[١].

أن تُهيمن على العالم يعني أن تُهيمن على ثلاث: **أولاً**، الفضاءات والمواقع الجيوستراتيجيّة، **ثانياً**، الثروات الطبيعية، وبخاصة موارد الطاقة، على امتداد الكرة الأرضيّة، **وثالثاً**، الأفكار. هيمنة لا يمكن أن يخرج عنها السؤال المركزي لهذا البحث: أي تغيير؟!

لقد حاولنا عبر **الأقسام** الثلاثة لهذا الكتاب، أن نتبيّن العلاقة بين هذه الهيمنة وبين ثورة الاتصالات خاصّةً على ساحة العالم العربي، عبر نموذج بحثٍ: الفضائيات العربية الإخبارية. وقد حددنا الفترة الزمنية ما بين حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية واحتلال العراق، لاعتقادنا أن جذور التغيير الحالي في العالم العربي وفي العالم كله تكمن في هذه المرحلة التي ترجمت موت نظام عالمي قديم، وبروز، ومن ثَمّ، إرساء نظام عالمي جديد عولمي فرض ترجمته على الساحة العربية. وإذا كنا لم نتجاوز هذا التاريخ فلسببين: **الأول**، هو ضرورات البحث العلمي الذي لا يجوز له أن يطاول مدة زمنية أطول، **والثاني**، وهو الأهم، قناعتنا أن التطورات التي أعقبت تلك الفترة سارت في سياق صراع بين هذا النظام المفروض وبين محاور ومقاومات حاولت التصدي له باتجاه بروز نظام عالمي آخر، جديد ما بعد الجديد، من دون أن نهمل الجذور التاريخية البعيدة من اجتماعية وسياسية واقتصادية التي لا

(١) Zbigniew Brzezinski, dans: Jean-Noël Jeanneney, *Une histoire des médias: Des origines à nos jours*, Points. Histoire; 252, nouv. éd. rev. et complete (Paris: Ed. du Seuil, 2001), p. 315.

بد منها لفهم الحاضر والأسس. وقد فرض علينا تعقيد هذا البحث أن نعتمد أكثر من مُقارنة منهجيّة. غير أنّ ما يُوحّدها هو ضرورة أن تبدأ كُل منها بالإطار العام، الدولي والإقليمي وأخيراً المحلي، لنتمكّن من تحديد السياق الذي نضع ضمنه موضوع البحث.

لقد حاول البحث أن يتبيّن بنية النّظام الذي تحكّم بالقنوات الفضائيّات العشر الأولى، التي أنشِئت بين عامي (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣)، وذلك لرسم المشهد الذي يتحدّد ضمنه وضع القنوات الإخباريّة التي أُنشئت لاحِقاً (الجزيرة، أبو ظبي، العربيّة والمنار). ومن ثَمّ حاولنا تبيُّن آليّات المُحيط، المالكين، المُموّلين وتواريخ وأمكنة الإطلاق، بما يحمله كل من هذه العناصر من دلالات. ووصلنا إلى أنّ هؤلاء المالكين هُم: أعضاء من الأُسر الحاكمة في الخليج، زعماءُ أحزاب وطوائف في لبنان، رجالُ أعمالٍ مصريون وعراقيّون مرتبطون بالسلطة السياسية، مُنشقّون عن حكم البعث في سوريا والعراق. أمّا دراسة سيرةِ كُلّ منهم فتؤدي إلى الشبكات الاقتصادية والسياسيّة التي ترتسمُ في الفضاء الإقليمي والدولي. ما يلتقي مع سؤالٍ طرحه أُستاذا الإعلام في الإمارات محمد عايش والدكتورة عائشة عبد الله، في ندوة لمركز دراسات الخليج: «دورٌ سياسيّ لحسابِ من؟ إنّ مالك المحطّات الإخباريّة هو النظام الرسمي. إذاً، عن أيّ دور سياسي يُمكن أن نتحدّث؟ الأحرى بنا أن نبحث عن الإقصاء والتلاعُب»[٢].

أمّا البحث عن التمويل، العائدات الإعلانيّة وعائدات الخدمات فيّدلّل على أنّ أغلبيّة المحطّات لا تُحقّق توازناً في الميزانيّة ولا تفي بتكاليفها. لذا فإنّ المحطّات الأربع موضوع البحث تُموّل، إمّا مُباشرةً من قِبل الحكومة (الجزيرة) و(أبو ظبي حتى ٢٠٠٤)، وإمّا بطريقة غير مباشرة من قبل العائلة الحاكمة السعودية (العربية)، وإمّا من قِبل حزب سياسي (المنار). ويُفسّر العامل السياسي هذه الإشكاليّة المُتعلقة بالتمويل. هذا العامل تؤكّده أيضاً تواريخُ الإطلاق التي تزامنت مع أحداثٍ سياسيّة مِفصليّة في العالم، وبخاصّة سُقوط جدار برلين وبُروز النظام العالمي الجديد. كما مع أحداثٍ تاريخيّة مفصليّة في العالم العربي، وبخاصّة حربا العراق وتطوّرات الصراع العربي ـ

(٢) حوارٌ حول وسائل الإعلام العربيّة، مركز دراسات الخليج، الشارقة، ٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦، <http://www.magrebia.com/cocoon/awi/xhtml1/ar/features/awi/futures/5/09/2006/>.

الإسرائيلي. كذلك يتأكد هذا العامل باختيار التوطين وإعادة التوطين للمحطّات والباقات. يعتبر دومينيك والتون أنّه « إذا كان للفاعلين الاقتصاديين والتقنيّين مصلحةٌ قطعيّة في إعادة التوطين، فإنّ بإمكان الفاعلين السياسيّين أن يُحافظوا على توطين مُستقلّ عن المصالح الدقيقة لصناعات الاتصالات وأن يقيسوا بواقعيّة مسافاتهم بالنسبة إلى ثورة المعلومات وتأثيرها على المجتمع»[٣]. غير أن الخيار بين الوضعيّتين مُرتبط، في حالةِ الفضائيات التي تتناولها هذه الدراسة، بأسبابٍ اجتماعيّة وسياسيّة بقدر ارتباطه بأسباب اقتصادية. إذ لم يكُن بإمكان المحطات والباقات السعوديّة أن تستجيب لمتطلبات العولمة والليبراليّة وهي تبُثُّ من المملكة، لذلك كان لا بُدّ من إطلاقها من أوروبا، ولذلك عندما عادت بعد ١٢ سنة، لتتوطّن في العالم العربي، لم تعد إلى المملكة، بل توزعت على دول عربية أخرى كالإمارات والأردن ولبنان ومصر. وهكذا عادت إم بي سي إلى دبي، حيثُ أطلقت العربيّة عام ٢٠٠٣. بينما كانت المحطّات التي يملُكها مُنشقّون سياسيّون مُضطرّة للمنفى لأسبابٍ سياسيّة فحسب. على العكس من ذلك، جعلت المحطّات التي تبُثّ من عواصمها، من بثّها وسيلةَ تأكيد حُضورٍ سياسيّ؛ حُضور الدولة والنّظام كما في حال الجزيرة وأبو ظبي، وحُضور الحزب السياسي كما في حال المنار.

تشترك المحطّات الأربع، في أنّها ذِراعٌ إعلاميّة لجهاز دولةٍ أو حزبٍ سياسيّ ولذلك حاولنا تبيُّن الخط السياسيّ لكُلّ منها عبر البحث في مجموعةِ عناوين: من هي؟ من الذي يُسيطر عليها؟ كيف ترتسم خريطةُ الفاعلين في داخلها، صحافيّين ومُذيعين، وخريطة جدول البرامج والتطورات التي كانت تطرأ عليه؟

حرصت الجزيرة في مرحلتها الأولى أن تؤكّد خطّ «الرأي والرأي الآخر»، واستطاعت أن تُحافظ على ذلك، نسبيّاً، خلال السنوات الثماني الأولى (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٤)، ولذلك عكست هذا الشعار في تنوّع مُذيعيها وصحافيّيها وبرامجها. ولكنّها قناة تُدارُ مُباشرةً مِن قِبل الدولة القطريّة، رئيسُ مجلس إدارتها ليس إلّا وزير الإعلام السابق ابن عمّ الأمير، وهو من يُعيّن أعضاء مجلس الإدارة، ولذلك كان من الطبيعي أن يتحوّل خِطابها وينقلب إلى الضِدّ إذا ما اقتضت السياسة القطريّة ذلك. كان المُدراء العامّون، رؤساء

(٣) Dominique Wolton, *Penser la communication* (Paris: Flammarion, 1997), p. 239.

الأقسام ومقدمو البرامج الرئيسة، يعكسون التوازن بين الجنسيّات العربيّة المُختلفة والتيّارات السياسيّة المُختلفة، ولو من حيث الشكل كما تبين لنا بعد أحداث الثورات العربية: الإسلاميّون، الليبراليّون، القوميّون العرب ولكن، لا وُجود لليسار أو للعلمانيّين. (بعد ٢٠٠٤ تحالف القوميّون والإسلاميّون ضدّ الليبراليين كما فصّلنا في تحليل تغيير المُدراء، ثُمّ لم يلبث أن طغى عليها الخطّ الإسلامي، وبخاصّة الإخوان المسلمون).

قناة أبو ظبي مرتبطة بدورها بالسلطات السياسيّة للإمارة. لذلك كانت تنتهج خطاً عروبياً واضحاً ومتحمساً، وخطاباً إسلامياً معتدلاً متسامحاً لا يتقدم على الخطاب القومي. لكن هذا الخط العروبي القوميّ مني بنكسة وبردةٍ مع التغيرات التي أعقبت احتلال العراق ووفاة الشيخ زايد وخُروج القناة من دائرة القنوات الإخباريّة. أمّا العربيّة، فلا يوجد أي تغيير جذريّ في خطّها السياسي على امتداد مسيرتها لأنها صوت العربيّة السعوديّة، إذ هي من دُول الاعتدال العربي والسياسات الأمريكيّة.

لذا لا يُمكن تفسير الظواهر التي أُطلق عليها تسميات «اللبننة»، «نزع اللبننة»، «المغربة»، «التوازن» أو «عدم التوازن» الطائفي والمذهبي سواء في المحطات الخليجيّة أو في المنار، إلا تفسيراً سياسيّاً، وهُو التفسيرُ نفسُه لظاهرةِ تهميش أو تشجيع المواطنين في الخليج، وظاهرة الحصريّة شبه التّامة للّبنانيّين في المنار. والتفسير السياسيّ هو ما يوضحُ كون جداول البرامج تتشابه في الشكل، بينما تختلف كُليّاً في المضمون والتّوجّه.

جيوبوليتيكياً، لم يكُن بالإمكان وضع ظاهرة الإعلام الفضائيّ العربي في موقعها إلا بتحليل ثلاث دوائرَ مُتعاقبة: النظام العالمي الجديد؛ النظام الإقليمي والعربي الجديد؛ أخيراً المُنافسات أو الصراعات القائمة في كُلٍّ من الدول المعنيّة، **الدائرة الأولى**، هي دائرة العولمة، إذاً اقتصاد السوق، مجتمع الاتصالات وعولمة التقنيّات. **الدائرة الثانية**، تستجيبُ لمُتطلّبات هذه العولمة بعمليّة تكيُّفٍ إراديّةٍ أو بالقُوّة، في كُلّ المجالات ومنها الاتصالات. ما أنجب الفضائيّات. بناءً على المعادلة التالية: إذا كانت حاجة الإمبراطوريّة الأمريكية للبقاء تفرض الهيمنة على المناطق الاستراتيجية وفي مُقدّمتها الدول النفطيّة والشرق الأوسط، فإنّ حاجةَ الأنظمة العربيّة الغنيّة للبقاء تفرض عليها التكيّف مع العولمة ومُتطلّباتها، ومن هذه المُتطلبات: مُجتمع الاتصالات.

أمّا التنافس التاريخيّ بين العواصم العربيّة على دور المركز، فإنّه يُفسّرُ اللجوء إلى الإعلام كسِلاحٍ في هذا التنافس، خاصّةً الإعلام السمعي - البصري الفضائي الذي أصبح وسيلةً لتأكيد الحُضور والدور. **أخيراً**، تأتي المُنافسات داخل الأجنحة المُختلفة في الأسرة الحاكمة الواحدة، لتُقدّم واحداً من تفسيرات هذه التعدّديّة في الباقات والقنوات. كُلٌّ يريد أن يجعل من الميديا وسيلةً من وسائل إثبات وجوده وتدعيم موقعه. أمّا الغرب فيُشجّعُهُم بقوّة لأنّ «عولمة التقنيّات هي عولمة الاقتصاد»[٤] وعولمة الاقتصاد تحتاج إلى تغيير الأفكار بقدر ما تفرض تصدير التقنيّات.

يُمثّل المشهد اللبناني خُصوصيّةً مُحدّدة: هو الفضاء الوحيد الذي تتمثّل فيه جميع القوى الإقليميّة. هو الوحيد الذي يعيشُ مُواجهةً قويّةً مُتوازنة بين السياسة الأمريكية ومُقاومة المُنظّمة ضدّ الأمريكيّين والإسرائيليّين مُرتبطةٍ بمحور إقليميٍّ إيرانيّ - سوريّ. لهذا المحور صوته الإعلاميّ العربيّ المُتمثّل في تلفزيون المنار الذي تحوّل إلى البث الفضائي مع تحرير جنوب لبنان عام ٢٠٠٠. كذلك يتميّز البلد بتركيبته الطائفيّة والسياسيّة التي جرّته إلى ١٧ سنةٍ من الحرب الأهليّة. كانت كُلّ من هذه الطوائف والقوى تُمثّل، في هذه الحرب امتداداً لقوّة إقليميّة، وكان لكلّ منها إذاعتها ومن ثُمّ محطته التلفزيونيّة، «حواجز إعلاميّة» بحسب تعبير رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري. جاء التنظيم بعد الحرب ليحتفظ بوسائل الإعلام القويّة فحسب، والتي تُمثّل القوى المحليّة والإقليميّة الأساسيّة. وهكذا كانت المنار صوت حزب الله، صوت حزب المُقاومة، اللبنانيّة، ثُمّ العربيّة الإسلاميّة وصوت الشيعة (إلى جانب الـ إن بي إن). بعد التحرير عام ٢٠٠٠، سعت المنار إلى اكتساب صفةٍ عابرةٍ للطوائف وعابرةٍ للحدود اللبنانيّة وحقّقت فعلاً خُطوات مُهمّة على هذا الطريق. لكنّ هذا السعي أُصيب بانتكاسةٍ بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وأحداث لبنان عام ٢٠٠٥، وعُدوان عام ٢٠٠٦. حيثُ فرض صُعود المدّ المذهبي السّني - الشيعيّ في المنطقة انعكاساته على خِطاب القناة. بل على خطاب المحطّات لأنّنا نستطيع أن نجِد التعبير المباشر أو غير المباشر عن هذه المذهبيّة في كل أشكال تركيبات الشيفرة المكونة للرسالة

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

التلفزيونية (مادة اخبارية أو حوارية أو سردية.. إلخ.) ما يصُبّ في تبيُّن ما يُشكّل الفارق العلمي الكبير بين الحديث عن الأُطر والأشكال الديمقراطية، وبين بناء الثقافة الديمقراطية.

لذا خصصنا **القسم الثالث**، من هذا الكتاب، لمناقشة سؤال الدمقرطة بناء على رؤية سوسيوسياسية تقوم على معادلة (الفرد ـ المواطن) و(الـ نحن ـ المجتمع ـ الوطن ـ الدولة). معادلة لا تتشكّل الثقافة الديمقراطيّة إلا بها، أي ببلورة شخصيّة الفرد ـ المواطن والمُجتمع ـ الدولة، دولة الحقّ والقانون.

فتبلوُرُ الـ «أنا» القادرة على مُمارسةِ خياراتها العقلانيّة، وتبلوُرُ الـ «نحن» الاجتماعية والوطنيّة الحاضنة، لِكُلّ التعدديات والتنوعات، هُما شرطانِ يقعان في أساس مفهومِ المواطنة وبالتالي الديمقراطية. غير أنّ هذا التبلور بِشقّيه يصطدم، في العالَم العربي، بمُعوّقات مُتجذّرة تتمثّل بهويّاتٍ فرعيّة ـ تجزيئيّة، لا عقلانيّة؛ دينيّةٍ، مذهبيّةٍ، إثنيّة، قبليّة أو عشائريّة. وهذه الانتماءات الفئوية هي ما يُملي في الغالب الخطاب السمعي ـ البصري، ويتلاعب بمضمونه: سواءً خطابُ الجهة المُرسلة أم المتداخلون من الضيوف. كما يصطدم بغياب مفهوم الدولة ومفهوم الحق والقانون. غيابٌ له جذوره التاريخيّة وزاده تفاقماً المفاهيم التي نشرتها العولمة في حربها على الدولة والسيادة.

ناقشنا تجلّيات أو غياب الثقافة الديمقراطية وحضور المعوقات في خطاب الفضائيات موضوع البحث عبر تحليل المضمون وتحليل الخطاب في برامج ونشرات المحطّات المحددة بناءً على ٧٠ ساعة بث تم تسجيلها على أشرطة فيديو من أرشيف المحطات. لأنّنا نؤمن أنّ التغيير لا يُمكن أن يبدأ إلا بثقافةٍ ديمقراطيّة ولا يُمكن أن يتجذّر إلا بها، وإلا فإنّ كُل الأشكال والتدابير تقف عند حُدود تغيير في الشكل يُحِلُّ سلطةً لاديقراطيّة محلّ سلطةٍ لاديمقراطيّة ويُرسي وهم تحقّقِ ديمقراطية افتراضيّة تُعيقُ بناء الديمقراطية الحقيقيّة.

وعليه، واجه التحليل عدداً من الأسئلة حاولنا تفصيلها في أربعة فُصول:

١ ـ بدءاً من تحليل مضمون وخطاب برامج الحوار وتأثيرها، فهي التي شكّلت ظاهرةً جديدة في الفضاء العربي من حيثُ حريّة التعبير، التمثيل والمُحاججة؛ في ظلّ واقع عدم اتّساق هذه الظاهرة مع حُضور النقاش الحُرّ على الساحة العامة، ما يطرح السؤال المركزي: هل تستطيع هذه البرامج أن تُساهم

في خلق الفضاء العام، وبالتالي الرأي العام، كمفهومين علميّين اجتماعيين؟

التحليل يقودنا إلى «نعم» وإلى «لا». لأنّه يكشف عن نواقص وسلبيّات هذه البرامج، لكنّه يكشف أيضاً عن ميزاتٍ لعلّ من أهمّها إتاحة الفرصة للعُبور من «الاتصال الخطّي» (Connection Linéaire)، إلى تلقّي «إعادة التشكيل» (Configuration)، الذي يُعزّز الحسّ النقدي والـ «أنا» العقلانيّة. والواقع أنّ تأثير هذه البرامج قد يتجاوز الأهداف التي تضعها استراتيجيات الإرسال الموضوعة لها، ممّا قد يجعلها تؤسّسُ، على المدى البعيد، لتشكُّل وظُهور فضاءٍ عام. غير أنّ التحليل يكشفُ أيضاً عن أمورٍ مُعيقةٍ لهذا التّشكل ومنها أُسس اختيار أطراف النقاش، وطريقة إدارته، ومنها أُسس اختيار المواضيع، حيثُ نجدنا أمام قائمتينِ طويلتين من المواضيع المُهمّشة أو المُقصاة، وكُلّها مواضيعُ جوهريّة، سياسيّة، اجتماعيّة وثقافيّة. بحيثُ إنّ تهميشها أو إبعادها لا يسمحان بهذا التشكّل.

٢ ـ ولذا يدور السؤال الثاني حول هاتين الفئتين: المواضيع المهمّشة والمواضيع المقصاة.

٣ ـ من هنا تبرز قضية السيادة لتشكل السؤال الثالث حول إمكانية الكلام عن ثقافةٍ ديمقراطية في غياب السيادة، وهذا ما تبينت لنا عبثيته، سواء كان هذا الانتقاص مفروضاً بالقوّة، كما هو الحال مع الاحتلالين في العراق وفلسطين، أو مقبولاً «ولو تحت ضغط الإرغام»، على المصادر الطبيعيّة، الدفاع، الأرض والقرار، كما هو الحال في سائر الدول العربيّة. لأن الانتقاص في الحالين يُفقد المواطن ثقته بالدولة، بـ «النحن» الوطنيّة. وبين خطاب التيئيس، خطاب العجز وخطاب التواطؤ و«الريل بوليتيك»، تجد الـ «أنا» اليائسة والقلقة ملجأها في الانكفاء داخل الهويات الفرعيّة التجزيئيّة التي يتحوّل كُلٌّ منها إلى «نحن» تنعزل عن الأخريات، تتواجه معها حدّ التدمير المُتبادَل الذي يجعلُ كُلاً منها تهرب إلى الحماية الأجنبيّة.

٤ ـ هذا الخطاب الذي يُجسّدُ مشهد غياب السيادة، وبالتالي غياب «المواطن»، يُغذّي خِطاباً يُجسّد صِراعاً ثُلاثيّاً بين الحضارات والمذاهب والإثنيّات، ويتغذّى منه. الصراع الأوّل يَنصب عولمتين مُتوازيتين: الأمريكية والإسلاميّة. الثاني يُجسّدُ قدرةَ «المُحرّكين» وعمى الجماهير في مسيرةِ تدميرٍ ذاتي للمجتمع، عبر تحوير وُجُهات العداء. أمّا الثالث فيُحقّق تجزئة المجزّأ.

حالٌ لا يُمكن إصلاحُها إلا ببلورة الفرد ـ المواطن والدولة ذات السيادة.

إن مناقشة هذه الأسئلة الثلاثة، بناءً على تسجيلات أرشيفية لبرامج تعود إلى الفترة الزمنية المحددة للبحث، يجعلنا نكتشف أمرين: **الأول**، أن شيئاً لم يتغير في ما يتعلق بجوهر التحليل، بين تلك المرحلة وبين المراحل التي تلتها حتى مرحلة الثورات العربية الحالية، بل إن تلك كانت في أساس ما حصل بعدها ويحصل الآن. **والثاني**، أن جذور الإشكاليات المتعلقة بالحراك العربي الحالي تكمن في هذا الجوهر كما تكمن في السياق الجيوبوليتيكي الذي حلّلناه في **القسم الثاني**. ولذلك اخترنا للكتاب عنوان: **الفضائيات الإخبارية العربية وجذور التغيير**. أما في الشكل، فإنّ متغيرات محددة طرأت على المشهد البرامجي، نتبين من مراقبتها وتحليلها كيف أنها وُضِعت لخدمة أهداف لا تبتعد عن السياق الذي تكشّف لنا على امتداد البحث. لقد كان التغيير حتمية قادمة في العالم العربي، لكن الحتمية الأخرى كانت أيضاً في صراع القوى العالمية والإقليمية في التحكم به وتحوير مساره، كل بحسب مصالحها. وكان لا بد لوسائل الإعلام، ومنها الفضائيات أن تؤدي دورها كأدوات في عملية الصراع هذه.

حتميّة كانت واضحة للاستراتيجي الغربي مُنذ نهاية الحرب العالميّة الثانية على الأقل، وقد تناولنا خطّة ليرنر لتحديث الشرق الأوسط، وتوظيف الإعلام في هذه الخطّة منذ عام ١٩٥٨. وإذا كان ليرنر قد حدّد أسباب الحساسيّة الخاصّة بالشرق الأوسط والعالم العربي بالنسبة إلى الولايات المتّحدة، فإنّ شيئاً من أسباب هذه الحساسيّة لم يتغيّر حتى وإن كانت التجربة قد أضافت وعدّلت في الأساليب، سواء في مرحلة سيادة النظام العالمي الجديد وإمبراطوريته الأمريكية (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٦)، أو في مرحلة ترنُّحهما أمام إرهاصات عودة التعددية الدولية التي انطلقت من فشل حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦، وتنامت حتى بلوغ شيء من التوازن في المشهد الدولي الحالي، أو في مرحلة الحراك العربي الحالي. بل إن إضافة مسألة الغاز إلى مسالة النفط، تجعل من الرهان على العالم العربي وإيران أمراً أكثر إلحاحاً وخطورة. كذلك لم يتغير دور وسائل الاتصال الجماهيري في كل من هذه التطورات. بحيث لا يمكن فهم الظواهر المهمة في هذه الوسائل إلا بفهم السياق الجيو سياسي الذي تتحرك ضمنه، ونظريات الاتصال التي تتبناها. كما لا يمكن إغفال تأثير

رسالتها في الحَراك، تأثير كان في أوجه في المراحل الأولى.

وهكذا شهدنا مُنذُ بدء الحَراك، عدة ظواهر، وبخاصة على قناة الجزيرة ومن ثَم تبعتها بعض المحطات الأخرى: **الظاهرة الأولى**، تتمثل في إلغاء برامج المُواجهات الحواريّة لصالح برامج المُقابلات الفرديّة، ما يعني إلغاء لـ «الرأي والرأي الآخر» لصالح الرأي الواحد الذي ينحازُ كُلّهُ إلى اتّجاهٍ واحد لا يتركُ مجالاً لأيّ تعبيرٍ يُخالفه، وإذا نحن من جديد في صميمِ إعلام دعاية الحرب (Propaganda de Guerre) (مع بداية أحداث سوريا، أعيد برنامج «الاتجاه المعاكس» لمقدمه السوريّ فيصل القاسم ليتحوّل إلى منصة للهجوم على النظام السوري فحسب).

أما **الظاهرة الثانية**، فهي شغل معظم وقت البث بتغطية ميدانية مباشرة لا تقترن بالتحليل والنقاش الموضوعي حول ما يحدث وإنما تلعب بشكل مبالغ فيه على الجانب الغرائزي الانفعالي وعلى إثارة المكبوت ـ وهو كثير وعميق ـ لدى المتلقيّ، بشكل يعطّل التفكير المنطقي والمحاكمة العقلانية التي تتحكم بمسيرة التغيير ونتائجها والتحولات التي ستجري بعدها؛ فيما أمّن غطاءً كثيفاً من الضجيج لمن كانوا يعملون بهدوء وتصميم على اختطاف الثورات وتوظيف غضب الناس ومكبوتهم وتوقهم، وتحويره إلى حيث يريد من يمتلك خطةً وتصوراً واضحين.

كانت هذه بدايات التحوير والتضليل الإعلامي المُنظّم الذي فرضته غالبيّة الفضائيّات، في هذا الطرف أو ذاك، على الحَراك العربي بكليته. تضليل لا يقتصر على قول ما يخالف الحقائق وإنما يتركز على انتقائية محددة حيالها، تعيدنا إلى أهمية المسكوت عنه. ومن وجوه هذه الانتقائية مثلاً عملية التعتيم المُمنهَج على من يخالف الرأي الذي تتبنّاه القناة. ومن الأمثلة على ذلك التعتيم الذي مارسته الفضائيّات الخليجية الأكثر انتشاراً على الثوار الذين لا يندرجون في الاستراتيجية الأطلسية. ونذكر على سبيل المثال شهادة حية من الأسبوع الأول للانتفاضة التونسية، حيث عقدت جمعيتان عربيتان في باريس، هما اللجنة العربية لحقوق الإنسان و«المنتدى الثقافي العربي»، ندوة ضمت عدداً من الشباب التونسي الذين يمثّلون كل الاتجاهات السياسية في البلاد، وذلك لغاية بثها على الجزيرة مباشر، ضمن حملة الدعم للثورة على نظام بن علي. حجزت القاعة باسم «المنتدى الثقافي العربي»، غير أن

الجمهور الغفير الذي حضر إلى القاعة فوجئ بندوة لمعتقلي غوانتانامو بحضور شخصيات برلمانية أوروبية، وعند السؤال كان الرد أن الجزيرة اشترطت لنقل الندوة الثانية أن تعقد الأولى قبلها وأن يتم تصويرهما معاً. وأن الرابط بين الموضوعين هو حقوق الإنسان، وعندما جاء المنصف المرزوقي، تم تقديمه على أنه مرشح لرئاسة الجمهورية.

الأغرب أن الوقت الذي كانت الجزيرة مباشر قد خصصته للنقل كان محدوداً، وبما أن الندوة الأولى استهلكت معظمه، وأن الدور في الندوة الثانية بدأ بالإسلاميين، فإن المتحدثين باسم التيار القومي والليبراليين واليسار الذين تحدثوا في النصف الثاني من الندوة لم يغطِّهم التسجيل. هذا التعتيم استمر في إطار دعاية الحرب نفسها على أي رأيٍ مخالف لتوجه الفضائيات المعنية، حتى ولو كان صوتاً معارضاً للأنظمة. وتحديداً من لا يتبنى النهج الأطلسي أو الخطاب الإسلامي، بالنسبة إلى الجزيرة، أو النهج السعودي - الأطلسي بالنسبة إلى العربية، أو نهج حزب الله بالنسبة إلى المنار. . الخ. هكذا تم التعتيم الإعلامي على الشخصيات المعارضة التونسية التي تمثل التيار القومي، خاصة خلال الانتخابات. كما على الشخصيات المعارضة السورية التي تبنّت شعار «لا للعنف، لا للطائفية، لا للتدخل الأجنبي»[٥].

في المقابل فُرض التعتيم الكامل على الاتصالات المشبوهة لبعض أطراف المعارضة والحَراك، خاصة ما تعلّق منها بعلاقات مع إسرائيل أو مع اللوبيهات اليهودية المؤيدة لها. حتى عندما تكون هذه الاتصالات معلنة، وتنتهي بمؤتمر صحافي عام، من مثل المؤتمر الذي نظمه المعارض السوري معروف الدواليبي في فندق لوتيسيا في باريس بإشراف معهد ميمري الإسرائيلي ممثلاً بإيغال كارمون (ضابط الموساد السابق والرئيس السابق للمعهد)، وميراف فورمسر (مؤسسة المعهد ومستشارة نتانياهو وتشيني). وفي المؤتمر الصحافي الذي عقد في نهاية هذا المؤتمر، طالب محمود الأشقر (قائد الجيش السوري الحر) بنفي العلويين إلى أوروبا[٦]. غير أن الإعلام

---

(٥) حياة الحويك عطية، «الأصوات المقموعة في المعارضة السورية،» **العرب اليوم** (عمّان)، ٣/ ٥/ ٢٠١٢، <http://www.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=19379>.

(٦) حياة الحويك عطية، «العلويون إلى أوروبا،» **العرب اليوم**، ٥/ ٣/ ٢٠١٢، <http://www.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=20398>.

العربي (وحتى مراسليه في باريس) عتّم كلياً على هذا الحدث.

في هذا الإطار برزت ظاهرة ثالثة، جديدة، هي ظاهرة استبدال المبني للمجهول بمعلوم مجهول؛ فبدلاً من أن يقول المذيع أو المراسل: يقال، أو صرح مصدر مجهول الهوية، أو يُشاع أو عُلم. . . كما هو مألوف، برز أسلوب الاتصالات الهاتفية من أسماء لا تعني شيئاً على أرض الصدقية والنسبة: أبو فلان. . وفلان (اسم علم من دون اسم النسبة) ومن دون أن نرى الوجه، وإذا ما رأيناه، فهو وجه مجهول لا يعني شيئاً، وليس ما يُثبت أنه فلان أو أنه يتحدث من المكان الفلاني، ولم تلبث أن برزت فضائح عديدية في ما يتعلق بهؤلاء المتصلين، أثبتت أن أغلبيتهم متصّل بهم ومرتبون بشكل مدروس لتقديم أخبار أو شهادات مُعَدَّة بشكل هوليوودي.

الظاهرة الثالثة، هي تبنّي خطاب فئوي تجزيئي مكشوف وتحريضي: مذهبي وعرقي في آن معاً، بحسب الساحة، عرقي قبلي في الخطاب الذي يتناول ليبيا، مناطقي بشأن تونس، جنوبي شمالي وقبلي ومذهبي في الحديث عن اليمن، طائفي في مصر، مذهبي بامتياز وعرقي في الحديث عن سوريا.

أما الظاهرة الثالثة فهي تخلّي المذيعين أنفسهم عن أي قدر من الحيادية ولو في الأداء؛ فعلى سبيل المثال الفاقع ما حصل عندما أطلق الشيخ القرضاوي، خلال نشرة أخبار الجزيرة فتوى بالقتل ضد القذافي وراح يطلق دعاوى الدمار: اللهم. . اللهم. أردف مذيعا النشرة: آمين. . آمين!

أما تفسير هذه التحولات الإعلامية التي تجاوزت التهميش والإقصاء إلى التضليل وخلق واقع افتراضي، فهو أن المطلوب هو إثارة الغرائز وإطلاق المكبوتات لا تحريك العقول. إثارة الغرائز لأنها وسيلة تحريك الطائفية والمذهبية وكل أنواع الفئويات القاتلة، وتحريك المكبوتات لأنها مفجِّر العنف الذي يقطع المجال على إصلاح حقيقي لصالح نمو المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وبذلك يتحوّل مجرى الحراك، فبدلاً من أن يتجه إلى تشكّل الثورة بمفهومها الرؤيوي الإصلاحي الذي يعمل على تغيير النظم السياسية والاجتماعية نحو مزيد من التعددية والحريات والوحدة الوطنية في إطار دولة المواطنة، دولة القانون ودولة العدالة الاجتماعية عبر مكافحة الفساد وتأمين السيادة على القرار الوطني والموارد - يتجه إلى الفوضى المدمرة وإلى ديكتاتورية جديدة تحلّ محل القديمة، حتى لو جاءت عبر صناديق اقتراع خضعت لكل ما ناقشناه

من غياب الثقافة الديمقراطية وهيمنة الخيارات الغرائزية والمال السياسي. هكذا حُجب كل صوت يريد أن يتحدث لغة العقل والتحليل لتسهيل التفاف جهات محددة، تملك استراتيجيات محددة، على الثورات العربية، ومن ثم لتغطية المساهمة في تدخّل حلف شمالي الأطلسي لاحتلال ليبيا وتدميرها، ومن ثم إشاعة بلبلة في مصر، وأخيراً تفجير حرب تدميرية في سوريا.

مع انفجار الأزمة السورية. لم يصمد سماح الشاشات بخطاب الدعوة إلى الإصلاح الذي طالب به المعارضون المخلصون، إلا لأيام، وتحديداً حتى أحداث جسر الشغور، ليحلّ محلها خطاب المطالبة بالتدخل الأجنبي، وعندما فشل، انتقل الإعلام إلى دعاية الحرب الأهلية.

ولو حاولنا، على سبيل المثال تطبيق قواعد إعلام الحرب التي كرسها اللورد بونسومبي عام ١٩٤٥، وحددها بأربع، على تطور إعلام الفضائيات العربية الخليجية بشأن سوريا، لما وجدنا كبير عناء. من **القاعدة الأولى** «نحن لم نرد الحرب»، حيث نتذكر التشابه بين مسرحية المفتشين الدوليين وبرامج النفط مقابل الغذاء، خلال التسعينيات، وبين قرارات الجامعة العربية وقصة المراقبين، كأسلوب لإقناع الرأي العام أن الغرب ووكلاءه لا يريدون الحرب بل أُجبروا عليها.

إلى **القاعدة الثانية** «الشخصنة والشيطنة»، أي اختصار العداء في شخص يصبح التخلص منه وسيلة للتخلص من البلد بكامله وتدميره، حيث رأينا التركيز ينتقل من النظام السوري إلى شخص بشار الأسد. وسمعنا بالحرف عبارة «أنه منفصل عن الواقع»، التي أوصى بها بونسومبي قبل ٦٨ عاماً، في تعليق الخارجية الأمريكية على أول حديث للرئيس السوري للتلفزيون الأمريكي.

أما **القاعدة الثالثة** «الدوافع الإنسانية»، فتمثلت في الدعوة إلى فتح ممرات إنسانية، تكون مقدمة للحظر الجوي ثم للاقتحام والتدمير.

وأخيراً **القاعدة الرابعة**، «تكثيف صور وروايات الفظائع التي يرتكبها النظام»، وهذا ما تكفلت به قناة الجزيرة بالدرجة الأولى ومن ورائها العربية وغيرهما.

هذه السردية المتتالية المكثّفة، كان من مقتضياتها ألا تقتصر الشيطنة على شخص بشار الأسد، لأن المسألة قد تكون سهلة عندها إذا ما طرح حل تنحيه.

كذلك لا ينفع تركيزها في الأجهزة الأمنية، لأن هذه الأخيرة مشيطنة بحكم الواقع، ويمكن أن يكون الحل أيضاً بإصلاحها وتقنين عملها، وفي سياق آخر فإن قوّتها قد تبدو في مرحلة معيَّنة معادلة لقوة المجموعات المسلحة التي تواجهها. إذاً، المطلوب هنا شيطنة الجيش السوري لعدة أسباب: **أولها**؛ أن النقطة الأساسية في المخطط المعَدّ للمنطقة هو التخلص من أي جيش قوي محيط بإسرائيل. التخلص بتدميره وإعادة تشكيله مع تغيير عقيدته (لذلك كان قرار حل الجيش أول قرار اتخذه بريمر في العراق، كما كان مطلب تغيير عقيدة الجيش جوهر الصراع مع الأمريكي في لبنان). **وثانيها**، أن الجيش هو من يواجه التدخل الأجنبي إذا ما حصل. **والثالث**، أن ثمة حديثاً كان يدور في أروقة المعارضة الوطنية كما في أروقة الموالاة، عن حلٍّ ما يأتي عبر تكفُّل الجيش بعملية انتقال سلمي إلى وضع ديمقراطي للبلاد. خاصة بعد أن كانت حيادية الجيشين التونسي والمصري ضمانة عدم تدمير البلدين، أهداف تقتضي كلها أيضاً تفكيك أي وقوف شعبي وراء الجيش في أية معركة سياسية أو عسكرية. ولذلك جرت الاعتداءات العنيفة على الجيش والتركيز على تشويهه بكل الوسائل والتهم، وأخيراً تضخيم قوته بعد المناورات الأخيرة في شهر آذار/ مارس ٢٠١٢، لتبرير تدميره إما بالتدخل العسكري الأجنبي، كما حصل مع الجيش العراقي، وإما باستمرار استهدافه من قبل الجماعات المسلحة.

في فيلم وثائقي عن الملاكم التاريخي محمد علي كلاي، يدور هذا الحوار بين المحقق العسكري وكلاي الذي رفض الخدمة في الجيش الأمريكي في فييتنام: ولماذا لا تريد الخدمة في الجيش؟ يضيف المحقق، ليأتيه الجواب: ولماذا تريدني أن أذهب لأقتل أناساً لم يقولوا لي يوماً: أنت أسود، ولم يعاملوني بعنصرية؟

في كليات الإعلام تدرَّس مقولة مفادها: إن حرب فييتنام قد انتهت على شاشات التلفزيون الأمريكية قبل أن تنتهي على الأرض؛ فيما يعني أن ردات فعل الأمريكيين على ما كانوا يرونه على الشاشة الصغيرة هي التي جعلتهم يضغطون باتجاه وقف الحرب. ولا شك في أن ذلك ينتقص كثيراً من حق الشعب المناضل الذي قدم التضحيات الأسطورية ليفرض الهزيمة على القوة العظمى. لكن ما من شك في أن إبراز أمر أو إخفاء آخر يقرر توجهات الرأي العام، خاصة وأن الشرائح المستهدَفة من قبل واضعي الاستراتيجيات

الإعلامية، هي التي تتشكل من الذين يقفون في الوسط من الأمور الجارية، ولا يملكون بالتالي قناعات ثابتة وراسخة، كما إنهم لا يملكون المعطيات والعقلية التحليلية، أو لا يريدون إتعاب أنفسهم بها.

من هنا يتّسع مدى تأثير التلفزيون في خلق واقع قد يختلف عن الواقع الحقيقي، وإرسائه في ذهن المشاهد. وصولاً إلى تكوين حالة عامة وتوجُّه عام. التلفزيون أكثر من سواه من وسائل الإعلام، لأنه أقلها نخبوية، أكثرها وصولاً للناس بكل شرائحهم، حتى الأميين منهم. ملاحظات قد تبدو نظرية ولكن يكفي أن نمسك بالريموت كونترول لمدة ساعة، وننتقل معه عبر المحطات العربية الإخبارية كلها: لنسأل بجدية: أهذا هو العراق؟ أهؤلاء هم العراقيون؟ أهذه هي سورية؟ أهذه هي الكثير من الساحات التي لا نعرفها - كما محمد علي كلاي - إلا على التلفزيون؟ من منا يعرف الأمكنة التي تصوَّر لنا؟ من منا يعرف الأشخاص الذين يخرجون إلينا متحدثين؟ من منا يعرف من أي زاوية أُخذت الصورة ولأي سبب تم اختيار هذا الشخص من دون سواه، وما حقيقة قيمته التمثيلية؟

أخيراً يقودُنا التحليل انطلاقاً من نجاح المحطّات الفضائيّة في الوُصول إلى الجمهور العربي والدولي إلى إعادةِ التفكير بحلم (النوميك) (NOMIC)؛ فهل هذا الحلم القديم الذي صاغه العالم الثالث في السبعينيات والثمانينيات قد تحقّق في التسعينيات وما بعدها؟ سؤالٌ تقودُ مُناقشته إلى قضيّةٍ أخرى تتعلّق بالجدل العلمي بين الحتميّة التقنيّة والحتميّة الاجتماعية.

معركة نوميك (Nouvel Ordre Mondial de L'information et de la Communication (NOMIC))، هي المعركة الإعلاميّة التي دارت داخل اليونسكو بين دول العالم الثالث والولايات المُتّحدة حول نقطتين أساسيّتين: **الأولى**، هي تصحيحُ انعدام التوازن في اتجاه تدفّق المعلومات بين الشمال والجنوب «التدفق ذو الاتجاه الواحد». **والثانية**، هي تصحيحُ الواقع الإستشراقي الإعلامي الذي يجعل الجنوب يرى نفسه بعين الشمال؛ فمنذُ مؤتمر نيروبي عام ١٩٧٦، وحتّى تقرير (ماك بريد) الذي تمّ تبنّيه في بلغراد عام ١٩٨٠ مُروراً بعمل (بُرغيس) المُهمّ «إلغاء استعمار الإعلام»[7]، عملت اليونسكو بقيادةِ رئيسها

(٧) Hervé Bourges, *Décoloniser l'information* (Paris: Editions CANA, 1978).

(أمادو مُختار امبو) على إعادة التوازن إلى تبادل الإعلام والمعلومات بين دول العالم الثالث والدول الصناعيّة بالانتقال من التدفق ذي الاتجاه الواحد إلى التدفق المتعدّد الاتجاهات، ما يرتبط حُكماً بحماية الخُصوصيّات الثقافيّة. نجح هذا الحلم في أن يجمع العالم الثالث ومن يؤيّده من الغربيّين والشرقيّين حول إدانةِ تبنّي وسائل الإعلام الدوليّة الكُبرى، المُمنهج، لخريطةِ تفكير الدُّول الأكثر غنىً وفرضها على الأكثر فقراً. مواجهةٌ دبلوماسية كلّفت (امبو) الاستقالة من منصبه بعد انسحاب الولايات المُتّحدة من المنظّمة الدوليّة وقطع تمويلها عنه.

بالنسبة إلى السؤال الأوّل، نجد أنّ الفضائيّات العربيّة نجحت في الوصول إلى كُلّ الفضاء الجيولغوي العربي، كما نجحت أحياناً في فرض اتّجاهٍ جديدٍ للأخبار والمعلومات من الجنوب إلى الشمال، وبخاصّة خلال حربي أفغانستان والعراق، ما قد يبدو تحقيقاً لحُلم النوميك في مُقاومة التدفّق ذي الاتجاه الواحد من الشمال إلى الجنوب. غير أنّ هذا النجاح الظاهري يبقى مُجرّد ظاهرةٍ افتراضية أبعد ما تكون عن تحقيق تعويض فشل العالم الثالث في إرساء النوميك وتنازل اليونسكو عن هذا الحُلم في بداية التسعينيات؛ ففي عام ١٩٩١، انتهى الحلم مع انهيار عالم التعدّديّة القطبيّة وظُهور نظام القطب الواحد حيثُ تُرجم النظام العالمي الجديد بعودة الولايات المتحدة إلى اليونسكو بعد رُضوخِ المنظّمة للتنازلات التي فرضتها القوّة العُظمى. لم يعُد هناك مجال للمواجهة بين العالم الثالث والولايات المتحدة. حيثُ أصبحت الأخيرة القوّة العظمى الوحيدة المُتربّعة على رأس العالم، وبذا أصبحت وسائل الاتصال تتبنّى راضيةً المفاهيم الثلاثة التي شكلت عناوين إدانة مؤتمر نيروبي للولايات المتحدة والدول الصناعيّة: فرض **خريطة التفكير الأمريكية؛ الصمت حول العالم الثالث؛ التدخل الأجنبي**. وإذا بنا نعود إلى وسائل إعلام تسوّق الرؤية الأمريكية والأطلسية ولكن بلسان وعنوان عربيين، بل وبشكل يستجيب إلى نصائح الخبراء الأمريكيين الذين نصحوا بأنّ تماهي شكل المرسِل مع المتلقّي يسهّل عملية التلقي بالتماهي (Identification)، وبخاصة أن تعزيز الخطاب العاطفي الغرائزي الفئوي، وتدمير الخطاب العقلاني الناقد الهادئ يجعل المشاهد أمام واحد من شكلَي التلقي: القبول أو الرفض، في حين يلغي الشكل الثالث المعروف بالتلقّي المفاوض.

أما المواجهة، في مرحلة أحادية الإمبراطورية، فقد تحوّلت إلى ثُنائيّةٍ

أخرى، المواجهة بين السوق والدولة، بين من يصفهُم (إنياسيو رامونيه) بـ «سادة العالم الجُدد» ويقصد بهم «شبكةً من المجموعات الاقتصادية العولميّة والمشاريع الاستثمارية المُعولمة التي يبدو وزنُها في قضايا العالم أكثر أهميّة من وزن الحُكومات والدول»[٨]. وهي الشبكات التي يعتقد هيربرت تشيلير بأنها «مرويّة بالصلصة الأمريكيّة». من هُنا أدرك الكثير من الأنظمة، بما فيها أنظمة الدول النفطيّة، أنّ عليهم الانخراط في سياسة السوق للارتباط بشركاتٍ عولميّة والاستجابة لمُتطلّبات الاستراتيجية الأمريكية الجديدة ومنها تبنّي مُجتمع الاتصال والإعلام، والسياسات المُتعلّقة بالشرق الأوسط الجديد.

ما يُفسّر جانباً كبيراً من كون الدول التي بادرت إلى إطلاق الفضائيات العربية، كانت دول الخليج النفطيّة. وهكذا انقلب المشهد الإعلامي العربي: لم تعد مصر في مُقدّمة هذا المشهد بينما راحت الدول العربيّة الأخرى في المشرق والمغرب، الغنيّة بالكفاءات الإعلامية تتنافس على الهجرة إلى الإعلام الخليجي. أمّا لبنان الذي يبدو في الظاهر أنّه يُمثّل استثناءً، فإنّه لم يُحافظ في واقع الأمر على حُضوره في المشهد الإعلامي ـ الفضائي، إلا بفضل التمويل الخارجي الذي جعل من المستقبل امتداداً للإمبراطوريّة «السديريّة» السعوديّة إم بي سي، ومن الـ إل بي سي امتداداً لإمبراطوريّة الوليد بن طلال، في حين تعتمد المنار على التمويل الإيراني لحزب الله.

غير أنّ التمويل، على أهميّته، يقفُ أمام سلطةٍ أكبر، حيثُ يتوقّفُ كُلّ شيء على «مُلكيّة الترددات وقدرة جهات البثّ على تحمُّل تكاليف الأقمار الصناعيّة التي تُدير المحطات الفضائية الجغرافيّة وتتحكّم بها»[٩]. ما يُثير قضية ارتباط مصادر المعلومات بالمسألة التقنية، لنعود من جديد إلى انعدام التوازن بين الشمال والجنوب، بين الأغنياء والفقراء، من دون أن يُغيّر في الأمر شيئاً أن تمتلك بعض دول الجنوب، كدول الخليج ثرواتٍ كُبرى تسمح لها بشراء التقنيّات وشراء الترددات على مُختلف الأقمار، لأنّ ذلك لا يُحرّرها من التبعيّة للمُزوِّد. وهُنا نجدُنا أمام المواجهة بين نظريّتي الحتميّة التقنيّة والحتميّة الاجتماعية. حيثُ يَعتبر أنصار الأولى أنّ النظريّة التحديثيّة تتلازم مع النظريّة

(٨) Ignacio Ramonet, «Les Nouveaux maitres du monde,» *Le Monde diplomatique* (janvier 2001).

(٩) Jeanneney, *Une histoire des médias: Des origines à nos jours*, p. 324.

التوسّعيّة للابتكار والتجديد التكنولوجي حيثُ تتكفّلُ هذه التقنيّات بإحداث التأثير التحديثيّ في البُلدان التي تصلُها. ومن هُنا فإنّ التأثير التحديثي هو مُرادفٌ لليبراليّة الاقتصادية «يجب أن يقتصر دور الدولة على تأمين البيئة الموائمة لنشر التكنولوجيا، على إزالةِ جميع معوّقات الاستثمار وتحرير المُنافسة»[١٠].

وإذا كان لا بُدّ من الاعتراف «أنّ التلفزيون قد استفاد، عقداً إثر عقد، من التطور التقني الذي يُخفّض التكاليف ويُحسّن جاذبيّة الصورة، للتسلّل إلى جميع المنازل. . . ما جعل مفهوم مجتمع المعلومات يفرضُ نفسهُ، في أقلّ من ٢٠ سنة، بنجاحٍ بارز مكتسباً الشرعية من المنظور، من صناعات الاتصال، من التكنوقراط وخطابٍ مُعيّن تبنّاه المهندسون والميديا»[١١]. لكن لا بُدّ من الاعتراف مع والتون أنّ رسم تصوّر هذا المفهوم «موسومٌ نسبيّاً بالسياق التاريخي وبأنّه ليس مُرادفاً للحُريّة». وقد سقنا في بحثنا براهين ودلائل تندرج كلّها في مسار الحتميّة الاجتماعية وتُبرزُ دور العلاقات الاجتماعية، العلاقات الدوليّة، والرهانات الاقتصادية والثقافيّة القائمة خلفها، فيما يُعاكس نظريّة الحتميّة التقنيّة؛ فالتكنولوجيا هي مُحصّلةُ بناءٍ اجتماعي تقني (Sociotechnique)، ولا بُدّ للتفكير التقني أن يتشكّل بناءً على تاريخ المُمارسات المُعيّنة لمُجتمعٍ مُعيّن، ومِن ثمّ تاريخ عمليّات الاستحواذ والتحويل.

من هُنا، فإنّ التقنيات التي يتمّ شراؤها قد أُنتجت على يد مُجتمعاتٍ تطوّرت من عصر الثورة الصناعيّة إلى عصر الثورة التقنيّة مع كُلّ ما يُلازم ذلك من تحوّلاتٍ إجتماعيّة تكونُ في أساس الثورات ومن ثَمّ تتطوّر كنتاجٍ لها؛ في حين أنّ المجتمعات التي تشتري، والتي هي موضوع بحثنا، لم تمُرَّ بأيٍّ من مراحل هذه السيرورة. وإذا كان بإمكان الثروات النفطيّة المُفاجئة أن تؤمّن قفزةً اقتصادية، فإنّ مفهوم القفزة مستحيلٌ في المجال الاجتماعي والثقافيّ، حيثُ لا يُمكن لأي مُجتمع أن يتجاوز التطوّر التاريخي الطبيعي في هذين المجالين. وبما أنّ كلّ اتّصال هو ميزان قوى منطقي بين السلطة والمصالح، فإنّ وسائل الاتصال هذه تقع حُكماً في خدمةِ السلطات العولميّة والسلطات المحليّة المُلحقةِ بها. وكما يقول (فوكو)؛ فإنّ إرادة المعرفة ممكن

(١٠) Wolton, *Penser la communication*, p. 273.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

أن تخلق معرفة لكنّها، إذا أُلحقت بالسلطة، تمنحها ركائز أكثر صلابة.

على الرغم من ذلك، فإنّ تقنيات الاتصال التي لا تُشكّل عوامل مباشرة في التنمية والدمقرطة، هي عوامل من عوامل الحداثة. تسمح للانفتاح والتبادل، في علاقةٍ تبادليّة تنتجُ من الانخراط الاجتماعي الذي يُلخّصهُ كُلّ من (برنار مييج) و(سيرج برو): «التقني قائم في الاجتماعي والاجتماعي في التقني». وطالما أنّ المجتمعات التي تستخدم التكنولوجيا ليست هي من اخترعها أو أنتجها، كما هو حال المجتمعات العربية، فإنّ هناك عاملين يُحدّدان البيئة المُلائمة لهذا الانفتاح: إرادة من يمتلك مصادر التمويل والإرادة السياسيّة للقوى والسلطات التي لا تزال تتحكّم، بشكل مباشر أو غير مباشر بوسائل الاتصال في العالم العربي، ومنها القنوات الإخباريّة التي ناقشناها. على الرغم من ذلك، فإنّ هذه السلطات ليست بمعزلٍ عن التطورات الدوليّة التي تفرض نفسها، ومن المفترض أن تفرض مضمون إعلان جنيف لقمّة المعلومات الذي يُقرّ «تمكين كُل فرد من الوصول إلى المعلومة، إلى الأفكار، إلى المعارف والمُساهمة فيها»[١٢]. لكنّ تحقّق ذلك يتوقّفُ على التنمية المُستدامة في كُلّ المجالات بخاصّة ما يتعلّق منها بالعدالة الاجتماعية، بحقوق المواطن، بحقوق الإنسان، بالتعليم بأشكاله النظامي وغير النظامي والمُستمر وتنمية المعارف والعقل النقدي، التصدي لذهنيّة الجماهير الفوضويّة، للانتماءات الفرعيّة التجزيئية، لبناء الـ «أنا» العاقلة الناقدة والـ «نحن» الاجتماعية القانونيّة الدستوريّة ذات السيادة. أهدافٌ لا تتحمّل الميديا مسؤوليّة تحقيقها إلا بنسبةٍ جزئيّة. وذلك لأسباب أربعة:

السبب **الأول**، «أنّ كُل عمليّة اتصال هي ميزان قوى»[١٣]، هي تجسيدٌ «لمنطق القوة والمصالح»[١٤]، كما إنّ شبكات الاتصال هي «شبكة عنكبوت... ومن يقُل شبكة عنكبوت أو أي شبكة، عليه أن يقول إنّ هناك من ينشرها ومن ثُمّ يجمعها»[١٥] كما يقول والتون.

(١٢) إعلان مبادئ، «بناء مجتمع المعلومات: تحدّ دولي لألفيّة الجديدة»، القمة العالمية حول مجتمع المعلومات، جنيف، ١٠-١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، في مرحلتها الأولى. وعقدت المرحلة الثانية في تونس عام ٢٠٠٥.

(١٣) Walton, Ibid., p. 241.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

أمّا السبب **الثاني**، فيعود إلى طبيعتها الآنيّة المؤقّتة التي لا تترك للمشاهد فرصة ممارسة الشك المنهجي ولا تحسم تبلور المعرفة كما يقول براديل.

السبب **الثالث** حيثُ يجب الاعتراف مع (فرانسيس بال) بالمقاربة المؤسّساتيّة التي ترى في «الاتصال فعاليّة أوسع من التقنيّات المُعمّدة ميديا، لكنّها أقلّ من مُجمل التبادلات الاجتماعية»[١٦].

وأخيراً السبب **الرابع**، المُرتبط بكون عمليّة التأثير التلفزيوني هي نتاج علاقةٍ ما بين تركيب الشيفرة الإعلاميّة وتفكيكها، أي بين الإرسال والتلقي، بل إن التلقي هو الذي يحسمُ طبيعة ومدى التأثير. وهنا لا بُدّ من العودةِ إلى مدرسة الدراسات الثقافيّة (Cultural Studies) والدعوة مع تيري إيغلتون إلى «حملةٍ أخلاقيّة وثقافيّة... إلى الذهاب إلى المدارس والجامعات والنضال فيها، عبر تدريس الآداب، في سبيل تقديم إجاباتٍ غنيّة مُعقّدة ناضجة هادفة وجادّة أخلاقيّاً تسمح للأفراد بالبقاء في المجتمع الآلي، مُجتمع المسلسلات والعمل المُغرّب والدعايات البلهاء وميديا المُخبّلة للجماهير»[١٧]. لكنّ السؤال لا ينتهي هنا إذ إنه يطرح نفسه أيضاً مقلوباً: هل من الممكن إصلاح المدرسة والثقافة من دون إصلاح الاقتصاد والسياسة؟ وهل يمكن إصلاح الإعلام إذا لم نصلح كلّ هذه معاً؟

أخيراً، إذا كنّا قد ركّزنا في هذا الكتاب على مرحلة تاريخيّة امتدّت من عام ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٣، مع العودةِ في فلاش باك تاريخي إلى مراحلَ أقدم لرسم ملامح السياق ووضع التحليل في إطاره الدقيق، فلأنّنا اعتمدنا تحليلاً جيوسياسيّاً وجد في هذه المرحلة مفصلاً أساسيّاً تشكّلت فيه ملامح التاريخ العربي الحديث بعد النظام العالمي الجديد، ملامح تناولناها من الزاوية الإعلاميّة وتحديداً الإعلام الفضائي؛ فإنّ التحليل نفسهُ يطرح للبحث ثلاث مراحل لاحقة تجد جذورها جميعاً في مُكوّنات المرحلة التي ناقشنا وهذه المراحل هي: ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٦، أي ما بين احتلال العراق والعدوان الإسرائيلي على لبنان في تمّوز/يوليو ٢٠٠٦؛ ٢٠٠٦ ـ ٢٠١١؛ وما بعد ٢٠١١ بدءاً من اندلاع الانتفاضة العربيّة الأولى في تونس وامتداد ذلك على الساحة العربيّة

(١٦) Document Seek No 40/1979.

(١٧) Tierry Eagleton, dans: Armand Mattelart et Michèle Mattelart, *Histoire des théories de la communication*, repères; 174, 3ème éd. (Paris: La Découverte, 2004), p. 56.

وبخاصّةٍ أنّ وسائل الإعلام، وتحديداً الفضائيّات قد لعبت الدور الرئيس، بشكلٍ أو بآخر، في هذه الانتفاضات. وهنا يطرح علينا الحاضر مقاربة جديدة لا بد منها وهي عودة الأهمية للمحطات المحلية، بل وتقدّمها في أغلب الأحيان على الفضائيات العابرة، وعودة الإعلام المصري إلى الساحة بقوة وبمهنية وواقعية أصيلتين لا يمتلكهما أي إعلام عربي آخر، حيث نجدنا أمام برامج قوية لا بهرج فيها، وأمام مذيعين وضيوف مهذبين يتقنون فن الاختلاف بهدوء وعقلانية وحرية، وأمام سياسيين حقيقيين يناقشون برامج ومواقف واقعية وساخنة.

علماً أن مُقاربتنا كلّها تندرج في جانب الإرسال (Enonciation)، تركيب الشيفرة (Encodage)، ولا نبحث إلا عُبوراً، في الجانب الآخر من الموضوع، أي التلقي (Réception)، تفكيك الشيفرة (Décodage)، وهو ما يحتاج إلى بحثٍ مُعمّقٍ وطويل لا يقلُّ أهميّة وصُعوبةً عن ما قدّمناه. ونرى أنّ أفضل مُقاربةٍ له هي تلك التي تتبنّى التيّار التجريبي ـ الوظيفي (Empirico-Fonctionnel)، دراسات التلقي وعلم النفس الاجتماعي. تحليلٌ لا بُدّ وأن يُظهر جانباً في الحياة الاجتماعية «يُقاوم الشاشة وهو غير افتراضي يُقدّم معلومات أكثر مما يُقدّمه الإعلام، خاصّة حول آليّة السلطة وحول ضرورة الرفض، وكله يكشف البنية الدلالية التي يُنتجها التقاء الرسالة بالوسيط بالمُتلقي».

أخيراً، تضعنا الحاجات البحثيّة أمام الميديا الجديدة بدءاً من الإنترنت حيثُ إنّ «الوضع قد تفاقم مُنذُ ٢٠ سنة مع تطوّر المعلوماتيّة، الإنترنت وتطوّر انتشار بنوك المعلومات التي توزّع معلوماتها للمُتصفّحين بواسطة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (Telematic)، مروراً بتشغيل الخوادم (Servers)، التي تؤدي دور الوسيط وتتكفّل بالتسويق التجاري»[١٨]. في عام ١٩٩٥، كان عدد هذه الخوادم ١٠٠٠٠ منها ٧٥ بالمئة في الولايات المتحدة، ٢١ بالمئة في أوروبا، و٣ بالمئة في بقيّة العالم.

أخيراً جاءت الوسائل الأحدث لتُشكّل عالم الميديا الجديد ولتُطلق ثورةً جديدة، وبخاصّة منذ الاضطرابات التي أعقبت الانتخابات الإيرانيّة عام ٢٠٠٩، والثورات العربيّة الأخيرة.

(١٨) Jeanneney, *Une histoire des médias: Des origines à nos jours*, p. 325.

ثبت المصطلحات

Absurdité	العبثية
Accéder à l'information	الوصول إلى المعلومة
Accords de paix	اتفاقيات السلام
Activiste	ناشط
Activité cognitive	النشاط المعرفي
Affiliations	فروع
Alignement	الاصطفاف
Américanisation	الأمركة
Analphabetisme	الأميّة
Annihilation	الإلغاء
Anonimant	من دون توقيع/ مجهول الهوية
Anti propagande	الدعاية المضادة
Anti-pouvoir	تعني سلطةً تعارض أخرى بهدف تدميرها والحلول محلها
Antiracisme	مكافحة العنصرية
Appropriation	استحواذ
Armed Forces Press Services	الجهاز الإعلامي للجيش الأمريكي
Audience	الجمهور
Autodestruction	التدمير الذاتي
Autorégulation	السوق العالمي المفتوح الذي يُنظّم نفسهُ ذاتياً
Balanced Reporting	النقل المتوازن
Bloc communiste	الكتلة الاشتراكية
Capitaux locaux	الرساميل المحلية
Cartel globalisé des moyens de communication	كارتل عولمي لوسائل الإعلام
Censure	الرقابة
Chaine cablé	قناة مُشفرة
Chaine de variété	قنوات المنوعات
Chaines d'information en continue	القنوات الإخباريّة المُتواصلة/ المتخصصة

Chaines Flexibles	القنوات الإخباريّة المرنة
Chomage	البطالة
Citoyen	المواطن
Commercialisation	التجارية
Communaute human	مجموعة بشرية
Communaute politique	طائفة سياسية
Communautés	الهويات الإقطاعية
Communautes religieuses	المجموعات الدينية
Communautes secondaires	الهويات أو المجموعات الفرعية
Communication numérique	الاتصال الرقمي
Communication politique	الإعلام السياسي
Communotarism	المجموعات الفئوية
Complicité	التواطؤ
Confessionnalisme	الطائفية
Configuration	إعادة التصور ـ إعادة التشكيل
Connection linéaire	الاتصال الخطي
Conscience collective	الوعي الجمعي
Consummérisme	ثقافة الاستهلاك، الاستهلاكية
Context social	السياق الاجتماعي
Contre pouvoir	السلطة المضادة: هو مصطلح ذو جذور لاتينية تعني سلطة تعارض أخرى بهدف التأثير عليها وتغيير مساراتها من دون إرادة الغائها أو تدميرها
Correspondant du derrair	المراسل الميداني
Corruption	الفساد
Courant de pensée	التيارات الفكرية
Courant empirico-fonctionnaliste	التيار التجريبي
Crédibilité	الصدقية
Crise des Empires	أزمة الإمبراطوريات
Crises des Etats	أزمة الدول
Crises des nations	أزمة الأمم
Culture globalisée	الثقافة العولميّة
Cyber war	حرب افتراضية
Débat	البرامج الجدلية البرامج الحوارية البرامج الحوارية، المواجهات المتعددة الأطراف
Débat des idées	صراع فكري
Débat public	الجدل العام ـ النقاش العام ـ الجدل الفكري العام

Décodage	الإعلامية (التلقي) تفكيك شيفرة الرسالة
Dédat public	النقاش العام
Défoulement	إطلاق المكبوتات
Democracy liberal	الديمقراطية الليبرالية
Déreglementation	إعادة توطي
Développement technique	التطور التقني
Diabolisation	الشيطنة
Dialogue des civilisations	حوار الحضارات
Direct - to - Home (DTH)	البث المُباشر
Discours	الخطاب
Discours critique	خطاب نقدي
Discours médiatique	الخطاب الإعلامي
Discours rationel	خطاب عقلاني
Discours scientiphique	خطاب علمي
discrimination	التمييز
Discrimination racial	التطهير العرقي
Droit de retour	حق العودة
Education non formal	التعليم غير النظامي
Education un continue	التعليم المتواصل
Egalité des chances	الفرص المتساوية
Emetteur	المرسل
Emission numérique satellitaire	مرحلة البثّ الرقمي الفضائي
Emission numérique hertzienne	مرحلة البثّ الرقمي الأرضيّ
Encodage	تركيب شيفرة الرسالة الإعلاميّة (الإرسال)
Entreprises global	الاستثمارات العولمية
Equilibre confessionnel	التوازن الطائفي
Equilibre social	التوازن الاجتماعي
Espace géoeconomic	الفضاء الجيواقتصادي
Espace géolinguistique	الفضاء الجيولغوي
Espace géopolitique	الفضاء الجيوسياسي
Espace médiatique	الفضاء الإعلامي
Esprit analytique	العقل التحليلي
État de citoyenneté	دولة المواطنة
Exclusion	الإقصاء
Faculté dé analyse	قدرات التحليل
Feuilletons audiovisuals	المُسلسلات التلفزيونيّة

Financement public	التمويل الحكومي
Financement commercial	التمويل التجاري
Fly away	نظام متنقل ومحمول للبث الميداني
Fondamentalisme islamiste	الأصولية الإسلامية
Formats	الفورمات التلفزيونية
Fréquences	ترددات
Frustration	الكبت
Global Information	الإعلام العولمي
Globalisation	العولمة
Globalisation médiatique	العولمة الإعلامية
Grille des programmes	جدول البرامج
Groupes globaux	مجموعات عولميّة
Guerre contre le terrorrisme	الحرب على الإرهاب
Guerre des esprits	حرب الأفكار
Guerre des modèles	حرب الأنماط
Guerre des volontes	حرب الإرادات
Guerres des esprits	حرب الأفكار
Homogenization	التماثل
Identité national transcommunautaire	هويّة وطنية عابرة للهويّات الثانوية
Identités ethniques	الهويات الفئوية الإثنية
Idéologie du profit	أيديولوجية المنفعة
Illusion	إيهام
Illusion de la perspective	وهم المنظورية
Image subliminal	الصورة الكامنة في الوعي الجمعي
Image typique	الصورة النمطية
Industrie de la communication	صناعة الاتصال
Inflation	التضخم
Info - com	الإعلام والاتصال
Information	الإعلام
Information éthique	الإعلام الأخلاقي
Information public	الإعلام الرسمي
Initiative privée	المبادرة الفردية
Injustice sociale	غياب العدالة الاجتماعية
Institutionnalisation	المأسسة
Intégration sociale	الاندماج الاجتماعي
Intégriste	متشدد

Intégristes	الأصوليّون
Internalisation	العالمية
Interpretation	التأويل
Interviews	المقابلات
Investissement étrangèr	الاستثمار الأجنبي
Iraqi Media Engagement Team at the CPIC	فريق العراق للإعلام في القيادة المركزية الوسطى للجيش الأمريكي
Journalistes sans frontières	صحافيون بلا حدود
Jugement critique rationel	محاكمة عقلانية نقدية
Justice sociale	العدالة الاجتماعية
L'ère de la communication	عصر الاتصالات
L'ère des ideologies	عصر الأيدولوجيات
L'espace public	الفضاء العام/ الساحة العامّة
L'Etat moderne	الدولة المعاصرة
L'horizon du nous	أفق ال نحن
La communauté - nation	الجماعة ـ الأمّة
La démocratie occidentale	الديمقراطية الغربية
La diversité partisane	والحزبيّة التعدُّديّة
La guerre médiatique	الحرب الإعلامية
La guerre pshycologique - psychological war	الحرب النفسية
Le marché audiovisual	السوق السمعي ـ البصري
Le publique	الجمهور المتلقّي
Le saut de la pauvreté	خطّ الفقر
Le sociétés traditinnelles	المجتمعات التقليديّة
Les caractéristiques culturelles	الخصوصيات الثقافية
Les coups médiatiques	السبق الإعلامي
Les groupes armés	الجماعات المسلحة
Les identités fragmentaires	الهويات التجزيئية
Les inégalités sociales	الفوارق الاجتماعية
Les moyens de communication intellectuels	وسائل الاتصال الفكري
Les multinationales	الشركات متعددة الجنسيات
Les nouveaux conservateurs	المحافظون الجدد
Les règles de la production télévisuelle	قواعد الإنتاج التلفزيوني
Les sociétés mixtes et les alliances	الشركات المختلطة والأحلاف
Les verts	أنصار البيئة
Liberté de la circulation des informations	حرية تدفق المعلومات

Libertés publics	الحريات العامّة
Manipulation	تلاعب إعلامي تحوير وتضليل
Manipulation politique	التلاعب السياسي
Marché audiovisel mondial	سوق تلفزيوني دولي
Marchés régionaux	الأسواق الإقليميّة
Marginalisation	التهميش
Mass Communication - Communication de masse	وسائل الإعلام الجماهيرية
Mécaniques de l'économie du marché	آليات اقتصاد السوق
Modernisme	الحداثة
Medium	الوسائط
Meneurs	المحرّكون
Meneurs	محرّكون
Message	الرسالة
Methodologie	المنهجية
Mondialisation	عالمية
Moyens de communication de masses	وسائل الاتصال الجماهيري
Multiculturalisme	التعددية الثقافية
Newsroom ink	قناة إخبارية ملحقة
Normalisation	التطبيع
Nouvel Order Mondial	النظام العالمي الجديد
Nouvel ordre économique	نظام اقتصادي جديد
Nouvel Ordre Mondial médiatique	النظام الإعلامي العولمي الجديد
Objectivité	الموضوعية
Observation	المراقبة
One flaw of information l'information en sens unique	التدفق ذو الاتجاه الواحد
Opinion public	الرأي العام
Partis poliyiques transconfessionnels	أحزاب سياسية عابرة للإثنيات وللطوائف
PDG	رئيس مجلس إدارة
Persuation	الإقناع
Politiques communicationnelles	السياسات الاتصالية
Pouvoir dominante	السلطة المُهيمنة
Presse écrite	الصحافة المكتوبة
Prime time	الساعات الرئيسية
Privatisation	الخصخصة

Production - emission	الإنتاج والإرسال
Produit économique mondial	المنتوج الاقتصادي الدولي
Produit national brut	الدخل القومي الخام
Programmes d'information	البرامج الإخبارية
Programmes de divertissement	برامج التسلية
Programmes importés	البرامج المُستوردة
Promotion médiatique	التسويق الإعلامي
Propaganda d'Etat	دعاية الدولة
Propaganda de guerre	دعاية الحرب
Pshycologie des foules	سيكولوجية الجماهير
Psycho-socio-cognitif	نموذج نفسي ـ اجتماعي ـ معرفي
Psycology des foules	سيكولوجية الجماهير
Qualitative Etudes	الدراسات النوعيّة
Quantitative Etudes	الدراسات الكمية
Racisme	العنصرية
récepteur	المتلقي
Réception - interprétation	التلقي والترجمة
Redacteur en chef	رئيس التحرير
Referendum	استفتاء
Régimes oppressifs	الأنظمة القمعية
Rentree publicity	العائدات الإعلانية
Rentrées pétrolières	العائدات النفطية
Répartition confessionnelle	المُحاصصة الطائفية
Repli identitaire	الانكفاء على هوية فرعية
Réseaux de la communication	شبكات الاتصال
Retribalisation	إعادة تشكيل قبلية العودة أو الإعادة إلى القبلية
Révolution technique	الثورة التقنيّة
Satellite news gathering	نظام رقمي يبث نحو الأقمار
Satellites	الأقمار الصناعية
Semi official	شبه الرسمية
Shock de confession	صراع المذاهب
Shock des civilisations	صراع الحضارات
Soap Opera	مسلسل
Société civile	المجتمع المدني
Société de l'information	مجتمع الإعلام (مجتمع المعلومات)
Société de la communication	مجتمع الاتصالات

Société du savoir	مجتمع المعرفة
Societe transcomfessionnelle	مجتمع عابر للطوائف
Soft power	القوّة الناعمة
Soulèvements populaires	الانتفاضات الشعبية
Source informatiques	مصادر المعلوماتية
Sources primaires	مصادر أولية
Sources secondaires	مصادر ثانوية
Souvrainete	السيادة
Standardization	النمطية
Stratégie médiatique	الإستراتيجية الإعلامية
Support	الحامل
Système global des moyens de communication commerciaux	النظام العولمي لوسائل الإعلام التجارية
Techniques de la communication	تقنيات الاتصال
The Empathy	التماهي ـ الرغبة في التماهي ـ التقمص الوجداني
Thécnologies de la communication	تكنولوجيات الاتصال
Tout contextuel	الكل السياقي
Transnational corporate culture	الثقافة العابرة للحدود الوطنيّة
Transparence	الشفافية
Tribalisme	القبلية
Tribut	القبيلة ـ العشيرة
US CENTCOM	الوسطى للجيش الأمريكي القيادة المركزية
Violence physic legetime	العنف المادي المشروع
Virtuel	إفتراضي
Zones sensibles	المناطق الحساسة

المراجـع

١ ـ العربية

كتب

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**. بيروت: منشورات مكتبة لبنان، ١٩٨٥.

برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. **تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٠**. نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٠.

ـــــ . **تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٣: أهداف التنمية للألفية: تعاهد بين الأمم لإنهاء الفاقة البشرية**. نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٣.

ـــــ . **تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤**. رئيسة الفريق ساكيكو فوكودا ـ بار؛ ترجمة غسان غصن. باريس: البرنامج، ٢٠٠٤.

ـــــ . **تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٥: التعاون الدولي على مفترق طرق: المعونة والتجارة والأمن في عالم غير متساوٍ**. نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٥.

ـــــ . **تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٩: التغلب على الحواجز، قابلية التنقل البشري والتنمية**. نيويورك: البرنامج، ٢٠٠٩.

حمادة، بسيوني إبراهيم. **دور وسائل الاتصال في صنع القرارات في الوطن العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٢١)

درويش، محمود. **لماذا تركت الحصان وحيداً؟**. بيروت: منشورات رياض الريّس، ٢٠٠١.

روح الجزيرة (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٦). ط ٢. الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٧.

شينو، كريستيان وجورج مالبرونو. **سنوات صدام**. الترجمة العربية سامان عبد المجيد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧.

شوفنمان، جان بيير. **أنا وحرب الخليج**. ترجمة حياة الحويك وبديع عطية. عمّان: دار الكرمل للنشر، ١٩٩٢.

الطوخي، محمد. **النظام الشرق أوسطي في طوره الجديد: رؤية إسلامية**. القاهرة: مركز يافا للدراسات والأبحاث، ١٩٩٧.

عبد الرحمن، عواطف. **النظرية النقدية في بحوث الاتصال**. دبي: منشورات مؤسسة سلطان بن علي عويس الثقافية، ٢٠٠٤

عزي، عبد الرحمن [وآخرون]. **العرب والإعلام الفضائي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٣٤)

الغذامي، عبد الله. **التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي**. دبي: منشورات مؤسسة سلطان بن علي عويس الثقافية، ٢٠٠٧.

مرمييه، فرانك (مشرف). **الفضاء العربي: الفضائيات والإنترنت والإعلان والنشر**. ترجمة فردريك معتوق. دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣.

مروة، حسين. **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**. بيروت: دار الفارابي، ١٩٨١.

معلوف، أمين. **الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة**. ترجمة نبيل محسن. دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

موريس، ماجدة. **مبدعات تلفزيونيات: جيل السيتينيات**. القاهرة: المجلي الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢.

ولد أشفغ، محمد بابا. **الجزيرة وأسرارها**. الدوحة: منشورات مركز دراسات الجزيرة، ٢٠٠٨.

دوريات

الاستقلال (غزة): ١٩٩٩/١١/١٨.

«إسرائيل تُطالب بعقوبة وقف بثّ المنار.» **الرأي** (عمّان): ٢٠٠٣/١٢/٣١.

«افتتاحية: العار للجزيرة.» **وول ستريت جورنال**: ٢٠٠٣/٦/٥.

«الانتفاضة مختبر المحطات الفضائية.» **القدس العربي** (لندن): تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.

البارودي، فيصل. «ماذا يحدث داخل الجزيرة وما أبعاد قرار تحويلها إلى شركة مساهمة؟.» **دنيا الوطن**: ١ آذار/ مارس ٢٠٠٥.

بن شيخ، عبد القادر. «المرأة العربية ومنزلتها في الفضاء الإذاعي والتلفزيوني.» **مجلة اتحاد الإذاعات العربية**: العدد ١، ٢٠٠٨.

«بيار الضاهر لا يستبعد التقدم لشراء قناة «الجزيرة» إذا طرحت للبيع.» حوار عصام الشيخ. **الشرق الأوسط**: ٢٠٠٥/٢/٢٦.

البيان (دبي): كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥.

«تلفزيون أبو ظبي: «المقابلة مع الصحّاف تقدم مفاجآت وأفلام».» **الرياض**: ٢٠٠٣/٩/١٦.

الحديدي، منى سعيد وسلوى إمام علي. «المرأة ومنزلتها في الفضاء السمعي البصري: التجربة المصرية مثالاً.» **مجلة اتحاد الإذاعات العربية**: العدد ١، ٢٠٠٨.

حسن، محمد قدري. «شاكر حامد، مراسل «قناة أبو ظبي» في بغداد: لم نسع لشريط صدام بل جاءنا إلى المكتب ودفعنا مقابله مبلغاً من المال.» **الشرق الأوسط**: ٢٠٠٣/٤/٢٢.

الحكيم، باسم. «عمرو ناصف: كيف يُمكن أن تكون مُحايداً إزاء إسرائيل.» **الأخبار** (بيروت): ٢٠٠٧/٨/٣.

«حل وسط لحماية بثّ المنار في فرنسا.» **السفير**: ٢٠٠٤/٢/٢.

«حوار مع الوليد بن إبراهيم الوليد.» **الرياض**: ٢٠٠٧/١٢/٢٠.

الخليج (الشارقة): ٢٠٠٨/٩/٢٦.

ديلواني، طارق. «الإعلام الفضائي العربي... حقائق وأرقام!.» **مجلة فوربس** (النسخة العربيّة): ٢٠٠٥/٢/٢٣.

«الراشد للبيان: «لا يمكن للعربية أن تكون محايدة فيما يخص العربيّة السعوديّة».» **البيان** (دبي): ٢٠٠٦/٥/١٥.

الرأي (عمّان): ٢٠٠٠/٥/٣١؛ ٢٠٠٤/١١/٢٢.

«رفيق الحريري: وضع المرئي المسموع في لبنان وضع غير طبيعي.» **الشرق الأوسط**: ٢٠٠٢/٩/٢٥.

زنكنة، هيفاء. «كي لا يتحول مؤتمر البيئة في العراق إلى صابون إعلامي.» **القدس العربي** (لندن): ٢٠١٠/١٠/٢٣.

السعدي، غازي. «البث التلفزيوني بالعبريّة.» **الزمان** (لندن): ٢٠٠٠/١٠/٢٩.

السفير: ٢٠٠١/٦/١٥.

السهيل، تركي. «هل نجحت القاعدة في تحويل وسائل الإعلام العربية إلى منابر تحيي خلاياها؟.» **الرياض**: ٢٠٠٥/٦/١٧.

الشايب، يوسف. «شيرين أبو عاقلة مراسلة الجزيرة في الضفة الغربيّة.» **الحياة** (لندن): ٢٠٠٦/٦/٢٣.

شحاتة، لطفي. «النزاع الحدودي بين العربية السعودية ودول الخليج.» **الرهط الأول** (القاهرة): ١/ ١/ ١٩٩٣.

الشرق الأوسط: ١٣/ ٩/ ٢٠٠١.

«شركات أجنبيّة تستثمر في الاتصالات في العربيّة السعوديّة.» **الشرق الأوسط** (لندن): ٦/ ٣/ ٢٠٠٣.

عبد ربّه، حسن. «تلفزيون أبو ظبي والبحثُ عن الحقيقة.» **مجلة المجالس**: ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.

عبد الحق، حيدر. «إقالة البلوشي.» **الشرق الأوسط**: ١٠/ ١١/ ٢٠٠٤.

العبسي، أمجد. «أسرار قناة العربيّة.» **السبيل** (عمّان): ٢٥/ ١/ ٢٠٠٥.

«العربية تعتذر رسمياً.» **الرياض**: ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٧.

«العربيّة تُقدّم اعتذارها عن الأخبار المُتعلّقة بمعاشات السعوديّين.» **الرياض**: ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٧.

العزّوني، أسعد. «إنه يؤكّد مصداقيّتها... الجزيرة القناة الأكثر مشاهدة.» **الرأي** (عمّان): ٦/ ٧/ ٢٠٠٣.

عطية، حياة الحويك. «الأصوات المقموعة في المعارضة السورية.» **العرب اليوم** (عمّان): ٣/ ٥/ ٢٠١٢.

ـــــ. «العلويون إلى أوروبا.» **العرب اليوم**: ٥/ ٣/ ٢٠١٢.

فضل الله، حسن. «سنعتمد على مصادر أخبارنا كأساسٍ للمصداقيّة والمنافسة.» **الأنوار** (بيروت): ١٧ آذار/ مارس ٢٠٠٣.

قاسم، عبد العزيز محمد. «الراشد وصف السياسة القطرية بـ «حالة الشيزوفرينيا» والازدواجية، مدير «العربية»: هناك دعاية ضدنا هدفها اغتيال الشخصية.» **المدينة**: ٣/ ١١/ ٢٠٠٦.

قانصوه، وفيق. «المُنافسة بين التلفزيونات العربيّة.» **الحياة**: ١٢/ ١٠/ ٢٠٠١.

القدس العربي: ١٨/ ١١/ ٢٠٠٦.

قزّي، أنطوان. «أزمة سياسيّة بحت.» **التلغراف**: ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٣.

كريّم، نايف. «من قناة المقاومة إلى قناة الانتفاضة.» **المستقبل** (بيروت): ٦/ ١٠/ ٢٠٠٠.

ـــــ. «المنار: قصّة النشوء والتطور.» **السفير** (بيروت): ١٥/ ١٠/ ٢٠٠١.

ليبيراسيون: ١٧/ ٣/ ٢٠٠٥.

مجلّة اتحاد الإذاعات العربية: العدد ١، ٢٠٠٨؛ العدد ٢، ٢٠٠٨؛ العدد ٢، ٢٠٠٩.

مجلة **الوطن العربي**: ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧.

المحمودي، صباح. «موقع الإعلامية العربية في الفضاء السمعي البصري بين محكي المهنية والعقلية المجتمعية.» **مجلّة اتحاد الإذاعات العربية**: العدد ١، ٢٠٠٨.

«مدير العربيّة في واشنطن.» **الشرق الأوسط** (لندن): ١٧/ ٩/ ٢٠٠٦.

المشيخي، محمد عوض. «العربيّة في خدمةِ أيّةِ سياسة؟.» **مجلة مركز بحوث الرأي العام** (جامعة القاهرة): ٢٠٠٠.

المُعيني، فضيلة. «جابر افتقدناك.» **البيان** (دبي): تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤.

«من قناة التحرير إلى قناة الانتفاضة.» **المستقبل** (بيروت): ٦/ ١٠/ ٢٠٠٠.

«المنار والحملة الإسرائيليّة في أوروبا.» **اللواء** (عمّان): ٦/ ٢/ ٢٠٠٤.

«ناصر أخضر نائب مدير قناة المنار: لا نخضع لحزب الله ولا أحد يسيطر علينا.» **الشرق الأوسط**: ٥/ ٨/ ٢٠٠٣.

«نحن لسنا تابعين لحزب الله، لا أحد يُسيطرُ علينا.» حوار مع ناصر أخضر. **الشرق الأوسط**: ٥/ ٨/ ٢٠٠٣.

ياغي، زينب. «المنار وتغطية الحرب.» **السفير**: ٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

«يأمر بإلغاء حلقة «إضاءات».» **الرياض**: ٦/ ٤/ ٢٠٠٧.

يديعوت أحرونوت: ٢٥/ ٤/ ١٩٩٦.

رسائل جامعية وأطروحات

عبد الغني، أحمد أمين سعيد. «دور القنوات الفضائية العربية في نشر الثقافة العربية: دراسة تحليلية وميدانية.» (أطروحة دكتوراه في الآداب، جامعة الزقازيق، قسم الإعلام ـ الإذاعة والتلفزيون، المنصورة، ١٩٩٨).

الغربي، سعود بن فالح. «مدى اعتماد أساتذة الجامعات السعودية على وسائل الإعلام أثناء الأزمات.» (رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٣).

عيسى، رغدة محمد. «العوامل المؤثرة على القيادات الإعلامية النسائية باتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري وانعكاساتها على التخطيط الإعلامي.» (رسالة ماجستير في قسم الإذاعة والتليفزيون، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، ٢٠٠٥).

تقارير ومواقع إلكترونية

«أباطرة وسائل الإعلام العربية.» إسلام أون لاين (٢٠٠٥)، <http://www.islamonline.net/arabic/arts/2005/02/article07B.shtml>.

الحاج، عبد الكريم. «الفضائيات العربية بين المهنية والوازع القومي.» <http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/20-09-2002/a43.htm>.

الحارثي، وليد. «الغماس يمتلك الحصة الأكبر لقنوات المجد.» الإسلام اليوم (١١ أيار/ مايو ٢٠٠٩)، <http://islamtoday.net/albasheer/artshow-12-112592.htm>.

الحروب، خالد. «الفضائيّات العربيّة والعولمة في الشرق الأوسط.» <http://www.aljazeera.net/books/2002/12/12>.

حقّي، طارق شفيق. «تقرير عن قناة العربية والـ «إم بي سي».» (٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦)، <http://merbad.net/vb/showthread.php/2062>.

الريفي، محمد اسحق. «حقائق خطيرة عن قناة العربية وشبكة إم بي سي... هام وسري.» <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?32969>.

الشريان، داوود. «هل يعيش شيعة العربية السعودية حصاراً إعلامياً؟.» الجزيرة. نت، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤، <http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a3bb96af-9bd2-41a3-bdde-fa3f8b4f24f4>.

شعبان، بثينة. «مصطلحات الخطاب الإعلامي ودورها في القضايا العربية الحالية.» <http://www.bouthainashaaban.com/SYRI%20ABB.%20AND%20ARAB%20RIGHTS.htm>.

«العربيّة في العراق: الدم والمتاعب ثمن الحقيقة.» العربيّة. نت (١٩ آذار/ مارس ٢٠٠٤)، <http://www.alarabiya.net/articles/2004/03/19/956.html>.

العزّي، محمد. «فضيحة قناة «العربية».» (١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦)، <http://forums.naseej.com/showthread.php?t=87190>.

غانم، أحمد. «الأمراء العملاء... كيف تتلاعب أجهزة المخابرات العالمية بالتنظيمات الإرهابية؟.» <http://www.paldf.net/forum/showthread.php?t= 543809>.

غرايبة، إبراهيم. «الفضائيات العربية.. الواجب والممكن.» الجزيرة. نت: ٢٤ آب/ أغسطس ٢٠٠٣.

قاسم، جمال زكريا. «التطور السياسي والاقتصادي في دولة قطر: من الاستقلال إلى وصول الشيخ حمد بن خليفة إلى الحكم، ١٩٧١ ـ ١٩٩٥.» <http://www.attarikhalarabi.ma/Html/Adad44partie8.htm>.

القمة العالمية لمجتمع المعلومات: <http://www.itu.int/wsis/indexar.html>.

مجاهد، محمد. «التقرير الأمريكي.» المجموعة الذكية (١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦)، <http://sabraeng.com/vb/showthread.php?t=4489>.

«المشهد العراقي: الواقع التعليمي والتربوي في العراق.» الجزيرة. نت، ٦/ ١٠/ ٢٠٠٩، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5F53320F-9973-42F3-BFE5-568689B7E122.htm>.

«نبذة عن بي بي سي العربية.» <http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/about_us/newsid_7257000/7257604.stm>.

٢ ـ الأجنبية

Books

Abdul Majid, Saman. *Les Années Saddam: Révélations exclusives*. Avec la collab. de Christian Chesnot et de Georges Malbrunot. Paris: Fayard, 2003.

Atallah, Paul. *Théories de la communication: Histoire, contexte, pouvoir*. Québec: Presse Universitaire du Québec, 1989.

Baker, Raymond W. Shereem T. Ismael and Tareq Y. Ismael (eds.). *Cultural Cleansing in Iraq: Why Museums Were Looted, Libraries Burned and Academics Murdered*. London: Pluto Press, 2010.

Balle, Francis. *Médias et societies*. 11ème éd. Paris: Montchrestien, 2003.

Barrat, Jacques. *Géographie économique des medias: Diversité des tiers-mondes*. Paris: Librairie de la Cour de cassation, 1992. (Litec économie)

Benasayag, Miguel et Diego Sztulwark. *Du contre-pouvoir*. Préf. inédite de Miguel Benasayag; trad. de l'espagnol par Anne Weinfeld. Paris: La Découverte, 2002

Bourges, Hervé. *Décoloniser l'information*. Paris: Editions CANA, 1978.

Canetti, Elias. *Masse et puissance*. Trad. de l'allemand par Robert Rovini. Paris: Gallimard, 1986.

Chérif, Mustapha. *L'Islam, tolérant ou intolérant?*. Préface de Jean-Luc Nancy. Paris: O. Jacob, impr. 2006.

Chevènement, Jean-Pierre. *Une certaine idée de la République m'amène à...* Paris: Albin Michel, 1992.

Chomsky, Noam. *L'idéologie et l'économie*. [n. p.]: Ed. EPO, [n. d.].

Corm, Georges. *Le Proche-Orient éclaté*. Paris: Gallimard, 1991. (Folio. Histoire; 30)

Courbet, Didier et Marie-Pierre Fourquet (dirs.). *La Télévision et ses influences*. [Paris]: INA; Bruxelles: De Boeck, 2003.

Dazi-Héni, Fatiha. *Monarchies et sociétés d'Arabie: Le Temps des confrontations*. Préface de Gilles Kepel; postface du Ghanim al-Najjar. Paris: Les Presses de Sciences Po., 2006. (Collection académique)

La Démocratie aux États-Unis d'Amérique et en Europe: Allemagne puis RFA, Espagne, France, Italie, Royaume-Uni, 1918-1989. Sous la dir. de Jean-Paul Bled [et al.]. [Poitiers]: CNED; [Paris]: SEDES, 1999. (CNED-SEDES concours: CAPES-Agrégation d'histoire et de géographie)

Ferguson, Niall. *Colossus: The Rise and Fall of the American Empire*. New York: Penguin Books; London: Allen Lane, 2005.

Garaudy, Roger. *Les États-Unis avant-garde de la decadence: Le Nouveau désordre international, comment préparer le XXI^{ème} siècle*. Beyrouth: Al Fihrist, 1998.

Gerges, Fawaz A. *The Far Enemy: Why Jihad Went Global?*. Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 2005.

La Gorce, Paul-Marie de. *Le Dernier empire: Le XXI^{ème} siècle sera-t-il américain?*. Paris: B. Grasset, 1996.

Hafez, Kai (ed.). *Mass Media, Politics, and Society in the Middle East*. Cresskill, NJ: Hampton Press, 2001. (Hampton Press Communication Series. Political Communication)

Halimi, Serge. *Les Nouveaux chiens de garde*. Paris: Liber-Raisons d'agir, 2003.

Huntington, Samuel P. *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity*. New York: Simon and Shuster, 2004.

Jaber, Hala. *Hezbollah: Born with a Vengeance*. New York: Columbia University Press, 1997.

Jeanneney, Jean-Noël. *Une histoire des médias: Des origines à nos jours*. Nouv. éd. rev. et complete. Paris: Ed. du Seuil, 2001. (Points. Histoire; 252)

Lamloum, Olfa (dir.). *Irak, les médias en guerre*. Préf. d'Alain Gresh. [Arles]: Sindbad-Actes Sud; Paris: Institut Panos, 2003.

Laurens, Henry. *Paix et guerre au Moyen-Orient: L'Orient arabe et le monde de 1945 à nos jours*. Paris: A. Colin, 2004.

Lerner, Daniel. *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East*. With the Collaboration of Lucille W. Pevsner, and an introd. by David Riesman. Glencoe, IL: Free Press, 1958.

Mattelart, Armand et Michèle Mattelart. *Histoire des théories de la communication*. 3^{ème} éd. Paris: La Découverte, 2004. (Repères; 174)

Mattelart, Tristan (dir.). *La Mondialisation des médias contre la censure: Tiers monde et audiovisuel sans frontières*. [Bry-sur-Marne]: INA; Bruxelles: De Boeck, cop. 2002.

McLuhan, Marshall. *Pour comprendre les médias: Les Prolongements technologiques de l'homme*. Paris: Seuil, 1977.

Médias, développement et éradication de la pauvreté. Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (Unesco), 2007.

Morley, David and Kevin Robins. *Spaces of Identity: Global Media, Electronic Landscapes, and Cultural Boundaries*. London; New York: Routledge, 1995.

Moscovici, Serge. *L'ôge des foules: Un traité historique de psychologie des masses*. Paris: Fayard, 1981.

Mostefaoui, Belkacem. *La Télévision française au Maghreb: Structures, stratégies et enjeux*. Paris: Ed. L'Harmattan, 1995. (Histoire et perspectives méditerranéennes)

Naba, René. *Aux origines de la tragédie arabe*. Paris: Ed. Bachari, 2006. (Orient et vous)

Negrine, Ralph M. and Stylianos Papathanassopoulos. *The Internationalization of Television*. London: Pinter, 1990

Netanyahou, Benyamin. *Paix et sécurité: Pour en finir avec le terrorisme*. Trad. de l'américain par Anne Sauvêtre. [Paris]: L'Archipel, 1996.

Olivesi, Stéphane (dir.). *Introduction à la recherche en SIC*. Grenoble: Presses universitaires de Grenoble, 2007.

L'Organisation des Nations Unies, pour l'éducation, la science et la culture [UNESCO]. *Rapport mondial de suivie de sur l'éducation pour tous: Le Monde est-il sur la bonne voie?*. Paris: UNESCO, 2002.

Pailliart, Isabelle. *Les Territoires de la communication*. Grenoble: Presses universitaires de Grenoble, 1993.

Piajet, Jean. *Où va l'éducation? Comprendre, c'est inventer*. Paris: UNESCO, 1948.

Planhol, Xavier de. *Les Nations du Prophète: Manuel géographique de politique musulmane*. Paris: Fayard, 1993.

Reporters sans frontiers. *Le Rapport annuel, 2003*. [s. l.]: Reporters sans frontiers, 2003.

Rousseau, Jean-Jacques. *Du Contrat social*. Paris: Union générale d'éditions, [n. d.].

Rufin, Jean-Christophe. *L'Empire et les nouveaux barbares*. Paris: J. C. Lattès, 1991.

Salinger, Pierre et Eric Laurent. *Guerre du Golfe: Le Dossier secret*. Paris: Olivier Oran, 2004.

Schiller, Herbert I. *Culture, Inc.: The Corporate Takeover of Public Expression*. Oxford: Oxford University Press, 1989.

______. *Mass Communications and American Empire*. 2nd ed., updated. Boulder, CO: Westview Press, 1992. (Critical Studies in Communication and in the Cultural Industries)

Sinclair, John, Elizabeth Jacka and Stuart Cunningham (eds.). *New Patterns in Global Television: Peripheral Vision*. Oxford: Oxford University Press, 1996.

Steinbruner, John D. (ed.). *Restructuring American Foreign Policy*. Washington, DC: Brookings Institution, 1989.

United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization [UNESCO]. *Education under Attack 2010*. Paris: UNESCO, 2010.

Urbahn, Keith M. *Reporting the Truth: Media Perceptions, Preferences, and Practices among Young UAE Nationals*. Abu Dhabi, United Arab Emirates, 2004.

Weisenborn, Ray E. (ed.). *Media in the Midst of War: The Gulf War from Cairo to the Global Village*. Cairo: Adham Center Press, 1992.

Wolton, Dominique. *Penser la communication*. Paris: Flammarion, 1997.

Periodicals

Affaire Internationales: no. 256, 28 novembre 1994.

Alterman, Jon B. «The Effects of Satellite Television on Arab Domestic Politics.» *TBS Journal*: no. 9, Fall-Winter 2002.

_____ . «Transnational Media and Social Change in the Arab World.» *TBS Archives*: no. 2, Spring 1999.

Amourag, Aissa. «La Chaîne de télévision Abu Dhabi se débat dans une crise financière, Vaste opération de licenciements.» *Maroc Hebdo International*: 23 janvier 2004.

Boulos, Jean-Claude. «La Télé: Quelle histoire.» *Revue Ninar*: 2001.

«Ces incendies que la guerre de bush va allumer.» *Marianne* (Paris): no. 18, février 2003.

Chicago Tribune: 13/4/2000.

Christian Science Monitor: 28/12/2001.

Dajani, Nabil H. «The Changing Scene of Lebanese Television.» *TBS Journal*: no. 7, Fall-Winter 2001.

Dargouth, Medimegh Aziza et Nadia Khouri-Dagher. «Pourquoi, en Tunisie, la rue a soutenu Bagdad.» *Le Monde diplomatique*: mars 1991.

«Des américains très présents.» *Le Monde*: 15/3/2003.

«Les Emissions d'Al Manar censurées en France.» (forum), *Le Monde*: 18/2/2004.

Fleihan, Khalil. «Le Mouvement sioniste en colère.» *L'Orient le jour*: 31/10/2003.

Fralon, José Alain. «Les Défis de la télévision du Hezbollah libanais.» *Le Monde*: 20/10/2000.

Ghareeb, Edmond. «New Media and the Information Revolution in the Arab World, and Assessment.» *Middle East Journal*: vol. 54, no. 3, 2000.

Gresh, Alain. «Ce que la chaîne Al Jazeera a vraiment changé?.» *Le Monde diplomatique*: novembre 2006.

_____ . «Les Grands écarts de l'Arabie saoudite.» *Le Monde diplomatique*: juillet 2003.

Haddad, Scarlett. «La Guerre des télévisions arabes.» *L'Express*: 13/3/2003.

Hakem, Tawfic. «La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazira.» *Le Monde*: 14/3/2003.

Hirst, David. «Aljazeera, une chaîne libre au Proche Orient, la télévision arabe qui dérange.» *Le Monde diplomatique*: août 2000.

Khoury, Rami. «The New Arab Media.» *Jordan Times*: January 2003.

Lamloum, Olfa. «Al-Manâr, pilier du dispositif communicationnel du Hezbollah.» *Confluences Méditerranée*: no. 69, avril 2009.

_____ . «Médiatisation de la guerre en Irak.» *L'Humanité*: 24 novembre 2003.

Mattelart, Armand. «Jeter les bases d'une information éthique.» *Le Monde diplomatique*: no. 597, décembre 2003.

«The Media Environment in Saudi Arabia, Public Access and Choice.» *CMF MENA* (Center for Media Freedom-Middle East and North Africa): April 1998.

Le Monde: 6/10/2000; 15/1/2007.

Mostefaoui, Belkacem. «La Télévision des autres: La Réception de TV5 et France 2 à Casablanca et Tunis.» *Réseaux*: vol. 14, no. 78, 1996.

«La Nouvelle télévision arabe Al-Arabiya part à l'assaut d'Al-Jazeera.» *Le Monde*: 14/3/2003.

«Quand les GI sacrifient Abraham à Khaldée.» *Le Point* (Paris): 20/12/2004.

Ramonet, Ignacio. «Les Nouveaux maitres du monde.» *Le Monde diplomatique*: janvier 2001.

_____ . «Les Vrais maitres du monde.» *Le Monde diplomatique*: octobre 2003.

Sakr, Naomi. «Arab Satellite Channels between State and Private Ownership: Current and Future Implications.» *TBS Archives*: no. 9, Fall-Winter 2002.

_____ . «Contested Blueprints for Egypt's Satellite Channels: Regrouping the Options by Redefining the Debate.» *International Communication Gazette* (London): vol. 63, nos. 2-3, May 2001.

Schleifer, S. Abdallah. «A Dialogue with Mohammed Jasim Al-Ali Managing Director, Al-Jazeera.» *TBS Journal*: no. 5, Fall-Winter 2000.

_____ . «Ian Ritchie, CEO, MBC (Middle East Broadcasting Centre).» *TBS Archive*: no. 1, Fall 1998.

_____ . «Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters.» *TBS Journal*: no.1, Fall 1998.

_____ and Sarah Sullivan. «Al-Jazeera: Interview withSheikh Hamad bin Thamer Al Thani.» *TBS Journal*: no. 7, Fall-Winter 2001.

Shahid, Antony et Peter Baker. «Télévision: Al Jazira dans la ligne de mire des télés arabes.» *Le Courrier international*: 13 mars 2003.

Shapiro, Samantha M. «The War Inside the Arab News Room.» *New York Times*: 2/1/2005.

Shehab, Sophie. «Qui se cache derrière Al Jazeera?.» *Le Monde*: 6/11/2001.

Sullivan, Sarah. «An Interview with Mohamed Dourrachad, Deputy Director, Abu Dhabi Television.» *TBS Journal* :no. 8, Spring-Summer 2002.

Silva, Marina de. «L'Espoir vacillant au sud Liban après la Libération.» *Le Monde diplomatique:* janvier 2002.

Wall Street Journal: 2/12/2002, and 4/12/2002.

Worth, Robert F. «A Voice of Moderation Helps Transform Arab Media.» *New York Times*: 4/1/2008.

Theses

Nguyen, Thi Quy Phuong. «Pouvoir anti-pouvoir, contre-pouvoir et internet au Vietnam.» (Thése de doctorat en sciences de l'information et de la communication, Paris II, 2010).

El Zein, Derek. «Le Paysage médiatique libanais.» (Thèse de doctorat à l'université Paris, 2006).

Conferences

Conférence donnée au sein des Nations Unis à Genève 5 Octobre 2010.

The Fourth International Radio and Television Festival, Cairo, July 1998.

Mémoire de DEA, Aix en Provence et Beyrouth, suite à la libération du 25 Mai 2000.

Reports and Websites

Auzanneau, Matthieu. «Chiffre du jour/Moyent Orient/médias, première place pour Al Jazeera qui arrive en tête des recherches via Lycos.» Transfert.net (4 avril 2003), < http://www.transfert.net/1ere-place-pour-Al-Jazeera >.

The Begin - Sadate Center for Strategic Studies, < http://www.biu.ac.il/Besa/researchers.html >.

Boniface, Pascal. «La Chaîne de télévision AL-HURRA: Un Média sous influence.» < http://www.iris-france.org/analyse/forum/tv_15_01_2004.pdf >.

«Category: Propaganda,» < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = Category:-Propaganda >.

«Les Chaînes de télévision au liban.» < http://www.rdl.com.lb/2000/3748/enquete.html >.

Cochrane, Paul. «Al-Waleed Bin Talal et Rupert Murdoch.» < http://twitemail.com/email/18638108/24 >.

Colmant, Marie. «La Crédibilité des journalists une nouvelles fois mise à l'épreuve, les médias sur le fil.» < http://www.lazanganeh.com/images/pdfs/.../les_media_sur_le_-fil.pdf >.

«Combined Press Information Center.» Source Watch, < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = Combined_Press_Information_Center >.

«Des journalistes arabes évoquent leur travail en Irak.» < http://www.reveiltunisien.org/spip.php?article560 >.

Ennassiri, Nabil. «Géopolitique du Qatar, la construction d'une image flatteuse.» 26 novembre 2008, < http://www.omma.com >.

Gathié, Nathalie. «*La Télé arabophone américaine creuse le fosse.*» < http://www.bladi.-net/forum/18229-tele-arabophone-americaine-creuse-fosse >.

«Al Horra.» < http://www.wikipedia.org >.

Moussallem, Anis. «La Radio et la télévision au Liban.» < http://www.opusliba-ni.org.lb/liban/dos0026.htm >.

«Satellite TV 2007 in the Arab World.» Arab Advisor Group, < http://www.babnet.net/rttdetail-11804.asp >.

Young, Michael. «Republics of Fearlessness?: On Conjugating Liberalism in Syria and Lebanon: An Interview with Journalist and Author Samir Kassir.» Reason.com (8 June 2004), < http://reason.com/archives/2004/06/08/republics-of-fearlessness >.



يعد هذا الكتاب عملاً بحثياً من طراز رفيع، يتميز بوضوح الرؤية وشمولها، لكنه لا يغفل أدق التفاصيل التي تحرص الباحثة على تحليلها بصبر وأناة، مستعينة، بكم هائل من الوثائق التي تضفي على التحليل أقصى درجات المصداقية. كتاب لا نظير له في المكتبة العربية.

د. حسن نافعة، أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة.

هذا العمل الكبير هو الأول من نوعه من حيث تناوله لظاهرة الفضائيات الإخبارية في مجمل العالم العربي، في إطار بحث مقارن. يتميز بالصرامة العلمية في أدوات البحث ومنهجياته، في اتساع المشهد وتفاصيله، عمق التحليل وأصالته وغنى غير عادي بالمراجع بكل أنواعها. مما ينتج عنه عمل تحليلي غير مسبوق.

بروفسور جاك بارا
أستاذ جيوبوليتيك الميديا في جامعة باريس الثانية، بانتيون ـ أساس

عمل كبير غير مسبوق في مجاله يعبر عن كفاءة نادرة في البحث والتحليل ضمن إطار فكري واضح. ويتضمن غنى نادراً بالمراجع والمصادر في إطار بالغ التعقيد والدقة.

بروفسور فيليب بولانجيه
أستاذ العلوم السياسية في جامعة سيرجي بونتواز

باحثة تجمع خبرة الصحافي، وقدرات الباحث، وتستند إلى كم هائل من المراجع الأصيلة لترسم خارطة دقيقة وتناقش أموراً بالغة التعقيد والعمق، وصولاً إلى بلورة رؤى وأطروحات ونظريات جديدة مسندة وأصيلة تبني للإجابة عن سؤال موقع الميديا، وتحديداً الفضائيات العربية في إشكالية التغيير.

بروفسور جان بول بليد
أستاذ كرسي التاريخ المعاصر في جامعة السوربون، باريس الرابعة

ميزة العمل الشمولية في الرؤية الفكرية والسياسية والإعلامية الممتدة من العالمي إلى الإقليمي إلى المحلي، والتقاط أدق التفاصيل، وكل ذلك لخدمة المقارنة والتحليل والخروج بنتائج ديكارتية.

بروفسور برنار فالاد
أستاذ كرسي علم الاجتماع في جامعة باريس - ديكارت - سوربون

تفصل الباحثة العناصر الاجتماعية، الثقافية، الدينية، الإثنية، الاقتصادية، التاريخية، السياسية والديموغرافية التي تشترك في تكوين الجغرافيا ـ الاستراتيجية التي حدت بـ «أولى الأمر» أن يطلقوا الفضائيات موضوع هذا البحث الذي يعتبر الأول من نوعه لشموليته، تكامل عناصره وطابعه العلمي الدقيق. إنه في نظري كتاب الاكتشافات الكبرى التي بواسطتها يتعرف العربّي كما الأجنبي على حقائق تحمل تفسيراً للكثير من المتغيرات في العالم العربي وعلى المدى الإسلامي، حاضراً ومستقبلاً، ودور الفضائيات في التحضير لها.

حسن حمادة، المجلس الأعلى للاعلام ـ لبنان

د. حياة الحويِّك، لبنانية، كاتبة وباحثة وأكاديمية ومترجمة وإعلامية. حاصلة على الدكتوراه في علوم الاتصال الجماهيري والإعلام وشهادة دبلوم الدراسات المعمقة في الميديا والملتيميديا من جامعة باريس الثانية ـ بانتيون ـ أساس. أصدرت خمسة كتب، وترجمت ٢٢ كتاباً، ونشر لها ٤٥ بحثاً محكماً في أعمال مشتركة صادرة عن مؤسسات عربية وعالمية كالأكاديمية الديبلوماسية في فيينا وجامعة السوربون ومؤسسة اليورو ميد في برشلونة ومؤسسة مواطن.

JOURNALISME -
SCIENCES HUMAINES
A. Antoine.
الفضائيات الاخبارية العربية بين عولمتين
DEPARTEMENT LIVRES ARABI
9 786144 280454
39000 L.L. TTC

منتــدى المعــارف
بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: 7494 ـ 113 حمرا ـ بيروت 2030 1103 ـ لبنان
بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb